التفسير الموضوعي

لسور القرآن الكريم

إعداد
نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن

بإشراف
أ.د مصطفى مسلم
جامعة الشارقة

المجلد الثالث
الأعراف - الرعد

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

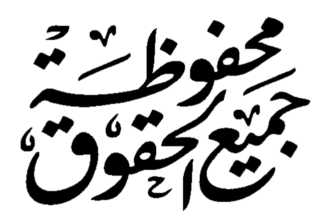


كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة



الإصدار رقم 

كلية الدراسات العليا والبحث العلمي
هاتف: (٥٠٥٠٥٥٠-٦-٩٧١ +) ،فاكس: (٥٠٥٠٥٥٥-٦-٩٧١+)
E-mail: pb@sharjah.ac.ae



الطبعة الأولى
١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م



جامعة الشارقة

ص ب: (٢٧٢٧٢)، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: (٥٥٨٥٠٠٠-٦-٩٧١+) فاكس: (٥٥٨٥٠٩٩-٦-٩٧١+)
Web site: http://www.sharjah.ac.ae



اللجنة التنفيذية للمشروع

أ.د. مصطفى مسلم	رئيساً
أ.د. عيادة الكبيسي	عضواً
أ.د. أحمد البدوي	عضواً
أ.د. عبد الله الخطيب	عضواً
د. محمد عصام القضاة	عضواً
د. قاسم أسعد	عضواً
د. عواد الخلف	عضواً


Tafsir Center for Qur'anic Studies

الباحثون الذين اشتركوا في المشروع

أ. د. مصطفى مسلم محمد
أ. د. عيادة أيوب الكبيسي
أ. د. أحمد محمد الشرقاوي
أ. د. ناصر سليمان العمر
أ. د. أحمد عباس البدوي
أ. د. محمد أحمد عيد الكردي
أ. د. مساعد مسلم آل جعفر
أ. د. شحادة احميدي العمري
أ. د. عبد الله عبد الرحمن الخطيب
د. أبو بكر علي الصديق
د. أحمد شحروري
د. أحمد محمد نور إبراهيم
د. أحمد محمد مفلح القضاة
د. جمال أبو حسان
د. طه ياسين ناصر الخطيب
د. عبد الحق عبد الدائم القاضي
د. عبد الرحيم الزقة
د. عبد الله محمد سلقيني
د. عدنان عبد الرزاق الحموي
د. عرفات محمد محمد أحمد عثمان
د. عطية محمد عطية
د. عفاف عبد الغفور حميد
د. محمد السيد محمد يوسف
د. محمد عبد اللطيف رجب عبد العاطي
د. محمد عبد الرحمن الشايع
د. محمد عصام القضاة
د. محمد عيادة الكبيسي
د. نايل ممدوح أبو زيد
د. نشأت محمود الكوجك
د. هارون نوح علي سليمان
د. يوسف الشامسي




بسم الله الرحمن الرحيم


مركز تفسير للدراسات القرآنية
تفسير
Tafsir Center for Qur'anic Studies

سورة الأعراف

بين يدي سورة الأعراف

تسميتها

تسمى هذه السورة سورة الأعراف، لورود قصة الرجال الذين يكونون على الأعراف يوم القيامة، والأعراف جمع عرف وهو: المكان المرتفع المشرف، أو السور المضروب بين الجنة والنار.

كما تسمى طولى الطوليين، قال السمعاني: «وقد روي أن النبي قرأ في المغرب بطولى الطوليين يعني سورة الأعراف، وإنما سُميت بذلك لأن أطول السور التي نزلت بمكة سورة الأنعام وسورة الأعراف، والأعراف أطولهما».

وروى البخاري بسنده عن مروان بن الحكم قال: قال لي زيد بن ثابت: "ما لَكَ تقرأ في المغرب بقصار وقد سمعت النبي ﷺ يقرأ بطولى الطوليين؟"[1]

وقد بينت رواية النسائي أن المقصود بطولى الطوليين: سورة الأعراف، فروى بسنده عن أبي الأسود أنه سمع عروة بن الزبير يحدث عن زيد بن ثابت أنه قال لمروان: «أبا عبد الملك أتقرأ في المغرب بقل هو الله أحد وإنا أعطيناك الكوثر؟ قال: نعم. قال: فمحلوفة لقد رأيت رسول الله ﷺ يقرأ فيها بأطول الطوليين؛ ألمص». [2] وذكر الفيروزأبادي في بصائر ذوي التمييز أن هذه السورة تسمى (سورة الميقات) لاشتمالها على ذكر ميقات موسى في قوله: «ولما جاء موسى لميقاتنا». وأنها تسمى (سورة الميثاق) لاشتمالها على حديث الميثاق في قوله: «ألستُ بربكم قالوا بلى».

---

(١) صحيح البخاري١/ ٢٦٥، رقم الحديث: ٧٣٠.

(٢) سنن النسائي الكبرى ١/ ٣٣٩، رقم الحديث: ١٠٦١.

عدد آياتها

عدد آيات سورة الأعراف مئتان وست آيات في العدد الكوفي والحجازي، ومئتان وخمس آيات عند بقية علماء العدد، وقد وقع اختلاف علماء العدد في خمسة مواضع هي:

﴿ الٓمٓصٓ ﴾[١] عدها الكوفيون.

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [٢٩] عدها الكوفيون.

﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [٢٩] عدها البصريون والشاميون.

﴿ ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ [٣٨] عدها الحجازيون.

﴿ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [١٣٧] عدها الحجازيون.[١]

المرحلة التي نزلت فيها

نزلت سورة الأعراف بعد نزول سورة (ص)[٢]

أسباب نزولها

سيأتي ذكر أسباب النزول في مواضعها من الآيات.

المناسبة بينها وبين سورة الأنعام

إن موضوع سورة الأنعام هو العقيدة. وموضوع سورة الأعراف هو العقيدة.. ولكن سورة الأنعام تعالج العقيدة في ذاتها؛ وتعرض موضوع العقيدة وحقيقتها؛ وتواجه الجاهلية

---

(١) انظر: التلخيص في القراءات الثمان، أبو معشر الطبري(عبد الكريم بن عبد الصمد ت٤٧٨هـ) ص٢٦٥، ط١ سنة ١٤١٢هـ =١٩٩٢م، تحقيق: محمد حسن عقيل موسى. [الجماعة الخيرية لتحفيظ القرآن الكريم – جدة].

(٢) انظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي ت٥٣٨هـ) ٢/ ٨٢، دار إحياء التراث العربي – بيروت، تحقيق: عبد الرزاق المهدي.

العربيـة في حينهـا - وكل جاهليـة أخرى كذلـك - مواجهة صاحب الحق الـذي يصدع بالحق وتستصحب معها في هذه المواجهة تلك المؤثرات العميقة العنيفة الكثيرة، أما سورة الأعراف - وهـي تعالج موضوع العقيدة كذلك - فإنها تأخذ طريقاً آخر، وتعرض موضوعها في مجال آخر هو مجال التاريخ البشري، ورحلة البشرية كلها مبتدئة بالجنة والملأ الأعلى، وعائدة إلى النقطة التي انطلقـت منهـا.. وفي هذا المدى المتطاول تعرض «موكب الإيمان»«مـن لدن آدم إلى محمد عليهما الصلاة والسـلام، تعرض هذا الموكب الكريم يحمل هذه العقيدة ويمضي بها على مدار التاريخ. يواجـه بهـا البشرية جيلاً بعـد جيل، وقبيلاً بعد قبيل.. ويرسـم سياقُ السـورة في تتابعه: كيف اسـتقبلت البشرية هذا الموكب وما معه من الهـدى ؟ كيف خاطبها هذا الموكب وكيف جاوبته؟ كيف وقف الملأ منها لهذا الموكب بالمرصاد وكيف تخطى هذا الموكبُ أرصادها ومضى في طريقه إلى الله ؟ وكيف كانت عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة..»[1].

المناسبة بين مطلع سورة الأعراف وخاتمة سورة الأنعام:

جـاء في ختام سـورة الأنعام الحديـث عن الصراط المسـتقيم الذي يمثـل الدين الخالص والمنهج الصافي الذي لا يُقبل عند الله سواه؛ إنه ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. وجاء في أول سـورة الأعراف الأمر باتباع الدين الحق، والتحذير من الشرك واتخاذ الأولياء من دون الله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ .. ﴾.

وفي أواخـر سـورة الأنعـام جاء الحديـث عن المعاد والمصـير إلى الله تعـالى: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾، وفي أول سـورة الأعـراف بيـان لمـا يتم في ذلك اليوم من سـؤال للعبـاد، وإنبائهم بما كان منهـم، ووزن لأعمالهـم: ﴿ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ .. ﴾.

وفي أواخر سـورة الأنعام بيان أن الله سبحانه استخلف الناس في هذه الأرض، وجعلهم

(١) انظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٢٤٤، ط١١ دار الشروق، سنة ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

أمما تتلاحق ويخلف بعضها بعضاً: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ ﴾، وفي أوائل سورة الأعراف حديث عن الأرض وخلق آدم وتصويره وإسكانه - هو وزوجه - الجنة، ثم الهبوط إلى الأرض للعيش فيها.

المناسبة بين افتتاحيتها وخاتمتها

افتتحت السورة الكريمة ببيان إنزال هذا القرآن إلى الرسول ﷺ، ودعوته إلى الإنذار به وتبليغه وتذكير المؤمنين به ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ واختتمت السورة بالدعوة إلى الاستماع لهذا القرآن والإنصات لتلاوته، والأمر بذكر الله، والتحذير من الغفلة ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾.

محور سورة الأعراف والمناسبة بينه وبين مقاطع السورة

المحور الذي تدور حوله سورة الأعراف هو عقيدة التوحيد عبر رحلة البشرية منذ وجودها الأول ومسيرها الطويل، إلى نهاية عودتها ورجوعها إلى الدار الآخرة، فقد خلق الله تعالى آدم وزوجه وأسكنهما الجنة، وحذرهما من عدوهما الشيطان، ومن كيده ووسوسته، ثم بين كيف وسوس لهما الشيطان حتى أخرجهما من الجنة، فأُهبطا إلى الأرض، وبدأت رحلة البشرية على الأرض التي خلقت وهيئت لحياة البشر ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ ﴾.

تاب الله سبحانه على آدم وزوجه، وأهبطهما إلى الأرض، وخاطب بني آدم محذراً إياهم من الشيطان الذي أخرج أبويهم من الجنة، ونزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما، وبيَّن لبني آدم أنه سيرسل لهم رسلاً يقصون عليهم آيات الله وينذرونهم، ودعاهم إلى الاستجابة لنداء الإيمان إذا أرادوا أن يعودوا إلى الجنة التي أُخرج أبواهم منها.

ثم ينتقل السياق إلى قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم، مبتدئاً بقصة

نوح مع قومه، ونصحه لهم، وردهم عليه، ثم بيان عاقبة كفرهم وتكذيبهم، ثم قصة هود وصالح ولوط وشعيب، ثم يعقب السياق على هذه القصص قبل أن ينتقل إلى قصة موسى عليه الصلاة والسلام مع فرعون وقومه، ودعوته لهم وتكذيبهم ورفضهم للآيات ونقضهم للعهد والميثاق، ثم عاقبة كفرهم واستكبارهم، بالغرق والهلاك، أما جزاؤهم في الآخرة فأشد وأعظم، وفي المقابل نجاة موسى ومن معه واستخلافهم في الأرض، للابتلاء ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

ويقف السياق طويلاً مع قصة موسى وهو يُعلِّم قومه ويربيهم ويغرس في نفوسهم عقيدة الإيمان، ويحذرهم من الشرك: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وحين يأتي موسى لميقات ربه يخرج بنو إسرائيل عن الطاعة والإيمان، ويعبدون العجل ويعود إليهم موسى مغضباً.. ويعقب السياق على القصة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

ويستمر السياق في عرض قصة موسى مع قومه، وما جرى لهم في التيه، وإكرام الله لهم بتظليل الغمام وانبجاس العيون من الحجر وإنزال المن والسلوى، ويبين موقف بني إسرائيل وجحودهم وتبديلهم القول، ويستعرض عند هذا الموقف قصة الذين اعتدوا في السبت وعاقبتهم.

ويأتي إلى ذكر الميثاق الذي أُخذ على بني إسرائيل، فيتخذ منه مناسبة للتذكير بميثاق الإيمان وعهد الفطرة الذي أخذه الله على بني آدم، وقصة الذي آتاه الله الآيات فانسلخ منها

فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. وهي نموذج واضح لنقض الميثاق والانسلاخ من العهد، واتباع العدو الخبيث الذي ما فتئ يكيد ويخادع ليضل الناس ويغويهم.

ثم تقترب الرحلة من نهايتها فيعرض السياق تساؤل الكفار المنكرين عن الساعة ووقت قيامها، وتفويض أمر ذلك إلى الله سبحانه، وأن النبي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا يعلم من الغيب إلا ما علمه الله، ثم يعرض السياق صورةً من جحود الكفار وتبديلهم النعمة كفراً، في مشهد يجدر أن يملأوه شكراً وعرفاناً هو مشهد الحمل والولادة: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وتأتي التعقيبات الختامية لإبطال اتخاذ الشركاء، وبيان أنهم لا يخلقون شيئاً ولا يستطيعون نصراً لأنفسهم فضلاً عن أن ينصروا أولياءهم، ثم الدعوة إلى التمسك بولاية الله سبحانه: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

ثم بيان ضعف كيد الشيطان، وأنه قاصر على الوسوسة التي يطردها ذكرُ الله، ويزيل آثارها التذكر والانتباه: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠-٢٠١].

وفي ختام السورة دعوة للاستماع إلى هذا الكتاب والإنصات إليه، وذكر الله تعالى وحضور القلب معه، وبيان أن المسلم حين يكون في ذكر الله والإنابة إليه يكون في انسجام مع هذا الكون كله، ومع العباد الأطهار من الملائكة الكرام الذين ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

مقاصد سورة الأعراف

أهم المقاصد التي أبرزتها هذه السورة:

النهي عن اتخاذ الشركاء من دون الله. وإنذار المشركين سوء عاقبة الشرك في الدنيا

والآخرة. ووصف ما حل بالمشركين والذين كذبوا الرسل من سوء العذاب في الدنيا، وما سيحل بهم في الآخرة. وتذكير الناس بنعمة خلق الأرض، وتمكين النوع الإنساني من خيرات الأرض، وبنعمة الله على هذا النوع بخلق أصله وتفضيله. وما نشأ من عداوة جنس الشيطان لنوع الإنسان. وتحذير الناس من التلبس ببقايا مكر الشيطان من تسويله لهم حرمان أنفسهم من الطيبات، ومن الوقوع فيما يرديهم في عذاب الآخرة. ووصف أهوال يوم الجزاء للمجرمين وكراماته للمتقين. والتذكير بالبعث وتقريب دليله. والنهي عن الفساد في الأرض التي أصلحها الله لفائدة الإنسان. والتذكير ببديع ما أوجده الله لصلاحها وإحيائها. والتذكير بما أودع الله في فطرة الإنسان من وقت تكوين أصله أن يقبلوا دعوة رسل الله إلى التقوى والإيمان.

وقد أفاضت السورة في أحوال الرسل مع أقوامهم المشركين، وما لاقوه من عنادهم وأذاهم، وأنذرت بعدم الاغترار بإمهال الله الناس قبل أن ينزل بهم العذاب، فإن العذاب يأتيهم بغتة بعد ذلك الإمهال.

وأطالت القول في قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وفي سلوك بني إسرائيل مع موسى عليه السلام. وتخلل قصته بشارة الله ببعثة محمد ﷺ وصفة أمته وفضل دينه. ثم خلصت إلى موعظة المشركين الذين بدلوا الحنيفية وتقلدوا الشرك، وضربت لهم مثلا بمن آتاه الله الآيات فوسوس له الشيطان فانسلخ عن الهدى.

ووصفت حال أهل الضلالة وتكذيبهم بما جاء به الرسول، ووصفت آلهتهم بما ينافي الإلهية وأن لله الصفات الحسنى؛ صفات الكمال.

ثم بينت أمر الله لرسوله عليه الصلاة والسلام والمسلمين بسعة الصدر والمداومة على الدعوة وتحذيرهم من مداخل الشيطان بمراقبة الله بذكره سرا وجهرا والإقبال على عبادته. [1]

(١) انظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، مجلد ٥، جزء ٨، ص ٩، دار سحنون - تونس.



موضوع سورة الأعراف

سورة الأعراف سورة مكية موضوعها العقيدة كشأن السور المكية، لكن هذه السورة تتحدث عن العقيدة في تاريخها البعيد الضارب في عمق التاريخ إلى مبدأ الوجود البشري وتسير مع هذا التاريخ عبر رسالات الرسل والأنبياء، ودعوتهم أقوامهم، ورد أقوامهم عليهم، مروراً بنوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام، وانتهاء بموسى عليه الصلاة والسلام وما لقي من قومه، فالسورة (وهي تعالج موضوع العقيدة تعرض موضوعها في مجال التاريخ البشري.. في مجال رحلة البشرية كلها مبتدئة بالجنة والملأ الأعلى، وعائدة إلى النقطة التي انطلقت منها.. وفي هذا المدى المتطاول تعرض «موكب الإيمان «من لدن آدم - عليه السلام - إلى محمد ﷺ، تعرض هذا الموكب الكريم يحمل هذه العقيدة ويمضي بها على مدار التاريخ. يواجه بها البشرية جيلاً بعد جيل، وقبيلاً بعد قبيل.. ويرسم سياق السورة في تتابعه: كيف استقبلت البشرية هذا الموكب وما معه من الهدى؟ كيف خاطبها هذا الموكب وكيف جاوبته؟ كيف وقف الملأ منها لهذا الموكب بالمرصاد؟ وكيف تخطى هذا الموكب أرصادها ومضى في طريقه إلى الله ؟ وكيف كانت عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين في الدنيا وفي الآخرة؟

إنها رحلة طويلة طويلة، ولكن السورة تقطعها مرحلة مرحلة، وتقف منها عند معظم المعالم البارزة، في الطريق المرسوم. ملامحه واضحة، ومعالمه قائمة، ومبدؤه معلوم، ونهايته مرسومة.. والبشرية تخطو فيه بجموعها الحاشدة. ثم تقطعه راجعة إلى حيث بدأت رحلتها في الملأ الأعلى)[1].

وحين نستعرض السورة نجد آياتها من مبدئها إلى منتهاها تدور حول هذا الموضوع، وتعالجه، وتشكل كلُّ آية أو مقطع من مقاطع السورة لبنة في بنائه المحكم المتين.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٢٤٤، ط١١، دار الشروق سنة ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

مهمة القرآن ووجوب اتباعه

﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ **سورة الأعراف (١-٩)**

التفسير الإجمالي للآيات

ألمص، حروف مقطعة افتتحت بها هذه السورة، وهي من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه، ومن الحكم التي تشير إليها: إعلان التحدي للمشركين بأن هذا القرآن المعجز مؤلف من هذه الحروف التي تنطقونها وتؤلفون منها كلامكم، ورغم ذلك فأنتم عاجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن أو بسورة من مثله. [1]

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مبينا له عظمة القرآن: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾ أي كتاب جليل حوى كل ما يحتاج إليه العباد وجميع المطالب الإلهية والمقاصد الشرعية محكما مفصلا ﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ ﴾ أي ضيق وشك واشتباه، بل لتعلم أنه تنزيل من حكيم حميد وأنه أصدق الكلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فلينشرح له صدرك ولتطمئن به نفسك ولتصدع بأوامره ونواهيه ولا تخش لائما ومعارضا ﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ ﴾ الخلق وتعظهم وتذكرهم فتقوم الحجة على المعاندين وليكون «ذكرى للمؤمنين» يتذكرون به الصراط المستقيم وأعماله الظاهرة والباطنة

---

(١) التفسير الوسيط، د. محمد سيد طنطاوي ١/ ١٥٨٢.

وما يحول بين العبد وبين سلوكه. ثم خاطب الله العباد ولفتهم إلى الكتاب فقال: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ أي الكتاب الذي أنزله لأجلكم وهو ﴿ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ الذي يريد أن يُتم تربيته لكم فأنزل عليكم هذا الكتاب الذي إن اتبعتموه كملت تربيتكم وتمت عليكم النعمة، وهديتم لأحسن الأعمال والأخلاق ومعاليها ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ ﴾ تتولونهم وتتبعون أهواءهم وتتركون لأجلها الحق ﴿ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ فلو تذكرتم وعرفتم المصلحة لما آثرتم العاجل على الآجل، والعدو على الولي. ثم حذرهم عقوباته للأمم الذين كذبوا ما جاءتهم به رسلهم كيلا يشابهوهم فقال: ﴿ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا ﴾ أي عذابنا الشديد ﴿ بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴾ أي في حين غفلتهم، لم يخطر الهلاك على قلوبهم، فحين جاءهم العذاب لم يدفعوه عن أنفسهم، ولا أغنت عنهم آلهتهم التي كانوا يرجونها، ولا أنكروا ما كانوا يفعلونه من الظلم والمعاصي ﴿ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٥ ﴾ وقوله: ﴿ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ ﴾ أي لنسألن الأمم الذين أرسل الله إليهم المرسلين عما أجابوا رسلهم ﴿ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ عن تبليغهم رسالاتِ ربهم، وعما أجابتهم به أممهم ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم ﴾ أي على الخلق كلهم ما عملوا ﴿ بِعِلۡمٖۖ ﴾ منه تعالى لأعمالهم ﴿ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ ثم ذكر الجزاء على الأعمال فقال: ﴿ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ٩ ﴾ أي والوزن يوم القيامة يكون بالعدل والقسط الذي لا جور فيه ولا ظلم. ﴿ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ بأن رجحت حسناته على سيئاته ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ الناجون من المكروه المدركون للمحبوب، الذين حصل لهم الربح العظيم والسعادة الدائمة، ﴿ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ وطاشت بما فيها من سيئات ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم ﴾ إذ فاتهم النعيم المقيم وحصل لهم العذاب الأليم ﴿ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴾ فلم يتبعوها ولم يؤمنوا بها.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

دعت هذه الآيات إلى اتباع الكتاب المنزل، وتوحيد الله سبحانه وتعالى، وبينت أن كثيراً من الأمم السابقة جاءهم العذاب وهم غافلون غارّون، بعد أن أنذرهم أنبياؤهم وحذروهم، فلم يسمعوا الإنذار، ولم يستجيبوا لأنبيائهم، ثم بينت الآيات أن عذاب الدنيا الذي أصاب أولئك ليس نهاية المطاف، بل هو مرحلة في الطريق يعقبها الحساب والسؤال عما فعلوا، وسيكون السؤال موجهاً إلى الأمم التي دُعيت، وإلى الأنبياء والرسل الذين حملوا لواء الدعوة، ثم بعد ذلك يفصل الله بينهم، وتوزن الأعمال، ليفوز من ثقلت موازينه، ويخسر من خفَّت موازينه.

ويتضح من هذه الآيات ذلك الاتصال الوثيق بينها وبين موضوع السورة الذي يتناول العقيدة في تاريخها الطويل البعيد، عبر رحلة البشرية منذ كانت على هذه الأرض، وإلى أن تعود إلى الملأ الأعلى ويُفصل بينها، فإما إلى الجنة وإما إلى النار.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - هذا القرآن أنزله الله تعالى إلى رسوله ﷺ لينذر به الناس، وقد جاء هذا الكتاب بمهمة عظيمة هي تغيير أوضاع الجاهلية، وإعادة بناء النفوس والمجتمعات البشرية على الطريقة السوية والنهج الصحيح.

٢ - للقرآن مهمتان لا بد منهما، فالأولى: إنذار الناس وتخويفهم من عذاب الله تعالى وعقابه وهذا موجه إلى جميع الناس وبالأخص إلى الكفار والمعاندين. والثانية: التذكير، وهي موجهة للمؤمنين، والدعوة لا بد أن تسير في اتجاهين متوازيين، فلا بد من دعوة غير المسلمين وإنذارهم وتخويفهم، ولا بد من رعاية من أسلموا وتربيتهم على معاني الإيمان وطاعة الله ورسوله.

٣ - هذا القرآن كما أنزل إلى الرسول لينذر به، فقد أنزل إلى المؤمنين ليعملوا به ويتبعوه، والمؤمن الذي يتبع الوحي والقرآن، ويعمل بما أنزل الله إليه، لا يجوز له أن يتبع شيئاً آخر، فمن

اتبع غير هدى الله فقد كفر، ومن لم يكتف بهدى الله واتبع مع ذلك شيئاً آخر فقد أشرك، وحقيقة التوحيد أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً، ولا نتخذ من دونه أولياء.

٤ - أهلك الله تعالى كثيراً من الأمم السابقة، بأن أنزل عليها عذابه، وأذاقها بأسه، حيث جاءهم العذاب ليلاً فلم يصبح منهم أحد، أو وقت القيلولة حيث هم غارُّون غافلون، فلم يُبق منهم أحداً، وكان موقف هؤلاء المكذبين حين رأوا العذاب يعصف بهم ويأخذهم أن سارعوا إلى الاعتراف بكفرهم وظلمهم، في الوقت الذي لا ينفع فيه ندم ولا اعتراف فقد مضى وقت التوبة، وأُغلق بابُها بمجيء العذاب.

٥ - إن العذاب الذي أصاب الأمم المكذبة في الدنيا ليس كلَّ شيء، بل هناك ما هو أشد وأعظم، إنه العذاب الذي سيواجهونه يوم القيامة، حين يجمع الله الأولين والآخرين يجمع الأنبياء وأممهم ويسأل كلاً عما عمل، فيسأل الأمم ويقررهم بذنوبهم على رؤوس الأشهاد، ويسأل الرسل عن تبليغ الدين. وعندئذ ينبئهم الله جميعاً، فما من عمل صغير ولا كبير إلا هو محصىً ومدون في كتاب، فالله سبحانه شاهد على كل عمل، لا يغيب عنه شيء ولا يخفى عليه شيء.

٦ - في يوم القيامة توزن أعمال العباد في ميزان الحق والقسطاس المستقيم الذي يزن أدق الأشياء، حتى يأخذ كلٌّ حقه، ويعرف ما له وما عليه، والناس يومئذ صنفان، فمن ثقلت موازينه بالإيمان والأعمال الصالحة، فهو المفلح الفائز، ومن خفت موازينه بالكفر والضلال والفجور والسيئات، فقد خسر نفسه وأهلكها، بسبب ظلمه لنفسه وتكذيبه بآيات الله.

خلق آدم عليه الصلاة والسلام وعداوة الشيطان

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ سورة الأعراف (١٠-٢٥)

التفسير الإجمالي للآيات

يخاطب الله سبحانه بني الإنسان منبهاً على نعمه العظيمة التي أنعمها عليهم، ومنها أنه مكن لهم في الأرض فجعلهم قادرين على تسخيرها والاستفادة مما فيها، وجعل لهم فيها من الرزق والخيرات ما يمكنهم من العيش فيها، كما أنه سبحانه خلقهم وصورهم، حيث خلق آدم عليه الصلاة والسلام وصوره ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة أن يسجدوا له اعترافاً بفضله وعلو درجته. فامتثل الملائكة جميعاً أمر ربهم وسجدوا لآدم، إلا إبليس فإنه رفض السجود، وعلل رفضه بأنه خير من آدم، فهو مخلوق من النار، وآدم مخلوق من الطين، والنار- في رأيه-

أفضل من الطين. وحين عصى إبليس أمر ربه، وتكبر على آدم غضب الله عليه ولعنه وأبعده من رحمته صاغراً ذليلاً، وعندئذ طلب إبليس من الله تعالى أن يؤخره ويبقيه حياً إلى يوم البعث فوعد الله سبحانه أن يؤخره إلى يوم الوقت المعلوم أي اليوم الذي تنتهي فيه الدنيا ويهلك من عليها، فيهلك إبليس مع من يهلك، ثم يبعث مع من يبعث.

ثم توعد إبليسُ أن يُضل بني آدم، وأن يقعد لهم على الصراط محاولاً منعهم من الاستقامة، وإبعادهم عن الهدى والإيمان، وأن يصرفهم - بشتى الوسائل- عن الحق والخير. فتوعده الله سبحانه أن يعذبه في نار جهنم، وأن يملأها منه ومن الذين اتبعوه وأطاعوه.

ثم نادى الله سبحانه عبده آدم يأمره أن يسكن الجنة هو وزوجه، وأن يتمتعا بما فيها من الطيبات والنعم، لكن الله سبحانه حرم على آدم وزوجِه شجرة من شجر الجنة، أو صنفاً من أصناف الشجر، وحذرهما من الاقتراب من تلك الشجرة أو الأكل منها، مؤكداً لهما أن الأكل منها معصية وظلم، وهنا وجد الشيطان سبيلاً لإغواء آدم وزوجه والكيد لهما، فأخذ يوسوس لهما ويلقي في أنفسهما الخواطر والأفكار حول هذه الشجرة، وما السر في منعهما منها، وما الذي يجري لو أكلا منها؟ وعاش آدم وزوجه في الجنة مدة من الزمان، والشيطان يوسوس لهما ويغريهما بالأكل من الشجرة، مؤكداً لهما أن من أكل منها سيكون ملَكاً من الملائكة، أو سيبقى خالداً أبداً، وأخذ يُقسم لهما بالله تعالى أغلظ الأيمان أنه ناصح لهما، ولا يريد لهما إلا الخير، ووقع آدم وزوجه في خُدعة الشيطان، فتناولا شيئاً من ثمر تلك الجنة، وبمجرد أن ذاقا طعمها انكشفت لهما سوءاتهما، وظهرا عاريين في صورة مُخجلة فعرفا أنهما وقعا في الزلة، وقارفا المعصية. عندئذ سارعا إلى أخذ بعض الورق من أشجار الجنة ليسترا به سوءاتهما. وفي ذلك الوقت ناداهما ربهما: ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين؟

اعترف آدم وزوجه بالخطأ الذي وقعا فيه، فسارعا إلى إعلان التوبة وإظهار الندم، وطلب المغفرة، فغفر الله لهما ورحم ضعفهما، لكنه أخرجهما من الجنة، وأمرهما بالهبوط إلى الأرض ليعيشا فيها ويعمراها، وأمر الشيطان أن يهبط إلى الأرض ليكون فيها أيضاً. وأخبر أن الناس

مـن ذرية آدم، والجن من ذرية إبليس سـتكون العلاقة بينهم علاقـة عداوة وصراع، فمن أطاع الشيطان وكان من حزبه، صار عدواً لمن ثبت على الحق واتبع الهدى.

مناسبة الآيات لما قبلها

ذكرت الآيات السابقة إنزال الكتاب على الرسول ﷺ، وتوجيه الأمر إليه بأن ينذر الناس بهـذا الكتـاب، ودعت المؤمنين إلى اتباع هـذا الكتاب والالتزام بما جاء بـه من الحق، وبينت أن مـن النـاس من يؤمن ويسـتجيب فتثقل موازينه يوم الحسـاب، ومنهم من يكفـر ويعاند ويتبع الشيطان فتخف موازينه ويكون من الخاسرين.

وذكـرت الآيـات هنـا أن الله سـبحانه مكـن للنـاس في الأرض وجعل لهم فيهـا معايش وبينـت كيف أُهبط الإنسـان إلى الأرض، ليعمرهـا ويعيش فيها، بعد ما جـرى لأبويه في الجنة من اسـتجابة لوسوسـة الشـيطان. وبينت أن الناس سيعيشـون في هذه الأرض ويموتون فيها ويخرجون منها، ليعودوا إلى ربهم فيحاسبهم على ما عملوا، ويزن لهم أعمالهم، فمنهم من يفوز وينجو، ومنهم من يخسر ويهلك.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تشـكل هذه الآيات حلقة هامة في موضوع السـورة، إذ تبين أن الله سـبحانه هيأ الأرض قبل أن يخلق الإنسان، ثم خلق الإنسان وصوَّره، وأسجد له الملائكة، ودحر عدوَّه الذي رفض السجود، وأسكن آدم وزوجه الجنة، ثم أهبطهما منها بعد أن حصل منهما ما حصل من النسيان والزلـة، أهبطهـما إلى الأرض لعمرانها واسـتئناف الحيـاة فيها، ولتكون الحيـاة في هذه الأرض مرحلة لا بد منها في طريق العودة إلى الآخرة.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - هيأ الله سبحانه الأرض للناس بحيث يتمكنون من العيش فيها، والبناء عليها وحرثها واستصلاحها وزرعها، وسائر وجوه الانتفاع بها، وجعلها مسخرة مذللة لهم، وجعل

فيها ما يعيش به الناس مما يخرج من الأشجار والنبات، وما فيها من الماء والهواء، والمعادن والثروات، وأنواع الصنائع والتجارات.

٢ - خلق الله سبحانه آدمَ ثم صوره، والخلق يعني الإنشاء والإيجاد، والتصوير يعني تشكيل آدم على الصورة التي هو عليها، ثم كانت ذريته على صورته وهيئته، وبعد أن تم خلق آدم وتصويره ونفخ الروح فيه أمر الله سبحانه الملائكة أن يسجدوا له، فسجدوا جميعاً، إلا إبليس فإنه لم يسجد، ولم يستجب لأمر الله سبحانه، وإبليس -وإن كان في زمرة الملائكة- لكنه ليس من الملائكة، فهو مخلوق من النار، والملائكة مخلوقون من النور.

٣ - تكبر إبليس على آدم، ورأى نفسه خيراً منه، ونسي أن السجود لآدم إنما هو امتثال لأمر الله تعالى، ثم فسر هذه الأفضلية بقوله: ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ والنار- في نظره- أفضل من الطين. وقد تضمن هذا الرد أموراً منها: أن إبليس رفض أمر الله تعالى، وفضل نفسه على آدم، واحتقر آدم وتكبر عليه.

٤ - عاقب الله - سبحانه - إبليس على عصيانه، بأن أخرجه وطرده من رحمته، وكتب عليه الذلة والصغار، جزاء تكبره ورفضه السجود.

٥ - طلب الشيطان من الله سبحانه أن يؤخر موته إلى يوم يبعثون، أي يوم يبعث الخلق من قبورهم، وهو يريد بذلك أن ينجو من الموت، لأنه لو أُخر إلى يوم البعث لبقي حياً بعد النفخة الأولى واستمر حياً حتى تأتي النفخة الثانية التي يبعث على أثرها الخلق، وقد وعده الله تعالى أن يؤخره، ولكن ليس إلى يوم يبعثون -كما طلب- بل إلى يوم الوقت المعلوم وهو يوم النفخة الأولى حيث يموت مع من يموت من الخلق، ثم يبعث مع من يُبعث.

٦ - أعلن الشيطان عداوته لبني آدم، وتوعَّد أن يصدهم عن الصراط المستقيم، ويمنعهم من سلوكه، وأن يأتيهم من أمامهم ومن خلفهم، وعن اليمين وعن الشمال، بالإغواء والوسوسة، وأن يستخدم جميع الوسائل والأساليب من أجل صرفهم عن سبيل الهدى، وإبعادهم عن طريق الحق والإيمان.

٧ - أمر الله سبحانه آدم أن يتخذ الجنة مسكناً، ومعه زوجه(حواء)، وأذن لهما أن يأكلا من ثمر الجنة حيث شاءا، لكنه حذرهما من شجرة سمّاها لهما، ونهاهما عن الاقتراب منها. ولكن الشيطان وسوس لآدم وزوجه، وزين لهما الأكل من الشجرة، واستمر في وسوسته وتزيينه حتى أوقعهما في الخطيئة، وعندئذ انكشفت منهما العورات، وظهرت السوءات، فشرعا يقطعان الورق ويلصقانه بعوراتهما ليستراها، وبهذا يكون الشيطان أول من دعا إلى التعري وكشف العورات.

٨ - أدرك آدم وزوجه ما وقعا فيه من الزلة والخطيئة، فسارعا إلى الاعتذار والاستغفار، معترفين بما كان منهما: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ وهذا فرق أساسي بين الشيطان والإنسان، فالشيطان حين عصى أمر الله تعالى، ورفض السجود، لم يتب ولم يعترف بخطئه، بل عاند واستكبر، أما آدم وزوجه فحين وقعا في الزلة سارعا إلى التوبة والندم.

٩ - غفر الله لآدم وزوجه، وتاب عليهما، لكنه أمرهما بالهبوط إلى الأرض والاستقرار فيها، كما أمر إبليس بالهبوط أيضاً: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ وبذلك تحقق ما قدره الله سبحانه أن تكون الأرض موضع استقرار للناس، يعيشون فيها ويعمرونها، ولهم فيها متاع يتمتعون به في الدنيا من الطعام والشراب والمأوى.. إلى أن يأتيهم أجلهم. ففي الأرض يعيشون، وفيها يموتون، ومنها يُخرجون للبعث والحساب يوم القيامة، وفي هذا إشارة صريحة إلى أن البقاء في هذه الأرض ما هو إلا مرحلة قصيرة، وأن على المسلم أن لا يركن إلى الدنيا، فإنها فانية زائلة.

١٠ - إن الشيطان الذي أعلن عداوته لآدم وذريته منذ بدء الخلق مستمر في الوسوسة من أجل صرف الناس عن سبيل الهدى، وإيقاعهم في الكفر والضلال، فهو عدوّ مبين لا يُخفي عداوته ولا يكتمها، وعلى المسلم أن يحذر منه، ويلجأ إلى الله سبحانه.

تحذير الناس من فتنة الشيطان

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ سورة الأعراف (٢٦-٣٠)

التفسير الإجمالي للآيات

تتوجه الآيات بالخطاب إلى بني آدم حيث يذكرهم الله سبحانه بنعمة اللباس الذي به يسترون عوراتهم، ويحفظون أجسامهم، كما أنه زينة يتزينون به، ويحذرهم الله سبحانه من فتنة الشيطان وإغوائه، مذكراً بأن الشيطان قد أغوى أبويهم وأخرجهما من الجنة بعد أن نزع عنهما لباسهما، وأن الشياطين فتنة للذين لا يؤمنون، وقد استجاب الذين لا يؤمنون للشياطين وفُتنوا بهم حتى صاروا إذا فعلوا فاحشة من الفواحش يقولون: وجدنا عليها آباءنا فنحن نقتدي بهم، ويقولون: إن الله أمرنا بها فنحن نفعل ما أمرنا الله به، وكل ذلك من تلبيس الشيطان وفتنته، فالله سبحانه لا يأمر بالفحشاء، ولا يرضاها من عباده، فكيف يقول هؤلاء على الله ما لا يعلمون، وينسبون إليه ما لا يجوز؟

الله سبحانه أمر بالعدل، ودعا إليه، وأمر بالإيمان به والتوجه إليه، في الصلاة والدعاءوالإخلاص له في كل عمل. فلا بد من يوم تعودون إليه جميعاً، وستكونون فريقين؛ مهتدين وضالين، أما المهتدون فأمرهم ظاهر، وأما الضالون فهم الذين اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله.

مناسبة الآيات لما قبلها

بينت الآيات السابقة ما كان من آدم وحواء، وأن الشيطان وسوس لهما، وأوقعهما في الزلة، فانكشفت منهما العورات، وأخذا يلصقان عليهما من ورق الجنة، مما يدل على أن ستر العورات قضية فطرية مركوزة في النفوس، وأن ظهور العورات أمرٌ يُستحيا منه، فجاءت هذه الآيات تبين نعمة الله تعالى في إنزال اللباس الذي يستر به الناس عوراتهم، ويتزينون به، مبينة أن هذا اللباس يستر ظاهراً أما اللباس الباطن فهو لباس التقوى، الذي يستشعر به المرء مخافة الله تعالى. ثم حذرت الآيات بني آدم من طاعة الشيطان الذي نزع عن أبويهم لباسهما، وتسبب في إخراجهما من الجنة، وبينت أن الشياطين يتولون الذين لا يؤمنون، ويدعونهم إلى الفواحش والمنكرات، فإذا وقعوا فيها زعموا أنهم وجدوا آباءهم يفعلونها، وأن الله أمرهم بها، ولا شك أن هذا الزعم باطل فاسد، فالله سبحانه لا يأمر بالفحشاء، ولا يرضاها لعباده.. وهكذا تتصل هذه الآيات بآيات المقطع السابق اتصالاً محكماً وثيقاً.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل الآيات بموضوع السورة من حيث إنها تدعو بني آدم إلى عبادة الله وتوحيده والبعد عن طاعة الشيطان الذي أخرج أبويهم من الجنة، مؤكدة على عداوة الشيطان للناس وحرصه على فتنتهم وإغوائهم، وحرمانهم من العودة إلى الجنة.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - إن نعمة الله على عباده باللباس والستر من النعم العظيمة، لما فيها من فوائد ومنافع كثيرة مثل: ستر عورة الإنسان، ووقايته من الحرّ والبرد، وتجمُّله بين الناس بهذه الزينة الظاهرة، وإذا كان الشيطان وأعوانه من المفسدين يدعون إلى كشف العورات ليزينوا للناس المنكرات، ويهوِّنوا عليهم ارتكاب الفواحش، فإن في اللباس والستر ما يحصّن المسلم من مكائد الشيطان وخُدعه.

٢ - نعمة الستر واللباس تستر ظاهر الإنسان، أما باطنه فيحتاج إلى لباس آخر هو لباس التقوى وذلك بأن يكون المسلم في كل أحواله مراقباً لله تعالى، حريصاً على طاعته ومرضاته، بعيداً عن عصيانه ومخالفته.

٣ - يحذر الله سبحانه بني آدم من الاستجابة لفتنة الشيطان وإغوائه، ويذكّرهم بأن الشيطان عدوّهم وعدوّ أبويهم آدم وحواء، فهو الذي أغراهما بالأكل من الشجرة، فتسبب بكشف عوراتهما، وإخراجهما من الجنة.

٤ - للشيطان وسائل وطرق كثيرة في الكيد للناس وإيقاعهم في حبائل مكره، وهو وأعوانه من الشياطين يرون الناس، والناس لا يرونهم، وهذا يجعل كيد الشياطين أشدَّ وأقوى، ويدعو المسلم إلى الحذر من الشياطين، والاعتصام بحبل الله، لينجو منهم.

٥ - لقد أضل الشيطان كثيراً من الناس، وزين لهم الشرك بالله، وعبادة الأصنام، وارتكاب الفواحش والمنكرات، مثل: وأد البنات، وقتل النفس بغير حق، وطواف المشركين بالبيت عراة.. ولم يكتف المشركون بذلك، بل كانوا إذا فعلوا ذنباً قبيحاً اعتذروا عنه بعذرين الأول: أنهم فعلوا ذلك اقتداء بآبائهم. والثاني: زعموا أن الله تعالى أمرهم بذلك. وكلا العذرين في غاية البطلان والفساد لأن وجود آبائهم على القُبح لا يسوِّغ لهم فعلَه، ولأن الله سبحانه لا يأمر عباده بالفحشاء.

٦ - إن الله سبحانه لا يأمر بالفحشاء، ولا يرضاها من عباده، ومع ذلك فقد تقوّل المشركون على الله بغير علم، ونسبوا إليه ما لا يليق بجلاله. والقول بغير علم في أي أمر من الأمور لا يُقبل ولا يسوغ، فكيف إن كان في التقوُّل على الله تعالى؟

٧ - الله سبحانه يأمر بالعدل، ويدعو إلى القسط، وإعطاء الحقوق لأصحابها كما أنه يدعو الناس إلى أن يتوجهوا إليه في صلاتهم وعبادتهم، ويخلصوا في عبادته ودعائه وتوحيده.

٨ - إن يوم القيامة حقيقة مؤكدة لا مرية فيها، وكما بدأ الله الخلق فإنه سيعيدهم، وسيبعثهم

ليجازي كلاً منهم بما عمل، وسيكون الناس في ذلك اليوم فريقين؛ سعداء وأشقياء. فالفريق الذي هداه الله هم المؤمنون بالله المتبعون لأنبيائه، والفريق الذي حقت عليه الضلالة هم الكفار الذين اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله، وأطاعوهم في معصية الله ومع هذا فإنهم يحسبون أنهم مهتدون.

إباحة الزينة والطيبات وتحريم الفواحش والمنكرات

﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (الأعراف ٣١-٣٤)

التفسير الإجمالي للآيات

أمر الله سبحانه بني آدم أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد، وأذن لهم أن يستمتعوا بما رزقهم من الطيبات من غير إسراف، فالله سبحانه لا يحب المسرفين، كما بين سبحانه أن الزينة والمتاع الحسن والطيبات من الرزق كلها من الأمور المباحة، فقد جعلها الله للناس جميعاً ليتمتعوا ويرتفقوا بها، هذا في الحياة الدنيا، أما في الآخرة فستكون الطيبات خالصة للمؤمنين، وسيُحرم منها الكافرون.

ويبين سبحانه المحرمات التي حرَّمها على عباده، وحذَّرهم منها، وهي الفواحش سواء أكانت ظاهرة أم باطنة، واقتراف الإثم والبغي على الناس وظلمهم، والشرك بالله، والقول على الله بغير علم.

وتذكر الآيات بأن كل أمة لا بد لها من أجل تصير إليه، ونهاية تنتهي إليها، وعندما يأتي

أجل أمة، فلن تتأخر ساعة، ولن تتقدم ساعة، فالأجل المحتوم منضبط بوقت محدد لا يزيد ولا ينقص، وعلى كل إنسان أن يستعد لذلك الأجل.

أسباب النزول

عن ابن عباس قال: كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة فتقول من يعيرني تطوافا؟ تجعله على فرجها وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله فما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية: ﴿ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾.[1]

التطواف: ثوب تلبسه المرأة تطوف به، وكان أهل الجاهلية يطوفون عراة ويرمون ثيابهم ويتركونها ملقاة على الأرض، ولا يأخذونها أبداً، ويتركونها تداس بالأرجل حتى تبلى، ويسمى اللَّقَا، حتى جاء الإسلام فأمر الله تعالى بستر العورة، فقال تعالى: ﴿ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾، وقال النبي ﷺ: «لا يطوف بالبيت عريان».[2]

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «كان أهل الجاهلية يحرمون أشياء أحلها الله من الثياب وغيرها وهو قول الله ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلًا ﴾[3] يعني شارك المسلمون الكفارَ في الطيبات في الحياة الدنيا فأكلوا من طيبات طعامها، ولبسوا من جياد ثيابها، ونكحوا من صالح نسائها، ثم يخلص الله الطيبات في الآخرة للذين آمنوا، وليس للمشركين فيها شيء.[4]

---

(١) صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٤/ ٢٣٢٠، رقم ٣٠٢٨.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ١٨/ ١٦٣.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري ١٢/ ٣٩٨.

(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٨، رقم ٨٤٢٧.

مناسبة الآيات لما قبلها

حذّرت الآيات السابقة من طاعة الشياطين واتخاذهم أولياء من دون الله، ودعت إلى الإيمان وإخلاص الدين لله وحده، وبينت هذه الآيات أن المشركين كانوا يحرمون ما أحل الله من الطيبات والزينة، ويحلون ما حرم الله من الفواحش والبغي والشرك، وهم بهذا يطيعون الشياطين ويتبعونهم، ثم بينت الآيات أن هذه الطيبات مباحة في الدنيا لجميع الناس، لكنها ستكون في الآخرة خالصة للمؤمنين، وسيُحرم منها الكفار الذين لم يستجيبوا لنداء الحق، ولم يؤمنوا بالله سبحانه.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

يتضح من هذه الآيات ذلك الاتصال الوثيق بينها وبين موضوع السورة الذي يتناول العقيدة في تاريخها الطويل البعيد، عبر رحلة البشرية منذ كانت على هذه الأرض، فهؤلاء المشركون يشكلون حلقة من سلسلة البشر التائهين الذين غرّر بهم الشيطان، فبدلاً من الإيمان والهدى تحولوا إلى أَتباع للشياطين ينقادون لهم في تحريم الحلال واستحلال الحرام، والشرك بالله، والبغي على الناس، والقول على الله بغير علم.

الهدايات المستخلصة من الآيات:

١ - أمر الله سبحانه بالتزين عند الحضور إلى المساجد للصلاة والطواف، وفي قوله تعالى: ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ دليل على وجوب ستر العورة في الصلاة، بل سترُها عن الناس واجب في كل حال من الأحوال.

٢ - أمر الله سبحانه عباده بالأكل والشرب، وأحل لهم الطيبات، ونهاهم عن الإسراف، فلا زُهد في ترك الطعام والشراب. وعلى المرء أن يأخذ منه ما يكفيه ويعينه على القيام بما عليه من عمل، فلا يقلل منه على وجه يَضعُف به بَدَنُه عن القيام بواجباته من طاعة أو عمل وطلب للرزق، ولا يسرف في إنفاقه، كأن يأكل لغير حاجة، وفي وقت شبع.

٣ - لا حرج على من لبس الثياب الجيدة الغالية القيمة إذا لم يكن مما حرمه الله، ولا حرج على من تزين بشيء من الأشياء التي لها مدخلٌ في الزينة ولم يمنع منها مانع شرعي. وكذا الطيبات من المطاعم والمشارب ونحوهما مما يأكله الناس فإنه لا مانع من تناول الطيب منها. فهذه الطيبات مباحة للذين آمنوا في الحياة الدنيا، وإن شاركهم الكفار فيها ما داموا في الحياة لكنها ستكون خالصة يوم القيامة للمؤمنين، مختصة بهم لا يشاركهم فيها الكفار.

٤ - إن الله سبحانه لم يحرم الزينة على عباده، ولم يحرم عليهم الطيبات من الرزق، ولكنه حرّم الفواحش بجميع أنواعها، سواء أكانت ظاهرة مُعلنة، أو باطنة خفية، كما حرّم المعاصي والآثام، وحرم البغي والظلم، كما حرم الشرك، ولكن المشركين يفعلون ما حرّم الله ويتركون ما طلب الله منهم فعله والقيام به.

٥ - لكل أمة من الأمم أجل مسمى، تنتهي إليه، ومدة محدودة معلومة، والله سبحانه هو الذي قدر هذه الآجال، بحسب علمه الواسع المحيط، ولا بد أن تسير كل أمة إلى أجلها المحتوم وإذا جاء أجل أمة من الأمم كان ما قدره الله عليهم واقعاً في ذلك الأجل، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون عنه ساعة.

٦ - ويؤخذ من هذا أن كل ميت يموت بأجله، وإن كان موته بالقتل أو التردي أو نحو ذلك ولا تعارض، فهو قد مات بأجله، وإن كان بسبب حادثة عرضت له من قتلٍ أو نحوه فيكون السبب قد وافق القدر الذي جرى في علم الله سبحانه.

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أغيَرُ من الله، فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله، فلذلك مدح نفسه»[1].

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٦٩٩، رقم ٤٣٦١، باب: إنما حرم ربي الفواحش.

إرسال الرسل وعاقبة المكذبين

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ سورة الأعراف (٣٥-٤١)

التفسير الإجمالي للآيات

يخاطب الله سبحانه بني آدم مبيناً لهم أنه سيرسل إليهم رسلاً منهم يدعونهم إلى الإيمان ويبينون لهم طريق الهدى، ويحذرونهم من الكفر والضلال، فمن اتبعهم وآمن وأصلح فسيكون من أهل الجنة، ومن كذب الرسل واستكبر عن الإيمان فسيكون من أصحاب النار.

وأشد الناس ظلما من يفتري على الله الكذب، أو يكذب بآياته، وهؤلاء سيكون موقفهم عصيباً يوم يأتي الملائكة ليقبضوا أرواحهم، فيسألونهم استنكاراً وتقريعاً: أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم من دون الله؟ هل أغنوا عنكم شيئاً؟ فيقولون: غابوا عنا، ويشهدون على أنفسهم أنهم كانوا كافرين. عندئذ يقال لهم: ادخلوا النار مع الأمم الكافرة من الجن والإنس، ويكون المشهد الرهيب المخيف، مشهد الأمم الكافرة تُلقى في النار تباعاً، كلما دخلت أمة لعنت أختها فإذا استقروا فيها جميعاً دعا الأتباع المستضعفون ربّهم أن يضاعف العذاب لسادتهم المتبوعين لأنهم سنُّوا لهم طريق الغي والضلال، ورد المتبوعون على الأتباع: ليس لكم علينا من فضل

بل نحن وإياكم في الكفر سواء، فذوقوا من العذاب ما ذقنا. ثم تبين الآيات أن هؤلاء المكذبين المستكبرين يذوقون العذاب، فعند موتهم وقبض أرواحهم لا تفتح لهم أبواب السماء، ويوم القيامة تُحرم عليهم الجنة، فلا يمكن بحال أن يدخلوها حتى يدخل الجمل في ثقب الإبرة، وهذا يعني استحالة دخولهم الجنة، وهم يستحقون هذا الحرمان لإجرامهم وظلمهم، وسيمكثون في النار، منها فراشهم وغطاؤهم، وفيها بؤسهم وشقاؤهم.

مناسبة الآيات لما قبلها

بينت الآيات السابقة أن الله سبحانه حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق، والشرك بالله والافتراء عليه، وهذه الآيات تبين جزاء الذين أشركوا بالله وافتروا الكذب وأجرموا، فاستحقوا أن يُلقَوا في النار خالدين فيها. كما تبين الآيات أن أهل النار يتلاعنون فيها، وكلٌّ يُنحي باللائمة على غيره، لكن ذلك لن يعفيهم من العذاب، ولن يُخففه عنهم.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات بموضوع السورة اتصالاً وثيقاً، فهؤلاء الكفار من سائر الأمم يُلقون في النار، بما أشركوا وظلموا وافتروا على الله سبحانه، وكلما دخلت أمة منهم النار لعنت أُختها فهذه الأمم حلقات متتالية في سلسلة الضلال عبر تاريخ البشرية.

الهدايات المستخلصة من الآيات:

١ - من رحمة الله سبحانه أنه لم يترك البشر بلا هداية، بل أرسل إليهم رسلاً منهم يعلمونهم ويرشدونهم، ويبينون لهم، فمن اتقى المعاصي وابتعد عنها، وأصلح نفسه باتباع الرسل وإجابتهم كان من الناجين الفائزين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ومن كذب بالآيات، ورفض الإيمان بها، واستكبر عنها كان من أصحاب النار، جزاءً على كفره وتكذيبه.

٢ - لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً، أو كذب بآيات الله وجحدها، وكل من افترى على الله كذباً، أو كذّب بآياته سيناله نصيبه مما كتب الله له من خير وشر، أو سيناله من العذاب بقدر كفره وافترائه.

٣ - حين تأتي ساعة الموت فإن الملائكة الموكلين بقبض أرواح هؤلاء المكذبين يسألونهم موبخين زاجرين: أين ما كنتم تدعون من دون الله؟ أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ فيقولون: ضلوا عنا. أي ذهبوا عنا وغابوا، فلا ندري أين هم؟ وعندئذ يُقرّون على أنفسهم بالكفر، ويعرفون مقدار ما كانوا فيه من ضلال وخُسران.

٤ - يوم البعث الذي يكذب به المشركون حقيقة واقعة مؤكدة، حيث سيُحشر الإنس والجن، ويأمر الله سبحانه أُممَ الكفر أن تدخل النار، جزاءً على كفرها وضلالها، وكلما دخلت أمة من الأمم الماضية لعنت الأمةَ التي سبقتها إلى النار، فإذا تداركوا وتتابعوا واجتمعوا في النار قالت أخراهم دخولاً لأولاهم دخولاً، أو قال المستضعفون لرؤسائهم وكبرائهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفاً من النار، وخُصَّهم بمزيد من العذاب لقاء إضلالهم إيانا. فيردُّ عليهم بأن لكل طائفة منكم ضعفاً من العذاب، فللطائفة الأولى ضعف وللطائفة الأخرى ضعف، إذ لا يُعفى من تبعات الضلال والكفر أحد منكم.

٥ - حين يسمع الأولون أو الكبراء ما قاله الآخرون أو المستضعفون، يردون عليهم قائلين: فما كان لكم علينا من فضل، بل نحن سواء في الكفر بالله واستحقاق عذابه. وهكذا ينال المكذبون جزاءهم، ويذوقون العذاب الشديد، بسبب كفرهم وظلمهم.

٦ - توعَّد الله سبحانه المكذبين المستكبرين أن لا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا ولا تفتح أبواب السماء لأدعيتهم إذا دعوا، ولا لأعمالهم، لأنها لا تُقبل بل تُرد عليهم ويضرب بها في وجوههم، كما توعَّدهم بالحرمان من دخول الجنة، وسيكون مصيرهم النار، تغشاهم من كل جانب، ويأتيهم هولها وعذابها من فوقهم ومن تحتهم.

بين أصحاب الجنة وأصحاب النار

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (الأعراف ٤٢-٤٥)

التفسير الإجمالي للآيات

يَعِدُ الله سبحانه المؤمنين الذين عملوا الصالحات، أن يكونوا أصحاب الجنة وأهلَها، ينالون فيها الخلود، بعد أن تطهر صدورهم من الغل والشحناء، ويُمتعون بالأنهار تجري من تحتهم، فيحمدون الله على هذا النعيم الذي هداهم إليه، ويأتيهم النداء: أنكم أورثتم الجنة بأعمالكم الصالحة التي قدمتموها في الدنيا.

ويبدأ الحوار بين الفريقين؛ أصحاب الجنة وأصحاب النار، بعد أن يستقرَّ كل فريق في موقعه، فينادي أصحابُ الجنة أصحابَ النار قائلين لهم: لقد صدقنا الله وعده، وأعطانا النعيم والخلود في الجنة كما وعدَنا فهل تحقق لكم ما توعدكم الله به من العذاب؟ فيقولون: نعم، وعندئذ ينادي منادٍ: أن لعنة الله على الظالمين، الذين كانوا في الدنيا يصدون عن سبيل الله، وينحرفون ويحرفون الناس عن طريق الحق، ويكفرون بالآخرة، فهاهم في النار يذوقون العذاب، ويغشاهم الهوان.

مناسبة الآيات لما قبلها

ذكرت الآيات السابقة مصير أهل النار وعذابهم وتلاعنهم فيها، وما يحمله كل منهم للآخرين من غل وحقد وغيظ، وبينت الآيات هنا جزاء أهل الجنة، وأنهم يتنعمون فيها، وقد

سلمت قلوبهم من الغل، وصفت عن البغضاء، وتوجهوا إلى ربهم بالحمد على أنه هداهم ووفقهم لدخول الجنة. ثم استكملت الآيات الصورة بعرض مشهد الحوار بين أصحاب الجنة الذين قرَّت عيونهم بنعمة الله، وأصحاب النار الذين اعترفوا بذنوبهم بعد أن ضيعوا فرصتهم فاستحقوا اللعنة والعذاب.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

يتضح من هذه الآيات الاتصال الوثيق بينها وبين موضوع السورة الذي يتناول العقيدة في تاريخها الطويل البعيد، عبر رحلة البشرية منذ كانت على هذه الأرض، وإلى أن تعود إلى الملأ الأعلى ويُفصل بينها، فإما إلى الجنة وإما إلى النار، وها قد عاد المؤمنون المتقون إلى الجنة يُمتعون فيها، ورجع المشركون إلى النار، يرونها عياناً، ويقاسون حَرّها وعذابها.

الهدايات المستخلصة من الآيات:

١ - وعد الله - سبحانه - المؤمنين الذين عملوا الصالحات أن يدخلوا الجنة خالدين فيها، وسيكونون فيها بأحسن حال، وأطيب عيش، حين ينزع الله سبحانه من صدورهم الغلَّ فتصفو قلوبهم، ويتوادون ويتحابّون، وفي هذا إشارة لطيفة إلى أن على المسلم أن يكون سليم الصدر، بعيداً عن الغلّ والحقد، ليكون أقرب إلى الله تعالى، وأعظم أجراً عنده.

٢ - حين يدخل أهل الجنة منازلهم فيها، يحمدون ربهم قائلين: الحمد لله الذي هدانا لهذا الجزاء العظيم وهو الخلود في الجنة ونزع الغل من الصدور، والهداية لهذا كانت بالهداية للإيمان والعمل الصالح في الدنيا. ثم يتحدثون بفضل الله عليهم، وبما وجدوا من تصديق ما جاءتهم به الرسل، وعندئذ ينادَون: أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون. وفي هذا تنويه بأهمية العمل الصالح، وحثٌّ عليه.

٣ - أخرج البخاري عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لا يدخل أحداً الجنةَ عملُه. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة

ورحمة»[1] ولا تعارُض بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ لأن العمل الصالح لا بُد منه لدخول الجنة، ولأن رحمة الله لا تكون إلا للمتقين الذين يعملون الصالحات.

من الأحاديث الواردة في تفسير الآيات

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة: عن النبي صلى الله عليه و سلم قال: «ينادي مناد إن لكم أن تصحُّوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبُّوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، فذلك قوله عز و جل: ﴿ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:٤٣].[2]

أصحاب الأعراف

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (الأعراف ٤٦-٥٣)

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٧٣، رقم ٦١٠٢.

(٢) صحيح مسلم ٤/ ٢١٨٢، رقم ٢٨٣٧.

التفسير الإجمالي للآيات

تعرض الآيات مشهداً من مشاهد يوم الحشر، حيث يُجمع الأولون والآخرون، ويحاسبون على أعمالهم، فيُعرفُ الذين سيكونون من أهل الجنة بعلاماتهم، ويُعرف الذين سيدخلون النار بعلاماتهم، وهناك فريق ثالث، شرَّفهم الله سبحانه بأن جعلهم على الأعراف، والأعرافُ منازل شريفة عالية، وأصحابها هم أرفع الناس درجةً، وأعلاهم رتبة، وأرجح الأقوال فيهم أنهم الرسل والأنبياء،[1] فهم يشرفون من منازلهم العالية على أهل الموقف، ويعرفون من سيصيرون إلى الجنة بعلاماتهم، ويعرفون من سيذهبون إلى النار بعلاماتهم، فينادوا أصحاب الجنة مسلمين عليهم، ثم تُصرف أبصارهم نحو أصحاب النار، فيدعون ربهم أن لا يجعلهم منهم، ويخاطبون رجالاً من أهل النار على جهة التوبيخ والتقريع قائلين لهم: ما أغنى عنكم جمعكم واستكباركم، فقد كنتم في الدنيا تسخرون من المؤمنين، وتُقسمون أنهم لن ينالوا خيراً، ولن تشملهم رحمة الله، وها هم الآن سيقال لهم: ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون، أما أنتم فستُدخلون النار بعد قليل.

وينتهي الحساب ويدخل أهل الجنة الجنةَ متنعمين بما فيها من رزق وخير، ويدخل أهل النار النارَ فيقاسون حرَّها وهولَها، ويشتد عليهم الكرب، فينادون أهل الجنة مستغيثين: أعطونا شيئاً من الماء أو من الرزق الذي رزقكم الله إياه، فيرد عليهم أهل الجنة: إن الله حرمهما على الكافرين بسبب كفرهم وجحودهم ونسيانهم لقاء يومهم هذا. ولأنهم اتخذوا دينهم لهواً ولعباً فشرعوا من الدين ما لم يأذن به الله، واغترّوا بالدنيا ومتاعها، فركنوا إليها، واطمأنوا بها.

وتعود الآيات مجدداً إلى بيان أن الله سبحانه أنزل كتاباً فصَّله على علم، وجعله هدى ورحمة لقوم يؤمنون، وأن أهل النار كذبوا به ونسوه، فلما رأوا تحقُّقَ ما وعد به يوم القيامة اعترفوا بأنه

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، للفخر الرازي ٧/ ١٠١، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للآلوسي ٦/ ١٧٧.

حق، وأخذوا يبحثون عن الشفعاء ليشفعوا لهم، ويتمنون أن يردوا إلى الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً، وهيهات، فقد خسروا أنفسهم، وأضاعوا فرصتهم.

مناسبة الآيات لما قبلها

بينت الآيات السابقة أن الطيبات من الرزق حلال ومباحة في هذه الدنيا للمسلمين والكفار، لكنها ستكون خالصة للمؤمنين يوم القيامة، لا يشاركهم فيها أحد من الكفار وبينت الآيات هنا أن أهل النار يطلبون من أهل الجنة أن يفيضوا عليهم من الماء أو الرزق، فيرد عليهم أهل الجنة أن الله حرم ذلك على الكفار.

وذكرت الآيات السابقة جزاء كل من أصحاب الجنة وأصحاب النار، وجاءت هذه الآيات تعرض حال كل من الفريقين في ساحة الحشر، وأن لهم علامات يُعرفون بها، وموقف أصحاب الأعراف وهم يخاطبون كل فريق بما يناسب مقامه.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تعرض الآيات هنا مشهداً حياً لا يوجد مثله في سائر القرآن الكريم، هو مشهد الحوار بين أصحاب الجنة وأصحاب النار من ناحية، وحوار أصحاب الأعراف مع أصحاب الجنة وأصحاب النار من ناحية أخرى، لتقرر في نهاية المطاف أن الإيمان والعمل الصالح هو السبيل لدخول الجنة، وأن الكفر والعصيان هو السبيل إلى النار، وهذا المشهد يتفق مع موضوع السورة وسياقها.

الهدايات المستخلصة من الآيات:

١ - يُحشر الناس يوم القيامة ويحاسبون على أعمالهم، ويمتاز أصحاب النار بعلامات، وأصحاب الجنة بعلامات، ويُفصل بين الفريقين بحجاب، وهو السور المذكور في قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾[الحديد:١٣] ويكون على الأعراف رجال، الأعراف: جمع عرف وهي شرفات السور المضروب بينهم، والأعراف في اللغة: الأماكن المرتفعة، وهذا الكلام خارج مخرج المدح كما في قوله ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[النور: ٣٧].

٢ - اختلف العلماء في أصحاب الأعراف من هم فقيل: هم الشهداء، وقيل: هم فضلاء المؤمنين فرغوا من شغل أنفسهم وتفرغوا لمطالعة أحوال الناس، وقيل: هم أنبياء، وقيل: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، وقيل: هم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم وهم في كل أمة، وقيل: هم أولاد الزنا، وقيل: هم ملائكة موكلون بهذا السور يميزون الكافرين من المؤمنين قبل إدخالهم الجنة والنار. والراجح من هذه الأقوال- والله أعلم- **أنهم الأنبياء**، لأن الأعراف منزلة عالية رفيعة، وليس لأحد أن يكون أرفع درجة من الأنبياء يوم القيامة، وهذا في الحشر قبل أن يصرف الناس إلى الجنة أو إلى النار. (١)

٣ - لكل من أهل النار وأهل الجنة علامات يُعرفون بها، وذلك قبل الانصراف إلى الجنة أو النار، فمن علامات أهل الجنة بياض الوجوه، أو مواضع الوضوء من المؤمنين، ومن علامات أهل النار سواد الوجوه وما يعلوها من غبرة وعبوس. (٢) والذي يبدو من سياق الآيات أن المقصود علامات أُخَر لا يعرفها عامة الناس، بل يعرفها أصحاب الأعراف دون غيرهم.

٤ - الضمير في قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ عائد على أصحاب الأعراف وأصحاب الجنة، إذ يقولون لهم ذلك وقد عرفوهم بسيماهم قبل أن يؤذن لهم بدخول الجنة، أي لم يدخل الجنة أصحاب الأعراف، ولم يدخلها المخاطبون، والحال أنهم يطمعون في دخولها، وقيل: هم أهل الجنة أي أن أهل الأعراف قالوا لهم: سلام عليكم حال كون أهل الجنة لم يدخلوها والحال أنهم يطمعون في دخولها، وقيل هم أصحاب الأعراف، والصحيح الأول. (٣)

---

(١) انظر: زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي ٢/ ٤٨٤، وتفسير اللباب لابن عادل ٧/ ٣٥٦، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي ٢/ ٤٨٩.

(٢) انظر: زاد المسير ٢/ ٤٨٤، وفتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، للشوكاني ٣/ ٤٢.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، للفخر الرازي ٧/ ١٠٤-١٠٥، والبحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي ٥/ ٣٥٢، ولم أجد من المفسرين من جعل الضمير عائداً على الفريقين، مع أنه لا مانع منه.

٥ - لم يأت مصدر على تِفعال بكسر أوله غير مصدرين أحدهما **تِلقاء** والآخر **تِبيان**، وما عداهما بالفتح.

٦ - إن على الذين يعتزون بمالهم وجاههم وكثرة أتباعهم أن يعلموا أن هذا كله لن يغني عنهم من الله شيئاً، ولن يدفع عنهم العذاب.

٧ - كان الكفار في الدنيا إذا رأوا ضعفاء المسلمين يُقسمون أنهم لن يكسبوا خيراً، ولن تنالهم رحمة الله، وكانوا يستهزءون بهم، وفي يوم القيامة يتغير الحال، ويُقال لهؤلاء الكفار على وجه التبكيت والتحسير لهم: أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة؟ ها هم ينتظرون أن يُقال لهم: ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون.

٨ - إذا انصرف أهل الجنة إلى الجنة، وأدخلوها وتبوءوا منازلها، وصُرف أهل النار إلى النار، وذاقوا من عذابها، أخذوا ينادون أهل الجنة مستغيثين ضارعين: ﴿ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ﴾. فيردون عليهم قائلين: إن الله حرم الماء والرزق على الكافرين، فلا نواسيكم بشيء مما حرمه الله عليكم. لأنكم ما كنتم تقيمون للدين وزناً، ولا تعرفون له قدراً، بل اتخذتموه لهواً ولعباً، وركنتم إلى الحياة الدنيا واغتررتم بشهواتها ومتعها الفانية الزائلة.

٩ - لقد أنزل الله الكتاب بالحق، وفصَّله عالماً به حال كونه ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ للمؤمنين، واشتمل هذا الكتاب على البيان الشافي، ولكن الكفار كذَّبوا به وأنكروه، فهل ينتظرون - بعدم إيمانهم به - إلا ما يؤول إليه أمره من تبيُّن صدقه بظهور ما أخبر به من الوعد والوعيد؟ ويوم يأتي تأويله هو يوم القيامة، حيث يُفضي كلٌ إلى ما قدم من عمل، ولا ينفع المكذبين أن يعترفوا، ولا يكون لهم شافع، ولا يجابون إلى ما طلبوا.

من مظاهر قدرة الله تعالى

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ سورة الأعراف (٥٤-٥٨)

التفسير الإجمالي للآيات

يوجه القرآن أنظار العباد وعقولهم إلى بعض مظاهر قدرة الله سبحانه في هذا الكون، فهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم استوى على العرش، وهو الذي يجعل الليل يغطي بظلمته النهار، وسخر الشمس والقمر والنجوم، فالشمس للدفء والضياء، والقمر للإنارة، وكلاهما لمعرفة عدد السنين والحساب، ومعرفة المواقيت، والنجوم زينة للسماء وحراسة لها، وبها يهتدي الناس في ظلمات البر والبحر.

إن الذي سخر لنا هذه المخلوقات العظيمة هو الله الذي له الخلق والأمر، فعلينا أن نتوجه إليه بإخلاص الدعاء والضراعة الدالة على شدة الخوف من عذابه، وغلبة الرجاء والطمع في رحمته.

عن الحسن قال: «لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسمع لهم صوت إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله يقول: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ ﴾، وذلك أن الله ذكر

عبداً صالحاً فرضي قوله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾.[١]

وهو سبحانه يدعونا إلى الإخلاص والإصلاح، كما يدعونا إلى البعد عن الفساد والتخريب، فمن التزم بأمر الله تعالى كان من المحسنين، واستحق أن تصيبَهُ رحمة الله.

ورحمة الله عامة تشمل كثيراً من المعاني، ويدخل فيها العفو والمغفرة والتوفيق والإنعام كما يدخل فيها إغاثة الناس بالمطر، وإرسال الرياح لتحمل السحاب المثقل بالمطر، وتسوقه إلى البلاد المجدبة الميتة، وإنزاله فيها غيثاً تحيا به الأرض، ويستبشر به الناس، لما فيه من الخصب والبركة والخير، ومع هذا المشهد الرائع المثير، مشهد إحياء الأرض بعد موتها، وإخراج نباتها وأحيائها، يُذكّرنا القرآن بإخراج الموتى من قبورهم يوم البعث، وأن ذلك هين على الله سبحانه، كإحياء الأرض بعد موتها.

وكما أن هناك أرضاً تحيا بالماء، وتنبت من كل زوج بهيج، ويخرج نباتها طيباً مباركاً، لأن تربتها طيبة، فهناك أيضاً أرض خبيثة مالحة، لا تنبت إلا الشوك والنبات المُرَّ الذي لا خير فيه، وفي هذا إشارة إلى أن القلوب التي تَقبل ذكر الله تعالى وهديَه ورحمته تَنبُت فيها الحكمة، وتُشرق بأنوار العلم والهدى، أما القلوب الخبيثة النكدة فلا يزيدها ذكرُ الله وهديه إلا بعداً عن الحق، وإغراقاً في الضلال.

مناسبة الآيات لما قبلها

عرضت الآيات السابقة بعض المشاهد مما يكون في يوم القيامة، من حوار بين أهل الجنة وأهل النار، ومخاطبة أصحاب الأعراف لكل من أصحاب الجنة وأصحاب النار، وبينت الأسباب التي قادت الكفار إلى هذا المصير الفاجع الأليم، وأنهم لو كانوا يعقلون ويفقهون لما خسروا أنفسهم، وجاءت الآيات هنا تعرض عدداً من مشاهد قدرة الله تعالى في خلق السموات والأرض وتغشية الليل النهار.. وإرسال الرياح التي تحمل الغيث للبلاد والعباد.. عسى أن

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٣/ ٤٩.

تكون هذه الشواهد سبيلاً للاعتبار والتفكر، ودليلاً يقود إلى الإيمان.

وبينت الآيات السابقة أن الناس صنفان؛ صالحون محسنون، قبلوا الهدى واتبعوه فهم أهل الجنة، وفاسدون مجرمون، رفضوا الهدى وأعرضوا عنه، فهم أهل النار، وبينت الآيات هنا أن البلاد صنفان؛ بلاد طيبة تقبل الماء فتنبت النبات الطيب النافع، وبلاد خبيثة يخرج نباتها نكداً عسراً رديء الثمر.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

هذا المقطع من السورة يعرض بعض المشاهد التي تدل على عظمة الله تعالى وقدرته، فهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام، وهو الذي يغشي الليل النهار، ويسخر الشمس والقمر والنجوم، وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته، ويسوق السحاب الثقال إلى البلد الميت فينزل به الماء ويخرج به من كل الثمرات، وفي ذلك إشارة إلى إخراج الموتى من قبورهم، وبعثهم بعد الموت للعرض والحساب. إن عرض هذه المشاهد والدلائل يشكل دعوة صريحة لكل غافل أن يتفكر ويتدبر، لعله يهتدي ويتذكر فيعود إلى ربه، ويتوب من ذنبه.

والشيطان الذي أعلن عداوته من بداية الأمر يحرص أن يُبقي الإنسان في غفلة عن ربه، وأن يغره ويمنيه ويسول له، وكثيراً ما يستجيب الناس لأماني الشيطان، وينسون اليوم الآخر وتأخذهم الدنيا بشهواتها ومُتعها، فتأتي هذه الآيات مذكرة للإنسان بقدرة الله وعظمته وبأهمية العودة إليه والإقبال عليه قبل أن يطول الأمد ويضيع الوقت.

الهدايات المستخلصة من هذه الآيات

١ - إن الله سبحانه قادر على خلق السموات والأرض في لحظة واحدة، ولكنه خلقها في ستة أيام لحكم كثيرة منها أنه أراد أن يُعلم عباده الرفق والتأني في الأمور، أو خلقها في ستة أيام لأن لكل شيء عنده أجلاً، فهو سبحانه قادر على أن يخلق المولود في لحظة واحدة، لكنه قضى أن يمر هذا المولود بأطوار النشأة والحمل، ويتدرج حتى يخرج إلى الحياة بشراً سوياً

وذلك أدلّ على القدرة.

٢ - الاستواء على العرش استواء يليق بجلال الله وعظمته، مع تنزُّهه عن مشابهة المخلوقات، لأنه سبحانه كما وصف نفسه بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. والاستواء في لغة العرب يأتي بمعنى العلو والاستقرار. قال الجوهري:[(١)] استوى على ظهر دابته أي استقر، واستوى إلى السماء أي صعد، كما يأتي بمعنى الاستيلاء والظهور، ومنه قول الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

واستوى الرجل: انتهى شبابه، واستوى: انتسق واعتدل. وحُكِي عن أبي عبيدة أن معنى استوى هنا: علا. ومثله قول الشاعر:

فأورَدَهم ماء ثقيفاً بقفرة ... وقد حلق النجم اليماني فاستوى

أي علا وارتفع. والعرش: يطلق على معان منها سرير الملك، وسقف البيت، ويطلق على الملك والسلطان والعز، ومنه قول زهير:

تداركتما عبسا وقد ثُلَّ عرشُها ... وذبيان إذ زلت بأقدامها النعل

وقول الآخر:

إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم ... بعتيبة بن الحارث بن شهاب

وقول الآخر:

رأوا عرشي تثلم جانباه ... فلما أن تثلم أفردوني

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة صفة عرش الرحمن وإحاطته بالسموات والأرض وما

(١) فتح القدير، للشوكاني ٣/ ٤٤، وأقاويل الثقات للكرمي ١/ ١٢٦-١٢٧.

بينهما وما عليهما وهو المراد هنا.[(١)]

٣ - من عجائب قدرة الله سبحانه أنه يغشي الليل النهار، أي يجعل الليل كالغشاء للنهار فيغطي بظلمته ضياءه، ويستمر الليل والنهار في تتابع وحركة دائبة، وأنه سبحانه سخَّر الشمس والقمر والنجوم، لينتفع الناس ويرتفقوا بذلك.

٤ - لله سبحانه الخلق والأمر، فهو الذي يخلق ما يشاء، ويأمر بما يريد، ويتصرف بمخلوقاته كما يشاء.

٥ - أمر الله سبحانه عباده بالدعاء، وأن يكون الداعي متضرعاً بدعائه مخفياً له، والتضرع من الضراعة: وهي الذلة والخشوع والاستكانة، والخفية: الإسرار بالدعاء حتى يكون الدعاء خالصاً لله سبحانه، ليس فيه رياء.

٦ - من آداب الدعاء أن لا يعتدي الداعي في دعائه، ومن الاعتداء في الدعاء أن يسأل الداعي ما ليس له كالخلود في الدنيا، أو إدراك ما هو محال في نفسه، أو يطلب الوصول إلى منازل الأنبياء في الآخرة، أو يرفع صوته بالدعاء صارخاً به. فالمسلم يدعو ربه خاضعاً له متضرعاً متذللاً، ويستخفي بدعائه ليكون ذلك أقرب إلى الإخلاص والبعد عن الرياء، ولا يعتدي في دعائه ولا يدعو بالإثم أو قطع الرحم، ويجمع في دعائه بين خيري الدنيا والآخرة، ويُلح في الدعاء والرجاء، ولا يستعجل الإجابة، وعلى الداعي أن يكون عند دعائه خائفاً وجلاً طامعاً في إجابة الله لدعائه، فإنه إذا كان عند الدعاء جامعاً بين الخوف والرجاء ظفر بمطلوبه. ويلتزم جميع شروط الدعاء وآدابه، فالدعاء عبادة عظيمة، يحبها الله ويثيب عليها، ويستجيب لمن يدعونه.

٧ - نهى الله سبحانه عن الفساد في الأرض بجميع أشكاله وألوانه، ومن الفساد قتل الناس

---

(١) انظر: معالم التنزيل للبغوي ١/ ٣١٣، ومفاتيح الغيب، للرازي ١١/ ٤١٢، وشرح العقيدة الطحاوية للراجحي ١/ ١٩٩.



وتخريب منازلهم وقطع أشجارهم وتغوير أنهارهم، ومنه أيضاً الكفر بالله والوقوع في معاصيه، فمن ابتعد عن الفساد، وأقبل على عبادة الله وطاعته فهو من المحسنين الذين تنالهم رحمة الله.

٨ - مظاهر قدرة الله تعالى كثيرة يلاحظها الإنسان أينما توجه، فهو الذي يرسل الرياح بُشراً بين يدي رحمته، تسوق السحاب المثقل بالمطر، وتحمله إلى البلاد الميتة المجدبة، ثم ينزل الغيث بإذن الله سبحانه بالبلد الميت، وما هي إلا أيام قليلة حتى نرى الأرض وقد أنبتت الزرع والكلأ والثمرات.

٩ - إن إخراج الموتى من قبورهم بقدرة الله تعالى ليس بالأمر المستغرب، فكما يُحيي الله الأرض بعد موتها، ويملأ فجاجها خصباً وحياة، فإنه قادر على إخراج الموتى من قبورهم، وإعادة الأرواح والحياة إلى أجسادهم.

١٠ - التربة الطيبة يخرج نباتها بإذن الله وتيسيره خروجاً حسناً تاماً وافياً، أما التربة الخبيثة فإن نباتها لا يخرج إلا نكداً عسراً لا خير فيه. وهذا مثل للقلوب، فالقلب القابل للوعظ كالبلد الطيب، والمعرض عنه كالبلد الخبيث، أو هو مثل لقلب المؤمن والمنافق، أو هو مثل للطيب والخبيث من بني آدم، وكل ذلك تحتمله الآية.

قوم نوح عليه الصلاة والسلام وموقفهم من دعوته

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ سورة الأعراف (٥٩-٦٤)

التفسير الإجمالي للآيات

تبين هذه الآيات أن الله سبحانه أرسل نبيه نوحاً عليه الصلاة والسلام إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويحذرهم من عذاب يوم القيامة إن أصروا على ما كانوا عليه من الشرك وعبادة الأصنام، فرد عليه الملأ من الكبراء والأشراف والزعماء متهمين إياه بالضلال المبين الظاهر، لكنه رد هذه التهمة عن نفسه مبيناً أنه رسول من الله إليهم، وعليه أن يبلغهم رسالات ربه، وينصح لهم ويدلهم على الخير، فهم قومه، وهو منهم، والرائد لا يَكذبُ أهلَهُ. كما بين لهم أن الله تعالى علَّمه من علم الوحي والغيب ما لا يعلمون. لكن القوم رفضوا دعوته، منكرين أن ينزل الله الذكر على رجل منهم، وبشر مثلهم، فرد عليهم نوح أن هذا ليس بعجيب من أمر الله سبحانه، فالله سبحانه أنزل هذه الرسالة على بشر مثلهم، وأمره أن ينذرهم ويبلغهم، فلعلهم يتقون فتصيبهم رحمة الله، ويكون لهم الفوز بالجنة والنجاة من النار.

لكن هؤلاء القوم كذبوا نبيَّهم، ورفضوا دعوته، وأصرُّوا على شركهم وضلالهم، واستمرَّ نوح يدعوهم ويُذَكِّرُهم مدة متطاولة، كما تَبيَّنَ في سور أخر، وفي نهاية المطاف أمر الله نوحاً أن يصنع الفُلْك أي السفينة العظيمة، وأن يدعو المؤمنين إلى ركوبها، فلما ركبوها نجاه الله وإياهم، وأنزل عذابه على أولئك القوم، حيث فُتحت أبواب السماء بماء منهمر، وتفجَّرت الأرض عيوناً تفور بالماء، فالتقى ماء السماء وماء الأرض، وصار طوفاناً أغرق الكفار وأهلكهم، وهكذا

كانت العاقبة بنجاة المؤمنين، وهلاك الكافرين.

مناسبة الآيات لما قبلها

لما بين سبحانه كمال قدرته وبديع صنعته في الآيات السابقة ذكر هنا قَصص الأمم وما فيها من تحذير الكفار ووعيدهم لتنبيه هذه الأمة على الصواب، وأن لا يقتدوا بمن خالف الحق من الأمم السالفة.

وقد بينت الآيات السابقة أن الماء قد يكون سبباً في إحياء الأرض بعد موتها، وفي هذه الآيات بيان أن الماء من جنود الله التي يمكن أن تهلك الكفار والمجرمين، كما حصل لقوم نوح بعد أن كذبوا نبيهم.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تشكل هذه الآيات حلقة أساسية من موضوع السورة، حيث تقص علينا - بإيجازٍ - قصة نوح عليه الصلاة والسلام مع قومه، فقد دعاهم إلى الإسلام، وحذرهم من العصيان، لكنهم أصروا على الكفر وطاعة الشيطان وعبادة الأصنام، واتهموا نبيهم بالضلال، وتمادوا في ذلك على مدى عشرة قرون تقريباً، فحق عليهم العذاب، ونزل بهم الهلاك، وباءوا بخزي الدنيا وعذاب الآخرة. أما المؤمنون فقد نجاهم الله سبحانه في الفُلْك، وجعل لهم العاقبة.

لقد كان قوم نوح عليه الصلاة والسلام نموذجاً راسخاً للعناد والتكذيب، ومثلاً واضحاً لاستحواذ الشيطان على غالبية البشر، وكانت هذه القصة على - قصرها وإيجازها- حلقة كبيرة في سلسلة البشرية عبر تاريخها الطويل الحافل بتكذيب الأمم للأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام.

الهدايات المستخلصة من هذه الآيات

١ - كان نوح عليه الصلاة والسلام أول الرسل إلى أهل الأرض بعد آدم، جاء يدعو قومه إلى توحيد الله سبحانه وترك عبادة الأصنام التي انتشرت بينهم، فقال يا قوم اعبدوا الله ما

لكم من إله غيره، فهو الإله الواحد المستحق للعبادة، ولبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً،[1] يدعو إلى الله على بصيرة، ولا يترك وسيلة ولا طريقة من طرق الدعوة إلا اتبعها مع قومه، فحذرهم وأنذرهم، ورغَّبهم ورهَّبهم، ودعاهم سراً وعلانية، لكن الملأ من قومه وهم أشراف القوم ورؤساؤهم، ردوا عليه باتهامه بالضلال والعدول عن طريق الحق والذهاب عن الصواب.

٢ - صبر نوح عليه الصلاة والسلام على إيذاء قومه له، صبراً جميلاً، وبين لهم أنه رسول من رب العالمين، جاء يرشدهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم، ويبلغهم رسالات الله التي أرسله بها إليهم من الهدى والعلم، وينصح لهم. وهكذا شأن الدعاة أن يلتزموا بالأخلاق العظيمة كالصبر والحلم والنشاط في تبليغ الدعوة، والحكمة في مخاطبة الناس والتعامل معهم.

٣ - كان نوح يقص على قومه ما جاءه من الوحي من عند الله سبحانه، ويعلمهم أنه يعلم من الله ما لا يعلمون ويجادلهم بالتي هي أحسن، ويقيم عليهم الحجة بما آتاه الله من فصاحة وبيان، ورغم كل ذلك رفض القوم دعوته، واتهموه بالجنون والكذب، وآذوه واستهزأوا به، وهو صابر لا يكف عن الدعوة، ولا يمل من نصحهم وإرشادهم.

٤ - استمر قوم نوح على كفرهم وضلالهم، ولم يؤمن مع نوح إلا قلة من قومه، وكانت العاقبة أن الله سبحانه نَجَّى نبيَّهُ وأولياءه المؤمنين في الفُلْك، وهي السفينة التي صنعها ليحمل فيها من آمن به واتبعه، وأغرق الذين كذبوا ورفضوا الإيمان والهدى، فقد كانوا قوما عمين، عميت قلوبهم، وانطمست بصائرهم عن رؤية الحق، وسماع الخير، فاستحقوا الهلاك والغرق بالطوفان.

---

(١) ورد هذا الرقم في قوله تعالى: (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) [العنكبوت: ١٤].

عاد وموقفهم من دعوة نبيهم هود عليه الصلاة والسلام

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ **سورة الأعراف (٦٥-٧٢)**

التفسير الإجمالي للآيات

يبين الله سبحانه أنه أرسل إلى عاد أخاهم هوداً يدعوهم إلى عبادة الله وتوحيده وطاعته، ويحذرهم من عذابه وعقابه، وكانت قبيلة عاد تسكن منطقة الأحقاف، وهي منطقة واسعة في جنوب جزيرة العرب بين اليمن وعُمان، وكان الواجب عليهم أن يطيعوه ويتبعوا ما جاءهم به فهو أخوهم ومنهم، ويعرفون صدقه وأمانته وحسن خُلُقه، لكن الملأ من هؤلاء القوم ردوا عليه رداً منكراً، واتهموه بالسفاهة وقلة العقل، كما نسبوه إلى الكذب، فرد عليهم ذلك مبيناً مهمته التي أرسله الله بها، وأنه ناصح لقومه، أمين فيما يبلغهم به، وأخذ يذكرهم بنعم الله عليهم، ومن هذه النعم أنه جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح، وأنه أعطاهم بسطة في الأجسام، وقوة وضخامة زيادة على غيرهم من الناس، ومكن لهم في الأرض حتى كانت لهم دولة قوية.[1]

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٤٣٦، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي ٣/ ٣.

لكن القوم أنكروا على نبيهم أن يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وترك الأصنام الكثيرة التي وجدوا آباءَهم على عبادتها.

واستمر هود عليه الصلاة والسلام يدعو قومه إلى الله، ويحاورهم ويقيم عليهم الحجة يرغبهم بما عند الله من حسن الجزاء للمؤمنين، ويحذرهم من عذاب الله وبأسه إن أصروا على كفرهم وضلالهم، لكن القوم لم يلتفتوا إلى ذلك التحذير، بل تحدوه بأن يأتيهم بهذا العذاب الذي يعدهم به، ولما وصل بهم الأمر إلى هذه الدرجة من الإعراض والصد عن سبيل الله تعالى، وطال عليهم الأمد في الكفر والجحود، نَجَّى الله نبيه هوداً والمؤمنين الذين اتبعوه، وأنزل عقابه بالكافرين المكذبين، فأهلكهم ولم يُبق منهم أحداً.

وبهذا جرت على عاد سُنة الله في المكذبين، وحلت بهم النقمة حيث أرسل الله عليهم ريحاً باردة شديدة الهبوب عصفت بهم فأهلكتهم فكانوا كأنهم أعجاز نخل خاوية. [١]

مناسبة الآيات لما قبلها

لما بين الله سبحانه ما جرى لنوح عليه الصلاة والسلام مع قومه، حيث كفروا به وكذبوه فأهلكهم الله بالغرق، وجعلهم عبرة لمن بعدهم، ذكر هنا عاداً قوم هود عليه الصلاة والسلام مبيناً أنهم لم يعتبروا بقوم نوح، ولم يؤمنوا بما جاءهم به نبيهم، بل أصروا على الكفر والتكذيب فاستحقوا أن ينزل بهم بأس الله وعقابه، بعد أن نَجَّى الله نبيه هوداً والمؤمنين معه.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

هذه الآيات تقص علينا خبر عاد، أولئك القوم الذين أوتوا بسطة في الأجسام وقوة وسطوة، ومكن الله لهم في الأرض، وأغدق عليهم النعم الكثيرة، لكنهم أصروا على كفرهم وضلالهم، وسلكوا سبيل الشيطان، وكذبوا نبي الله هوداً عليه الصلاة والسلام، فأهلكهم

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٤٣٥، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي ٣/ ٣.

الله سبحانه عن آخرهم، ونَجَّى نبيه والمؤمنين به، وهكذا تشكل هذه الآيات حلقة في سلسلة المواجهة بين الحق والباطل عبر التاريخ السحيق المديد، وتعرض صورة من صور انحراف البشرية عن منهج الحق وسبيل الإيمان.

الهدايات المستخلصة من هذه الآيات

١ - هود عليه الصلاة والسلام نبي كريم أرسله الله تعالى ليدعو قومه إلى الإسلام بعد أن كفروا وعبدوا الأصنام، وظلموا الناس. وسُمي أخاهم لأنه منهم، فكل من كان من القوم فهو أخوهم.

٢ - كان أول ما دعاهم إليه توحيد الله تعالى، وعبادته وحده، فقال لهم: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، كما قال نوح عليه الصلاة والسلام من قبله، وذلك لأن دعوة الأنبياء جميعاً واحدة، جاءوا جميعاً يدعون إلى توحيد الله سبحانه.

٣ - تصدى له أشراف قومه من الزعماء والكبراء، فنسبوه إلى السفاهة، وهي الخفة والطيش وقلة العقل، واتهموه بالكذب، وواجهوه بما يكره من الإيذاء والاستهزاء، وهذا شأن الأمم مع أنبيائهم ورسلهم.

٤ - رد عليهم هود بنفي السفاهة عن نفسه، وبين لهم أنه رسول الله رب العالمين، ولا يُقبل بحال أن يُرسل الله سفيهاً، ثم بين لهم أنه جاءهم يبلغهم رسالة الله، فالله سبحانه كلف كل رسول أن يبلغ الرسالة، وأن يدعو قومه إلى الهدى والإيمان، ويحذرهم من الضلال والكفر، وهو أمين على هذه الدعوة، ولا يمكن بحال أن يخون قومه أو يريد بهم شراً.

٥ - رد هؤلاء على نبيهم هود عليه الصلاة والسلام، بمثل ما رد قوم نوح على رسولهم، فعجبوا كيف ينزل الله الذكر والوحي على بشر منهم، وظنوا أن الرسول لا بد أن يكون ملكاً من الملائكة، فردّ عليهم هود عليه السلام منكراً عليهم هذا العجب، قائلاً لهم: أأنكرتم وعجبتم أن جاءكم هذا الذكر والوحي على رجل منكم تعرفونه وتعرفون صدقه وأمانته؟

٦ - ذكّر هود قومه بنعمة الله عليه حيث جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح، وذكّرهم بقوم نوح

الذين عمروا الأرض قبلهم، وعاشوا مدة طويلة، وكيف أهلكهم الله بالغرق، فلم يبق إلا آثارهم، وخرائب ديارهم، بسبب تكذيبهم وكفرهم، وها أنتم تخلفونهم، وتتمتعون بمثل ما كانوا يتمتعون به، وقد أكرمكم الله تعالى بنعمة أخرى هي بسطة الأجسام، وقوتها وضخامتها، مما جعلكم تغلبون الناس وتملكونهم فاذكروا آلاء الله ونعمه العظيمة، ومن جملتها نعمة الاستخلاف في الأرض، والبسطة في الخلق، وغير ذلك مما أنعم الله به عليكم.

٧ - أنكر القوم على نبيهم أن يدعوهم إلى عبادة إله واحد، وتمسكوا بعبادة أصنامهم، تقليداً لآبائهم، وحفاظاً على موروثاتهم، فقالوا له: أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا؟ وكلامهم هذا يتضمن الرد على نبيهم ورفض دعوته، فهم لا يقبلون بديلاً عن دين آبائهم.

٨ - لم يقف القوم عند هذا الحد بل قالوا لنبيهم على وجه التحدي والرفض: فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، وكان هود عليه الصلاة والسلام قد حذرهم من نزول العذاب بهم إن هم استمروا على كفرهم وتكذيبهم، فاستعجلوا بطلب العذاب تحدياً لنبيهم، وإصراراً على باطلهم.

٩ - حذرهم نبيهم مبيناً أنه لا بد أن يقع عليهم العذاب إذا استمروا في ضلالهم، وأنكر عليهم ما وقع منهم من المجادلة في الأصنام التي كانوا يعبدونها، مع أنهم يدركون أنها لا تنفع ولا تضر، ولا تغني عنهم شيئاً. وكيف يجعلونها آلهة وهم يصنعونها بأيديهم؟

١٠ - لما رأى هود إصرارهم على كفرهم وشركهم توعدهم بأشد وعيد فقال: فانتظروا إني معكم من المنتظرين، أي فانتظروا ما طلبتموه من العذاب فإني معكم من المنتظرين له وهو واقع بكم لا محالة، ونازل عليكم في موعده بلا تأخير.

١١ - وحين جاء الأجل المحتوم نَجَّى الله سبحانه نبيه هوداً ومن معه من المؤمنين، وأنزل العذاب بهؤلاء الكافرين، وقطع دابر القوم المكذبين، أي استأصلهم جميعاً عن آخرهم فلم يُبقِ منهم أحداً، كما في قوله سبحانه: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾[النجم: ٥٠-٥١]، وإنما استحق هؤلاء الهلاك والعذاب لأنهم كفروا بربهم وعصوا رسوله، واتبعوا سبيل الشيطان.

ثمود وموقفهم من دعوة نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ سورة الأعراف (٧٣-٧٩)

التفسير الإجمالي للآيات

يبين الله سبحانه أنه أرسل إلى ثمود أخاهم صالحاً، وكانت قبيلة ثمود تسكن في جزيرة العرب على مقربة من الطريق المتجه من المدينة المنورة إلى تبوك، فأخذ صالح عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى الإيمان بالله وتوحيده وترك عبادة الأصنام، وأظهر لهم معجزة بينة أيده الله بها، وهي ناقة استخرجها من الصخر، بإذن الله تعالى، وأمرهم أن يتركوها ترعى في الأرض، ولا يتعرضوا لها بأذى، وذكرهم بما أنعم الله عليهم من نعم عظيمة، فقد جعلهم خلفاء من بعد عاد، ومكن لهم في الأرض فكانوا ينحتون بيوتهم في الجبال، ويبنون قصورهم في السهول الواسعة، وكانت أرزاقهم دارّةً، والخيرات بأرضهم وافرة، وقد استجاب لصالح عليه الصلاة والسلام نفر من الضعفاء والبسطاء، أما الملأ فاستكبروا ورفضوا الإيمان، وتوجهوا إلى الضعفاء يسألونهم بتهكم واستهزاء: ﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ ﴾ فأجاب هؤلاء بأنهم آمنوا به واتبعوه وصدقوه، عندئذ رد عليهم الملأ قائلين: ﴿ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ

كَفِرُونَ ﴾ كأنهم يقولون: إن أول شيء يدعونا إلى الكفر بما جاء به صالح هو أنكم اتبعتموه وآمنتم به، ونحن نريد أن نخالفكم، ولا نرضى أن نتبعكم.

استمر صالح يدعو قومه إلى الإيمان بالله، وأقام بينهم مدة من الزمان لا يتردد في عرض هذه الدعوة عليهم، ولا يمل من إنذارهم وتحذيرهم من عقاب الله، وترغيبهم بما أعده الله للمؤمنين، لكن القوم عموا وصمُّوا عن دعوته، ورفضوا الاستجابة له والدخول في دينه، وأخذ هؤلاء المجرمون يكيدون ويدبِّرون، فعقروا الناقة وقتلوها، وجاهروا بالكفر والتكذيب، وطالبوا صالحاً في تحدٍ واستكبار- أن يأتيهم بالعذاب الذي يخوفهم به، وأخذوا يدبِّرون لقتل صالحٍ وأهله.

وحين بلغوا هذا المبلغ من الكفر والإصرار على الظلم والطغيان حقت عليهم كلمة العذاب، فنجَّى الله تعالى نبيه صالحاً ومن معه من المؤمنين، وأنزل بأسه بالكافرين المكذبين، حيث أخذتهم صيحةٌ صاعقة شديدة، جعلت الأرض ترتجف بهم، حتى لم يبق منهم حيٌّ. ونظر صالح عليه الصلاة والسلام إلى ما حلّ بقومه من الدمار والهلاك، فقال: يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، ولكن لا تحبون الناصحين.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن قصة هود عليه الصلاة والسلام، مبينة أن قومه قد كفروا به وكذبوه، وأن الله سبحانه أخذهم بالعذاب ونجّى نبيه هوداً والذين آمنوا معه، وتحدثت الآيات هنا عن قصة مشابهة هي قصة صالح عليه الصلاة والسلام مع قومه الذين كفروا به وكذبوه وآذوه، فأهلكهم الله سبحانه بعد أن نجَّى نبيه صالحاً والذين آمنوا معه.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تعرض هذه الآيات حلقة أخرى من سلسلة الأجيال البشرية التي واجهت الدعوة وكفرت بالرسل ورفضت الإيمان، فالسورة تبين أن أمماً كثيرة كفرت وكذّبت، وفي النهاية

واجهت مصيراً مشابهاً، حيث كان العذاب ينزل بكل أمة من هذه الأمم المكذبة فيمحقها ويهلكها، وهذه الآيات التي تعرض قصة ثمود (قوم صالح عليه الصلاة والسلام) وتبين كفرهم وتكذيبهم وموقفهم من نبيهم، تبين أنهم أُهلكوا فلم ينج منهم أحد، شأنهم في ذلك شأن من سبقهم من الأمم.

الهدايات المستخلصة من هذه الآيات

١ - صالح عليه الصلاة والسلام رسول كريم أرسله الله تعالى إلى قومه ثمود، وكانت مساكن ثمود في منطقة الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي القرى. وقد دعا صالح قومه إلى توحيد الله وعبادته فقال لهم: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، وحذرهم من الشرك بالله وعبادة الأصنام.

٢ - كذّب القوم ورفضوا اتباع صالح عليه الصلاة والسلام، وطالبوه أن يأتيهم ببينة على أنه رسول من عند الله تعالى، فأخرج لهم ناقة، وبين لهم أن هذه الناقة آية ظاهرة على أن الله تعالى أرسله إليهم.

٣ - كان من عجيب أمر هذه الناقة أنها تشرب ماء العين يوماً، ويشربون يوماً، وترعى في الأرض، فليس لهم أن يمنعوها أو يعترضوها، وفي يوم شربها يحتلبون منها ما يكفيهم من اللبن،[1] وحذرهم نبيهم أن يمسوها بسوء، أو يؤذوها قائلاً لهم: فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء أي دعوها تأكل في أرض الله فهي ناقة الله، والأرض أرضه، فلا تمنعوها مما ليس لكم ولا تملكونه، ولا تتعرضوا لها بوجه من الوجوه التي تسوءها فإنكم إذا فعلتم ذلك عرضتم أنفسكم لعذاب الله وبأسه.

٤ - مضى صالح يدعو قومه إلى الله ويذكّرهم بفضله ونعمه عليهم، ويحذّرهم مما حصل للأمم من قبلهم، فالتذكير بالنعم يتضمن التوجيه إلى شكر المنعم، والتذكير بالمثلات والعقوبات

(١) كما ورد في الحديث الشريف، وسيأتي ذكره قريباً.



يتضمن التخويف والتحذير من المخالفة.

٥ - تشير الآيات إلى أن ثمود كانوا ممكنين في الأرض، مستخلفين فيها، ولهم من الملك والجاه والسلطان ما ليس لغيرهم، وكانوا يتخذون من سهول الأرض قصوراً يبنونها مستخدمين تراب الأرض ورملها وحجارتها في البناء، وينحتون في الجبال الصخرية بيوتاً يسكنون فيها، وقد كانوا لقوتهم وصلابة أبدانهم ينحتون الجبال فيتخذون فيها كهوفاً وبيوتاً واسعة للسكنى، وقد بلغوا من الحضارة وفنون العمران شأواً بعيداً.

٦ - ولأن القوة والسعة وكثرة المال والجاه تدعو أهلها إلى الإفساد والبغي، فقد حذّر صالح قومه من الإفساد في الأرض، مبيناً لهم سوء عاقبة المفسدين.

٧ - كان موقف الملأ- وهم الرؤساء المستكبرون من قوم صالح - أن جادلوا ورفضوا دعوته، وتوجهوا إلى من آمن مِنَ المستضعفين يستهزءون بهم، وينكرون عليهم الإيمان واتباع صالح عليه الصلاة والسلام.

٨ - ثم أخذوا يخططون ويمكرون بصالح ومن معه، في تحدٍّ واستكبار، غير مكترثين لما يترتب على ذلك من العواقب السيئة.

٩ - عقر القوم الناقة، والعقر: قطع عضو يؤثر في تلف النفس، يقال: عقرتُ الفرس إذا ضربت قوائمه بالسيف، وأصل العقر كسر عرقوب البعير، ثم قيل للنحر عقر، لأن العقر سبب النحر في الغالب، وأسند العقر إلى الجميع فقال: ﴿ فَعَقَرُواْ ﴾ مع أن العاقر واحد منهم لأنهم راضون بذلك موافقون عليه، وهذا يؤكد أن الرضا بالكفر كفر، والرضا بالمعصية مشاركة فيها.

١٠ - وكان عقرهم للناقة دليلاً واضحاً على عتوهم وطغيانهم واستكبارهم، ورغم ذلك لم يتوقفوا عن مطالبة صالح بأن يأتيهم بالعذاب، وهذا أشد ما يكون من التحدي والطغيان.

١١ - وتبين الآيات الواردة في سورة النمل أن القوم تآمروا لقتل صالح وأهله ليلاً، وأن يكتموا خبر ذلك عن وليه. وحين وصل الأمر بهم إلى هذا الحدِّ استحقوا أن ينزل بهم عقاب الله، وأن يأخذهم العذاب الذي كانوا يستعجلون به.

١٢ - نجَّى الله نبيه صالحاً ومن آمن معه، وأرسل على ثمود صيحة شديدة أدت إلى ارتجاف الأرض وزلزلتها بهم، فلم ينج منهم أحد، بل هلكوا جميعاً، وأصبحوا في دارهم جاثمين أجساداً ملقاة على الأرض ليس فيها روح ولا حياة.

١٣ - ورأى صالح عليه الصلاة والسلام ما حلَّ بقومه من الهلاك والعذاب فقال في حزن وأسى: يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين. فهو لم يترك سبيلاً لدعوتهم، ولم يأل جهداً في نصحهم وإرشادهم، لكنهم رفضوا الاستجابة، وأصروا على التكذيب والكفر، فاستحقوا ذلك المصير البائس الأليم.

من الأحاديث الواردة في تفسير الآيات

عن جابر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: لا تسألوا الآيات وقد سألها قوم صالح فكانت ترد من هذا الفجِّ وتصدر من هذا الفجِّ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، فكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما فعقروها، فأخذتهم صيحةٌ أهمدَ الله عز وجل مَن تحتَ أديم السماء منهم إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله عز وجل. قيل: من هو يا رسول الله؟ قال: هو أبو رِغال. فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه». (١)

وفي رواية عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر قام فخطب فقال: «يا أيها الناس لا تسألوا نبيكم عن الآيات، فإن قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث إليهم آية، فبعث الله لهم الناقة، فكانت ترد من هذا الفج فتشرب ماءهم يوم وردها ويحتلبون من لبنها مثل

---

(١) المسند، للإمام أحمد بن حنبل ٢٨/ ١٩٣، رقم ١٣٦٤٤، والمستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري ٢/ ٣٥١، رقم ٣٢٤٨.



الـذي كانوا يأخذون مـن مائها يوم غبِّها، وتصدر من هذا الفج، فعتـوا عن أمر ربهم فعقروها فوعدهـم الله العـذاب بعد ثلاثة أيام، وكان وعد الله غير مكذوب، ثم جاءتهم الصيحة فأهلك الله من كان منهم تحت مشـارق الأرض ومغاربها إلا رجلاً كان في حرم الله فمنعه حرم الله من عذاب الله. فقيل: يا رسـول الله من هو؟ فقال: أبو رغال. فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه»[١]

وأخرج البخاري ومسـلم من حديث ابن عمر قال: قال رسـول الله ﷺ وهو بالحجر: «لا تدخلـوا عـلى هؤلاء المعذبـين إلا أن تكونوا باكين، فـإن لم تكونوا باكين فـلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم مثل ما أصابهم». [٢]

قوم لوط عليه الصلاة والسلام وموقفهم من دعوته

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ سورة الأعراف (٨٠-٨٤)

التفسير الإجمالي للآيات

تبين هذه الآيات قصة لوط عليه الصلاة والسلام مع قومه، فقد جاء لوط يدعو قومه إلى الإيمان بالله وتوحيده، وترك ما كانوا فيه من قبيح الأفعال، وسيء العادات، فقد اعتادوا أن يأتي الرجال الفاحشة مع الرجال، وهي جريمة لم يُسبقوا إليها، لكن قوم لوط أصروا على ما هم فيه

(١) المعجم الأوسط للطبراني ١٩/ ٤٠٠، رقم ١١١٢٣.

(٢) صحيح البخاري ١/ ١٦٧، رقم ٤٢٣، باب الصلاة في مواضع الخسف، وصحيح مسلم ٤/ ٢٢٨٥، رقم ٢٩٨٠ باب: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين.



مـن كفـر وضلال وفواحش وموبقات، ورغم أن لوطاً أقام فيهم مدة طويلة يحذرهم من عاقبة ما هم فيه من الكفر والفجور، لكن القوم ازدادوا طغياناً وظلماً، وتنادوا فيما بينهم لإخراج لوط ومن آمن معه من القرية، لأنهم أناس يتطهرون ويتنزهون عن ممارسـة تلك الفاحشـة الأثيمة، وكانت العاقبة أن الله سبحانه نَجَّى نبيه لوطاً عليه الصلاة والسلام وآله المؤمنين، وأهلك أهل تلك القرية بأن طمس أعينهم[كما جاء في سـورة القمر: ٣٧]، وخسـف بأهل تلك القرية حتى جعل عاليها سافلها[كما جاء في سورة هود: ٨٢-٨٣]، وأنزل عليهم حجارة مسومة من السماء انصبـت عليهم كالمطر الغزير فأهلكتهم جميعاً، وأهلكت معهم امرأة لوط لأنها كفرت كما كفر قومها، ورفضت اتباع لوطٍ والإيمان بما جاء به.

مناسبة الآيات لما قبلها

ذكرت الآيات السابقة قصة صالح عليه الصلاة والسلام مع قومه ثمود، مبينة أنهم كذبوا نبيهـم فأهلكهـم الله بالرجفة، بعد أن نجَّى نبيه والمؤمنين معه، وذكرت هذه الآيات قصة مماثلة هي قصة لوط عليه الصلاة والسلام مع قومه الذين كذبوا نبيهم ورفضوا دعوته، فأهلكهم الله بثلاثة أصناف من العذاب هي طمس أعينهم، وجعل عالي القرية سافلها، وإمطارها بالحجارة المسـومة، واقتـصرت الآيات في هذه السـورة على ذكـر مطر العذاب، وجاء التفصيل في سـور أُخَر.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تشـكل هـذه الآيـات حلقة أخرى في سلسـلة الأقوام التـي كذبت رسـلها، وكفرت بهم وعتـت عـن أمر ربها، فعجل الله لهم العقـاب، وأخذهم بالعذاب، بعـد أن نجَّى نبيه ومن آمن معه، وتؤكد هذه الحادثة من جديد منهج الأمم في الكفر والتكذيب، وسنة الله التي لا تتخلف في نجاة المؤمنين ونصرتهم، وهلاك الظالمين وأخذهم بالعذاب.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - لوط عليه الصلاة والسلام نبي كريم، بعثه الله إلى أمة تسكن منطقة سدوم من أرض فلسطين، إلى الجنوب الغربي من البحر الميت، وقد دعاهم إلى توحيد الله وعبادته والبعد عن الشرك به، كما دعاهم إلى الترفع عما كانوا فيه من الخبائث والرذائل، فقد كان الرجال يفعلون الفاحشة مع الرجال، وهي جريمةٌ لم يُسبقوا إليها.

٢ - هذه الفاحشة لم يكن لهم بها حاجة، ولكنهم يفعلونها على سبيل تلبية شهواتهم، وطاعة رغباتهم، وكأنه لا غرض لهم من إتيان هذه الفاحشة إلا مجرد قضاء الشهوة، ويتركون الزواج بالنساء وإتيانهن، مع أنهن محل لقضاء الشهوة وموضع لطلب اللذة، وفي هذا ما فيه من الفساد والاعتداء على الفطرة ومسخها، والتهديد بدمار المجتمعات وانهيارها.

٣ - كان حقاً على هؤلاء القوم أن يطيعوا لوطاً ويؤمنوا به ويستجيبوا لنصحه ووعظه، فهم يعرفون حرصه عليهم ونصحه لهم، ورغبته في صلاح أمورهم، لكنهم أطاعوا شياطينهم واتبعوا أهواءهم، ولم يكن ردهم على لوط إلا بالدعوة إلى إخراجه هو والذين آمنوا معه، وطردهم خارج تلك القرية، بتهمة أنهم أناس يتطهرون.

٤ - حين يكون التطهر تهمة، والتنـزُّه عن الوقوع في هذه الفاحشة جريمة فلنا أن نتصور أي فساد كان يعيشه هؤلاء القوم الذين مُسخت نفوسهم وفسدت عقولهم، وانقلبت عندهم الموازين حتى صاروا يرون الباطل حقاً، والشرَّ خيراً.

٥ - وحين وصل الحال بهؤلاء القوم إلى درجة يتعذر معها الإصلاح، وتتعطل سبل التغيير إلى الأفضل يكون الحل الوحيد أن ينزل العذاب بهم، ليطهر الأرض من إجرامهم وفسادهم.

٦ - نجّى الله سبحانه نبيه لوطاً وأهله المؤمنين به، واستثنى امرأته من الأهل لكونها لم تؤمن به وأنزل العذاب على قوم لوط، وكان على ثلاث مراحل، أولاها: طمس أعينهم فلا يرون

شيئاً، والثانية جعلُ عاليها سافلها، حيث انقلبت بهم بلادهم ودورهم، ولذلك سُميت بالمؤتفكات، والثالثة: إنزال المطر المصحوب بالحجارة المسومة، فما تصيب أحداً منهم إلا قتلته.

٧- وهكذا يرينا الله عاقبة المجرمين الذين كذبوا رسولهم، وجحدوا بآيات ربهم. وفي هذا الخطاب: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ دعوة للناس كي يعتبروا بمصارع الأمم وأسباب هلاكها.

من الأحاديث الشريفة

عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به». [١] قال الألباني: حسن صحيح. وعنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله من غيَّرَ تخومَ الأرض، لعن الله من تولَّى غير مواليه، لعن الله من كمَّهَ أعمى عن الطريق، لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من وقع على بهيمة، لعن الله من عقَّ والديه، لعن الله من عمِل عمَل قوم لوط». قالها ثلاثاً. [٢]

(١) سنن أبي داود ٢/ ٥٦٤، رقم ٤٤٦٢، وسنن الترمذي ٣/ ١٢٤، رقم ١٤٥٦.

(٢) مسند أحمد ٦/ ٢٩٨، رقم ٢٧٦٥.

مدين وموقفهم من دعوة شعيب عليه الصلاة والسلام

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (الأعراف ٨٥-٩٣)

التفسير الإجمالي للآيات

تبين هذه الآيات أن الله سبحانه أرسل شعيباً عليه الصلاة والسلام رسولاً إلى قومه، يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته، وترك عبادة الأصنام، وترك ما كانوا عليه من معاملات مالية فاسدة كالتطفيف في الكيل والميزان، وبخس الناس أشياءهم، وأكل أموالهم ظلماً، والإفساد في الأرض، والصد عن سبيل الله[1].

(١) قال النيسابوري في تفسيره ٣/ ٤٧٠: "كانوا يجلسون على الطرق والمراصد.. يخوّفون من آمن بشعيب ويقولون إنه كذاب؛ لا يفتنكم عن دينكم، أو كانوا يقطعون الطرق،.. وقيل: إن الصراط مجاز عن الدين =

كان هـؤلاء القوم يسـكنون في شـمال الجزيـرة العربية عـلى مقربة من موقـع مدينة تبوك، وقام شـعيب يدعو قومه إلى الإسـلام، ويذكِّرُهم بنعم الله الكثيرة التي يتقلبون فيها، فقد كانوا قلـةً فكثَّرهـم الله، ورزقهم الأموال والبنـين، وأغدق عليهم الخيرات، كـما حذَّرهم من عقاب الله وبأسـه الذي لا بد أن ينزل بالعصاة المفسـدين، كما نزل بالأمم المكذبة من قبلهم، واسـتمر شـعيب يدعـو قومه إلى الحـق والهدى، ويحذرهم من البغي والفسـاد، فاسـتجابت لـه قلة من النـاس، وأصرَّ أكثر قومه على الكفر والعصيان، وأخذوا يتوعدون شـعيباً وأتباعه المؤمنين بأن يخرجوهم من قريتهم، إن لم يتركوا هذا الدين، ويرجعوا إلى الكفر.[١] لكنَّ شعيباً عليه الصلاة والسـلام والمؤمنـين معه ثبتوا على الإيـمان، في وجه هؤلاء الظالمين، وبيَّنَ لهم شـعيب أن أعظم الافـتراء يتمثـل في الردة عن الدين الحق، والعودة إلى ملة الكفر، فكيف يعود المسـلم إلى الكفر بعد إذ نجاه الله منه؟

وازداد الكفـرة عنـاداً وإصراراً عـلى باطلهم، وأخذوا يحاربون شـعيباً ومـن معه، بدعوة النـاس إلى رفض هذا الدين، والتمسـك بما هم عليه من عـوج وضلال، قائلين لهم: لئن اتبعتم شـعيباً إنكم إذاً لخاسرون، فلما تطاول عليهم الزمان في رفضهم لدعوة نبيهم، وإصرارهم على كفرهم، لم يبق لهم عند الله حجة ولا عذر، عندئذ نجَّى الله تعالى نبيه شـعيباً والذين آمنوا معه، وأنـزل عذابه بأولئك الظالمين المكذبين، حيث أظلتهم سـحابةٌ سـوداء بعد حر شـديد أصابهم فلـما اجتمعوا في ظل تلك السـحابة رجفت بهم فأهلكتهم ولم تُبق منهـم أحداً.[٢] لقد خسروا أنفسهم، ودُمّرت بلادهم، وهلكوا لأنهم كذبوا رسولهم وعصوا ربهم. ونظر شعيب إلى ما حلَّ بقومـه من النـكال والدمار فقال: يا قوم لقد أبلغتكم رسـالاتِ ربكـم ونصحت لكم، فكيف آسى على قوم كافرين؟

= أي لا تقعدوا على طريق الدين ومنهاج الحق لأجل أن تمنعوا الناس عن قبوله".

(١) فتح القدير، للشوكاني ٣/ ٦٢.

(٢) معالم التنزيل، للبغوي ٣/ ٢٥٨.

مناسبة الآيات لما قبلها

بعـد أن ذكـرت الآيات السـابقة قصة قوم لـوط الذين كذبوا رسـولهم، ورفضوا دعوته، وأصروا عـلى مـا هم فيه من كفر وفسـاد، وما حـدث لهم من نزول العذاب المهلك المسـتأصل جاءت هذه الآيات تقص علينا قصة شـعيب عليه الصلاة والسـلام مع قومه الذين كان حالهم كحال من سبقهم، إذ لم يعتبروا ولم يتعظوا بل كذبوا وكفروا، واستمروا على ضلالهم وظلمهم وتعاملاتهم الاقتصادية الفاسدة حتى نزل بهم العذاب.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تشـكل هذه الآيات حلقة جديدة في سلسلة الأقوام الذين كذبوا أنبياءهم، وكفروا بربهم واتبعوا سبيل الشيطان، فكانت عاقبتهم الهلاك والنكال، بعد أن نجَّى الله نبيه والمؤمنين وهكذا تتصل هذه الآيات بموضوع السورة اتصالاً وثيقاً.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - شعيب عليه الصلاة والسلام نبي كريم، أرسله الله إلى قومه مدين، ومدين اسم قبيلة، وقيل اسم بلد، وقد أُرسل شعيب إلى مدين وأصحاب الأيكة، كما في سور أخرى، [١] فدعاهم إلى توحيد الله سبحانه، وترك عبادة الأصنام، وأثبت لهم صدق رسالته بمعجزة بيِّنة أظهرها لهم، ولم يبين القرآن هذه المعجزة.

٢ - كما دعاهم شعيب إلى إصلاح كسبهم ومعاشهم، وتجنب الكسب الحرام وكانوا يطففون ويتلاعبون بالمكاييل والموازين، ويأكلون أموال الناس بالباطل، فأمرهم بإيفاء الكيل والميزان وإعطاء الناس حقوقهم، ونهاهم عن بخس الناس أشياءهم، والبخس: النقص ويكون بالتعييب للسلعة أو التزهيد فيها أو المخادعة لصاحبها والاحتيال عليه، وكل ذلك من أكل أموال الناس بالباطل، وفي هذا إشارة إلى أهمية الإصلاح المالي والاقتصادي

---

(١) سورة الحجر: ٧٨، والشعراء: ١٧٦، وص: ١٣، وق: ١٤.

وأثره في صلاح أحوال الناس ومعايشهم.

٣ - كان قوم شعيب يبخسون الناس في الأشياء التي يتداولونها بيعاً وشراءً، فنهاهم شعيب عن ذلك، وحذرهم من الإفساد في الأرض، وفي ذلك إشارة إلى أن الكسب الحرام من تطفيف وغش واحتيال.. هو من الإفساد في الأرض، لما فيه من الإخلال بمعايش الناس وحرمانهم حقوقهم.

٤ - كان قوم شعيب يقعدون في الطرقات المفضية إلى شُعيب عليه الصلاة والسلام، فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويقولون إنه كذاب فلا تذهب إليه، كما كانت قريش تفعله مع النبي ﷺ، وكانوا يمنعون الناس من اتباع شعيب والدخول في دينه، فنهاهم عن ذلك كما نهاهم عن قطع الطريق، وسلب المال من العابرين، فقد كانوا يسلبون أموال الناس وأمتعتهم، ويأخذون الجباية في الطرق من أموال الناس. (١)

٥ - ذكَّرَ شعيب قومه بأنعم الله عليهم فقال لهم: واذكروا إذ كنتم قليلاً في عددكم، فكثركم بالنسل والتوالد حتى صار عددكم كبيراً. وفي هذا إشارة إلى أن الكثرة نعمة عظيمة لما فيها من المهابة والعزة والقوة.

٦ - وحذّر قومه من الفساد، لئلا تصيبهم العقوبات التي حلّت بالمفسدين من قبلهم، وفي هذا دليل على أن الفساد يجلب الدمار للبلاد ويؤدي إلى هلاك العباد.

٧ - وخوّف قومه مما هم فيه من التكذيب، وهددهم بأنهم إذا ثبتوا على ما هم فيه فلينتظروا حتى يحكم الله بينه وبينهم، فينجي المؤمنين ويهلك الكافرين.

٨ - كان ردّ الزعماء المستكبرين أن يتوعدوا شعيباً والمؤمنين، فهم لم يكتفوا بترك الإيمان والتمرد عن الإجابة إلى ما دعاهم إليه، بل جاوزوا ذلك إلى توعده ومن آمن معه بالإخراج من

---

(١) انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ٦١.

قريتهم، والطرد من بلادهم إن لم يرجعوا عن الإيمان إلى ملة الكفر، وكأنهم يقولون: إن قريتنا هذه لا يشاركنا في سكناها من خالف ديننا وترك ملتنا.

٩ - وهكذا يلجأ الكفرة والظالمون إلى التهديد والوعيد حين يعجزون ويُفحَمون، وهذا هو منهجهم دائماً في مواجهة الحق.

١٠ - يبين شعيب عليه الصلاة والسلام أن الرجوع عن الإيمان يعني افتراء الكذب على الله تعالى، وأن الدخول في الإيمان والنجاة من الكفر نعمة عظيمة. ولكن أنّى لهؤلاء الكفرة أن يدركوا تلك النعمة وهم لم يتذوقوها.

١١ - المسلم يتوكل على الله تعالى في كل شؤونه وأحواله، ويستعين به، ويصبر لأمره، ويدعو الله أن يثبته وينصره.

١٢ - أخذ المشركون من قوم شعيب يحاربون دعوته ويصدون عن دينه، مستخدمين إمكاناتهم الإعلامية، فأخذوا يحذّرون الناس من اتباعه قائلين لهم: والله لئن دخلتم في دين شعيب وتركتم دينكم ستكونون خاسرين هالكين، وإذا اتبعتم شعيباً، وإذا طبقتم تعاليمه في إيفاء الكيل والوزن وترك التطفيف الذي تعاملون الناس به ستخسرون أموالكم. وفي هذا إشارة ظاهرة إلى شدة تمسك هؤلاء الكفار بباطلهم، وحرصهم عليه، وتواصيهم برفض الإيمان، وعداوة نبي الله والمؤمنين.

١٣ - وحين وصل الحال بهؤلاء إلى هذه الدرجة من الكفر والضلال والعداوة لدين الله استحقوا أن ينزل بهم عذاب الله المزلزل، ويأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فجاءهم عذاب يوم الظلة، حيث أظلتهم سحابةٌ سوداء بعد حر شديد أصابهم، فلما اجتمعوا في ظل تلك السحابة رجفت بهم فأهلكتهم ولم تُبق منهم أحداً، [1] وفي لحظة واحدة صاروا جميعاً هامدين أمواتاً بلا حراك، قد التصقت أجسادهم بالأرض.

(١) معالم التنزيل، للبغوي ٣/ ٢٥٨.



١٤ - وحين شاهد شعيب عليه الصلاة والسلام نزول العذاب بقومه قال: يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي التي أرسلني بها إليكم، ونصحت لكم ببيان ما فيه سلامة دينكم ودنياكم وحرصت على هدايتكم فلم تستجيبوا، وعرَّفتكم طريق الخير والهدى فلم تطيعوني فكيف أحزن على قوم كافرين بالله، مصرين على الباطل والضلال؟

مما روي في تفسير هذه الآيات

عن ابن عباس: ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ قال كانوا يجلسون في الطريق فيخبرون من أتى عليهم أن شعيباً كذاب فلا يفتننكم عن دينكم. [١]

وأخرج الحاكم عن وهب بن منبه، قال: إن الله بعث شعيباً إلى أهل مدين وهم أصحاب الأيكة، فكانت الأيكة من الشجر الملتف، وكانوا أهل كفر بالله وبخس للناس في المكاييل والموازين، وإفساد لأموالهم، وكان الله تعالى وسع عليهم في الرزق، وبسط لهم في العيش، استدراجا منه لهم، مع كفرهم به، فقال لهم شعيب: «يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير، وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط» فكان من قول شعيب لقومه وجواب قومه له ما قد ذكر الله في كتابه »[٢]

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم أن رسول الله ﷺ كان إذا ذكر شعيباً قال: «ذاك خطيب الأنبياء» لحسن مراجعته قومه فيما يريدهم به، فلما كذبوه وتوعدوه بالرجم والنفي من بلادهم وعتوا على الله أخذهم عذاب يوم الظلة. [٣]

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ١٢/ ٥٥٧، رقم ١٤٨٤٥.

(٢) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٩/ ٣٣٢، رقم ٤٠٣٦، ورقم ٤٠٧٣.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ١٢/ ٥٦٧، وتفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١١٣، رقم ١٦٧٠٥.

سنة الله في المكذبين

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡۚ وَنَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

سورة الأعراف (٩٤-١٠٢)

التفسير الإجمالي للآيات

تبين هذه الآيات الكريمة سنة ربانية ثابتة لا تتغير، فالنبي يدعو قومه إلى الإيمان ونبذ الشرك وترك المعاصي والظلم، والناس أمام هذه الدعوة فريقان، فمنهم قلة تستجيب وتؤمن وتنصر النبي، والكثرة تبقى على كفرها وضلالها، ولكن الله سبحانه حليم كريم، لا يعاجل الناس بالعقوبة، بل يمهلهم ويؤخرهم لعلهم يرجعون ويتوبون، وفي أثناء هذه المهلة يأخذهم بالبأساء والضراء، فيصيبهم بالقحط تارة وبالجوع تارة أُخرى، وبالكوارث حيناً وبالأمراض حيناً آخر، لعلَّهُم يَضَّرَّعون ويردون الأمر إلى الله سبحانه، ولكنهم - في العادة - لا يتضرعون ولا ينسبون إلى الله شيئاً من ذلك، فيبدل الله مكان السيئة الحسنة، بمعنى أنه يمدهم بالنعم من الخصب وإدرار الرزق وكثرة المال، حتى يكثر عددهم، وتزيد ثرواتهم وأموالهم، ويأخذوا حظهم الوافر من الحياة.. فيظنون أنهم حصَّلوا ذلك بعملهم وجهدهم، فهم في كلا الحالين لا يلتفتون إلى قدرة الله تعالى، ويستمر بهم الحال حتى يرسخ في أذهانهم أن ما يصيبهم من

خير وشر، ومن سراء وضراء ما هو إلا أمور طبيعية كانت تصيب آباءهم من قبل، وعندئذ يصل هؤلاء القوم إلى إنكار قدرة الله تعالى وعظمته، ويغفلون عن تدبيره وحكمته، فيأخذهم بالعذاب بغتة وهم لا يشعرون. (١)

ثم تبين الآيات سنة أخرى من السنن الربانية، تتمثل في قوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٩٦)

وتبين هذه السنَّة أن البركة في الرزق إنما ينزلها الله تعالى للناس حين يؤمنون ويتقون، فمن أراد رغد العيش والحياة الطيبة الكريمة فليؤمن وليطع الله ورسوله، ولكن الناس غافلون عن هذه السنة أيضاً، يرون الأرزاق الوفيرة عند أهل الكفر والضلال فيغترون بذلك، دون أن يفرقوا بين فتح البركات وفتح أبواب كل شيء، فالله سبحانه يفتح على أهل الإيمان بركات السماء والأرض، أما أهل الكفر فقد يفتح عليهم أبواب كل شيء، فيكثر عندهم المال والرزق ويكثر عندهم أيضاً المرض والجوع والقلق والهمُّ، فليست كثرة المال دليلاً على البركة، فقد تكون البركة في الشيء القليل، لكنه يفي بالغرض ويعيش أهله به سعداء، وقد يكون أهل الباطل يملكون المال الكثير والرزق الوفير، لكنهم يعيشون بؤساً وشقاءً.

ثم تبين الآيات أن أهل القرى، والمجتمعات البشرية كفروا وكذبوا، فحُرموا البركة في الرزق، ثم جاءهم العذاب فأُهلكوا وأبيدوا. فهل يأمن أهل القرى الباقية أن يأتيهم بأس الله وعذابه حال نومهم وغفلتهم؟ وهل يأمنون أن يأتيهم باس الله في ضحوة النهار وهم في أسواقهم وتجارتهم ومزارعهم..؟ وكيف يأمنون مكر الله، ويغفلون عن الاعتبار بما جرى للأمم السابقة؟

وكيف يأمنون مكر الله وقد سكنوا في القرى التي سكنتها قبلهم أمم ذاقت بأس الله

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ٢٥٩ وما بعدها.



وعذابه؟ والله قادرٌ في كل وقت أن يعذبهم كما عذب الذين من قبلهم.

إن أهل القرى أجدر وأحق أن يعتبروا ويتعظوا ويعودوا إلى الإيمان واتباع رسلهم، ولكن المشكلة أن هؤلاء اغتروا وغفلوا عما أصاب الأمم السابقة، وطُبع على قلوبهم فلا يتفكرون ولا يتعظون، لقد نسوا عهد الله وميثاقه، وانحرفوا عن فطرة الإيمان، واتبعوا عَدُوَّهم الشيطان، ونسوا التحذير الذي وجهه الله إليهم مرات ومرات. فلا عهد لهم ولا إيمان.

ولقد قص الله تعالى على رسوله ﷺ طرفاً من أخبار تلك القُرى، تسلية له عما يلقاه من أذى المشركين، وإعلاماً له بحقيقة ما جرى، وتثبيتاً له على منهج الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام في الصبر والثبات على الحق.

مناسبة الآيات لما قبلها

بينت الآيات السابقة ما كان من قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام، وكيف واجه هؤلاء الأقوام أنبياءهم بالكفر والتكذيب والتحدي والإنكار وجابهوهم بالإيذاء والطرد والإبعاد، وكانت العاقبة أن نجَّى الله أنبياءه وأولياءه، وكتب لهم النصر وحُسن العاقبة، وأهلك المكذبين المعاندين، ثم جاءت هذه الآيات لتقرير سنة الله تعالى في إرسال الرسل، وابتلاء أهل القرى بالسراء والضراء، وبيان أن البركة تكون مع الإيمان والحديث عن غفلة عامة الناس في مجتمعاتهم وبلادهم عن سنن الله تعالى، وأمنهم من مكره، مع أنهم يرون المثلات شاخصة في آثار الهالكين المعذبين من الأمم التي كذبت وكفرت، لقد كان هؤلاء أجدر الناس أن يؤمنوا ويعودوا إلى ربهم، لكنهم غفلوا ونسوا عهد الله إليهم، واتبعوا الشيطان فاستحقوا أن يحل بهم العذاب.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

هذه الآيات ترسم المعالم التي تحدد مصير الأمم، وتبين سنة الله التي لا تتخلف، فهو لا يأخذ الأمم بالعذاب إلا بعد أن يكذبوا رسلهم، ويثبتوا على كفرهم وضلالهم، ولو أنهم استجابوا لنداء

الإيمان، ودعوة الرسل لعاشوا حياة كريمة حافلةً بالبركات والخيرات، وجدير بالأمم اللاحقة أن تتعظ بمصائر الأمم الهالكة، حتى تتنكب سبيلها، فتنجو من مصيرها المحتوم.

ومنذ مطلع السورة والموضوع يدور حول دعوة الناس إلى الإيمان، وتحذيرهم من الكفر وتخويفهم من اتباع الشيطان الذي أضل أُمماً عديدة وجبلاً كثيراً.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - الله سبحانه لا يعذب أمة من الأمم إلا بعد أن يرسل إليها رسولاً، يدعو إلى الإيمان ويبين الحق، فإن أطاعوه واتبعوه عاشوا حياة طيبة، وإذا كذبوا حاق بهم العذاب، وقد كانت عامة الأمم على التكذيب والكفر بما جاءهم من الحق، ومع ذلك لم يعجل الله بإنزال العذاب عليهم، بل أعطاهم المهلة، وابتلاهم بالبأساء والضراء، لعلهم يتضرعون إلى الله، ويرجعون إليه بالتوبة والإنابة.

٢ - بعد أن تتوالى الابتلاءات بالسراء والضراء يصير المشركون إلى الاعتقاد بأن هذا الذي مسَّهم من البأساء والضراء، ثم من الرخاء والخصب بعده هو أمر وقع لآبائهم مثله فمسهم من البأساء والضراء ما مس هؤلاء، ومن النعمة والخير ما ناله هؤلاء، فهذه العادة جارية في السلف والخلف، وهكذا شأن الزمان في تقلبه من شدة إلى رخاء، فكأنهم نسبوا الشدة والرخاء إلى فعل الزمان، وليس لله سبحانه وفي هذا من شدة عنادهم، وقوة تمردهم وعتوهم ما لا يخفى.

٣ - يمد الله سبحانه المكذبين بالنعم إملاءً واستدراجاً، فيكثر عددهم، وتزداد أموالهم، وتربح تجارتهم، وتُخصب أرضهم، فإذا وصلوا إلى ذلك ظنوا أنهم على حق، بدليل أن النعم تتوالى عليهم، ولم يلتفتوا إلى أن هذا استدراج بالنعم، وأنهم عما قريب سيهلكون.

٤ - يأتي العذاب بغتة، والناس عنه غافلون، فهم في حياتهم وأعمالهم، لا يفكرون إلا في أسواقهم وأعمالهم ومعاشهم، وعندما يحل بهم العذاب ويأخذهم الهول يتذكرون أنهم

كانوا ظالمين، ولكن بعد أن مضى وقت الندم، ولم يعد لديهم مجال للتوبة والاعتذار.

٥ - البركة في الرزق، والرغد في العيش، والحياة الطيبة الكريمة لا ترتبط بكثرة المال والمتاع ولكنها ترتبط بالإيمان والتقوى وتحقيق معاني الهداية في النفوس، وتطبيقها على أرض الواقع. وفي المقابل فإن الأخذ بالعذاب ثمرةٌ للكفر والتكذيب.

٦ - الأمن من مكر الله جريمة عظيمة، لما فيها من الدلالة على نسيان الآخرة والإقبال على الدنيا، وفي هذا دعوة للناس أن لا يأمنوا مكر الله، وأن يكونوا دائماً على حذر واستعداد للقاء الله سبحانه.

٧ - على الذين يسكنون القرى، ويرثون الديار ممن سبقوهم أن يعتبروا بمن سكنها قبلهم كيف كانوا يعيشون في هذه القرى؟ وأين صاروا بعد أن غيبهم الثرى؟ وماذا فعلوا حتى استحقوا أن يأخذهم الله بعذابه؟ وكما أصابهم الله بالعذاب فإنه قادر على أن يعذب من بعدهم، إذا ساروا على طريقتهم في الكفر والضلال.

٨ - هذه القصص التي يقصها الله تعالى على رسوله ﷺ، مبيناً فيها طرفاً من أنباء الأمم السابقة، قوم نوح وعاد وثمود.. فيها تسلية لرسول الله ﷺ وللمؤمنين، وتثبيت لقلوبهم، ودعوة إلى الموعظة والاعتبار.

٩ - وهؤلاء الذين قص الله على رسوله من أنبائهم ما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بل ظلوا مستمرين على الكفر، متشبثين بالضلال، ولم ينفعهم مجيء الرسل، بل حالهم عند مجيء الرسل كحالهم قبله، ومعنى تكذيبهم قبل مجيء الرسل أنهم كانوا في الجاهلية يكذبون بكل ما سمعوا به من إرسال الرسل وإنزال الكتب.

١٠ - لم يكن لأكثر أهل هذه القرى عهدٌ يحافظون عليه، ويتمسكون به، بل دأبهم نقض العهود في كل حال، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين، فلا ينفعهم بعد ذلك وعظ ولا تذكير ولا ترغيب ولا ترهيب.

موقف فرعون وقومه من دعوة موسى عليه الصلاة والسلام

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ سورة الأعراف (١٠٣-١٢٦)

التفسير الإجمالي للآيات

أرسل الله سبحانه رسوله موسى عليه الصلاة والسلام إلى فرعون وملئه، يدعوهم إلى أمرين هما: الإيمان بالله تعالى وتوحيده، وإطلاق بني إسرائيل ليسير بهم موسى إلى الأرض المقدسة، وكان فرعون يستضعفهم ويستذِلُّهم ويذيقهم سوء العذاب.

جاء موسى إلى فرعون وبدأ يعرض عليه دعوته، مبيناً أنه رسول من الله رب العالمين، وأنه حريص أن لا يقول إلا الحق، وأن يبلغ ما أوحى الله إليه، وأكد دعوته بأن الله سبحانه قد أعطاه

آيـة بينة تدل على صدقه، وأنه مرسـل من عنـد الله تعالى، وطلب من فرعون أن يؤمن بالله تعالى وأن يأذن لبني إسرائيل بالخروج معه.

لكن فرعون سـارع إلى مطالبة موسـى عليه الصلاة والسـلام بإظهار الآية التي جاء بها، وقـال له بتحـدٍ واسـتكبار: ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾. كان مع موسى عليه الصلاة والسلام آيتان هما: العصا واليد، فبادر موسى إلى إلقاء العصا التي يحملها في يده، وإذا بها تنقلب ثُعباناً مبيناً ضخماً مخيفاً، وأدخل يده في جيب عنقه ثم نزعها فإذا هي بيضاء مضيئة كالشمس، وحين رأى قوم فرعون هاتين الآيتين بادروا إلى اتهام موسى بأنه ساحر، جاء يريد إخراج فرعون وقومه من بلادهم، بما عنده من سحر. وردّد فرعون هذا القول الذي يُحب أن يسـمعه من قومه، وقال لهم: ماذا تطلبون أن نصنع بشـأن هذا السـاحر؟ فأشـاروا عليه أن يؤخر موسى وأخاه هارون، ويرسل الجند إلى المدن والبلدان ليحضروا السحرة العالمين بفنون السحر، ليواجهوا موسى ويتغلبوا عليه، ويبطلوا ما جاء به.

وجـاء السـحرة طامعـين في عطاء فرعـون وجوائزه، وقالوا له: هل سـيكون لنـا أجرٌ إذا غلبنا موسـى وظهرنا عليه؟ فوعدهم أن يعطيهم عطاءً كثيراً، وأن يجعلهم من جلسائه المقربين عنـده، وفرِحَ السـحرة بهذا الوعد، واسـتعدوا ليـوم اللقاء، فلما قابلوا موسـى وأخاه في ميدان واسـع، بحضور فرعون ووزرائه ورجال حاشيته وجنده، قالوا لموسى بثقة واعتزاز: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾، فاختـار موسـى أن يُلقوا حبالهـم وعصيهم أوّلاً، فألقوها وسـحروا أعـين الناس، وأخافوا الحاضرين الذين صاروا يرون الميـدان مليئاً بالحيات العظيمة المخيفة، وفي تلك اللحظات التي بدا فيها السحرة مستبشرين بالفوز، وبدا فيها فرعون مفتخراً بما يراه من قدرة سَـحرَتِه، أوحى الله سـبحانه إلى موسـى يأمره بإلقاء عصـاه، فألقاها فانقلبت حالاً إلى حية عظيمة أخذت تلتقم حبال السحرة وعصيَّهُم، حتى لم تترك منها شيئاً.

ظهـر الحـق وانتصر، وانهزم الباطل واندحر، وعرف السـحرةُ أن ما جاء به موسـى ليس سـحراً، بل هو معجزة ربانية، وآية عظيمة دالة على أنه رسـول من رب العالمين، فسـارعوا إلى

السجود على الأرض، وأعلنوا إيمانهم برب العالمين، رب موسى وهارون.

واغتاظ فرعون لما رأى من هزيمة سحرته، وبطلان سحرهم، وغاظه أكثر أن يرى هؤلاء السحرة وقد سجدوا على الأرض، معترفين لموسى وهارون بالرسالة، معلنين إيمانهم بالله فسارع فرعون إلى اتهامهم بالتآمر والكيد، وأنهم دبرّوا هذا الأمر، وتآمروا مع موسى، ليُخرجوا آل فرعون من بلادهم، واستناداً إلى هذه التهمة الجائرة أخذ فرعون يتوعد السحرة بالعذاب الشديد، فقال لهم: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾. فردَّ عليه السحرة بثبات المؤمنين، مؤكدين أنهم غير خائفين من تهديده ووعيده، فالموت غاية كل حي، وإلى الله ينقلب العباد. ثم بينوا له أنه لم يكن غاضباً عليهم قبل أن يؤمنوا، ولكن لما رآهم قد آمنوا بالحق الذي رأوه نقم منهم، وهو الآن يريد أن ينفذ غيظه فيهم بعد أن ذاق ذل الهزيمة.

وأمام تهديد فرعون ووعيده توجّه السحرة إلى الله تعالى بقلوب مؤمنة خاشعة، يدعونه أن يرزقهم الصبر على ما ينتظرهم من البلاء، وأن يتوفاهم على الإسلام.

مناسبة الآيات لما قبلها

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن قصص كثير من الأمم المكذبة، جاء الحديث هنا عن فرعون وملئه، وهؤلاء القوم من أشد الناس فساداً، وأعظمهم كفراً وضلالاً، ففرعون قد ادعى الألوهية، ودعا الناس إلى عبادته من دون الله.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تحدثت هذه الآيات عن تكذيب فرعون وقومه بما جاءهم به رسول الله موسى عليه الصلاة والسلام، هذا التكذيب النابع من قلوب أضلها الهوى، وأزلها الشيطان. وتشكل هذه القصة حلقة من حلقات سلسلة الأمم التي واجهت رسلها بالتكذيب والكفر، وأصرَّت على التخبط في ظلمات الجاهلية، وبهذه القصة تبلغ السورة ذروة الحديث عن المكذبين السابقين لتنتقل بعد ذلك إلى الحديث عن بني إسرائيل وما كان منهم.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - كان إرسال موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام إلى فرعون وملئه يشكل مرحلة حاسمة في مسيرة الأمم عبر التاريخ البشري، ومواجهتها لرسلها، لأن فرعون مَلِكٌ عظيم، يحكم بلاداً واسعة، وعنده من الجند والسلاح والتمكين في الأرض ما ليس لغيره، وقد ادعى الألوهية، ودعا قومه إلى عبادته من دون الله تعالى.

٢ - فرعون لقب لكل مَن ملكَ أرض مصر في تلك الحقبة، وملأُ فرعون أشراف قومه، وتخصيصهم بالذكر مع عموم الرسالة لهم ولغيرهم لأن من عداهم أتباعٌ لهم.

٣ - حين عرض موسى دعوته على فرعون أخبره بأنه مرسل من الله إليه، ليكون ذلك أدعى إلى قبول ما جاء به، ثم أعلمه بأن معه الدليل على صدق رسالته.

٤ - تضمنت رسالة موسى أمرين هما: دعوة فرعون وقومه إلى الإيمان وتوحيد الله تعالى وإطلاق بني إسرائيل ليسير بهم موسى إلى الأرض المقدسة. وقد كانوا مستعبدين مستذلِّين عند فرعون وقومه.

٥ - كان الواجب على فرعون حين رأى الآيات التي أظهرها موسى عليه الصلاة والسلام أن يؤمن بالله ويذعن للحق، لكنه ازداد طغياناً وكفراً، وأعانه الملأ من قومه على ذلك حين بادروه بالقول إن هذا الذي جاء به موسى سحر، وإن غايته أن يخرجنا من أرضنا وبلادنا.

٦ - كانت بطانة فرعون بطانة فاسدة، فقد زينوا له الباطل، وحرضوه على موسى وهارون وحذروه من الاستجابة، وأخذوا يتهمون أنبياء الله بالسحر، ويشيرون على فرعون أن يتخذ الإجراءات الكفيلة بمواجهة موسى وهارون.

٧ - كان السحر منتشراً في مصر في طول البلاد وعرضها، وهذا دليل جهل وتخلف وضعف ولو كان فرعون راغباً في إصلاح رعيته لوجههم إلى العلم النافع، ولصرفهم عن الاشتغال

بالسحر والشعوذة.

٨ - وعد فرعون السحرة أن يعطيهم الأعطيات والجوائز، كما وعدهم أن يكونوا من المقربين عنده، وكل هذه الوعود من أجل أن يغلبوا موسى وهارون، لكنه لما رأى السحرة قد غُلبوا أخذ يتوعدهم بأشد أصناف العذاب.

٩ - منهج الطغاة أن يسارعوا إلى اتهام الأنبياء والدعاة والمؤمنين، ليتمكنوا من إقناع الناس بأن هؤلاء طامعون في السلطة والسيطرة، وقد تمثل هذا في اتهام فرعون وملئه لموسى وهارون بتهمة السحر وبتهمة السعي إلى إخراج فرعون وقومه من بلادهم، واتهام فرعون للسحرة - بعد أن آمنوا - بأنهم مكروا وخططوا لإخراجه وقومه من مصر.

١٠ - للسحر تأثير شديد على الناس، خصوصاً إذا أتقن السحرة صنعتهم، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾.

١١ - كان فرعون ينتظر أن تسفر المواجهة عن نصرٍ حاسم يهنئه الناس به، ويزدادون له طاعة وخضوعاً، فلما فاجأته الهزيمة ألقى بالمسؤوليةٍ على السحرة، فلما رآهم يسجدون ويعلنون إيمانهم أنكر عليهم أنهم آمنوا قبل أن يأذن لهم. ولم يدر أن الإيمان حين يخالط القلوب لا ينتظر ولا يستأذن. وهل كان فرعون سيأذن للسحرة لو أنهم استأذنوه؟

١٢ - جاء السحرة طامعين بما عند فرعون من العطاء والجزاء، فلما خالط الإيمان قلوبهم كان همهم أن يُختم لهم بخير، وأن يموتوا على الإيمان، وحين هددهم فرعون بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وتصليبهم في جذوع النخل، لم يبالوا بهذا التهديد، وهكذا يعيد الإيمانُ صناعة النفوس المؤمنة، وإخراجها بالصورة التي تتناسب مع الإيمان.

البطانة الفاسدة

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (سورة الأعراف ١٢٧-١٢٩)

التفسير الإجمالي للآيات

كان حول فرعون جماعة من المفسدين المستكبرين، يحرصون على إغراء فرعون ببني إسرائيل، وتحريضه على قتلهم وإلحاق الأذى بهم، فقالوا له على سبيل الإنكار: أتترك موسى وقومه ليفسدوا في الأرض بإيقاع الفرقة وتشتيت الشمل؟ والمراد بالأرض هنا أرض مصر. وذكر المفسرون أقوالاً في معنى (ويذرك وآلهتك) لكون فرعون كان يدعى الربوبية كما في قوله: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ وقوله: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ فكيف يقول له قومه: ويذرك وآلهتك؟ فقيل: معنى وآلهتك: طاعتك، وقيل: معناه وعبادتك، وقيل: كان له أصنام يعبدُها قومُه تقرباً إليه فنسبت إليه، وقيل: كان يعبد الشمس.[1] فقال فرعون مجيباً لهم ومثبتاً لقلوبهم على الكفر: سنقتل أبناءهم، ونستحي نساءهم، أي نتركهن في الحياة، ولم يقل: سنقتل موسى لأنه يعلم أنه لا يقدر عليه، ووعد قومه أن تكون لهم الغلبة على موسى وقومه فقال: وإنا فوقهم قاهرون، فنحن ظاهرون عليهم بالقهر والغلبة، وهم تحت قهرنا وبين أيدينا ما شئنا أن نفعله بهم فعلناه.

وأدرك قوم موسى أن الأيام القادمة تحمل لهم كثيراً من البلاء والإيذاء على يد فرعون

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي ٣/ ٣١، وفتح القدير، للشوكاني ٣/ ٧٨.



وملئه، وأن فرعون سينفذ تهديده، فقال لهم موسى مثبتاً ومواسياً: استعينوا بالله واصبروا، ولا تجزعوا أمام هذا التهديد، فالله سبحانه بيده كل شيء، وهو القادر على كل شيء، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده. وهذا وعد من موسى لقومه بالنصر على فرعون وقومه، وأن الله سيورثهم أرضهم وديارهم، ثم بشرهم بأن العاقبة المحمودة للمتقين.[1]

عندئذ قال بنو إسرائيل لموسى: أوذينا من قبل أن تأتينا رسولاً، وذلك بما صنع فرعون بنا من قتلِ أبنائنا واستحياء نسائنا، وبتسخيرنا في الأعمال الشاقة، وأوذينا من بعد ما جئتنا رسولاً بقتل أبنائنا، وبما صرنا فيه الآن من الخوف على أنفسنا وأولادنا وأهلنا، فوعدهم موسى داعياً أن يهلك الله عدوهم فرعون وقومه، ويستخلفهم في الأرض. وقد حقق الله رجاءه فأهلك فرعون وقومه بالغرق، وأنجى بني إسرائيل، وأورثهم الأرض، ومكن لهم فيها.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن دعوة موسى عليه الصلاة والسلام لفرعون وقومه إلى الإيمان، وموقف فرعون وقومه واستكبارهم وتكذيبهم، وتحدثت الآيات هنا عما كان يهمُّ به فرعون وقومه من التشديد على بني إسرائيل والتنكيل بهم، كما بينت خوف بني إسرائيل وشكواهم مما لحق بهم ومما ينتظرهم في الأيام القادمة، وكيف طمأنهم موسى ووعدهم بنصر الله تعالى.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تشير هذه الآيات إلى عتو قوم فرعون واستكبارهم، حيث لم يكتفوا بالكفر والتكذيب، بل بدأوا يُحَرِّضون فرعون على بني إسرائيل، ويدعونه إلى قتلهم والخلاص منهم، وهكذا تتجلى عداوة الكفار للمؤمنين، فتذكّرنا بما جاء في أول السورة من عداوة الشيطان للإنسان.

---

(١) انظر: أنوار التنزيل، وأسرار التأويل، لناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي ٢/ ٣٠٥، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي ٣/ ٣١.



الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - حين يكون حول الحاكم بطانة فاسدة فإن صلاحه يصبح متعذراً، لأنه لو فكّر في الصلاح لمنعته بطانته، وزينت له الباطل، وجرّأته على الضلال.

٢ - توعّد فرعون أن يُقتِّل أبناء بني إسرائيل ويستحيي نساءهم، ومع أنه كان يفعل ذلك سابقاً، لكنه يريد تجديد هذا الأمر والتشديد فيه، انتقاماً منهم بسبب مخالفتهم له في العقيدة، وقد اعتزَّ بما لديه من صولة وبطش وسلطان.

٣ - مواجهة الشدائد والابتلاءات تكون بالاستعانة بالله، والصبر على المصائب، ولذلك أمر موسى قومه أن يستعينوا بالله ويصبروا.

٤ - النصر للإسلام، ووعد الله حق، والعاقبة للمتقين، وعلى المسلم أن يتفاءل ويستبشر ويعمل راجياً أن يحقق الله وعده ويعز جنده.

٥ - حين يمكن الله تعالى للمسلمين في الأرض، ويحقق لهم وعده، فإنه ينقلهم من الابتلاء بالشدائد والمحن إلى الابتلاء بنعمة النصر والتمكين، وعليهم أن يدركوا أن الابتلاء بالنعم أشد وأصعب من الابتلاء بالمحن والشدائد.

سوء عاقبة الكفار، وحسن عاقبة المؤمنين

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ **سورة الأعراف (١٣٠-١٣٧)**

التفسير الإجمالي للآيات

أقام موسى عليه الصلاة والسلام في قومه بمصر، يربيهم ويعلمهم مما علمه الله، واشتدت وطأة فرعون وقومه على بني إسرائيل، فأخذوا ينكلون بهم ويقتلون أبناءهم، ويسومونهم سوء العذاب، ومن سنة الله سبحانه أن يبتلي المكذبين بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون، فأصيب آل فرعون بالسنين المجدبة القاحلة حيث كان القحط يعم البلاد وتكثر الآفات، فتجف الزروع وتقل الثمرات وتحصل المجاعات.

وأحياناً تمر بهم أعوام يكثر فيها الخصب، وتزداد الثمرات والمحاصيل، وبدلاً من أن يتعظ هؤلاء القوم ويتفكروا في قدرة الله وتصريفه الأمور كانوا إذا جاءتهم النعمة والخصب وكثرة المطر وصلاح الثمرات قالوا: لنا هذه أي أُعطيناها باستحقاق، وهي مختصة بنا، وإن أصابتهم آفة أفسدت زرعهم، وأهلكت ثمارهم، تطيروا بموسى وبمن معه من المؤمنين، وقالوا: هذا

البلاء ما أصابنا إلا بشؤم موسى ومن معه، [(١)] ولم يدركوا أن ما أصابهم من خير أو شر، وما نالهم من خصب أو قحط هو من عند الله سبحانه، وأن كفرهم وتكذيب موسى هو السبب فيما يصيبهم من بلاء. لقد كانوا لفرط جهلهم ينسبون الخير والشر والنفع والضر إلى غير الله سبحانه.

وبدلاً من أن يراجعوا أنفسهم، ويندموا على ما هم فيه من الكفر والضلال ازدادوا تحدياً لموسى عليه الصلاة والسلام، فقالوا له: مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ، أو بينة لتصرفنا بها عما نحن عليه، فما نحن لك بمصدقين، فقد أخبروا عن أنفسهم أنهم لا يؤمنون بشيء مما يجيء به من الآيات التي هي في زعمهم من السحر.

وعند ذلك نزلت بهم العقوبة المبينة بقوله عز وجل: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ (١٣٣)

أرسل الله عليهم الطوفان، وهو المطر الشديد، أو فيضان النيل، أو الموت، وقيل: الطوفان في اللغة ما كان مهلكاً من موت أو سيل. [(٢)] والجراد: حشرة معروفة تأكل الزروع والأشجار وتُخربها، والقُمَّل: حشرات صغيرة مؤذية وناقلة للأمراض، والضفادع: جمع ضفدع وهو دابة صغيرة تكون في الماء والمستنقعات، والدم: هو السائل المعروف في الجسم، روي أنه سال النيل عليهم دماً، وقيل: أصيبوا بالرُّعاف فكان الدم ينزف من أنوفهم بكثرة. [(٣)] وقيل: أرسل الله عليهم الدم، فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار، وما كان في أوعيتهم، وجدوه دمًا عبيطاً. [(٤)]

كانت هذه الآيات تأتيهم تباعاً، فتنغص عليهم عيشهم، وتؤذيهم وتزعجهم، ولكنهم لم يتوبوا ولم يتضرعوا إلى ربهم، بل استكبروا وترفعوا عن الإيمان بالله، وكانوا قوما مجرمين لا

---

(١) انظر: أنوار التنزيل، وأسرار التأويل، للبيضاوي ٢/ ٣٠٨، وتفسير النسفي ١/ ٣٨٧.

(٢) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي ٣/ ٢٤، ومفاتيح الغيب، الفخر الرازي ٧/ ٢٢٤-٢٢٥.

(٣) انظر: زاد المسير، لابن الجوزي ٣/ ٢٤.

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٤٦٥.

يهتدون إلى حق، ولا يرجعون عن باطل.

وحين أصابهم العذاب بهذه الأمور التي أرسلها الله عليهم، قالوا لموسى ادع لنا ربك وأسعفنا إلى ما نطلب من الدعاء بحق ما عندك من عهد الله، أو ادع الله لنا متوسلاً إليه بعهده عندك، وحلفوا له الأيمان المؤكدة: لئن كشفت عنا العذاب فسوف نؤمن لك، ونطلق بني إسرائيل ليخرجوا معك حيث تريد.

ولما رأى موسى ما أصابهم، وأعطوه العهد أن يؤمنوا به ويتبعوه دعا ربه سبحانه فرفع عنهم ذلك العذاب إلى أجل، والأجل: ما جرى في علم الله أن هلاكهم يكون بالغرق. ولكنهم حين رأوا انكشاف العذاب عنهم، وتخلصهم من آلامه ومصاعبه، ظنوا أنه لن يصيبهم مرة أخرى، فعادوا ينقضون ما عقدوه على أنفسهم، ويتنصلون من العهود التي قطعوها لموسى عليه الصلاة والسلام.

وكانت العاقبة بعد ذلك أن انتقم الله منهم، فأغرقهم حين لحقوا بموسى وبني إسرائيل ليمنعوهم من الخروج، فأوحى الله إلى موسى أن يضرب بعصاه البحر فانفلق، وسار فيه بنو إسرائيل، وتبعهم فرعون وقومه، فلما خرج بنو إسرائيل من الضفة الأخرى كان فرعون وقومه وراءهم في البحر، فانطبق البحر عليهم فغرقوا جميعاً.

ونجّى الله بني إسرائيل، وأورثهم الأرض بعد أن كانوا مستضعفين مستذلين، وتمت كلمة ربك الحسنى، أي مضت واستمرت على التمام، والكلمة هي وعد الله الوارد في قوله: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [القصص: ٥-٦] وهذا وعد من الله سبحانه بالنصر والظفر على الأعداء، والاستيلاء على أملاكهم، وكان هذا الإتمام بسبب صبرهم على ما أصيبوا به من فرعون وقومه.

أما قوم فرعون فقد هلكوا، ولم يبق في بلادهم إلا العجزة والنساء والأطفال، وبذلك خربت بلادهم، وزالت دولتهم، كما يبين قوله سبحانه: ﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾ أي أهلكنا وخربنا ما كانوا يصنعونه من العمارات والقصور،

وما كانوا يعرشونه من الجنات التي يرفعون أشجارها على العمد والقضبان.[١]

ولا بد من الإشارة إلى أن استخلاف بني إسرائيل، والتمكين لهم في الأرض لم يأت بعد هلاك فرعون وقومه مباشرة، وإنما جاء بعد عشرات السنين، وأنهم لم يرثوا أرض مصر من آل فرعون، بل كان التمكين لهم في أرض الشام، وإنما ذكرت الآيات هنا استخلافهم والتمكين لهم في الأرض للمقابلة بما جرى لفرعون وقومه من إغراق وتدمير.[٢]

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن الملأ من قوم فرعون، وتحريضهم على بني إسرائيل، وتهديد فرعون لبني إسرائيل بمزيد من النكال والقهر والتعذيب، وموقف موسى عليه الصلاة والسلام إزاء ذلك، حيث أمر قومه أن يستعينوا بالله ويصبروا، وطمأنهم إلى أن وعد الله بالنصر آتٍ، وفي هذه الآيات بيانُ تَحَقُّقِ وعد الله لبني إسرائيل، وإتمام النعمة عليهم، بعد أن أهلك عدوهم، وأورثهم مشارق الأرض المباركة ومغاربها.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات بموضوع السورة اتصالاً وثيقاً، فمن جهة تعرض نموذجاً من الكفر والاستكبار اتصف به فرعون وقومه، وكيف كان إصرارهم على الكفر ونقض العهود رغم ما رأوا من الآيات والمعجزات، وكيف كانت عاقبتهم الوخيمة وأخذهم الوبيل. ومن جهة أخرى تعرض نموذجاً للمستضعفين الذين آمنوا بالله واستعانوا به وصبروا، حتى جاءهم نصر الله، وتمت عليهم كلمته الحسنى بالنصر والتمكين. وفي هذا وذاك إشارة إلى سوء عاقبة أهل الكفر، وحسن عاقبة أهل الإيمان.

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور ٥/ ٤٣٧، والتفسير الوسيط، لسيد طنطاوي ١/ ١٦٧٩.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ٢٨٣-٢٨٤.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - من سنن الله تعالى أن يبتلي المكذبين بالبأساء والضراء، وأن يوالي عليهم بين النقم والنعم فإصابتهم بالنقم من أجل أن يتذكروا ويضرعوا إلى الله سبحانه، وإصابتهم بالنعم لعلهم يشكرون الله على ما أعطاهم منها.

٢ - كان قوم فرعون إذا جاءتهم الحسنة، فأخصبت بلادهم وكثرت فيها الخيرات، يقولون: لنا هذه، أي أننا نستحقها بما بذلنا من جهد، وأتقنّا من صُنع، وإذا أصابتهم آفة من قحط أو مرض أو فساد في المحاصيل يقولون: هذا كان بشؤم موسى ومن معه. وهذا يعني أنهم لم يلتفتوا إلى الإيمان بالله، ولم يروا أن له أثراً في النفع والضر، ولا شيئاً في تدبير هذا الكون وهذا بسبب استكبارهم وشدة كفرهم.

٣ - كان تحدي قوم فرعون لموسى عليه الصلاة والسلام يدل على رفض شديد لكل معاني الإيمان، فقد رفضوا جميع الآيات التي يأتيهم بها، وأعلنوا أنهم لن يؤمنوا به ولو جاءهم بأعظم المعجزات.

٤ - أنزلت أصناف من العذاب الشديد على قوم فرعون، حتى رغبوا إلى موسى أن يدعو الله ليكشف الضر عنهم، وأعطوه العهود أن يؤمنوا، ولكنهم سرعان ما نقضوا عهودهم بعد أن رُفع عنهم العذاب، وهذا يؤكد أن الكفار لا يحفظون عهداً، ولا يرعون ميثاقاً.

٥ - وعد الله تعالى لا يتخلف ولا يتأخر، ولكل أجل كتاب، وقد تحقق وعد الله تعالى بإهلاك فرعون وقومه، كما تحقق بنصرة موسى والمؤمنين معه، وجعل العاقبة الحسنى لهم.

٦ - النصر والتمكين لا يكون إلا بالإيمان والتوكل على الله تعالى والصبر والعمل الصالح الدائب، أما القاعدون المتواكلون فلا يمكن أن يعرفوا النصر، ولا أن ينالوا خيراً.

بنو إسرائيل وعبادة الأصنام

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾ (الأعراف ١٣٨-١٤١)

التفسير الإجمالي للآيات

بعد أن عبر موسى عليه الصلاة والسلام البحر بمن معه من بني إسرائيل، ونجوا من فرعون وقومه، ورأوا كيف أهلكهم الله تعالى، سار بنو إسرائيل فمروا بقوم يعكفون على أصنام لهم يعبدونها ويُقربون لها القرابين، فقالوا لنبيهم عند مشاهدتهم تلك التماثيل: يا موسى اجعل لنا إلهاً، أي صنماً نعبده كما لهؤلاء القوم أصنام. فأجابهم موسى عليه الصلاة والسلام قائلاً: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾. وإنما وصفهم بالجهل لأنهم طلبوا عبادة غير الله تعالى، رغم أنهم شاهدوا من آيات الله ما لم يشاهده غيرهم، فكانوا أولى الناس بإخلاص العبادة لله وحده، والبعد عن الشرك به.

ثم قال لهم موسى: إن هؤلاء القوم العاكفين على الأصنام، واقعون في التبار والخسار والهلاك، وهذا الدين الذي يدينون به هالك فاسد، وكل أعمالهم التي يقومون بها من عبادة للأصنام ضائعة، لا وزن لها ولا قيمة.

ثم سألهم موسى منكراً عليهم ما طلبوا فقال: ﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾؟ أي كيف أطلب لكم غيرَ الله إلهاً تعبدونه، وقد شاهدتم من آياته العظام ما شاهدتم؟ والحال أنه سبحانه فضلكم على العالمين من أهل زمانكم، بما أنعم عليكم من إهلاك عدوكم، وإخراجكم من الذل والهوان إلى العز والرفعة، فكيف تقابلون هذه

النعم بطلب عبادة غيره؟

واذكروا وقت أن نجيناكم من آل فرعون، بعد أن كانوا مالكين لرقابكم، يستعبدونكم فيما يريدونه منكم، ويستخدمونكم في الأعمال، ويذيقونكم أشد العذاب، حيث كانوا يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم، وفي ذلك العذاب الذي كنتم فيه بلاء من ربكم عظيم.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن نزول العذاب بفرعون وقومه وإغراقهم في البحر بسبب ما كانوا فيه من الكفر والاستكبار، وبينت كيف أتم الله النعمة على بني إسرائيل، ونجاهم من عدوهم، ورفع عنهم ما كانوا فيه من الإذلال والاستعباد.

وتحدثت الآيات هنا عما جرى لبني إسرائيل بعد أن اجتازوا البحر، ورأوا ما رأوا من عجيب قدرة الله في فلق البحر لهم، وإهلاك عدوهم، ولكنهم حين مروا على قوم يعبدون الأصنام رغبوا في الشرك ومالوا إليه، وسألوا نبيهم أن يجعل لهم إلهاً كما لهؤلاء المشركين آلهة، وعرضت الآيات ردّ موسى على قومه، وتأديبه لهم.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات اتصالاً محكماً بموضوع السورة، فتعرض حلقة مما جرى لبني إسرائيل وهم - رغم إيمانهم واتباعهم لموسى عليه الصلاة والسلام - قد مالوا إلى الشرك ورغبوا فيه، ولولا وجود نبيّهم بينهم يوجههم ويربيهم لانحرفوا عن الإيمان شأنهم شأن كثير من الأمم التي سبق ذِكرُها.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - كانت نجاة بني إسرائيل من فرعون وقومه آيةً عظيمةً من آيات الله سبحانه، فقد فلق لهم البحر حتى جاوزوا إلى ضفته الأخرى، وأهلك أعداءهم حين حاولوا العبور وراءهم.

٢ - للأصنام والمعبودات وقعٌ وأثرٌ كبير في حياة غالبية بني إسرائيل، ولعل اختلاطهم - لمدة

طويلة - بالمصريين الذين كانوا يعبدون الأصنام، قد رسخ في نفوسهم حُبَّ عبادتِها.

٣ - أدّب موسى عليه الصلاة والسلام قومه مبيناً لهم فساد معتقد أولئك الذين يعبدون الأصنام، ومنكراً عليهم أن يبتغوا إلهاً غير الله سبحانه، ومذكراً ببعض النعم التي أنعمها الله عليهم، وفي هذا ما فيه من تربيتهم على الإيمان والتقوى، وردّهم إلى جادّة الهداية.

٤ - على المسلم أن يقابل نعم الله تعالى بالشكر والعرفان، وأن تكون النعم حافزة له على الطاعة والتقوى، رادعة له عن الوقوع في الذنوب والمعاصي.

من الأحاديث الواردة في تفسير الآيات:

عن أبي واقد الليثي قال: «خرجنا مع رسـول الله ﷺ قِبَلَ حُنَين، فمررنا بسِـدرة، فقلت: يا رسـول الله، اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط. وكان الكفار ينوطون سـلاحهم بسِـدرة، ويعكفون حولها، فقال النبي ﷺ: الله أكبر! هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم». (١)

---

(١) مسند أحمد ٤٤/ ٣٧١، رقم ٢٠٨٩٥، حديث أبي واقد ﷺ، وسنن النسائي الكبرى ٦/ ٣٤٦ رقم ١١١٨٥، باب: سورة الأعراف، وسنن الترمذي ٨/ ٩٣ رقم ٢١٠٦، باب: ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم.

مجيء موسى للميقات

﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ سورة الأعراف (١٤٢-١٤٧)

التفسير الإجمالي للآيات

أكرم الله سبحانه نبيه موسى عليه الصلاة والسلام بأن واعده، وجعل لموعده مدة ثلاثين ليلة، ثم تممها بعشر فصارت أربعين ليلة، قيل: إن الثلاثين هي شهر ذي القعدة، والعشر هي عشر ذي الحجة، وكان التكليم في يوم النحر،[1] فلما أراد موسى المسير لمناجاة ربه سبحانه طلب من أخيه هارون عليه الصلاة والسلام أن يكون خليفته في بني إسرائيل، وأوصاه أن يصلح أمْر بني إسرائيل بحسن سياستهم، والرفق بهم، وتفقد أحوالهم، والبعد عن كل ما يضر بهم ويفسد أحوالهم.

---

(١) انظر: معالم التنزيل، للبغوي ٣/ ٢٧٥، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٣/ ٤٦٨، وقد نقل ابن كثير هذا القول عن جمهور المفسرين، وأنه مروي عن ابن عباس، ومجاهد ومسروق وابن جريج.

ومضى موسى للميقات، حتى وصل في الوقت الموعود، وهناك كلمه الله سبحانه فأسمعه كلامه من وراء حجاب، فطلب موسى من ربه سبحانه النظر إليه، اشتياقاً إلى رؤيته لَمَّا أسمعه كلامه، وسؤال موسى للرؤية يدل على أنها جائزة عنده في الجملة، ولو كانت مستحيلة عنده لما سألها. فقال له الله سبحانه: لن تراني، وهذا يفيد أنه لا يراه في هذا الوقت الذي طلب رؤيته فيه، أو أنه لا يرى ما دام الرائي حياً في دار الدنيا، وأما رؤيته في الآخرة فقد ثبتت بأحاديث كثيرة، سيأتي ذكر شيء منها.

ثم أمره الله سبحانه أن ينظر إلى الجبل، ليرى ماذا سيحصل له، فإن ثبت الجبل مكانه ولم يتزلزل فسيتحقق لموسى ما طلب من رؤية الله، فلما تجلى[1] الله سبحانه للجبل جعله دكاً، أي: مدكوكاً مدقوقا فصار تراباً، وسُوّي بالأرض، فلما رأى موسى ذلك سقط مغشياً عليه مأخوذاً من الصاعقة، التي حدثت عن انهيار الجبل، فلما أفاق من غشيته قال: سبحانك، أي أنزهك تنزيهاً عن أن أسأل شيئاً لم تأذن لي به، تُبْتُ إليك عن مثل هذا السؤال.

قال القرطبي: وأجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية، فإن الأنبياء معصومون.[2]

وبعد أن أفاق موسى من الصعقة كلمه الله سبحانه مبيناً له أنه اصطفاه واختاره على الناس بما أوحى إليه من الرسالة، وبأنه كلمه من وراء حجاب، وامتن الله سبحانه عليه بهذين النوعين العظيمين من أنواع الإكرام وهما الرسالة والتكليم من غير واسطة، ثم أمره بأن يأخذ ما أعطاه من هذا الشرف الكريم، وأمره بأن يكون من الشاكرين على هذا العطاء العظيم والإكرام الجليل، واختصاصه بما اختصه الله به.

وقد أنزل الله عليه الألواح وفيها التوراة المتضمنة لكل ما يحتاج إليه بنو إسرائيل في دينهم

---

(١) تجلى: معناه ظهر، من قولك: جلوتُ العروس أي أبرزتها، وجلوتُ السيف: أخلصته من الصدأ، وتجلى الشيء: انكشف. انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ٨٨-٨٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد للقرطبي ١/ ٢١٩٣.



ودنياهم، والألواح جمع لوح، وسُمِّيَ لوحاً لكونه تلوح فيه المعاني، وهي مكتوبة بأمر الله سبحانه، ومشتملة على المواعظ لمن يتعظ بها من بني إسرائيل وغيرهم، والتفصيل للأحكام التي تحتاج إلى التفصيل والبيان، وأمره أن يأخذها بقوة وجد ونشاط، فيعمل بها، ويأمر قومه أن يعملوا بها، ويأخذوا بأحسن ما فيها، أو بما أجره أكثر من غيره، وهو مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ [الزمر:٥٥]، ووعد الله سبحانه أن يريهم منازل الفاسقين في النار يوم القيامة، وما يؤول إليه أمرهم من العذاب، وفي هذا توجيه لالتزام الحق، وتحذير من المخالفة والانحراف.

ثم بين الله سبحانه ما سيلاقي المتكبرون المعاندون من العذاب فقال: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ أي: سأمنعهم فهم آياتي، وأصرفهم عن الإيمان بها والانتفاع بها جزاء لهم على تكبرهم، كما في قوله: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ ﴾ [الصف: ٥] أو: سأطبع على قلوبهم حتى لا يتفكروا فيها ولا يعتبروا بها. والآيات هي المعجزات، أو الكتب المنزلة، أو خلق السموات والأرض.. وصرفهم عنها أن لا يعتبروا بها، والمعنى: سأصرف عن آياتي المتكبرين التاركين للإيمان بما يرونه من الآيات، والذين إذا وجدوا سبيلاً من سبل الرشد[1] تركوه وتجنبوه، وإن رأوا سبيلاً من سبل الغي سلكوه واختاروه لأنفسهم، وإنما استحقوا ذلك الصرف بسبب تكذيبهم، أو كان ذلك التكبر عندهم بسبب عدم إيمانهم بالآيات، وتجنب سبيل الرشد، وسلوك سبيل الغي والضلال.

هؤلاء المكذبون بطلت أعمالهم بعد أن كانوا يرجون نفعها، والجزاء من جنس العمل، هل يُجزون إلا ما كانوا يعملون من الكفر بالله، والتكذيب بآيات الله، وتنكب سبيل الحق، وسلوك سبيل الغي؟

(١) أصل الرشد في اللغة: أن يظفر الإنسان بما يريد، وهو ضد الغي والخيبة. انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ٩١.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن نجاة بني إسرائيل من فرعون وقومه، وعبورهم إلى الضفة الأخرى، وكيف سارعوا إلى مطالبة نبيهم موسى عليه الصلاة والسلام بأن يجعل لهم إلهاً يعبدونه، وكيف رد موسى عليهم.

وذكرت الآيات هنا نعماً كثيرة أنعمها الله على بني إسرائيل، فقد واعد موسى عليه الصلاة والسلام وكلمه وأنزل عليه التوراة فيها ما يحتاج إليه بنو إسرائيل من الشرائع والأحكام وبينت الآيات أن الله تعالى اصطفى نبيه موسى بالرسالات والتكليم، وفي هذا إعلاء لشأن بني إسرائيل، وإتمام للنعمة عليهم، ولذلك أُمر موسى أن يأمر قومه بالأخذ بأحسن ما جاءهم به من الهدى والعلم، والتمسك بالحق، حتى لا يصيبهم ما يصيب الفاسقين المعرضين عن الدين والهدى.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات اتصالاً محكماً بموضوع السورة، فتعرض حلقة مما جرى لبني إسرائيل وأن الله سبحانه أعطى نبيه موسى عليه الصلاة والسلام ما أعطاه من التوراة المشتملة على الشرائع والأحكام لهداية قومه وإرشادهم إلى الحق، وإبعادهم عن كل ما يوقعهم في العذاب، ووعدهم أن يريهم دار الفاسقين، وما سيصيبهم من العذاب والنكال، وفي هذا بيان واضح وتحذير من الانحراف عن سبيل الحق وطريق الهدى.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - تشير الآيات إلى أهمية الاستخلاف، فإن موسى عليه الصلاة والسلام لم يترك قومه بلا راع يرعى شؤونهم، بل استخلف أخاه هارون، وأوصاه أن يرعى شؤونهم، ويربيهم على ما يصلحهم وينفعهم. وبمثل هذا كان النبي ﷺ يعمل، فإذا خرج من المدينة لسفر أو غزو استخلف عليها أحد أصحابه.

٢ - رؤية الله تعالى في الدنيا ممكنة، ولكن الله سبحانه قضى أن لا تكون لأحد إلا في الآخرة، فتكون للمؤمنين، والدليل على إمكانها في الدنيا أن الله سبحانه أجاب موسى بقوله: ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ﴾، واستقرار الجبل مكانه من الأمور الممكنة، وتعليق الرؤية على ممكن دليل على أن تحققها ممكن.

٣ - كان انهيار الجبل وتسويته بالأرض من الأمور الدالة على عظمة الله تعالى وقدرته، ولم يتحمل موسى عليه الصلاة والسلام رؤية الجبل وهو يندك، فخر صعقاً، فكيف يتحمل رؤية الله تعالى؟

٤ - توبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليست من اقتراف الذنوب، فالأنبياء معصومون ولكن هذه التوبة زيادة في القرب من الله تعالى، واعتراف بعظيم حقه على خلقه، كما أنها دليل على ترقي الأنبياء في الدرجات، فكلما وصلوا إلى درجة من درجات الكمال نظروا إلى الدرجة التي كانوا فيها من قبل، فاستغفروا.

٥ - الله سبحانه يصطفي من يشاء من عباده، ويفضل من يشاء من رسله وأنبيائه فيرفعهم درجات، وقد اصطفى موسى عليه الصلاة والسلام بما أعطاه من الرسالة، وبتكليمه إياه من وراء حجاب، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

٦ - قوله تعالى: ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ﴾ فيه إشارة إلى أن على المسلم أن يستمع ليأخذ أحسن القول ويتبعه، وأن يتبع أحسن الفهم، ويسعى إلى أحسن العمل. فالمسلم يسعى إلى الأحسن دائماً.

٧ - الله سبحانه يتوعد الفاسقين والمتكبرين المعرضين عن الحق، بأن يصرفهم عن آياته، ويحرمهم من هداياتها، وفي هذا إشارة إلى عظم نعمة الله على المسلم أن هداه الله إلى اتباع الحق، وأنعم عليه بسلوك سبيل الإيمان. والله سبحانه لم يظلم هؤلاء الفاسقين حين صرفهم عن الهدى، بل هم ظلموا أنفسهم بالصدّ والإعراض، فاستحقوا أن يُعاقبوا بالمنع والحرمان.

من الأحاديث الواردة في تفسير الآيات

عن جرير قال: كنا عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة - يعني البدر - فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا». ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾[1] قال إسماعيل: افعلوا لا تفوتنكم.

وفي رواية عنه قال: «كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ، إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها، يعني العصر والفجر، ثم قرأ جرير: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠][2]

عن أبي سعيد - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال: «الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي، أم جوزي بصعقة الطور». [3]

(١) صحيح البخاري، دار ابن كثير ١/ ٢٠٣، رقم ٥٢٩.
(٢) صحيح مسلم - دار إحياء التراث العربي - بيروت ١/ ٤٣٩، رقم ٦٣٣.
(٣) صحيح البخاري ١٢/ ٨٣، رقم ٣٣٩٨.

بنو إسرائيل وعبادة العجل

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ الْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ الْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الْأُمِّىَّ الَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى التَّوْرَىٰةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَٰلَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الْأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ سورة الأعراف (١٤٨-١٥٩)

التفسير الإجمالي للآيات

بعد أن ذهب موسى عليه الصلاة والسلام للميقات اتخذ قومه من حليهم والمجوهرات التي كانت معهم عجلاً، صنعه له رجل منهم يقال له السامريُّ، وجعله على هيئة العجل، له صوت كصوت البقر، وزين لهم أن هذا هو إلههم، فاستجاب عامة بني إسرائيل لهذا التزيين، وأقبلوا على العجل يعبدونه، رغم أنهم يعرفون أنه مصنوع من الذهب والحلي، وأنه لا يتكلم ولا يملك لنفسه شيئاً، ولا يستحق أن يكون إلهاً يُعبَد، لكنهم ظلموا أنفسهم، وأقبلوا على عبادة العجل، متنكرين لنعم الله عليهم، ومعرضين عن هديه وشرعه.

ولكن هؤلاء القوم ندموا وتحيروا بعد رجوع موسى عليه الصلاة والسلام من الميقات،[1] وعرفوا أنهم كانوا في ضلال باتخاذهم العجل، وأنهم قد ابتُلوا بمعصية الله سبحانه، فأعلنوا ندمهم وتوبتهم قائلين: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وفي هذا الكلام منهم ما يفيد الاستغاثة بالله، والتضرع والابتهال في السؤال.

ورجع موسى إلى قومه مغضباً شديد الغضب، وذلك أن الله سبحانه أخبره قبل رجوعه بأن قومه قد فُتنوا بعبادة العجل، فأخذ موسى يلومهم ويوبخهم قائلاً: بئسما خلفتموني من بعدي، أي بئس العمل الذي عملتموه من بعد غيبتي عنكم، فقد استنكر عليهم ما فعلوه وذمَّهم لكونهم عبدوا العجل بعد ما شاهدوا من الآيات ما يدعوهم إلى الإيمان بالله وحده، أعجلتم عن انتظار أمر ربكم وميعاده الذي وعدنيه، وهو الأربعون ففعلتم ما فعلتم؟ وكان يحمل الألواح بيديه فطرحها من شدة الغضب والأسف، حين أشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل، وأخذ برأس أخيه هارون عليه الصلاة والسلام، يجره إليه، لظنه أن هارون لم ينكر على السامري وبني إسرائيل عبادتهم العجل، فقال هارون معتذراً مستعطفاً: يا ابن أم

---

(١) يقال للنادم المتحير: قد سُقط في يده، والندم وإن حل في القلب فأثره يظهر في البدن، لأن النادم يعضُّ يده، ويضرب إحدى يديه على الأخرى. انظر: فتح القدير للشوكاني ٣/ ٩٤، وروح المعاني للآلوسي ٦/ ٣٦٧.

إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني، ولم أُطق تغيير ما فعلوه لهذين الأمرين؛ استضعافهم لي ومقاربتهم لقتلي، فلا تُشمت بي الأعداءَ، ولا تجعلهم يفرحون بما يصيبني على يدك،[١] والمعنى: لا تفعل بي ما يكون سبباً لشماتتهم، ولا تجعلني - بغضبك علي- في عداد القوم الظالمين الذين عبدوا العجل.

عندئذ توجه موسى إلى ربه طالباً المغفرة له ولأخيه هارون، وأن يدخلهما الله في رحمته، وهو أرحم الراحمين.

ويأتي التعقيب القرآني على القصة مبيناً أن الذين عبدوا العجل، سيصيبهم غضب من الله وذلة في الحياة الدنيا، وهذا ما حدث لهم حيث أُمروا بقتل أنفسهم، كما بينت سورة البقرة، والذلة هي التي ضربها الله عليهم وسلط عليهم من الأعداء من يسومهم سوء العذاب.

لكن الذين وقعوا في هذه المعصية ثم تابوا ورجعوا إلى الله سبحانه، وعادوا إلى الإيمان فالله سبحانه غفور رحيم، يقبل توبتهم ويعفو عنهم.

ولما سكت عن موسى الغضب، وهدأت نفسه أخذ الألواح التي كان ألقاها،[٢] وهذه الألواح في نسختها هدى ورحمة للمؤمنين الذين يخافون الله ويتقونه. والنسخ: نقل ما في كتاب إلى كتاب آخر، ويقال للأصل الذي كان النقل منه: نُسخة، وللمنقول نُسخة أيضاً، والمعنى:

---

(١) الشماتة: سرور الإنسان بما يصيب عدوه من المصائب، ومنه قوله ﷺ: "اللهم إني أعوذ بك من سوء القضاء، ودرك الشقاء، وجهد البلاء، وشماتة الأعداء" ومنه قول الشاعر:

إذا ما الدهر جر على أناس　　كلاكلَهُ أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا　　سيلقى الشامتون كما لقينا

انظر: روح المعاني، للآلوسي ٦/ ٣٧٢، والتحرير والتنوير، لابن عاشور ٥/ ٤٦٨.

(٢) أصل السكوت: السكون والإمساك، كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له: قل لقومك كذا، وألق الألواح، وجر برأس أخيك.. فترك الإغراء وسكت، ولهذا جاء التعبير القرآني: (ولما سكت عن موسى الغضب).

فيما نسخ من الألواح المتكسرة ونقل إلى الألواح الجديدة هدى ورحمة، أو: وفيما كُتب له فيها هدى ورحمة، فلا يحتاج إلى أصل ينقل عنه، والهدى ما يهتدون به من الأحكام، والرحمة ما يحصل لهم من الله عند عملهم بما فيها من الرحمة الواسعة.

ثم أورد القرآن حادثة أخرى، بينت ما كان من موسى عليه الصلاة والسلام والسبعين الذين اختارهم، وهم أفضل قومه، ليسير بهم إلى الميقات الذي وَقَّته الله له بعد أن وقع من قومه ما وقع، فقد أمره الله تعالى أن يأتي إلى الطور في ناس من بني إسرائيل، يعتذرون إليه سبحانه من عبادة العجل، فلما أقبلوا مع موسى عليه الصلاة والسلام قالوا: ﴿ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةً ﴾ [البقرة:٥٥]، وكان في طلبهم هذا ما فيه من قلة الأدب، حيث أعلنوا امتناعهم عن الإيمان لموسى إلا إذا رأوا الله تعالى جهرةً، فأرسل الله عليهم الرجفة، وهي الزلزلة الشديدة، فزُلزلوا حتى ماتوا، فلما رأى موسى ما أصابهم قال: رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي والمعنى: لو شئت إهلاكنا لأهلكتنا بذنوبنا قبل هذا الوقت، اعترافاً منه ﷺ بالذنب، وتلهفاً على ما فرط من قومه. والاستفهام في قوله ﴿ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ ﴾ للجحد والإنكار، والمقصود منه الاستعطاف والتضرع، فكأنه قال: رب لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا، فما الفتنة التي وقع فيها هؤلاء السفهاء إلا فتنتك التي تختبر بها من شئت، وتمتحن بها من أردت، ثم رجع إلى الاستعطاف والدعاء فقال: أنت ولينا المتولي لأمورنا، فاغفر لنا ذنوبنا وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء، وأنت خير الغافرين للذنوب.

واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة بتوفيقنا للأعمال الصالحة، أو تفضل علينا بإفاضة النعم في هذه الدنيا من العافية وسعة الرزق، واكتب لنا في الآخرة الجنة، إنا تبنا إليك، ورجعنا عن الغواية التي وقعت من بني إسرائيل، ومعنى الهَوْد: التوبة.

ثم أخبر الله سبحانه أنه القادر على كل شيء، فهو يصيب بعذابه من يشاء، ورحمته وسعت كل شيء، وسيكتب هذه الرحمة الواسعة للذين يتقون ربهم، ويؤتون الزكاة المفروضة عليهم ويؤمنون بآيات الله سبحانه.

ثم بين سبحانه صفات هؤلاء الذين يشملهم برحمته، بأنهم الذين يتبعون الرسول النبي الأمي[1] محمداً عليه الصلاة والسلام، الذي يجدونه - يعني اليهود والنصارى - يجدون نعته مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، وهما مرجعهم في الدين، وهذا الكلام منه سبحانه مع موسى هو قبل نزول الإنجيل، فهو من باب الإخبار بما سيكون، ثم وَصَفَ هذا النبيَّ الذي يجدونه كذلك بأنه يأمر بالمعروف، أي: بكل ما تعرفه الشريعة ولا تنكره من مكارم الأخلاق وينهاهم عن المنكر، أي: ما تنكره الشريعة ولا تعرفه، وهو ما كان من مساوئ الأخلاق، ويحل لهم الطيبات من الرزق، ويحرم عليهم الخبائث كالحشرات والخنازير، ويضع عنهم إصرهم والإصر: الثقل، والمعنى: يضع عنهم التكاليف الشاقة الثقيلة التي كانوا قد كُلفوا بها. فمن آمن بهذا النبي محمد ﷺ، واتبع ما جاء به من الشرائع، وعظمه ووقره ونصره على من يعاديه، وآمن بالقرآن الذي أنزل عليه، فهو من الفائزين بالخير والفلاح.

لقد تضمنت هذه الآيات بشارة بسيدنا محمد ﷺ، كما أشارت إلى الإنجيل قبل أن ينزل الإنجيل بمئات السنين.

وبعد أن ذكرت الآيات بعض أوصاف رسول الله ﷺ المكتوبة في التوراة والإنجيل، أمره الله سبحانه أن يقول: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾، وهذا القول يقتضي عموم رسالته إلى الناس جميعاً، لا كما كان غيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام فإنهم كانوا يُبعثون إلى قومهم خاصة، لكن رسول الله ﷺ مرسل إلى الناس جميعاً، فالله الذي له ملك السماوات والأرض، لا ينازعه في ذلك أحد، المتفرد بالألوهية، وبالإحياء والإماتة هو الذي أرسله إليكم، يدعوكم إلى الإيمان بالله ورسوله النبي الأمي، وفي هذا دعوة إلى الإيمان بالله وحده، والإيمان بنبيه محمد عندما يُبعث، وإشارة إلى بعض صفاته.

والمراد بالكلمات ما أنزل الله عليه وعلى الأنبياء من قبله، أو القرآن.

---

(١) الأمي إما نسبة إلى الأمة الأمية التي لا تكتب ولا تحسب وهم العرب، أو نسبة إلى الأم، والمعنى: أنه باق على حالته التي ولد عليها لا يكتب ولا يقرأ المكتوب، وقيل: نسبة إلى أم القرى وهي مكة المكرمة.

ولما قص الله علينا ما وقع من السامري وأصحابه، وما حصل من بني إسرائيل من التزلزل في الدين، أخبر سبحانه أن من قوم موسى أمةً مخالفةً لأولئك الذين تقدم ذكرهم، ووصفهم بقوله: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾، فهم يدعون الناس إلى الهداية حال كونهم متلبسين بالحق، وبالحق يعدلون بين الناس في الحكم، وهؤلاء هم الذين ثبتوا على الحق من أهل الكتاب، ومنهم من أدركوا النبي محمداً ﷺ وآمنوا به واتبعوه.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن الميقات، وتكليم الله لنبيه موسى عليه الصلاة والسلام، وما آتاه من الكرامة، وتحدثت الآيات هنا عما فعله بنو إسرائيل في غياب موسى من عبادة العجل وموقف موسى لما رجع إليهم، وبينت ندمهم وتوبتهم، كما أشارت إلى أن من التزموا بعهد الإيمان، والذين عملوا السيئات ثم تابوا فإن الله سيرحمهم ويتوب عليهم، ولكن عليهم أن يتبعوا النبي الأمي الذي بشرت به التوراة والإنجيل، إذا هم أدركوا زمانه.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل الآيات اتصالاً محكماً وثيقاً بموضوع السورة، حيث تبين أن بني إسرائيل في هذه المرحلة انحرفوا عن الدين القويم، فعبدوا العجل، لكنهم تابوا وعادوا إلى الإيمان، وهذا يذكّر بأن الإنسان عرضة للزلل والخطأ، بسبب وسوسة الشيطان وهوى النفوس، ولكن فرقٌ بين من يستمر على خطئه وعصيانه، وبين من يتوب ويرجع إلى الله نادماً منيباً.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - كان تأثر بني إسرائيل بأهل مصر كبيراً، فعبادة البقر معروفة ومألوفة عند قدماء المصريين، حيث عبدوا العجل (أبيس)، وهؤلاء اليهود قلدوهم في عبادة العجل الذي صنعه لهم السامري.

٢ - عكف بنو إسرائيل على عبادة العجل، ورفضوا الاستجابة لهارون عليه الصلاة والسلام ولكن لما رجع إليهم موسى عليه الصلاة والسلام ندموا على ما وقعوا فيه من الضلال،

وأعلنوا توبتهم وندمهم.

٣ - كان موقف موسى عليه الصلاة والسلام دالاً على غضبه مما فعل قومه، فهو يغضب لله لا لنفسه، ومن أمارات غضبه أنه ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وأخذ يوبخ قومه ويلومهم على ما فعلوا. ويؤخذ من هذا أن المسلم يجب أن يكون غضبه لله تعالى، لا لنفسه.

٤ - تدل الآيات على سعة رحمة الله تعالى، وأنه يقبل توبة التائبين، ويعفو عن المذنبين إذا ندموا وأنابوا، وفي هذا فتح لباب التوبة أمام كل عاصٍ ومذنب.

٥ - كان موقف السبعين الذين اختارهم موسى عليه الصلاة والسلام - وهم خيار بني إسرائيل - موقفاً يدل على ضعف الإيمان في نفوسهم، حيث طلبوا رؤية الله تعالى، وجعلوا ذلك شرطاً لإيمانهم.

٦ - بُشر موسى عليه الصلاة والسلام ببعثة سيدنا محمد ﷺ، وأعلمه الله أنه سينزل الإنجيل أيضاً، وسيكون النبي الخاتم مكتوباً في التوراة والإنجيل بأهم صفاته، وفي مقدمتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحليل الطيبات، وتحريم الخبائث، والتيسير على الناس في التشريعات والعبادات.

٧ - كما أشارت الآيات إلى أن النبي الخاتم سينزل عليه نور من ربه، وقد وُصف القرآن في مواضع أُخَر بأنه نور.

٨ - أُمر النبي محمد ﷺ أن يُعلن للناس أنه رسول الله إليهم جميعاً، ليتبين الفرق بينه وبين سائر الأنبياء السابقين، فقد كانوا يُبعثون إلى أقوامهم خاصة، وبُعث النبي ﷺ إلى الناس كافّة.

٩ - لم يكن بنو إسرائيل جميعاً سواءً في الضلال والانحراف، بل كانت منهم طائفة التزمت بالحق، فهم يهدون به وبه يعدلون، وهؤلاء يستحقون أن يُثني الله عليهم، ويخلد ذكرهم في كتابه.

من الأحاديث الواردة في تفسير الآيات:

قوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾.

عن سلمان عن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل خلق مائة رحمة؛ فمنها رحمة يتراحم بها الخلق، فبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة». (١)

قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾

عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيت خمساً لم يُعطَهن أحد من الأنبياء قبلي؛ نُصرت بالرعب مسيرةَ شهر، وجُعلَتْ لي الأرضُ مسجداً وطهوراً، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأُحلَّت لي الغنائم، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصَّةً، وبُعثت إلى الناس كافةً، وأُعطيتُ الشفاعةَ». (٢)

عن أبي الدرداء ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ هل أنتم تاركو لي صاحبي؟ إني قلت: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً، فقلتم: كذبتَ. وقال أبو بكر: صدقتَ». (٣)

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾

عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. قال: أجل والله، إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سَخّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفا». (٤)

---

(١) مسند أحمد ٤٨/ ٢٢٩، رقم ٢٢٦٠٥، وصحيح ابن حبان ٢٥/ ٣٣٦، رقم ٦٢٥٣، عن أبي هريرة، ومسند أبي يعلى ١١/ ٢٥٨، رقم ٦٣٧٢، عن أبي هريرة أيضاً.

(٢) صحيح البخاري، دار ابن كثير ١/ ١٦٨، رقم ٤٢٧.

(٣) صحيح البخاري ١٥/ ٢٣٤، رقم ٤٦٤٠، باب: قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً.

(٤) صحيح البخاري - دار ابن كثير ٢/ ٧٤٧، رقم ٢٠١٨.

من مخالفات بني إسرائيل وانحرافاتهم

سورة الأعراف (١٦٠-١٧١)

﴿ وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

التفسير الإجمالي للآيات

يبين الله سبحانه أنه قطَّعَ بني إسرائيل، أي صيرهم قطعاً متفرقة، وميَّزَ بعضهم من بعض حتى صاروا أسباطاً،[1] كل سبط معروف على انفراده، ولكل سبط نقيب كما في قوله تعالى: ﴿ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ [المائدة:١٢]، فصاروا اثنتي عشرة أمةً من اثني عشر ولداً، وقد أصابهم العطش في التيه، فجاءوا إلى موسى يستسقونه، فسأل اللهَ تعالى أن يسقيهم فأوحى الله إليه: ﴿ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾ فضرب الحجرَ، فانبجست، أي انفجرت منه اثنتا عشرة عيناً بعدد الأسباط، لكل سبط عين يشربون منها، قد علم كل سبط منهم العين المخصصة ليشرب منها، فكانت هذه من النعم العظيمة التي أكرمهم الله بها، كما أنعم عليهم بنعمة تظليلهم بالغمام، يسير بسيرهم، ويقيم بإقامتهم، يقيهم من حر الشمس في تلك الأرض الخلاء المكشوفة، وأنزل عليهم طعاماً من أطيب الطعام وأجوده، هو المن والسلوى، فالمن نبات أو ثمر طيب الطعم، والسلوى طائر لحمه طيب،[2] وأذن لهم الله أن يأكلوا من هذه الطيبات المستلذات التي رزقهم، لكنهم لم يحفظوا هذه النعمة، بل ظلموا أنفسهم بما وقع منهم من المخالفة وكفران النعم.

ثم تنتقل الآيات لتذكر حادثة أخرى وقعت لبني إسرائيل، بعد أن انقضت مدة التيه حيثُ قيل لهم اسكنوا هذه القرية، أي بيت المقدس أو أريحاء، وكلوا من المأكولات الموجودة فيها حيث شئتم، وفي أي مكان شئتم منها، ولكن قولوا - وأنتم تدخلونها -: يا ربنا حُطَّ عنا خطايانا، وادخلوا باب القرية المشار إليها حال كونكم سجداً، أُمروا بأن يجمعوا بين قولهم حطة

---

(١) والأسباط جمع سبط وهو ولد الولد، وأراد بالأسباط القبائل ولهذا أنث العدد، كما في قول الشاعر:

وإن قريشا كلها عشر أبطن   وأنت بريء من قبائلها العشر

أراد بالبطن القبيلة، وسماهم أمماً لأن كل سبط كان جماعةً كثيرة العدد. انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٠٦، وروح المعاني، للآلوسي ٦/ ٣٩٩.

(٢) وفي معنى المن والسلوى أقوال عديدة للمفسرين، انظر: زاد المسير، لابن الجوزي ١/ ٦٨، وروح المعاني للآلوسي ١/ ٣٢٥.

وبين الدخول ساجدين، فإنكم إن فعلتم ذلك سيغفر الله لكم خطيئاتكم وذنوبكم، وسيزيد المحسنين منكم على المغفرة لخطاياهم، بما يُنعم به عليهم من النعم.

لكن هؤلاء القوم بدلوا القول، وغيروا الكلام، ورفضوا الاستجابة للأمر، فاستحقوا أن يُرسِل الله عليهم عذاباً من السماء يهلكهم ويقضي عليهم. وقد أصاب العذابُ المخالفين وأهلكهم.

ولم تكن تلك المخالفة فريدة في تاريخهم، بل كانت حياتهم حافلة بمثل تلك المخالفات والانحرافات، ومن ذلك ما حصل من أصحاب القرية التي على ساحل البحر، [١] فاسألهم عن هذه الحادثة التي عصوا فيها أمر الله سبحانه، وقصة ذلك أن أهل تلك القرية كانوا يصيدون الحيتان في البحر، لكنهم تجاوزوا حدود الله، بالصيد يوم السبت[٢] الذي نُهوا عن الصيد فيه، فقد كانت الحيتان تأتي يوم السبت شُرَّعاً ظاهرة على الماء، قريبة من الشاطئ، بحيث يسهل صيدها، وفي بقية الأيام تبتعد هذه الحيتان، وتذهب في عرض البحر، وكان هذا ابتلاءً من الله لهم.

ولما رأى اليهود ذلك أخذوا يفكرون في طريقة تمكنهم من أخذ الحيتان وصيدها، فحفروا حياضاً، ووضعوا حواجز، فكانت الحيتان تدخل في تلك الحياض يوم السبت، فيغلقونها بالحواجز، وتبقى الحيتان حبيسة، فيأخذونها يوم الأحد. [٣]

وأمام هذا العدوان على حرمة السبت، والاحتيال على شرع الله تعالى، قامت جماعة من صالحي أهل القرية بوعظ هؤلاء العصاة، وتخويفهم من عذاب الله تعالى، وأخذوا يرددون عليهم الوعظ والتذكير، لكن جماعة أخرى من أهل القرية قالوا لمن كانوا يجتهدون في وعظ المتعدين في السبت حين أيسوا من قبولهم للموعظة وإقلاعهم عن المعصية: لم تعظون قوماً الله

---

(١) اختُلف في هذه القرية، فقيل: أيلة، وقيل: طبرية، وقيل: مدين، وقيل غير ذلك. انظر: زاد المسير ٣/ ٤٦، وتفسير البيضاوي ٢/ ٣٣١.

(٢) السبت: هو اليوم المعروف، وأصله السكون، يقال: سبت إذا سكن، وسبت اليهود تركوا العمل في سبتهم. انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٠٧.

(٣) انظر: تفسير الخازن ٣/ ١١٥.



مهلكهم، ومُنزلٌ بهم العقوبة، أو معذبهم عذابا شديداً بسبب اعتدائهم في السبت، وتجاوزهم الحدود؟ فردَّ عليهم الواعظون: إننا نفعل ذلك معذرة إلى ربكم، ولعلهم يتعظون ويكفون عما هم فيه من العصيان والاعتداء.

قال جمهور المفسرين: إن بني إسرائيل افترقت ثلاث فرق؛ فرقة عصت وصادت الحيتان يوم السبت، وفرقة اعتزلت فلم تنه ولم تعص، وفرقة اعتزلت ونهت ولم تعص، فقالت الطائفة التي لم تنه ولم تعص للفرقة الناهية: لم تعظون قوماً؟ يعني: الفرقة العاصية. الله مهلكهم أو معذبهم، قالوا ذلك على غلبة الظن لما جرت به عادة الله من إهلاك العصاة، أو تعذيبهم من دون استئصال بالهلاك، فقالت الفرقة الناهية: موعظتنا معذرة إلى الله ولعلهم يتقون. [1]

لكن العصاة من أهل القرية أعرضوا، وتركوا ما ذكرهم به الصالحون الناهون عن المنكر، وتمادوا فيما هم فيه من العصيان والعدوان، وعندئذ قضى الله سبحانه بإنزال العذاب عليهم، فنجَّى الفرقة التي نهت عن المنكر، وحذَّرت من عاقبته، وأخذ الذين ظلموا، وهم العصاة المعتدون في السبت، والساكتون عنهم الذين لم ينهوهم عن المنكر بعذاب شديد، بسبب فسقهم وظلمهم، وكان هذا العذاب أن مسخهم الله تعالى، فصاروا قردةً، وقضى عليهم بالذلة والصغار والطرد من رحمته.

وقد تأذن الله[2] سبحانه أن يبعث على بني إسرائيل، في كل مدةٍ إلى يوم القيامة من يذيقهم سوء العذاب، فهو سبحانه سريع العقاب، قادر أن يعاجل به في الدنيا كما وقع لهؤلاء، وهو سبحانه غفور رحيم، يغفر لمن تاب، ويرحم من أناب إليه.

ثم أخبر الله سبحانه أنه قضى بتفريق بني إسرائيل في جوانب الأرض، وتشتيت أمرهم فصاروا أمماً منهم الصالحون الذين اتبعوا الحق ولم يحرفوا ولم يغيروا، ومن هؤلاء من آمن بمحمد

(١) انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٠٨.

(٢) تأذَّنَ تفعَّلَ، من الإيذان وهو الإعلام، قال أبو علي الفارسي: آذنَ بالمد: أعلم، وأذَّنَ بالتشديد: نادى. انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ١١٢.

ﷺ ودخل في الإسلام، ومنهم أناس دون ذلك، والمراد بهؤلاء من لم يستقيموا، بل استمروا في المخالفة والعصيان، وابتلاهم الله بالخير والشر، والسراء والضراء، رجاء أن يرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصي. فخلف من بعدهم خلْف، هم أولادهم وذرياتهم، [1] ورثوا التوراة من أسلافهم يقرؤونها ولا يعملون بها، بل يأخذون ما يعرض لهم من متاع الدنيا[2] لشدة حرصهم وقوة نهمتهم، يتعجلون مصالحها بالرشا والسحت في مقابل تحريفهم لكلمات الله، وتهوينهم للعمل بأحكام التوراة، وكتمانهم لما يكتمونه منها، ويأخذون عرض الشيء الدنيء الساقط، ويقولون سيُغفر لنا، فهم يعللون أنفسهم بالمغفرة مع تماديهم في الضلالة، وعدم رجوعهم إلى الحق، وإذا أتاهم عرض مثل العرض الذي كانوا يأخذونه أخذوه غير مبالين بالعقوبة، ولا خائفين من التبعة، مع أنه قد أُخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق، لكنهم تركوا العمل بالميثاق المأخوذ عليهم في الكتاب، والحال أنهم قد درسوا ما في الكتاب وعلموه فكان التَّركُ منهم عن علم لا عن جهل، وذلك أشد ذنباً وأعظم جرماً، وقيل: معنى درسوا ما فيه: مَحَوْهُ بترك العمل به. والدار الآخرة خير من ذلك العرض الذي أخذوه وآثروه عليها.

وفي الوقت الذي كان عامة بني إسرائيل لا يتمسكون بالتوراة، ولا يعملون بما فيها، مع كونهم قد درسوها وعرفوها، فقد وُجدت طائفة منهم يتمسكون بالتوراة ويعملون بما فيها، ويرجعون إليها في أمر دينهم، ويقيمون الصلاة، وهؤلاء هم المصلحون الذين لا يضيع أجرهم عند الله.

---

(١) قيل: الخَلْفُ بسكون اللام: الأولاد، الواحد والجمع سواء، والخَلَفُ بفتح اللام: البَدَلُ، ولداً كان أو غيرَه، وقيل: الخَلَفُ بالفتح: الصالح، وبالسكون: الفاسد. قال لبيد:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم　　　وبقيت في خَلْفٍ كجلد الأجربِ

انظر: مختار الصحاح ١/ ٩٠.

(٢) (يأخذون عرض هذا الأدنى) الأدنى مأخوذ من الدنو وهو القُرب، أي يأخذون عرض هذا الشيء الأدنى وهو الدنيا، وقيل: إن الأدنى مأخوذ من الدناءة والسقوط. انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ١١٣.

ثم تتحدث الآيات عن صورة جديدة من مخالفات بني إسرائيل، فقد رفع الله الجبل فوقهم حتى صار كأنه لارتفاعه سحابة تُظلهم، والظلة اسم لكل ما أظل، وظنوا أنه واقع بهم ساقط عليهم، فكان رفع الجبل فوقهم لتخويفهم من العصيان والانحراف، وقيل لهم: خذوا الكتاب بقوة وجدٍّ وعزيمة، واذكروا ما فيه من الأحكام التي شرعها الله لكم، ولا تنسوه رجاء أن تتقوا ما نُهيتم عنه، وتعملوا بما أُمرتم به.

عن ابن عباس قال: إنّي لأعلم خَلْقِ الله لأيِّ شيء سجدت اليهود على حَرْفِ وُجوههم: لما رفع الجبل فوقهم سَجَدُوا، وجعلوا ينظرون إلى الجبل مخافةَ أن يقع عليهم. قال: فكانت سجدةً رضيها الله، فاتخذوها سُنَّة.[1]

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن ذهاب موسى عليه الصلاة والسلام إلى الميقات، وما فعله قومه من عبادة العجل، ورجوعه إليهم، وما جرى بينه وبينهم، وتوبتهم وندمهم، كما بينت أن الله سبحانه يقبل توبة التائبين، وذكرت من صفاتهم أنهم يتبعون الرسول النبي الأمي.. وجاءت الآيات هنا تذكر بعض الجوانب من تاريخ بني إسرائيل وانحرافاتهم ومخالفاتهم فذكرت جحودهم نعم الله، وتبديلهم القول الذي قيل لهم، وما أصابهم من العذاب بسبب ذلك، ثم ذكرت اعتداءهم في السبت، والعقوبة التي نالتهم، وبينت ما جرى لهم من تقطيع في الأرض، وأن الله قضى أن يبعث عليهم من يذيقهم سوء العذاب.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات بموضوع السورة اتصالاً وثيقاً، فهي تتحدث عن حلقة واسعة من تاريخ بني إسرائيل، الذين سجلوا انحرافات خطيرة عن طريق الإيمان، فعبدوا العجل مرةً، وبدلوا القول الذي قيل لهم مرةً أخرى، واعتدوا في السبت، واحتالوا على تعاليم الشريعة،

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ١٣/ ٢١٨، رقم ١٥٣٣٣.

وكل ذلك بسبب اتباع هوى النفوس ووساوس الشيطان.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - أنعم الله تعالى على بني إسرائيل بنعم كثيرة، فقابلوها بالجحود والكفران، فاستحقوا الحرمان منها، والعقوبة على ما بدر منهم.

٢ -كان كثير من هذه النعم من المعجزات الخارقة، كانفجار العيون من الحجر، وإنزال المنّ والسلوى، وتظليل الغمام لهم، وكان هذا أدعى لأن يؤمنوا ويلتزموا، ولكنهم ازدادوا جحوداً وظلماً.

٣ - الاعتداء على حدود الله، وانتهاك حرمات الدين سبب في حلول العقاب ونزول العذاب، والتحايل على الشرع - كما فعل الذين اعتدوا في السبت - ظلم وتجاوز لحدود الله.

٤ - للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أهمية عظيمة في حفظ المجتمعات من غضب الله تعالى والوقاية من الدمار والهلاك، فأهل القرية التي كانت حاضرة البحر لو أطاعوا الذين كانوا ينهونهم عن المنكر لما أصابهم العذاب.

٥ - يستفاد من قصة أصحاب السبت، وغيرها مما جرى لبني إسرائيل، تعريفهم بأن ذلك مما أُخبر به رسول الله ﷺ، وأن ذلك لا يكون إلا بالوحي له من الله سبحانه، فيكون دليلا على صدقه.

٦ - كتب الله على بني إسرائيل الذلة والمسكنة، وتأذن بأن يبعث عليهم في كل مدة من يذيقهم العذاب، وذلك بسبب مخالفاتهم وظلمهم وانحرافهم، وفي هذا تحذير للمسلمين من الانحراف والعصيان.

٧ - كثيراً ما يعتمد الناس على الوعد بالمغفرة، ويقعون في الحرام وهم يمنُّون أنفسهم بأن الله سيغفر لهم، وهم بهذا يتجرؤون على أكل الحرام وأخذ السحت، وفي هذا هدم للمجتمعات، وتعريضها للعذاب الشديد. كما أن فيه نقضاً للعهد والميثاق، وتضييعاً للشرع.

٨ - ورغم كل المخالفات التي ارتكبها بنو إسرائيل، فإن طائفة منهم كانوا حريصين على التمسك بكتاب الله، والأخذ بأحكامه، وهؤلاء هم المصلحون الذين يؤتيهم الله أجرهم ويجزيهم أحسن الجزاء.

من الأحاديث والآثار الواردة في تفسير الآيات

عن سعيد بن زيد: عن النبي ﷺ قال: «الكمأة من المنِّ، وماؤها شفاءُ العين». [١]

عن أبي هريرة ﷺ: عن النبي ﷺ قال: «لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها». [٢]

ومعنى لم يخنز اللحم: لم ينتن، وقيل: سبب ذلك أنهم نُهوا عن ادخار السلوى فادخروه، فأنتن. [٣]

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: أمر الله الجبل أن يقع عليهم فنظروا إليه قد غشيهم فسقطوا سجداً على شق، ونظروا بالشق الآخر، فرحمهم الله فكشفه عنهم فقالوا: ما سجدة أحب إلى الله تعالى من سجدة كشف بها العذاب عنكم، فهم يسجدون لذلك على شق فذلك قوله عز وجل: ﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾. [٤]

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قيل لبني إسرائيل ﴿ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ﴾. فبدلوا، فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبة في شعرة». [٥]

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٧٠٠، رقم ٤٣٦٣، باب: المن والسلوى.
(٢) صحيح البخاري ١١/ ٤٨٨، رقم ٣٣٣٠، باب خلق آدم عليه الصلاة والسلام.
(٣) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ٦/ ٣٦٧، دار المعرفة - بيروت.
(٤) المستدرك على الصحيحين - دار الكتب العلمية ٢/ ٣٥٢، رقم ٣٢٥٢. وقال الحاكم: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي في التلخيص.
(٥) صحيح البخاري ٤/ ١٧٠١، رقم ٤٣٦٥، باب: وقولوا حطة.



عن ابن عباس أنه سُئل عن قوله تعالى: (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى) فقال: أقوام يُقبلون على الدنيا فيأكلونها، ويتبعون رخص القرآن، ويقولون سيُغفر لنا، ولا يعرض لهم شيء من الدنيا إلا أخذوه». (١)

أخذ الميثاق على بني آدم

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾ سورة الأعراف (١٧٢-١٧٨)

التفسير الإجمالي للآيات

تبين هذه الآيات أن الله سبحانه أخرج ذرية بني آدم من أصلاب آبائهم نسلاً بعد نسل وأشهدهم على أنفسهم بأن دلّهم بخلقه على أنه خالقهم، فقامت هذه الدلالة مقام الإشهاد، فتكون هذه الآية من باب التمثيل كما في قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ وقيل: المعنى أن الله سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وأنه جعل فيها من المعرفة ما فهمت به خطابه سبحانه، والراجح أن المراد ببني آدم هنا آدم نفسه، والمعنى أن الله سبحانه لما خلق آدم مسح ظهره فاستخرج منه ذريته، وأخذ عليهم العهد، وهؤلاء هم عالم

---

(١) الدر المنثور في التأويل بالمأثور، لجلال الدين السيوطي ٤/ ٣٥٦، وفتح القدير ٣/ ١١٤.



الذر، فقد ثبت ذلك مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وموقوفاً على جماعة من الصحابة، كما سيأتي.

وحين أخرج الله هذه الذرية أشهدهم على أنفسهم، أي أشهد كل واحد منهم قائلاً لهم: ألست بربكم؟ فقالوا: بلى شهدنا على أنفسنا بأنك ربنا. وكان هذا الإشهاد لئلا تقولوا أيها الناس يوم القيامة: إنا كنا غافلين عن أن الله ربُّنا وحده لا شريك له. ولئلا تعتذروا بالغفلة، أو تنسبوا الشرك إلى آبائكم دونكم فتقولوا: أشرك آباؤنا، وجئنا فوجدناهم على الشرك، وكنا ذرية من بعدهم لا نهتدي إلى الحق ولا نعرف الصواب، أفتهلكنا بما فعل المبطلون من آبائنا، ولا ذنب لنا لجهلنا وعجزنا عن النظر، واقتفائنا آثار سلفنا؟ لقد بين الله سبحانه في هذه الآية الحكمة التي لأجلها أخرجهم من ظهر آدم وأشهدهم على أنفسهم، وأنه فعل ذلك بهم لئلا يقولوا هذه المقالة يوم القيامة، ويعتلُّوا بهذه العلة الباطلة، ويعتذروا بهذه المعذرة الساقطة.

ومثل ذلك التفصيل يفصل الله الآيات، ولعلهم يرجعون إلى الحق، ويتركون ما هم عليه من الباطل.

وبعد بيان خبر هذا العهد الذي أخذه الله تعالى على بني آدم، جاءت قصة هذا الرجل الذي أوتي العلم، وأُخذ عليه العهد والميثاق كما أُخذ على الذين أوتوا العلم أن يبلغه ويقوم بحقه، ولكنه نقض العهد، وخان الأمانة.

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾

وإيراد هذه القصة منه سبحانه، وتذكير أهل الكتاب بها لأنها كانت مذكورة عندهم في التوراة، فهذا الرجل انسلخ من الآيات التي أوتيها، فلم يبق له بها اتصال، فأتبعه الشيطان عند انسلاخه عن الآيات، أي لحقه فأدركه وصار قريناً له، فكان من الغاوين المتمكنين في الغواية

وهم الكفار، ولو شاء الله لرفعه بها آتاه من الآيات، ولكن شاء الله غير ذلك، لأن هذا الرجل ظلم نفسه بانسلاخه من الآيات، وتركه العمل بها، حيث أخلد إلى الأرض، ومال إلى الدنيا ورغب فيها وآثرها على الآخرة، واتبع ما يهواه وترك العمل بما يقتضيه العلم الذي علمه الله فصار بذلك منحطاً إلى أسفل رتبة، مشابهاً للكلب الذي هو من أخس الحيوانات في الدناءة مماثلاً له في أقبح أوصافه، وهو أنه يلهث إذا حمل عليه الإنسان زاجراً له، أو تركه،[1] والمعنى: أن هذا المنسلخ عن الآيات لا يرعوي عن المعصية في جميع أحواله سواء أَوَعَظه الواعظ وذكَّره المذكر، أم لا؟ هذه هي حال هؤلاء القوم التي بلغت الغاية في السوء، فساء مثلاً مثلهم، فقد كذبوا بآيات الله، وظلموا أنفسهم بهذا التكذيب.

ثم تبين الآيات أن الهدى والضلال بمشيئة الله سبحانه، من يهد الله فهو المهتدي لما أمر به وشرعه لعباده، ومن يضلل اللهُ فأولئك هم الخاسرون الواقعون في أعظم الخسران. مَن هَداه فلا مضل له ومن أضله فلا هادي له، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن بني إسرائيل، ونقضهم العهود والمواثيق، وانحرافهم عن الدين مرة بعد مرة، وتحدثت الآيات هنا عن أخذ الميثاق على بني آدم جميعاً، وإشهادهم على أنفسهم أن الله ربهم وخالقهم، حتى لا يعبدوا غيره، ولا يشركوا به شيئاً، كما ذكرت قصة ذلك العالم الذي أخلد إلى الأرض واتبع هواه، ومال إلى الدنيا ومتعها فاستحق أن يكون من الغاوين، وأن يشبّه بالكلب، ذمّاً له وتقبيحاً لفعله.

---

(١) قال القتيبي: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة، وحال المرض وحال الصحة، وحال الري وحال العطش، فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته فقال: إن وعظته ضل وإن تركته ضل، فهو كالكلب؛ إن تركته لهث، وإن طردته لهث، واللهث تنفس بسرعة، وتحرك أعضاء الفم معه، وامتداد اللسان، وخلقة الكلب أنه يلهث على كل حال. انظر: حياة الحيوان الكبرى، للدميري ٢/ ١٦٤.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات بموضوع السورة اتصالاً محكماً وثيقاً، فعلى مدار التاريخ البشري كان الشيطان يسعى لإضلال الناس وصرفهم عن الهدى، وإبعادهم عن العهد والميثاق الذي أخذه الله عليهم، بأن يؤمنوا ويستقيموا، وقد جاءت الآيات هنا مبيِّنةً العهدَ الذي أخذه الله على بني آدم، لئلا يقولوا إنا كنا عن هذا غافلين، وكانت قصة العالم الذي ترك الآيات والعلم، واتبع هواه، نموذجاً حياً للانحراف عن الهدى بعد معرفته، والزيغ عن الحق بعد وضوحه وظهوره، وقد بينت الآيات أن مثله كمثل الكلب، تنفيراً للناس من اتباعه والتشبه به.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - أخذ الله العهد على بني آدم أن يعبدوه ويوحدوه ولا يشركوا به شيئاً، كما بينت الآيات هنا، وكما في قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يس: ٦٠-٦٢]، وهذا العهد هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

٢ - كان أخذ الميثاق على بني آدم لإقامة الحجة عليهم، وقطع العذر عنهم، فليس لأحد أن يقول: إنا كنا عن هذا غافلين، ولا أن يقول: إنما أشرك آباؤنا، وجئنا فوجدناهم على الشرك فاتبعناهم. ورغم هذا فإن الله سبحانه لم يترك البشر بغير مرشد يرشدهم، بل أرسل إليهم الرسل، وأنزل معهم الكتب والشرائع لهداية الناس ودلالتهم على الخير.

٣ - إن ضلال عامة الناس أمر صعب شديد لما فيه من نقضٍ لعهد الله وميثاقه، وانحراف عن الفطرة التي فطر الناس عليها، لكن ضلال العلماء الذين أوتوا العلم، وعرفوا الهدى والحق أصعب، ومسؤوليتهم أعظم، وعذابهم على ذلك أشد.

٤ - في قوله تعالى: ﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ إشارة إلى أن هذا العالِم الذي انحرف ومال إلى الدنيا صار إماماً للشيطان في الضلال والفساد، فكأنه لم يتبع الشيطان، بل الشيطان تبعه

وسار وراءه.

٥ - من أوتي العلم وعمل به، وأدى حقه، رفعه الله درجات، وجعله من أئمة الهدى، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾، فالعلم سبيل إلى رفع الدرجات، وعلو المقامات.

٦ - من طلب العلم لينال به الدنيا، ويحصل به متعها وشهواتها، كان مثله كمثل الكلب، فهو يلهث في جميع أحواله، سواء أزجرته أم كففت عنه، فعلى أهل العلم أن يتقوا الله فيما آتاهم من العلم.

٧ - القصة القرآنية لها أهداف ومقاصد، منها: دعوة الناس إلى التفكر والاعتبار بما جرى للسابقين: ﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

من الأحاديث الواردة في تفسير الآيات

عن مسلم بن يسار الجهني أن عمر بن الخطاب سُئل عن هذه الآية: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾، فقال عمر بن الخطاب: سمعت رسول الله ﷺ يُسأل عنها فقال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذريةً، فقال: خلقتُ هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذريةً، فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون».[1]

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه ثم كلمهم قبلاً، فقال: ألستُ بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا

(١) موطأ مالك، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان، ٥/ ١٣٢٢، رقم ٣٣٣٧، وسنن أبي داود ١٢/ ٣١٢، رقم ٤٠٨١.



من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون». [(١)]

عن ابن عباس، قال: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ قال: خلق الله آدم فأخذ ميثاقه أنه ربه، وكتب أجله ورزقه ومصيبته، ثم أخرج ولده من ظهره كهيئة الذر، فأخذ مواثيقهم أنه ربهم، وكتب آجالهم وأرزاقهم ومصيباتهم. [(٢)]

أهل النار أضل من الأنعام

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

الأعراف (١٧٩ - ١٨٦)

---

(١) قال الهيثمي: أخرجه أحمد (١/ ٢٧٢، رقم ٢٤٥٥) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٥): رجاله رجال الصحيح. وأخرجه النسائي في السنن الكبرى (٦/ ٣٤٧، رقم ١١١٩١) وقال: كلثوم هذا ليس بالقوى، وحديثه ليس بالمحفوظ. والحاكم في المستدرك ١/ ٨٠، رقم ٧٥ وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٣٢٧.

وَنَعمان، بالفتح: واد في طريق الطائف يخرج إلى عرفات، وقِبلاً: عياناً.

(٢) الإبانة الكبرى، لابن بطة ٣/ ٣٧٣، رقم ١٣٣٥.

التفسير الإجمالي للآيات

يبين الله سبحانه أنه خلق لجهنم، أي للتعذيب بها كثيراً من الجن والإنس، جعلهم سبحانه للنار بعدله وبعمل أهلها يعملون، وقد علم ما هم عاملون قبل كونهم، ثم وصف هؤلاء بأنهم لهم قلوب لا يفقهون بها كما يفقه غيرهم، فهذه القلوب لما كانت لا تفقه ما فيه نفع أصحابها، وُصفت بأنها لا تفقه مطلقاً، وهكذا معنى ﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ﴾ فإن الذي انتفى من الأعين هو إبصار ما فيه الهداية بالتفكر والاعتبار وإن كانت مبصرة في غير ذلك، والذي انتفى من الآذان هو سماع المواعظ النافعة، والشرائع التي اشتملت عليها الكتب المنزلة، وما جاءت به رسل الله، وإن كانوا يسمعون غير ذلك. فالمتصفون بهذه الأوصاف هم كالأنعام في عدم انتفاعهم بهذه المشاعر بل هم أضل؛ لأن الأنعام تدرك ما ينفعها ويضرها، فتنتفع بما ينفع وتجتنب ما يضر، وهؤلاء لا يميزون بين ما ينفع وما يضر، فهم الغافلون لما هم عليه من عدم التمييز والإدراك والفهم.

ثم بَيَّنَ الله سبحانه أن له الأسماء الحسنى،[1] وأمرنا أن ندعوَهُ بها، فقال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ فهذه الآية مشتملة على الإخبار من الله سبحانه بما له من الأسماء على الجملة دون التفصيل، فأسماؤه أحسن الأسماء لدلالتها على أحسن مسمى، وأشرف مدلول، وقد أمرنا الله سبحانه أن ندعوه بها، فإنه إذا دُعِيَ بأسمائه الحسنى كان ذلك من أسباب الإجابة، وقد ثبت في الصحيح: «إن لله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة»[2] كما أمر الله سبحانه أن نترك الذين يلحدون في أسمائه،[3] ونُعرض عنهم، والإلحاد في أسمائه سبحانه يكون إما بتغييرها كما فعله المشركون

---

(١) الحسنى تأنيث الأحسن، أي التي هي أحسن الأسماء لدلالتها على أحسن مسمى وأشرف مدلول. انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٢٤.

(٢) صحيح البخاري، دار ابن كثير، ٢/ ٩٨١، رقم ٢٥٨٥.

(٣) الإلحاد: الميل وترك القصد، يقال: لحد الرجل في الدين وألحد إذا حاد عنه، ومالَ. انظر: مختار الصحاح ١/ ٢٨١.

فإنهم أخذوا اسم اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، أو بالزيادة عليها بأن يخترعوا أسماء من عندهم لم يأذن الله بها، أو بالنقصان منها بأن يدعوه ببعضها دون بعض. وفي الآية وعيد لهؤلاء الذين يلحدون بنزول العقوبة، وتحذير للمسلمين أن يفعلوا كفعلهم.

ثم بين الله سبحانه أن من جملة خلقه أمةً يهدون الناس بما عرفوه من الحق، وبالحق يعدلون بينهم، فهؤلاء هم أهل الحق الذين يُرجى لهم الفلاح والفوز.

أما المكذبون بآيات الله فإن الله ليس بغافل عنهم، بل سيستدرجهم[1] بأن يدنيهم قليلاً قَليلاً إلى ما يهلكهم، وذلك بإدرار النعم عليهم، وإنسائهم شكرها فينهمكون في الغواية، ويتنكبون طرق الهداية لاغترارهم بذلك، وظنهم أنه لم يحصل لهم هذا النعيم والرزق الكثير إلا بما لهم عند الله من المنزلة والمكانة.

وهكذا يملي لهم الله؛ فيطيل لهم المدة ويمهلهم ويؤخر عنهم العقوبة، وهم يتمادون في ضلالهم وطغيانهم حتى ينزل بهم العذاب وهم غافلون.

وبعد هذا تتحدث الآيات عن المشركين منكرة عليهم أنهم لم يتفكروا في شأن رسول الله ﷺ، وفيما جاء به، ولو تفكروا لعلموا أن ليس به شيء مما يدَّعونه من الجنون، وهذا ردٌّ لقولهم الذي حكاه القرآن عنهم حيث قالوا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ﴾ [الحجر:٦]، كما تنكر عليهم إعراضهم عن النظر في الآيات البينة الدالة على كمال قدرة الله، وتفرده بالإلهية

﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىۡءٍ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَىِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾. والمعنى: أن هؤلاء لم يتفكروا حتى ينتفعوا

---

(١) الاستدراج هو الأخذ بالتدريج، منزلة بعد منزلة، وقيل: هو من الدرجة، فالاستدراج أن يخطو درجة بعد درجة إلى المقصود، ومنه درج الصبي إذا قارب بين خطاه وأدرج الكتاب طواه شيئاً بعد شيء، ودرج القوم مات بعضهم في أثر بعض. انظر: مختار الصحاح ١/ ٩٨.

بالتفكر، ولا نظروا في مخلوقات الله حتى يهتدوا بذلك إلى الإيمان به، بل هم سادرون في ضلالتهم، خائضون في غوايتهم لا يُعملون فكراً، ولا يمعنون نظراً، فهم لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ولا فيما خلق الله من شيء من الأشياء، ولو نظروا لعلموا أن في كل مخلوقاته عبرة للمعتبرين وموعظة للمتفكرين، سواء كانت من جلائل مصنوعاته كملكوت السموات والأرض أو من دقائقها من سائر مخلوقاته.

وكما غفل هؤلاء عن التفكر والنظر في آيات الله الدالة على عظيم قدرته، غفلوا عن أجلهم الذي عسى أن يكون قد اقترب. فإذا كانوا يجوزون قرب آجالهم فما لهم لا ينظرون فيما يهتدون به وينتفعون بالتفكر فيه؟

إن غفلتهم عن هذه الأمور الواضحة البينة ليست إلا لكونهم ممن أضله الله، ومن يضلله فلا هادي له، وليس له من يهديه إلى الحق، وينزعه عن الضلالة.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن العهد الذي أخذه الله تعالى على بني آدم، بأن يؤمنوا به ويوحدوه، ولا يشركوا به شيئاً، وأنه لا عُذر لمن أشرك بالله ولا حُجة، وجاءت الآيات هنا مبينة أن كثيراً من الجن والإنس نقضوا هذا العهد، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وهؤلاء هم الذين ذرأهم الله لجهنم، فقد أعطاهم من الإمكانات والقدرات التي تمكنهم من معرفة الحق والاهتداء إليه، لكنهم عطلوا هذه القدرات، ولم يستخدموها في الخير، فكانوا كالأنعام بل هم أضل.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات بموضوع السورة اتصالاً وثيقاً، فرغم العهد المأخوذ على بني آدم أن يعبدوا الله وحده، ورغم التحذير لهم من عبادة الشيطان واتباعه، فإن كثيراً من البشر استجابوا لنداء الشيطان ووسوسته، فانحرفوا عن الصراط، وعبدوا غير الله، وألحدوا في أسماء الله سبحانه.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - خلق الله كثيراً من الجن والإنس للنار، وهو سبحانه لم يظلمهم بذلك، لأنه لم يجبرهم على اختيار طريق الضلال، ولكنه علم أنهم سيختارون طريق الضلال والكفر، حتى يدخلوا نار جهنم.

٢ - الكافر أشد ضلالاً من الأنعام، فالأنعام تسعى فيما يجلب لها النفع ويدفع عنها الضر، أما هؤلاء فلا يفكرون إلا في الدنيا، ولا يعملون إلا لها، وغفلوا عن الآخرة التي فيها الحياة الباقية فخسروا أنفسهم.

٣ - الله سبحانه له الأسماء الحسنى، وعلى المسلم أن يدعو الله تعالى بهذه الأسماء، إن كان يريد أن يستجيب الله له.

٤ - المشركون يلحدون في أسماء الله الحسنى، إما بتغييرها كما فعلوا بأسماء أصنامهم فإنهم اشتقوها من أسماء الله تعالى، فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، أو بالزيادة عليها بأن يخترعوا أسماء من عندهم لم يأذن الله بها، أو بالنقصان منها بأن يدعوه ببعضها وينكروا بعضها.

٥ - الله سبحانه يملي للكافرين ويستدرجهم، فيمدهم بالنعم، ويدرُّ لهم الأرزاق والأموال، فيغترُّون بذلك، حتى ينزل بهم العذاب.

٦ - إن رسول الله ﷺ نذير مبين، وهو مبرأٌ مما اتهموه به من الجنون، ولو أن هؤلاء المشركين تفكروا لعرفوا ذلك، ولكنهم لا يتفكرون.

٧ - إن هؤلاء مهما طالت بهم الأيام، وامتد بهم العمر، فإن أجلهم قريب، وإن لم يؤمنوا بهذا الحديث، فبأي حديث بعده يؤمنون؟

٨ - الله سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فكل من طلب الهداية وسعى لها بصدق هداه الله، وكل من عمي وتغافل عن الهدى ورفض الحق أضله الله.

من الأحاديث الواردة في تفسير الآيات

عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً؛ مائةً إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة». [١]

وفي رواية عنه قال: «لله تسعة وتسعون اسماً، مائة إلا واحداً، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر». [٢]

وزاد الترمذي في سننه بعد قوله يحب الوتر: «هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدئ المعيد المحيي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الأحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور». [٣]

(١) صحيح البخاري، دار ابن كثير، ٢/ ٩٨١، رقم ٢٥٨٥، باب: ما يجوز من الاشتراط والثنيا.

(٢) صحيح البخاري، ٢٠/ ٢٨، رقم ٥٩٣١، باب: لله مائة اسم غير واحد.

(٣) سنن الترمذي، ١١/ ٤١٢، رقم ٣٤٢٩، باب: ما حاء في عقد التسبيح باليد.

السؤال عن الساعة

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ سورة الأعراف (١٨٧-١٨٨)

التفسير الإجمالي للآيات

كان المشركون يسألون الرسول ﷺ عن الساعة،[١] متى تأتي؟ وهو سؤال يقصدون منه الاستعجال والتحدي، فأمر الله سبحانه رسولَه ﷺ بأن يجيبهم بقوله: إنما علمها عند ربي، فلا يعلم وقوعها، ولا يجليها[٢] ولا يظهرها لوقتها ولا يكشف عنها إلا الله سبحانه، وفي استئثار الله سبحانه بعلم الساعة حكمة عظيمة، وتدبير بليغ كسائر الأشياء التي أخفاها الله واستأثر بعلمها. ولما خفي علم الساعة على أهل السموات والأرض كانت ثقيلة، لأن كل ما خفي علمه ثقيل على القلوب، وقيل: المعنى لا تطيقها السموات والأرض لعظمها، لأن السماء تنشق والنجوم تتناثر والبحار تنضب، وقد قضى الله سبحانه أن لا تأتي الساعة إلا فجأة على غفلة.

إن هؤلاء المشركين يسألونك يا محمد عن الساعة، كأنك حفي[٣] عالم بها مستقصٍ للسؤال

---

(١) الساعة القيامة، وإطلاقها على القيامة لوقوعها بغتة، أو لسرعة حسابها، وأيان ظرف زمان مبني على الفتح وهو بمعنى متى، و(مُرساها) بضم الميم أي وقت إرسائها وإثباتها، يقال: رسا الجبل إذا ثبت، والمعنى متى يرسيها الله: أي يثبتها ويوقعها. انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٣١.

(٢) التجلية: إظهار الشيء وإيضاحه.

(٣) الحفي: العالم بالشيء، والحفي: المستقصي في السؤال، ومنه قول الأعشى:

فإن تسألي عني فيا رب سائل ... حفي عن الأعشى به حيث أصعدا

يقال: أحفى في المسئلة وفي الطلب فهو محف، وحفيّ على التكثير مثل مخصب وخصيب، والمعنى يسألونك عن الساعة كأنك عالم بها أو كأنك مستقصٍ للسؤال عنها، ومستكثر منه. انظر: تفسير القرطبي ٧/ ٣٣٦، وفتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٣١.

عنها، فقل لهم: إنما علمها عند ربي، ولكن أكثر الناس لا يعلمون باستئثار الله بهذا وعدم علم خلقه به، إذ لم يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل.

كما أُمر الرسول ﷺ أن يقول لهؤلاء الذين يسألونه عن الساعة: لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله، فمن كان لا يقدر على جلب نفع له أو دفع ضر عنه إلا ما شاء الله سبحانه من النفع له والدفع عنه، فأولى أن لا يقدر على علم ما استأثر الله بعلمه.

ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير، وجلبته إلى نفسي، وتوقيت ما فيه السوء حتى لا يمسني، ولكني عبد لا أدري ما عند ربي ولا ما قضاه فيَّ وقدره لي، فكيف أدري غير ذلك وأتكلف علمه؟ وما أنا إلا مبلغ عن الله لأحكامه أنذر بها قوماً، وأبشر بها آخرين، ولست أعلم بغيب الله سبحانه.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن الذين أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، رغم أنه أعطاهم الإمكانات والقدرات التي تمكنهم من معرفة الحق والاهتداء إليه، لكنهم عطلوا هذه القدرات، ولم يستخدموها في الخير، فكانوا كالأنعام بل هم أضل، حيث ألحدوا في أسماء الله الحسنى، وغفلوا عن الآخرة، واستُدرِجوا بالنعم، فازداد كفرهم وتكذيبهم واتهامهم للرسول ﷺ بالجنون، وجاءت هذه الآيات لتبين أن كفر هؤلاء تمادى بهم فأنكروا الساعة، وأخذوا يسألون الرسول ﷺ عن ميقات مجيئها، ساخرين مستهزئين، وكان الرد عليهم بأن علم الساعة عند الله سبحانه، وأن الرسول لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات بموضوع السورة اتصالاً وثيقاً، فهؤلاء المشركون لم يتوقفوا في ضلالهم وشركهم عند الإلحاد في أسماء الله الحسنى واتهام الرسول ﷺ بالجنون، بل أنكروا الساعة أيضاً وأخذوا يسألون عن موعدها في تهكم وسخرية، وهذا إمعان في الضلال والشرك، يبين استعداد

كثير من الناس لاتباع الشيطان والاستجابة لنزغه، والانحراف عن الحق والهدى.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - كان سؤال المشركين عن الساعة بقصد التهكم والسخرية والتحدي، فهم لا يؤمنون بالساعة، ولا يصدقون بمجيئها، ولكن لشدة عنادهم كانوا يقولون: إن كنت صادقاً في أن الساعة حق، فلتأتنا بها.

٢ - الرسول ﷺ لا يعلم الغيب، ولا يدري متى تقوم الساعة، بل يفوض علم ذلك إلى الله سبحانه.

٣ - علم الساعة من الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وهو الذي يُظهرها ويأتي بها في وقتها ولا يتم ذلك إلا بغتة، والناس في غفلة وانشغال عنها.

٤ - لو كان أي إنسان عالماً بالغيب لاستكثر من الخير، وتوقى من أن يصيبه شرٌّ أو مكروه، ولكن حكمة الله تعالى أن لا يُطلع الناس على الغيب، وإن رسول الله ﷺ - على الرغم من منزلته الرفيعة عند الله تعالى - لا يعلم الغيب.

الناس مخلوقون من نفس واحدة

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ سورة الأعراف (١٨٩ - ١٩٥)

التفسير الإجمالي للآيات

تتحدث هذه الآيات عن حقيقة خلق الناس، فقد خلقهم الله سبحانه من نفس واحدة فهم جميعاً بنو آدم عليه الصلاة والسلام، حيث خلق الله آدمَ، وجعل منه زوجه حواء،[١] كما جاء في مطلع هذه السورة، ليسكن إليها، أي لأجل أن يأنس إليها ويطمئن بها، فإن الجنس بجنسه أسكَن، وإليه آنَس. وكان هذا في الجنة كما وردت بذلك الأخبار.

ثم بيَّن الله سبحانه حالةً أخرى كانت بينهما في الدنيا بعد هبوطهما فقال: ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا ﴾ أي تغشى الرجل المرأة، وهذا عام في كل رجل وامرأة،[٢] والتغشي كناية عن الوقاع أي فلما

(١) هو الذي خلقكم من نفس آدم، وجعل من هذه النفس زوجها وهي حواء، خلقها من ضلع من أضلاعه، وقيل: (وجعل منها) أي: من جنسها كما في قوله تعالى: (جعل لكم من أنفسكم أزواجاً) [الشورى: ١١]، والأول أولى.

(٢) وردت بعض الروايات الضعيفة جداً والموضوعة تنسب الشرك إلى آدم وحواء، وتفسر الآية الكريمة على أن الضمائر الواردة في الآية وهي: (تغشاها، حملت، فمرت، أثقلت، دعوا، آتاهما، جعلا، آتاهما) يعود بعضها على آدم وبعضها على حواء، وبعضها عليهما معاً، وهذا غير صحيح، فقد بدأت الآية

جامعها حملت حملاً خفيفاً، علقت به بعد الجماع، ووصفه بالخفة لأنه يكون في بداية الأمر خفيفاً ثم يتدرج في النمو والثقل، فمرت به، أي استمرت بذلك الحمل تقوم وتقعد وتمضي في حوائجها لا تجد به ثقلاً، فلما أثقلت وصارت ذات ثقل لكبر الولد في بطنها دعوا الله ربهما أي دعا الرجل والمرأة ربهما ومالك أمرهما قائلين: لئن آتيتنا ولداً صالحاً لنكونن من الشاكرين لك على هذه النعمة. فلما آتاهما ما طلباه من الولد الصالح، وأجاب دعاءهما جعلا له شركاء فيما آتاهما، فأشركا بالله، وعبدا غيره، كما وقع من كثير من الناس الذين أشركوا بالله. فيا عجبا لهؤلاء الناس كيف يجعلون لله شركاء لا يخلقون شيئاً، ولا يقدرون على نفع لهم، ولا دفع عنهم، وهم يُخلقون، أي وهؤلاء الذين جعلوهم شركاء من الأصنام أو الشياطين مخلوقون. وهم أيضاً لا يستطيعون أن ينصروا من اتخذوهم شركاء، إن طلبوا منهم النصر، ولا أنفسهم ينصرون إن اعتدى عليهم معتدٍ. ومن عجز عن نصر نفسه فهو عن نصر غيره أعجز.

ثم توجه الخطاب إلى المشركين، على سبيل التوبيخ والتقريع ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾ أي وإن تدعوا هؤلاء الشركاء إلى الهدى والرشاد، بأن تطلبوا منهم أن يهدوكم ويرشدوكم لا يتبعوكم ولا يجيبوكم إلى ذلك، فدعاؤكم لهم عند الشدائد وعدمه سواء، لأنهم لا ينفعون ولا يضرون ولا يسمعون ولا يجيبون.

إن هؤلاء الذين جعلتموهم آلهةً هم عبادٌ لله كما أنتم عباد له، مع أنكم أكمل منهم، لأنكم

بالحديث عن خلق الناس من نفس واحدة هي نفس آدم عليه الصلاة والسلام، وأن زوجه حواء خلقت منه، ثم انتقل الحديث إلى الأزواج؛ الذكر والأنثى من الناس، وأن كثيراً منهم قد أشركوا بالله تعالى، ولذلك جاء الضمير بالجمع في قوله تعالى: (فتعالى الله عما يشركون) وهذا يعني: الأزواج الذين أشركوا. ثم إن هذه الروايات تقدح في عصمة الأنبياء، لأن آدم نبي معصوم، ولا يجوز بحال أن يُنسب إليه الشرك بالله تعالى.

ولمعرفة بعض هذه الروايات ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري ١٣/ ٣٠٧، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٥٢٧، وقد رد ابن كثير هذه الروايات، مبيناً أنها من الإسرائيليات، ووجه الآية بأن المقصود بذلك جماعة من المشركين، وليس المقصود آدم وحواء.



أحياء تنطقون وتمشون وتسمعون وتبصرون، وهذه الأصنام ليست كذلك ولكنها مثلكم في كونها مملوكةً لله مسخرة لأمره، وفي هذا تقريع لهم وتوبيخ، فادعوا هؤلاء الشركاء فإن كانوا كما تزعمون فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين فيما تدَّعونه لهم من قدرتهم على النفع والضر.

وتمضي الآيات في الاستفهام للتقريع والسخرية من هؤلاء الشركاء، وممن اتخذوهم وعبدوهم، أي هؤلاء الذين جعلتموهم شركاء ليس لهم شيء من الآلات التي هي ثابتة لكم فضلاً عن أن يكونوا قادرين على ما تطلبونه منهم، فإنهم كما ترون هذه الأصنام التي تعكفون على عبادتها ليست لهم أرجل يمشون بها في نفع أنفسهم فضلاً عن أن يمشوا في نفعكم، وليس لهم أيد يبطشون بها[1] كما تبطشون، وليس لهم أعين يبصرون بها كما تبصرون وليس لهم آذان يسمعون بها كما تسمعون، فكيف تدعون من هم بهذا العجز؟

ثم لما بين لهم حال هذه الأصنام وما فيها من النقص والعجز، أمر الله رسولَه ﷺ أن يقول لهم: ادعوا شركاءكم الذين تزعمون أن لهم قدرة على النفع والضر، ثم كيدون أنتم وهم جميعاً بما شئتم من وجوه الكيد، فلا تمهلوني، ولا تؤخروا إنزال الضرر بي من جهتها والكيد المكر، وفي هذا من التحدي لهم، والتعجيز لأصنامهم ما فيه.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن إنكار المشركين للساعة، واستهزائهم بمجيئها، وبينت الآيات هنا جوانب جديدة من كفرهم بالله تعالى، فبدلاً من أن يشكروا الله على نعمة النسل والولد جعلوا ذلك سبيلاً إلى الشرك بالله، وتوجهوا إلى الأصنام يعبدونها من دونه.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات بموضوع السورة اتصالاً وثيقاً، فهؤلاء المشركون أمعنوا في الشرك بالله، وكُفر نعمه، وبالغوا في اتباع الشيطان وسلوك سبيله، ناسين أن الشيطان عدوهم الذي

---

(١) البطش: الأخذ بقوة وصَولة.

أخرج أبويهم من الجنة.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - من مظاهر قدرة الله تعالى أنه خلق جميع البشر من نفس واحدة، وأنه جعل تكاثرهم عن طريق التناسل والزواج.

٢ - ومن حكمته سبحانه أنه جعل الزواج سكناً وهدوء نفس، واستقرار عيش، وأن حياة الإنسان تبدأ بذلك الحمل الصغير الخفيف في بطن أمه، ثم يثقل هذا الحمل ويكبر، فإذا بلغ أجله خرج إلى الحياة طفلاً.

٣ - في الوقت الذي يثقل فيه الحمل، ويقترب أوان الولادة يكون الأبوان في حال من الترقب والرجاء أن يكون المولود صالحاً سوياً، لا عيب فيه ولا خلل، ويكون في يقينهما أن ذلك بيد الله سبحانه، لكن كثيراً من الأزواج حينما يرون المولود سوياً ليس به عيب، ينسون نعمة الخالق، ويغفلون عن شكره، ويشركون به مخلوقات لا تخلق شيئاً، ولا تملك نفعاً ولا ضراً.

٤ - إن هؤلاء الشركاء الذين يُعبدون من دون الله، عباد لله، وليسوا آلهةً، وهم لا يستجيبون لمن يدعوهم، ولا يملكون لأنفسهم شيئاً فضلاً عن أن يملكوه لغيرهم.

أولياء الرحمن

﴿ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ١٩٨ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ٢٠٢ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَۤ۩ ٢٠٦ ﴾ **سورة الأعراف (١٩٦-٢٠٦)**

التفسير الإجمالي للآيات

تبين هذه الآيات أن الله سبحانه ولي المسلم، فكيف يخاف المسلم هذه الأصنام التي لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً؟ وله وليٌّ يلجأ إليه، [1] ويستنصره وهو الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، فيحفظهم وينصرهم ويكف عنهم شرَّ أعدائهم. وفي المقابل فإن الذين تعبدونهم من دون الله أيها المشركون عاجزون عن نصرة أوليائهم، بل عن نصرة أنفسهم، وما داموا كذلك فكيف تدعونهم وتعبدونهم من دون الله سبحانه؟

وهؤلاء الأولياء الذين تدعونهم من دون الله لا يسمعون إذا دُعوا إلى الهدى، ولا يبصرون، وكذلك المشركون إن تدعوهم أيها المسلمون إلى الهدى لا يسمعوا، فقد عطلوا سمعهم وسائر حواسهم.

(١) ولي الشيء هو الذي يحفظه ويقوم بنصرته، ويدفع عنه الضرر.

ولما عَدَّدَ الله سبحانه ما عدَّدَهُ من أحوال المشركين، وبيَّن سفه رأيهم وضلال سعيهم أمر رسوله ﷺ بأن يأخذ العفو من أخلاق الناس، يقال: أخذت حقي عفواً أي سهلاً، وهذا نوع من التيسير الذي كان يأمر به رسول الله ﷺ كما ثبت في الصحيح أنه كان يقول: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»، [1] والمراد بالعفو هنا ضد الجهد، وأمره أيضاً أن يأمر بالمعروف، [2] وهو كل خصلة حسنة ترتضيها العقول وتطمئن إليها النفوس، كما أمره أن يعرض عن الجاهلين، والمعنى: إذا أقمت الحجة في أمرهم بالمعروف فلم يفعلوا فأعرض عنهم ولا تُمارهم مكافأة لما يصدر منهم من المراء والسفاهة. وهذه الأوامر والتوجيهات لرسول الله ﷺ، ولكل مسلم من بعده.

وحين يصل المسلم إلى مثل هذه الدرجة من الخصال الحميدة الطيبة، قد يوسوس له الشيطان، ويثير في نفسه أنه خيرٌ وأفضل من هؤلاء الناس الذين يتعامل معهم، فيأمرهم وينهاهم ويعفو عنهم، ولذلك جاء الأمر بالاستعاذة بالله تعالى، والالتجاء إليه من نزغ الشيطان. [3] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١ ﴾ أي إن شأن الذين يتقون الله وحالهم هو التذكر لما أمر الله به من الاستعاذة به، والالتجاء إليه عندما يمسهم طائف من الشيطان [4] وإن كان يسيراً، فإذا تذكروا أبصروا، وعرفوا الحق فالتزموه، وعرفوا الباطل فاجتنبوه.

﴿ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ٢٠٢ ﴾ معنى هذه الآية أن إخوان الشياطين

---

(١) صحيح البخاري، دار ابن كثير ١/ ٣٨، رقم ٦٩، باب: ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا.

(٢) العرف والمعروف والعارفة: كل خصلة حسنة ترتضيها العقول وتطمئن إليها النفوس، قال الشاعر:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيَهُ لا يذهب العرف بين الله والناسِ

انظر: فتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٣٩.

(٣) النزغ: الوسوسة، قال الزجاج: النزغ أدنى حركة تكون من الآدمي، ومن الشيطان أدنى وسوسة، وأصل النزغ: الفساد، يقال: نزغ بيننا أي أفسد. انظر: معالم التنزيل، للبغوي ٣/ ٣١٧.

(٤) سميت الوسوسة طيفاً وطائفاً لأنها لَمّةٌ من الشيطان تشبه لَمَّةَ الخيال. انظر: مفاتيح الغيب، للرازي ٧/ ٣٤٣، وفتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٤٠.

وهم الفجار من ضُلَّال الإنس يمدونهم في الغي، ويكونون مدداً لهم، وسميت الفُجارُ من الإنس إخوانَ الشياطين لأنهم يقبلون منهم ويقتدون بهم، ثم لا يقصرون، ولا ينتهون عن إمداد الكفار في الغي، وتزيين الشر لهم ليقعوا فيه.

وقد بلغ بهم هذا الإمداد أن كان الكفار يقولون لرسول الله ﷺ إذا تراخى الوحي، وتأخر نزول الآيات: لولا اجتبيتها؟[1] أي: هلّا أتيت بآية من عندك؟ فأمره الله بأن يجيبهم بقوله: إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي، ولست ممن يأتي بالآيات من قِبَلِ نفسه كما تزعمون، فما أوحاه الله إليَّ وأنزله عليَّ أبلغته إليكم، وهذا القرآن المنزل عليَّ هو بصائر من ربكم[2] يتبصر بها من قَبِلَها، كما أنه هدى يهتدي به المؤمنون، ورحمة لهم يُرحمون بها.

وإذا ثبت أن هذا القرآن وحيٌ من عند الله سبحانه، فحقه أنه إذا قُرِئ أن تستمعوا له وتنصتوا. لتنتفعوا به وتتدبروا ما فيه من الحكم والمصالح. وقد قيل: إن هذا الأمر خاص بوقت الصلاة عند قراءة الإمام، ولا يخفى أن اللفظ أوسع من هذا، والعام لا يُقْصَرُ على سببه، فيكون الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في كل حالة، وعلى أي صفة، واجباً على السامع. فبالاستماع إلى القرآن والإنصات إلى تلاوته بتدبر وخشوع تنالون الرحمة وتفوزون بها بامتثال أمر الله سبحانه.

ثم أمر الله سبحانه رسولَه أن يذكره في نفسه، فإن الإخفاء أقربُ إلى الإخلاص، وأدعى للقبول. والذكر يحصل بتلاوة القرآن واستماعه، كما يحصل بالتهليل والتسبيح والتحميد والتكبير والاستغفار والدعاء، ونحو ذلك من الأذكار التي جاءت بها الشريعة؛ فالمطلوب من

---

(١) اجتبى الشيء بمعنى: جباه لنفسه، أي: جمعه، أي هلا اجتمعتها افتعالا لها من عند نفسك؟ أو: هلّا اختلقتها؟ يقال: اجتبى الكلام: انتحله واختلقه واخترعه، إذا جاء به من عند نفسه. انظر: البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي ٦/ ٢٤، وفتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٤٠.

(٢) البصائر: الحجج والبراهين، جمع بصيرة، وقال الزجاج البصائر: الطرق. فتح القدير، للشوكاني ٣/ ١٤١.

المسلم أن يكون من الذاكرين، المكثرين للذكر، وأن لا يكون من الغافلين.

وللذكر شروط وآدابٌ منها: أن يكون هذا الذكر مع التضرع والتذلل لله سبحانه، وأن يصاحبه الخوف من عذاب الله وغضبه، وأن يكون الذاكر متوسطاً بين الجهر والسر، فلا يذكر ربه بالصياح ورفع الصوت، ولا يخفض صوته إلى الحد الذي لا يُسمع نفسه، بل يتوسط بين هذا وذاك. وإذا كان الذكر مطلوباً في سائر الأوقات، فإن أفضله ما يكون بالغدوِّ: وهو أول النهار، والآصال: وهي أواخر النهار، وكل هذا مع الوعي والانتباه وحضور القلب.

وحتى يطمئن المسلم وتسكن نفسه، يبين له الله سبحانه أنه إذا أكثر من العبادة والإقبال على طاعة الله وذكره، فإن الملائكة الكرام الأطهار الذين لا يعصون الله، وليس لهم ذنوب، لا يستكبرون عن عبادة الله، ولا يملّون من تسبيحه وذكره، وهم يسجدون له، ولا يسجدون لأحد سواه. والمقصود أن المسلم أولى بذلك، لأنه غير معصوم عن الذنوب.

مناسبة الآيات لما قبلها

تحدثت الآيات السابقة عن المشركين، واتخاذهم الأولياء والشركاء من دون الله، وأن هؤلاء الشركاء لا يملكون نفعاً ولا ضراً، ولا يقدرون على شيء، وتحدثت الآيات هنا عن المسلم الذي يتولاه الله، ويحفظه وينصره ويعينه، كما دعت إلى التزام المسلم بجملة الآداب والأخلاق والفضائل ليكون ولياً لله، وردَّت بعض الشبهات التي أثارها المشركون حول مصدر هذا القرآن، حيث اتهموا النبي ﷺ بالإتيان بهذا القرآن من عند نفسه، وبينت بعض آداب الذكر واستماع القرآن.

مناسبة الآيات لموضوع السورة

تتصل هذه الآيات بموضوع السورة اتصالاً وثيقاً، فالناس فريقان؛ فريق اتخذوا أولياء وشركاء من دون الله، وهؤلاء هم الكفرة الذين خسروا أنفسهم، وفريق أطاعوا الله تعالى، واتبع هديه، وهؤلاء هم المؤمنون الفائزون. وهذا متفق مع ما جاء في أول السورة من وعيد

الشيطان بإضلال أكثر الناس وإغوائهم، ومتفق أيضاً مع قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ۗ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

الهدايات المستخلصة من الآيات

١ - الله سبحانه ولي المؤمنين، وولي الصالحين، والمسلم يستشعر هذه الولاية، ويعمل لاستدامتها وزيادتها، فيلتزم أمر الله تعالى، ولا يخشى المشركين وشركاءهم.

٢ - الشركاء الذين يُعبدون من دون الله مخلوقات هزيلة لا تملك أن تنصر نفسها، فكيف تنصر الذين يعبدونها؟

٣ - المشركون عطلوا سمعهم وأبصارهم، وتمادوا في ضلالهم وشركهم، واستحوذ عليهم الشيطان بنزغه ووساوسه.

٤ - المسلم مدعوٌّ إلى التزام أحسن الأخلاق، وأطيب الخلال والشمائل، فهو يعفو ويصفح، ويأمر بالمعروف، ويدعو إلى الخير، ويُعرض عن الجاهلين، فلا يجادلهم ولا يضيع وقته في المراء معهم.

٥ - مهما بلغ المسلم من الترقي في الفضائل، فلا بد أن يعرض له شيء من نزغ الشيطان ووسوسته، لكنه يسارع إلى التذكر وحضور القلب مع الله، والاستعاذة به لطرد وساوس الشيطان، والنجاة من كيده.

٦ - الشياطين لا يكفون عن إمداد إخوانهم وأوليائهم من الكفرة والمشركين، فهم يمدونهم في الغي، ويزينون لهم الشر، ويوسوسون لهم ليكيدوا للمسلمين، ويصدوهم عن دينهم.

٧ - وقد بلغ هذا الإمداد في الغي أن يتهم المشركون رسول الله ﷺ بأنه يأتي بالآيات من عند نفسه. وكان رد القرآن عليهم واضحاً، فالقرآن وحيٌ من الله تعالى، وهو بصائر وهدى ورحمة، وإنما ينتفع به المؤمنون.

٨ - على المسلمين أن يعظِّموا هذا القرآن، ويستمعوا له بخشوع وتدبر وحضور قلب، ليُرحموا ويهتدوا. وعلى المسلم أن يكون ذاكراً لله تعالى في كل أوقاته، لا سيما أول النهار وآخره، وأن يكون هذا الذكر مصحوباً بآدابه وشروطه، ليكون مقبولاً عند الله سبحانه.

٩ - ليس المسلم وحيداً في توجهه إلى الله تعالى، وإقباله على عبادته، بل إن الملائكة الكرام لا يستكبرون عن عبادة الله، ويسبحونه وله يسجدون، وفي هذا ما يطمئن القلوب، ويريح النفوس، ويبعث على الاستزادة من الذكر، والإقبال على الطاعة والعبادة.

من الأحاديث الواردة في تفسير الآيات

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم عيينة بن حصن بن حذيفة، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من النفر الذين يدنيهم عُمر، وكان القراءُ أصحاب مجالسة عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شباباً، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وجهٌ عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه. قال: سأستأذن لك عليه. قال ابن عباس: فاستأذن الْحُرُّ لعيينةَ، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: هِي يا ابن الخطاب! فوالله ما تُعطينا الجزلَ، ولا تحكم بيننا بالعدل. فغضب عمر حتى هم به، فقال له الحر: يا أميرَ المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾. وإن هذا من الجاهلين. والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافا عند كتاب الله. (١)

عن عبد الله بن الزبير في قوله تعالى: (خذ العفو وأمر بالعرف). قال: «ما أنزل الله إلا في أخلاق الناس» وعنه قال: «أمر الله نبيه ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس». (٢)

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما الإمام ليؤتم به، فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا». (٣)

(١) صحيح البخاري، دار ابن كثير ٤/ ١٧٠٢، رقم ٤٣٦٦، باب: سورة الأعراف.
(٢) صحيح البخاري، دار ابن كثير، ٤/ ١٧٠٢، رقم ٤٣٦٧، باب: سورة الأعراف.
(٣) سنن النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب ٢/ ١٤٢، رقم ٩٢٢.

وبعد أن يحكي القرآن عنهم ؛ يقرر المنهج اللائق بأهل الكتاب، والأدب الجدير بهم ويطمعهم بعد ذلك كله في الهداية والجزاء الحسن، والفضل والخير من الله لو ثابوا إلى الطريق القويم. وذلك مع بيان حقيقة طبيعتهم، وأنها هكذا كانت، وهكذا تكون [١]:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ عوضاً من قولهم: ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾، ﴿ وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا ﴾ عوضاً من قولهم: ﴿ وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا ﴾، ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ ﴾ معناه: أعدل وأصوب، ولكن لقسوة قلوبهم وإصرارهم على الكفر ﴿ لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أبعدهم عن الهدى، فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً، لا يستحقون به اسم الإيمان؛ حيث يزعمون أنهم موحدون، ويكفرون بمحمد ﷺ، وبجميع أوامر شريعته ونواهيها [٢].

وصدق الله. فكتلة اليهود ظلت قروناً طويلة، حرباً على الإسلام والمسلمين، منذ أن جاورهم الإسلام في المدينة المنورة إلى اللحظة الحاضرة. وكيدهم للإسلام هو الكيد الواصب الذي لا ينقطع، العنيد الذي لا يكف، المنوع الأشكال والألوان والفنون منذ ذلك الحين ! وما من كيد كاده أحد للإسلام في تاريخه كله - من غزوة الأحزاب قديماً، إلى كيد الصليبية والاستعمار بشتى أشكاله حديثاً - إلا كان من ورائه اليهود، أو كان لليهود فيه نصيب !

وعقّب الله سبحانه بالأمر بالمبادرة إلى سلوك محجة الهدى، مشفوعاً بالتحذير والتخويف والوعيد الشديد على المخالفة فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ ﴾.

روي عن ابن عباس قال: كلم رسول الله ﷺ رؤساء من أحبار يهود ؛ منهم عبد الله بن صوريا، وكعب بن أسد، فقال لهم: « يا معشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فوالله إنكم لتعلمون

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب (٥/ ٩٠).

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية (٢/ ٦٣).

سورة الأنفال

أولاً: بين يدي السورة

أ. أسماء السورة:

للسورة الكريمة ثلاثة أسماء ذكرها العلماء هي:

سورة الأنفال، وسورة بدر، وسورة الجهاد[1]

ب. أسباب نزول السورة أو بعض آيها:

إن من أهم أسباب نزول سورة الأنفال أحداث غزوة بدر الكبرى، ولذا كان من أسمائها سورة بدر وسورة الجهاد، بل إن اسم السورة الأكثر شهرة – الأنفال – إنما كان بسبب ما ورد من تساؤل الصحابة حول أنفال بدر، وقد أورد العلماء أسبابا خاصة لبعض آيات السورة الكريمة أعرض لها من خلال تفسير آيات السورة في مقاطعها.

ومما أورده العلماء في كتب أسباب النزول؛ أسباب نزول قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾ الآية، وقوله: ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ الآية، وقوله: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ الآية، وغيرها من الآيات يأتي الحديث عنها في مواطنها.

ج. مكية السورة أو مدنيتها:

سورة الأنفال مدنية كلها، كذا قال أكثر أهل العلم، وقال مقاتل: «هي مدنية غير آية واحدة، هي قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ الآية، وهذه الآية نزلت في قصة وقعت بمكة، ويمكن أن تنزل الآية في ذلك بالمدينة، ولا خلاف في هذه السورة أنها نزلت في يوم بدر وأمر غنائمه» [2].

---

(١) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي ٣/ ١٨١.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٤٩٦.



وآياتها محكمة وقيل إن بعض آيها منسوخة وسنورد ذلك في مظانه حسب توالي المقاطع بحول الله تعالى.

د. عدد آيات السورة والاختلاف بين القراء في العد وسببه.

اختلف علماء العد في عدد آي السورة الكريمة على ثلاثة أقوال؛ فمنهم من جعلها خمسا وسبعين آية ومنهم من جعلها ستا وسبعين وفريق جعلها سبعا وسبعين آية، قال الكرمي في الناسخ والمنسوخ: « آياتها خمس أو ست أو سبع وسبعون آية وفيها من المنسوخ ست آيات»[١]، وقال ابن كثير: « وهي مدنية آياتها سبعون وست آيات « [٢].

وقال الإمام أبو عمرو الداني - رحمه الله -؛ في كتابه البيان في عد آي القرآن: « مدنية،.... وهي سبعون وخمس آيات في الكوفي، وست في المدنيين والمكي والبصري، وسبع في الشامي»[٣].

هـ. محور السورة:

تدور آيات السورة الكريمة في معظمها حول محور واحد عام ألا وهو الحديث عن الجهاد في سبيل الله تعالى، وما يتبع ذلك من أمور وأحكام وقواعد، كما أن مقصد السورة كما يحدده البقاعي يكمن في « تبرؤ العباد من الحول والقوة، وحثهم على التسليم لأمر الله، واعتقاد أن

---

(١) الناسخ والمنسوخ للكرمي ١/ ١١١.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٨٣.

(٣) وقال الداني: «اختلافها ثلاث آيات: ثم يغلبون (*) عدها البصري والشامي ولم يعدها الباقون، ليقضي الله أمرا كان مفعولا (*)؛لم يعدها الكوفي وعدها الباقون، بنصره وبالمؤمنين (*) لم يعدها البصري وعدها الباقون، وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع ثمانية مواضع: أولئك هم المؤمنون()، رجز الشيطان()، فوق الأعناق()، عن المسجد الحرام()، إلا المتقون()، يوم الفرقان()، يوم التقى الجمعان()، أمرا كان مفعولا ()، الثاني بعده، وإلى الله ترجع الأمور(). البيان في عد آي القرآن ١/ ١٥٨.

الأمور ليست إلا بيده، وأن الإنسان ليس له فعل، ليثمر ذلك الاعتصام بأمر الله المثمر لاجتماع الكلمة، المثمر لنصر الدين وإذلال المفسدين، المنتج لكل خير» (١).

و. المناسبة بين اسم السورة ومحورها.

للسورة أكثر من اسم؛ ولكل من هذه الأسماء علاقة بمحور السورة العام، فالاسم الأول؛ وهو المشهور العام: «الأنفال» ؛ وعلاقته بمحور السورة أن أول آية منها جاءت للحديث عن الأنفال، وأنه جزء من الموضوعات التي تعالجها السورة، فالأنفال مما ينفله المجاهد في سبيل الله، ومحور السورة الحديث عن الجهاد، والاسم الثاني: «سورة بدر»؛ ومعركة بدر أول غزوة للنبي ﷺ ، أعلن فيها جنده الحرب على قوى الشر في الجزيرة العربية، ومعظم آي السورة جاءت للحديث عن هذه الغزوة العظيمة، وهي الغزوة التي فتحت باب الجهاد في المجتمع المسلم وأما الاسم الثالث فهو: «الجهاد» ؛ والمناسبة بينه وبين محور السورة واضح جلي، قال البقاعي: «واسمها الجهاد كذلك لأن الكفار دائما أضعاف المسلمين، وما جاهد قومٌ من أهل الإسلام قط إلا أكثرَ منهم، وتجب مصابرة الضعف، فلو كان النظر إلى غير قوته سبحانه ما أطيق ذلك، ولهذه المقاصد سنت قراءتها في الجهاد لتنشيط المؤمنين للجلاد» (٢).

ز. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها.

أما مناسبة افتتاحية السورة لخاتمتها ففي عدة جوانب من أبرزها:

أول السورة يتحدث عن الأنفال وقسمتها، وخاتمتها تتحدث عما غنمه المسلمون وما كان من شأن الأسرى والفداء، كما جاء الحديث في آخر السورة عن الإعداد للقاء العدو، بعد أن تحدث أولها عن أول لقاء للمسلمين مع أعدائهم دون أن يكونوا قد أعدوا له العدة، كما أن أول السورة يتحدث عن تحريم الفرار من أرض المعركة، وآخرها جاء ليحدد منهجية اللقاء بين المسلمين

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٣/ ١٨١.
(٢) السابق ٣/ ١٨١.



والكفار، وكيف خفف الله عنهم ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

أول السورة جاء الحديث فيه عن حقيقة الإيمان وما ينبغي على المؤمن اتباعه ليتحقق في مقام الإيمان الحق، وآخرها جاء ليؤكد ذات الحقيقة ؛ كما نلحظ ذلك في الآيات الخمس الأخيرة من السورة.

ح. المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

أما مناسبة افتتاحية السورة لخاتمة ما قبلها وهي سورة الأعراف فقد ورد في ختام السورة قوله تعالى:

﴿ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾، وقوله: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾، وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾. وغيرها من الآيات، وموضوعها كلها الحديث عن الإيمان، والرسالة، كما أن نهايات السورة تتحدث عن نهايات قصة موسى مع قومه، وبدايات سورة الأنفال تتحدث عن طرف من قصة النبي محمد ﷺ مع قومه، وفي ذلك يقول الإمام البقاعي: «وأما مناسبة أولها لآخر تلك فقد تبين أن آخر الأعراف آخر قصة موسى المختتمة بقصة بلعام وأن ما بعد ذلك إنما هو تتمات لما تقدم لا بد منها وتتمات للتتمات حتى كان آخر ذلك مدح من أهلهم لعنديته سبحانه بالإذعان وتمام الخضوع، فلما أضيفوا إلى تلك الحضرة العالية اقتضى ذلك سؤالا عن حال الذين عند المخاطب ﷺ فأجيب بقوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ أي الذين عند ربك هم الذين هزموا الكفار في الحقيقة، فهم المستحقون للأنفال وليس لهم إليها التفات وإنما هممهم العبادة، والذين عندك إنما جعلتهم آلة ظاهرة ومع ذلك فهم يسألون عن الأنفال التي توليتهم إياها بأيدي جنودي سؤال منازعة ينبغي الاستعاذة بالله منها كما نبه عليه في آخر الأعراف، لأن ذلك يفضي إلى افتراق الكلمة والضعف عن مقاومة الأعداء»[1].

(١) السابق ٣/ ١٨٣.

ط. المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

سورة الأعراف في مضمونها الحديث عن قصص الأنبياء مع أقوامهم، ومضمون سورة الأنفال في الحديث عن شيء من سيرة النبي العظيم مع قومه، قال البقاعي: « ومناسبتها للأعراف أنه لما ذكر تعالى كما تقدم قصص الأنبياء عليهم السلام مع أممهم في تلك، ناسب أن يذكر قصة هذا النبي الكريم ﷺ مع قومه وأنه لما أطنب في قصة موسى عليه السلام كان ذلك ربما أوهم تفضيله على الجميع فأتى بقصة المخاطب بهذا القرآن في سورتين كاملتين؛ الأنفال في أول أمره وأثنائه، وبراءة في ختام أمره وانتهائه، وفرق بين القصتين» [1] أقول: ولعل من المناسب هنا أن نستذكر قول المقداد ﷺ قبيل غزوة الأنفال: «والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون» والقصة معلومة في واقعة بدر.

---

(١) السابق ٣/ ١٨٢.

المقطع الأول: الأنفال وصفات المؤمنين الصادقين

من الآية: ١ ـ ٤

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾

سبب نزول آيات هذا المقطع:

روى أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس ﷺ قال: قال النبي ﷺ : من قتل قتيلا فله كذا وكذا ومن أسر أسيرا فله كذا وكذا فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم فقالت المشيخة للشبان أشركونا معكم فإنا كنا لكم ردءا ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا فاختصموا إلى النبي ﷺ فنزلت: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾[1]، وأخرج ابن جرير عن مجاهد أنهم سألوا النبي ﷺ عن الخمس بعد الأربعة الأخماس فنزلت: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾ الآية، وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: «لما كان يوم بدر قُتل أخي عمير فقتلت به سعيد بن العاص، وأخذت سيفه، فأتيت به النبي ﷺ ، فقال: اذهب فاطرحه في القبض، فرجعت وبي ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلبي، فما جاوزت إلا يسيرا حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي النبي ﷺ : اذهب فخذ سيفك، قال: فنزلت: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾ الآية». [2]

التفسير الإجمالي للمقطع:

الخطاب في بداية هذه السورة للنبي ﷺ أي يسألونك يا محمد عن الأنفال التي هي غنائم

(١) لباب النقول في معرفة أسباب النزول ١/ ١٠٦.

(٢) السابق ١/ ١٠٧، والخبر في المسند وعند أبي داود والترمذي والنسائي.

المعركة التي غنموها يوم بدر، قل لهم: إنما هي لله ولرسوله يضعها حيث يشاء، فالتفتوا إلى ما هو أهم من الغنائم، وهو علاقاتكم بالله بتقواه وببعضكم بالإصلاح فيما بينكم وعدم التشاجر على عرض الدنيا، والتزموا بطاعة الله ورسوله في أموركم كلها، وهذا هو عنوان إيمانكم، ثم حددت الآية الكريمة صفات المؤمنين، بوجل القلوب وزيادة الإيمان والتوكل على الله تعالى وهي من أعمال القلوب، وبإقام الصلاة على وجهها الذي شرع الله تعالى وإيتاء الزكاة وهما من أهم أعمال الجوارح، وأول أركان الإسلام، فمن فعل ذلك كان مؤمنا حقا، له المغفرة لذنوبه، والرزق المبارك في الدنيا والرزق الذي لا ينقطع في الآخرة.

واختلف العلماء في المراد بالأنفال هنا على خمسة أقوال؛[1] والراجح منها أنها الغنيمة التي يغنمها المسلمون في الحرب؛ وهو قول الجمهور، واختار ابن جرير أن المراد بها الزيادة على القسم[2].

وقوله ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾ إخبار عمن لم يسبق ذكرهم وحسن ذلك ههنا لأن حالة النزول كان السائل عن هذا السؤال معلوماً معيناً فانصرف هذا اللفظ إليهم، وهم أقوام من الصحابة، قال الزهري: النفل والنافلة ما كان زيادة على الأصل وسميت الغنائم أنفالاً لأن المسلمين فُضلوا بها على سائر الأمم الذين لم تحل لهم الغنائم، وصلاة التطوع نافلة لأنها زيادة على الفرض الذي هو الأصل، قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٢]، أي زيادة على ما سأل، قال القاضي: وكل هذه الوجوه تحتملها الآية وليس فيها دليل على ترجيح بعضها على بعض، وعليه فيكون قوله ﴿ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾المراد الأمر الزائد على ما كان مستحقاً للمجاهدين.[3]

أما قوله تعالى ﴿ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾، فالمراد منه أن حكمها مختص بالله والرسول،

---

(١) جامع البيان للطبري ٩/ ١٧٤.

(٢) أضواء البيان٢/ ٤٨.

(٣) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٥/ ٩٢-٩٣.

يأمره الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته، وليس الأمر في قسمتها مفوضاً إلى رأي أحد، ثم قال تعالى ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾، معناه فاتقوا عقاب الله، ولا تقدموا على معصية الله، واتركوا المنازعة والمخاصمة بسبب هذه الأحوال، وارضوا بما حكم به رسول الله ﷺ، وأصلحوا ذات بينكم من الأقوال، وهو أمر من الله للذين غنموا الغنيمة يوم بدر وشهدوا الوقعة مع رسول الله ﷺ إذا اختلفوا في الغنيمة أن يردوا ما أصابوا منها بعضهم على بعض(١)، وأما معنى ذات بينكم فيقول الفخر الرازي: «ولما كانت الأقوال واقعة في البين قيل لها ذات البين كما أن الأسرار لما كانت مضمرة في الصدور قيل لها ذات الصدور، قوله ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ والمعنى أنه تعالى نهاهم عن مخالفة حكم الرسول بقوله ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ ثم أكد ذلك بأن أمرهم بطاعة الرسول بقوله ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ثم بالغ في هذا التأكيد فقال ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ والمراد أن الإيمان الذي دعاكم الرسول إليه ورغبتم فيه لا يتم حصوله إلا بالتزام هذه الطاعة فاحذروا الخروج عنها»(٢).

وأما هل هذه الآية الأولى محكمة أم منسوخة؟ فقد نقل الطبري بسنده عن مجاهد وعكرمة قالا: نسخت الأنفالَ: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾. وقال آخرون: هي محكمة وليست منسوخة(٣).

وقال في نواسخ القرآن: « اختلف العلماء في هذه الآية فقال بعضهم هي ناسخة من وجه ومنسوخة من وجه، لما كانت الغنائم حراما في شرائع الأنبياء المتقدمين فنسخ الله ذلك بهذه الآية وجعل الأمر في الغنائم إلى ما يراه الرسول ﷺ، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾، وقال آخرون المراد بالأنفال شيئان: الأول: ما يجعله النبي ﷺ لطائفة من شجعان العسكر ومقدميه يستخرج به نصحهم ويحرضهم على القتال، والثاني:

---

(١) انظر جامع البيان للطبري بشيء من التصرف / ٩/ ١٧٨- ١٨٠.

(٢) التفسير الكبير ١٥/ ٩٤.

(٣) الطبري ٩/ ١٧٦.

ما يفضل من الغنائم بعد قسمتها كما روى عن ابن عمر ﷺ قال بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فغنمنا إبلا فأصاب كل واحد اثني عشر بعيرا ونفلنا بعيرا بعيرا فعلى هذا هي محكمة لأن هذا الحكم باق إلى وقتنا هذا والعجب ممن يدعي أنها منسوخة فإن عامة ما تضمنت أن الأنفال لله والرسول ﷺ والمعنى أنهما يحكمان فيها وقد وقع الحكم فيها بما تضمنته آية الخمس وإن أريد أن الأمر بنفل الجيش ما أراد فهذا حكم باق فلا يتوجه النسخ بحال ولا يجوز أن يقال عن آية إنها منسوخة إلا أن يرفع حكمها وحكم هذه ما رفع فكيف يدعي النسخ ؟ [١]

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾، يقول تعالى ذكره المؤمن الحق هو الذي إذا ذكر الله وجل قلبه، أي ازداد خوفه وانقاد لأمره وخضع لذكره خوفا منه وفرَقا من عقابه، وإذا قرئت عليه آيات كتابه صدَّق بها وأيقن أنها من عند الله، فازداد بذلك تصديقا؛ وذلك هو الزيادة في الإيمان، ثم قال ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي: وبالله يوقنون في أن قضاءه فيهم ماض فلا يرجون غيره ولا يرهبون سواه، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ أي: برئوا من الكفر وهم المؤمنون ؛ وليس الذين يقولون بألسنتهم قد آمنا وقلوبهم منطوية على خلافه نفاقا لا يقيمون صلاة ولا يؤدون زكاة، وقوله ﴿ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ ﴾ أي لهؤلاء المؤمنين الذين وصف جل ثناؤه درجات وهي مراتب رفيعة، وهذه الدرجات إما أنها أعمال رفيعة وفضائل قدموها في أيام حياتهم أو أنها مراتب في الجنة؛ وقوله ﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾؛ أي عفو عن ذنوبهم وتغطية عليها ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ وهو الجنة وما أعد الله فيها لهم من مزيد المآكل والمشارب وهنيء العيش. [٢]

الهدايات المستنبطة من المقطع:

يستنبط من المقطع ما يأتي:

* جميع أعمال المسلم ينبغي أن يكون منشؤها تقوى الله تعالى، فعلا وتركًا، ولا ينبغي أن يجتهد

---

(١) نواسخ القرآن ١/ ١٦٥.

(٢) انظر جامع البيان للطبري بشيء من التصرف / ٩/ ١٨١.

فيما ورد فيه نص من كتاب أو سنة، بل يكون عمله في طاعة الله ورسوله.

* الإيمان يزيد بالطاعة وينقص ويضمر بالمعصية، يقوى بأعمال الخير ويضعف بأعمال الشر وأمر المؤمن كله بيد الله تعالى، يصدر عن توجيهه وينتهي بنهيه.

* لا ينبغي لعرض الدنيا أن يفسد القلوب، وطاعة الله ورسوله وإصلاح ذات البين هو أساس تعامل المسلم مع أخيه المسلم.

* لا يكتمل إيمان المرء إلا بتأديته كل ما أمره الله تعالى من أفعال القلوب والجوارح على منهج الله ورسوله ﷺ.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة.

هذا المقطع يتحدث عن الأنفال وما دار من نزاع من بعض المسلمين حولها والأنفال من الأمور المتعلقة بالجهاد في سبيل الله تعالى، وهو المحور الذي تتحدث عنه جل آيات السورة الكريمة.

كما أن الآيات تتحدث عن تقوية الصف المسلم بالطاعة لله ولرسوله، وعدم الشحناء المفضية إلى غضب الله تعالى وضعف أواصر الأخوة فيما بين المسلمين، ومحور السورة فيه بيان هذه الأمور والحث عليها كما مر.

المقطع الثاني: الحديث عن غزوة بدر الكبرى وما حصل للمسلمين فيها

من الآية: ٥ ـ ١٤

﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٠ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ١١ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ ١٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٣ ذَٰلِكُمۡ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٤ ﴾

مناسبة المقطع لما قبله:

هذا المقطع يتحدث عن غزوة بدر الكبرى وما سبقها من الخروج للقاء القافلة، والمناسبة بينه وبين المقطع السابق استمرار الحديث عن مجريات المعركة؛ فالمقطع السابق يتحدث عن الأنفال وكيفية قسمتها وما دار حولها من نزاع، وما ورد من توجيه رباني حول ذلك، فجاء هذا المقطع ليفصِّل ما أجمله المقطع الأول من إشارات حول غزوة بدر.

سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال لنا رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة وبلغه أن عير أبي سفيان قد أقبلت؛ ما ترون فيها؟ لعل الله يغنمناها ويسلمنا، فخرجنا فسرنا يوما أو يومين، فقال: ماترون فيهم؟ فقلنا: يا رسول الله ما لنا من طاقة بقتال القوم،

إنما أخرجنا للعير، فقال المقداد لا تقولوا كما قال قوم موسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، فأنزل الله: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾[1].

وروى الترمذي عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: نظر نبي الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا فاستقبل القبلة ثم مد يديه وجعل يهتف بربه اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض فما زال يهتف بربه مادًا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه فأتاه أبو بكر ﷺ فأخذ رداءه وألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله: ﴿ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴾، فأمدهم الله بالملائكة[2].

التفسير الإجمالي للمقطع:

قوله: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾، أي كما أخرجك ربك يا محمد من بيتك بالحق على كره من فريق من المؤمنين كذلك هم يكرهون القتال فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم، وقيل في معناها غير ذلك[3]، قال ابن عباس وابن إسحاق: « ذلك خبر من الله عن فريق من المؤمنين أنهم كرهوا لقاء العدو وكان جدالهم نبي الله ﷺ أن قالوا لم يُعلمنا أنا نلقى العدو فنستعد لقتالهم وإنما خرجنا للعير»[4]، وبعض القوم قد كانوا للشوكة كارهين وأن جدالهم كان في القتال، كما قال مجاهد كراهية منهم له، وأما قوله: ﴿ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ ﴾، فمعناه: بعد ما تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله، أو أن معناه: يجادلونك في القتال بعد ما أمرت به، وأما قوله: ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴾، فإن معناه كأنهم من كراهتهم للقاء العدو إذا دعوا إلى لقائهم للقتال يساقون إلى الموت وهم ينظرون إلى حتفهم ولا يستطيعون رد ذلك عنهم،

(١) لباب النقول ١/ ١٠٦.
(٢) انظر لباب النقول ١/ ١٠٨.
(٣) لمزيد بيان انظر جامع البيان للطبري ٩/ ١٨٤.
(٤) السابق ٩/ ١٧٤.

وقوله: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ ﴾؛ معناه أن الله تعالى ضمن إحداهما للمسلمين، أي واذكروا أيها القوم وقت وعد الله إحدى الطائفتين أنها صائرة لكم، يعني إحدى الفرقتين؛ فرقة أبي سفيان بن حرب والعير، وفرقة المشركين الذين نفروا من مكة لمنع عيرهم، ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾، أي: وتحبون أن تكون لكم العير التي ليس فيها قتال، دون جماعة قريش الذين جاؤوا لمنع عيرهم الذين في لقائهم القتال والحرب، وأصل الشوكة من الشوك، وهو ماله طرف مدبب يؤذي، ويريد الله أن يحق دين الإسلام ويعلي كلمته[1]؛ وذلك بأمره إياكم أيها المؤمنون بقتال الكفار وأنتم تريدون الغنيمة والمال، وهي عرض زائل لا قيمة له، وقوله ويقطع دابر الكافرين أي: يريد أن يجُبَّ أصل الجاحدين لتوحيد الله، والدابر هو المتأخر من كل شيء، وقطعه الإتيان على الجميع منهم، أي «ويريد الله أن يقطع دابر الكافرين فيحق الحق كيما يعُبد الله وحده دون الآلهة والأصنام، ويعز الإسلام، وذلك هو إحقاق الحق، وأما إبطال الباطل فهو أن ينتهي القوم عن عبادة الآلهة والأوثان والكفر، ولو كره ذلك الذين أجرموا فاكتسبوا المآثم والأوزار من الكفار. [2]

ثم يقول تعالى ذكره: واذكروا وقت استغاثتكم ربكم: حين كنتم تستجيرون به من عدوكم وتدعونه للنصر عليهم، فاستجاب لكم؛ أي فأجاب دعاءكم بأني ممدكم بألف من الملائكة يردف بعضهم بعضا، ويتلو بعضهم بعضا، وجعل الله ذلك لتسكن قلوبكم بمجيئها إليكم، وتوقن بنصرة الله لكم، ﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ أي: وما تنصرون على عدوكم أيها المؤمنون إلا أن ينصركم الله عليهم؛ لا بشدة بأسكم وقواكم، بل بنصر الله لكم لأن ذلك بيده، ينصر من يشاء من خلقه، إن الله عزيز حكيم؛ لا يقهره شيء ولا يغلبه غالب، حكيم في تدبيره ونصره من نصر وخذلانه من خذل، ومعنى مردفين: أي أن الملائكة يأتي بعضهم على إثر بعض، متتابعين،

---

(١) جامع البيان للطبري ٩/ ١٨٩.

(٢) للآثار الواردة في خروج النبي للقاء قريش وما دار بين النبي والصحابة من حوارات انظر تخريج الأحاديث والآثار ٢/ ١٢، دلائل النبوة ٣/ ٣٤.

واختلفت القراء في قراءة ﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ فنافع وأبو جعفر ويعقوب بفتح الدال اسم مفعول؛ أي مردَفين بغيرهم، والباقون بالكسر اسم فاعل أي مردِفين مثلهم[1]، ومعناه على كلا القراءتين متقارب، ثم يقول تعالى ذكره: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ ﴾، أي يلقي عليكم النعاس أمنة أي أمانا من الله لكم من عدوكم أن يغلبكم، وفي قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ قراءات، فابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وسكون الغين وفتح الشين وألف بعدها؛ (يغشاكم)، وكلمة (النعاسُ) بالرفع على الفاعلية من غشي يغشى، ووافقهما ابن محيصن واليزيدي، وقرأ نافع وأبو جعفر بضم الياء وسكون الغين وبياء بعدها: (يُغْشِيكم) من أغشى، (النعاسَ)، بالنصب مفعول به وفاعله ضمير عائد على الله تعالى، وافقهما الحسن، والباقون بضم الياء وفتح الغين وكسر الشين مشددة وبياء بعدها؛ (يغَشّيكم)، ونصب (النعاس)، من غشَّى بالتشديد، وعن ابن محيصن تسكين ميم أمنة[2]، وأما قوله: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ﴾، فهو مطر أنزله الله من السماء يوم بدر ليطهر به المؤمنين لصَلاتهم، لأنهم كانوا أصبحوا يومئذ مجنبين وليس معهم ماء، فلما أنزل الله عليهم الماء اغتسلوا وتطهروا، وكان الشيطان وسوس لهم بما أحزنهم به، فأذهب الله ذلك من قلوبهم بالمطر؛ فذلك ربطه على قلوبهم، وتثبيته بذلك المطر أقدامهم، لأنهم كانوا التقوا مع عدوهم على رمال رخوة متحركة لا تثبت عليها الأقدام، فلبَّدها المطر حتى صارت الأقدام عليها ثابتة لا تسوخ فيها توطئة من الله عز وجل لنبيه ﷺ وأوليائه، وكل ذلك من أسباب التمكن من عدوهم والظفر بهم، قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي ﴾ أي واذكروا وقت أوحى الله تعالى إلى الملائكة أني معينكم على تثبيت المؤمنين فثبتوهم، وقوله ﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ ﴾ يجوز أن يكون تفسيراً لقوله ﴿ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ﴾، ولا معونة أعظم من إلقاء الرعب في قلوب الكفرة ولا تثبيت أبلغ من ضرب أعناقهم، واجتماعهما غاية النصرة، وقوله: ﴿ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ ﴾؛ أراد أعالي الأعناق التي هي المذابح؛ لأنها مفاصل؛

(١) إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ج١/ ص٢٩٦.

(٢) السابق ج١/ ص٢٩٦.

فكان إيقاع الضرب فيها حزا وتطييرا للرؤوس، وقيل أراد الرؤوس لأنها فوق الأعناق يعني ضرب الهام، والبنان الأصابع يريد الأطراف، والمعنى فاضربوا ما تشلوا به حركة المقاتلين؛ وهو تقطيع الأنامل، أو تردوهم قتلى، بضربكم فوق الأعناق، قال الزمخشري: « ويجوز أن يكون قوله ﴿ سَأُلْقِي ﴾ إلى قوله ﴿ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ عقيب قوله ﴿ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾، تلقينا للملائكة ما يثبتونهم به كأنه قال قولوا لهم ﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾، أو كأنهم قالوا كيف نثبتهم فقيل قولوا لهم: ﴿ سَأُلْقِي ﴾، فالضاربون على هذا هم المؤمنون ». [1] وقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا ﴾ أي إن هذا الذي حصل للكفرة جزاء لهم لأنهم فارقوا أمر الله ورسوله، ولم يؤمنوا، وأطاعوا أمر الشيطان، ومعنى قوله ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي ومن يخالف أمر الله وأمر رسوله وفارق طاعتهما فإن الله شديد العقاب له، وشدة عقابه له في الدنيا إحلاله به ما كان يحل بأعدائه من النقم، وفي الآخرة الخلود في نار جهنم، قوله: ﴿ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ ﴾، أي هذا الذي حل بكم من العذاب والتقتيل فذوقوه واستشعروا به في الدنيا بعد أن كنتم منكرين له وما ينتظركم في الآخرة من عذاب النار أشد وأنكى [2].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

يستنبط من آيات المقطع:

* خيرة الله للعبد خير من خيرته لنفسه، فلقاء العدو في بدر أظهر الله به الدين وأعلى به كلمة المسلمين بخلاف أمر القافلة وما فيها من أموال.
* حين تستغيث الأمة بصدق تأتي الاستجابة من الله سريعة، ويحق الله الحق حين يكون أهله مقبلين عليه سبحانه وتعالى.
* النصر بيد الله سبحانه وتعالى، حتى مع وجود التأييد بالملائكة، فلا يعلق المرء قلبه إلا بالله سبحانه وتعالى.

---

(١) انظر الكشاف ٢/ ١٩٤- ١٩٥.

(٢) انظر جامع البيان للطبري بتصرف / ٩/ ١٨٩- ٢٠٠.

* نِعَم الله على الإنسان عظيمة، وآلاؤه كبيرة، منها ما نعرف ومنها ما لا نعرف، وعلى المرء أن يكون شاكرا منيبا ذاكرا.

* ما يفعله الله تعالى بالمشركين إنما هو بسبب مشاقتهم لله ولرسوله، والأمر مطرد لكل من يكون حاله كحالهم.

* ما يصيب الكفرة من أذى على أيدي الفئة المؤمنة هو جزء من عذاب الله، ولهم في الآخرة عذاب النار.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة.

الحديث في المقطع استمرار للحديث عن قصة غزوة الأنفال، كما أن محور السورة هو الحديث عن الجهاد وإقبال الأمة على الله تعالى، وتخلصها من أدران الركون إلى الراحة والدعة، وفي الآيات الكريمة الحديث عن الجهاد وأسباب النصر، والتعلق بالله سبحانه والبعد عن الشيطان ورجزه.

المقطع الثالث: حرمة الفرار من المعركة، ومنة الله على المؤمنين بالنصر والتأييد

من الآية: ١٥ ـ ١٨

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

مناسبة المقطع لما قبله:

المناسبة بين هذا المقطع والذي قبله، أن الحديث بعد أن كان عن وصف الغزوة وما حصل فيها، جاء الحديث هنا عن توجيهات قرآنية للمسلمين بعد انتهاء الغزوة، وذكر الفرار من أرض المعركة وتوعد أصحابه بالوعيد الشديد، وهو أمر فيه توجيه لما بعد هذه الغزوة من

غزوات قادمة، كما تحدثت الآيات في هذا المقطع عن أمور وقع فيها الإعجاز الرباني في المعركة وهي هزيمة الكافرين ونصر المؤمنين، وأن هذه النتيجة المباركة من عند الله سبحانه، والنصر بيده جل في علاه، هو الذي يعز دينه وينصر جنده ويذل الكافرين.

التفسير الإجمالي للمقطع:

خطاب الله تعالى للمؤمنين بأعز صفة لديهم وهي الإيمان به سبحانه، وتوجيه للفئة المؤمنة إذا لقوا الذين كفروا في القتال زحفا أي متزاحفا بعضهم إلى بعض؛ والتزاحف التداني والتقارب، فلا تولوهم أيها المؤمنون ظهوركم فتنهزموا عنهم، ولكن اثبتوا لهم فإن الله معكم عليهم، ومن يولهم منكم ظهره منهزما، إلا مستطردا لقتال عدوه بطلب عورة له يمكنه إصابتها فيكر عليه، أو صائرا إلى حيز المؤمنين الذين يرجعون به معهم إليهم، والنبي ﷺ فئتهم، والآية محكمة غير منسوخة، وهي نزلت في أهل بدر وحكمها ثابت في جميع المؤمنين، والله حرم على المؤمنين إذا لقوا العدو أن يولوهم الدبر منهزمين إلا لتحرف القتال أو لتحيز إلى فئة من المؤمنين حيث كانت من أرض الإسلام، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وأما قوله: ﴿ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي: فقد رجع بغضب من الله ومصيره الذي يصير إليه في معاده يوم القيامة جهنم وبئس الموضع الذي يصير إليه ذلك المصير، ثم يقول تعالى ذكره للمؤمنين به وبرسوله ممن شهد بدرا مع رسول الله ﷺ : فلم تقتلوا المشركين أيها المؤمنون أنتم بقوتكم البشرية، ولكن الله قتلهم، وأضاف جل ثناؤه قتلهم إلى نفسه ونفاه عن المؤمنين به الذين قاتلوا المشركين إذ كان جل ثناؤه هو مسبب قتلهم، وعن أمره كان قتال المؤمنين إياهم، وقوله لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾، فأضاف الرمي إلى نبي الله ثم نفاه عنه وأخبر عن نفسه أنه هو الرامي إذ كان جل ثناؤه هو الموصل ما رمى به النبي إلى المشركين، بقوته وقدرته، قوله: ﴿ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ﴾، أي أنه تعالى فعل ما فعل « ليخالط المؤمنين من ذلك ما يكون لهم من مزاولته عاقبة حسنة بل أحسن من الراحة، لأنه يفضي بهم إلى راحة دائمة والدعة تفضي إلى تعب طويل» [1]، والإشارة

(١) نظم الدرر ٣/ ١٩٧.



بقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾، أي هذا الفعل من قتل المشركين ورميهم حتى انهزموا، وابتلاء المؤمنين البلاء الحسن بالظفر بهم وإمكانهم من قتلهم وأسرهم فِعلُنا الذي فعلنا، وقوله:﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي واعلموا أن الله مع ذلك مضعف كيد الكافرين، يعني مكرهم حتى يذلوا وينقادوا للحق ويهلكوا، ووردت عدة قراءات في قوله: ﴿ مُوهِنُ كَيْدِ ﴾، فابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بسكون الواو وتخفيف الهاء والتنوين؛ على أنه اسم فاعل من أوهن كأكرم معدى بالهمزة والتنوين على الأصل في اسم الفاعل وكيد بالنصب على المفعولية به، وافقهم الأعمش، وقرأ حفص بالتخفيف من غير تنوين وكيد بالخفض على الإضافة وافقه الحسن، والباقون بفتح الواو وتشديد الهاء وبالتنوين ونصب كيد مفعول به أيضا. [1]

ثم يقول تعالى ذكره للمشركين الذين حاربوا رسول الله ﷺ ببدر: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾، يعني: أيها المشركون إن تطلبوا حكم الله على أقطع الحزبين للرحم وأظلم الفئتين، وتستنصروه عليه، فقد جاءكم حكم الله ونصره المظلومَ على الظالم، والمحقَ على المبطل وأما قوله: ﴿ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾، فمعناه، وإن تنتهوا يا معشر قريش وجماعة الكفار عن الكفر بالله ورسوله وقتال نبيه ﷺ والمؤمنين به فهو خير لكم في دنياكم وآخرتكم، وإن تعودوا نعد لهلاككم بأيدي أوليائي وهزيمتكم ولن يغني عنكم جندكم وجماعتكم من المشركين كما لم يغنوا عنكم يوم بدر مع كثرة عددهم وقلة عدد المؤمنين شيئا، وأن الله مع من آمن به من عباده على من كفر به منهم ينصرهم عليهم أو يظهرهم كما أظهرهم يوم بدر على المشركين[2]، وورد في قوله ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، قراءتان؛ فنافع وابن عامر وحفص بفتح همزة أنَّ؛ على تقدير لام العلة والباقون بالكسر على الاستئناف[3] .

وفي سبب نزول قوله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾الآية؛ روى الحاكم

---

(١) اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ١/ ٢٩٧.

(٢) انظر جامع البيان للطبري بتصرف يسير / ٩/ ٢٠٩.

(٣) اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ١/ ٢٩٧.

عن عبد الله بن ثعلبة بن صغير قال: كان المستفتح أبا جهل فإنه قال حين التقى القوم: «اللهم أينا كان أقطع لرحم وأتى بما لا يعرف فأحنه الغداة»، وكان ذلك استفتاحا فأنزل لله ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾، إلى قوله: (وأن الله مع المؤمنين). [1]

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* حرمة تولي الأدبار والفرار من وجه الأعداء في المعركة.
* يجوز للمسلم لغايات القتال أن ينسحب من أرض المعركة على سبيل الكر لا الفر.
* عون الله تعالى للمسلمين وتأييده لهم سبب نصرتهم في أرض المعركة.
* من تدبير الله تعالى للمؤمنين ونصرته لهم أصبح المشركون يدعون على أنفسهم بالويل والثبور وقد جاءهم ما طلبوا من الهزيمة والخذلان.
* إن ينته المشركون عن قتال المسلمين يكف المسلمون أيديهم عنهم، وهو خير لهم في دنياهم وأخراهم.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

هذا المقطع فيه توجيه للمسلمين أن يكونوا مع الله تعالى، وأن لا يحيدوا عن منهجه، فهو المؤيد لهم والناصر لهم على الحقيقة، والسورة تتمحور حول التأكيد على معية الله لأوليائه، ونقمته من أعدائه.

(١) انظر لباب النقول / ١٠٩.

المقطع الرابع: توجيه المؤمنين لطاعة الله ورسوله والنهي عن خيانة الأمانة وبيان قيمة التقوى

من الآية: ٢٠ ـ ٢٩

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

مناسبة المقطع لما قبله:

في هذا المقطع توجيه رباني لما ينبغي أن يكون عليه المجتمع المسلم، بعد انتهاء المعركة، وما الدروس التي يفيد منها المجتمع وهو يغادر أرض المعركة، فكما كان التوجيه قبل الحديث عن المعركة بالطاعة وتقوى الله تعالى جاء هنا بعدها، وزاد على ذلك الحث على ما يحافظ على كيان المجتمع من أمور في غاية الأهميةكالاستجابة لله ورسوله، واتقاء الفتن، وتذكر نعم الله سبحانه، وعدم الخيانة، والحرص على الأمانة، ومراقبة الله تعالى.

التفسير الإجمالي للمقطع:

يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله أطيعوا الله ورسوله فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه، ولا تُدبروا عن رسول الله ﷺ مخالفين أمر الله ونهيه وأنتم تسمعون أمره ونهيه، ولا

تكونوا أيها المؤمنون في مخالفة رسول الله ﷺ كالمشركين الذين إذا سمعوا كتاب الله يتلى عليهم كأنهم لا يسمعون، فهم لا يَعتبرون بما يسمعون، ولا ينتفعون به لإعراضهم عنه فجعلهم الله لمّا لم ينتفعوا بمواعظ القرآن وإن كانوا قد سمعوها بآذانهم بمنزلة من لم يسمعها، ثم قال سبحانه: إن شر ما دب على الأرض من خلق الله عند الله الذين يعرضون عن الحق لئلا يستمعوه فيعتبروا به ويتعظوا، بل ينكصون عنه إن نطقوا به، فهم بذلك لا يعقلون عن الله أمره ونهيه، وعُني بهذه الآية مشركو قريش، لأنها في سياق الخبر عنهم، فمعنى الآية إذن: ولو علم الله في هؤلاء القائلين خيرا لأسمعهم مواعظ القرآن وعبره حتى يعقلوا عن الله حججه منه ولكنه قد علم أنه لا خير فيهم وأنهم ممن كتب لهم الشقاء فهم لا يؤمنون، ولو أفهمهم ذلك حتى يعلموا ويفهموا لتولوا عن الله وعن رسوله وهم معرضون عن الإيمان، ومعنى قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾، أي إذا دعاكم للإيمان، ففيه الحياة الكريمة في الدنيا والخلود في الآخرة، وثمة أقوال أخرى كلها داخلة به ضمنا [1]، وفي قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ أقوال عدة لأهل التفسير أرجاها ما صار إليه ابن جرير بقوله: «وأولى الأقوال بالصواب عندي في ذلك أن يقال إن ذلك خبر من الله عز وجل أنه أملك لقلوب عباده منهم، وإنه يحول بينهم وبينها إذا شاء، حتى لا يقدر ذو قلب أن يدرك به شيئا من إيمان أو كفر أو أن يعي به شيئا، أو أن يفهم إلا بإذنه ومشيئته، غير أنه ينبغي أن يقال إن الله عمَّ بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾، الخبرَ عن أنه يحول بين العبد وقلبه، ولم يخصص من المعاني التي ذكرنا شيئا دون شيء، والكلام محتمل كل هذه المعاني فالخبر على العموم حتى يخصه ما يجب التسليم له» [2]، وقوله: ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، أي إليه مصيركم ومرجعكم في القيامة فيوفيكم جزاء أعمالكم؛ المحسن منكم بإحسانه، والمسيء بإساءته، فاتقوه وراقبوه فيما أمركم ونهاكم، ثم خاطب الله تعالى المؤمنين بقوله: واتقوا أيها المؤمنون فتنة؛ أي اختبارا من الله يختبركم وبلاء يبتليكم، لا

---

(١) جامع البيان للطبري / ٩ / ٢٠٨.

(٢) جامع البيان للطبري / ٩/ ٢٠٩.

تصيبن هذه الفتنة الذين ظلموا منكم خاصة دون غيرهم ممن لم يظلموا، وثمة أقوال في الآية لأهل العلم يرجع إليها[1] وقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾، تحذير من الله ووعيد لمن واقع الفتنة التي حذره إياها.

ثم جاء التذكير من الله عز وجل لأصحاب رسول الله ﷺ، فبعد أن أمرهم بما سبق من طاعته وطاعة رسوله والاستجابة له إذا دعاهم لما يحييهم، وأن لا يخالفوا أمره وإن أمرهم بما فيه المشقة عليهم، خاطبهم ببيان نعمته عليهم، فقال: واذكروا إذ آمنتم به واتبعتموه وأنتم قليل؛ يستضعفكم الكفار فيفتنونكم عن دينكم، وينالونكم بالمكروه في أنفسكم وأعراضكم وتخافون منهم أن يتخطفوكم فيقتلوكم وينالوا منكم فآواكم، أي فجعل لكم مأوى تأوون إليه منهم وأيدكم بنصره أي: وقواكم بنصره عليهم حتى قتلتم منهم من قتلتم ببدر ورزقكم من الطيبات أي: وأطعمكم غنيمتهم حلالا طيبا، لعلكم تشكرون؛ لكي تشكروه على ما رزقكم وأنعم به عليكم من ذلك وغيره من نعمه عندكم، والناس الذين عنوا بقوله أن يتخطفكم الناس هم عند أكثر أهل العلم كفار قريش، وقال آخرون: بل عني به غير قريش والأول أولى بالصواب؛ لأن المسلمين لم يكونوا يخافون على أنفسهم قبل الهجرة من غيرهم لأنهم كانوا أدنى الكفار منهم إليهم وأشدهم عليهم يومئذ مع كثرة عددهم وقلة عدد المسلمين، وقوله فآواكم فمعناه آواكم إلى المدينة، وكذلك قوله وأيدكم بنصره بالأنصار.[2]

ثم يقول تعالى ذكره للمؤمنين بالله ورسوله من أصحاب نبيه ﷺ يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله لا تخونوا الله؛ وخيانتهم الله ورسوله كانت بإظهار من أظهر منهم لرسول الله ﷺ والمؤمنين الإيمانَ في الظاهر والنصيحةَ؛ وهو يستسرُّ الكفر والغش لهم في الباطن، يدلون

---

(١) قال بعض أهل العلم: قوله لا تصيبن، ليس بجواب ولكنه نهي بعد أمر، ولو كان جوابا ما دخلت النون، وقال بعضهم: أمَرَهم ثم نهاهم، ومثله قوله: (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان)، وكأن معنى الكلام عنده: اتقوا فتنة إن لم تتقوها أصابتكم. جامع البيان/ الطبري ٩/ ٢١٨.

(٢) امظر جامع البيان للطبري بتصرف يسير في العبارة / ٩ / ٢١٩- ٢٢٠.

المشركين على عورتهم ويخبرونهم بما خفي عنهم من خبرهم، وقد اختلف العلماء فيمن نزلت هذه الآية وفي السبب الذي نزلت فيه[١]؛ وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله نهى المؤمنين عن خيانته وخيانة رسوله وخيانة أمانته، والعبرة بعموم لفظها، ومعنى الأمانة التي ذكرها الله في قوله ﴿ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمۡ ﴾، هي ما يخفى عن أعين الناس من فرائض الله، وقال بعض أهل العلم: معنى الأمانات ها هنا الدين فتأويل الكلام إذن يا أيها الذين آمنوا لا تنقصوا الله حقوقه عليكم من فرائضه ولا رسوله من واجب طاعته عليكم، ولا تخونوا أماناتكم وتنقصوا أديانكم، وواجب أعمالكم، ولازمها لكم، وأنتم تعلمون أنها لازمة عليكم وواجبة بالحجج التي قد ثبتت من الله عليكم، ثم يقول تعالى ذكره للمؤمنين واعلموا أيها المؤمنون أنما أموالكم التي خولكموها الله وأولادكم التي وهبها الله لكم اختبار وبلاء؛ أعطاكموها ليختبركم بها، ويبتليكم لينظر كيف أنتم عاملون من أداء حق الله عليكم فيها والانتهاء إلى أمره ونهيه فيها، وأن الله عنده أجر عظيم؛ أي واعلموا أن الله عنده خير وثواب عظيم على طاعتكم إياه، ثم يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله إن تتقوا الله بطاعته وأداء فرائضه واجتناب معاصيه وترك خيانته وخيانة رسوله وخيانة أماناتكم يجعل لكم فرقانا، أي يجعل لكم فصلا وفرقا بين حقكم وباطل من يبغيكم السوء من أعدائكم المشركين؛ بنصره إياكم عليهم، وإعطائكم الظفر بهم، ويكفر عنكم سيئاتكم، أي يمحوها عنكم ويغفر لكم أي ويغطيها فيسترها عليكم فلا يؤاخذكم بها، ولله الفضل العظيم والجزاء الكبير الذي وعده عباده، وإن فعله جزاء منه لعبده على طاعته إياه لأنه الموفق عبده لطاعته.[٢]

---

(١) فقال بعضهم: نزلت في منافق كتب إلى أبي سفيان يطلعه على سر المسلمين، وقال آخرون: بل نزلت في أبي لبابة للذي كان من أمره وأمر بني قريظة، وقال آخرون بل نزلت في شأن عثمان ﷺ، انظر لباب النقول ١/ ١٠٩.

(٢) وقيل في معنى قوله يجعل لكم فرقانا أي مخرجا، وقيل: نجاة، وقيل: فصلا، وكل ذلك تحتمله الكلمة في أصل اللغة. انظر جامع البيان للطبري / ٩/ ٢٢٥.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* التأكيد على طاعة الله ورسوله فهي رأس الأمر كله، وسبب سعادة المرء في الدارين.
* عدم جواز تشبه المؤمنين بالكافرين سواء في معتقداتهم أو عاداتهم.
* الكفار بما يأتون من أمور تغضب الله تعالى حالهم أسوأ من حال الأنعام.
* الاستجابة لأمر الله تعالى فيها الحياة للمرء في كل مناحي حياته.
* لا بد للمرء من مراقبة قلبه وتعاهده بالمراقبة الدائمة لله تعالى.
* على المرء أن يذكر دائما نعم الله تعالى من التمكين والتأييد وصرف الفتن عنه، والنصر على أعداء الله.
* عدم خيانة الأمانة بجميع معانيها الخاصة والعامة.
* الأولاد والأموال من أخص الأمانات التي استرعانا الله إياها فلا بد من رعايتها. وهي فتنة علينا الحذر منها، وتعاهدها.
* من يتق الله تعالى يهيء له أسباب النصر، ويجعل له عزا وتمكينا، ويعطيه ما يصير له به قوة التصرف بالاتصال والانفصال مع غيره من الناس متى شاء.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة.

طاعة الله تعالى وامتثال أمره من أهم أسباب النصر والتمكين، والمقطع جاء يؤصل هذا المعنى في نفوس المؤمنين ليحوزوا النصر ويتمكنوا به كل تمكين، وهذا يخدم محور السورة ويؤكد عليه، كما أن تمكين العلاقة بين المؤمنين وتوثيق أواصر المحبة بينهم تجعل منهم أمة قوية لها شخصيتها وكيانها بين الأمم، والمقطع يؤكد أسباب النصر، كما يؤكد أسباب قوة المجتمع وعلو شأنه.

المقطع الخامس: نماذج من عداوة المشركين للمؤمنين

من الآية: ٣٠ ـ ٤٠

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾

مناسبة المقطع لما قبله:

في هذا المقطع جاء الحديث عن نماذج من عداوات المشركين للمسلمين، التي لولاها لما شرع الله القتال، ولا كان الجهاد، وبدأت بالحديث عن حال المشركين مع رسول الله ﷺ في مكة، حين كان مكرهم فيها ليخرجوه منها، وكذا مكرهم بكل الوسائل المادية والمعنوية التي تكون حجر عثرة في طريق الدعوة إلى الله تعالى، مما كان السر في مشروعية القتال، فكانت غزوة بدر أولى تلك الغزوات، قال ابن عطية رحمه الله: « يشبه أن يكون قوله وإذ معطوفا على قوله إذ أنتم قليل وهذا تذكير بحال مكة وضيقها مع الكفرة وجميل صنع الله تعالى في جمعها ويحتمل أن

يكون ابتداء كلام وهذا كله على أن الآية مدنية كسائر السورة وهذا هو الصواب»[١].

والآية الأولى من هذا المقطع فيها بيان المنة الربانية على النبي محمد ﷺ في إبطال مكر الكفار به ليلة الهجرة.

أسباب نزول آيات المقطع:

سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ ﴾ الآية ما أخرجه ابن جرير عن سعيد بن جبير قال: قتل النبيُ ﷺ يوم بدر صبرا عقبةَ بنَ أبي معيط وطعيمة بن عدي والنضر بن الحارث وكان المقداد أسر النضر فلما أمر بقتله قال المقداد يا رسول الله أسيري فقال رسول الله ﷺ إنه كان يقول في كتاب الله ما يقول، قال وفيه أنزلت هذه الآية: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا ﴾ الآية.[٢]

وفي سبب نزول قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ ﴾ الآية، روى البخاري عن أنس ﷺ قال: قال أبو جهل بن هشام اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم فنزلت: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ الآية[٣].

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﷺ قال: «كان المشركون يطوفون بالبيت ويقولون غفرانك غفرانك فأنزل الله ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ الآية[٤].

قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ ﴾ الآية، أخرج الواحدي عن ابن عمر ﷺ قال كانوا يطوفون بالبيت ويصفقون ويصفرون فنزلت هذه الآية.

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٢/ ٥١٨.

(٢) حادثة قتل النبي لعقبة أخرجها في التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، حديث رقم٢٢٤٠. ٥/ ٢٦٩.

(٣) صحيح البخاري حديث رقم ٤٦٤٨، ١٥/ ٢٥٠.

(٤) والأثر أخرجه البيهقي في سننه، باب ما كان المشركون يقولون في التلبية، حديث رقم ٩٣٠٤.

وسبب نزول قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ الآية قال ابن إسحق: حدثني الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمير بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن قالوا: لما أصيبت قريش يوم بدر ورجعوا إلى مكة مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم فكلموا أبا سفيان ومن كان له في ذلك العير من قريش تجارة فقالوا يا معشر قريش إن محمدًا قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلنا أن ندرك منه ثأرًا ففعلوا ففيهم كما ذكر عن ابن عباس ﷺ أنزل الله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ يُحْشَرُونَ ﴾.[1]

التفسير الإجمالي للمقطع:

أي واذكر يا محمد وقت أن مكروا بك في مكة ليوثقوك فلا تخرج منها، أو ينفوك خارجها، أو يقتلوك، فيفرّق دمك بين القبائل، لكن الله أبطل مكرهم وكيدهم ونجاك منهم،[2] وقال الفخر الرازي: « والمكر هو المخاتلة والتداهي، تقول: فلان يمكر بفلان إذا كان يستدرجه ويسوقه إلى هوة، وهو يظهر جميلا وتسترا بما يريد، ويقال: أصل المكر الفتل، قاله ابن فورك، فمكر قريش بالنبي ﷺ كان تدبيرهم ما يسوءه، وسعيهم في فساد حاله، وإطفاء نوره، وتدبير قريش على رسول الله ﷺ هذه الخصال الثلاث لم يزل قديما من لدن ظهوره، لكن إعلانهم لا يسمى مكرا وما استسروا به هو المكر».[3]

---

(١) انظر لباب النقول ١/ ١١٢.

(٢) قال في اللسان: « المكر احتيال في خفية، والمكر من الله تعالى جزاء، سمي باسم «مكر» المجازي،... ويجري مجرى هذا القول قوله تعالى: (يخادعون الله وهو خادعهم). انظر: لسان العرب ج٥/ ص١٨٣.

(٣) قال الفخر: « المكر في حقه من المتشابهات، وذكروا في تأويله وجوهاً؛ منها: أن معاملة الله معهم كانت شبيهة بالمكر فسمي بذلك، ومنها: أن هذا اللفظ ليس من المتشابهات لأنه عبارة عن التدبير المحكم الكامل، وذلك في حق الله تعالى غير ممتنع والله أعلم، انظر التفسير الكبير ج٨/ ص٥٩.

وقال الزمخشري: «﴿ وَيَمْكُرُونَ ﴾، ويخفون المكايد له، ﴿ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ﴾؛ ويخفي الله ما أعد لهم حتى يأتيهم بغتة، ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾، أي مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ تأثيراً، أو لأنه لا ينزل إلا ما هو حق وعدل، ولا يصيب إلا بها هو مستوجب». [١] وقوله: ﴿ لِيُثْبِتُوكَ ﴾ أي: ليقيدوك، وقيل معناه الحبس، وقال آخرون: بل معناه ليسحروك؛ وفي معنى مكرهم وما اجتمعوا له وما أرادو فعله بالنبي ﷺ أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس، رضي الله عنهما. [٢] وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ يعني أنهم يقولون: قد سمعنا ما تلوت يا محمد، ونستطيع الإتيان بمثله، فما هذا القرآن الذي تتلوه إلا أساطير الأولين، والأساطير جمع أسطر، وهو جمع الجمع لأن واحد الأسطر سطر، ثم يجمع السطر أسطر وسطور ثم يجمع الأسطر أساطير وأساطر، أي: إن هذا القرآن الذي تتلوه علينا يا محمد ما هو إلا ما سطر الأولون وكتبوه من أخبار الأمم؛ كأنهم أضافوه إلى أنه أخذ عن بني آدم وأنه لم يوحِهِ الله إليه، [٣]، ثم حكى الله تعالى مقولتهم؛ وطلبهم العذاب إن كان ما جاء به محمد ﷺ صدقا، وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ﴾، أي إن كان ما يدّعيه محمد حقا من عند الله فأنزل علينا عذاباً من عندك، وقوله ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ معناه: أي وأنت مقيم بين أظهرهم وما كان معذبهم وهم يطلبون المغفرة منه سبحانه، قال ابن عباس رضي الله عنه: « كان فيهم أمانان نبي الله والاستغفار قال فذهب النبي وبقي الاستغفار» [٤] وقال آخرون: معنى ذلك وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم يا محمد وما كان الله معذب المشركين وهم يستغفرون؛ أي لو

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٠٥.

(٢) وفيه أن نفرا من قريش ومن أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل، فلما رأوه قالوا من أنت؟ قال شيخ من أهل نجد، سمعت بما اجتمعتم له فأردت أن أحضركم، ولن يعدمكم مني رأي ونصح، قالوا أجل فادخل، فدخل معهم.... الأثر. انظر لباب النقول/ ١٠٩.

(٣) جامع البيان للطبري ٩/ ٢٣٠.

(٤) رواه البيهقي في السنن الكبرى ٥/ ٤٥.

استغفروا، قالوا: ولم يكونوا يستغفرون فقال جل ثناؤه إذ لم يكونوا يستغفرون: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾، والتفسير الأول أولى بالقبول والصواب، وقيل إن قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ منسوخة! وليس بصحيح. كما قال في نواسخ القرآن. [1] ثم قال الله تعالى: وما لهؤلاء المشركين ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ولم يكونوا أولياء الله فما أولياء الله إلا المتقون، يعني الذين يتقون الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، ولكن أكثر المشركين لا يعلمون أن أولياء الله المتقون بل يحسبون أنهم أولياء الله، وما كان صلاتهم عند البيت يعني بيت الله العتيق إلا مكاء وتصدية؛أي تصفير وتصفيق، [2]، ثم توعدهم الله تعالى على تصرفاتهم تلك بقوله: ﴿ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾، أي تلمسوا العذاب واستشعروا به بسبب كفركم بالله تعالى، وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾، إخبار منه سبحانه عنهم أنهم يبذلون أموالهم ليبعدوا الناس عن دعوة الله تعالى فسيفعلون ذلك، لكن النتيجة بخلاف ما يتوقعون، لأن إنفاقهم هذا سيكون عليهم حسرة وندامة، وذلك أن أموالهم تذهب ولا يظفرون بما يأملون ويطمعون فيه من إطفاء نور الله، ثم يغلبهم المؤمنون، ويحشر الله الذين كفروا إلى جهنم، وبئس المصير، « فأعظم بها حسرة وندامة لمن عاش منهم ومن هلك؛ أما الحي فحرم ماله وذهب باطلا في غير درك ولا نفع ورجع مغلوبا مقهورا محزونا مسلوبا، وأما الهالك فقتل وسلب وعجل به إلى نار الله يخلد فيها

---

(١) نواسخ القرآن ١/ ١٦٦.

(٢) يقال منه مكا يمكو مكوا ومكاء، وقد قيل إن المكو أن يجمع الرجل يديه ثم يدخلهما في فيه ثم يصيح، وأما التصدية فإنها التصفيق؛ يقال منه صدى يصدي تصدية ؛ صفق، انظرمختار الصحاح١/ ٢٦٣، وقال أبو جعفر: « وقيل في التصدية إنها الصد عن بيت الله الحرام وذلك قول لا وجه له لأن التصدية مصدر من قول القائل صديت تصدية وأما الصد فلا يقال منه صديت إنما يقال منه صددت فإن شددت منها الدال على معنى تكرير الفعل قيل صددت تصدية إلا أن يكون صاحب هذا القول وجه التصدية إلى أنه من صددت ثم قلبت إحدى داليه ياء كما يقال تظنيت من ظننت « جامع البيان للطبري / ٩/ ٢٣٣.

نعوذ بالله من غضبه وكان الذي تولى النفقة التي ذكرها الله في هذه الآية فيما ذكر أبا سفيان يعني النفر الذين مشوا إلى أبي سفيان وإلى من كان له مال من قريش في تلك التجارة فسألوهم أن يعينوهم على حرب رسول الله ففعلوا»[١]، كل ذلك قد فعل الله بهم وسيحشرهم إلى جهنم ليفرق بينهم؛ وبين المؤمنين بالله وبرسوله بين الخبيث والطيب، كما سماهم جل ثناؤه، والتمييز بينهم: بأن أسكن أهل الإيمان به وبرسوله جناته وأعلا منازلهم، وأنزل أهل الكفر ناره، فجعلهم فيها بعضهم فوق بعض ركاما، [٢]، ثم يقول سبحانه مخاطبا نبيه محمدًا ﷺ ، قل يا محمد للذين كفروا من مشركي قومك إن ينتهوا عما هم عليه من كفرهم بالله ورسوله وقتالك وقتال المؤمنين فينيبوا إلى الإيمان، يغفر الله لهم ما قد خلا ومضى من ذنوبهم، وإن يعد هؤلاء المشركون لقتالك بعد الوقعة التي أوقعتها بهم يوم بدر فقد مضت سنتي في الأولين منهم ببدر، ومن غيرهم من القرون الخالية ؛ فأحل بهؤلاء إن عادوا لحربك وقتالك مثل الذي أحللت بهم، فقاتلوهم حتى لا يكون شرك ولا يعبد إلا الله وحده، وإن أدبر هؤلاء المشركون عما دعوتموهم إليه أيها المؤمنون من الإيمان بالله ورسوله وأصروا على كفرهم وقتالكم فقاتلوهم وأيقنوا أن الله معينكم عليهم وناصركم، فنعم المعين لكم ولأوليائه ونعم النصير لكم عليهم [٣] .

---

(١) جامع البيان للطبري / ٩/ ٢٣٤.

(٢) والركام: أن يجمع بعضهم إلى بعض حتى يكثروا، لسان العرب١٢/ ٢٥١.

(٣) جامع البيان للطبري / ٩/ ٢٣٥ وقال الفخر الرازي: « اختلف الفقهاء في توبة الزنديق هل تقبل أم لا؟ والصحيح أنها مقبولة لوجوه الأول هذه الآية فإن قوله (قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ) يتناول جميع أنواع الكفر، فإن قيل الزنديق لا يعلم من حاله أنه هل انتهى من زندقته أم لا قلنا أحكام الشرع مبنية على الظواهر كما قال عليه السلام (نحن نحكم بالظاهر) فلما رجع وجب قبول قوله فيه الثاني لا شك أنه مكلف بالرجوع ولا طريق له إليه إلا بهذه التوبة فلو لم تقبل لزم تكليف ما لا يطاق « التفسير الكبير للفخر الرازي ١٥/ ١٣٠.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* مكر الأعداء بهذا الدين لا ينتهي، والله يبطل مكرهم ويحبط مكائدهم، وينصر دينه.
* شأن الكفار الاستهزاء والسخرية بهذا الدين ورسالته كما سخروا بنبيه من قبل.
* من عدم توفيق الله الكافرين للخير أن دعوا على أنفسهم بدل أن يدعوا لها، فحاق بهم ما أرادوا ونجى الله نبيه والمؤمنين.
* من عظيم شأن النبي ﷺ أن الله تعالى رفع العذاب عن الأمة بوجوده بينهم.
* من عظيم شأن الاستغفار أن الله لا ينزل العذاب بقوم يستغفرون.
* الكفرة لا يألون جهدا في الصد عن سبيل الله سواء كان ذلك بأفعالهم البدنية أم المالية، فهم يجندون ما لديهم من قدرات لذلك. لكن كيدهم عائد عليهم بالحسرة في الدنيا والجحيم في الآخرة.
* غاية قتال الأعداء رجوعهم إلى الله تعالى، فإن انتهوا غُفِر لهم، وكف المسلمون عن قتالهم وغاية القتال أن لا تقع الفتنة بين المسلمين بميل الناس عن دينهم، بل ليكون الدين كله لله رب العالمين.
* لم يكن الإسلام في وقت من الأوقات دينا عدوانيا؛ كما يظن بعض الملاحدة، بل إن الجهاد إنما فرض على الأمة لغاية محددة فإن تحققت عاش الناس في سلام وأمن دائمين.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة.

هذه الآيات تتحدث عن عداوة المشركين للنبي ﷺ وأصحابه، وما وجد القتال ولا شرع الجهاد إلا لكف أذى المشركين، فالمناسبة بين المقطع والمحور هي أن الآيات تعالج هدفا رئيسا من أهداف السورة وهي استقامة الناس على منهج الله، حتى لا تقع الفتنة في المجتمع ويكون الأمر لله وحده، فالمقطع يخدم الهدف ويجلي المحور بوضوح، ويحدد معالم قتال الأعداء وما كانوا عليه من العداوة المورثة للفتنة بين صفوف المسلمين.

المقطع السادس: كيفية توزيع غنائم بدر مع التذكير بما دار في أرض المعركة

الآية: ٤١- ٤٤

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾

مناسبة المقطع لما قبله:

الحديث في المقطع عن غنائم غزوة بدر، وما جرى في أرض المعركة من أحداث كان لها كبير الأثر في النصر الذي جناه المسلمون، والمقطع السابق كان ختامه في الحديث عن ولاية الله تعالى للمؤمنين، ومن ولايته لهم سبحانه تهيأته النصر لهم، وتمليكهم أسبابه، وهذا ما حصل في أرض المعركة، كما أن المقطع السابق جاء فيه الحديث عن عداوات المشركين للمسلمين، وفي هذا المقطع جاء فيه بيان نصرة الله تعالى للمؤمنين وخذلانه جل في علاه للكافرين.

التفسير الإجمالي للمقطع:

يقول تعالى ذكره واعلموا أيها المؤمنون أنما غنمتم من مال في المعركة، فأن لله خمس ما غنمتم؛[1]، وأما قوله من شيء فإنه مراد به كل ما وقع عليه اسم شيء مما خوله الله المؤمنين

(١) واختلف أهل العلم في معنى الغنيمة والفيء؛ فقال بعضهم: فيهما معنيان كل واحد منهما غير صاحبه إذا ظهر المسلمون على المشركين وعلى أرضهم وأخذوهم عنوة فما أخذوا من مال ظهروا عليه فهو =

من أموال من غلبوا على ماله من المشركين مما وقع فيه القسْم حتى الخيط والمخيط، عن ابن عباس ﷺ قال كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية فغنموا خمَّسَ الغنيمةَ فضرب ذلك الخمس في خمسة، ثم قرأ: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾، قال وقوله فأن لله خمسه مفتاح كلام، لله ما في السماوات وما في الأرض فجعل سهم الله وسهم الرسول واحدا، وكانت الغنيمة تقسم على خمسة أخماس أربعة بين من قاتل عليها، وخُمس واحد يقسم على أربعة؛ لله وللرسول ولذي القربى فما كان لله وللرسول فهو لقرابة النبي ولم يأخذ النبي من الخمس شيئا فلما قبض الله رسوله رد أبو بكر ﷺ نصيب القرابة في المسلمين، فجعل يحمل به في سبيل الله لأن رسول الله قال: «لا نورث ما تركنا صدقة» [1]، قال أبو جعفر: « والصواب من القول في ذلك عندنا أن سهم رسول الله مردود في الخمس والخمس مقسوم على أربعة أسهم على ما روي عن ابن عباس؛ للقرابة سهم ولليتامى سهم وللمساكين سهم ولابن السبيل سهم والأربعة أخماس للمجاهدين، وأما اليتامى فهم أطفال المسلمين الذين قد هلك آباؤهم، والمساكين هم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين، وابن السبيل المجتاز سفرا قد انقطع به. [2]

وبعد ذكر الله تعالى قسمة الغنائم بين المسلمين، وهي ما غنمه المسلمون يوم بدر جاء تذكير الله تعالى لنبيه بما حصل ذلك اليوم وهم بالعدوة القصوى، فيقول: أيقنوا أيها المؤمنون واعلموا أن قسم الغنيمة على ما بيَّنه لكم ربكم إن كنتم آمنتم بالله وما أنزل على عبده يوم بدر إذ فرق بين الحق والباطل من نصركم؛ إذ أنتم حينئذ بالعدوة الدنيا أي بشفير الوادي الأدنى إلى المدينة وهم أي عدوكم من المشركين بالعدوة القصوى أي بشفير الوادي الأقصى إلى مكة، والركب أسفل منكم أي

= غنيمة، وأما الأرض فهي في سوادنا هذا فيء، وقال آخرون: الغنيمة ما أخذ عنوة والفيء ما كان عن صلح، وقال آخرون الغنيمة والفيء بمعنى واحد، نظر جامع البيان للطبري ١٠/ ١-٣ وقال القرطبي: « الغنيمة في اللغة ما يناله الرجل أو الجماعة بسعي « تفسير القرطبي ٨/ ١١.

(١) أخرجه البخاري في: ٦٤ كتاب المغازي: ١٤ باب حديث بني النضير انظر كتاب اللؤلؤ والمرجان ١/ ٥٥٠.

(٢) انظر جامع البيان للطبري ١٠/ ٣-٨.

والعير فيه أبو سفيان وأصحابه في موضع أسفل منكم إلى ساحل البحر، ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، يعني تعالى ذكره ولو كان اجتماعكم في الموضع الذي اجتمعتم فيه أنتم أيها المؤمنون وعدوكم من المشركين عن ميعاد منكم ومنهم لاختلفتم في الميعاد؛ لكثرة عدد عدوكم وقلة عددكم ولكن الله جمعكم على غير ميعاد بينكم وبينهم؛ ليقضي الله أمرا كان مفعولا وذلك القضاء من الله كان نصره أولياءه من المؤمنين وهلاك أعدائه وأعدائهم ببدر بالقتل والأسر، ليموت من مات من خلقه عن حجة لله قد أثبتت له وقطعت عذره، وعبرة قد عاينها ورآها، وليعيش من عاش منهم عن حجة لله قد أثبتت له وظهرت لعينه فعَلِمَها؛ جمعنا بينكم وبين عدوكم هنالك، وإن الله أيها المؤمنون لسميع لقولكم وقول غيركم حين يُرِيَ الله نبيه في منامه ويريكم عدوكم في أعينكم قليلا وهم كثير؛ ويراكم عدوكم في أعينهم قليلا، عليم بما تضمره نفوسكم وتنطوي عليه قلوبكم حينئذ، وفي كل حال يقول جل ثناؤه لهم ولعباده واتقوا ربكم أيها الناس في منطقكم أن تنطقوا بغير حق وفي قلوبكم أن تعتقدوا فيها غير الرشد فإن الله لا يخفى عليه خافية من ظاهر أو باطن وإن الله يا محمد سميع لما يقول أصحابك عليم بما يضمرونه إذ يريك الله عدوك وعدوهم في منامك قليلا ؛ يريكهم في نومك قليلا فتخبرهم بذلك حتى قويت قلوبهم واجترءوا على حرب عدوهم، ولو أراك ربك عدوك وعدوهم كثيرا لفشل أصحابك فجبنوا وخافوا ولم يقدروا على حرب القوم ولتنازعوا في ذلك، ولكن الله سلمهم من ذلك بما أراك في منامك من الرؤيا إنه عليم بما تخفيه الصدور، لا يخفى عليه شيء مما تضمره القلوب، وعن ابن عباس قوله ولكن الله سلم يقول سلم الله لهم أمرهم حتى أظهرهم على عدوهم، وقوله ليقضي الله أمرا كان مفعولا أي: قللتكم أيها المؤمنون في أعين المشركين، وأريتكموهم في أعينكم قليلا حتى يقضي الله بينكم ما قضي من قتال بعضكم بعضا، وإظهاركم أيها المؤمنون على أعدائكم من المشركين والظفر بهم لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وذلك أمر كان الله فاعله وبالغا فيه أمره وإلى الله ترجع الأمور أي: مصير الأمور كلها إليه في الآخرة فيجازي كلا بما يستحق.[١]

---

(١) جامع البيان للطبري / ١٠/ ١٣.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* الغنائم لله يجعلها حيث شاء سبحانه، بالكيفية التي يريد، فليس لأحد شأن في ذلك.
* التسليم المطلق لله تعالى في حكمه سبيل الإيمان الصادق.
* يوم بدر كان يوم فرقان وعز ومنعة للمسلمين؛ ما زال الناس بعز منذ ذلك النصر.
* من أسباب النصر تدبير الله تعالى للمؤمنين، بشتى أنواع التدبير بها في ذلك الرؤية البصرية والمنامية. وهو تأكيد لمبدأ أن النصر من عند الله وحده.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة.

محور السورة ومقصدها الجهاد وقواعده، والعبودية لله ومعانيها، والآيات في هذا المقطع تتحدث عن غنائم المعركة، وعما حصل للمسلمين من النصر والتمكين في بدر؛ والذي كان بسببه النصر والظفر، وإرجاع الأمر في ذلك كله لله رب العالمين.

المقطع السابع: من شروط النصر وأسباب الهزيمة

من الآية ٤٥ ـ ٤٩

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٤٩﴾ ﴾

مناسبة المقطع لما قبله:

بعد الحديث عن مواجهة المؤمنين للمشركين في بدر، والحديث عن تلك المقابلة، جاءت

الآيات تبين شروط النصر وأهمها الثبات في المعركة، وأسباب الهزيمة وأهمها الخذلان والفرار أمام العدو، وأن الشيطان للإنسان بالمرصاد فليحذره المجاهدون، وتحدثت الآيات بعد ذلك عما يدور بين أعداء المسلمين من مكر وسخرية، وختمت بضرورة أن يتوكل المسلم على الله تعالى؛ فهو العلاج لكل ما يحاك ضده.

التفسير الإجمالي للمقطع:

يقول جل ثناؤه لهم: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله إذا لقيتم جماعة من أهل الكفر بالله في أرض المعركة فاثبتوا لقتالهم، وادعوا الله بالنصر عليهم والظفر بهم، وأشعروا قلوبكم وألسنتكم ذكره لعلكم أي كيما تنجحوا فتظفروا بعدوكم، ويرزقكم الله النصر والظفر عليهم وأطيعوا أيها المؤمنون ربكم ورسوله فيما أمركم به ونهاكم عنه، ولا تخالفوا عن أمر الله ورسوله في شيء، ولا تختلفوا فتفرقوا وتختلف قلوبكم، فتضعفوا وتجبنوا، وتذهب ريحكم، أي وتذهب قوتكم وبأسكم ويدخلكم الوهن والخلل، واصبروا مع نبي الله ﷺ عند لقاء عدوكم، ولا تنهزموا عنه وتتركوه، إن الله معكم إن صبرتم، قوله ﴿ وَلَا تَكُونُواْ ﴾ توجيه من الله تعالى أن تكون أعمالهم خالصة لله وحده، لا رياء الناس كما فعل القوم من المشركين في مسيرهم إلى بدر، [1] قوله: ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: ويمنعون الناس من دين الله والدخول في الإسلام بقتالهم إياهم وتعذيبهم من قدروا عليه من أهل الإيمان بالله، والله عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه منه شيء، وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: لما خرجت قريش من مكة إلى بدر خرجوا بالقيان والدفوف فأنزل الله هذه الآية[2]، وقوله: ﴿ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ

(١) روى ابن إسحاق عن ابن عباس قال: « لما رأى أبو سفيان أنه أحرز عيره أرسل إلى قريش أنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا، فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدرا - وكان بدر موسما من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام -، فنقيم عليه ثلاثا، وننحر الجزر ونطعم الطعام ونسقي الخمور وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدا فامضوا » الروض الأنف ٣/ ٦١ .

(٢) انظر لباب النقول ١/ ١١٢.

أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾، أي واذكر حين زين لهم الشيطان أعمالهم، وقال للمشركين: ﴿ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ ﴾ أي وقال لهم لا غالب لكم اليوم من بني آدم فاطمئنوا وأبشروا وإني جار لكم من كنانة أن تأتيكم من ورائكم فتغيركم، أجيركم وأمنعكم منهم، ولا تخافوهم واجعلوا جدكم وبأسكم على محمد وأصحابه، فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ﷺ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين فولوا مدبرين، وأقبل جبريل إلى إبليس فلما رآه وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده فولى مدبرا هو وشيعته فقال الرجل: تزعم أنك لنا جار؟! قال: ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾، وذلك حين رأى الملائكة،[١]. فلما تزاحفت جنود الله من المؤمنين وجنود الشيطان من المشركين ونظر بعضهم إلى بعض نكص على عقبيه أي رجع القهقرى على قفاه هاربا يقال منه نكص ينكُص وينكِص نكوصا، وقال للمشركين إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون يعني أنه يرى الملائكة الذين بعثهم الله مددا للمؤمنين، والمشركون لا يرونهم إني أخاف عقاب الله وكذب عدو الله - والله شديد العقاب، ﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾؛ يعني شك في الإسلام، غر هؤلاء دينهم؛ يقول غر هؤلاء الذين يقاتلون المشركين من أصحاب محمد ﷺ من أنفسهم دينهم وذلك الإسلام [٢]، وقال أبو حيان: « إنّ هؤلاء الموصوفين بالنفاق ومرض القلوب إنما هم من أهل عسكر الكفار، لما أشرفوا على المسلمين ورأوا قلّة عددهم قالوا مشيرين إلى المسلمين: غرّ هؤلاء دينهم أي اغترّوا فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به، وكنّى بالقلوب عن العقائد، والمرض أعمّ من النفاق إذ يطلق مرض القلب على الكفر» [٣] ومن يتوكل على الله فإن الله حافظه وناصره لأنه عزيز لا يغلبه شيء ولا يقهره أحد ومن يتوكل عليه يكفه وهذا أمر من الله جل ثناؤه للمؤمنين به من أصحاب رسول الله وغيرهم أن يفوضوا أمرهم إليه ويسلموا

---

(١) انظر جامع البيان للطبري بتصرف ١٠ / ٢٠.

(٢) السابق١٠/ ٢١.

(٣) البحر المحيط ٤/ ٥٠١.

لقضائه، لأنه عزيز غير مغلوب، حكيم فيما يدبر من أمر خلقه[١].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* وجوب الثبات في أرض المعركة وديمومة ذكر الله تعالى من أهم أسباب الثبات.
* عمل المؤمن ينبغي أن يكون خالصا لله تعالى لا رياء فيه ولا سمعة، وعمل الكفرة والمنافقين يفسده الغرور والرياء والبطر.
* كيد الشيطان ضعيف لا يقوى على مقابلة أمر الله تعالى.
* المنافقون من أسباب هدم بنيان المسلم بأراجيفهم وخداعهم، وما ينجيه منهم هو توكله على الله تعالى.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة.

في الآيات حث على الثبات في أرض المعركة، وذكر الله تعالى في ذلك الموقف، كما أن فيها التحذير من كيد الشيطان ومكره وتزيينه، وفيها بيان خداع المنافقين وأراجيفهم، وكل ذلك من الأمور التي ينبغي للمجاهد مراعاتها ليتم النصر والظفر، وعلاقة ذلك بالجهاد والالتجاء إلى الله تعالى _ محور السورة _ واضح بين.

---

(١) ومن اللطائف في قوله تعالى: (إذ يقول المنافقون) الآية، ما روى الطبراني في الأوسط بسند ضعيف عن أبي هريرة ﷺ قال: لما أنزل الله على نبيه بمكة سيهزم الجمع ويولون الدبر قال عمر بن الخطاب ﷺ يا رسول الله أي جمع؟ وذلك قبل بدر، فلما كان يوم بدر وانهزمت قريش نظرت إلى رسول الله ﷺ في آثارهم مصلتا بالسيف يقول (سيهزم الجمع ويولون الدبر) فكانت ليوم بدر فأنزل الله فيهم: (حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب) الآية، وأنزل (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا) ورماهم رسول الله ﷺ فوسعتهم الرمية وملأت أعينهم وأفواههم حتى إن الرجل ليقتل وهو يقذي عينيه وفاه فأنزل الله (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى)، وأنزل في ابليس (فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه) الآية وقال عتبة بن ربيعة وناس معه من المشركين يوم بدر: غر هؤلاء دينهم فأنزل الله (إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم)انظر لباب النقول ١/ ١١٣.

المقطع الثامن: نماذج من تعذيب الله للكفرة

من الآية ٥٠ ـ ٥٤

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾الأنفال: ٥٠ - ٥٤

مناسبة المقطع لما قبله:

في هذا المقطع بيان لحال الكفار حال الاحتضار، وعن مناسبتها لما قبلها قال البقاعي: «ولما ذكر ما سَرّهم من حال أعدائهم المجاهرين والمساترين في الدنيا مرصعاً ذلك بجواهر الحكم وبدائع الكلم التي بملازمتها تكون السعادة وبالإخلال بها تحل الشقاوة، أتبعه ما يسرُّهم من حال أعدائهم عند الموت وبعده»[(١)].

التفسير الإجمالي للمقطع:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ولو تعاين يا محمد حين تقبض الملائكة أرواح الكفار فتنزعها من أجسادهم؛ تضرب الوجوه منهم والأستاه، ويقولون لهم ذوقوا عذاب النار التي تحرقكم يوم ورودكم جهنم بما قدمت أيديكم أي بما كسبت أيديكم من الآثام والأوزار واجترحتم من معاصي الله أيام حياتكم فذوقوا اليوم العذاب، وفي معادكم عذاب النار، والله ليس بظلام للعبيد؛ لا يعاقب أحدا من خلقه إلا بجرم اجترمه ولا يعذبه إلا بمعصية أتاها، لأن الظلم لا يجوز أن يكون منه، ثم يقول تعالى ذكره فِعلُ هؤلاء المشركين من قريش الذين قتلوا ببدر

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٣/ ٢٢٨.

كعادة قوم فرعون وصنيعهم وفعلهم، والدأب هو الشأن والعادة، وقوله فأخذهم الله بذنوبهم أي فعاقبهم الله بتكذيبهم حججه ورسله ومعصيتهم ربهم كما عاقب الذين من قبلهم، إن الله قوي لا يغلبه غالب، شديد عقابه لمن كفر، ثم بين الله تعالى أن أخذه لهؤلاء الذين كفروا من مشركي قريش ببدر بسبب ذنوبهم؛ وأنهم غيروا ما أنعم الله عليهم بإخراجهم رسوله من بينهم وتكذيبهم له وحربهم إياه فغير الله نعمته بإهلاكهم إياهم كفعله ذلك في الماضين قبلهم ممن طغى وعصى، والله سميع عليم؛ يسمع كلام كل ناطق منهم، عليم بما تضمره صدورهم، وكل هؤلاء الأمم التي أهلكناها كانوا فاعلين ما لم يكن لهم فعله من تكذيبهم رسل الله والجحود بآياته فكذلك أهلكنا هؤلاء الذين أهلكناهم ببدر ؛ بالقتل بالسيف وأذللنا بعضهم بالأسر والسبي (١).

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* عذاب الله تعالى للكفار في الدنيا وعند النزع وفي الآخرة لقاء كفرهم وعنادهم.
* العذاب الذي يلقاه أعداء الله تعالى بسبب كفرهم ليس ظلما فالله لا يظلم أحدا.
* ضرب المثل بمن سبق ممن تشبه حالهم حال هؤلاء فيه تقريع لهم وتوبيخ لعلهم يرجعون.
* أن نعمة الله على عباده لا تتحول عنهم إلا بالكفران لها، والبعد عن منهج الله تعالى.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة.

لما كان الحديث في السورة يدور حول الجهاد وعلاقة المسلم بربه، جاءت هذه الآيات تبين مصير أولئك الكافرين المعرضين عن أمر الله تعالى، وتبين سنن الله تعالى في الكون، وأن من حاد عن منهج الله تعالى استحق العذاب والتشريد والوبال.

---

(١) انظر جامع البيان للطبري ١٠/ من٢٢-٢٥.

المقطع التاسع: مقدمات في قواعد السلم والحرب والمعاهدات الدولية[1]

من الآية ٥٥ ـ ٦٣

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾

مناسبة المقطع لما قبله:

لما أخبر سبحانه في المقطع السابق بهلاك الكافرين، وأخبر بالوصف الجامع لهم بالهلاك بقوله: ﴿وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾، أي لأنفسهم وغيرهم؛ علل اتصافهم بالظلم أو استأنف بياناً له بقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾؛ أي ظلموا لأنهم كفروا بآيات ربهم الذي تفرد بالإحسان إليهم، وشر الدواب ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي في حكم الحكم العدل الذي له الأمر كله وفي علمه ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي منهم ومن غيرهم، أي حكم عليهم بلزوم الكفر لما ركب فيهم من فساد الأمزجة لعدم الملاءمة للخير، فكانوا بذلك قد نزلوا عن رتبة الإنسان إلى رتبة مطلق الحيوان، ثم إلى دركة الحشرات والديدان بل العجلان، لأن شر الناس الكفار، وشر الكفار المصرون منهم، وشر المصرين الناكثون للعهود،[2] كما أن المقطع فيه الحديث عن الإعداد وهو ما لا ينبغي على المسلمين تركه حتى بعد الانتهاء من المعركة.

---

(١) عنون لهذه الآيات بهذا العنوان سيد قطب في كتاب الظلال، فرأيته يتناسب مع المضمون.

(٢) انظر نظم الدرر٣/ ٢٣١.

التفسير الإجمالي للمقطع:

يقول تعالى ذكره إن شر ما دب على الأرض عند الله الذين كفروا بربهم فجحدوا وحدانيته وعبدوا غيره فهم لا يصدقون رسل الله، ولا يقرون بوحيه وتنزيله، إن شر الدواب عند الله الذين أخذت عهودهم ومواثيقهم أن لا يحاربوك ولا يظاهروا عليك محاربا لك ثم ينقضون عهودهم ومواثيقهم؛ كلما عاهدوا دافعوك وحاربوك وظاهروا عليك، وهم لا يتقون الله ولا يخافون في فعلهم ذلك أن يوقع بهم وقعة تجتاحهم وتهلكهم، فإما تلقين يا محمد في الحرب هؤلاء الذين عاهدتهم فنقضوا عهدك مرة بعد مرة من قريظة فتأسرهم، فشرّد بهم من خلفهم أي: فافعل بهم فعلا يكون مشرّدا من خلفهم من نظرائهم ممن بينك وبينه عهد وعقد، والتشريد التطريد والتبديد والتفريق، قال في اللسان: « شرد البعير والدابة يشرد شردا وشرادا وشرودا نفر فهو شارد والجمع شرد وشرود في المذكر والمؤنث والجمع شرد، وشرد الرجل شرودا ذهب مطرودا، وأشرده وشرده طرده وشرد به سمع بعيوبه، ورجل شريد طريد وقوله عز وجل ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي فرق وبدد جمعهم »[1] وإنما أمر بذلك نبي الله ﷺ أن يفعل ليكون إخافة لمن وراءهم، ممن كان بين رسول الله ﷺ وبينه عهد حتى لا يجترئوا على مثل الذي اجترأ عليه هؤلاء الذين وصف الله صفتهم في هذه الآية من نقض العهد وعن ابن عباس: قوله فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم يعني نكل بهم من بعدهم لعلهم يذكرون كي يتعظوا بما فعلت بهؤلاء الذين وصفت صفتهم فيحذروا قوله: وإما تخافن يا محمد من عدو لك بينك وبينه عهد وعقد أن ينكث عهده ويغدر بك؛ وذلك هو الخيانة والغدر فناجزهم بالحرب، وأعلمهم قبل حربك إياهم أنك قد فسخت العهد بينك وبينهم بما كان منهم، حتى تصير أنت وهم على سواء في العلم بأنك لهم محارب، فيأخذوا للحرب آلتها وتبرأ من الغدر إن الله لا يحب الخائنين أي الغادرين بمن كان منه في أمان وعهد، ومعنى قوله على سواء أي حتى يستوي علمك وعلمهم بأن كل فريق منكم حرب لصاحبه لا سلم، قوله:

(١) لسان العرب ج٣/ ص٢٣٦-٢٣٧.

ولا يحسبن الذين، اختلفت القراء في قراءة ذلك ؛ « فقرأ ابن عامر وحمزة بالغيب، والباقون بالخطاب، والذين مفعول أول على قراء الخطاب، وسبقوا ثان، والمخاطب النبي، والفاعل على قراءة الغيب ضمير يعود على الرسول، أو يفسره السياق، أي قتيل المؤمنين، وإن جعل الذين فاعلا فالمفعول الأول محذوف أي أنفسهم والثاني سبقوا، وفتح سين ﴿ يَحْسَبَنَّ ﴾ ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو حعفر، والباقون بالكسر واختلف في ﴿ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾ فابن عامر بفتح الهمزة على إسقاط لام العلة والباقون بكسرها على الاستئناف وقرأ ﴿ لِلسَّلْمِ ﴾ بكسر السين شعبة وهمز النبي نافع ورقق الأزرق راءِ عشرون كما نص عليه الداني والشاطبي وغيرهم، وفخمه عنه مكي في جماعة» [1]، ولا تحسبن يا محمد الذين كفروا سبقونا ففاتونا بأنفسهم، ثم ابتدئ الخبر عن قدرة الله عليهم فقيل، إن هؤلاء الكفرة لا يعجزون ربهم، إذا طلبهم وأراد تعذيبهم وإهلاكهم بأنفسهم فيفوتوه بها، ثم يقول سبحانه: وأعدوا لهؤلاء الذين كفروا بربهم الذين بينكم وبينهم عهد إذا خفتم خيانتهم وغدرهم أيها المؤمنون بالله ورسوله ما أطقتم أن تعدوه لهم من الآلات التي تكون قوة لكم عليهم؛ من السلاح والخيل، تخيفون بإعدادكم ذلك عدو الله وعدوكم من المشركين، وعن ابن عباس قال: تخزون به عدو الله وعدوكم، يقال منه أرهبت العدو ورهبته فأنا أرهبه إرهابا وترهيبا، وهو الرهْب والرَهَب، والقوة لفظ عام يراد به كل أنواع القوة المعنوية والمادية، يدل على ذلك التنكير ودخول من عليها، قال ابن جرير: «ولا وجه لأن يقال عني بالقوة معنى دون معنى من معاني القوة ؛ فإن قال قائل فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بين أن ذلك مراد به الخصوص بقوله ألا إن القوة الرمي قيل له إن الخبر وإن كان قد جاء بذلك فليس في الخير ما يدل على أنه مراد بها الرمي خاصة دون سائر معاني القوة عليهم فإن الرمي أحد معاني القوة لأنه إنما قيل في الخبر ألا إن القوة الرمي ولم يقل دون غيرها ومن القوة أيضا السيف والرمح والحربة وكل ما كان معونة على قتال المشركين كمعونة الرمي أو أبلغ من الرمي فيهم وفي النكاية منهم هذا مع وَهْي سند الخبر بذلك عن رسول الله

(١) إتحاف فضلاء البشر ١/ ٢٩٩.

ﷺ[١]، قوله تعالى ﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ أي لا تعرفونهم، قيل إنهم بنو قريظة، وقال آخرون: من فارس، وقال غيرهم: هم كل عدو للمسلمين غير الذي أمر النبي ﷺ أن يشرد بهم من خلفهم وهم المنافقون، والأقرب للصواب: أن المراد؛ عدو الله وأعداءكم من بني آدم الذين قد علمتم عداوتهم لكم لكفرهم بالله ورسوله، وترهبون بذلك جنسا آخر من غير بني آدم لا تعلمون أماكنهم وأحوالهم الله يعلمهم دونكم، لأن بني آدم لا يرونهم وقيل إن صهيل الخيل يرهب الجن وإن الجن لا تقرب دارا فيها فرس، قوله تعالى ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ أي وما أنفقتم أيها المؤمنون من نفقة في الإعداد يخلفه الله عليكم في الدنيا ويدخر لكم أجوركم على ذلك عنده حتى يوفيكموها يوم القيامة وأنتم لا تظلمون، قوله ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾، الجنوح لغة الميل[٢]، أي وإن مالوا إلى مسالمتك ومتاركتك الحرب إما بالدخول في الإسلام وإما بإعطاء الجزية ونحو ذلك من أسباب السلم والصلح فمِل إليها، وابذل لهم ما مالوا إليه من ذلك وسألوك، وقوله ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ أي فوض إلى الله يا محمد أمرك واستكفه واثقا به أنه يكفيك، إن الله الذي تتوكل عليه سميع لما تقول أنت ومن تسالمه، العليم بما يضمره كل فريق منكم للفريق الآخر من الوفاء بما عاقده عليه، ومن المضمر، يقول تعالى ذكره وإن يرد يا محمد هؤلاء الذين أمرتك بأن تنبذ إليهم على سواء إن خفت منهم خيانة وبمسالمتهم إن جنحوا للسلم خداعك والمكر بك فإن حسبك الله يقول فإن الله كافيكهم وكافيك خداعهم إياك لأنه متكفل بإظهار دينك على الأديان ومتضمن أن يجعل كلمته العليا وكلمة أعدائه السفلى هو الذي أيدك بنصره، الله الذي قواك بنصره إياك على أعدائه وبالمؤمنين وهم الأنصار، وقوله سبحانه: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي وجمع بين قلوب المؤمنين من الأوس والخزرج بعد التفرق والتشتت على دينه الحق فصيرهم به جميعا،

---

(١) جامع البيان للطبري١٠/ ٣٤، والحديث صحيح أخرجه مسلم برقم ١٩١٧ في كتاب الإمارة باب فضل الرمي ٣/ ١٥٢٢.

(٢) مختار الصحاح ١/ ٤٨.

بعد أن كانوا أشتاتا وإخوانا بعد أن كانوا أعداء، لو أنفقت يا محمد ما في الأرض جميعا من مال وعرض ما جمعت أنت بين قلوبهم، ولكن الله جمعها على الهدى فائتلفت واجتمعت والله الذي ألف بين قلوب الأنصارعزيز لا يقهره شيء ولا يرد قضاءه راد ولكنه ينفذ في خلقه حكمه يقول فعليه فتوكل وبه فثق حكيم في تدبير خلقه. [١]

وسبب نزول قوله تعالى ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية، ما أخرجه أبو الشيخ عن سعيد بن جبير قال نزلت في ستة رهط من اليهود فيهم ابن التابوت وسبب نزول قوله تعالى ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾ الآية ما رواه أبو الشيخ عن ابن شهاب قال دخل جبريل على رسول الله ﷺ فقال قد وضعت السلاح وما زلت في طلب القوم فاخرج فإن الله قد أذن لك في قريظة وأنزل فيهم ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾الآية[٢].

هل في الآيات منسوخ؟

اختلف المفسرون فيمن عني بقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ على قولين:

الأول: أنهم المشركون وأنها نسخت بآية السيف، وبعضهم يقول: بقوله ﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وهذا مروي عن ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة في آخرين.

والثاني: أنهم أهل الكتاب، وقال مجاهد: بنو قريظة، فعلى هذا القول إن قلنا إنها نزلت في ترك حرب أهل الكتاب إذا بذلوا الجزية وقاموا بشرط الذمة فهي محكمة وإن قيل نزلت في موادعتهم على غير جزية توجه النسخ لها بآية الجزية وهي قوله تعالى: ﴿قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآية[٣] .

---

(١) جامع البيان للطبري / ١٠/ ٣٦.

(٢) انظر لباب النقول ١/ ١١٣.

(٣) نواسخ القرآن١/ ١٦٧ .

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* الكفار أحط منزلة من البهائم، بإعراضهم عن الله وتنكبهم شريعة الله.
* إذا خاف المسلم من عدوه خيانة فعليه أن ينبذ إليه العهد، فالله لا يحب الخائنين.
* الكفرة مهما أوتوا من قوة فلن يعجزوا الله فهو صاحب القُدَرِ كلها.
* الأمر بالإعداد للجهاد بكل ما أوتي المسلم من وسائل مادية ومعنوية.
* إذا مال العدو للمسالمة مع ظهور المسلمين عليهم وقوتهم في وجه الكافرين فلا حرج أن يجنح المسلمون لها.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة.

الآيات فيها الحديث عن قواعد وضوابط ينبغي على المسلم الالتزام بها في المعركة، وفيها الحث على الإعداد والاستعداد، وكل ذلك من القواعد الأساسية للجهاد ولقاء العدو، وفي ذلك ما فيه من الربط بين المقطع والمحور.

المقطع العاشر: وحدة الصف والتخفيف في القتال

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ الأنفال: ٦٤ - ٦٦

مناسبة المقطع لما قبله:

المناسبة بين هذا المقطع والذي قبله تتجلى في جانبين:

الأول: أن في المقطع السابق تصريحا واضحا بكفاية الله لنبيه وتأييده إياه، وفي هذا المقطع

بيان لكفاية الله لنبيه والمؤمنين.

الثاني: في المقطع السابق بيان قهر الله للأعداء وأنهم لا يعجزون، وفي هذا المقطع بيان قوة المؤمنين وعزيمتهم بقهر الأعداء لو كانوا ضعف عدد المسلمين.

التفسير الإجمالي للمقطع:

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ يا أيها النبي حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين الله أي يكفيك الله ويكفي من اتبعك من المؤمنين، قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِ ﴾، أي حث متبعيك ومصدقيك على قتال من أدبر وتولى عن الحق من المشركين؛ إن يكن منكم عشرون رجلا صابرون عند لقاء العدو يحتسبون أنفسهم ويثبتون لعدوهم يغلبوا مئتين من عدوهم ويقهروهم، وإن يكن منكم مئة عند ذلك يغلبوا منهم ألفا بأنهم قوم لا يفقهون، أي: من أجل أن المشركين قوم يقاتلون على غير رجاء ثواب ولا لطلب أجر ولا احتساب لأنهم لم يفقهوا أن الله موجب لمن قاتل احتسابا في المعاد ما وعد المجاهدين في سبيله، ثم خفف تعالى ذكره عن المؤمنين إذ علم ضعفهم فقال لهم: ﴿ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفًا ﴾؛ يعني أن في الواحد منهم عند لقاء العشرة من عدوهم ضعفا، فإن يكن منكم مئة صابرة عند لقائهم للثبات لهم يغلبوا مئتين منهم وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين منهم بإذن الله يعني بتخلية الله إياهم لغلبتهم ومعونته إياهم والله مع الصابرين لعدوهم وعدو الله احتسابا في صبره وطلبا لجزيل الثواب من ربه بالعون منه له والنصر عليه، روى الطبري عن ابن عباس أنه قال: « لما نزلت هذه الآية ثقلت على المسلمين وأعظموا أن يقاتل عشرون مئتين ومئة ألفا فخفف الله عنهم فنسخها بالآية الأخرى، قال: وكانوا إذا كانوا على الشطر من عدوهم لم ينبغ لهم أن يفروا منهم وإن كانوا دون ذلك لم يجب عليهم أن يقاتلوا وجاز لهم أن يتحوزوا عنهم» [(١)]، قال أبو جعفر النحاس: «وهذا تخفيف لا نسخ لأن معنى النسخ رفع حكم المنسوخ ولم يرفع حكم الأول لأنه لم يقل فيه

(١) جامع البيان للطبري / ١٠/ ٤١.

لا يقاتل الرجل عشرة، بل إن قدر على ذلك فهو الاختيار له، ونظير هذا إفطار الصائم في السفر لا يقال إنه نسخ الصوم وإنما هو تخفيف ورخصة والصيام له أفضل» [١]

واختلفت القراء في قراءة قوله وعلم أن فيكم ضعفا « فعاصم وحمزة وخلف بفتح الضاد وافقهم الأعمش بخلفه والباقون بضمها وكلاهما مصدر وقيل الفتح في العقل والرأي والضم في البدن وقرأ أبو جعفر بفتح العين والمد والهمزة مفتوحة بلا تنوين جمعا على فعلاء كظريف وظرفاء والباقون بإسكان العين والتنوين بلا مط ولا همز» [٢]

سبب نزول قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ ﴾ الآية ما أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن سعيد بن جبير قال لما أسلم مع النبي ﷺ ثلاثة وثلاثون رجلا وست نسوة ثم أسلم عمر ﷺ نزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ ﴾ وسبب نزول قوله تعالى ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ ﴾ الآية أخرج إسحق بن راهوية في مسنده عن ابن عباس ﷺ قال لما افترض الله عليهم أن يقاتل الواحد عشرة ثقل ذلك عليهم وشق فوضع الله عنهم إلى أن يقاتل الواحد الرجلين فأنزل الله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِ ﴾ إلى آخر الآية [٣]

الهدايات المستنبطة من المقطع:

من هذا المقطع المبارك نستنبط ما يأتي:

* ثقة المؤمن بمعية الله ونصرته في جميع أحواله وخاصة في موقف الجهاد والقتال.
* المؤمنون منصورون إن هم لازموا أسباب النصر واعتصموا بالله تعالى وتوكلوا عليه

مناسبة المقطع لمحور السورة

الحديث في المقطع جاء عن تأييد الله تعالى لنبيه ونصرته له وهو ما يؤكده محور السورة في الحديث عن الجهاد وأسباب النصر.

---

(١) نواسخ القرآن ١/ ١٦٩.

(٢) إتحاف فضلاء البشر ١/ ٢٩٩.

(٣) انظر لباب النقول ١/ ١١٤.

المقطع الحادي عشر: العتاب في أسرى بدر

من الآية ٦٧ ـ ٧١

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾

مناسبة المقطع لما قبله:

قال البقاعي: « ولما تقدم الأمر بالإثخان.. ثم بإعداد القوة، ثم التحريض على القتال ثم إيجاب ثبات الواحد لعشرة ثم إنزال التخفيف إلى اثنين، كان ذلك مقتضيا للإمعان في الإثخان فحسن عتاب الأحباب في اختيار غير ما أفهمه هذا الخطاب، لكون ذلك أقعد في الامتنان عليهم بالعفو والغفران، بسبب أن أكثرهم مال إلى فداء الأسارى» [١].

أي ما كان لنبي أن يحتبس كافرا قدر عليه وصار في يده من عبدة الأوثان للفداء أو للمن، قال الراغب: «والأسر الشد بالقيد من قولهم أسرت القتب وسمي الأسير بذلك ثم قيل لكل مأخوذ ومقيد وإن لم يكن مشدودا ذلك وقيل في جمعه أسارى وأسارى وأسرى» [٢] وفي الآية أن قتل المشركين الذين أسرهم ﷺ يوم بدر ثم فادى بهم كان أولى بالصواب من أخذ الفدية منهم وإطلاقهم، وقوله: حتى يثخن في الأرض أي حتى يبالغ في قتل المشركين فيها ويقهرهم غلبة وقسرا، يقال منه أثخن فلان في هذا الأمر إذا بالغ فيه وحكي أثخنته معرفة بمعنى قتلته معرفة[٣].

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ٣/ ٢٤٣.

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ١/ ١٧.

(٣) جامع البيان ١٠/ ٤٢.

تريدون عرض الدنيا، أي: تريدون أيها المؤمنون بأسركم المشركين ما عرض من الدنيا من مال ومتاع، وذلك حين أخذتم الفداء من المشركين، والله يريد الآخرة أي: والله يريد لكم زينة الآخرة وما أعد للمؤمنين وأهل ولايته في جناته بقتلكم إياهم وإثخانكم في الأرض، والله عزير لا يقهر ولا يغلب، حكيم في تدبيره أمر خلقه، وأخرج الطبري بسنده عن عبد الله بن عباس قال: لما أسروا الأسارى يعني يوم بدر قال رسول الله ﷺ أين أبو بكر وعمر وعلي؟ قال: ما ترون في الأسارى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة، وأرى أن تأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار وعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله ﷺ ما ترى يا ابن الخطاب؟ فقال: لا والذي لا إله إلا هو ما أرى الذي رأى أبو بكر يا نبي الله، ولكن أرى أن تمكننا منهم؛ فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من العباس فيضرب عنقه، وتمكنني من فلان نسيب لعمر فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، قال عمر: فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر. ولم يهو ما قلت. فلما كان من الغد جئت إلى رسول الله ﷺ وهو يبكي فقال: أبكي للذي عرض لأصحابي من أخذهم الفداء، ولقد عرض علي عذابكم أدنى من هذه الشجرة، فأنزل الله: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾»[1] قال ابن الجوزي: « قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ روى عن ابن عباس ومجاهد في آخرين أن هذه الآية منسوخة بقوله ﴿ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ وليس للنسخ وجه لأن غزاة بدر كانت وفي المسلمين قلة، فلما كثروا واشتد سلطانهم نزلت الآية الأخرى ويبين هذا قوله: ﴿ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، قال أبو جعفر النحاس: « ليس ها هنا ناسخ ولا منسوخ لأنه قال عز وجل ﴿ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ فلما أثخن في الأرض كان له أسرى» [2]، ثم يقول سبحانه لأهل بدر الذين أخذوا الفداء: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾، أي: لولا قضاء من الله سبق في اللوح المحفوظ بأن الله محل لكم الغنيمة

(١) جامع البيان ١٠/ ٤٤.
(٢) نواسخ القرآن ١/ ١٦٩.

لأصابكم من الله عذاب عظيم، قال أبو جعفر: « إن قوله لولا كتاب من الله سبق خبر عام غير محصور على معنى دون معنى فهو سبحانه لا يؤاخذ هذه الأمة إذا عملوا عملا بجهالة، وأحل الغنيمة لهم دون من سبقهم، وغفر لأهل بدر، وكل ذلك مما كتب لهم»[١]. ثم قال تعالى لأهل بدر: فكلوا أيها المؤمنون مما غنمتم من أموال المشركين حلالا بإحلاله لكم طيبا واتقوا الله أي وخافوا الله في كل أموركم وراقبوه، إن الله غفور رحيم، قال ابن جرير: «وهذا من المؤخر الذي معناه التقديم وتأويل الكلام فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا إن الله غفور رحيم واتقوا الله ويعني بقوله إن الله غفور لذنوب أهل الإيمان من عباده رحيم بهم أن يعاقبهم بعد توبتهم منها»[٢].

ثم يخاطب الله تعالى نبيه محمدا ﷺ بقوله: يا أيها النبي قل لمن في يديك وفي يدي أصحابك من أسرى المشركين الذين أخذ منهم من الفداء ما أخذ إن يعلم الله في قلوبكم إسلاما يؤتكم خيرا مما أخذ منكم من الفداء ويصفح لكم عن عقوبة جرمكم الذي اجترمتموه بقتالكم نبي الله وأصحابه وكفركم بالله والله غفور لذنوب عباده إذا تابوا رحيم بهم أن يعاقبهم عليها بعد التوبة، وفي سبب نزول الآية الكريمة يروي ابن عباس قال: قال العباس: فيَّ نزلت ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فأخبرت النبي ﷺ بإسلامي وسألته أن يحاسبني بالعشرين الأوقية التي أخذ مني فأبى فأبدلني الله بها عشرين عبدا كلهم تاجر مالي في يديه قال فكان العباس يقول ما أحب أن هذه الآية لم تنزل فينا وأن لي الدنيا لقد قال يؤتكم خيرا مما أخذ منكم فقد أعطاني خيرا مما أخذ مني مئة ضعف وقال ويغفر لكم وأرجو أن يكون قد غفر لي، يقول تعالى ذكره لنبيه وإن يرد هؤلاء الأسارى الذين في أيديكم خيانتك أي الغدر بك والمكر والخداع بإظهارهم لك بالقول خلاف ما في نفوسهم فقد خالفوا أمر الله من قبل وقعة بدر وأمكن منهم ببدر المؤمنين، والله عليم بما يقولون بألسنتهم ويضمرونه في نفوسهم

(١) جامع البيان ١٠/ ٤٤.

(٢) السابق.

حكيم في تدبيرهم وتدبير أمور خلقه[١].

وسبب نزول قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ ﴾ الآية ما روى أحمد وغيره عن أنس ﷺ قال: استشار النبي ﷺ الناس في الأسرى يوم بدر فقال إن الله قد أمكنكم منهم فقام عمر ابن الخطاب فقال يا رسول الله اضرب أعناقهم فأعرض عنه، فقام أبو بكر فقال: نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء فعفا عنهم وقبل منهم الفداء فأنزل الله: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ الآية

وروى أحمد والترمذي والحاكم وابن مسعود قال لما كان يوم بدر وجيء بالأسارى قال رسول الله ﷺ : ما تقولون في هؤلاء الأسارى الحديث وفيه فنزل القرآن بقول عمر ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ ﴾ إلى آخر الآيات .

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «لم تحل الغنائم لأحد من قبلكم كانت تنزل نار من السماء فتأكلها» فلما كان يوم بدر وقعوا في الغنائم قبل أن تحل لهم فأنزل الله: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾.

قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم ﴾ الآية روى الطبراني في الأوسط عن ابن عباس قال: قال العباس: «فيّ والله نزلت حين أخبرت رسول الله ﷺ بإسلامي وسألته أن يحاسبني بالعشرين أوقية التي وجدت معي فأعطاني بها عشرين عبدا كلهم تاجر بمالي في يده مع ما أرجو من مغفرة الله»[٢].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

نستنبط من هذا المقطع:

* منة الله تعالى على نبيه وعلى المؤمنين بالصفح وعدم المؤاخذة في شأن الأسرى.
* إباحة أكل ما حصل المسلمون عليه من الأسرى والغنائم، وأنه حلال طيب.
* الثقة بما عند الله تعالى تجعل العبد في غنى دائم ويقين لا ينقطع، وهو عين التوكل.

(١) السابق.

(٢) انظر لباب النقول ١/ ١١٤.



المناسبة بين المقطع ومحور السورة.

هذا المقطع جاء فيه الحديث عن الأسرى، وهم نتيجة حتمية لقتال الأعداء، وبينت الآيات الكريمة ما حصل في شأن الأسرى، والعلاقة بينها وبين محور السورة واضح جلي.

المقطع الثاني عشر: قواعد في علاقة المجتمع الإسلامي بغيره

من الآية ٧٢ ـ ٧٥

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾

مناسبة المقطع لما قبله:

بعد الحديث عن الأسرى وما وعدهم من الخير، بين الحق سبحانه ما ينتفع المرء به في الدارين وهو الإيمان والنصرة والهجرة والجهاد، وهو خير مما يلهث وراءه الناس سواء الأسرى أو من هم في أيديهم، فشرعت الآيات ببيان أصناف الناس وكيف ينبغي التعامل فيما بينهم، على وفق الأسس التي بينها لنا ديننا الحنيف، وقسّمَ القرآن الكريم الناس أربعة أصناف؛ فصنف جمع الإيمان والهجرة والجهاد، وصنف آوى المهاجرين، وصنف آمن ولم يهاجر، وصنف آمن وهاجر من بعد [1] .

---

(١) انظر نظم الدرر ٣/ ٢٤٧ بشيء من التصرف.

المعنى الإجمالي للآيات:

يقول تعالى ذكره إن الذين صدّقوا الله ورسوله وهاجروا يعني هجروا قومهم وعشيرتهم ودورهم يعني تركوهم وخرجوا عنهم وهجرهم قومهم وعشيرتهم وجاهدوا أي بالغوا في إتعاب نفوسهم وإنصابها في حرب أعداء الله، والذين جعلوا للرسول وأصحابه المهاجرين مأوى يأوون إليه وهم الأنصار، أولئك؛ أي المهاجرين والأنصار؛ بعضهم أنصار بعض وأعوان على من سواهم من المشركين، دون أقربائهم الكفار، قال ابن عباس: «جعل الميراث للمهاجرين والأنصار دون ذوي الأرحام، قال الله والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا، أي ما لكم من ميراثهم من شيء وكانوا يعملون بذلك حتى أنزل الله هذه الآية وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله في الميراث فنسخت التي قلبها وصار الميراث لذوي الأرحام»[1].

ثم قال سبحانه: والذين صدّقوا بالله ورسوله ولم يهاجروا قومهم الكفار ولم يفارقوا دار الكفر إلى دار الإسلام ما لكم أيها المؤمنون المهاجرون من نصرتهم وميراثهم من شيء حتى يهاجروا قومهم ودورهم، وإن استنصركم هؤلاء الذين آمنوا ولم يهاجروا في الدين يعني بأنهم من أهل دينكم على أعدائكم وأعدائهم من المشركين فعليكم أيها المؤمنون من المهاجرين والأنصار النصر إلا أن يستنصروكم على قوم بينكم وبينهم ميثاق، أي عهد أن لا يحاربه، والله بما تعملون فيها أمركم ونهاكم بصير يراه ويبصره فلا يخفى عليه من ذلك ولا من غيره شيء، ويبين الله تعالى حال الكافرين مع بعضهم من الولاية التي ينبغي للمسلمين أن يكونوا على شاكلتها فيقول: والذين كفروا بالله ورسوله بعضهم أعوان بعض وأنصاره، إلا تفعلوا ما أمرتكم به من التعاون والنصرة على الدين تكن فتنة في الأرض وفساد لحياتكم ومآلكم؛ قال أبو السعود: «إلا تفعلوه أي ما أمرتم به من التواصل بينكم وتولى بعضكم بعضا وقطع العلائق بينكم وبين الكفار ﴿ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾، أي تحصل فتنة عظيمة فيها وهي ضعف الإيمان وظهور

(١) جامع البيان للطبري / ١٠/ ٥١.

الكفر ﴿ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ في الدارين»[1] ولا ينبغي لكافر أن يورَث مسلما للخبر الذي رواه الحاكم في مستدركه عن أسامة بن زيد ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لا يتوارث أهل ملتين ولا يرث مسلم كافرا ولا كافر مسلما»، ثم قرأ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»[2] ثم يقول الله تعالى: والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا رسول الله ﷺ والمهاجرين معه ونصروهم أولئك هم أهل الإيمان حقا، لا من آمن ولم يهاجر ولم يغز مع المسلمين عدوهم؛ لهم ستر من الله لذنوبهم بعفوه لهم عنها ولهم في الجنة طعام وشراب هنيء كريم لا يتغير، ثم يقول تعالى: والذين آمنوا بالله ورسوله وهاجروا دار الكفر إلى دار الإسلام وجاهدوا معكم أيها المؤمنون فأولئك منكم في الولاية يجب عليكم لهم من الحق والنصرة في الدين والموارثة مثل الذي يجب لكم عليهم، والمتناسبون بالأرحام بعضهم أولى ببعض في الميراث إذا كانوا ممن قسم الله له منه نصيبا وحظا من الحليف والولي في حكم الله الذي كتبه في اللوح المحفوظ والسابق من القضاء، إن الله بكل شيء عليم يعلم ما يصلح عباده في توريثه بعضهم من بعض في القرابة والنسب دون الحلف بالعقد، ومن أسباب نزول هذه الآية أن الرجل كان يعاقد الرجل يقول: ترثني وأرثك، فنزلت: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾[3].

وقال الحسن: « كان الأعرابي لا يرث المهاجر ولا يرثه المهاجر فنسخها ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾»[4].

وفي سبب نزول قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ الآية أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن السدي عن أبي مالك قال: قال رجل: نورث أرحامنا المشركين فنزلت ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ٣٨.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك حديث ٢٩٤٤ ج٢/ ص٢٦٢.

(٣) جامع البيان ١٠/ ٥.

(٤) السابق ١٠/ ٥٣.

أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾. وفي سبب نزول قوله تعالى: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ ﴾ الآية أخرج ابن جرير عن ابن الزبير قال: كان الرجل يعاقد الرجل ترثني وأرثك فنزلت ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ الآية وأخرج ابن سعد من طريق هاشم بن عروة عن أبيه قال آخى رسول الله ﷺ بين الزبير بن العوام رضي الله عنه وبين كعب بن مالك رضي الله عنه قال الزبير: « لقد رأيت كعبا أصابته الجراحة بأحد، فقلت: لو مات فانقطع عن الدنيا وأهلها لورثته، فنزلت هذه الآية: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ فصارت المواريث بعد للأرحام والقرابات وانقطعت تلك المواريث في المؤاخاة »[1].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

* أهمية الهجرة والجهاد في الشرع وأنهما من الأمور التي يتفاضل بها المؤمنون.
* أهمية الرحم، وأن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في المواريث.
* الموالاة بين المؤمنين أساس مهم يبنون عليه حياتهم، وبدون ذلك تكون فتنة وفساد بين الناس.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة.

هذا المقطع فيه تحديد للعلاقات بين المجتمع المسلم بعضه مع بعض، وبين المجتمع المسلم مع غيره من المجتمعات، وهذا الأمر له علاقة وثيقة بمحور السورة القائم على جهاد أعداء الله تعالى، وبيان أسسه وضوابطه، والعلاقة بين المؤمنين بعضهم مع بعض وبينهم وبين خالقهم جل في علاه، والولاية من أهم القضايا التي عالجتها آيات هذا المقطع وهي قضية نلحظها في ثنايا آيات السورة الكريمة من أولها حتى آخر آية فيها.

---

(١) انظر لباب النقول ١/ ١١٥.

سورة التوبة

بين يدي سورة التوبة

سورة التوبة مدنية بالاتفاق، انتظمت في مائة وتسع وعشرين آية، ترتيبها التاسع في المصحف العثماني وتقع في الجزء الحادي عشر منه، نزلت بعد سورة الفتح، دونت بعد الأنفال وقبل يونس. وتعد أكثر سور القرآن الكريم تسمية حسب ما تناهى إلينا من كلام الصحابة والتابعين وتابعيهم وأساطين علماء التفسير وعلوم القرآن، وعلى وجه العموم فإن هذه الأسماء تدل على ما اشتملته السورة، من الصفات والمعاني والمبادئ والقواعد والأحكام في مقاطعها المختلفة.

وفيما يلي إيراد لأسمائها التي تقصيناها بدقة من أمهات كتب التفسير مع بيان تعليل هذه التسميات[1]:

- **المقشقشة**: أي أنها تقشقش من النفاق بمعنى تبرئ منه ومن أهله.

- **المخزية**: لأنها تخزي الكافرين والمنافقين، فالله مخزيهم حيث وجدوا لثباتهم على الشرك واستكبارهم عن الحق الذي جاءهم.

- **الفاضحة**: لفضحها سلوك المنافقين وما انطوت عليه صدورهم من الخسة والنذالة، وكان ابن عباس يسميها بذلك لأنه ما زال ينزل فيها ومنهم حتى ظن الجميع أنها لم تبقِ أحداً منهم إلا وذكرته.[2]

- **الكاشفة**: لكشفها عيوب الكفار والمنافقين ولايتهم بعضهم بعضاً ضد الإسلام والمسلمين.

- **المشرِّدة**: بمعنى تشرُّد المنافقين وتفلج شكيمتهم لتفتيت عصبتهم وعزلهم عن موالاة

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٦١، والكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٢٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٦١، وتفسير المنار، محمد رشيد رضا: ١١/ ١٤٦.

بعضهم بعضاً.

- **المبعثرة**: لكونها تبعثر عن أسرار المنافقين، أي تبحث عنها وتثيرها ليقف الجميع على معاول هدمهم.

- **الحافرة**: بسبب حفرها عن قلوب المنافقين وإثارة أسرارهم لكشف ظاهر سلوكهم وباطنه، بعد أن أقاموا على النفاق وثبتوا عليه ثبوتاً شديداً ومهروا فيه ولجوا ولم يثنوا عنه.

- **المثيرة**: لأنها أثارت عورات المنافقين وأظهرتها للمسلمين، ليحسنوا مقارعتهم استعداداً لاستئصالهم لكونهم متناهين في النفاق والبعد عن الإيمان. (١)

- **المنكِّلة**: لإعلانها الحرب بشدة على المنافقين والمشركين والدعوة للتنكيل بهم وقتلهم حيث ثقفوا، لظلم الواحد منهم لنفسه ولغيره، لما فعلوه من الكفر بالله وعدم الانقياد له ولنبيه.

- **المدمدمة**: أي تدمدم المنافقين بمعنى تهلكهم وتطوي صفحة مكرهم، لاستمرائهم سلوك النفاق الذي أحدثوه وابتدعوه بعد الهجرة. (٢)

- **المشددة**: بسبب شدة قسوتها في التعامل مع المنافقين والمشركين على أمل تطهير الجزيرة العربية منهم، لما أظهروه من الاستهزاء وفساد الاعتقاد.

- **البَحوث**: بفتح الباء لأنها ما انفكت تسعى للبحث عن جيوب النفاق وأهله، لكشف أسرارهم استعداداً لضربهم والتخلص منهم.

- **العذاب**: بسبب براءة السورة من المنافقين والمشركين، ودعوتها لقتالهم دون رحمة، بغية تعذيبهم لأجل مخرجات سلوكهم وكفرهم لتقصيرهم بحق الله، وعدم احترامهم للعهود والمواثيق التي اتخذوها ستاراً للغدر والخيانة. وعن حذيفة أنه سماها سورة العذاب لأنها نزلت

---

(١) تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ١٠/ ٩٥.

(٢) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٢٩. التحرير والتنوير، ابن عاشور: ١٠/ ٩٧.

بعذاب الكفار أي أخذهم بالقتل حيث يثقفون.[1]

- **المنقِّرة**: لأنها نقرت عما في قلوب المشركين وكشفه للمسلمين، والتسمية ههنا مأخوذة من نقر الطير للخشب أو للحصى، وفيها من حكمة مفاجأتهم بالخفي من أقوالهم وأفعالهم، بما لم يتوقعوه أو يألفوه.[2]

- **البشَّارة**: أصل الكلمة الإخبار بما فيه مسرّة، وقد استعيرت ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة: ٣]. وقوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران: ٢١].

- **العاصفة**: لعصفها وزلزلتها بأركان أهل النفاق والشرك، ففي السورة دعوة لاقتلاعهم من المجتمع ومنزلتهم منه على مكرهم وخبث طويتهم كالريشة في مهب الريح.

- **الفارقة**: لأنها تفرق بين الحق والباطل، وبين المؤمنين والمنافقين، مع بيان صفات كل منهما.

- **السيف**: سميت السورة بذلك لأن السيف أداة الحرب الرئيسة في زمن صدر الإسلام. والجهاد لا يقوم إلا به، وفي هذه التسمية دعوة لإعمال السيف على رقاب أهل النفاق والشرك ممن لا أمان لهم، ولا سبيل لهم من ذلك إلا بالتوبة الصادقة وبالإقلاع عن الذنوب والمعاصي[3].

- **المحرضة**: وسميت بذلك لكونها أكثر سور القرآن حثاً على جهاد المنافقين والمشركين. وتحريضاً على قتالهم لإعلاء كلمة الله وتحذيراً من القعود والتخاذل في نصرة الله.

- **القرينتين**: وهو اسم مقترن بسورتين، لمن ظن أن الأنفال وبراءة سورة واحدة، بسبب

(١) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٢٩.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا: ١١/ ١٤٦.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٦٢.

تشابه قصة الأولى بالثانية، فكلتاهما نزلت في القتال.[1]

- **الغزوتين:** لذكرها غزوتي حنين وتبوك، في حين تناولت الأنفال قصة غزوة بدر، والأحزاب غزوة الخندق، وآل عمران قصة غزوة أحد، إذ انتظم بها ستون آية عن يوم أحد وتداعياته.[2] وهذا مجمل للسور التي ذكرت فيها غزوات رسول الله ﷺ في القرآن الكريم. ومن اللافت للانتباه أن تعدد الأسماء للاسم الواحد، دليل على جلال قدره وعظيم خطابه شأن سورة التوبة هنا.

وصفوة القول فيما تقدم تعتبر التوبة وبراءة من أشهر الأسماء التي تُرجم للسورة في كلام السلف من أئمة الحديث كالبخاري ومسلم والترمذي. وجاء تسميتها بالتوبة لقوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ [التوبة: ١١٧]. وفي تسميتها براءة لافتتاح السورة بقوله تعالى: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة:١].

ويعضد قولنا هذا ما وقع للاسمين من ذكر في حديث **زيد بن ثابت** في صحيح البخاري في باب جمع القرآن. (قال زيد: فتتبعت القرآن حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري،﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾، حتى خاتمة سورة براءة).

وسميت سورة التوبة بهذه التسمية لأن فيها التوبة على المؤمنين عامة لمختلف طبقاتهم. والتوبة على الثلاثة الذين تخلفوا عن معركة تبوك خاصة. وتعتبر أكثر سور القرآن إيراداً لكلمة التوبة واشتقاقاتها، إذ تكررت في السورة سبع عشرة مرة،[3]* ورغم كون السورة تتحدث عن المنافقين والمشركين إلا أنها تدعوهم للتوبة في غير موضع من مقاطعها مع بيان أن لا سبيل لهم

(١) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٢٩ و ٢٣٠.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية: ٣/ ١١.

(٣) * وردت كلمة التوبة في سورة البقرة ثلاث عشرة مرة، وفي النساء اثنتا عشرة مرة، وفي هود ست مرات، والمائدة خمس مرات، وآل عمران ثلاث مرات، والأنفال مرة واحدة.

بالنجاة إلا بالتوبة، ولهذا جمعت السورة بين الشدة والتهديد والوعيد لحملهم على التوبة إن أرادوها لأنفسهم، ولا يتأتى لهم ذلك إلا من خلال التصديق بالإيمان وتحصيل مقتضياته وإن تحقق ذلك فإن الإسلام يَجُبّ ما قبله.

ويلاحظ في السورة تكرار قوله تعالى:﴿ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴾ وهو محور السورة، وحكمته التبشير بالتوبة والفلاح بالنجاة من مصارع السوء.

والعلاقة بين محور سورة التوبة وسورة الأنفال التي قبلها علاقة تلازمية، وهما أكثر سور القرآن الكريم تشابهاً وتجانساً، حتى اعتقد بعض الصحابة عند جمع المصحف الإمام زمن **عثمان بن عفان** ﷺ أنهما سورة واحدة. لأجل هذا فإن السورتين تكونان سورة واحدة عند الشيعة الإمامية الجعفرية، [(1)]* مع أن الأنفال نزلت في غزوة بدر في السنة الثانية للهجرة، والتوبة نزلت في أواخر السنة التاسعة للهجرة فترة غزوة تبوك، قبل وفاته ﷺ بعام وثلاثة أشهر، وبعد مرور اثنين وعشرين عاماً على بدء الوحي.

وبقراءة تحليلية في علم أسباب النزول نرى أن سورة التوبة آخر ما نزل من سور القرآن الكريم. ولعل خير شاهد على ذلك وجه ارتباطها بقوله تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ المائدة/ ٣. فهذه الآية وثيقة الصلة بسورة التوبة أو براءة، نزلت يوم عرفة عام حجة الوداع بعد نزول التوبة بسنة تقريباً، فقد عاش بعدها النبي ﷺ واحداً وثمانين يوماً، قُبض بعدها إلى ربه عز وجل، وقد دون كتبة الوحي خلال المدة المتبقية من عمره ﷺ ، تدوين آيات الدين والربا والكلالة. ولم يعهد عنهم أن دونوا سورة

---

(١) * ينسحب هذا أيضاً على سورتي الضحى والشرح فهما سورة واحدة، وكذلك سورتا الفيل وقريش. ولا يفوتنا الإشارة هنا أن الأنفال وبراءة حين تكونان سورة واحدة، فإنها تحتل الترتيب السابع في السبع الطوال وهي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف. وفي حالة الفصل بين السورتين كما هو مدون في المصحف العثماني، فإن بعض العلماء يعتبرها السابعة، وآخرون يعتبرون سورة يونس السابعة من الطوال، والعلماء متنازعون في ذلك على اجتهادات.

بكاملها، وبهذا تكون سورة التوبة آخر ما نزل من السور الطويلة في القرآن.[1]

ويراد بكمال الدين في الآية السابقة نصرته ﷺ على البيت الحرام وجلاء المشركين عنه ولو كره الكافرون، وقد تجلى هذا بوضوح في سورة براءة، وبات الحج خالصاً للمسلمين لا يشاركهم أحدٌ منهم في مناسكه كما كان سابقاً وكان ذلك من تمام نعمة النعم. وقد تحقق للنبي ذلك بعد أن مكث عليه الصلاة والسلام بالمدينة تسع سنين لم يحج. ثم أذن في الناس بالحج في السنة العاشرة. فكانت حجة الوداع المشهورة، حيث تعلموا منه ﷺ مناسكهم وكيفية أدائهم شعائر الحج، فطويت وللأبد التقاليد الجاهلية المتوارثة من تصدية وصفير وعري أثناء الطواف. فزاد البيت بذلك تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابةً، وكان من حكمة حجة الوداع أن شرع الحج في السنة العاشرة للهجرة.

وبهذا يكون نزول السورة من حيث الترتيب الرابعة عشرة بعد المائة ولعل الحكمة من ذلك ليكون ختام الوحي بفتح باب التوبة. وهي السورة الوحيدة التي لم تبدأ بالبسملة، وعلى خلفية هذا فإن للسورة ارتباطاً بالعديد من السور المتقدمة والمتأخرة عنها، نورد منها على سبيل الذكر لا الحصر آيات القتال الواردة في سورة البقرة/ ١٩ و٢١٦ والحج/ ٣٠. فمن خلال ربط هذه الآيات بعضها ببعض يمكننا معرفة مراحل فرض الجهاد ومعرفة بواعثه، ويلاحظ أيضاً عمق اتصال سورة التوبة بالسور التي بعدها كسورتي المؤمنون وترتيبها في المصحف الثالث والعشرون، والمنافقون وترتيبها الثالث والستون. ولعل الربط بين هذه السور يفيدنا في معرفة صفات المؤمنين وطبقاتهم، وصفات المنافقين ومواقفهم المخزية والحكمة من محاربتهم واستئصالهم.

ولا يفوتنا التنويه هنا أن بعض الآيات المتماثلة ذات الموضوع الواحد، قد ورد في أكثر من

(١) أخرج البخاري في صحيحه عن زيد بن ثابت أن سورة براءة آخر سورة نزلت في القرآن الكريم. وعن جابر بن زيد أنها نزلت بعد سورة الفتح. للمزيد انظر: مختصر صحيح البخاري، د. سعد بن ناصر الشثري: كتاب المغازي رقم ١٧٣٢.



موضع وسورة، ليس من باب التكرار بل على سبيل التأكيد تارة، ولذكر مقاصدها المرجوة وللوفاء بالغرض والحكمة الذي سيقت من أجله تارة أخرى، وقد يرد في آية من الأحكام والقواعد ما لم يرد في الأخرى، وما يرد منها حسب موقعه يكون مناسباً بالقدر والطريقة التي تناسب الإطار العام للسورة وسياقها. وهذا من أهم الأدبيات التي يجب مراعاتها عند التفسير الموضوعي للقرآن.

ومما تجدر الإشارة إليه اشتمال سورة التوبة على طائفة من ضوابط وخصائص القرآن المدني الموضوعية. كذكر المنافقين ومجادلة أهل الكتاب وبيان فضيلة الجهاد والعلاقات الإنسانية في السلم والحرب، ومخاطبة أهل الكتاب ودعوتهم إلى الإسلام، وبيان تحريفهم لكتب الله. كما أبرزت شواهد ولقطات عن بعض الأنبياء والرسل من باب العبرة والعظة للأعراب من أهل البوادي والحواضر حتى يستقيم إيمانهم.

وختمت السورة بالإشارة الصريحة إلى مكانة خاتم الأنبياء والمرسلين في العرب خاصة والعالم عامة، والحكمة من بعثه برسالة الإسلام. ثم ذكرت بعض من جميل صفاته كالرأفة والشفقة والرحمة بالمؤمنين. وهو أكمل الخلق في صفاته لحرصه على هداية الناس كافة. ولعل الحكمة من ختم السورة بهذا المقطع إظهار التوبة والرحمة من خلال التصديق بنبوته ﷺ .

ولا يفوتنا الإشارة هنا أن السورة قد قسمت إلى ستة مقاطع لتيسير تفسيرها موضوعياً. إذ يحتوي كل مقطع منها على طائفة من القواعد والمبادئ والعظات والعبر التي سنقف عندها بالتحليل والتعليق والمقابلة، وما ترشد إليه من هدايات مع بيان وجه الارتباط بينها وبغيرها ممن تقدم أو تأخر.

وفيما يلي وصف موجز لمقاطع السورة:

المقطع الأول: ويمتد من الآية ١ إلى الآية ٢٤. وموضوعه نبذُ عهود الكفار إليهم. وذمهم لأنهم لا يرقبون في أحدٍ من المؤمنين إلّاً ولا ذمة.

المقطع الثاني: ويمتد من الآية ٢٥ إلى الآية ٢٧. وموضوعه غزوة حنين.

المقطع الثالث: ويمتد من الآية ٢٨ إلى الآية ٣٥. وموضوعه نجاسة المشركين والنهي عن دخولهم البيت الحرام، والأمر بقتال أهل الكتاب، الذين لا يدينون دين الحق لفساد عقيدتهم، حتى يسلموا أو يؤدوا الجزية.

المقطع الرابع: ويمتد من الآية ٣٨ إلى الآية ٣٧. وموضوعه تحديد الأشهر الحرم وما فيها من أحكام فقهية.

المقطع الخامس: ويمتد من الآية ٣٥ إلى الآية ١٢٧ في تسع وثمانين آية. ويشغل معظم مساحة السورة، حيث يتناول الجو العام لقصة غزوة تبوك، آخر غزوات النبي ﷺ.

المقطع السادس: ويمتد من الآية ١٢٨ إلى الآية ١٢٩. وموضوعه حكمة بعثته ﷺ في العرب وعظيم مكانته فيهم.

المقطع الأول ويمتد من الآية ١ إلى الآية ٢٤

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ

أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

القراءات(١)*: الآية ٤

---

(١) * القراءات: هي اختلاف بين العلماء القراء في كيفية النطق ببعض كلمات القرآن من: تخفيف وتثقيل ومد وإمالة وإدغام ونصب وتسكين ورفع وجر. أو اختلاف في وجوه الإعراب ونحو ذلك. ومنشؤها اختلاف في لهجات العرب وأولاها حجة حرف قريش. وهي ثابتة بأسانيدها إلى رسول الله ﷺ. وذكر الذهبي في طبقات القراء: كان عثمان وعلي وأبي وزيد وأبو الدرداء وأبو موسى الأشعري على رأس الصحابة الذين اشتهروا في القراءات. وأخذ عنهم خلق كثير من الأمصار. وحكمة القراءات بيان إعجاز القرآن في معانيه وأحكامه.

ومما تجدر ملاحظته أن علماء القرن الهجري الثالث قد صنفوا أسماء سبعة من الأئمة القراء الذين تنسب إليهم القراءات إلى اليوم وهم: ابن عامر ت١١٨هـ، وابن كثير ت١٢٠هـ، وعاصم ت١٢٨هـ، وأبو عمرو ت١٥٤هـ، وحمزة ت١٥٦هـ، ونافع ت١٦٩هـ، والكسائي ت١٨٩هـ، وهناك ثلاثة آخرون صحت قراءاتهم وتواترت وهم أبو جعفر المدني ويعقوب الحضرمي وخلف بن هشام، وهؤلاء هم أصحاب القراءات العشر.

وقال السيوطي: أول من صنف في القراءات أبو عبيد القاسم ثم تبعه آخرون على رأسهم أبو جعفر بن

- قرأ عكرمة وعطاء بن يسار[١]: ﴿ ثُمَّ لَمْ يَنقُضُوكُمْ ﴾ بالضاد معجمة.

- وقرئ في الآية ٢٤: (عشيرتكم) و(عشيراتكم) وقرأ الحسن: (وعشائركم).[٢]

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي للمقطع الأول من سورة التوبة

إن قراءة تأملية دقيقة في مضمون آيات المقطع الأول من سورة التوبة، تبرز لنا محور المقطع المتضمن للأهداف والمقاصد التالية:

١. المناداة بالبراءة من المشركين والدعوة إلى تطهيرهم من أرض جزيرة العرب، التي خصها الله وشرفها برسالة الإسلام ومنحهم هدنة مع بيان الأسباب التي أوجبته.

٢. إعلام الناس كافة يوم الحج الأكبر بهذه البراءة وإتمام مدة العهد لمن حافظ عليه. مع تأمين المستجير منهم حتى يسمع كلام الله على أمل التوبة.

٣. عدم أخذ المشركين بالقتال غدراً وخيانة، دون النبذ إليهم، ليختاروا طواعية بين الإسلام أو الاستعداد للقتال.

٤. تحديد أمد الهدنة بالأشهر الحرم، وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرّم التي حرم الله فيها القتال. وبيان أسس معاملتهم بعد انقضاء الأجل المضروب.

٥. وجوب قتال المشركين بشدة وضرب الحصار عليهم بسد الطرق أمامهم في كل سبيل بعد انقضاء موعدهم.

٦. التأكيد على أن إيمان المسلم لا يكتمل إلا إذا كان الله ورسوله أحب إليه من كل شيء.

جرير الطبري إمام المفسرين المتوفى ٣١٠هـ.

للمزيد حول هذا الموضوع انظر: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ١/ ٧٠-٨٥. والتيسير في القراءات السبع لأبي عمرو الداني.

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٧١.

(٢) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٤٥.



٧. إبراز عداوة المشركين للمسلمين لأنهم قوم يغلب عليهم الضلالة ولا يذعنون للحق ولا يؤمنون به. انطوت صدورهم على مخادعة المسلمين.

٨. التحضير لحجة الوداع وخطبتها المشهورة في العام العاشر للهجرة.

ويرى المتأمل في المقطع الأول من سورة التوبة أنها مرت بالمشاهد التالية:

افتتحت السورة بقوله تعالى:﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة: ١]. وغاب عنها البسملة في سابقة ليس لها نظير في سور القرآن الكريم. وللعلماء في غياب البسملة اجتهادات متعددة. أقواها حجة أن الصحابة لم يكتبوها في المصحف الإمام مقتدين بأمير المؤمنين **عثمان بن عفان** ﷺ في الجمع الأخير، لأن رسول الله ﷺ لم يأمر كتبة الوحي بذلك.

وهذا ما اقتضته الحكمة الإلهية، فالبسملة أمان ورحمة، والسورة نزلت لرفع الأمن بالسيف. والسخط على المنافقين والمشركين، لأنهم قوم لا أمان لهم ولا عهود ولا يؤمن غدرهم وليس أمامهم إلا المقارعة بالسيف.[١]

وبقراءة تحليلية نرى أن غياب البسملة يتوافق مع عادة العرب قبل الإسلام إذا كان بينهم وبين قوم عهد أرادوا نقضه كتبوا إليهم كتاباً من غير مقدمات في السلام والتحية،[٢] وفي صدر الإسلام اعتادوا ذلك دون بسملة، ومن باب القياس، فإن الخاطب المغضب لأمرٍ ما في وقع الشدة لأمر الفصل فيه يبدأ خطبته بقوله (أما بعد) دون استفتاح. بهدف التوبيخ والتقريع والتنديد.

ومن الحكمة في غياب البسملة أن المسلمين لا يستطيعون العيش مع المشركين على أسس المعاهدات القديمة ما داموا على شركهم، والتي وقعوها معهم في وقت كانوا فيه قليلين

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٦٢ و ٦٣.

(٢) المصدر السابق: ٧/ ٦١.



مستضعفين بالمقاييس البشرية. وليس لهم سلطان دنيوي يقهر المشركين، فلما تداولت الأيام وأعز الله الإسلام بفتح مكة ودخل الرسول ﷺ الكعبة وحولها ستون وثلاثمائة صنم، فجعل يحطمها وهو يردد ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[الإسراء: ٨١]. استوجب الفصل بين عهدين عهد كان بالأمس أهله ضعافاً فأنعم الله عليهم بالنصر فكان الأمر بالبراءة من المشركين وتحريم إعطاء الولاء لهم من غير بسملة، فليس أمامهم إلا السيف أو الإسلام، بعد إعذارهم وإنذارهم بانقطاع عصمتهم. ولم يعد من المسوغ للمسلمين أن يعايشوهم ثانيةً بعد أن منَّ الله عز وجل عليهم بالقوة والاقتدار، وأذاق أعداءه مرارة الهزيمة بما فيها من ذل وقتل وسبي وأسر.

كما قررت الآية الثانية قاعدة أخلاقية تنص على من كان بينه وبين رسول الله عهد مفتوح، فإن أجله إلى أربعة أشهر لمراجعة النفس رجاء الأمل بالتوبة. فإذا مضت وما زالوا على كفرهم فإن الله بريء من المشركين ورسوله وجب مقاتلهم في كل مكان. ومن كان له عهد مع رسول الله مخصوص بأجل مسمى فعهدهم إلى مدتهم المضروبة لهم، إذا استقاموا على عهدهم بعدم معاونتهم أو ممالأتهم لأحدٍ من المشركين ضد المسلمين، فإن الله يحب المتقين الذين يحافظون على عهودهم. [1]

ثم تمضي الآيات وتقرر الآية الخامسة: يترتب على المشركين حالة انقضاء الأجل والأمان الممنوح لهم، بدءاً من العاشر من ذي الحجة سنة تسع للهجرة، إلى العاشر من شهر ربيع الآخر سنة عشر للهجرة، [2]وما زالوا على عنادهم وكفرهم وضلالهم، مقاتلتهم لأن السيف أولى بهم أينما وجدوا. فلا أمان لهم أن يتركوا فيما هم فيه وألفوه من الحرية. فاستعدوا لمقارعتهم ومنازلتهم بمختلف فنون الحرب وخططها العسكرية، لاستباحة نفوسهم وأموالهم.

لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير، محمد علي الصابوني: ٢/ ١٢٣.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور: ١٠/ ١٠٦.



وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ ﴾ [التوبة: ٥]. فإن تابوا وأسلموا وعملوا بمقتضيات هذا الدين من صلاة وزكاة وحسن إسلامهم، فقد عصموا في أموالهم ودمائهم، فهم عندئذٍ منكم، فالإسلام يجب ما قبله. وإن جاءك أيها الرسول أحدٌ من المشركين بعد انقضاء الأشهر فاستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن، فأمنه حتى يقف على حقيقة الأمر. وقاتله بعد ذلك إن لم يُسلم من غير غدر ولا خيانة.

ثم تتلاحق الآيات لتقرر أن المشركين قوم أعرضوا عن آيات الله، لا يحترمون مواثيقهم وعهودهم وهذا هو شأنهم لا يدعون لمؤمن قرابةً ولا عهداً.

وتحذرنا منهم لأنهم قوم لا يؤمن جانبهم ولو كانت لهم القوة على المسلمين لظاهروا عليهم، فالمشركون أعرضوا عن آيات الله واستبدلوها بعرض الدنيا وشهواتها، وصرفوا الناس عن الدخول في دين الله في سالف أمرهم عندما كان ميزان القوة لصالحهم. وبهذا يتأكد على المسلمين قتال أهل الرياسة فيهم حتى ينتهوا عن كفرهم وتأثيرهم على غيرهم. فهم الذين كانوا وراء إخراج الرسول ﷺ من مكة وحاولوا قتله ولكن الله عصمه منهم. حين تشاوروا في أمره بدار الندوة في مكة حتى أذن الله تعالى له في الهجرة فخرج بنفسه. ونقضوا عهودهم مع رسول الله ﷺ مراراً، ثم تنبهنا الآية الثامنة البداءة بمقاتلة النبي ﷺ وأصحابه من قبل أهل الرياسة من كفار قريش، لأنه جاءهم بالقرآن الذي تحداهم به، فعدلوا عن المعارضة لعجزهم إلى القتال فهم البادؤن بالقتال والبادئ أظلم. (١)

ثم توجهت الآية للحث على الجهاد بالسؤال:

فما يمنعكم أيها المسلمون من أن تقاتلوهم بمثله. فالمؤمن الحق لا يخشى إلا ربه ولا يبالي بمن سواه. (٢) فهؤلاء الذين شهدوا على أنفسهم بالكفر بنصبهم أصناماً حول الكعبة يطوفون

---

(١) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٣٦.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٢٣٩.



حولها، يسجدون لها ويستنصرون بها ويستمطرون بها حسب زعمهم، حقيق بكم أيها المسلمون إعمال السيف في رقابهم، وسيؤيدكم الله بنصره ويذيقهم العذاب والذلة والخزي. لأنهم كانوا يخشون أصنامهم ويرجونها أكثر من خشيتهم لله، إلا من تاب منهم وسوف يشفي الله صدور طائفة من المؤمنين الذين لاقوا منهم أذىً شديداً ومكروهاً كبيراً.

ثم توجهت الآية السادسة عشرة بالخطاب للمسلمين أنه سبحانه وتعالى لن يترككم دون اختبار لكم ليميز المؤمن الصادق الذي يجاهد بماله ونفسه في سبيل الله، من المشرك الذي يتكئ في حركاته على وليجته الخاصة (بطانته) من دون الله وهو العليم بما في القلوب التي في الصدور.

ثم تمضي الآيات ويقرر الله عز وجل في الآية السابعة عشرة ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴾[التوبة: ١٧]. ومما تضمنته هذه الآية حرمة مشاركة المشركين في عمارة مساجد الله بالعبادة أو الخدمة أو الولاية أو التنظيف أو الصيانة أو البناء ونحوه، والعبرة هنا بعموم اللفظ، وإن كانت قد نزلت الآية بشأن المسجد الحرام. إذ كان المشركون قبل فتح مكة في الثامنة للهجرة، يتقربون من آلهتهم التي ضربت حول الكعبة، ويتوجهون لها بالدعاء والرجاء معتقدين أنها واسطة بينهم وبين الله فترجع غائبهم، وتنصرهم على أعدائهم، وتشفي مرضاهم، وقد أفادت الآية الكريمة أن المشركين ليسوا أهلاً لأن يعمروا مساجد الله، فهذه العمارة وقف على المؤمنين الذين يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، ويؤدون الصلاة والزكاة على وجهها. أما الكفار فليسوا على شيء مما تقدم وهم خالدون في نار جهنم.

ثم أخذت الآيات اللاحقة تذم وتوبخ اعتزاز المشركين بدورهم في عنايتهم بالمسجد الحرام كالسقاية وخدمة الحجيج فيه قبل الإسلام، [(١)]* فخدمة المسجد الحرام حصر على

(١) *- نزلت في العباس بن عبد المطلب الذي تفاخر وهو في الأسر بخدمته وعنايته للمسجد الحرام، حين طفق علي بن أبي طالب يوبخه لقتاله رسول الله ﷺ، والسقاية هنا ما كانت قريش تسقيه للحجاج من=

وجه التخصيص بالمؤمنين الصادقين الذين آمنوا بالله وحده، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فهم الفائزون برضوان الله في الدنيا والآخرة. ويختتم المقطع الأول بالنهي عن موالاة الذين استحبوا الكفر على الإيمان، وتتوعد كل من يستنصر بالآباء أو الأبناء أو الإخوان أو العشيرة أو الأزواج، ويكون لهم تبعاً من دون الله. وتحث على محبة رسول الله ﷺ، وتحري مرضاته وطاعته ليكون أحب للمؤمن من نفسه وماله.

الحكم والدروس والعبر والهدايات التي يرشد إليها

المقطع الأول من سورة التوبة

١ - تقرر آيات المقطع الأول الأحكام التالية:

أ-عدم جواز إبقاء الشرك وأهله في جزيرة العرب يوماً واحداً مع القدرة على استئصالهم. ومن هنا جاء نبذهم بالبراءة من خلال علي بن أبي طالب وليس أبا بكر الصديق أمير الحج. لأن من عادة العرب إذا أراد نقض العهد استلزم أن يكون ذلك من خلال صاحبه أو شخص من أهل بيته. [١]

ب- جواز عقد الهدنة والعهد والاتفاقيات مع غير المسلمين للحاجة والضرورة، من باب تحقيق المصالح، مع تعليقها بالشرط على التزام ما فيها من أحكام، والوفاء بها من فرائض الإسلام ما دام معقوداً لقوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء/ ٣٤]. وفي الحديث (من كان بينه وبين قومٍ عهدٌ فلا يُحُلَّنَ عُقدة ولا يَشُدَّها حتى يمضي أمده أو يَنْبِذَ إليهم). [٢]

ت- أن انتساخ العهد يكون بإعلان الحرب أو الغدر والخيانة أو عند إلحاق أي ضرر

=الزبيب المنبوذ بالماء وكان يقوم في هذه الخدمة العباس ﷺ في الجاهلية وبقيت معه في الإسلام.

(١) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٣٢.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٧٥٩) في الجهاد، والترمذي (١٥٨٠) في السير باب ما جاء في الغدر.

بالمسلمين ،مباشراً أو غير مباشر .حيث كانت سننه ﷺ في أهل العهد إذا أصلح قوماً فنقض بعضهم عهده وأقرهم الباقون دون اعتراض منهم ولم يأخذوا عليه ،غزا الجميع وجعلهم كلهم ناقضين كما فعل في أهل مكة[١] .

ث- أن الإمهال بمدة الهدنة أربعة أشهر ليس لعجز ،ولكن لمصلحة من يتوب منهم ولأجل ذلك أجاز بعض الفقهاء إنزال المشرك في المسجد إذا كان يرجى إسلامه ،لتمكينه من سماع القرآن ومشاهدة أهل الإسلام وهيئات عبادتهم[٢] .

هـ -أن المسلمين جميعاً من باب الولاء إخوة متحابون يحسن بعضهم إلى بعض ،ويساعد بعضهم بعضاً ، ويتعاونون فيما بينهم على فعل الخير ودفع الشر ،وفي هذا إبراز لأهمية التآخي لتحقيق التكامل والتعاضد .ولا يكتمل إيمان المسلم حتى تكون محبته لله ورسوله أشد من محبته لنفسه أو أهله وعشيرته وتجارته .وأن يحب لأخيه المسلم ما يحبه لنفسه .كما تقطع الآيات الولاية بين المسلمين والكفار بالبراءة منهم لتناصرهم فيما بينهم على الغدر والخيانة ،وتعاونهم في عداوتهم للمسلمين .فلا يجوز للمسلم أن يتخذ من أعداء الله أولياء له يلقي لهم بالمودة ،أو يمد لهم يد الإخاء والتعاون على حساب أخيه المسلم .فالمؤمنون متناصرون على الحق متعاونون في عداوتهم لأعداء الله.

٢ - أرشدت الآيات الأولى من المقطع الأول إلى الأحكام التالية:

أ- تحديد الأشهر الحرم وهي رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم.

ب- تحريم القتل والقتال في هذه الأشهر ،وسميت حرماً لأن ذا الحجة والمحرَّم منها ،ولأن المشركين أومنوا فيها وحرّم قتلهم وقتالهم[٣] .

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية: ٣/ ٤٢٠.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني: ٢/ ٤٢٠.

(٣) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٣١.

ت- يستحب الإكثار من الصيام فيها.

ث- بيان ما اختص به الحرم المكي من الأحكام كاستحباب شد الرحال إليه ،فالصلاة فيه تعدل مائة إلف صلاة فيما سواه ،وحرمة تمكين غير المسلمين منه ومن الإقامة فيه.

١- التأكيد على مكانة وقدسية البيت الحرام الذي جعله سبحانه وتعالى مثابة للناس وأمناً فهو أول بيت وضع للناس للعبادة ،وتحققت فيه دعوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، فأذن الله عز وجل لنوره أن يشرق على أرض جزيرة العرب من جديد. فاقتضت حكمته تعالى أن تكون مكة مهداً لرسالة الإسلام، فقد جعل فيها الكعبة المشرفة واختار محمداً ﷺ العربي رسولاً إلى الناس كافة. ﴿ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. ولم تكن رسالة محددة يختص بها جيل من الناس شأن الرسالات السابقة، بل جاءت عامة إلى أن يرث الله الأرض وما عليها. والعرب هم أولاد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، توارثوا ملة أبيهم ومنهاجه في توحيد الله وعبادته، وفي تعظيمهم للبيت الحرام وتقديسه وخدمته، ومن الحكمة الإشارة هنا أن الله سبحانه وتعالى ميز العرب عن سائر الناس في الرسالة، وفضل قريشاً عن سائر القبائل وفضل اللغة العربية على اللغات الأخرى.

٢- لما كان البيت الحرام أرفع الأماكن ذكراً وأعظمها عند الله قدراً وأشهرها منزلة، فإن الربط بينه وبين المسجد الأقصى واجب، والعدوان على أحدهما عدوان على الآخر. والدفاع عنهما دفاع عن الإسلام والمسلمين، والتفريط في أحدهما خيانة لله ورسوله. فالمسجد الأقصى أول قبلة للمسلمين وثالث مسجد تشد إليه الرحال والصلاة فيه تعدل خمسمائة صلاة فيما سواه، وقد تأكد هذا الربط في قوله تعالى: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الإسراء: ١].

٣- المراد بالحج الأكبر يوم عرفة[1] وليس يوم النحر للأسباب التالية:

---

(١) يروى هذا الرأي عن عمر وعثمان وابن عباس وطاووس ومجاهد وابن سيرين وهو قول أبي حنيفة.

أ-الوقوف بعرفة هو ركن الحج الأعظم، ومن لم يقف بعرفات فقد فاته الحج وفي الحديث (الحج عرفة). [١]

ب - من تمام الحج أن يصلي الحاج الظهر والعصر مع الإمام بعرفة. [٢]

جـ- أن يوم عرفة يوم شغل بعبادة من وقوف بالموقف ومن سماع الخطبة، وقد ثبت عنه ﷺ أنه نهى عن صوم يوم عرفة بالنسبة للحجيج مساعدة لهم على العبادة والدعاء والذكر. وبالمقابل استحب صيام هذا اليوم لغير الحاج.

د - يمكن تسمية يوم عرفة بالمؤتمر الإسلامي العالمي السنوي، إذ يجتمع فيه المسلمون من مختلف الأجناس والألوان، على عظم ما قدره الله لهم من عدد من شتى قارات العالم، على تباين نصيبهم في الدنيا من الجاه والسلطان، كأخوة متساويين لا يفضل أحدهم عن الآخر إلا بالتقوى، ومن الحكمة ألا يمر مثل هذا المؤتمر السنوي دون تدارس أحوال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وهذا من فضل يوم عرفة.

انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ٧/ ٦١.

(١) أخرجه أبو داود: ١٦٦٤، وسنن الترمذي: ٨١٤.

(٢) فقه السنة، السيد سابق، ١/ ٧١٩.

المقطع الثاني ويمتد من الآية ٢٥ إلى الآية ٢٧

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي للمقطع الثاني

لم تزل آيات سورة التوبة تمضي في اتساق هادف حتى انعطف الكلام في المقطع الثاني إلى غزوة حنين وتداعياتها.

وهنا يذكر الله تعالى المؤمنين بنصره على المشركين، بعد أن أخذت المسلمين في الجولة الأولى من الغزوة عزة عددهم. وزال عنهم أن الله هو الناصر وليس كثرتهم. وفي ذلك حكمة بالغة وإن قل جمعهم أو كثر.

وفيما يلي وصف لمشاهد غزوة حنين وجوها العام:

بعد أن انتشر الإسلام في مكة وقوي المسلمون. ودخل الناس في دين الله أفواجاً، بما منّ الله عليهم من تطهير البيت الحرام من الشرك في السنة الثامنة للهجرة.

انزعجت القبائل العربية في الطائف وحواضرها من انتصار المسلمين على قريش. أقوى القبائل العربية وأشدها شكيمة، فأهلها رجال حرب وقتال ومال ومع هذا فقد هُزموا.

مما حمل هوازن وثقيف توقع أن تكون الضربة القادمة من نصيبهم، [وكانوا مشفقين من أن يغزوهم رسول الله ﷺ، وقالوا لا مانع له من غزونا، والرأي أن نغزوه قبل أن يغزونا]. [1]

(١) الكامل في التاريخ، لابن الأثير: ٢/ ١٣٥.



ورأت أن تتحرك لتوجيه ضربة للمسلمين قبل أن يباغتوهم في ديارهم. فاستعانت بالقبائل المجاورة لها وشكلت ائتلافاً تحالفياً اجتمع إليهم من خلاله جموعٌ كثيرة فيهم بنو سعد وهم الذين كان رسول الله ﷺ مسترضعاً فيهم.

وعهد القوم برياسة الجند إلى (**مالك بن عوف**) سيد بني هوازن، وكان في العقد الثالث من عمره. وأمر المقاتلة من قومه أن يصطحبوا معهم عوائلهم وأموالهم وحيواناتهم، على أن تكون في مؤخرة الجيش، حتى يستميت القوم في الدفاع عنهم ولا يفكروا بالفرار.

ولمّا علم رسول الله ﷺ بخبر جمعهم، قرر الخروج إليهم على رأس عشرة آلاف مقاتل، وانضم إليه **أبو سفيان** في ألفين من مسلمي طلقاء مكة. وهو عدد لا سابق له، إذ لم يكن يجتمع للمسلمين من قبل في كل غزوات رسول الله ﷺ . ونظر المسلمون إلى عدد جيشهم فاغتروا بكثرته، وقال بعضهم: [لن نُغلبَ اليوم من قِلة]. [١]

ولمّا بلغ ائتلاف هوازن وثقيف خبر زحف المسلمين إليهم، أدركوا خطورة الموقف عسكرياً. وساروا في عجلة من أمرهم إلى وادي حنين في مكان يقال له (أَوْطَاس). [٢]* فمكثوا في جوانبه معسكرين فيه بين شعابه ومضايقه ورؤوس وديانه. ينتظرون قدوم جيش المسلمين، وأقاموا مئات الكمائن لهم. ولمّا بلغ الجيش وادي حنين قبيل الفجر أخذ الجند ينحدرون في بطون الوادي وشعابه في ظلام الوادي ومضايقه.

وكانت المفاجأة أن شدَّ عليهم العدو الكامن في جوانب الوادي شدة رجل واحد فانهالت السهام عليهم، كما أخذت الكتل الصخرية تتدحرج في كل مكان. فولى معظم المسلمين فراراً من هول المفاجأة ولم يبق إلا رسول الله ﷺ صامداً ومعه نفر من المهاجرين والأنصار. فأخذ النبي ﷺ ينادي: [أيها الناس هلمّوا إليّ أنا رسول الله: أنا محمد بن عبد الله. قالها ثلاثاً]. [٣]

---

(١) المصدر السابق: ٢/ ١٣٦.

(٢) * - أوطاس: وادٍ بين مكة والطائف في ديار هوازن شهد وقعة حنين.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٩٨، والكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٤٦.

ثم أمر عمه العباس بأن ينادي في القوم: [يا معشر الأنصار! يا معشر المهاجرين! يا أصحاب السمرة!]. [١](ويراد بهم أهل بيعة الرضوان).

فاجتمع إلى رسول الله ﷺ مائة رجل، فاستقبل بهم القوم وقاتلهم، ثم شرع في تنظيم من يلتحم به من الجند. ولم يزل هذا موقفهم حتى أنزل الله السكينة عليهم، وأيده بجنودٍ من عنده، وما هي إلا ساعات قليلة حتى انهزم المشركون وولوا الأدبار، مخلفين وراءهم عوائلهم وأموالهم وحيواناتهم غنيمة للمسلمين. وهكذا تحولت الهزيمة إلى نصر مؤزر.

ولجأ المنهزمون من المشركين ومعهم **(مالك بن عوف)** إلى الطائف. وتحصنوا فيها فتعقبهم رسول الله ﷺ وعسكر على مقربة من حصونهم ورماهم بالمنجنيق. وحدث في أثناء الحصار أن تسلل نفرٌ من عبيد الطائف فأسلموا، وأخبروا رسول الله أن أهل ثقيف قادرون على مواجهة الحصار مدة طويلة. فأمر برفع الحصار عنهم وقال رسول الله ﷺ اللهم اهدِ ثقيفاً وائت بهم.

ولمّا رحل رسول الله ﷺ من الطائف سار حتى نزل (الجِعرانة)[٢]* فيمن معه من الناس. وأتته وفود هوازن وقد أسلموا، فرد إليهم ذراريهم ونساءَهم ثم طلب إليهم أن يخبروا **(مالك بن عوف)** إن أتى مسلماً رد عليه أهله وماله ومائة من الإبل. فلما سمع مالك بذلك جاء متخفياً عن قومه، وأعلن إسلامه فوفى له النبي بوعده واستعمله على من أسلم من قومه. [٣]

ولمّا فرغ رسول الله ﷺ من رد سبايا من أسلم من هوازن. شرع بتوزيع الغنائم فأعطى قسماً للمؤلفة قلوبهم وقسماً آخر للمهاجرين.

أما الأنصار فلم يعطهم شيئاً لحكمة أرادها رسول الله ﷺ لهم، ولخير احتبسه لهم في الآخرة. وقال فيهم: اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار. فبكى القوم

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٩٨، والكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٤٧.

(٢) * الجِعرانة منزل بين الطائف ومكة وهي إلى مكة أقرب وعلى بعد عشرة أميال منها.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ١٠٢، والكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٤٨.



وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً.[(١)]

الدروس والعبر والأحكام والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الثاني

تنطوي غزوة حنين على دروس بالغة الأهمية للمسلمين في كل عصر، وها نحن نقف على جانب منها من باب التكامل لأخذ الدروس والعبر والعظات والأحكام المستنبطة:

١- عرضت هذه الغزوة لصورتين هزيمة في الجولة الأولى لتدبير إلهي محض، ونصر في الجولة الثانية. فقد أذاق الله سبحانه وتعالى المسلمين مرارة الهزيمة في جولتها الأولى لحكم منها:

أ- أن الجهاد أصدق الامتحانات لكشف معادن النفوس، والنصر الإلهي لا يستحقه من يفرط في الأسباب الموجبة له وما النصر إلا من عند الله بحسب درجات الإيمان. فالنصر منزلته صعبة ليس لأحد بلوغه إلا بقوة العقيدة والصبر على ويلات الحرب وشدائدها.

ب- التحذير من مزالق الفخر والترفع والتعاظم والتكبر لكثرة العدد والعدة وتوهم النصر على خلفية ذلك، فالكثرة ليست فيصلاً في النصر ولا القلة سبباً في الهزيمة.

ت- اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أنه لا يصلح لعباده إلا الشدة والرخاء والقبض والبسط، فلو بسط لهم النصر والظفر على الدوام لطغوا وتواكلوا، ولم يحصل المقصود لهم من مشاق الجهاد والأخذ بأسبابه.

لهذا كان يمتحنهم على الدوام بالغلبة والهزيمة لأجل أن يتقربوا إليه أكثر بالتضرع والإكثار من الإقبال عليه بالدعاء والاستغاثة والاعتصام بحبله، لأن النصر منوط بتقوى الله وطاعته.

وليعلم بالبلاء والمحنة منازل المقاتلين منهم على حقيقتها، فيظهر بالامتحان أهل الإيمان والصبر، ليميزهم عن غيرهم ليختار من يصلح لموالاته من أهل العقيدة الراسخة، ومن لا يصلح. لهذا جعل سبحانه وتعالى المعركة دولاً وجولاتٍ بين أوليائه وأعدائه، فالعاقبة وإن

(١) للمزيد حول موقف الأنصار من توزيع الغنائم، انظر: الكامل للتاريخ، لابن الأثير: ٢/ ١٤٤.

طالت طريقها فهي حصرٌ للمؤمنين الصابرين بسبب فضلهم وعدم استوائهم مع غيرهم في نصرة الله.[١]

ث- التأكيد على أن الجهاد ذروة سنام الإسلام، ومنازل أهله هي الأرفع في الجنة فهم الأعلون فيها.

هـ- تقرير أن الصبر والثبات وقت الشدائد من مفاتيح النصر، والتحلي بهما يرفع روح المقاتل المعنوية ويجعل الواحد منهم جمعاً. إضافة إلى حسن الاستعداد والتأهب مع الأخذ بمقتضى قانون الأسباب والمسببات المادية والمعنوية.[٢]

غ- كان لثبات النبي ﷺ وحسن سيرته في الغزوة قيادة ومشورة وتخطيطاً، ورباطة جأشه وصلابته وتفاؤله وعمق إيمانه بنصر الله له درس للقادة في كل زمان، فالقائد الناجح يتصف بتلك الصفات، وإن أحاط العدو به إحاطة السوار بالمعصم فلا يظهر عليه شيء من سلوك العصبية والارتباك، أسوة برسول الله ﷺ أملاً بالفرج حتى يتحقق له نصر الله.

ك- أن الحرب لا تستقر على وتيرة واحدة في معاركها، بل تراوح بين إحدى المنزلتين كراً وفراً تقدماً وتقهقراً نصراً وهزيمةً، فلا يأس عند مفاجأة العدو بالضربة الأولى كما حدث في غزوة حنين، ولا اغترار بالنصر إن تحقق، ولله المنة والحمد والشكر على كل الأحوال.

٢- تحقق في هذه الغزوة معجزة الملائكة بتأييدهم للمؤمنين وتثبيتهم على القتال بإذن الله تعالى، كما وقع ذلك في غزوتي بدر والخندق سابقاً، وتحقق فيها معجزة رمي النبي ﷺ بالحصباء وجوه القوم، حتى نالت منهم جميعاً رغم بعد المسافة ببركة قبضته ﷺ حتى ملأت أعين القوم وأفواههم.[٣]

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية: ٣/ ٢٢٠.
(٢) خواطر قرآنية ونظرات في أهداف سور القرآن، عمرو خالد: ١٣١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٩٨.

٣- إذا كان الله تعالى قد استهل عز الدعوة للإسلام في عهد النبوة، بنصر المسلمين في غزوة بدر على قلة عددهم وعدتهم، فإنه ختمها بنصره ﷺ في غزوة حنين، وبهذا النصر تكامل إسلام المدن الرئيسية الثلاث في الجزيرة العربية: المدينة المنورة ثم مكة ثم الطائف.

وهنا دخل الناس في دين الله أفواجاً، وصرف عنهم الكفار الذين لم يكن لهم بهم طاقة، بعد أن أفرغت قواهم واستنفدت سهامهم وأذل جمعهم، وقويت شوكة المسلمين وعصبتهم.

ولهذا يقرن بين الغزوتين فيقال: بدر وحنين، وإن كان بينهما سبع سنين.[1]

٤- كان من توجيهات النبي ﷺ في غزوة حنين شأنه في غزواته كافة التأكيد على الأحكام التالية:

أ- النهي عن الهروب من المعركة لأنه من الكبائر، فالمسلم يضحي من أجل عقيدته ويجاهد في سبيل الله تعالى، ولا يعرف الجبن لأنه يدرك أن الآجال محدودة، وقد أمر الله تعالى المؤمنين بالثبات أمام أعدائهم، وفي ذلك إظهار لعقيدتهم ودفاع عن دينهم، وحرم الفرار من المعركة وعده من الكبائر، إلا إذا كان فيه خدعة حربية لتغيير الموقع أو الانضمام لجماعة أخرى من المسلمين لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴾ [الأنفال: ١٥].

ب- إزالة المانع من النصر بتجنب الذنوب والمعاصي، لئلا يتخلفوا عن أهم الأسباب الموجبة للنصر. ويا عجباً لهؤلاء الذين يقولون أين نصر الله في غياب نصرتهم له!

ت- تقرير مفاجأة العدو ومباغتتهم بالإغارة عليهم وذلك من باب التحرز والحيطة والحذر فالحرب خدعة لأجل إفقاد العدو عنصر المبادرة. وخاصة إذا سمع القائد بقصد عدوه واستعداده له، وفي جيشه قوة ومنعة فليسر إليهم لمهاجمتهم ابتداءً ولا يقعد ينتظرهم لمهاجمته،

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية: ٣/ ٤٧٩.

وقد سار النبي ﷺ إلى هوازن حتى لقيهم في حنين.[(١)]

ث- استحباب عقد الألوية والرايات في وحدات الجيش لرفع الروح المعنوية مما يجعل الواحد جمعاً في قوة الشوكة والعصبية.

هـ- أحق الناس بقيادة الجيش أعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله، وأكثرهم صبراً وصلابةً وفطنة وذكاء، وأغزرهم بسطة في فنون الحرب وطرائقها، منعاً للتقصير واستخراجاً للصواب في العمليات العسكرية.

غ- بث العيون بين صفوف الأعداء لاستطلاع خبرهم لمعرفة أحوالهم في شؤون الحرب وخططها. فقد بعث النبي ﷺ في هذه الغزوة **عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي** ليتجسس أخبار العدو ويأتي المسلمين بالخبر عن عدتهم وعددهم.[(٢)]

٥- إقرار مشروعية العارية، فقد استعار النبي ﷺ من صفوان بن أمية دروعاً يوم غزوة حنين.[(٣)]

والعارية من التعاون المحمود الذي حث عليه الإسلام لقوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٢]. وهي سنة مستحبة يجدر بالمسلم أن يقوم بها حتى لا يكون من الذين يمنعون الماعون.

والعارية عقد بين طرفين يقوم المعير بموجبه بتمليك المستعير منفعة شيء دون أجرة لمدة معينة، على أن يرده المستعير بعد الاستعمال على سيرتها الأولى أي مضمونة.

وفي مشروعية العارية السابقة درس آخر وهي جواز استعارة سلاح المشركين وعدتهم

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية: ٣/ ٤٧٩.

(٢) فقه السيرة النبوية، د. محمد رمضان البوطي: ص٢٩٠.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/ ٨٨٦، وزاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية: ٣/ ٤٧٩. والكامل في التاريخ، لابن الأثير: ٢/ ١٣٦. والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٩٩.

لقتال العدو للضرورة والمصلحة. فقد كان **صفوان بن أمية** وقتئذ مشركاً، بشرط أن لا يكون فيه خدش لكرامة المسلمين، وأن لا يتسبب عن ذلك دخول المسلمين تحت سلطان غيرهم.[(١)] وهذا خلاف ما هو مشاهد في وقتنا الحاضر.

٦- جواز خروج المرأة للجهاد مع الرجال لأجل مداواة الجرحى وتقديم الخدمات اللازمة لهم إذا دعت الحاجة إلى ذلك، حال توافر شروط الحماية لهن، وإذا كانت المصلحة تقتضي ذلك من غير خطر عليهن. وهذا مشروط بالستر والصيانة والحاجة.[(٢)]

والدليل على ذلك أن النبي ﷺ قد خرج في غزوة الطائف وأهله معه أم سلمة وزينب.[(٣)] وجهاد المرأة في الإسلام واضح ومعلوم في تاريخ الدعوة.

وتعتبر أم عَطِيّةَ الأنصارية على رأس النساء المؤمنات المجاهدات، اللواتي شاركن الرجال في الجهاد، والذبِّ عن الدين وعن ديار المسلمين. فقد غزت مع الرسول ﷺ سبع غزوات.[(٤)]

وفي ذلك إظهار لدور المرأة المسلمة في الجهاد في سبيل الله تعالى. وبيان لأهمية مشاركتها في التمريض والعناية بالمرضى ضمن قيم الإسلام وأحكامه.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٩٩، وفقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي: ص٢٩٠.

(٢) المرجع السابق: ص٢٩١.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية: ٣/ ٥٠٣.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب النساء الغازيات. وهي نسيبة بنت الحارث المالكية الأنصارية من بني النجار، ص١٧.

المقطع الثالث ويمتد من الآية ٢٨ إلى الآية ٣٥

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

القراءات: الآية ٣٠

- قرأ عاصم والكسائي (عُزَيْرٌ) بالتنوين. والباقون: (عُزَيْر) بترك التنوين. وقرأ عاصم: ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ﴾ بالهمزة. والباقون: (يضهون) بغير همزة.(١)

(١) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٥٠-٢٥١.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي للمقطع الثالث

مما تجدر الإشارة إليه أن افتتاحية خطاب هذا المقطع وقف على المؤمنين الذين خصهم الله عز وجل بخدمة مساجده.

وفي الآية عودة على مقدمة المقطع الأول بالبراءة من المشركين. حين أرسل رسول الله ﷺ أبا بكر بعد غزوة تبوك أميراً على الحج، في السنة التاسعة ثم أتبعه علياً بن أبي طالب لأجل أن ينادي في عرفة:

[أيها الناس: لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فأجله أربعة أشهر، فإذا مضت فإن الله بريء من المشركين ورسوله، ولا يحج هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك]. [1]

فكان بذلك إيذاناً بطهارة المسجد الحرام، من أدران الماضي وأباطيل الشرك الذي تسلل إلى عرب الجاهلية. فألفوه واعتادوا عليه، بسبب ابتعادهم عن عقيدة التوحيد التي جاء بها إبراهيم عليه السلام.

ويلاحظ في هذا المقطع أيضاً انتقال الكلام من نبذ العهد مع المشركين كما تقدم في المقطع الأول، إلى بيان المعاملة بين المسلمين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى بعد أن أوجسوا خيفة من تطرق الإسلام إليهم، فأخذوا يستعدون لحرب المسلمين على وهْم منهم أن مدافعتهم للمسلمين قد توقف زحف انتشار الإسلام داخل وخارج الجزيرة العربية.

وقد قررت الآيات قتال أهل الكتاب بعد أن انتفى عنهم الإيمان الصحيح والتدين بدين الحق وهو الإسلام. وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم جعلوا أحبارهم ورهبانهم كالأرباب حيث أطاعوهم في كل شيء، وهم الذين حرفوا الكلم عن مواضعه، فحللوا ما حرم الله وحرموا ما أحل الله، فقلدوهم في الباطل واتبعوهم على الكفر، وجعلوا لبعض هؤلاء الأحبار والرهبان

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٦٨.

مرتبة الربوبية في اعتقادهم.

فقد زعم اليهود أن عزير ابن الله، وأطبقت النصارى بكل مللها أن المسيح ابن الله، وبهذا الكفر تأكدت عليهم الحجة وعظم منهم الشرك والكفر فاستحقت عليهم الجزية على انقياد وانصياع وخضوع لحكم الإسلام، وبسبب تغلظ كفرهم ترادفت عليهم أسباب الذل وموجباته. وأن هؤلاء وهؤلاء لو دانوا دين الحق لاتبعوا الإسلام، لأن كتبهم أوصتهم بذلك. وكانوا بما أنكروه من رسالة محمد ﷺ أهلاً لردعهم عن باطلهم وقتالهم على فساد عقيدتهم، ليكون في ذلك ترغيباً لهم في الانسلاخ عن دينهم الباطل، وإتباعهم الإسلام الدين الذي أنزله الله على أنبيائه كافة حيث أكد هذا على لسان الأنبياء في القرآن الكريم. فقد جاء على لسان نوح عليه السلام قوله ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٢].

وعلى لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ [البقرة: ١٢٨].

وفي قول يعقوب لأبنائه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢]. وعلى لسان موسى عليه السلام: ﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤].

وعن يوسف عليه السلام: ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

وجاء في معرض قول موسى عليه السلام عن التوراة: ﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ ﴾ [المائدة: ٤٤]. وجاء عن حواريي عيسى عليهم السلام: ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٢].

يتضح مما تقدم أن الإسلام في معناه العام الاستسلام لله في أمره ونهيه، وفي معناه الخاص الرسالة التي نزلت على خاتم الأنبياء والمرسلين، وهو دين البشرية. ويأبى الله إلا أن يتم نوره إلى قيام الساعة لعموم بعثة الرسول ﷺ وشريعته: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨].

وتبعاً لمنطق العقل: فإن عدا ذلك من معتقد قول ساذج ليس فيه بيان ولا برهان، وهو منكر من القول وزورٌ، ومن أشنع درجات الكفر المستحق للتوبيخ والتقريع. وتعالى الله عما يزعم أهل الكتاب علواً كبيراً في نسبة الأبوة إليه. كتجسيد اليهود لله تعالى وإيمان النصارى بثالوث الأقانيم الثلاثة الأب والابن والروح القدس.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الثالث من سورة التوبة

١ - تقرر آيات المقطع الأمر بقتال الكفار من أهل الكتاب الذين لا يؤمنون إيماناً صحيحاً يصدقونه بأفعالهم وأعمالهم فدينهم باطل للأسباب التالية:

أ–دين لم يشرعه الله بسبب تحريفهم له بالتبديل وبالزيادة والنقصان. فهم لا يؤمنون بالله تعالى على الوجه الحق الذي جاءت به رسلهم من توحيد وتنزيه لذاته وصفاته.

ب– دين منسوخ برسالة الإسلام والتمسك به غير جائز شرعاً.

ت– إنكارهم للنبي ﷺ وبرسالته علماً أنه مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل وهذا دليل على انحراف عقيدتهم.

ث– زعمهم ببنوة عزير والمسيح كما تقدم.

ومما تجدر ملاحظته هنا أن هذا الانحراف قد طرأ عليهم بالتراخي، بعد أن كانوا على دين الفطرة زمن الرسالة التي أنزلت على موسى وعيسى عليهما السلام. ثم تمردوا على ديانة التوحيد بتأثير عوامل الجهل والهوى والشيطان، فرفع الله عز وجل التوراة والإنجيل ومحاها من قلوبهم.

فساحوا في الأرض زمناً طويلاً ثم أخذ أحبارهم ورهبانهم يدرسون التوراة والإنجيل من عند أنفسهم، فتعددت كتبهم واجتمع فيها الشرك بالله وطرأ عليها التحريف

والتصحيف[1]*. وهذا ما اقتضته حكمته سبحانه وتعالى ولو شاء لجعل الناس جميعا على الإسلام. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩].

لكنه عز وجل ترك الخلائق بعد إرسال الرسل مختارين في معتقداتهم حسب ما تمليه عليهم عقولهم، مع قدرته تعالى على حملهم على الإسلام قسراً لو شاءت حكمته ذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴾ [الشعراء: ٤]. وحكمة ذلك أن من ثوابت الدعوة للإسلام إتاحة حرية الاختيار لأهل الكتاب ومخاطبتهم ودعوتهم إلى دين الله بالحوار الذي تظلله أنوار الحكمة بالحجة والبرهان مصداقاً لقوله تعالى:﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[البقرة: ١١١]. وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ﴾ [الأنعام/ ١٤٨].

ولقد بلغ من تسامح الإسلام مع أهل الكتاب، حداً حمل بعض المفكرين من غير المسلمين على تقديم شهادتهم بهذا الخصوص، نذكر منهم على سبيل المثال **غوستاف لوبون ولنغريد هونكه**.

٩. اقتضت سنة الله عز وجل فرض الجزية على أهل الكتاب بعد غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة. لأجل إخراجهم من عبادة العباد التي كانوا عليها إلى عبادة الله، ومن جور معتقدهم إلى عدالة الرسالة طمعاً في دخولهم الإسلام.

والجزية هي المال المفروض فرضاً محتوماً طوعاً أو كرهاً على رؤوس أهل الكتاب من اليهود والنصارى لقاء ذمتهم، وما يتأتى لهم عن عقد الذمة من بسط الأمن لحمايتهم والمدافعة عنهم في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ودينهم، واستتباب الراحة لهم بالمنعة من الجندية ليعيشوا

---

(١) *- للمزيد حول ما طرأ على كتب أهل الكتاب من تحريف انظر: سلسلة مقالات المقارنة بين الأديان لأبي زهرة. حيث عقد مقارنات بين الديانة البوذية والديانة النصرانية، وتأثر الأخيرة بالبوذية مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ﴾ [التوبة/ ٣٠].



في سلم وأمان وموادعة مع خضوعهم لأحكام الإسلام وتشريعه.

والجزية تدفع باليد سنوياً من غير توكيل للآحاد منهم عن سعة وقدرة في الدفع، وجعلت على مراتب حسب طبقات أهل الكتاب اقتصادياً ومقدارها اجتهادي تتراوح على ثلاث فئات ٢٨ و ٢٤ و ١٢ درهماً. (١)

وأسقطت عن الفئات العمرية دون العشرين ومن هو فوق الخمسين وعن النساء والرهبان وذوي العاهات منهم. (٢)

ويرى صاحب **تفسير المنار** في تعدد الآراء التي قيلت عن فرض الجزية [أن من المفسرين من قال في الآية أقوالاً في القسوة والشدة والاستعلاء والقهر والذلة في تحصيلها ما يأباه عدل الإسلام ورحمته]، (٣) ويراها **القرطبي** [الجزية يقتضي وجوبها على من يقاتل من الأحرار البالغين من أهل الكتاب]. (٤) إذا أذن لهم الإقامة في دار الإسلام ومن أسلم منهم سقطت عنه لنصرته وجهاده في المدافعة عن الإسلام والمسلمين. والجزية لم تكن عقاباً لأهل الذمة فهي نظير إعفائهم من الجندية ومقابل حماية المسلمين لهم. وتقوم الجزية لأهل الكتاب مقام الزكاة للمسلمين حتى يتكافأ الجميع في الواجبات.

ومما تجدر ملاحظته أن الجزية تؤخذ من قويهم لضعيفهم كما هو الحال في الزكاة من باب الدفع عنهم، كما تعطى لضعيفهم من بيت مال المسلمين من باب التكافل الاجتماعي الذي

---

(١) لمزيدٍ من الاطلاع انظر: الفصل الذي عقده صاحب تفسير المنار في الجزية: ١١/ ٢٩٠-٣٠٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ١١٢.

(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا: ١١/ ٢٩٠.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ١١٢.

وللمزيد حول موضوع آية الجزية وتعدد الآراء في موجباتها وهيئات الدافع لها: انظر المصدر نفسه ٧/ ١١٠ و ١١١ و ١١٢ و ١١٣ و ١١٤ و ١١٥.

كان للحضارة الإسلامية شرف سبق الغرب فيه. [١]

١٠. تقرر الآيات منع الأحبار والرهبان لأهل ملتهم الدخول في دين الإسلام وإتباع محمد ﷺ مع كونهم عالمين برسالته، مع البشارة باسمه في كتبهم ويأبى الله مقابل كفرهم هذا إلا أن يتم نوره ويظهر رسالة الإسلام على الديانات السابقة.

وإن محاولتهم إطفاء نور الله بأفواههم فيه اتهام بسلامة عقولهم مع السخرية منهم وقدحهم وتسفيههم. فالكفار لا يملكون القدرة على إطفاء شعلة كبيرة، فكيف تكون لهم القدرة على إطفاء نور الله تعالى؟. كما تؤكد الآيتين ٣٤ و٣٥ أن كثيراً من الأحبار والرهبان، يسلبون أموال الناس بالباطل ويحسبونها لأنفسهم لتحقيق منافعهم الخاصة. ستكوى بها يوم القيامة جباههم وجنوبهم وظهورهم لأن الجزاء من جنس العمل.

ولقد خص الله سبحانه وتعالى هذه الأعضاء ذكراً من بين سائر أعضاء الجسم لأن الغني المقتر يقبض جبهته إذا سأله سائل، وإذا رأى الفقير زوى ما بين عينيه وقبض وجهه. ويطوي عنه جنبه ثم يوليه ظهره كبراً بماله فرتب الله العقوبة على حال المعصية. [٢]

٤- بيان أن الكانزين للذهب والفضة يجعلون المال بعضه إلى بعض، يوظفونه في معصية الله ولا يقيمون فيه شرع الله، فسيكون مالهم الذي جمعوه في الدنيا حسرة عليهم يوم القيامة حين يقذفون في نار جهنم، ويقال لهم تبكيتاً وتقريعاً وتهكماً ﴿ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٥]. وقد تكرر هذا التوبيخ لمالهم غير المشروع في الآيتين ٥٥ و٨٥. وبمناسبة قوله تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة: ٣٤]. نرى أن الآية الكريمة انطوت على تقرير الأحكام التالية من منظور الفكر الاقتصادي في الإسلام:

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ١١٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ١٢٩.



أ- تحريم كنز المال لضرره بالمصلحة العامة وإعاقته لتنمية المجتمع من ناحية اقتصادية. وهذا من القيود التي وضعت على الملكية الفردية لتحقيق مصلحة الفرد والجماعة على السواء.

ب- وجوب تداول المال حتى لا يقتصر على الأغنياء مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر: ٧].

ت- المال مال الله تعالى والجماعة مستخلفة فيه لقوله تعالى:﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [النور: ٣٣]. وقوله تعالى:﴿ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد: ٧]. فالملكية في الإسلام مقيدة بأحكام الله التي شرعها لصالح البشر باعتدال لدعم صرح المحبة والتراحم.

ث- تحديد ملكية المال وإنفاقه بالطرق المشروعة، فلا يعتبر المال في الإسلام ملكاً إلا إذا كان مصدره وإنفاقه مشروعاً.

ج- وجوب تنظيم علاقة الإنسان بالمال وصيانته وإنفاقه لحل مشاكل الحياة الاقتصادية لإقامة مجتمع الكفاية والعدل وتحقيق الرفاهية للجميع، مع عدم جواز أخذ مال الغير بالباطل وهي من الثوابت التي لا يجوز المساس بها بأية حال وتحت أي مبرر.

ح - المال ضرورة من ضرورات الحياة لا غنى للإنسان عنه، وهو من المقاصد الخمسة التي جاءت الشريعة الإسلامية لتحافظ عليها كمصالح عليا للإنسان. ومع كونه ضرورة إلا أنه وسيلة وليس غاية في حد ذاته، فالمال ليس هدفاً للحياة، لأن للحياة قيماً أعلى من الثروة. وعليه فإن المال ليس أساساً لتقييم الناس والتفاضل بينهم، فلا يقيم الإنسان بما يملك وإنما يقيم بتقواه واستقامته. ولا يجوز أن يستخدم المال وسيلة لقهر الآخرين وإذلالهم، أو أداة للضغط على مجريات الأمور أو لاستعباد الناس ونحو ذلك.

خ - تنظيم الإسلام للملكية بجميع أنواعها الفردية والمشتركة والجماعية والعامة، حرصاً منه على عدم طغيان المال على نفسية صاحبه وجعله مستبداً لقوله تعالى:﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴾

[العلق: ٦]. وتجنب خطورة الفقر وآثاره المدمرة على المستوى الفردي والجماعي.[1]

و- أن يكون إحراز الملكية الفردية بطريق من الطرق المشروعة وخلاف ذلك عدت ملكية باطلة .وأن لا يكون في أصل تملكها ضرر يقع على فرد أو جماعة مع وجوب المحافظة على المصلحة العامة وحسن التصرف بالملكية لقوله تعالى﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النساء: ٤].

المقطع الرابع ويمتد من الآية ٣٦ إلى الآية ٣٧

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

القراءات: الآية ٣٧

- قرأ **نافع برواية ورش**: (إنما النسيُّ)، والباقون: (النسيء) بالهمزة. وقرأ **حمزة والكسائي**[2](يُضَلُّ) بضم الياء وفتح الضاد.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي لأيات المقطع الرابع

تقرر الآيتان السابقتان أن الشهور في حكم الله تعالى يوم خلق السموات والأرض اثنا

(١) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، د. محمد خلف الله: ص١١٦. والملكية في الشريعة الإسلامية، د. عبد السلام العبادي: ص١٥٠. والسياسة المالية في الإسلام، د. عبد الكريم الخطيب: ص٢٨.

(٢) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٨٥.

عشر شهراً، وأنه سبحانه وتعالى وضع هذه الشهور وسماها بأسمائها بفضل حكمته في خلقه للقمر الذي جعله لحساب الزمان. ورتب في قضائه وقدره شهور السنة فأجرى ليلها ونهارها وقدر أوقاتها وقسمها على اثني عشر شهراً خص منها أربعة حُرُماً هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب. [1] وقد خصها بالذكر ونهى عن الظلم فيها تشريفاً لها وإن كان الظلم منهياً عنه في كل زمان، ولهذا جعل الله تعالى بعض الأشهر أعظم حرمة من بعض على نحو ما تقدم. كما جعل بعض أيام السنة أجل من بعض كيومي عرفة والنحر، وجعل الجمعة من أيام الأسبوع أجلها، وبعض الليالي أكمل من بعض كليلة القدر من شهر رمضان. وحكم ذلك باق إلى قيام الساعة من غير تغيير وتبديل. وفي هذا بيان الحكمة من تخصيص بعض الأزمنة والأمكنة في حرمتها، وأثر ذلك في مضاعفة الثواب على الطاعة ومضاعفة الإثم على المعصية فيها.

وكانت العرب في الجاهلية تعتقد حرمة هذه الأشهر وتعظمها بَيدَ أنه كان يشق عليهم الكف عن الإغارة على بعضهم بعضاً لثلاثة أشهر متوالية، فأخذوا يؤخرون الشهور فيحرمون غير الحرام ويحللون غير الحلال، فجعلوا الحلال حراماً وجعلوا الحرام حلالاً وكان ذلك من جهلة بدعهم الباطلة. فحصل منهم الغلط والضلال والفساد في تحديد الأشهر الحرم من باب الخداع والحيلة في دين الله على غير مراد الله لها. وكانوا بذلك مستخفين لشرع الله فجعلوا أنفسهم شركاء الله في الألوهية والتشريع في التحليل والتحريم، [2] فخالفوا أمر الله وأبطلوا حرمة الأشهر الحرم، فاستوت الشهور عندهم حتى جاء موعد حجة الوداع في السنة العاشرة للهجرة، فاستدار الزمان كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض. ولقد أوحى الله لرسوله أن العام الذي يحج فيه يصادف يوم الحج فيه تسعة من ذي الحجة، على الحساب الذي يتسلسل من يوم خلق الله السموات والأرض.

فانتهى ما كان عليه عرب الجاهلية من النسيء أي تأخير تحريم شهر إلى شهر آخر، أو تُحلّ

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ١٣٢.

(٢) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل، للرازي: ص١٧٨.

الشهر الحرام تارة وتحرمه تارة أخرى. فانتفى خلط الأشهر في غير موقعها من السنة العاشرة للهجرة إلى قيام الساعة. وبهذا تم ضبط الأشهر الحرم وإبطال ما أدخله المشركون فيها من النسيء الذي أفسد أوقاتها وأفضى إلى اختلاطها، حتى جاء الإسلام وأرجع للأشهر الحرم موضعها الصحيح، ودفع عنها الفوضى التي كانت عليه والتي تناولتها أيدي الكفر بالتغيير والتبديل والزيادة والنقصان وجعلها الله مواقيت للعبادة في حكمه وتقديره.

وأوجب على الناس تعظيم حرمتها وعدم ارتكاب الظلم فيها، وهي مما شرعه الله لإبراهيم عليه السلام لمصلحة الناس بإقامة الحج وتوفير الأمن والأمان لقوافل الحجيج جيئةً وذهاباً.

الحكم والدروس والعبر والهدايات التي ترشد إليها آيات المقطع الرابع

١. إن عدد الشهور قمرية أو شمسية عند الناس في كل ملة اثنا عشر شهراً، وإن اختلفت في بداياتها ونهايتها من أمة لأخرى في حضارات الأمم والشعوب كافة قديمها وحديثها. وحكمة هذا التقسيم والعدد ليس مما أحدثه الناس وابتدعوه بعقولهم من ذوات أنفسهم، وإنما هو أمر أنزله الله تعالى في كتبه على ألسنة رسله كافة ليعلموا الناس عدد السنين والحساب. [١]

والفارق بين السنة الشمسية والسنة القمرية أن الأولى ثابتة في عدد أيامها، أما الثانية فتنقص احد عشر يوماً في كل سنة تبعاً لأوضاع القمر في كل شهر، وعليه فإن الأشهر الحرم فيه تدور في جميع الفصول كل ثلاث وثلاثين سنة. كدوران شهر رمضان خلال هذه المدة عبر شهور السنة كلها. [٢]*

٢. ورثت العرب من ملة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام تحريم القتال في الأشهر الحرم. وقد جاء تحديد الأشهر الحرم في خطبة النبي ﷺ التي ألقاها في حجة الوداع ،كما جاء في صحيح البخاري ومسلم من رواية أبي بكرة .. : [السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم :ثلاث

(١) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب آي التنزيل، للرازي: ص١٧٨.

(٢) * التقويم الميلادي يعتمد على دوران الأرض حول الشمس في ٣٦٥ يوماً.



متواليات :ذو القعدة وذو الحجة والمحرَّم ورجب[١]] . ثلاثة سرد متتابعة وواحد فرد وهو رجب.

ويرى **الجصاص** صاحب كتاب أحكام القرآن [وسميت هذه الأشهر حرماً لمعنيين: أحدهما تحريم القتال فيها وثانيهما تعظيم انتهاك المحارم فيها وحسن تعظيم الطاعات خلالها]. [٢]

ويرى **الشيخ الشعراوي** [أن الله عز وجل جعل البيت الحرام حراماً وجعل الأشهر الحرم لا قتال فيها، عسى الإنسان أن يبتعد عن شرور الحرب وينعم بالسلام، تسهيلاً للتوبة وترغيباً فيها، ولكن سبحانه وتعالى لم يشأ أن يجعلها خضوعا للعدو، فإن قاتلك وجبت مقاتلته]. [٣]

٣. إن تحريم القتال في الأشهر الحرم كان حكماً معمولاً به من عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وكان من حرمات الله ومما جعله مصلحة لأهل مكة، قواماً لمصلحتهم ومعاشهم لتأمين الحج وطريقه، حماية للحجيج على أنفسهم حين يتقاطرون إلى البيت الحرام من كل حدب وصوب مهما تناءت بهم الديار وتباعدت الأمصار. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى حتى يتخفف فيها المقاتلون من أعباء الحرب وأثقالها وأهوالها.

ويتفرّغوا لعبادات تصفو معها نفوسهم من صوم وصلاة وزكاة وحج وعمرة وذكر ودعاء إلى الله تعالى، وغاية ذلك معالجة أمراض القلوب والنفوس. سعياً لدفع الظلم عن مظلومهم وإغاثة ملهوفهم، وفك الارتباط بينهم وبين ما اعتادوا عليه من الثأر والإغارة على بعضهم بعضاً، لتصفو نفوسهم وترقى إلى سماحة الرسالة.

٤. للعلماء أكثر من رأي حول تحريم القتال أو جوازه في الأشهر الحرم. وسنعرض فيما يلي أهم هذه الآراء بدءاً بأدلة القائلين بتحريم القتال في الأشهر الحرم وتثنية بأدلة القائلين بنسخ

---

(١) صحيح البخاري رقم ٤٦٦٢ ٨/ ٣٢٤ وصحيح مسلم رقم ١٦٧٩ ٣/ ١٣٠٥.
(٢) أحكام القرآن، للجصاص: ٤/ ٣٠٨.
(٣) الفتاوى، الشيخ محمد متولي الشعراوي: ٨/ ٤٦.



تحريم القتال في هذه الأشهر، مع إبراز أدلتهم من القرآن والسنة، ثم التوفيق بين القولين وبيان ما نعتقد أنه الصواب في الموضوع.

أولا: تتلخص أدلة القائلين بتحريم القتال في الأشهر الحرم فيما يلي من الآيات والأحاديث:

أ-قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ [البقرة/ ٢١٧].

ب- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ [التوبة: ٣٦].

ت- قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ﴾[المائدة: ٢].

ث- قوله تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ ﴾[البقرة: ١٩٤].

يرى أنصار هذا الرأي تقرير حرمة القتال في الشهر الحرام والشهر هنا: (اسم مفرد يدل على الجنس في جميع الأشهر الحرم). (١)

وجاء في تفسير **الألوسي**: [أن من اعتقد استحلال القتال فيه فهو باطل]. (٢)

ونراه يقول أيضاً: [أن ما وقع من الصحابة من قتال في الشهر الحرام كسرية استطلاع **عبد الله بن جحش** إلى (النخلة) بين مكة والطائف، من أجل الحصول على أخبار قريش كان من باب الخطأ في الاجتهاد، حيث عنفهم النبي ﷺ على هجومهم على قافلة القوم وقتل عددٍ منهم وأسر عدد آخر]. (٣)

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٦/ ٣٩.
(٢) روح المعاني، للألوسي: ٢/ ١٠٨.
(٣) المصدر السابق: ٢/ ١٠٨.



وبمناسبة قوله تعالى: ﴿ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ جاء في تفسير **القرطبي** بمعنى مستنكر، لأن تحريم القتال في الشهر الحرام كان ثابتاً يومئذ إذا كان الابتداء من المسلمين.[١]

وجاء في تفسير **القرطبي** أيضاً بمناسبة قوله تعالى ﴿ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ ﴾ لا تستحلوها للقتال ولا للغارة.[٢]

ومما يتفق مع تحريم القتال في الأشهر الحرم عند أصحاب هذا الرأي، ما جاء في مسند **الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله** أنه قال:(لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يغزى أو يغزو).[٣]

ومعنى قوله إلا أن يغزى كان رسول الله ﷺ لا يقاتل في الشهر الحرام إلا في رد العدوان للدفاع عن النفس.

وفي قوله أو يغزو كان رسول الله ﷺ إذا انطلق في الغزوة قبل الشهر الحرام يقاتل وإذا حضر الشهر الحرام توقف عن القتال حتى ينسلخ الشهر.

ثانياً: تتلخص أدلة القائلين بنسخ تحريم القتال في الأشهر الحرم في الآيات القرآنية والأحاديث التالية:

أ- قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾ [التوبة: ٣٦].

ب- وقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة: ٥].

ت- وقوله تعالى:﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ [التوبة: ٢٩].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٣/ ٤٥

(٢) المصدر السابق: ٦/ ٣٩.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٣/ ٣٣٤.

أما وجه استدلالهم من السيرة النبوية، فيرى أنصار هذا الرأي أن النهي عن قتال المشركين في الأشهر الحرم، منسوخ لتضافر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه غزا هوازن بحنين وثقيفاً بالطائف، وأرسل **أبا عامر** إلى «أوطاس» لحرب المشركين بها في الأشهر الحرم في شوال وذي القعدة.

فلو كان القتال فيهن حراماً وفيه معصية كان رسول الله ﷺ أبعد الناس من فعله. [(١)]

ويقول **ابن القيم الجوزية**:(لا خلاف في جواز القتال في الشهر الحرام إذا بدأ العدو، وإنما الخلاف أن يقاتل ابتدءاً، فالجمهور جوزوه وقالوا بنسخ تحريم القتال وهو مذهب الأئمة الأربعة). [(٢)]

وعلى خلفية هذا فقد ذهب الجمهور من فقهاء المسلمين إلى القول بأن القتال في الأشهر الحرم كان محرماً في الإسلام إلا في حالة رد العدوان، بمعنى أنه لا يجوز للمسلمين أن يبدءوا أهل الحرب بإعلان الجهاد عليهم في هذه الأشهر، إذا لم يصدر من الكفار اعتداءٌ على المسلمين، أما حين يعتدي أهل الحرب على المسلمين في هذه الأشهر فإن رد الاعتداء فيها يكون مشروعاً وهذا ما كان عليه الحكم في الإسلام أول الأمر. ثم نسخ هذا الحكم وحل محله مشروعية الجهاد والبدء بقتال الكفار في كل وقت بما يشمل الأشهر الحرم، للمصلحة في سبيل نشر الإسلام على امتداد شهور السنة. مع إباحة قتل الكفار في كل وقت وزمان ومكان. [(٣)] وبمناسبة قوله تعالى: ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً ﴾ فهي تعني وجوب قتال الكفار والمشركين طيلة شهور السنة.

وختاماً هذه أدلة المؤيدين للتحريم واستدلالهم، والقائلين بنسخ التحريم بموقفيهما

---

(١) جامع البيان، للطبري: ٢/ ٢٠٦، وانظر أحكام القرآن، لابن العربي: ١/ ١٤٧، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٣/ ٤٣، وروح المعاني، للألوسي: ١٠/ ٩٢.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم: ٣/ ٣٤٠.

(٣) الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، د. محمد خير هيكل: ٢/ ١٥١٤.

المتعارضين، وبالتأمل في وجهة نظر الفريقين يتضح لنا حجة القائلين بنسخ التحريم.

فقد زال التحريم بزوال المقدمات التي استوجبته إذ ليس من المعقول أن نفكر على نسق واحد على مر العصور، وعليه يجوز للإمام مقاتلة أهل الكفر والشرك مع قدرته على مقارعتهم بمختلف صنوف أسلحة عصره، متى شاء على امتداد شهور السنة بما فيها الأشهر الحرم للضرورة والمصلحة.

وكل وقت يصلح مقاتلتهم فيه جائز شرعاً، ما لم تترتب على ذلك أضرار بالغة. حتى لا يتوهم العدو في كل زمان ومكان عدم جواز الحرب في الإسلام خلال هذه الشهور. فيأخذهم على حين غرة بسبب ما هم عليه من التراخي وعدم الاستعداد، وقد تضافر كل العسكريين قديماً وحديثاً على القول أن الحرب خدعة، وهذا من باب الصدق في التوكل على الله ثباتاً وإصراراً في منازلة العدو طاعة لله ورسوله.

المقطع الخامس من سورة التوبة ويمتد من الآية ٣٨ إلى الآية ١٢٧

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ

أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلۡ
أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ
مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا
يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي
ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ
وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ
﴿٥٧﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ
﴿٥٨﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ
وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا
وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾ وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ
يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ
﴿٦١﴾ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ
﴿٦٢﴾ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدٗا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ
ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ
إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ
قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن
نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ
بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ
ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ
وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن
قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ

كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا

تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا

ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ
أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ
عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ
حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ
فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ
وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ
أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾
لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ
ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ
فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ
ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ
عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن
يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ
﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ
عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ
يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ

وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

القراءات[1]*:

- قرأ يعقوب (وكلمة الله) بالنصب، والباقون بالرفع. الآية/ ٤٠.

---

(١) * انظر الجامع لأحكام القرآن، للطبري: تفسير سورة التوبة. والكشاف، للزمخشري، تفسير سورة التوبة. والتبيان في إعراب القرآن، للعكبري: في إعرابه للسورة. والكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها، لأبي محمد مكي بن أبي طالب القيسي. باب سورة التوبة.

- قرأ **حمزة والكسائي** (وما منعهم أن يقبل منهم) بالياء. الآية/ ٥٤.

- قرأ **يعقوب** (يُلمزك) بضم الياء. وقرأ ابن كثير (يلازمك). الآية/ ٥٨.

- قرأ **نافع** (أذْن) بإسكان الذال، والباقون (أُذُن) بضم الذال، وقرأ **حمزة**: (ورحمة) بالجر عطفاً على (خير). والباقون: (رحمة) بالضم. الآية/ ٦١.

- قرأ **يعقوب**: (المعْذِرون) بسكون العين والذال المكسورة بدون تشديد. الآية/ ٩٠.

- قرأ **ابن كثير وأبو عمرو**: (السُّوء) بضم السين. والباقون: (السَّوء) بفتح السين. وقرأ **ورش وإسماعيل عن نافع**: (إنها قُرُبة) بضم القاف والراء. والباقون: (قُرْبة) بإسكان الراء. الآية/ ٩٨ و ٩٩.

- قرأ **حمزة والكسائي وحفص**: (إن صلاتك) وقرأ الباقون: (إن صلواتك) بالجمع. الآية/ ١٠٣.

- قرأ **نافع** وحمزة **والكسائي** وحفص (مُرْجَون) كما في المصحف، وقرأ الباقون (مرجأون) وهذا في اللغة جائز. يقال أرجأت الأمر وأرجيته. الآية/ ١٠٦.

- قرأ **نافع وابن عامر**: (الذين اتخذوا مسجداً ضراراً...) بدون واو والباقون: (والذين) وقرأ **نافع وابن عامر**: (أُسّس بنيانه) بضم الألف ورفع بنيانه في الموضعين. وقرأ الباقون (أَسّس بنيانه) وقرأ **ابن عامر وحمزة وأبو بكر**: (جُرْف) بإسكان الراء. وقرأ الباقون (جُرُف) بضم الجيم والراء. وقرأ **يعقوب**: (إلى أن تقطع قلوبهم) وقرأ **ابن عامر وحمزة وحفص**: (تَقطّع) بفتح التاء والطاء المشدودة. وقرأ الباقون: (تُقطّع) بضم التاء وتشديد الطاء المفتوحة. الآية/ ١٠٧ و١٠٩ و١١٠.

- قرأ **عاصم**: (فيَقتُلون ويُقتَلون) وهي قراءة المصحف. وقرأ **حمزة والكسائي**: (فيُقتَلون ويَقتُلون) بتقديم الفعل المبني للمفعول. الآية/ ١١١.

- قرأ **حمزة وحفص**: (يزيغ) بالياء والباقون (تزيغ) بالتاء. الآية/ ١١٧.

- قرأ حمزة ويعقوب: (أو لا ترون) بالتاء. الآية/ ١١٦.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي للمقطع الخامس

مما تجدر الإشارة إليه هنا في بداية هذا المقطع أن الكلام فيه حتى آخر السورة إلا آيتين منها يدور حول غزوة تبوك، وما لابسها من هتك ستر المنافقين وما اشتملته على بعض الأحكام الفقهية.

ومناسبة آيات المقطع لما قبلها وطيدة تجلت فيما سبق بوجوب قتال المشركين وأهل الكتاب، في حين تدعو آيات هذا المقطع إلى النفير العام والجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا مع تحذير المتقاعسين والمتثاقلين والمنافقين من غضب الله وسخطه، وفي هذا توافق وتكامل مع سورة الأنفال التي سبقتها.

أشرنا آنفاً أن سورة التوبة نزلت في غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة، حيث بلغ النبي ﷺ أنباء عن حشود كبيرة للروم، على حدود بلاد الشام الجنوبية مع حلفائهم من القبائل العربية المتنصرة كجذام ولخم وغسان، تريد غزو المسلمين في الجزيرة بعد أن دانت البلاد كلها لديانة الإسلام مما أفزع هرقل زعيم الروم.

لذلك ندب رسول الله ﷺ الناس واستنفرهم لقتال الروم بالخروج إليهم وقتالهم على أرضهم بدلاً من انتظارهم لقتالهم على أرض الجزيرة العربية.

واستنفر المسلمين وأمرهم بأهبة الاستعداد لهم وكان من عادته ﷺ لا يعلن عن وجهته في كل غزوة يغزوها، من باب الخدعة والمكيدة في الحرب لأخذ العدو على حين غرة، لما تقتضيه مصلحة الحرب من الكتمان.[1]

ولقد بيّن لهم أنه في غزوته هذه يريد الروم ليتأهبوا للأمر فالعدو كثير العدد والعدة، والمسافة طويلة وشاقة والطريق صحراء قاحلة، والحر شديد والناس في عسرة والبلاد في قحطٍ

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، للطبري:٢/ ١٨١. وتهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون: ص٣٢٦.



وجدب لذلك سميت هذه الغزوة بغزوة العسرة.

وقد حث الرسول ﷺ المسلمين على تجهيز الجيش والخروج فيه على العموم والكلية لكل من كان قادراً على النفير والجهاد. فلبى المسلمون المخلصون داعي الجهاد وتسابقوا إلى البذل في سبيل الله وضربوا أروع الأمثلة في التضحية والإنفاق.

فجاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه بماله كله ووضعه بين يدي النبي ﷺ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه بنصف ماله، أما **عثمان بن عفان** رضي الله عنه فقد تولى تجهيز بعض وحدات الجيش بمفرده ثم جاء بألف دينار وسلمها إلى النبي ﷺ ودعا له بخير وقال: (ما يضر عثمان ما عمل بعدها). [١] ولهذا يعد أكبر منفق على الجيش في تاريخ الغزوات والفتوح الإسلامية قياساً بزمانه.

ثم جاء **البكّاؤون** وهم سبعة وقالوا يا رسول الله: ألم نجد عندك ما تحملنا عليه؟ فقال لهم: لا أجد ما أحملكم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون. [٢] وبالمقابل تخلف عن الخروج مع المقاتلين المنافقون وتعللوا بشتى المعاذير.

ومضى الجيش حتى وصل تبوك ولم يلق حرباً وقد عقد رسول الله ﷺ صلحاً مع أهل الحواضر القريبة من تبوك. وفرض عليهم الجزية وعاد الرسول ﷺ وجيشه سالمين إلى المدينة بعد أن نصروا بالرعب مسيرة شهر.

ويلاحظ في آيات المقطع الخامس تحديدا، مخاطبة الله تعالى للمؤمنين بالجهاد، محذراً إياهم التباطؤ في النفير وموبخاً من تخلف منهم عن الغزوة، وعدم اللحاق برسول الله ﷺ دعة وخلوداً وراحة لنعيم الدنيا الزائل، وقد نبه سبحانه وتعالى إلى مخاطر القعود عن الجهاد في سبيله وتوعد من يفعل ذلك بالعقاب في الدنيا والآخرة.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد: ٥/ ٦٣، والترمذي (٣٧٠٢) من حديث عبد الرحمن بن سمرة.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية: ٣/ ٥٢٨. وتاريخ الأمم والملوك، للطبري: ٢/ ١٨٢.

وأشارت الآيات ما وقع من مشاهد في غار **ثور** بين النبي ﷺ وصاحبه الصديق، [(١)]* حين كانا بين يدي رحمة ربهما معية ورعاية وحفظاً، عند اقتراب المشركين من الغار. وقول النبي ﷺ لأبي بكر (ما ظنك باثنين الله ثالثهما) تسرية وطمأنة وسكينة. وحكمته أن من كان مع الله فإن الله ناصره.

ثم تمضي آيات المقطع الخامس لتتحدث عن المخلفين، وهم طائفة من المنافقين استنفرهم رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقعدوا متثاقلين، وركنوا إلى الدنيا وشهواتها، وكرهوا مشاق السفر ومتاعبه فتباطؤوا وتقاعسوا عن النفير العام، فحصل لبعضهم تثاقل ولبعضهم الآخر تخلف كسلاً وعجزاً، وآثروا الراحة في الدنيا على النفير الحاصل للمجاهدين في الآخرة.

وكان المخلفون أكثرهم منافقين وقليل منهم مؤمنون لهم علة وعذر في التخلف بخلاف غيرهم ممن لا عذر لهم. ثلاثة من المؤمنين خانهم موقفهم فتخلفوا عن الخروج إلى تبوك كسلاً وتقصيراً دون نفاق وهم [**كعب بن مالك** و**هلال** بن أمية ومرارة بن **الربيع**] فلما وجدوا أنفسهم بين أهليهم ينعمون بالراحة ورسول الله ﷺ في المشقة والحر الشديد. استيقظ الإيمان في نفوسهم وعلموا أنهم ارتكبوا بتخلفهم عن الجهاد إثماً عظيماً وندموا أشد الندم، فلما رجع النبي ﷺ قاطعهم ولم يكلمهم وحبس عنهم زوجاتهم، وامتنع الناس عن الكلام معهم. وضاقت عليهم الدنيا واستمروا في هذا العذاب النفسي أياماً طويلة حتى أنزل الله تعالى توبته عليهم لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

أما المخلفون من غير عذرٍ فكانوا أكثر من فئة لكل دوافعه في تبرير ذريعة تخلفه.

---

(١) * - للمزيد حول فضل الصديق ومناقبه انظر: تاريخ الخلفاء، للسيوطي: ص٢٩-٩٢. وفي قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ الليل/ ١٧-١٨. قال ابن الجوزي: أجمعوا على أنها نزلت في أبي بكر. تاريخ الخلفاء: ص٣٧.

رصدت سورة التوبة صفاتهم وطبقاتهم وكشفت معاداتهم لله ورسوله والكفر بآياته ولهذا نقل عن **ابن عباس** ﷺ قوله: (عرفت سورة التوبة بالفاضحة لأنها ما زالت تنزل في المنافقين وتنال منهم حتى ظننا أنها لا تبقى أحداً إلا ذكرته بقولها ومنهم ومنهم ومنهم). [١]

قراءة تحليلية في وصف سلوك دوافع تخلف المنافقين عن الجهاد في سبيل الله

يحسن بنا إتماماً للفائدة الشروع بتحليل سيكولوجي (نفسي) لشخصيات المنافقين في مختلف طبقاتهم، وما طرحوه من مسوغات تبريرية كاذبة لتخلفهم، إذ من عجيب أمرهم ليس فيهم من تنسحب عليه أعذار القعود كالضعفاء والمرضى والفقراء لقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩١].

وفيما يلي عرض لجماعات المنافقين وما زعموه من أقوال في بيان تخلفهم ومكرهم، ظناً منهم أنهم يخادعون الله ورسوله:

١) قال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحر إعراضاً عن الجهاد: فأنزل الله تعالى فيهم ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴾ [٢] [التوبة: ٨١].

٢) انتحل بعض المنافقين الأعذار الكاذبة وجاءوا الرسول ﷺ يحلفون بالله تعالى كاذبين. إنهم تخلفوا لأسباب وجيهة وهم متمسكون بحبهم للنبي ﷺ، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ [التوبة: ٥٦].

٣) أخذ بعض المنافقين يروج الشائعات الباطلة من باب الحرب النفسية، ليزرع الخوف والتردد في نفوس المؤمنين، لتفريقهم وإضعافهم وثنيهم عن الخروج إلى الجهاد إرجافاً وترهيباً لهم. إذ قال بعضهم لبعض: (أتحسبون قتال بني الأصفر «الروم» كقتال العرب بعضهم بعضاً،

---

(١) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٢٩، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٦١.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، للطبري: ٢/ ١٨٢. وتهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون: ص٣٣٧.

والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال أتظنون أنكم قادرون على فتح قصور الروم وحصونها؟ هيهات هيهات، فاطلع الله نبيه ﷺ على ما قالوا فأنكروا وقالوا إنما كنا نخوض ونلعب فأنزل الله فيهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [1] [التوبة: ٦٥].

٤) ثم مضت سورة التوبة المعروفة بسورة **العذاب** و**الفاضحة** و**المخزية** و**الكاشفة** تفضح المنافقين، حتى كان منهم طائفة انتقدت رسول الله ﷺ في توزيع الصدقات وليس انتقادهم وعيبهم لقصد صحيح ولا لرأي راجح، وإنما بقصد أن يعطوا منها، فقد كانت بواعث رضاهم وسخطهم منفعتهم الخاصة فإن أعطي الواحد منهم رضي وإن حُرم سخط. يبحثون عن المكافأة الدنيوية القريبة والمباشرة كأنهم يريدون الغنيمة باردة من غير قتال. فأنزل الله فيهم: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [2] [التوبة: ٦٠].

٥) ومنهم من جاء يعتذر عن الخروج بحجة أنه لا يصبر عن نساء الروم وفتنتهم، فلو ضمن له رسول الله ﷺ العفة خرج وهو **الجد بن قيس** فأنزل الله فيه: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [التوبة: ٤٩].

٦) ومنهم قوم زعموا منكراً من القول أن رسول الله ﷺ «**أُذن**» بمعنى يقبل كل ما يقال له لأنه لا يميز بين صادق القول وكاذبه، ومن قال له شيئاً صدقه ومن حدثه صدقه. وغايتهم في ذلك التدليس على النبي ﷺ في سبب إمساك خروجهم عن الغزو، فإن عاد من غزوته برروا له أعذارهم فوافقهم عليها، أرادوا بذلك التقليل من شأن النبي ﷺ والقدح فيه وهو أكمل الخلق عقلاً وأتمهم إدراكاً وأثقبهم رأياً وبصيرة، وقد غاب عنهم أنه بعلم الله عالم للصادق والكاذب منهم فأنزل الله فيهم: ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ

(١) مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني: ٢/ ١٥٢، وفي ظلال القرآن، سيد قطب: ٤/ ٢٣٩.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، للطبري: ٢/ ١٨٠. وتهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون: ص٣٣٧.

لَّكُمْ ﴾ [التوبة: ٦١]. ولقد رد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ بمعنى أذن خير لا كما تزعمون، (فهو لا يقبل مما يسمعه إلا الحق وما وافق الشرع، وما فيه الخير والمصلحة للخلق، وليس بأذن في غير ذلك كسماع الباطل والغيبة والنميمة، فهو لا يلقي سمعه لشيء من ذلك). [1]

٧) ومنهم من كان يتربص بالنبي وصحبه من المؤمنين الدوائر والعداوة والبغضاء، فكلما حصل لهم اليُسر والانشراح وأصابتهم حسنة كالنصر على عدوهم ساءهم ذلك وأحزنهم وغمهم، وكلما اشتدت عليهم أمور الدنيا فرحوا من باب المكر والمكيدة. فأنزل الله فيهم: ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ [التوبة: ٥٠].

٨) ومنهم من كان يقدم رجلاً ويؤخر أخرى في غزوة تبوك لأنهم جبناء مخذولون، يسارعون بالبغضاء والنميمة والفتنة ليفسدوا عزيمة الجند، بما يضمرونه من شر للإسلام والمسلمين، لم تكن لديهم نية الخروج بعد أن استمرؤوا الركون في الظل مع طيب الثمار، ولو كانت لديهم نية الخروج لتأهبوا له وأخذوا بأسباب النصر الروحية والمادية، بَيْدَ أنهم لم يفعلوا فحبسهم الله عن حكمة وأنزل فيهم ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ [التوبة: ٤٦-٤٧]. وهذا الضرب من المنافقين حصل منهم التخلف على التراخي.

٩) ومنهم من دخل الإسلام ظاهراً ليكيد له سراً، فكلما أعز الله دينه غاظهم وساءهم فأنزل الله فيهم: ﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ [التوبة: ٤٨]. [وكانوا من أكابر المنافقين الذين يكيدون للإسلام

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا: ١١/ ٥١٧.

وأهله]. [١]

فحقيق بمثل هؤلاء أن يحذر الله عباده منهم ولا يبالي بتخلفهم عن الغزوة. وقد شاءت حكمته سبحانه وتعالى تثبيطهم ومنعهم من الخروج رحمة بالمؤمنين درءاً من مفاسد مخالطتهم للجيش، لما عرف عنهم من سوء الطوية للإسلام والمسلمين منذ هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة. وهم الذين توعدوا النبي ﷺ بالشر لو ظفروا به حين قالوا «ليخرجن الأعز منها الأذل». ويمثل هذه الفئة رأس النفاق **عبد الله بن أبي سلول**.

١٠) ومنهم من حاول المكر بالرسول ﷺ في أحد ليالي غزوة تبوك عند عودته منها، حينما همَوا الفتك به ﷺ محاولين قتله، فوقع إخبار الله لنبيه فانتهرهم رسول الله ﷺ وصرخ بهم فولوا مدبرين إلى غير رجعة. فأنزل سبحانه وتعالى فيهم: ﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ [التوبة: ٧٤]. وكانوا اثني عشر رجلاً. [٢]

١١) ومنهم من لمز في صدقات التطوع التي قدمها المؤمنون في غزوة تبوك فيما قل وكثر منها، وكان ذلك عندما حث النبي ﷺ على الصدقة فتبارى المؤمنون في دفعها للنبي ﷺ كل حسب طاقته لتيسير أمور الغزوة، فقالوا للمكثر منهم أن قصده الرياء والسمعة وقالوا للمقل الفقير منهم إن الله غني عن صدقته، [٣] فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧٩].

١٢) ومنهم منافقوا الأعراب الذين قالوا للنبي ﷺ إن لنا عيالاً وإن بنا جهداً فائذن لنا في التخلف، وجاء نفرٌ آخر منهم ينتحل الأعذار ليؤذن له في التخلف وقالوا: يا نبي الله، إنا إن غزونا معك أغاروا على نسائنا وأولادنا وأنعامنا في غيابنا عنهم، فقال لهم رسول الله: قد أنبأني

(١) تاريخ الأمم والملوك، للطبري: ٢/ ١٨٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٢٠٧.
(٣) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٨٠.

الله من أخباركم وسيغني الله عنكم، وهؤلاء هم منافقو الأعراب الذين ارتضوا لأنفسهم أن يقعدوا مع النساء والصبية فأنزل الله بشأنهم: ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩٠]. وكانوا في معظمهم من بني غِفَار. [١]

وهذه الطائفة من الأعراب توهموا أن لهم عذراً ولا عذر لهم ولا مسوغ لتخلفهم ومصيرهم عذاب أليم في الآخرة.

وهناك فئة ثالثة من الأعراب لا ينفق إلا تقية من المسلمين ورياء، لا لوجه الله عز وجل وابتغاء مثوبته. [٢] ومما تجدر ملاحظته للمتأمل في قصة غزوة تبوك أن الله سبحانه وتعالى قد صنف الأعراب إلى منافقين ومؤمنين.

ولقد ذكر الله المنافقين من الأعراب على وجه الخصوص كاشفاً ما هم عليه من شديد النفاق. فقد مرنوه ولجوا فيه وأقاموا عليه ولم يتوبوا منه، فأنزل الله بشأنهم ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩٨].

فاستحقوا لما مردوا عليه من النفاق غضب الله ونفى عنهم الإيمان حين زعموه لقوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ الحجرات/ ١٤.

كما نفى الله عنهم العلم بحدود الله وشرعه فأنزل فيهم: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[التوبة: ٩٧].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، للطبري: ٢/ ١٨٢.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٢٣٤، والكشاف، للزمخشري:٢/ ٢٨٨.

وبالمقابل نزه سبحانه وتعالى طائفة منهم وأثنى عليهم وأثبت لهم الإيمان بالله واليوم الآخر، وهي الفئة المؤمنة منهم التي غفر لها بسبب إيمانها فأنزل فيهم: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩٩].

تفيد الآية السابقة أنهم الفائزون من جملة الأعراب بسعادة الدنيا والآخرة، لأنهم جاهدوا وبذلوا أرواحهم وأموالهم في سبيل الله، ولم يرتضوا لأنفسهم أن يكونوا في عداد المتخلفين الذين استحقوا غضب الله تعالى.

١٣) ومنهم **أُولُواْ الطَّوْلِ**: وهم ضرب من أكثر أهل النفاق في السعة والجاه والسلطان، التمسوا من رسول الله ﷺ أن يأذن لهم في التخلف عن الجهاد دون عذر أو مسوغ. لعجبهم بأنفسهم بأنهم الأعز. فأنزل الله فيهم: ﴿ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨٦-٨٧]. وفي هذه الآية ذم لهم لتخلفهم عن الجهاد مع القدرة عليه في المال والنفس. وغاب عنهم أهمية فقه الجهاد ومنزلته لصاحبه في الدنيا والآخرة. وفاتهم أن العزة لله ورسوله وللمؤمنين.

١٤) ومنهم طائفة عمدت إلى بناء مسجد يضارون به مسجد قباء بتحريض من **أبي عامر الراهب** المكنى بالفاسق. فلما فرغوا من بنائه أتوا رسول الله ﷺ وهو على أهبة الاستعداد للانطلاق في غزوة تبوك، فقالوا يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة ونحب أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة، فأخبرهم رسول الله ﷺ أنه على جناح سفر وعند عودته سيصلي فيه، فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوته وقبل بلوغه المدينة نزلت عليه الآيات التالية التي تفضح المنافقين وتكشف سوء قصدهم.[1]

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٢٥٣. وتاريخ الأمم والملوك، للطبري: ٢/ ١٨٦.



﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٧-١٠٨].

١٥) ومن المنافقين من انتظمت قصته في السورة للعظة والاعتبار. فقد أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه الله من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين، فلما آتاه الله المال واستروح نعيم الترف تناسى ما وعد به آنفا، فما وفى بما قال ولا صدق فيما ادعى فقد سكن النفاق قلبه فسكرته خمرة الغنى وسار في الناس في كبر وخيلاء، فأنزل الله سبحانه وتعالى فيه ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٨].

ومما تجدر الإشارة إليه في هذه القصة اختلاف المفسرين فيمن نزلت، فقال فريق منهم أنها نزلت في **ثعلبة بن حاطب** وأنكر آخرون هذا الرأي، وقالوا نزلت في منافق من المنافقين وأن **ثعلبة** هنا مفترى عليه.[1]

١٦) ومنهم طائفة ظهر فيهم من القرائن ما يبين أنهم قصدوا عدم الخروج للجهاد عن سابق إصرار وعناد وهم أصحاب هوى، وأنهم مهما أنفقوا من نفقة طائعين أو مكرهين فلن تقبل منهم، لأنهم فاسقون والله طيب لا يحب إلا طيباً. ونفقتهم هذه لا يرجون منها طاعة الله ورسوله والدليل على ذلك تثاقلهم في الجهاد وتكاسلهم في الصلاة، فهؤلاء بطلت مساعيهم في النفقة والصلاة، فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة وما أموالهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله أن يعذبهم بها، وهي حسرة عليهم في الآخرة لأنهم عصوا الله لأجلها لما ألهتهم عن ذكر الله، ولهذا أنزل الله فيهم قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا

(١) للمزيد انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٢٠٩.
والمحلى: لابن حزم: ١١/ ٢٠٨. والإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر: ٢/ ٢١٩.



فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ [التوبة: ٥٢-٥٤]. ولتأكيد ذلك خاطب الله عز وجل رسوله ﷺ: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[التوبة: ٥٥]. وكرر ذلك في الآية ٨٥ من باب العظة والاعتبار في أموالهم وأولادهم.

١٧) وهناك رهط من المنافقين خرجوا في الغزوة معاً وكانوا متلازمين في سيرهم قالوا حين ضلّت ناقة رسول الله: أليس يزعم محمد أنه نبي ويخبر عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته!

فأطلعه الله سبحانه وتعالى على ما في قلوبهم وما يتحدثون به. فأرسل إليهم من يكاشفهم في قولهم وقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب. فأجابهم رسول الله ﷺ: وإني والله ما أعلم إلا ما علَّمني الله، وقد دلني الله عليها، وهي في الوادي من شِعْب كذا وكذا، وقد حبستها شجرة بزمامها، فانطلق نفر من الصحابة فجاءوا بها. وكانت الرياسة في هذا الرهط من المنافقين إلى زيد القينقاعي.[1]

وفي هذا درس على صدق النبوة بإعلام النبي ﷺ ما استتر في قلوبهم وجرى على ألسنتهم بصوت خفيض، مع عدم جواز الخوض باللعب والهزل بحق رسول الله ﷺ، وحرمة الشك في نبوته. وحكمته أيضاً: ما جاء رسول قط وناصبه قومه العداء، إلا كان دليلاً على صدق نبوته.

١٨) وهناك رهط آخر من المنافقين انطلق مع الرسول في غزوته على استحياء وتثاقل، ثم سارعت بهم نيتهم على التخلف، فجعل الرجل منهم يتخلَّف عنه ﷺ كلما توغل الجيش في السير نحو تبوك.

وكانت الصحابة تأتي على ذكرهم للرسول ﷺ فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان، فيقول

(١) تاريخ الأمم والملوك، للطبري: ٢/ ١٨٤.



دعوه، فإن يكُ خير فسيُلْحقه الله بكم، وإن يكُ غير ذلك فقد أراحكم الله منه. [1] وهؤلاء وإن ضحكوا قليلاً لكنهم سيبكون كثيراً. لما كان منهم البداءة في التولي والإدبار لكرههم مشاق السفر ومتاعبه في سبيل الله.

وفي هذا درس على عدم جواز استصحاب المنخذل في الغزوات والحروب. [2]

١٩) وهناك رهط منهم امتنع عن الخروج، وابتغى الفتنة في آل بيت النبي، وقالوا في حق النبي ﷺ وعلي بن أبي طالب الشيء الكثير من مرذول القول، حين علموا أن النبي ﷺ خلفه على أهله وأمره بالإقامة فيهم، وقالوا: ما خلفه إلا استثقالاً له وتخففاً منه. فلما بلغ الخبر علي بن أبي طالب، امتشق سلاحه ثم خرج حتى أدرك النبي ﷺ وهو نازل بالجرف- وهو موضع على بعد ثلاثة أميال من المدينة – فقال: يا نبي الله، زعم المنافقون أنك إنما خلفتني لأنك استثقلتني فتخففت مني. فأجاب رسول الله: كذبوا، ولكني خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك. أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبي بعدي. فرجع إلى المدينة ومضى رسول الله ﷺ على سفره قاصداً تبوك. [3] وكان هدف المنافقين ألا يخلف النبي ﷺ أحد من الرجال في أهل بيته إذا غاب عنهم علي بن أبي طالب، لأسباب سوداوية في أنفسهم.

أشرنا آنفاً في النقاط (١-١٩) مجمل طبقات المنافقين وفساد دوافعهم في التخلف عن الجهاد. لأنهم لا يرون فيه قربةً وطاعةً لله تعالى. ومما يجدر ذكره هنا أن النبي ﷺ قد أسر إلى حذيفة بن اليمان بأسماء أهل الرياسة من المنافقين، وكانوا ثمانين ونيِّفاً. وطلب إليه ألا يبوح بأسمائهم خشية الفتنة.

ثم تمضي الآيات محذرة المنافقين أن الله سيصيبهم من العذاب ما أصاب به من كان قبلهم

---

(١) تاريخ الأمم والملوك، للطبري: ٢/ ١٨٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٢١٨.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، للطبري: ٢/ ١٨٣. وتهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون: ص٣٣٩.

من الأمم المكذبة، وخص منهم بالذكر قوم **نوح** الذين أهلكوا بالغرق وقوم **عاد** الذين أهلكوا بالريح العقيم، وقوم **ثمود** الذين أهلكوا بالصيحة بعد عقرهم للناقة، وقوم **إبراهيم** حيث أنجاه الله من النار وأيد بنصره، وأصحاب مدين قوم **شعيب** الذين أصابتهم الرجفة وعذاب يوم الظلة والمؤتفكات قوم **لوط** الذين رجف بهم الأرض، [1] وجعل عاليها سافلها بسبب إتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [التوبة: ٧٠]. ثم تتوالى الآيات ليخبر الله تعالى نبيه ﷺ أن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، لقوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٨٠].

وبمناسبة ذكر العدد سبعين في الآية السابقة، يحسن بنا إتماماً للفائدة وقفة تأمل حول حكمة هذا العدد وعلاقته بغيره من الأعداد والأرقام التي وردت كثيراً في القرآن الكريم كسبعة وسبعمائة في قراءة توفيقية تكاملية على النحو التالي:

إن العرب تذكر السبعين والسبعمائة للدلالة على المبالغة في الشيء من غير تحديد أو تسلسل لها.

وقد ذكر **القرطبي**: أن ذكر السبعين عبارة عن الكثرة. ومثاله قول أحدهم عند الخصومة: لا أكلمه سبعين سنة، وكأن قوله هذا قد نزل عند المتكلم والسامع بمنزلة لا أكلمه أبداً. [2] ودليله أيضاً شواهد ما ورد في أكثر من حديث قول النبي ﷺ سبعين خريفاً.

---

(١) للمزيد انظر: القصص القرآني، د. صلاح الخالدي. وقصص الأنبياء، د. عبد الوهاب النجار. وقصص القرآن، د. فضل حسن عباس.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٢١٩-٢٢٠.

ومما يعضده اليوم كقول أحدنا للآخر: هاتفتك اليوم سبعين مرة أو سبعمائة مرة أو سبعمائة ألف مرة، وهكذا للدلالة على المبالغة في الشيء. فالعرب في أساليب كلامها تذكرها للمبالغة والتكثير دون تحديد. (١)

وفي هذا يقول **الزمخشري** [والسبعون في هذه الآية جار مجرى المثل في كلام العرب للتكثير وليس على التحديد والغاية]. (٢)

وبمثل هذا قال **النسفي** والإمام **الرازي** في تفسيريهما. ومن القائلين بهذا القول من المتأخرين من العلماء **محمد رشيد رضا** في تفسير المنار، (٣) و**الطاهر بن عاشور** في التحرير والتنوير والشيخ **محمد متولي الشعراوي** في تفسيره. **وسعيد حوى** في الأساس في التفسير. (٤)

ومعنى الآية هنا: أنك يا محمد مهما أكثرت من طلب المغفرة فلن يغفر الله لهم، استغفرت أم لم تستغفر. حتى ولو استغفرت لهم سبعين مرة استعظاماً للعدد واستكثاراً، وزدت عليها بأعظم الأعداد وأكثرها كالألف ونحوه فلن يغفر الله لهم بدليل قوله تعالى: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء/ ٤٨].

وإتماماً للفائدة نذكر هنا لطيفة وحكمة عددية أخرى، وردت في الرقمين سبعة وثمانية في الآية ١١٢ من سورة التوبة تنسحب على كل رقم مماثل في سور القرآن. ففي الآية عدّد الله سبحانه وتعالى ثمانية أوصاف للمؤمنين المتقين، لم تذكر فيها الواو إلا عند الصفة الثامنة، لسرٍ في كلام العرب. وهو ما اعترف على تسميتها **بواو الثمانية**، وهي تدخل على ما كان ثامناً حسبَ رأي بعض العلماء. واعتبرها ابن عَطيَّة الأندلسي [أنها لغة فصيحة لبعض العرب من شأنهم أن يقولوا إذا عدّوا واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة وثمانية تسعة عشرة وهكذا، ومتى جاء

(١) مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني: ٢/ ١٥٩.
(٢) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٨٠- ٢٨١.
(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا: ١١/ ٥٥٦.
(٤) الأساس في التفسير، سعيد حوى: ٤/ ٢٣٣٧.

في كلامهم أمر ثمانية أدخلوا الواو]. [١]

في حين نظر إليها **القرطبي** أنها لغة قريش. [٢] واعتبرها آخرون أنها أول الجمع الكثير لاشتماله على جملة أقسام ومكونات العدد. مما اعتبر أنه أول عدد كامل صحيح لا تتوافر فيما قبله. [٣] مما دفع بالعرب أن تستعمله بداية المبالغة في الشيء، وعليه نعتوا الأسد بالسبع. [٤] دلالة على مضاعفة قوته سبع مرات قياساً مع غيره من الحيوانات المفترسة.

وقال **السيوطي**: أن سبعة عند عرف بعض العرب قديماً تعني الكمال في العدد، إذ تطلق على الكثرة في الآحاد كما السبعون في العشرات والسبعمائة في المئين. [٥]

وذكر صاحب تفسير المنار:[أن السبعة هو العدد التام والثامن ابتداء عدد آخرمعطوف عليه]. [٦]

وجاء في تفسير التحرير والتنوير:[أن الواو يكثر وجودها عند ذكر معدود ثامن وسموها **واو الثَّمانية**. وكان في عرف بعض العرب إذا عدّوا قالوا ستة سبعة وثمانية إيذاناً بأن السبعة عدد تام، وأن ما بعدها مستأنف]. [٧]

ويعد الإمام **الرازي** على رأس العلماء الأوائل الذين قالوا بواو الثمانية، إذ توقف طويلاً على شواهدها في القرآن الكريم. واستدل عليها بآيات عديدة منها: ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف: ٢٢]. **وقوله تعالى**: ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ [الحاقة: ٧].

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور: ١١/ ٤٢-٤٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي:٧/ ٢٧٢.
(٣) المصدر السابق: ٧/ ٢٧١. وتفسير المنار، محمد رشيد رضا: ١٢/ ٥٥.
(٤) إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين الدرويش: ٣/ ٢٥١.
(٥) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: ١/ ٤٥.
(٦) تفسير المنار، محمد رشيد رضا: ١٢/ ٥٥.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور: ١١/ ٤٢.

وقوله تعالى: ﴿ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ [التحريم: ٥].

ولأهمية الرقم سبعة[١]* وكماله في الآحاد، اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن تكون السموات والأرضين وكذلك أيام الأسبوع سبعة.

وعلى خلفية ما تقدم من عدم قبول التوبة على المنافقين الذين ماتوا ولو استغفر لهم رسول الله سبعين مرة. فإن الله تعالى أمر رسوله ﷺ أن يبرأ منهم وأن لا يصلي على أحد منهم، إذا مات وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له، أو يدعو له لأنهم كفروا بالله ورسوله وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه[٢]. لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ [التوبة: ٨٤].

ثم تمضي السورة فتتحدث عن **الأعراب** فتذكر طبيعتهم وصنوفهم وموقفهم من الإيمان والنفاق. وبعد ذم المتخلفين الذين استأذنوا الرسول ﷺ في القعود عن الجهاد مع القدرة عليه وصفهم الله عز وجل **بالخوالف** لأنهم رضوا بالعار لقعودهم مع النساء.

وبعد ذلك تعقد السورة مقارنة بين صفات المنافقين وصفات المؤمنين وخص منهم الذين عقدوا عقد بيع مع الله لقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١]. وقامت السورة بتوصيف المؤمنين على طبقات، فهناك السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان. وهناك الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً واعترفوا بذنوبهم، وهناك الذين أخطؤوا وأمرهم متروك لله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم، وهناك فئة أخلصت لله في الإيمان وتخلفت من غير عذر، ثم ندمت

---

(١) * ثمة فارق بين الرقم والعدد في لغة الرياضيات المعاصرة لم تكُ مألوفة عند السابقين فيراد بالرقم من صفر وحتى تسعة، أما العدد فيطلق على رقمين فأكثر بدءاً من عشرة فصاعداً. ولعل القارئ في بعض أمهات كتب التفسير يقف على شيء من الخلط بين الرقم والعدد مما اقتضى التنويه.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني: ٢/ ١٩١



وضاقت الدنيا في وجهها،[1] ولجأت إلى الله تطلب مغفرته ورحمته فتاب الله عليهم.[2]* وقد ذكرت سورة التوبة جانباً من صفات المؤمنين فقال تعالى عنهم: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١١٢]. ولعل اسم التوبة هي أشهر ما عرفت به السورة من أسماء، لما تضمنته من تسجيل توبة الله وتمام رضوانه على المؤمنين الصادقين، فتحقق فيهم قوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التوبة: ١١٧].

فالتوبة أول منازل العبودية وآخرها، فبداية الإيمان تكون بالتوبة، والتي من شروطها الندم على الذنب والإقلاع عنه والعزم على عدم العودة إليه وتأخير التوبة معصية لله تعالى.

---

(١) أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم، د. عبد الله محمود شحاته: ١/ ١١٦. ونحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمد الغزالي: ص١٥٤.

(٢) * إن التحليل النفسي لقصة المؤمنين الثلاثة من الأنصار الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، كان بمنزلة أزمة نفسية كادت تعصف بهم بعد أن حضرتهم هموم التثاقل والقعود عن الغزوة، نتيجة الإحساس بالإثم وما صاحبها من العصرة الإيمانية، لوجود النفس اللوامة حسب التعبير القرآني، فالقصة بالكلية صورة من الصور التي حفل فيها القرآن الكريم للخوالج النفسية والعواطف البشرية. وهي ما أسماه علم النفس الحديث بعذاب الضمير ومعاناة الشعور بالذنب ولا تكون إلا لمن كان صادقاً في إيمانه وتوبته. فقد زود الله عز وجل النفس البشرية ما اصطلح على تسميته بالضمير أو الرقيب، فينبه الإنسان إلى ما وقع منه من أخطاء فتلومه وتدعوه إلى تصويب أمره.

الدروس والعبر التي ترشد إليها آيات المقطع الخامس والهدايات المستنبطة منها[١]*

١- يحسن بنا ابتداءً أن نشير إلى أن الجهاد مصطلح إسلامي تقابله كلمة الحرب عند الأمم الأخرى، بواعثه شريفة نبيلة وأهدافه سامية، أما الحرب عند الأمم الأخرى فغالباً ما تكون للبغي والعدوان وحب السيطرة.

٢- استهل المقطع بالتحريض على الجهاد في سبيل الله عز وجل بالمال النفس، والذي يتأمل آيات القرآن الكريم ويقابلها مع بعضها البعض يتضح له أن الجهاد في الإسلام قد مر في أربع مراحل هي:

أ - تحريم الجهاد في مكة المكرمة حيث ورد النهي عن القتال في أكثر من سبعين آية، ما انفك رسول الله ﷺ خلال هذه الفترة يدعو إلى الإسلام بالحجة والبرهان، واحتمل في سبيل ذلك الأذى والتعذيب والاضطهاد وكان سلاح القلة من المسلمين في هذه المرحلة الصبر والثبات.[٢]

واقتصر توجيه الله لرسوله الكريم أن يلقى مناوأة الكفار له بالعفو والصفح الجميل،[٣] مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ [الحجر: ٨٥].

وقوله تعالى: ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٩].

ب - الإذن بالجهاد دون فرضه على المسلمين في المدينة لقوله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟

(١) * لما كان هذا المقطع يشغل معظم مساحة السورة، فإن الدروس والعبر التي يرشد إليه، ستكون طويلة حسب مضمون آياته. سنورد بعضاً منها بشكل مجمل والبعض الآخر بشكل مفصل حسب ما تقتضيه الدراسة.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزيه: ٣/ ٧٠.

(٣) فقه السنة، السيد سابق: ٢/ ٦١٩.



رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ [الحج: ٣٩].

ت- وجوب مقاتلة من قاتل المسلمين دون التعرض لمن كف عن قتالهم لقوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠].

ث - فرض الجهاد على المسلمين لإعلاء كلمة الله ونشر دعوته في الأرض ودفع الظلم عن المسلمين ونصرة المستضعفين لقوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ويعلق ابن قيم الجوزية على هذا الترتيب قائلاً: (ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة، وكان محرماً ثم مأذوناً به ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأموراً به لجميع المشركين إما فرض عين أو فرض كفاية). [١]

وقد جاء تعليل الإذن بالقتال بعد أن ظلموا بالاعتداء عليهم، وإخراجهم من ديارهم بغير حق بسبب ظلم الكافرين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وأن غاية الإذن بالقتال التمكين في الأرض بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. [٢]

٣ - يهدف المقطع إلى التحذير من عواقب ترك الجهاد لما فيه من عواقب تقع على الأمة منها:

أ - استيلاء الأعداء على أراضي المسلمين، ونهب خيراتهم وسفك دمائهم وانتهاك حرماتهم. وما يترتب على ذلك من حياة الذل والقهر والهوان والتبعية وفقدان الشخصية والهوية.

ب- فوات ثواب الله تعالى العظيم الذي أعده للمجاهدين والشهداء.

---

(١) المصدر السابق: ٣/ ٧١.

(٢) المصدر السابق: ٣/ ٦٢١.



ت – العذاب الأليم للمتثاقلين والمتقاعسين عن الجهاد يوم القيامة.

٤- يبين المقطع بوجه خاص وسورة التوبة بوجه عام أسس علاقات المسلمين بغيرهم. فهو لا يجيز قتل النفس بمجرد أنها تدين بغير الإسلام، ولا يبيح للمسلمين قتال مخالفيهم في الدين لمخالفتهم في عقيدتهم، بل يأمر أتباعه معاملة مخالفيهم بالحسنى لقوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨].

ومما تجدر الإشارة إليه أن الإسلام جعل السلام تحيته بقول المسلمين(السلام عليكم) كما أنه أوجب ذكرها في نهاية كل صلاة، فالمصلي يختم صلاته قائلاً: (السلام عليكم ورحمة الله). ثم إن السلام اسم من أسماء الله تعالى لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ﴾ [الحشر: ٢٣].

وعلى خلفية هذا فالإسلام لا يطلب من غير المسلمين إلا أن يكفوا شرهم عن دعوته وأهله وألا يثيروا عليهم الحروب والفتن.

ويرفض أن يتخذ الإكراه طريقة للدعوة إليه ونشر تعاليمه واعتناق مبادئه لقوله تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩].

وقوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وعليه فإن الجهاد لم يشرع لإكراه الناس على الإسلام، كما لم ينتشر الإسلام بحد السيف حسب زعم بعض الموتورين من المستشرقين غير المنصفين.

٥- تشير آيات المقطع أن الإسلام لا ينشد القتال لذاته من أجل التوسع والعدوان والمغانم ونحوه، ولا يلجأ إليه إلا اضطراراً ويسعى للسلم قبل سعيه للحرب، إلا أنه إذا امتدت إليه يد الغدر والعدوان والطعن في دينه والاستيلاء على أرضه، فهنا يأذن الإسلام لأهله أن يردوا العدوان إقراراً للسلم وإقامة للعدل لقوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا

تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٠].

٦- تتمثل نظرة الإسلام إلى القتال في سورة التوبة بوجه عام وآيات المقطع بوجه خاص بالمبادئ التالية:

أ- إن الأصل في العلاقة الإنسانية هو السلم والتعاون.

ب - الحرب حالة استثنائية يلجأ إليها في حالتي الدفاع والهجوم للضرورة حسب المصلحة التي يقررها الإمام أو الخليفة.

ت - إن الحرب إذا وقعت كان لها حكم الضروريات تقدر بقدرها دون بغي أو تنكيل أو تخريب أو إفساد في الأرض.

ث - معاملة أسرى الحرب بالبر والإحسان رأفة فيهم إلى أن يطلق سراحهم بالمنِّ أو الفداء. لقوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ [محمد: ٤].

ج- لا يشترط الإسلام لوقف الحرب إسلام المحاربين، بل يكفي امتناعهم عن العدوان وكف شرهم وأذاهم عن المسلمين. (١)

وعليه يكون حكم الجهاد فرض عين في الحالات التالية:

أ- حالة الاعتداء على المسلمين، فإذا نزل عدو ببلد من بلاد المسلمين تعين على أهل ذلك البلد قتالهم ودفعهم، فإذا لم يستطيعوا انتقل فرض العين على من يجاورهم حتى تتم هزيمة العدو لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةً ﴾ [التوبة: ١٢٣].

ب- إذا أعلن الإمام النفير العام أو استنفر مجموعة معينة وجبت طاعته لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ

(١) فقه السنة، السيد سابق: ٢/ ٦٥٦.



أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨].

ج- إذا نشبت الحرب تعين على الجميع مواجهة الأعداء والمشاركة في القتال بالمال والنفس واللسان والقلم، لحشد الإمكانات المتوافرة إعزازاً لدين الله تعالى وإرغاماً لأعدائه[1] لقوله تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠]. وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال: ١٥-١٦]. **وقوله تعالى:** ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

والآيات توجب الثبات وتحرم الفرار لأنه من السبع الموبقات كما في الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ (اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يا رسول الله وما هنَّ؟ قال: الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم **والتولي** يوم **الزحف** وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات). [2]

٦ – تشير آيات المقطع أن الجهاد ذروة سنام الإسلام ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة كما لهم الرفعة في الدنيا فهم الأعلون في الدارين. [3]

والجهاد عند **ابن القيم** أربع مراتب هي: جهاد النفس وجهاد الشيطان وجهاد الكفار وجهاد المنافقين، فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع. [4] وجهاد الكفار أخص باليد

(١) المرجع السابق: ٢/ ٦٢٣.
(٢) صحيح البخاري: رقم ٢٥٦٠.
(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية: ٣/ ٥.
(٤) المصدر السابق: ٣/ ٩و ٣/ ٧٢.



في حين جهاد المنافقين أخص باللسان مع الصبر على مشاق ذلك.[(١)]

وجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار وهو جهاد خواص الأمة إذا حصل منهم مقصود الجهاد[(٢)] لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

ويرى **ابن القيم** أن أكمل الخلق عند الله من كَمَّلَ مراتب الجهاد كلها والخلق متفاوتون في منازلهم عند الله تفاوتهم في مراتب الجهاد.[(٣)]

والمجاهد في سبيل الله الذي ما انفك يقاتل بالسيف واللسان والبيان والدعوة، وكانت ساعاته موقوفة لله، يعد من أرفع الناس ذكراً ومن أعظمهم عند الله قدرا.[(٤)]

ومعنى الجهاد اصطلاحاً عند **ابن القيم**: هو استفراغ الوسع في محاربة العدو ومجاهدته وأهواء النفس وشرورها.[(٥)]

وتتفاوت المدافعة من شخص لآخر بحسب إيمانه فان قوي الإيمان قويت المدافعة. وهذه من صفات المؤمنين المتقين المحسنين الصابرين،[(٦)] الذين يدافعون عن الإسلام والمسلمين لإعلاء كلمة الله ولولا دفاعهم لتخطفهم عدوهم واجتاح ديارهم وسلب خيراتهم.

ولقد اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن يمتحن النفوس ويبتليها بضروب الجهاد. وأن ثمره عائد إليهم في الدنيا والآخرة، حيث يدخلهم بجهادهم وإيمانهم في زمرة الصالحين، وهي

---

(١) المصدر السابق: ٣/ ١١.
(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية: ٣/ ٥.
(٣) المصدر السابق: ٣/ ١٢.
(٤) المصدر السابق: ٣/ ٥.
(٥) المصدر السابق: ٣/ ٦.
(٦) المصدر السابق: ٣/ ٧.

أعظم نعم أنعم الله بها على عباده. [1]

فالمجاهد إما يعود إلى أهله بعد تحقيق النصر عالي الهمة مرفوع الرأس شاكراً الله تعالى فضله، وإما يفوز بالشهادة والكرامة فإن قبض شهيداً فان روحه تفيض إلى بارئها لتعيش حياة أبدية في العالم الأخر، فرحة بما تنال من الأجر والتكريم تنقلب في نعم الله تعالى وفضله مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٠].

وقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ [التوبة: ١١١]. **وقوله تعالى:** ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ التوبة / ٥٢.

والتمسك بالجهاد مصدر كل قوة وأساس وحدة الأمة وبقائها، والأخذ به من باب أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يتقوه بقيامهم بالواجبات التي كلفهم إياها، والثبات عليها أساس التقيد بأحكامه سبحانه وتعالى وتشريعاته.

فالجهاد يحافظ على نقاء الأمة ويحميها من أسباب الضعف ويجعلها مهيبة الجانب أمام عدوها. ويتحقق فيه صدق التوكل على الله في الرخاء والشدة.

ويعلق **ابن القيم** الجوزية على ما تقدم قائلاً: (فليتأمل العاقد مع ربه عقد هذا التبايع ما أعظم خطره وأجله فإن الله عز جل هو المشتري والثمن جنات النعيم). [2]

٧ - آيات المقطع تفيد أن هيبة الأمة وقوتها ترتبطان ببقاء الروح الجهادية فيها، فإذا ضعفت وتخاذلت الأمة في مدافعة أعدائها فإنها تتعرض للغزوات الخارجية، ويطمع فيها

---

(١) المصدر السابق: ٣/ ١٧.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية: ٣/ ٥.



المعتدون ويذيقونها المذلة والهوان في جوانب الحياة كافة.

وإن واقع الأمة في حاضرها ما يؤكد ذلك، ومما يؤسف له أن الأمة قد أسقطت كلمة الجهاد من قاموسها السياسي، فأذلها الله لموافقتها الغرب في مساواة كلمة الجهاد بالإرهاب.

٨- يوجه الله تعالى عباده في هذا المقطع إلى الإنفاق في سبيله بالطيب من المال، لتجهيز الجيوش بوسائل القتال المختلفة التي تناسب كل عصر، لتحقيق النصر على الأعداء وإعلاء كلمة الله تعالى وإعزاز دينه، ويدخل في الجهاد بالمال الإنفاق على أسباب القوة المادية والمعنوية، من إقامة المصانع وحسن التسلح وتقوية الاقتصاد، وبناء المصانع والمطارات والموانئ والسدود، وإنشاء مقومات البنية التحتية وما على البنية التحتية من منشآت لازمة لمنعة الدولة وجيشها أمام عدوها، وهذا كله من باب إعداد العدة واتخاذ الوسائل اللازمة للحرب.

وقد بيّن الله تعالى من خلال الآيات الكريمة في سورة التوبة وغيرها، إلى فضل النفقة في سبيله وعظيم الثواب الذي أعده للمنفقين من عباده.

فقد ضرب الله مثلاً في سورة البقرة لما ينفقه الإنسان في سبيله بالحبة التي زرعت، فأنبتت سبع سنابل تحتوي كل سنبلة على مائة حبة، حتى بلغت الحبة الواحدة سبعمائة ضعف.

وهذا تمثيل لمضاعفة الأجر إلى ما لا نهاية حسب عرف العرب قديماً لمن أخلص في صدقته، والله تعالى يضاعف ثواب المنفق بحسب إخلاصه، وقد نبّه الله تعالى عباده المنفقين إلى أهمية المحافظة على ثواب صدقاتهم بالبعد عن المنّ وعدم التفاخر والتطاول فيها. والله تعالى لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده، التي سوف يحاسبهم عليها يوم القيامة، ولا يصرف ثواب الإنفاق في المال إلا لمن اخلص نيته في إنفاقه، وجعلها خالصة لوجه الله تعالى، والله رقيب على عباده يعلم ما يسرون وما يعلنون.

مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٦١].

وقوله تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [التوبة: ٨٨].

وقوله تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١].

٩-حفلت السنة النبوية الشريفة بذكر باقة من الأحاديث التي تفيد الأمر بالجهاد والترغيب فيه والتحريض عليه، مع بيان فضله للمجاهد في الدنيا والآخر، ففيه نجاة من النار ومغفرة من الذنب ودخول للجنة ورفعة شأن الأمة وصون كرامتها، وقد عظم الرسول ﷺ أمره وذم التاركين له والمعرضين عنه ووصفهم بالمنافقين، ولما كان فضل الرباط والجهاد في سبيل الله كبير، سنورد هنا طائفة من هذه الأحاديث التي تدل على مصداقية ذلك بما ينسجم مع التحريض على القتال في آيات هذا المقطع:[1]*

ففي الحديث الشريف: (مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله، وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة، أو يرجعه سالما مع أجر أو غنيمة[2] .)

وفي الحديث الشريف: (غَدوةٌ في سبيل الله أو رَوحةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها[3]).

---

(١) * للمزيد حول هذا الموضوع انظر: مختصر صحيح البخاري، د. سعد الشثري: كتاب الجهاد والسير. ومختصر صحيح مسلم، للحافظ المنذري: كتاب الجهاد.

(٢) أخرجه البخاري٦/ ٦٠٥ في الجهاد: باب أفضل الناس مجاهد بنفسه وماله، ومسلم (١٨٧٨) في الإمارة: باب فضل الشهادة في سبيل الله، والموطأ ٢/ ٤٤٣ في الجهاد: باب الترغيب في الجهاد والنسائي٦/ ١٧ في الجهاد باب ما تكفل الله عز وجل عن مجاهد في سبيله. كلهم من حديث أبي هريرة، وأخرجه ابن ماجة (٢٧٥٤) في الجهاد: باب فضل الجهاد في سبيل الله من حديث سعيد بن جابر.

(٣) أخرجه البخاري ٦/ ١١ في الجهاد: باب الغدوة والروحة في سبيل الله، وباب فضل رباط يوم في سبيل الله.



وفي الحديث الشريف: (جاهدوا في سبيل الله، فإن الجهاد في سبيل الله باب من أبواب الجنة ينجي الله به من الهم والغم)[١].

وفي الحديث الشريف: (إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة). [٢]

وفي الحديث الشريف: (من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار). [٣]

وفي الحديث الشريف: (رباطُ يومٍ في سبيل الله خيرٌ من الدُنيا وما عليها). [٤]

وفي الحديث الشريف: (رباطُ يومٍ في سبيل الله خيرٌ من ألف يوم فيما سواه من المنازل). [٥]

وفي الحديث الشريف: (مقام أحدكم في سبيل الله خيرٌ من عبادة أحدكُم في أهله ستينَ سنةً، أما تحبون أن يغفر الله لكم وتدخلون الجنة، جاهدوا في سبيل الله، من قَاتل فُواقَ ناقةٍ وجبت له الجنة). [٦]

وفي الحديث الشريف: (حرمت النارُ على عينٍ دمعتْ أو بكتْ من خشية الله، وحرمت

---

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٣١٤، ٣، ٣١٦، ٣١٩، ٣٢٦، ٣٣٠ من حديث عبادة بن الصامت.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد باب درجات المجاهدين في سبيل الله ١٣/ ٣٤٩، وفي التوحيد: باب وكان عرشه على الماء. وأحمد ٢/ ٣٣٥ من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه البخاري٢/ ٣٢٥ في الجمعة: باب المشي إلى الجمعة، وفي الجهاد ٦/ ٢٣: باب من اغبرت قدماه في سبيل الله، والترمذي (١٦٣٢) في فضائل الجهاد، واحمد في المسند ٣/ ٤٧٩ من حديث أبي عبس عبد الرحمن ابن جبر.

(٤) أخرجه البخاري ٦/ ٦٤ في الجهاد باب فضل الرباط، يوم في سبيل الله.

(٥) أخرجه النسائي٦/ ٣٩، ٤٠ في الجهاد، باب فضل الرباط، واحمد: ١/ ٢٦و٦٥و٦٦و٧٥، والترمذي (١٦٦٧) في الجهاد باب ما جاء في فضل المرابط من حديث عثمان بن عفان.

(٦) رواه أحمد في المسند ٢/ ٤٤٦و ٥٢٤، والترمذي (١٦٥٠).

النار على عينٍ سهرت في سبيل الله). [١]

وفي الحديث الشريف: (من بلغَ بسهمٍ في سبيل الله، فله درجةٌ في الجنة). [٢]

وفي الحديث الشريف: (ذروة سنام الإسلام الجهاد). [٣]

وفي الحديث الشريف: (من ماتَ ولم يغزُ، ولم يحدِّث نفسه بالغزو، مات على شعبة من النفاق). [٤]

وفي الحديث الشريف: (إنَّ أبوابَ الجنة تحتَ ظلال السيوفِ). [٥]

وفي الحديث الشريف: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله). [٦]

١٠ - أبرزت الآيات السابقة عدم استحباب المشاركة في الجهاد للمسلم المريض أو الأعمى أو المجنون أو الصبي الصغير، لأن ضعفهم يحول بينهم وبين تحمل أثقال الحرب وأهوالها، وربما كان وجودهم أكثر ضرراً من قلة نفعه[٧] مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة: ٩١].

---

(١) رواه أحمد ٤/ ١٣٤، والدارمي ٢/ ٢٣، والنسائي٦/ ١٥ في الجهاد: باب ثواب عين سهرت في سبيل الله من حديث أبي ريحانة.

(٢) أخرجه أبو داوود (٣٩٦٥) في العتق: باب أي الرقاب أفضل، والنسائي ٦/ ٢٧، وأحمد ٤/ ٣٨٤ من حديث أبي نجيح السلمي، وإسناده صحيح وصححه ابن حبان (١٦٤٥).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦١٩) وأحمد ٥/ ٢٣١.

(٤) أخرجه مسلم(١٩١٠) في الإمارة: باب ذم من مات ولم يغز، وأبو داوود (٢٥٠٢) في الجهاد: باب كراهية ترك الغزو، والنسائي ٦/ ٨ في الجهاد: باب التشديد في ترك الجهاد من حديث أبي هريرة.

(٥) أخرجه مسلم (١٩٠٢) في الإمارة: باب ثبوت الجنة للشهيد والترمذي (١٦٥٩) وأحمد ٣٩٦٤و ٤١١ من حديث أبي موسى الأشعري.

(٦) أخرجه البخاري في الجهاد: باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ومسلم (١٩٠٤)

(٧) في الإمارة.

- فقه السنة، السيد سابق، ٢/ ٦٢٤.

وقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [الفتح: ١٧].

١١- نستخلص من هديه ﷺ في مجمل غزواته بوجه عام وغزوتيه في سورة التوبة بوجه خاص حكم جليلة بالغة الأهمية من حيث الفكر العسكري نذكر منها:

- استحباب القتال أول النهار كما يستحب الخروج للسفر أوله فإن لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس. وفي الحديث: (اللهم بارك لأمتي في بكورها). [١]

- مشاورة أصحابه لأخذ رأيهم في أمر الغزوة وأمر العدو وتخير المنازل. وفي المستدرك عن أبي هريرة: ما رأيت أحدا أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ.

- عدم الاستبداد بالأمر لقوله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

- الرفق بهم ولين الجانب لهم وعدم القسوة عليهم.

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لئلا يتورطوا في المعاصي.

- تفقد الجيش من حين لأخر ليكون في جاهزية قتالية دائمة.

- بث العيون لمعرفة أخبار العدو وتحركاته أولاً بأول. [٢]

- الحصول على معلومات مسبقة حول تضاريس الأرض وما بها من عيون وآبار ومراعي قبل إرسال الجيش.

- إذا أراد غزوة ورى بغيرها ومغزى ذلك «الحرب خدعة». [٣]

- يلبس للحرب عدته ثم يعمد إلى تعريف العرفاء، وعقد الألوية والرايات، [٤]ويلبس

---

(١) أخرجه الترمذي برقم «٢٢١٢»، ١٣/ ١٦١٣، وأبو داوود رقم ٢٦٠٦، ٢٦٥٥.

(٢) صحيح البخاري ٦/ ٩٣، وصحيح مسلم "١٩٠١".

(٣) أخرجه البخاري ٦/ ١١٠ و ٦/ ٨٠، ومسلم «٢٧٧٩»و «١٧٣٩»، وأبو داوود (٢٦٣٦)، والترمذي (١٦٧٥).

(٤) البخاري٨/ ٤ و ٦/ ٨٩، والترمذي (١٦٨١)، وابن ماجه(٢٨١٨)، وسنن أبي داوود (٢٥٩٨) و (٢٥٩٥).

الدرع والخوذة ويتقلد السيف ويترَّس بالترس.

- يجعل لأصحابه شعاراً في الحرب يعرفون به إذا تكلموا. (١)وكان يستحب للرجل منهم أن يقاتل تحت راية قومه ويحبُ له الخيلاء في الحرب، ليس من باب القتال بالعصبية والبغي والفخر بل لرفع الروح المعنوية.

- مبايعة أصحابه على ألا يفروا حتى يفوزوا بالشهادة أو النصر لقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ [التوبة: ٥٢].

- كان إذا بعث سرية يوصيهم بتقوى الله وإذا لقي عدوه وقف ودعا واستنصر الله وأكثر هو وأصحابه من ذكر الله.

وهذا مما يجب على القائد فعله مع جنوده بحسب المصلحة، وكان الرسول ﷺ يفعل ذلك كله في غزواته كلها. بدءاً من غزوة بدر حتى غزوة تبوك آخر غزواته. مع استثناء أنه في غزوة تبوك أعلم عن وجهته على غير عادته، ليكونوا على بصيرة من أثقال الغزوة بسبب بعد الشُقة وقلة الزاد والدواب وشدة الحر، (٢) ليظهر الصادق من الكاذب والمنافق. الذين ختم لهم بسوء العاقبة إما لتخاذلهم وتثاقلهم عن النفير العام، أو لكونهم من المرجفين من مروجي الشائعات لإثارة الفتن في صفوف الجيش. (٣)

١٢- تشير آيات المقطع الخامس أن فتنة المال من أعظم أسباب النفاق مما يستوجب علينا إبراز أهمية النظام الاقتصادي على صعيد الدولة والفرد. إذ لا يجوز أن يستخدم المال في الإسلام وسيلة للتدخل السلبي أو أداة للضغط على مجريات الأمور، كما وقع في غزوة تبوك. والنظام الاقتصادي في الإسلام هو مجموعة الأحكام التي شرعها الله لحل مشاكل الحياة الاقتصادية

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٩٦)و(٢٦٣٨)، والترمذي(١٦٨٢).

(٢) تاريخ الأمم والملوك، للطبري: ٢/ ١٨١.

(٣) للمزيد انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية: ٣/ ٩٥-٩٧. وفقه السنة السيد سابق: ٢/ ٦٣٨-٦٣٩.

وتنظيم علاقة الإنسان بالمال وصيانته وإنفاقه وقيوده وواجباته، كالزكاة والصدقة والحقوق الأخرى، إذا لم تف الزكاة فإن حقوقاً سواها تكون واجبة في المال تُرك بابها مفتوحاً للطوارئ وسداً للحاجات في أوقات الحروب ونحو ذلك.

وتأسيساً على ما تقدم وبمناسبة قوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٣]. نرى الخطاب هنا موجه للرسول ﷺ بمعنى خذ من أموال هؤلاء التائبين صدقات تطهرهم بها من الذنوب والشح، وترفع درجاتهم عند الله، وادع لهم بالخير والهداية فإن دعاءك تسكن به نفوسهم، وتطمئن به قلوبهم والله سميع للدعاء عليم بالمخلصين في توبتهم.

ولعل من أبرز الحكم في الآية السابقة الترغيب في أداء الزكاة والصدقات والترهيب من منعها والتعجيل بأدائها. وهي من الفرائض ومن ضروريات الدين. وتجب على المسلم المالك للنصاب من أي نوع من أنواع المال الذي في حوزته بعد مرور حولٍ عليه.

ويجب إخراجها عند وجوبها ويحرم تأخيرها. ويستحب الدعاء للمزكِّي عند أخذ الزكاة منه لظاهر الآية السابقة.

والزكاة عبادة يشترط لصحتها النية، وذلك أن يقصد المزكِّي عند أدائها وجه الله ويطلب بها ثوابه.

(والزكاة اسم لما يخرجه الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء سميت زكاة لما يكون فيها من رجاء البركة وتزكية النفس وتنميتها بالخيرات)، [1]ويتحقق فيها النماء في المال والطهارة والبركة لظاهر الآية المشار إليها آنفاً.

(وهي أحد أركان الإسلام الخمسة قرنت بالصلاة في اثنين وثمانين أية، وقد جعل الله إيتاء

(١) فقه السنة، السيد سابق: ١/ ٣٢٧.



الزكاة غاية من غايات التمكين في الأرض). [1] والجماعة التي يباركها الله ويشملها برحمته هي التي تقوي صلاتها بإيتاء الزكاة لتحقيق العيش الكريم لجميع عناصر المجتمع. ومانع الزكاة آثم يستحق غضب الله تعالى وعذابه يوم القيامة. ولأداء فريضة الزكاة حِكمٌ كثيرة منها:

أ – أن المجتمع الإسلامي يفترض أن يكون متكافلاً متعاوناً، يعين فيه المسلمون بعضهم بعضاً للقضاء على جيوب الفقر وآثاره المدمرة. فتوفر للفقراء والمساكين الحياة الكريمة وتغنيهم عن سؤال الناس.

ب – تنشر المودة والرحمة بين أفراد المجتمع، فيعطف الغني على الفقير، ويحب الفقير الغني، ويدعو له بالخير والبركة، فيكون المجتمع متراحماً متعاوناً على فعل الخير.

ج – تطهر نفس الغني من البخل، وتطهر نفس الفقير من الحسد، وتكسبه القناعة والرضا.

د – تحمي المجتمع من الفتن والجرائم التي تقع نتيجة الفقر والحاجة، فيعيش الجميع في أمان واطمئنان.

هـ– تنمي مال المزكِّي، فيبارك الله تعالى له في ماله، فينمو ويزداد، فتزول عنه وساوس الشيطان من نقص المال بالزكاة والصدقة.

و – تحرر الغني من طغيان المال على نفسيته وجعله مستبدا لقوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦-٧].

ز – تحقق الزكاة التكافل الاقتصادي والاجتماعي بين أفراد المجتمع.

ح – في الزكاة والصدقات إعادة توزيع الثروة باستمرار حتى لا يقتصر المال على الأغنياء، لقوله تعالى: ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡ ﴾ [الحشر: ٧].

وهذه الآية تعتبر دعامة لقاعدة التوازن المالي في المجتمع المسلم، تحول دون وجود الطبقية

(١) – المرجع السابق: ١/ ٣٢٨

بمعناها الخطير. ولقد حرص الإسلام على اعتبار كل ما هو ضروري للناس ملكية عامة حتى يعود نفعه على الجميع.

كما لم يدع الإسلام حق الملكية الفردية مطلقاً بلا قيد، بل جنح إلى الاعتدال. فرتب حقوقاً في المال الخاص لدعم صرح المحبة والتراحم بين الناس.

ط- يمكن توظيف الزكاة أيضاً في وجوه القروض الحسنة، والتعميم في تطبيقه على هذه الصورة من باب تفعيل البر ومساندة المعسرين من الناس. والقرض الحسن هو قرض لأجل تتعامل معه المصارف الإسلامية، ولا يتحقق فيه أي فائدة ربوية.

١٣- قررت الآية ٦٠ من سورة التوبة مصارف الزكاة، ثمانية أصناف حصرها الله في قسمها، وبيَّن حكمها وتولى أمرها بنفسه، ولم يكل قسمها إلى أحد غيره، [1] فجزأها على النحو التالي:

أ- **الفقراء**: وهم المحتاجون الذين لا يجدون كفايتهم.

ب-**المساكين**: وهم أوسع عيشاً من الفقراء بقليل.

ج- **العاملين عليها**: وهم الجباة الذين توكل إليهم مهمة جمع المال من الأغنياء، ويدخل معهم كتبة دواوين حفظ المال.

د- **المؤلفة قلوبهم**: وهم الجماعة الذين يراد تأليف قلوبهم وجمعها على الإسلام أو تثبيتها عليه لضعف إسلامهم. أو كف شرهم عن المسلمين، أو جلب نفعهم في الدفاع عنهم، كما يتوقع بإعطائهم إسلام غيرهم من بطون قبائلهم وغيرها، وفي هذا إقرار لجواز التأليف عند الحاجة للمصلحة. [2]

هـ- **الرقاب**: وهم المكاتبون من الأرقاء فيعانون بمال الصدقة لفكِّ رقابهم من الرق، وفي

(١) مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني: ٢/ ١٥٠.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا: ١١/ ٤٩٤.



هذا جواز لشراء العبيد وعتقهم.

و- **الغارمون**: وهم الذين تحملوا الديون، وتعذر عليهم أداؤها وصرفت في وجه شرعي، ولم تكن ناشئة عن إثم أو ظلم أو سفه.

ز- **وفي سبيل الله**: وهم على فئات عديدة، فمنهم طالب العلم لمرضاة الله، ومنهم المتطوعون في الجهاد، ويجوز أن يدخل في هذه الفئة صرف النفقات على تأمين الاستعداد للحرب من قبل الدولة، وينسحب أيضاً على الأعمال الخيرية، وإعداد الدعاة الذين يدعون إلى الإسلام ويبشرون به، وتأمين المدارس الشرعية وغير ذلك من طريق الخير ووجوه البر. (١)

ح- **ابن السبيل**: وتنسحب على المسافر المنقطع عن بلده فيعطى منها ما يستعين به على تحقيق مقصده. (٢)

وقد شرع الله ذلك فريضة منه لمصلحة عباده، والله سبحانه وتعالى عليم بمصالح خلقه حكيم فيما يشرع.

١٤- من تأمل أحوال المنافقين في هذا المقطع من سورة التوبة، وربطها بغيرها من السور. يرى أن الحق تبارك وتعالى توعدهم بأن يصيبهم من عذاب الدنيا والآخرة ما أصاب به من كان قبلهم من الأمم والشعوب، التي كفرت بأنعم الله عليها، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٥].

وقوله تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٣٨].

ومعلوم أن ظاهرة النفاق قد تفشت في المدينة، بظهور الإسلام قوة عظيمة تهدد ما حولها

---

(١) المصدر السابق: ١١/ ٥٠٦.

(٢) فقه السنة، السيد سابق: ١/ ٣٩٥، وإعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين الدرويش: ٣/ ٢٣٣.



من جيوب الكفر والشرك، بعد أن قويت شوكة المسلمين بإقامة دولتهم. ولم يسلك هذا السبيل أحدٌ في مكة لعدم حاجتهم إليه، لكون المسلمين قلة مستضعفة لا سلطان لهم.

والمنافق مراوغ محتال متقلب متذبذب، يظهر خلاف ما يبطن فيه مرض في القلب مع حلاوة في اللسان، ويخالف قوله فعله، يحسن القول دون العمل.

لقد فضح الله المنافقين في العديد من السور المدنية، وتعد سور التوبة المعروفة باسم **الفاضحة**، من أكثر السور فضحاً لهم لسوء طويتهم.

وأنزل سبحانه وتعالى **سورة** باسمهم لتحذير المسلمين من مكرهم، بعد أن استحكم النفاق على قلوبهم وجوارحهم ضد الإسلام والمسلمين. ولقد فصل القرآن في بيان صفاتهم نذكر منها:

- الصد عن سبيل الله لفسقهم وخروجهم عن طاعته.
- التطلع إلى الدنيا وأسبابها من جاه وثروة.
- الكذب ديدنهم والخيانة طبعهم وخلف الوعد مسلكهم.
- أكثر الناس غفلة عن ذكر الله.
- لا يبصرون الحق ولا يستقيمون عليه ولا يقولون به.
- تركهم للأمر بالمعروف وأخذهم بالمنكر.
- اضطرابهم وعدم ثباتهم على حال.
- تقليدهم لآبائهم الأولين على غير بصيرة.
- السعي لإشعال الفتنة وقولهم بالمنكر من الكلام.
- انشغالهم بالنعمة على المنعم.
- التخلف الدائم عن الإجماع والجماعة.

- سعيهم الدائم لتثبيط المؤمنين عن الجهاد.
- التخلف عن الجهاد وانتحالهم المعاذير لتبرير ذلك.
- إيثار العاجلة على الآجلة والعرض الزائل على النعيم الدائم.
- فرحهم لمصائب المسلمين وحزنهم لكل خير يصيبونه.
- غمزهم ولمزهم المؤمنين وسخريتهم بهم.
- استهزاءهم بالقرآن وبالرسول ﷺ وإلصاق التهم به.
- التكاسل والتباطؤ عند النفقة.
- لا يتوبون من نفاقهم مما يختم لهم بسوء العاقبة.
- أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان.
- ميلهم لترويج الإشاعات.
- اشتمالهم على الخلق المذموم وخوارم المروءة.

وبقراءة تحليلية نرى أن الحكم والدروس التي ترشد إليها آيات النفاق والمنافقين في هذا المقطع من سورة التوبة:

أ - وجوب جهاد المنافقين على قاعدة الولاء والبراء، فتجب موالاة أولياء الرحمن، ومعاداة أولياء الشيطان، والتشريد بهم وجهادهم بشتى الوسائل.

ب - حب المنافق نفاق وبغضه إيمان وجهاد، والمنافق الذي علم نفاقه ينبغي أن يعامل معاملة الكافر الملحد والمشرك. زجراً لأمثاله من المنافقين. لأنه جمع في نفاقه الكفر في مراتبه المختلفة، كفر التكذيب والاستكبار والإعراض والشك.

ت - عدم جواز مناداة المنافق بألفاظ التوقير والتبجيل والاحترام، ومن فعل ذلك يؤثم، وحقيق بالمسلم تحقير المنافق وتأخيره في المجالس لا تقديمه، وهجره لا مواصلة التعامل معه،

وتجاهله بدلاً من إيلاء الاهتمام به. ومخالفته لا طاعته، لأنه عدو الله ورسوله وهذا اللائق بمعاملته لكفره وسخره من الدين ومكره، ومما يؤسف له لم ينل أهل العلم حظا من التوقير كالذي عليه أهل النفاق في أيامنا هذه.

ث - بيان خطر النفاق والتحذير منه، لأن المنافقين أشد خطراً على الأمة في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، بسبب تلونهم حسب مصلحتهم الخاصة مما يلحق الضرر بالمصلحة العامة.

جـ- تحريم الصلاة على المنافقين، ومنع دفنهم في مقابر المسلمين. وقد تأكد ذلك في نهي رسول الله ﷺ في الآية ٨٤ من السورة عن الاستغفار لهم، وفي ذلك حكم تحريم الصلاة عليهم أكانت صلاة جنازة أو دعاء لطلب المغفرة والرحمة لهم.

مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المنافقون: ٦].

١٥- كشفت آيات هذا المقطع أن القرآن الكريم أول الكتب السماوية الذي وردت فيه صيغتا عرب وأعراب.

فقد وردت فيه لفظة عربي إحدى عشرة مرة وأعراب عشر مرات. [١]

وقد ذكر **الأصمعي** أن العربية منسوبة إلى **يعرب بن قحطان**، ومشتقة من اسمه، وهو أول من نطق بالعربية الفصحى من العرب العاربة من سكان بلاد اليمن، ومنه تشعبت القبائل والبطون والأفخاذ والعشائر. [٢]

ووردت كلمة **الأعراب** معرفة بأل التعريف في جميع المرات التي ذكرت فيها. وتعد سورة التوبة أكثر السور ذكراً لها. فقد وردت في الآيات التالية: ٩٠، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠١، ١٢٠.

في حين وردت في سورة الفتح في الآيتين ١١، ١٦ ومرة واحدة في سورة الأحزاب في

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي: ص ٥٦٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٢٣٣.



الآية ٢٠، والآية رقم ١٤ من سورة الحجرات. والأعراب اسم جنس والنسبة إليه أعرابي، ويراد بهذا اللفظ سكان البيداء أي الصحراء. وجمع الأعرابي أعراب وأعاريب.[١]

أما «**العرب**» فهم أهل الحواضر ممن يعيشون في المدن، وهم اسم جنس والنسبة إليهم «عربي». والمتأمل لظاهر الآيات القرآنية التي وردت فيها لفظة الأعراب يمكنه تصنيفهم إلى ثلاث فئات وقت نزول القرآن الكريم:

فئة لم تزل تعيش في جوف الصحراء حيث الواحات الصالحة لرعي الإبل.

وأخرى نزحت على مر السنين من مواطنها المتقدمة في الصحراء لتعيش على حياة رعي الماعز والأغنام حول المدينة.

وثالثة استقرت في المدينة وبفعل تقادمهم في موطنهم الجديد تخلقوا بأخلاق أهلها فخرجوا من حالة البداوة إلى شيء من التحضر. وذهبت خشونة بداوتهم وانتحلوا معايش أهل المدينة. فخالفوا الفئتين الأولى والثانية حيث ما زالوا في حالة البداوة وما تقتضيها من التنقل والترحال التماساً للماء والكلأ، فلم يصيبوا شيئاً من التطور بسبب تلازمهم بالبادية تلك البيئة الصحراوية الطاردة، فعاشوا في حياة الشظف وخشونة الحياة فانعكس ذلك على مخرجات سلوكهم ونظرتهم للحياة وتمردهم على كل جديد، ولو كان حسناً طيباً فيه الخير لهم.

ولذلك كان المهاجرون يستعيذون بالله من **التعَرُّب**[٢]* وهو سكنى البادية، واعتادت العرب القول لمن عاد للبادية: ارتددت على عقبيك **وتعَرَّبت**، بمعنى أنه صار من الأعراب،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٢٣٣.

(٢) * من طريف ما يروى هنا ما ذكره القرطبي في الجامع ٧/ ٢٣٣: أن الأعرابي إذا قيل له يا عَرَبِيّ فرح والعربي إذا قيل له يا أعرابي غضب. والمهاجرون والأنصار عرب لا أعراب. وسميت العرب عرباً نسبة إلى منطقة يقال لها **عَرَبة** قرب مكة. والعُرْب والعَرَب واحد، والعُرَيْب تصغير العرب. وفي رواية أخرى قيل أن العرب مأخوذة من الاسم يعرب. وفي رواية ثالثة قيل أنها مشتقة من الفعل **يُعْرِب** بمعنى يفصح في الحديث ومنها جاءت كلمة الإِعراب في النحو.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن **ابن خلدون** قد ذم هذه الفئة من الأعراب، واتخذهم حجة للقدح والتنديد بهم والحط من شأنهم، لسذاجة بداوتهم وقسوة قلوبهم ولما فيهم من طبائع العدوان والظلم والغارة على بعضهم بعضاً ولهذا نراه يزدريهم في مقدمته.[1]

والرأي الراجح ليس في **التَعَرُّبِ** مذمة إلا إذا صاحبه الخلق المذموم، ونرى على خلفية هذا التوصيف، أن العرب قديماً كانوا ينقسمون إلى بدو وحضر، وهم جميعاً ينحدرون من قبائل عربية متعددة تعود في نشأة جذورها، إما إلى بقايا العرب البائدة من أقوام **عادٍ وثمود**، أو لعرب الجنوب **القحطانيين**، أو لعرب الشمال **العدنانيين** من أهل نجد والحجاز. والأعراب من هؤلاء جميعاً هم الأصل.

وهم على معادن فمنهم المؤمنون الذين أسلموا وحسن إسلامهم، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. وآخرون منهم منافقون أسلموا باللسان دون القلب.

وبقراءة تحليلية لشخصية الأعرابي المنافق نراه متقلباً عصبي المزاج سريع التهيج حقوداً محباً للفتنة والانتقام ولقول الزور، يجنح إلى فتنة المال، ليس للدين في نفسه أثر يذكر وليس له عناية بالأحكام الشرعية أو الزجر عن المفاسد. يقوم فخره على السيف ورزقه في ظل رمحه من غير وازع من دين أو ضمير.

ويعتبر الإسلام خير ما ساقه الله إليهم لو عقلوا وفقهوا حكمة ذلك، بَيْد أنهم لم يفعلوا وليس أدل على ذلك من ارتدادهم عن الإسلام، بعد أن قبض الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

ومن الدروس التي ترشد إليها قصة الأعراب في سورة التوبة خاصة وسور الفتح والأحزاب والحجرات عامة:

أ - تصنيف الله عز وجل للأعراب إلى مؤمنين صادقين حيث بيّن الله سبحانه وتعالى ما

---

(١) للمزيد حول هذا الموضوع انظر: المقدمة: الباب الثاني من الفصل الخامس والعشرين إلى الفصل الثامن والعشرين، والفصل التاسع من الباب الرابع، والفصل الحادي والعشرين من الباب الخامس.



عليه كثير من الأعراب من كفر ونفاق، ونزه طائفة منهم.

ب - اعتبار سكان البادية من الأعراب أشد كفراً ونفاقاً من كفار العرب ومنافقيهم المقيمين بالحواضر، نظراً لجفاء طبعهم وقسوة قلوبهم. وبعدهم عن منابع العلم والحكمة وجهلهم في حدود الله وشريعته وأحكامه.

ت - لمّا زعم الأعراب الإيمان نفاه الله عنهم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤]. وقوله تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩٧].

ث - بيّن الله سبحانه وتعالى أن من منافقي الأعراب من يعتبر الإنفاق في سبيل الله غرامة وخسراناً مع تربصه الدوائر بالمسلمين. لقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩٨].

جـ- حدَّد سبحانه وتعالى نفاق الأعراب على وجه الخصوص من مجمل العرب، وبيّن شنيع أعمالهم وخبث طباعهم لأنهم أقاموا على النفاق دون توبة، وخص منهم من كان حول المدينة لتأثرهم بكيد اليهود وشرورهم. ومن كان منهم في المدينة لوقوعهم تحت تأثير رأس النفاق **عبد الله بن أبي سلول** الوجيه في قومه وما له من دالة الرياسة فيهم. لقوله تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَـٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ ﴾ [التوبة: ١٠١].

ح- إذا كان شأن الأعراب أول الأمر معاول هدم ضد الإسلام والمسلمين. إلا أنه خرج من أصلابهم في الأجيال اللاحقة لآبائهم، من قامت دعوة الإسلام على يديه من نشر دعوة وفتوحات. بعد أن تعمق الإسلام في نفوسهم، وحصل لهم التغلب والملك. فإذا قويت نزعتهم الدينية تضاعفت قوة عصبتيهم بالاستماتة في إعلاء كلمة الله. وذهب عنهم مذموم الأخلاق وأخذوا بمحمودها. ومن جبلتهم أنهم إذا نسوا الدين وضعف إيمانهم رجعوا إلى أصلهم في قساوة القلب والقتل وأخذ ما في أيدي الناس بالقوة، وتداعت عليهم أهواء الباطل والميل إلى

الدنيا، وحصل فيهم التنافس وفشا الخلاف، وبعدوا عن التعاون والتعاضد وحبسوا أنفسهم عن الخير. وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم أمام عدوهم، واستقووا بالغريب ضد بعضهم بعضاً. وأصبحوا مغلوبين على أمرهم طعمة لكل آكل من الأمم القوية، وحصل لهم الانقياد لهم بذلٍ ومذلة. وهذا دليل على زوال عصبتهم بضعف إيمانهم. ولم تعد ترى للآحاد فيهم عندئذٍ إلا الكذب والخصومة والاحتراب والخيانة والغدر، مع تظاهرهم بالصلاة والصيام والزكاة والحج. فما أقبحه من إيمانٍ مع التلبس بالنفاق الذي كان عليه آباؤهم الأولين.

١٦ - تحث آيات المقطع الخامس على التوبة لله ورسوله والتي من ثمراتها:

- تنفيس الكرب والنجاة من الشدائد.
- النجاة من الفتن والحفظ من كيد الشيطان.
- تحصيل الإخلاص في مراقبة النفس ومجاهدتها.
- الإكثار من الطاعات في السراء والضراء.
- ترك الإعجاب بالنفس وطول الأمل بالحياة.
- استمرار الاستعانة بالله من دعاء وتوسل.
- نيل البركة في كل شيء في الصحة والمال والولد ونحوه.
- الظفر بالنصر والتمكين.
- مغفرة الذنب ومضاعفة الأجر.
- الفوز بشفاعة النبي ﷺ في الآخرة ودخول جنات النعيم.
- الجزم بالدعاء واليقين بالإجابة.

وفضل التوبة كبير وعظيم، إذ أنها سبب لنيل محبة الله عز وجل لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. وسبب للفلاح في الدنيا والآخرة لقوله

تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١]. وفي التوبة كراهية الخوض في الظلم لقوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١]. وإذا استوفت التوبة شروطها اللازمة تكون مقبولة بإذن الله ومنها:

- أن تكون خالصة لله تعالى.

- أن تكون موافقة لهدي النبي ﷺ .

- الإقلاع عن الذنب والندم على فعل الذنوب والعزم ألا يعود إليها ثانية.

- إرجاع الحقوق لأصحابها.

- تحقيق التوبة قبل غرغرة الموت لقوله ﷺ (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر[١]).

وقبل طلوع الشمس من مغربها لقوله ﷺ (من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه). [٢]

ومن أبرز علامات صحة التوبة:

أ- أن يكن العبد بعد التوبة خيراً منه قبلها، فيتحرر من أساليب الشيطان في التزيين والتلبيس والتسويف والتيئيس وتهوين المعصية، ويكثر من الأعمال الصالحة ومصاحبة الأخيار والإقبال بصدر رحب على العبادات المخصوصة، من صوم وصلاة وزكاة وحج، وحب العبادات المطلقة كالالتزام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ب- استمرار محاسبة النفس على سابق تفريطها وذنوبها ليورثه ذلاً وانكساراً بين يديه سبحانه وتعالى، واستشعار نعم الله عليه وجزيل عطاياه ومقارنتها بتقصيره وتفريطه في حق الله تبارك وتعالى. [٣]

---

(١) أخرجه الترمذي: رقم ٣٥٣٧ وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم: رقم ٢٧٠٣.

(٣) للمزيد حول التوبة انظر: إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي: كتاب التوبة ٤/ ٦-٦٨.

١٧- أخبرت (**الآية ١٠٠**) من سورة التوبة في المقطع الخامس رضى الله عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، كل وفق طبقته بحسب أسبقيته إلى الإسلام. حيث وردت فيهم الخيرية والتفضيل عمن سواهم، لما أعد الله لهم من جنات النعيم على إسلامهم وحسن إيمانهم وتضحياتهم بالمال والنفس وصبرهم على أذى الكفار والمشركين لهم. وعلى مثوبة شجاعتهم على كونهم الجند الأوفياء في طلائع الدعوة لإعلاء كلمة الله، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون. وللعلماء في تصنيفهم مذاهب شتى من الأقوال والاجتهادات.

وبقراءة تحليلية نرى أن الرأي المرجوح فيهم أنهم أوائل الذين أسلموا من المهاجرين أولاً ثم الأنصار ثانياً ثم تابعيهم بإحسان على النحو التالي:

أ- طبقة الأوائل الذين اسلموا حسب الجنس والسن والهيئة الاجتماعية **كخديجة** أم المؤمنين باعتبارها أول من أسلم من النساء وأبو بكر الصديق من الرجال و**علي بن أبي طالب** من الصبية و**زيد بن حارث** من الموالي و**بلال بن رباح** أول من أسلم من العبيد.

ب- طبقة الذين أسلموا في دار **الأرقم بن أبي الأرقم** حين كانت الدعوة سرية لسنوات ثلاث إذ بلغ عددهم أربعين رجلا وامرأة.

ج- طبقة الذين صلى من المسلمين إلى القبلتين الأولى بيت المقدس لمدة خمسة عشر شهراً. ثم إلى المسجد الحرام في مكة المكرمة بعد تحويل القبلة إليها.

د- طبقة المسلمين الذين شهدوا بيعة العقبة الأولى من أهل المدينة في السنة الثانية عشرة للبعثة وكانوا اثني عشر رجلاً. ثم أهل بيعة العقبة الثانية في السنة التي تليها وكانوا سبعين ونيفاً بينهم امرأتان.

هـ- طبقة من شهد بيعة الرضوان سنة ستٍ للهجرة وما أعقبها من صلح الحديبية الذي مهد لفتح مكة سنة ثمانٍ للهجرة.

و- طبقات أهل بدر ثم أهل أحد ثم أهل فتح مكة وأهل حنين وأهل غزوة تبوك، ممن لم

يعايشوا الطبقات السابقة.

ز- طبقة من أسلم من وفود القبائل في عام الوفود سنة تسع للهجرة وحسن إسلامهم.

وتأسيساً على ما تقدم نرى أن الصحابة طبقات ودرجات متفاوتة في منازلها. فهناك السابقون الذين طالت صحبتهم للنبي ﷺ وصاحبوه في حله وترحاله وغزواته كلها أو بعض منها. امتدت صحبتهم له لسنوات دعوته حتى قبض رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وهناك من اكتفى من صحبته بنقل الحديث عنه قل أو كثر، ومنهم من قاتله ثم أسلم فقاتل معه في بعض غزواته. ومنهم ما دون ذلك بحيث اكتفى من صحبته ﷺ أن كان له شرف مشاهدته وموته على الإسلام، فاستحق بالعقل أن يكون الصحابة درجات في طبقاتهم إذ لا يعقل أن يكون صحابة رسول الله ﷺ في مرتبة واحدة.

ح- طبقات أوائل التابعين الذين تتلمذوا على الصحابة، وكان منهم عدد هائل من صفوة العلماء في الحديث والتفسير والفقه، ممكن كان لهم شرف بداية تدوين العديد من العلوم الشرعية.

ومن الدروس والحكم التي ترشد إليها الآية ١٠٠ من المقطع الخامس من سورة التوبة ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾:

١٨ - وجوب تعاضد المسلمين وتناصرهم على اختلاف مذاهبهم في حب السابقين الأولين على حسن سيرتهم بما لهم من فضل على الإسلام والمسلمين.

١٩ - عدم جواز التحدث بحق بعضهم بالمرذول من قوادح القول من سبٍ وشتمٍ مظنة سوء الفهم لبعض أعمالهم.

٢٠ - إعمال العقل في التحرر من عقد الماضي وتأويلاته الخاطئة.

٢١ - دعوة المسلمين كافة ليحتكموا إلى لغة العقل والحوار لإعادة الوئام بينهم من نصرة

وتعاضد، لتظهر الأمة على عصبة رجل واحد ولغة واحدة، للحفاظ على هويتها ووجودها المهددين.

٢٢ - المناداة بإعادة كتابة التاريخ الإسلامي بلغة التحقيق المنصف لأخذ العظة والاعتبار من سالف النوازل التي عصفت بالأمة وأذهبت عصبتها وشوكتها. لنبذ ما قد يظهر من الفتنة لدوافع سياسية مشبوهة من البعض تخدم مصالح أعداء الأمة.

٢٣ - التأكيد على أحقية الخلافة الراشدة على النحو الذي سارت عليه بعد وفاة الرسول ﷺ، ابتداءً من **أبي بكر الصديق فعمر بن الخطاب فعثمان بن عفان فعلي بن أبي طالب**. وليس هناك مصداقية لمن يزعم في تعدي أحدهم على الآخر في حق ولايته، ويا لقبح من لم يزل على عناده من إثارة فتنة أو ذم أو شتم في هذا الأمر.

٢٤ - إن السابقين الأولين هم على رأس المؤمنين إلى قيام الساعة الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم، وهذا من باب إكرام الله لهم ولمنازلهم. فاستدل بقرينة إيمانهم وحسن عبادتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، أنهم الفائزون ببيعتهم على السمع والطاعة لله ورسوله وبالجهاد في سبيل الله، فليستبشروا على ميثاقهم وعهدهم هذا، وبالقياس والمقابلة لعموم اللفظ فليستبشر معهم كل المؤمنين على إطلاق الزمان والمكان، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وكان من صفاتهم أنهم يكثرون التوبة إلى الله مع ملازمتهم لها في جميع الظروف والأحوال. العابدون المتصفون بعبوديتهم لله عز جل القائمون بالمحافظة عليها. الحامدون على الدوام لربهم في السراء والضراء واليسر والعسر المعترفون بنعم الله عليهم بظاهرها وباطنها، المكثرون من الصلاة في مواقيتها الصابرون عليها بخشوعهم. الحافظون لحدود الله في تحليل وتحريم علماً عملاً، الحافظون لحدود الله بتعلمهم حدود ما أنزل الله ورسوله للعمل بالتكاليف الشرعية الواجبة، السائحون في سبيل الله التماساً للجهاد أو العلم النافع أو الكسب الحلال أو أي ضرب من سفر فيه قربة لله. وهذه الصفات بالكلية لا تتحقق إلا للمؤمن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر.

نستخلص مما سبق وجوب التأسي بأخلاق السابقين الأولين ومن تبعهم من المؤمنين بعموم صفاتهم المحمودة المشار إليها سابقاً، ليتحقق للمسلم حكم استخلاف الله تعالى له في الأرض ليمكن له ويجعله الوارث لها.

قراءة تحليلية شاملة في الدروس والعبر التي ترشد إليها قصة غزوة تبوك وما اشتملته من الأحكام الفقهية

أولاً: الدروس والعبر والنتائج:

١ - هيأ الله سبحانه وتعالى للمؤمنين في هذه الغزوة أعلى منازل الآخرة وأفضلها. بحيث لم تك أعمالهم تبلغها إلا بصبرهم على شدة ما يحيط بهم من بلاءٍ ومحنة. فقيض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من خلال علمهم أن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وهذا مقدر لهم في علم الله.

وفي ذلك درس لهم في تعلم الطمأنينة والسكينة المخصوصة بمعية الله عز وجل لهم، ليثبتوا على الحق مهما كانت الشدائد في مواجهة عدوهم. لعلمهم أن من حكمته سبحانه وتعالى أن لا يمكن أعداءه من عباده المؤمنين.

٢- عرف المؤمنون من خلال الغزوة أن لهم عدواً منهم وفيهم، يعيشون بين ظهرانيهم فكان ذلك بمنزلة التوطئة للتحرز منهم وعزلهم استعداداً لتصفيتهم. فعلى قدر إيمانهم تكون شدة محنتهم.

٣- تحذر الغزوة المؤمن عاقبة الفتنة والمعصية والفشل والتنازع وحب الدنيا، والتثاقل عن نصرة الله. وأن نصره سبحانه وتعالى منوط بطاعته والتضحية في سبيله. ففي الشدائد والمحن يزيد إظهار العبد من عبوديته لله عز وجل، فيزول عنه ما به من كبر وطغيان، وتزداد معرفته بنعم الله عليه فتستقيم أموره وتحسن عاقبته.

٤- تؤكد الغزوة على أن كل نعيم في الدنيا سوى الجنة حقير. كفتنة المال والأولاد والجاه والسلطان، لكونها آنية مؤقتة تنتهي بنهاية صاحبها من الدنيا. وكل عذاب ومشقة وعسر

وابتلاء في الدنيا في سبيل الله هين ويسير.

ففيه منجاة لصاحبه من النار وعاقبة للمتقين نعيم الآخرة الأبدي، وفي ذلك إنذار وتحذير من سوء العاقبة لمن يعصي الله تعالى ويكفر به.

٥- إن سرعة استجابة رسول الله ﷺ للتحدي، الذي فرض عليه حين علم أن الروم في نيتهم حشد قواتهم، على أرض البلقاء من بلاد الشام لكسر شوكة المسلمين وإضعاف قوتهم. يدلل على حصافة رسول الله وبعد نظره في التعامل مع القوارع والنوازل من العاديات.

إذ أسرع بالإعداد للغزوة والسير إلى العدو، قبل أن يسمح له اكتمال قوته وفرض المعركة عليه، ففاجأهم بما لم يكن يتوقعونه في اختيار زمان المعركة ومكانها، على مراده هو، فأفقدهم عنصر المفاجأة توازنهم وأرهبهم، فانسحبوا دون قتال.

وتحرك النبي ﷺ هذا يدخل في باب الضربة الوقائية الاستباقية، كصورة من صور الهجوم الذي يدرس في الأكاديميات العسكرية في العالم في أيامنا هذه.

٦- تجسد في هذه الغزوة التحدي ورد الفعل الأقوى على مواجهة التحدي بالاستجابة له بقوة واقتدار. فأبعد عن الدولة الإسلامية الفتية صعاباً ومخاطر كانت تهدد كيانها ووجودها، فكفل لها البقاء والاستمرار بفضل الله تعالى أولاً ثم بفضل قوة المجتمع الداخلية من المؤمنين الذين التفوا حول دعوة النفير العام استجابة لله ورسوله.

مما مكنه ﷺ أن يوظف نجاح الغزوة في بسط الإسلام على الجزيرة العربية، ويزيد من قوته الداخلية باضطراد فأسس مرتكزات الحضارة العربية الإسلامية التي قامت في العهود اللاحقة. وكان الإسلام مضمون هذه الحضارة ومحتواها.

مما حمل الباحث الأمريكي(**مايكل هارث**) في كتابه (الخالدون المائة في التاريخ) أن يجعل الرسول ﷺ الترتيب الأول في كتابه هذا، مع تحفظنا عما ورد في هذا الكتاب من هنات منها مساواة الأنبياء بغيرهم من مشاهير العالم منذ آدم عز وجل وحتى ١٩٧٣ سنة إصدار الكتاب.

فالأنبياء معصومون عن الخطأ وقد تأتت لهم النبوة بالاختيار الرباني لهم، والله أعلم حيث يجعل رسالته، فلا يجوز إدراجهم في كتاب واحد مع مشاهير العلماء والقادة.

كإسحاق نيوتن واينشتاين والإسكندر ونابليون وغيرهم، إذا علمنا أنهم بشرٌ غير معصومين عن شهوات الدنيا، خلاف الأنبياء الذين كرمهم الله بالنبوة لهداية البشرية من دياجير الظلام إلى عقيدة التوحيد.

ومما تجدر الإشارة إليه أن **(التحدي والاستجابة)** التي طبقها الرسول ﷺ في غزوة تبوك، وافقت نظرية معاصرة للمؤرخ الإنكليزي **(آرنولد توينبي)** فسر فيها نشوء الحضارات البشرية أو عدمها.

وتقوم نظريته أن المجتمع الذي يستجيب للتحديات التي تفرض عليه وينتصر عليها يكون مؤهلاً للحضارة، أما إذا لم يستجب للتحدي أو كان التحدي على درجة من الشدة تفوق قوة المجتمع بحيث تجعله يستنزف كامل طاقته في محاولة الرد عليه دون جدوى، فإنه غير قادر ولا مؤهل لتشييد صرح حضارة باسمه، ويكون تابعاً لغيره يدور في فلكه عاجزاً عن اللحاق بأدنى المستويات الحضارية.

٧- أن ما وقع للمسلمين في غزوة تبوك من شدة وحاجة، فيها دعوة للإيمان بالقدر، الذي يجعل المؤمن يستشعر عظمة خالقه سبحانه، فيرضى بما يصيبه من خير أو شر.

فإن أصابته نعمة شكر الله تعالى، وإن كان غير ذلك صبر، مما يجعله مطمئناً بعيداً عن الجزع، موقناً بأن الأمر كله بيد الله تعالى قدره بعلمه وحكمته. فيكون إيمانه قوة باعثة له على العمل، لا مجال معها للتواكل والكسل والغفلة عن الأخذ بالأسباب. فينبعث في نفسه قوة العزم والثبات والشجاعة لعلمه أن الله معه، ومن كان في معية الله لا يضعفه ولا يحزنه مكر المنافقين، لإيمانه أنهم لن يوقعوا ضراً به إلا في حدود ما قدره الله تعالى له. فالنفع والضر بيده سبحانه وتعالى، فما على المؤمن إلا أن يأخذ بالأسباب مع تفويض الأمر إليه سبحانه وتعالى فينسحب عليه الحديث الشريف: (احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل

الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف).[١]

٨- ظهر في غزوة تبوك إكرام الله عز وجل نبيه ﷺ في أمرين هما:

أ- أنْ نصره بالرعب دون قتال، وكان هذا النصر مقدمة لفتوحات عظيمة خارج الجزيرة العربية، له نتائج طيبة وآثار عظيمة في تاريخ الإسلام، فأثر هذا النصر في نفوس أعدائهم فأضعفهم وأذلهم وزاد من هيبة المؤمنين في نظر أعدائهم من الروم والفرس.

ب- مغفرة الله عز وجل لرسوله ﷺ ، إذ لا سعادة أعظم من أن يغفر الله تعالى له ذنبه، وهذا ما أكرم الله تعالى به نبيه ﷺ ، فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وإن قيل هنا: ما معنى مغفرة ذنبه عز وجل لرسوله ﷺ مع أنه معصوم عن الذنوب؟

قيل في الإجابة: أن الرسول ﷺ أكمل البشر على الإطلاق، يسير في جميع أموره على الطاعة والبرِّ. وهو بشرٌ قد يترك الأولى من الأعمال من باب الخطأ في الاجتهاد الدنيوي، فيعد ذلك في حقه ذنباً.

وهذا مكرور في القرآن ومن شواهده عبس وتولى، وعتاب الله عز وجل لرسوله ﷺ في أسرى غزوة بدر، ثم معاتبته في الإذن للمخلفين من الأعراب في غزوة تبوك، لأن النبي ﷺ أخذ بظاهر أقوالهم تاركاً سرائرهم إلى الله عز وجل. وهذه الأمور تسمى ذنوباً في حق الأنبياء غفرها الله تعالى لنبيه ﷺ .

٩- أكدت غزوة تبوك أن الصبر على الشدائد أصدق الامتحانات لكشف معادن الرجال وما استتر منها.

---

(١) سنن الترمذي: كتاب صفة القيامة، رقم ٥٦.



وأبانت الغزوة أن النصر دون قتال بعد مسيرة شهر كان مفاجأة ربانية لهم على صدق صبرهم وجلدهم وحسن تضحياتهم بالمال والنفس. ولقد شاءت حكمته سبحانه وتعالى أن يكتفي من جهادهم باستفراغ جهدهم في تحمل ما صاحبها من عسرة وشدة ومشاق طالت مراحلها المختلفة.[١]

وأول ما يسترعي الانتباه من أمر هذه الغزوة، ملاحظة الفرق بين طبيعتها وطبيعة الغزوات السابقة، التي كانت كلها دفاعية، اقتضت المسلمين أن يدافعوا عن وجودهم. أما هذه الغزوة فكانت هجومية أراد من خلالها رسول الله ﷺ ، مفاجأة الروم والقبائل العربية المتنصرة المتحالفة معهم بالإغارة عليهم، لتشتيت جموعهم فتضعف لديهم أسباب المقاومة تمهيداً لنشر الإسلام في ربوع بلاد الشام خارج حدود شبه الجزيرة العربية.

١٠- إن قراءة متعمقة بين يدي غزوات النبي ﷺ عامة وغزوة تبوك خاصة، وما تتطلبه من تحليل ومقارنة لنتائجها توصلنا إلى الحقيقة التالية:

إذا كانت غزوة بدر قد كشفت للمسلمين أن القلة لا تضر شيئاً أمام عدو أكثر عدداً منهم وعدة حال كونهم صابرين متقين. فإن غزوة **أحد** قد خرج منها المسلمون بحكمة وجوب التحرز من مزالق الفشل والهزيمة بالانصياع لأوامر النبي ﷺ وعدم مخالفته، ليكونوا على الدوام أشد حذراً ويقظة من أسباب الهزيمة والخذلان.

وإذا كان الدرس الذي تأتى لهم في غزوة **الأحزاب** استحباب الشورى والمشاورة استخراجاً للصواب والرأي القادح في التخطيط العسكري فكانت فكرة الخندق فإن عجبهم بأنفسهم واستخفافهم في عدوهم في غزوة **حنين** كان سبباً في نكستهم أول الأمر، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت لولا كرم الله ولطفه عليهم لثبات النبي ﷺ وصحبه.

وأما الدرس الذي خرج منه المسلمون في غزوة **تبوك** قد جمع ما تقدم بالكلية من دروس

(١) فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي: ص٣٠١.

وعبر ودلالات، وجاوزها أنها الغزوة الوحيدة التي غلب عليها طابع النفاق، وما صاحبه من تثاقل وتكاسل وتخلف وشك في قدرة المسلمين على الروم لبعد الشُّقة وعسر سنتها وقسوتها عليهم. وقد شاءت حكمته تعالى أن تكون الغزوة في وقتها وسنتها وزمانها وظروفها وبُعدها الجغرافي، مقدرة بترتيب إلهي للحكمة والعظة والاعتبار من رب العالمين، لِيُعلِّمَ الأمة على مقارعة الشدائد بالصبر حتى لا يتوهم اليأس إذا عاين المؤمن شيئاً من المشقة، دفعاً له من الركون إلى اليأس مع الشدائد وفقدان الأمل مع شدة الحاجة، كمن يبتليه الله ببلاء ليكون سبباً في تطهيره وتزكيته ورفع درجاته.

والأمر بالجهاد في مثل هذه الظروف من الشدة هو امتحان رباني لاختيار المؤمن الحق من الكاذب ولهذا كثر النفاق. وفي هذا درس للأمة على تحدي المعوقات بالاستجابة لها ومواجهتها صيانة للإسلام والمسلمين.

١١- وفي غزوة تبوك دعوة إلى توطين النفس على مجاهدة مشاق القتال وأهواله بالصبر الذي يطوي الشدائد والمحن والمسافات، كما تؤكد الغزوة على أن النصر وإن كان من عند الله عز وجل، إلا أنه يوطئ له بمقدماتٍ وتوطئاتٍ تؤذن به وتدل عليه، وعلى رأسها أن ضمان نصر الله لأوليائه المؤمنين لا ينافي تعاطي الأسباب المادية الموجبة للنصر، وفي هذا دعوة للحرص على فهم قوانين النصر الربانية حتى نؤيد بنصره تعالى على اختلاف الأزمنة والعصور. وعلى خلفية هذا نقول:

ومما يؤسف له أن بعض الناس يظنون أن النصر على الأعداء يعزى لقوة العدد والعدة فقط، وآخرون يرون أن النصر لا يتحقق للمسلمين إلا بالدعاء دون الأخذ بالأسباب وهذا وهم مخالف للعقيدة والعقل.

فتراهم في النوازل يدعون الله لنصرهم ثم يتساءلون عن سبب عدم الاستجابة لدعائهم.

والصواب أن نصره تعالى لا يتحقق إلا بشرطين هما الاستقامة على منهج الله والتمسك

بشريعته، والأخذ بالأسباب المادية الموجبة للنصر بكل صورها وأشكالها وفنونها حسب ظروف كل عصر ومخرجات أسلحته وضروب اقتصاده، من تميز في الصناعة والزراعة والتجارة ونحوه. وهذا بالكلية من ضرورات الإعداد الذي أمرنا بها الله عز وجل لنصرته في قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ولفظ القوة عام يشمل كل ما يتقوى به على قتال العدو وجهاده بحسب الأزمنة والأمكنة.

١٢- تعد هذه الغزوة درساً في العقيدة وقانون الأسباب والمسببات، ومن واجب المسلمين أن يفيدوا من دروسها التربوية بالحرص على تهيئة الشباب على حب الجهاد، مع فهم قوانين النصر الروحية والأخذ بالأسباب المادية، حتى يؤيد الله الأمة بنصره. ففي الآية الكريمة السابقة حث صريح وأمر بالاستعداد لملاقاة العدو، فالحرب على مدار التاريخ جلل، تتوقف عليها مصائر الأمم. فهي جديرة بالتحضير والتجهيز والإعداد في مختلف نواحي العدد والقوة والعتاد، ودخول الحرب دون تجهيز وإعداد وتعبئة موارد وتبني سياسات واستراتيجيات حربية خاصة يسبب الفشل والهزيمة، وضياع الأمة وزوال مقدراتها وهيمنة العدو عليها.

ولا يفوتنا الإشارة هنا أن قصة غزوة تبوك وتداعياتها قد غطى معظم مساحة السورة لأهميتها في تاريخ الدعوة الإسلامية إذ كان من نتائجها:

أ- غربلة المجتمع الإسلامي بتطهيره من النفاق وأهله بالقضاء على جيوبهم.

ب - ظهور المسلمين كقوة مرهوبة الجانب لأول مرة في تاريخهم، بسبب كسر شوكتهم للروم، وهي أكبر دولة في زمانها مما كان تمهيداً لأفول نجمهم. فنزعت عنهم القوة وخلعت على المسلمين قوة الشكيمة والرهبة.

ج - تحقيق نصر الله للمسلمين دون حرب وقتال كان بمنزلة تكريم إلهي لهم ومكافأة

على صدق صبرهم، لقول الرسول ﷺ : [**نُصِرتُ بالرعب بين يدي مسيرة شهر**]. [(١)]

د- تأمين التخوم الشمالية للجزيرة العربية في حدودها مع بلاد الشام، من خلال عقد اتفاقيات مع زعماء القبائل العربية الخاضعة لنفوذ الروم، فصالحهم النبي ﷺ مقابل دفع الجزية فاستمالهم إليه.

هـ- كانت الغزوة توطئة لبداية الفتوحات الإسلامية خارج حدود شبه الجزيرة العربية، وكانت إيذاناً للقضاء على إمبراطوريتي الفرس والروم. مما أعاد تشكيل خريطة العالم من جديد لصالح المسلمين، إذ امتدت فتوحاتهم للصين شرقاً والأندلس غرباً.

ثانياً: بعض الأحكام الفقهية التي ترشد إليها غزوة تبوك:

أ- بيان أهمية الجهاد بالمال لقول الرسول ﷺ (ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم). [(٢)]

ب- الجهاد في الإسلام يجمع بين الدفاع والهجوم ويتوقف ذلك حسب رؤية الإمام الحاكم ومصلحة الأمة، وما تقتضيه ظروف الزمان والمكان وقوة الدولة وقياسها مع قوة العدو وتحالفاته.

ج- التحذير من المنافقين والتنكيل بهم وبمن وراءهم ممن شايعهم، وتطهير الجيش من عناصرهم، وتحصين الجبهة الداخلية من شرورهم الهادف لإرباك الدولة وتفكيك قوتها بغية إيقاع الهزيمة بها خدمة للعدو، ويقابل فئة المنافقين اليوم ما اصطلح على تسميته بالطابور الخامس.

د- استنكار التطلع إلى الغنائم والتنازع عليها عند المشاركة في القتال كما فعل بعض المنافقين في الغزوة، وكما وقع للمسلمين في غزوة احد.

هـ- التأكيد على وحدة وتماسك الجيش المقاتل بحيث تجعل المجاهد لحظة لقاء العدو

---

(١) أخرجه مسلم عن جابر بن عبد الله في كتاب المساجد ومواضع الصلاة رقم ٨١٤ و٨١٥.

(٢) الترمذي ٣٧٠١ و٣٧٠٢، من حديث عبد الرحمن بن خباب وعبد الرحمن بن سمرة.

أقرب إلى ربه من ساعته التي تأتيه فيها سكرات الموت.

و- أن الإمام الحاكم بوصفه الوكيل عن الأمة إذا سمع بقصد عدوه له وفي جيشه قوة ومنعة، ليس من الحكمة أن يقعد ينتظرهم، بل يسير إليهم كما فعل رسول ﷺ في غزوة تبوك، عندما بلغه أن الروم قد جمعت له جموعاً ونزلت بالبلقاء من بلاد الشام. وهذا داخل في استحباب مباغتة العدو بالإغارة عليه للمصلحة الراجحة.[١]

ز- جواز القتال في الشهر الحرام للمصلحة الراجحة إذ كان خروجه ﷺ في غزوة تبوك في شهر رجب.[٢]

ح- يلزم الشروع بالجهاد بعد أخذ أسبابه من تأهب واستعداد، وليس لأحدٍ حق الرجوع أو التخلف متى استنفر الإمام الجيش وأعلن النفير العام إلا بإذنه.[٣]

ط- استحباب مشورة الإمام الحاكم رعيته وجيشه قبل الحرب، استخراجاً لوجه الصواب وسداد الرأي، استطابة لنفوسهم وأمناً لعقبهم وتعرفاً لمصلحة يختص بعلمها بعضهم دون بعض امتثالاً لقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ولقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

ي- جواز طلب الإمام الحاكم الجزية من العدو ومصالحته إذا رأى المصلحة في ذلك.

ودليله أن النبي ﷺ لما بلغ تبوك وعسكر فيها أتاه صاحب (أَيْلَه) فصالحه وأعطاه الجزية وكذلك فعل مع أهل(جَرْبا) و(أَذْرُح).[٤] وأن أهل العهد والذمة هؤلاء إذا أحدث أحد منهم

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية: ٣/ ٤٧٩.

(٢) المصدر السابق: ٣/ ٥٥٨.

(٣) المصدر السابق: ٣/ ٢١١ و ٥٥٨.

(٤) تاريخ الأمم والملوك، للطبري: ٢/ ١٨٥. وتهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون: ص٣٣١.

حدثاً فيه ضرر على الإسلام انتقض عهده في ماله ونفسه، [١] وتحقق انتساخ العهد بإعلان الحرابة.

ك- جواز الإغارة على من بلغتهم الدعوة الإسلامية بدون إنذار لموقفهم السلبي منها. وقد تحقق هذا في غزوتي مؤتة وتبوك، حيث أرسل الرسول ﷺ إلى ملوك الأمم المحيطة بالجزيرة العربية برقاع يدعوهم فيها إلى الإسلام ومنهم هرقل زعيم الروم، فأبى وامتنع. ومن هؤلاء أيضاً حاكم بصرى الشام الذي أرسل له رسول الله ﷺ **(الحارث بن عمير الأزدي)**[٢]* وفي طريق عودته تعرض له أحد العرب المتنصرين بالبلقاء من بلاد الشام فأوثقه وضرب عنقه، فاشتد غضبه ﷺ ومهد لذلك بغزوة مؤتة أولاً التي كانت تمهيدية استطلاعية لرصد مواطن القوة والضعف عند الروم. ثم أعقبها غزوة تبوك وكانت هجومية لتأديب الروم وفلج شكيمتهم إيذاناً لزوال دولتهم.

ل- كراهية أن يدخل المسلم ديار الأمم الغابرة التي أهلكهم الله بكفرهم إلا للعظة والاعتبار.

ودليله أنه ﷺ لما مر بديار **ثمود** في طريق تبوك سجى ثوبه على وجهه واستحث راحلته ثم قال: (لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم). [٣]

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال (لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذبين). [٤]

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية: ٣/ ٥٦٩. وللمزيد انظر: سيرة ابن هشام: ٢/ ٥٢٥و٥٢٦.

(٢) * للصحابي الجليل مقام مشهور جنوب الأردن في محافظة **الطفيلة** في لواء **بصيرة**. والمكان غير بعيد عن مؤتة وتبوك، وإن كان للأولى أقرب.

(٣) أخرجه أحمد ٥٢٢٤و ٥٣٤٣ و٥٤٠٤ و ٥٤٤١ و٥٦٤٥ و ٥٧٠٥ و ٥٩٣٥ من حديث ابن عمر

(٤) أخرجه البخاري ٨/ ٢٨٨، ومسلم ٢٩٨٠.



وليس هذا فحسب بل أمرهم ﷺ (بإلقاء العجين وطرحه) كما نهاهم عن شرب الماء من آبار القوم). [١]

وحكمة هذا الدرس بيان خطورة ما قام به قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين وقوم لوط الوارد ذكرهم في الآية ٧٠ من سور التوبة. ليكون في ذلك عبرة للمنافقين وهم يرون أثار مصارع هذه الأقوام السابقة لعلهم يرتدون عن نفاقهم ليؤمنوا عن تبصرٍ وتعقل. وقد مضت سنته سبحانه وتعالى في هذه الأمم بإمهالهم ثم أخذهم بذنبهم فتأملوا كيف كانت عاقبة من كان قبلكم.

ولعل الحكمة تقتصر على خبر العبرة والاتعاظ من نهاية هذه الأقوام بالهلاك والاستئصال. وفي ذلك دعوة للنظر والتأمل في عاقبة مكر هذه الأقوام، وإن في آيات الإهلاك دلالة على قدرته سبحانه وتعالى.

واللافت للانتباه هنا أنه لم يرد ذكر هذه الأقوام للسرد التاريخي بل لأجل تحقيق أهداف تربوية دعوية، ومن لم يتفكر ويتعظ بمشاهد ما آلت إليه مصارعهم، فهو أعمى البصر والبصيرة والعلة فيه ومنه. وفيها ذم للمنافقين الذين تعمى بصائرهم عن التأمل فيمرون على آيات الله غافلين.

ولقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يورد من أخبار الأقوام السابقة بالقدر الذي يخدم محور السور ومقاصدها وأهدافها.

م- التأكيد على تحريق وتدمير المسجد الذي كان بناؤه ضِراراً وتفريقاً بين المؤمنين، ومأوى للمنافقين لنفث سمومهم، وبالكلية فإن هذا التدمير ينسحب على كل مكان هذا شأنه،

---

(١) أخرجه البخاري ٦/ ٢٦٩ باب قوله تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًاۚ ﴾، وأخرجه مسلم ٢٩٨١ في باب الزهد.

ولو بتغيير صورته وإخراجه عما وضع له، [(١)] كالحانات والخمارات والملاهي الليلية وبيوت الفسق ونحوه، وهذا من مسؤولية قاضي الحسبة المسؤول عن تطبيق أحكام الشريعة ومحاربة الفواحش والأعمال المنكرة، وقضاء الحسبة مفهومه الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله. [(٢)]

ن- التأكيد على صدق النية في التوبة ودليله تخلف النفر الثلاثة من المسلمين عن الخروج إلى غزوة تبوك. وهم (**كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع**). وقد ارتكبوا بتخلفهم عن الجهاد إثماً عظيماً ندموا عليه أشد الندم.

فلما رجع النبي ﷺ قاطعهم وامتنع الناس عن الكلام معهم واستمروا في هذا العذاب النفسي أياماً طويلة، حتى أنزل الله تعالى عليهم توبته نجاة لهم من النار على شدة ندمهم وصدق توبتهم، وعلى رأس ما اشتملت عليه قصة الثلاثة الذين خلفوا من الحكم توفيق الله لهم فيما جاؤوا به من الصدق. [(٣)]

وفي نهي النبي ﷺ عن التحدث إلى هؤلاء الثلاثة من بين سائر من تخلف عنه دليلٌ على صدقهم وكذب الباقين. أما المنافقون فجرمهم أعظم من أن يقابل بالهجر. [(٤)]

وفي هذا دليل على بيان فضيلة الصدق وما يقود إليه من طاعة لله تعالى تدخل صاحبها الجنة وقبح الكذب الذي يدخل صاحبه النار. فما أنجى الله من أنجاه إلا بالصدق، ولا أهلك من أهلكه إلا بالكذب وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزيه: ٣/ ٥٧١.

(٢) للمزيد حول ولاية الحسبة انظر:ابن تيمية، الحسبة في الإسلام والمقدمة: لابن خلدون، الباب الثاني الفصل الحادي والثلاثون.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزيه، ابن قيم الجوزية: ٣/ ٥٧٦.

(٤) تاريخ الأمم والملوك، للطبري: ٢/ ١٨٦.



فالسعادة دائرة مع الصدق والشقاوة دائرة مع الكذب ولا ينفع العبد إلا صدقه. وتأمل تكريره سبحانه وتعالى على الثلاثة الذين خلفوا توبته عليهم مرتين في الآية ١٨ من سورة التوبة. فتاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة، فلما تابوا تاب عليهم ثانياً بقبولها منهم وهو الذي وفقهم لفعلها. [١]

المقطع السادس ويمتد من الآية ١٢٨-١٢٩

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

القراءات: الآية ١٢٨

- قرأ **عبد الله بن قسيط المكي** (من أنْفَسِكم) بفتح الفاء من النفاسة. [٢] بمعنى من أشرفكم وأفضلكم. [٣]

المعنى الإجمالي للمقطع السادس

اختتمت سورة التوبة بهاتين الآيتين اللتين جاءتا بعد الأمر بالشد والغلظة، في التعامل مع الكفار وأهل الكتاب ومنافقي الأعراب في المدينة وما جاورها.

وأكدتا أن من مظاهر رحمته سبحانه وتعالى أن أرسل في العرب رسولاً منهم، من أشرف قبائلهم نسباً وأعزهم جاهاً من جنسهم وبلغتهم، [٤]حريص على هدايتهم لخير الدنيا

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن قيم الجوزية: ٣/ ٥٩٢.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٣٠١.

(٣) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٣١١.

(٤) الجامع لأحجام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٣٠١، والكشاف، للزمخشري: ٢/ ٣١١، ومختصر تفسير ابن كثير، للصابوني: ٢/ ١٨٠.

والآخرة.

والأجدر بالعرب النازل بهم هذا الخطاب أن يوقروا نبيهم ويلتفوا حوله لا معاداته ومخاصمته، وليس أدل على آثار رحمته فيهم ورفقه بهم معاتبة الله عز وجل له في سورة الشعراء: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣]. بعد أن عزّ عليه عنت قومه له سخريةً وتكذيباً وعناداً ومكابرةً، وما قد يلقون من العذاب لكفرهم.

فقد أثارت هذه الآية أن ما يعانيه رسول الله ﷺ من ألم وحسرة، إنما تأتى له بفعل حرصه على إصلاح أمرهم وتصويب ما اعوج من شأنهم لعلهم يؤمنون على بصيرة.

وما حصل له ذلك إلا لأنه شديد الرأفة وشديد الرحمة على قومه لقوله تعالى: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

ثم تحول الخطاب في الآية الأخيرة من السورة إلى النبي ﷺ للتسرية عن نفسه، أن يا محمد إن خذلك قومك وتولوا وأعرضوا عنك بعد هذه النعم التي منّ الله عليهم بها[1] فلا تحزن ولا تبتئس فإن رب العرش العظيم القادر على كل شيء، ناصرك عليهم، حتى تكون كلمة الإسلام هي العليا عليهم جميعاً وكافيك شر مكرهم وكيدهم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هاتين الآيتين من أواخر الآيات عهداً بالنزول حسب رواية **أبي بن كعب**،[2] بمعنى من أواخر عهد السماء بالأرض، حيث اكتملت الرسالة وقبض النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وبموته انقطع وحي السماء عن الأرض.

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١١/ ٧٤، تفسير المنار، محمد رشيد رضا: ١٢/ ٩٠.

(٢) الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٣١١، وتفسير المنار، محمد رشيد رضا: ١٢/ ٨٧، تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور: ١١/ ٧٥.



الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع السادس من سورة التوبة

١. لم تكن رسالة الإسلام يختص بها جيلٌ من الناس دون آخر، أو قوم دون قوم شأن الرسالات التي تقدمها، بل كانت رسالة عامة للناس جميعاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨]. وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وحكمته أن الإسلام لم يقتصر على العرب الذين نزل فيهم، وإنما كان عاماً للبشرية، فقد أمر الله عز وجل رسوله أن يدعو الناس جميعاً إلى الإسلام بغض النظر عن جنسهم، ولم تشأ إرادته سبحانه وتعالى أن يقول قل يا أيها العرب إني رسول الله إليكم، وهذا ما يؤكد عالمية الرسالة الإسلامية وعدم اقتصارها على قوم، وإن نزلت في العرب فهذا مصدر فخر وعزة لهم، حيث شاءت حكمته سبحانه تعالى أن يشرق نوره على الأرض من جديد من مكة المكرمة حاضرة المسلمين إلى قيام الساعة.

وأن يكون العرب هم طلائع حملة مشعل الفتوحات الإسلامية، مما طبعهم بطابع العالمية من منظور إسلامي، ومن واجبهم إعادة حمل هذه الرسالة وتبليغها إلى العالم من جديد. وهذا ما يقتضيه الشارع منهم.

٢. ختم الله عز وجل الرسالات السماوية برسالة الإسلام، فبعث محمداً ﷺ رسولاً هادياً للبشرية بالرأفة والرحمة والمحبة والإخاء والمساواة والعدل، ليعلم الناس الكتاب والحكمة. وغير بذلك وجه التاريخ لأنه كان سبباً في هدايتهم وإسباغ نعم الله عليهم، ومن أدبيات الإيمان برسالته ﷺ وجوب قبول كل ما يرد عنه ﷺ لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النساء: ٥٩]. وقوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْ ﴾ [االمائدة: ٩٢]. وقوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [النور: ٥٦].

وهذا بالكلية من أدلة حجية السنة في القرآن الكريم، مما يوجب على المسلم الاحتجاج بها والتأسي بصاحبها حيث أمر الله بطاعته وطاعة رسوله.

وحول مكانة النبي ﷺ يعلق **الزمخشري**: (ومن حكمته سبحانه وتعالى أن جعل اقتران اسم الرسول ﷺ باسم الله تعالى، وجعل الإيمان به سبحانه وتعالى قرينته الإيمان برسوله ﷺ لاشتماله على الشهادة والأذان والإقامة وغيرها، كأنهما شيء واحد غير منفك أحدهما عن صاحبه، حيث انطوى تحت الإيمان بالله تعالى الإيمان بالرسول ﷺ). [١]

كما ويعلق **صاحب المنار** حول اقتران اسم النبي ﷺ باسم ربه ما افتتحت السورة به من قوله تعالى: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ وعطف عليها قوله تعالى: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ فقرن اسم نبيه باسمه في تبليغ أحكامه وتنفيذها. [٢]

ويلاحظ في مناسبة ختم السورة في قوله تعالى: ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾. أن الله سبحانه وتعالى وصف رسوله بصفتين من صفاته وسماه باسمين من أسمائه الحسنى. [٣]

وهذا الترابط يدل على وحدة تكامل آيات سورة التوبة في هدفها ومقاصدها، وآياتها تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم لتخدم محورها.

٣. إن في قوله تعالى ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ دليل على أنه ليس في العرب **المستعربة**، وهم **العدنانيون** الذين انحدر نسبهم من زواج إسماعيل بن إبراهيم من قبيلة **جُرهم** من العرب **العاربة**، إلا وقد ولدت النبي ﷺ مضريها ربيعيها ويمانيها، بمعنى أن نسب النبي ﷺ متشعب في جميع قبائل العرب وبطونها وأفخاذها وعشائرها بوجه عام، وإن كان نسبه إلى قريش من بني هاشم على الخصوص.

---

(١) الكشاف، للزمخشري:٢/ ٢٤٣.

(٢) تفسير المنار، محمد رشيد رضا: ١٢/ ١٠٤.

(٣) المصدر السابق: ١٢/ ٨٩.



ومن أنفسكم صفة للجنس العربي في منبت الرسول ﷺ وأصوله ونسبه وطهارة قرشيته. من صميم العرب وخالصها مما يقتضي مدحاً لنسبه ﷺ لأنه نفيس في قومه، [1]وفي إظهاره للرحمة والرأفة فيهم حث لهم على التراحم وشفقة بعضهم على بعض من أجل تعليمهم على دفع المكروه وإزالة الضرر عن بعضهم.

٤. إن في الآيتين الأخيرتين من سورة التوبة إشعار بإيداع الرسالة في العرب، وإعذار لهم بتنبيههم إلى المبادرة باغتنام فرص الإيمان بها، قبل فوات الأوان والنبي بين أظهرهم. ويرى **ابن عاشور** في تفسيره أن في الآيتين إيماء إلى اقتراب أجل النبي ﷺ، فحملت دعوة التعجيل في إيمان القوم بنبيهم، الذي اصطفاه الله من بينهم ورباه وعلمه ليتمكن من حمل الرسالة وتبليغها لهم خاصة وللعالم عامة. [2]

٥. في قوله تعالى ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ فسرت عند بعض المتأولين، أن قرشية النبي ﷺ وطهارة شرفه في قومه، قد حملت المسلمين في صدر الإسلام على الالتزام باحترام بند قرشية الخلافة، كأحد المرتكزات الأساسية في النظام السياسي في الإسلام.

وعلى خلفية هذا حصلت الخلافة لأبي بكر ثم إلى عمر بن الخطاب ثم إلى عثمان بن عفان ثم إلى علي بن أبي طالب وكلهم من قريش مع اختلاف بطونهم.

ومما تجدر الإشارة إليه أن قرشية الخلافة شرط مختلف فيه عند المسلمين. فالجمهور يرون جواز أن يكون الحاكم قرشياً ودليلهم ما روى عن النبي ﷺ [الأئمة من قريش إذا استرحموا رَحموا، وإذا عاهدوا وَفُوا وإذا حكموا عدلوا]. [3]ومما يعضده إجماع الصحابة على أن يكون الحكم لقريش في سقيفة بني ساعدة عند مناقشة الأمر بين المهاجرين والأنصار. ويرى الجمهور

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٧/ ٣٠١، والكشاف، للزمخشري: ٢/ ٣١١، تفسير المنار، محمد رشيد رضا: ١٢/ ٨٩، وإعراب القرآن الكريم، محيي الدين الدرويش: ٣/ ٢٩٧.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور: ١١/ ٧٤.

(٣) رواه أحمد: رقم الحديث١٨٩٤١.



أيضاً جواز الخلافة في غير قريش للضرورة. في حين ترى **الشيعة الإمامية** الخلافة في قريش وحصرها في آل البيت. وترى **المعتزلة** جواز الخلافة في غير قريش.[1] **والرأي الراجح** أن الخلافة حق متاح لأي مسلم بصرف النظر عن قبيلته وجنسه متى استوفى الشروط الواجب توافرها في الخليفة. شريطة ألا يفرض نفسه على الأمة وإنما يختار من بين مجموعة من الأشخاص، تمر في ثلاث مراحل هي الترشيح والاختيار والبيعة برضى الرعية واختيارها.

ولا بأس من تحديد مدة ولايته لأجل، وحكمته عدم قبول ولاية الحاكم المطلقة حتى الموت، تجنباً للتسلط والجبروت ومصادرة الحريات واختزال الوطن والأمة في شخصه. لأجل أن تكون سيرته في رعيته سيرة عدل ومناصحة وحب متبادل، لا سيرة رعب وإرهاب. وشواهد هذا مكرور على امتداد عهود الخلافة بدءاً من الأمويين إلى أيامنا هذه، مما اقتضى المناداة بالتصويب على قاعدة من الشورى.

الخاتمة

تناولت سورة التوبة ستة مقاطع، وعرضت لنا جانباً من سلوك المشركين وأهل الكتاب والمنافقين، مع بيان آليات التعامل معهم سلماً وحرباً وحرمة الأشهر الحرم. ثم عطفت إلى غزوتي حنين وتبوك وما بهما من دروس وعبر، وعقدت مقارنة بين صفات المنافقين وصفات المؤمنين.

وقررت تأكيد وعده سبحانه وتعالى للمؤمنين الذين يبذلون أنفسهم وأموالهم في سبيله بأنه اشترى منهم تلك الأنفس والأموال بالجنة ثمناً لما بذلوا.

لقد اشتملت هذه المقاطع على شريف المقاصد ومسالك الحكمة والاعتبار والتدبر، وانتظم فيها فصول في الأخلاق والتربية والآداب والدعوة مؤطرة بالكلية بمرجعيات الثبات على المبدأ والصبر على الشدائد في الضراء والسراء.

---

(١) الإسلام، سعيد حوى: ٢/ ١٥١.

إن جملة القول في آيات مقاطع السورة، تقتضي الإشارة إلى ترابط كل آية فيها مع الآية الأخرى في المقطع نفسه، ثم مع المقطع الذي يليه حتى خاتمة السورة. رغم اختصاص كل مقطع بقضية معينة، وما يذكر في كل مقطع يتلاءم مع سياق المقاطع الأخرى.

وهذا دليل على وحدة الهدف التي سيقت من أجله، فالآيات تخدم سياق بعضها بعضاً كما يتبدى بوضوح علاقة السورة بما قبلها من السور تحديداً الأنفال، فكلتا السورتين مدنية والأنفال تمهيداً لسورة التوبة ومكملة لها، لما ورد فيها من أحكام القتال والاستعداد لملاقاة العدو في شتى المواقف والظروف، وأحكام غنائم الحرب وذكر قصة غزوة بدر مع وجوب ولاية المؤمنين بعضهم لبعض.

كما أن علاقة سورة التوبة بسورة يونس التي تليها واضحة، رغم أن الأخيرة مكية إذ ابتدأت بالإشارة إلى مكانة القرآن الكريم، وما يقوله المشركون في شأن النبي ﷺ من استهزاء، وفيها من التهديد الشديد بعذاب الله للمشركين لفساد عقيدتهم وفساد طويتهم التي جبلوا عليها ظاهراً وباطناً.

وحكمة ذلك أن سورة التوبة بهذا الترتيب أراد لها سبحانه وتعالى، المزاوجة بين خصائص القرآن المدني وضوابطه الموضوعية التي وردت فيها وفي سورة الأنفال التي تقدمتها، وبين ضوابط وخصائص القرآن المكي في السورة التي تليها.

ومما تجدر الإشارة إليه أن سورة التوبة وإن كانت منفصلة عن سورة يونس التي تليها إلا أنها متشابهة معها في هدفها وغايتها. فجاءت شاملة للحث على الإيمان والتمسك بالعقيدة والدعوة إلى الله وقتال المشركين والمنافقين، وأخبرت سورة التوبة أن الناس أربعة أصناف مؤمنون وكافرون ومنافقون وأهل ذمة، وأنبأت أن الله سبحانه وتعالى أعد لكل فئة منهم ما يناسبها من نعيم أو عذاب.

وعنيت بالتنبيه إلى الاعتبار بما أصاب السابقين من الأقوام الذين عصوا رسلهم، وكان ذلك في منزلة الترغيب والترهيب وهذا مناسب لجو السورة وهدفها.

ولم تترك السورة طبقة من فئات المجتمع إلا ذكرته بالتوبة إن أرادوها لأنفسهم، فشملت توبة الله رسوله ﷺ وصحابته والكفار والمنافقين، فهذه السورة ينظر على أنها من أكثر سور القرآن بشارة في فتح باب الأمل برحمة الله وتوبته على الرغم من ظاهر شدتها. فجاءت التوبة عامة: توبة من الكفر ومن النفاق، وتوبة من التخاذل والتثاقل عن الجهاد، وتوبة من الشح والبخل، وتوبة من مخالفة أمر الله في الذنوب والمعاصي، وتوبة من حب الدنيا وشهواتها وتوبة من الاغترار بالمال والولد، وتوبة من خيانة الأمانة. فمن جاءه تائباً طائعاً فإن الله تعالى سيؤتيه أجراً عظيماً ويتجاوز عن ذنوبه. وحكمة ذلك عدم التيئيس من رحمة الله تعالى بفتح باب التوبة للعائدين إليه سبحانه مهما عظمت ذنوبهم.

واشتملت السورة على طائفة كبيرة من الأحكام الفقهية ذكرت في سياق مقاطعها. وحفلت على العديد من الآيات التي استهلت بالاستفهام للإنكار والتوبيخ المقترنين بالتعجب من سفه وطيش وعناد الكفار وأهل الكتاب والمنافقين. وعبرت بعض الآيات عن الماضي بصيغ الاستقبال لتخدم محور السورة، وتعلل لها وتدلل وكرر بعضها ليكون أبلغ في التحدي والتبكيت.

وجو السورة ومناسبتها يتحدث عن أسباب النصر الربانية، مشيرة لفقه الجهاد بأدبيات عزَّ نظيرها في تاريخ البشرية سلماً وحرباً. وعند مقارنتها بالقانون الدولي في الحرب يتأكد لنا كيف أحاط الإسلام القتال بسياج من الرحمة والتسامح لم تبلغها مدنية القرن الحادي والعشرين. وجعل ذلك من البر الذي هو علامة الإيمان، ومما يجب لفت النظر إليه أن الإسلام يطلق على الحرب الجهاد والقتال، ويعضده قوله تعالى:﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ البقرة/ ٢٤٤. وقوله تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾الحج/ ٧٨.

كما حذرت السورة من التخاذل عن الاستجابة لنداء النفير العام والجهاد في سبيل الله تعالى، وعد ذلك من كبائر الذنوب ومن السبع الموبقات. وتميزت السورة بتنوع أساليبها ترغيباً في الجهاد وتشويقاً إليه.

ودللت أن من بواعث النصر على أعداء الله الثبات عند لقاء العدو. ومصاحبة ذكر الله في الحرب وطاعة ولي الأمر وعدم التنازع والصبر على الشدائد، فالصبر من أعظم أسباب النصر.

واختتمت السورة بإبراز علو مكانة النبي ﷺ وعناية الله تعالى له بإنزال سكينته عليه وتأييده بنصره.

وقد انتظم في السورة طائفة من الدروس التربوية والدعوية والجهادية وردت في سياق مقاطعها.

سورة يونس عليه السلام

بين يدي السورة

أ - اسمها:

سميت في المصاحف وفي كتب التفسير والسنة سورة يونس، لأنها انفردت بذكر خصوصية لقوم يونس، فهم آمنوا بعد أن توعدهم رسولهم بنزول العذاب، وعفا الله عنهم لما آمنوا وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ آية: ٩٩، وتلك الخصوصية كرامة ليونس عليه السلام، وليس فيها ذكر ليونس في غير هذا الموضع، وقد ذكر يونس عليه السلام في سورة الصافات بأوسع مما في هذه السورة، ولكن وجه التسمية لا يوجبها.

يقول ابن عاشور: «والأظهر عندي أنها أضيفت إلى يونس تمييزا لها عن أخواتها الأربع المفتتحة بـ (ألر) ولذلك أضيفت كل واحدة منها إلى نبي أو قوم عوضاً أن يقال: ألر الأولى وألر الثانية، وهكذا فإن اشتهار السور بأسمائها أول ما يشيع بين المسلمين بأولى الكلمات التي تقع فيها[1].

ب- مكيتها أو مدنيتها

هي مكية في قول الجمهور، وعن ابن عباس رضي الله عنه روايتان، أخرج ابن مردويه من طريق العوفي عنه، ومن طريق ابن جريج عن عطاء عنه أنها مكية، وأخرج من طريق عثمان بن عطاء عن أبيه عنه أنها مدنية، ذكره السيوطي في الإتقان، وهو مخالف للروايات الكثيرة، والمعول عليه عند الجمهور الرواية الأولى، وفي القرطبي عن ابن عباس أن ثلاث آيات منها مدنية وهي قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ إلى آخرهن، وجزم بذلك القمي والنيسابوري، وقال

---

(١) التحرير والتنوير م٦، ١١/ ٧٧.

السيوطي في الإتقان، وابن عطية عن مقاتل: إلا آيتين مدنيتين هما:﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ الآيتان:٩٤-٩٥، وفيه عن الكلبي إلاّ آية واحدة نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى:﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ آية:٤٠، نزلت في شأن اليهود، وقيل إلى رأس أربعين مكي والباقي مدني.

ورأي أكثر المفسرين أنها مكية كلها، يقول ابن عاشور: «وأحسب أن هذه الأقوال ناشئة عن ظن أن ما في القرآن من مجادلة مع أهل الكتاب لم ينزل إلا بالمدينة، فإن كان كذلك فظن هؤلاء مخطئ[1]، وقال رشيد رضا: «إن موضوع السورة لا يقبل هذا من جهة الدراية، وهو ما لم تثبت به رواية..»[2] وهذا ما يؤيده سيد قطب فيقول: «وظاهر من سياقها أنها لحمة واحدة... حتى ليصعب تقسيمها إلى قطاعات متميزة، وهذا ما ينفي الروايات التي أخذ بها المشرفون على المصحف الأميري من كون الآيات (٤٠، ٩٤، ٩٥، ٩٦) مدنية، فهذه الآيات متشابكة مع السياق، وبعضها لا يتسق السياق بدونه أصلاً!»[3]

ج- عدد آياتها وترتيبها

عدد آياتها مائة وتسع آيات في عدّ مصاحف أكثر الأمصار، ومائة وعشر في عدّ مصحف أهل الشام، وهي السورة الحادية والخمسون في ترتيب نزول السور، والعاشرة في ترتيب المصحف، نزلت بعد سورة بني إسرائيل (الإسراء) وقبل سورة هود، ويظن أنها نزلت سنة إحدى عشرة بعد البعثة[4]، وهي أولى المئين إن جعلنا براءة مع الأنفال من الطوال، وإلا فبراءة

(١) انظر: التحرير والتنوير ١١/ ٧٨.
(٢) انظر تفسير المنار، ١١/ ١٤١.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، م٣، ١١/ ١٧٥٢.
(٤) تفسير التحرير والتنوير ١١/ ٧٨.

أولاهن.[1]

د- ما ورد في فضلها

أخرج ابن مردويه عن أنس قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله أعطاني الرائيات إلى الطواسين مكان الإنجيل»[2].

هـ - محور السورة

تعنى السورة بإثبات أصول العقيدة، من الإيمان بالله وبقية الأركان وأهمها الإيمان بالكتب وفي مقدمتها القرآن الكريم، فالسورة كلها تتحدث عن قضايا العقيدة، وكأنها لحمة واحدة يصعب تقسيمها بشكل متميز[3]، فهي تواجه ابتداءً موقف المشركين في مكة من حقيقة الوحي إلى الرسول ﷺ ، ومن القرآن بالتبعية، كما تواجه طلبهم خارقة مادية غير القرآن واستعجالهم بالعذاب الذي يستحقونه، فتقرر لهم أن آية هذا الدين هي هذا القرآن، وهو يحمل برهانه في تفرده المعجز الذي تحداهم به، وأن الآيات في يد الله ومشيئته..

ويرى سيد قطب أن القضية الأساسية في هذه السورة هي معالجة العقيدة في قضية الإلوهية والعبودية وبيان حقيقتها ومقتضياتها في حياة الناس، وسائر القضايا الأخرى التي تعرضت لها السورة جاءت بصدد إيضاح تلك الحقيقة الكبرى.. وتلك هي قضية القرآن كله والمكي بصفة خاصة،.. فحياة الناس لا تستقيم إلا إذا استقامت هذه الحقيقة في اعتقادهم وواقعهم..

١ - المناسبات في السورة

١- المناسبة بين مطلع السورة وخاتمة السورة السابقة (براءة).

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، ٣/ ٤١١.

(٢) الرائيات: السورة المبدوءة بـ﴿ الٓر ﴾ والطواسين: السورة المبدوءة بـ﴿ طسٓمٓ ﴾، أو ﴿ طسٓ ﴾.

(٣) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب، ١١/ ١٧٥٣.

مطلع سورة يونس يشترك مع خاتمة سورة التوبة في الحديث عن خاتم الأنبياء والمرسلين، وتوجيه الأنظار إلى الرسالة التي فضله الله بها على العالمين، ففي خاتمة التوبة قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[التوبة:١٢٨]، وفي مطلع سورة يونس عليه السلام:﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ آية:٢، فقد ختمت براءة بذكر الرسول وابتدأت يونس به.

ويرى البقاعي علاقة المناسبة بين مطلع سورة يونس وما قبلها في سور الأعراف والأنفال وبراءة حيث يقول: «لما قدم في أول الأعراف الحث على إبلاغ النصيحة بهذا الكتاب وفرغ مما اقتضاه السياق من التحذير من مثل وقائع الأولين ومصارع الماضين... في سورتي الأنفال وبراءة وختم ذلك بأن سور الكتاب تزيد كل أحد مما هو ملائم له.. وأن الرسول ﷺ بذلك قد حوى من الأوصاف والحلى والأخلاق العلى ما يوجب الإقبال عليه و.. والإخبار بأن توليهم عنه لا يضره شيئاً لأن ربه كافيه... أعاد سبحانه القول في شأن الكتاب الذي افتتح به الأعراف وختم به سورة التوبة، وزاده وصف الحكمة، وأشار بأداة البعد إلى أن رتبته فيها بعيدة المنال..»[١].

وفي رأي السيوطي الذي يجعل ترتيبها بعد سورة الأعراف فيقول: «إن مطلعها شبيه بمطلع سورة الأعراف، وأنه سبحانه قال فيها: ﴿ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾، فقدم الإنذار وعممه، وأخر البشارة وخصصها، وقال في مطلع الأعراف:﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الأعراف: ٢] فخص الذكرى وأخرها وقدم الإنذار وحذف مفعوله ليعم»[٢]، ثم ذكر جملة أمور متشابهة بين يونس والأعراف[٣]

ويرى سيد قطب علاقتها بسورة الإسراء في ترتيب النزول، حيث جاءت بعد أن حمي

---

(١) نظم الدرر: البقاعي ٣/ ٤١١-٤١٢.

(٢) تناسب الدرر ص٩٣.

(٣) وجوه التشابه بينهما في اشتمالها على قصص الأنبياء، وأنهما مكيتان، وعدوا يونس من السبع الطوال لقصر سورة الأنفال بالنسبة إلى الأعراف وبراءة. راجع: تناسب الدرر ص ٨٩.

الجدل حول صدق الوحي في حادثة الإسراء وحول هذا القرآن وما يواجههم به من تسفيه لعقائدهم، وجاء في مطلع سورة يونس تأكيد صدق الوحي في نزوله على الرسول ﷺ وإنكار عجبهم من نزوله على الرسول

٢- المناسبة بين اسم السورة ومحورها

اسم السورة يرتبط بمحورها في أن النبي يونس كان قد أنذر قومه كبقية الأنبياء، وطلب منهم الإيمان بأصول العقائد، ففي السورة إثبات أن القرآن من عند الله لما اشتمل عليه من الحكمة لأن غيره لا يقدر على شيء منه، وذلك دال على أنه واحد في ملكه لا شريك له في أمره، ودليله قصة قوم يونس عليه السلام بأنهم لما آمنوا عند المخائل كشف عنهم، فدل قطعا على أن الآتي به هو الله الذي آمنوا به... ودل ذلك على أن عذاب غيرهم من الأمم إنما هو منه عند الله لكفرهم لما اتسق من ذلك طردا بأحوال سائر الأمم..[1]

٣- المناسبة بين مطلع السورة وخاتمتها

هناك ترابط بين في سياق السورة يوحد مطلعها وختامها، ففي المطلع﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ﴾ آية:٢، وفي الختام:﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ آية:١٠٩، فكلاهما فيه الحديث عن قضية الوحي، فالمطلع هو الختام، كما أنه هو الموضوع المتصل بينهما..، وما تتضمنه الآيتان من التسلية للرسول ﷺ ووعد للمؤمنين ووعيد للكافرين.

٤- المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها

هناك بعض التناسب في مضمون كل من سورتي براءة ويونس، منها: أن في براءة بياناً لما يقوله المنافقون عند نزول سورة من القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴾[التوبة: ٨٦]

(١) المصدر السابق ص٤١١.



وقريب من هذا القول في آخر سورة براءة:﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[التوبة: ١٢٤]، أما ما ورد في سورة يونس فبيان لما يقوله الكفار في القرآن:﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ آية:٣٨، ومثل ذلك قولهم الذي حكاه القرآن: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ آية:١٥، وأيضاً في الأولى ذم المنافقين بعدم التوبة والتذكر إذا أصابهم البلاء في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٦]، وفي يونس ذم لمن يصيبه البلاء فيرعوي ثم يعود وذلك في قوله تعالى:﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾آية:١٢، وقوله أيضاً:﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾آية: ٢٢ -٢٣، وفي التوبة براءة الرسول من المشركين مع الأمر بقتالهم، وفي يونس براءته من عملهم دون أمر بقتال، بل بالإعراض وتخلية السبيل وهذا نوع من المناسبة وذلك في قوله:﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾آية:٤١ .[1]

٥- المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع البعض الآخر سيأتي الحديث عنها في بداية كل مقطع.

٦- المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها سيأتي الحديث عنها في نهاية كل مقطع.

---

(١) انظر: روح المعاني، ٧/ ٨٤-٨٥.

المقطع الأول

إنكار موقف المشركين من الوحي

قال تعالى: ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢ ﴾ [يونس: ١-٢].

التفسير الإجمالي

بدأت السورة بـ ﴿ الٓر ﴾ وهذه الحروف وأمثالها مما استفتحت به بعض سور القرآن الكريم، ذكر لها العلماء أقوالاً كثيرة تدل في مجملها على ثراء القرآن كما وصفه الرسول ﷺ بأنه لا تنقضي عجائبه مما دعا بعض المفسرين للقول أنها من أسرار القرآن التي استأثر الله بعلمها، فهي من المتشابه الذي أشار إليه تعالى بقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧]، وقيل في الحكمة من مجيئها أول السورة تنبيه السامع إلى ما يتلى عليه بعدها لأجل العناية بفهمه حتى لا يفوته شيء مما يسمع، وعلى هذا فهي من قبيل حروف التنبيه التي تدخل على اسم الإشارة نحو (ألا) و(ها).

وأرجح هذه الأقوال أنها ذكرت لبيان إعجاز القرآن الكريم، « فمن هذه الحروف وأمثالها تتألف آي الكتاب الحكيم الذي ينكرون أن يكون الله قد أوحى به إلى الرسول ﷺ، وهذه الحروف في متناول أيديهم ثم لا يبلغون أن يؤلفوا منها مثل آيات الكتاب - كما يتحداهم في هذه السورة - ولا يقودهم إلى هذا التدبر، وإدراك أن الوحي هو مفرق الطريق بينهم وبين الرسول.. »[1]

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣/ ١٧٥٩، وانظر الأقوال الأخرى في تفسير الحروف المقطعة في كتاب الاتقان للسيوطي

ويعود اسم الإشارة في قوله ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ .. ﴾ « للإشارة إلى الآيات الموجودة في سورة يونس، وهي تستعمل للإشارة إلى البعيد، والتبعيد هنا للتعظيم فتكون تلك بمعنى هذه آيات[١]، وقد يكون المراد منه جميع آي القرآن التي نزلت قبل هذه السورة باعتبار حضور تلك الآيات في أذهان الناس من المؤمنين وغيرهم، فكأنها منظورة مشاهدة، فصحت الإشارة إليها... واسم الإشارة يفسر المقصود منه خبره وهو ﴿ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[٢].

ووصف الكتاب – وهو القرآن – بالحكيم لأن الحكمة ظاهرة في كل آيات القرآن والإعجاز حاصل بكل سورة فيه لأنه اشتمل على الحقائق السامية والهدي إلى الحق.. فهو حكيم لأنه يخاطب البشر بما يناسبهم ويذكر حقائق نجد مصداقيتها في كل جيل، وينبه الغافلين إلى تدبر آيات الله في الأنفس والآفاق، وفي النظر إلى قصص الأولين رسلاً وأنبياء وغيرهم.

والحكيم بمعنى الحاكم (فعيل بمعنى فاعل) فهو حاكم بالحلال والحرام،، وحاكم بين الناس بالحق، وبمعنى المحكوم فيه أي حكم الله فيه بالعدل والإحسان، وبالجنة لمن أطاعه، وبالنار لمن عصاه فهو فعيل بمعنى المفعول.[٣]، وإما بمعنى المحكم كما قال تعالى: ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ هود: ١، وكذلك بمعنى ذي الحكمة لاشتماله على الحكم والحقائق العالية، إذ الحكمة هي إصابة الحق بالقول والعمل، وإما أن يكون وصف لمنزل الكتاب « لأن الحكيم الذي يضع الشيء موضعه الدقيق بحكمه ليعطيك فائدة لا تحدث ضرراً فيما بعد..»[٤]

ثم ينكر الله على أهل قريش تعجبهم من الوحي المنزل على محمد ﷺ ورده، فقد أثار

---

(١) انظر فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٤٢١.

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، م٦، ١١/ ٨٠، ومثل ذلك قوله تعالى ﴿ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ ﴾ وقوله: ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ قال الزمخشري في الكشاف: تصور فراقاً بينهما سيقع قريباً فأشار إليه بهذا»

(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ٣٠.

(٤) الشعراوي، تفسير الشعراوي، ٩/ ٥٦٤٧، وانظر: التحرير والتنوير ٦/ ٨٢.

الوحي تعجب المشركين من العرب، فاستهل تعالى السورة برد هذا التعجب بهمزة الاستفهام في (أكان) لإنكار تعجبهم وتوبيخ لهم عليه مع التعجب منه..

وهذه هي سنة الأمم في مواجهة الرسل، ومن إرسال المرسلين من البشر كما أخبر تعالى عمن سبقهم قولهم:﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾؟ و﴿ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ !، وكأن مشاركتهم له في البشرية يمنع اختصاص الله إياه بما شاء من العلم، ولذلك قال كل من صالح وهود عليهما السلام﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾!

قال ابن عباس: «لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك، أو في من أنكر منهم فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، قال: فأنزل الله عز وجل ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ ».

وهذا التوبيخ لأنه ليس في الإيحاء إلى رجل منهم (من جنسهم) ما يقتضي العجب، فلو أرسل الله ملكاً لأرسله إليهم بهيئة رجل، ليسهل عليهم التعامل والتعاطي معه، والتلقي منه، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٩]، وقال أيضاً: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾[الإسراء: ٩٥].

والعجب حالة تعتري الإنسان من رؤية الشيء على خلاف العادة، ولم يكن إرسال سيدنا محمد ﷺ أمراً جديداً على خلاف العادة. [١] فقد أرسل الله تعالى كثيراً من الرسل قبله، وهو ﷺ خاتمهم،﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ [الأحقاف: ٩]، فالقرآن ينكر هذا العجب، بعجب من عجبهم « لأنه يدل على أن بصيرتهم غير قادرة على الحكم على الأشياء، وما كان يصح أن يستقبل الرسول بالعجب...»[٢] .

(١) الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس، عبد الحميد طهماز، ص ٢٢.

(٢) تفسير الشعراوي، ٩/ ٥٦٥٢



فالآية جاءت لتصحيح المفاهيم والتصورات المغلوطة التي أدت إلى إنكار الوحي وهو عدم إدراكهم لقيمة الإنسان، وعدم إدراك الناس قيمة أنفسهم فيستكثرون على بشر أن يكون رسول الله، وأن يتصل الله به عن طريق الوحي، غير مدركين لتكريم هذا المخلوق ومنها أهليته لحمل الرسالة، وهو سؤال لا يحق لأحد فالله أعلم حيث يجعل رسالته.. [(١)].

وتبين الأية أن الله أوحى لرسوله لإنذار الناس بعاقبة المخالفة وتبشير المؤمنين بعاقبة الطاعة والمتضمن بيان التكاليف الواجبة الإتباع، والنواهي الواجبة الاجتناب، والإنذار للناس جميعاً لأن كل الناس في حاجة للتبليغ والإنذار، ولكن التبشير للذين آمنوا يعدهم بالثبات والطمأنينة والاستقرار المستوحاة من قوله تعالى « لَهُمْ قَدَمَ[(٢)] صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ»، فهي منزلة صدق، وقيل أن معناها: قدم خير، ثابتة راسخة لا تتزعزع، وهي سابقة في الفضل أهلتهم لأن يكونوا موضع البشارة لأن الصدق من أهم خصال المؤمن، ولا يمكن أن تنفصل عن الإيمان[(٣)]، وحينما سئل رسول الله ﷺ أيكون المؤمن جبانا ؟ فقال نعم، فقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً؟ فقال: نعم، فقيل له: أيكون المؤمن كذابا؟ فقال: لا. [(٤)]

وقد أتى القرآن بكلمة الصدق في مواضع كثيرة في القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤]، وقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ [الإسراء:٨٠]، و:﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ

---

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٧٥٩-١٧٦٠.

(٢) القدم ما يطأ الأرض من الرجل، وهو آلة السعي إلى الحركة، وقد جاء استعمالها في القرآن كناية عن معاني فقد يعبر عنها - كمجاز مرسل - للمآثر والمكارم التي يقدمها أهل الخير كما في الآية التي نحن بصددها في السورة، وجاءت في قوله تعالى: ﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ الأنفال:١١، لبث روح الشجاعة في نفوس المؤمنين، وفي قوله تعالى: ﴿ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلْأَقْدَامِ ﴾ الرحمن:٤١، كناية عن شدة العذاب.

(٣) انظر تفسير الشعراوي، ٩/ ٥٦٧٠

(٤) أخرجه الإمام مالك في الموطأ، كتاب الكلام، باب ما جاء فـء الصدق والكذب، (١٧٩٥) ٢/ ٩٩٠، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٨١٢) ٤/ ٢٠٧.

صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القمر: ٥٥].

فكلمة الصدق دائرة « قدم صدق» و«مقعد صدق» و«مدخل» و«مخرج صدق» لأن أمور الحياة وفضائلها وخيراتها قائمة على كلمة الصدق.

ولما أنذر رسول الله ﷺ وبشر كما جاء في القرآن ﴿ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ إمعاناً في التكذيب، فقولهم للوحي سحر لأن ما ينطق به معجز، وكان الأولى أن يتدبروا ما يقول فيعرفوا أنه وحي معجز، وقد يكون قولهم هذا دفعاً للحق وعدم قبولهم من قبيل المكابرة والجحود، شأنهم شأن الأقوام في مواجهة المعجزات بنسبتها إلى السحر. وقولهم هذا ينبئ عن بلوغ التعجب من دعوى الوحي والرسالة من نفوسهم مزيد الإحالة والتكذيب، حتى قالوا عنه «لسحر مبين» أي كلام سحر ظاهر واضح، أو «لساحر مبين» تكذيباً بكونه من عند الله.

الهدايات المستنبطة من المقطع الأول

١ - القرآن كتاب سماوي محكم لأنه من الخالق الذي يعلم ما يصلح الناس في أمور دينهم ودنياهم.

٢ - تقرير عقيدة الوحي، وهي جزء من الإيمان بالغيب.

٣ - إثبات نبوة محمد ﷺ، وإرساله نذيراً للناس كافة، وبيان حكمة الله تعالى في الإيحاء إلى رجل من البشر يؤدي رسالة الله سبحانه وتعالى، ورجل منهم - من القوم - يعرفهم ويعرفونه - يأخذون منه بلا تكلف ولا جفوة، وهو أمر منطقي ليس محل تعجب واستغراب، بل موافق للحكمة والعقل.

٤ - تقرير تكريم الله للإنسان من خلال الوحي لمن اصطفاهم وتكريمه أن يكون أهلا لحمل رسالته.

٥ - إن مدار الاصطفاء هو إحراز الفضائل « وليست مقومات اختيار الأنبياء بحسب معايير

الناس ومفاهيمهم كالمال والغنى والثروة والجاه والزعامة، وإنما المعيار هو ما في علم الله جل وعز من كون النبي المصطفى هو الأهل الأكفأ الأجدر بتحمل أعباء الرسالة، والأوفق لتحقيق المصلحة وتبليغ الوحي إلى الناس»[١] والرسول محمد ﷺ نال القدح المعلى في كل ذلك.

٦ - بيان مهمة الرسول هي الإنذار والتبشير، الإنذار للعصاة والتبشير للمؤمنين، وقيل الإنذار عام لكل الناس ليتجنبوا ما يقودهم إلى النار، ولكن البشارة خاصة لمن آمن فقط، لأن الإنذار لون من التخلية من العيوب، قبل التحلية بالكمال.[٢]

٧ - سنة الأقوام في تكذيب الرسل، ففي قوله « أكان للناس عجب..» فالناس مطلق والتعبير بـ «كان» لزيادة الدلالة على استقرار هذا التعجب فيهم لأن أصل اللام تفيد الملك.

٨ - أهمية الصدق في الأمور كلها، فهو جماع الخير وعليه تدور الأعمال النافعة، ففي عبارة «قدم صدق» دليل على ما يضادها، في السبق بالكذب الذي هو جماع الشر.

٩ - ثبوت إعجاز القرآن الكريم، فوصفه بالسحر من قبل الكفار لعدم تمكنهم من معارضته مع الإعجاب به لكماله، ولكن المكابرة والمهارة جعلتهم يصفون المعجزة سحرا.

علاقة المقطع بمحور السورة

المقطع في نفي العجب عن إرسال الرسول ﷺ والوحي إليه، أي في تقرير أن الرسول حق والقرآن حق وهو ضمن محور السورة في إثبات العقائد.

علاقة المقطع بما سبقه

لما كان هذا المقطع الأول، فما سبقه هو آخر سورة التوبة، وقد أشرنا في المقدمة - بين يدي السورة - إلى علاقة مطلع السورة بخاتمة ما قبلها وهو أن كلاهما يتحدث عن الرسول ﷺ .

---

(١) التفسير المنير، ١١/ ١٠١.

(٢) انظر تفسير الشعراوي، ٩/ ٥٦٦٣.

المقطع الثاني

تفرد الله بالخلق، وإثبات البعث والجزاء، ودلالات القدرة الإلهية

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ﴾ يونس: ٣-٦

مناسبة المقطع لما قبله

بعد تقرير الآيتين السابقتين للوحي، والإنكار على الكفار تعجبهم من الوحي والرسالة ورد هذا التعجب بأنه من الممكن الإيحاء إلى رجل منهم لينذرهم بالعقاب ويبشرهم بالثواب على الصالحات، لفت نظرهم في هذه الآيات إلى ما هو أكبر من ذلك وهو خلق السموات والأرض والتي تستحق منهم العجب والتأمل والتفكر بخالقها، إشارة إلى أن لهذا العالم إلهاً خالقاً قادراً نافذ الحكم، فإذا كان الله خالق كل هذا الكون مسخراً للإنسان فله أن يختار رسولاً منكم ليهديكم ويبلغكم المنهج الذي اختاره لكم، فمن كان له هذا الاقتدار العظيم الذي تضيق العقول عن تصوره كيف يكون إرساله الرسول إلى الناس من جنسهم محلاً للتعجب! لأن مرجعكم إليه حيث تبعثون فتجازون على أعمالكم، فالقادر على خلقكم قادر على إعادتكم، مستدلاً على قدرة الله بما سخره للإنسان من آياته التي خلقها وجعلها سبباً لقوام الحياة كأحوال الشمس والقمر وكونها أداة لمعرفة السنين والحساب، والمنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار، وما خلق الله في السموات والأرض، فمن تفرّد بلإيجاد وجب إفراده بالعبودية.

التفسير الإجمالي

في إشارة إلى تقرير الألوهية بعد الوحي، يذّكر الله بربوبيته في قوله «ربكم» بما يدل على عظمة ملكه، ابتداءً من خلق السموات والأرض، فيخبر أنه هو الرب المستحق للعبودية من قبل هؤلاء المشركين، مشيراً إلى الظواهر المحسوسة التي لو تدبروها لأدركوا بأنه هو الذي يليق أن يدين له البشر بالعبودية وعدم الشرك به.

ويخبر تعالى عن مدة الخلق في ستة أيام[1]، واختلفت أقوال المفسرين في تحديد هذه الأيام، فالجمهور على أنها كأيام الدنيا، وقيل: من أيام الآخرة: كألف سنة مما تعدون لقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج: ٤٧]، وقوله: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة: ٥].

وقيل وهو الأصح عند جماعة أنه تعالى خالق الكون سماءه وأرضه في زمن لا يعلم مقداره إلا هو، وبذلك يقول المراغي: «في ستة أزمنة قد تم في كل زمن منها طور من أطوارها، وقدرها بمقادير أرادها ثم استوى على عرشه»[2]، وكذلك سيد قطب: «ولا ندخل في تحديد هذه الأيام الستة، فهي لم تذكر هنا لنتجه إلى تحديد مداها ونوعها، إنما ذكرت لبيان حكمة التقدير والتدبير في الخلق..»[3].

والله سبحانه قادر على خلقها في لحظة واحدة يقول لها كوني فتكون ولكنه أراد أن يعلم عباده التروي والتأني في الأمور، أو خلقها في ستة أيام لكون لكل شيء عنده أجلاً، وقد أكد ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨].

---

(١) اليوم في اللغة هو الجزء من الزمن، وهو دورة الأرض حول نفسها دورة يتحقق فيها الليل والنهار.

(٢) تفسير المراغي، ١٠/ ٦٢-٦٣

(٣) في ظلال القرآن، ١١/ ١٧٦٢.

ثم استوى على عرشه استواءً يليق بعظمته وجلاله ولا يعلمه إلا هو، والعرش هو كرسيه، أو مركز تدبير[١] الخلائق، وهو أعظم المخلوقات وسقفها، ولا يعلم أحد حقيقة العرش إلا هو سبحانه وتعالى، والله في استوائه على العرش يدبر الخلائق والملكوت بما يتفق مع حكمته وعلمه، ويقدر أمر الكائنات على ما اقتضته حكمته وسبقت به كلمته [٢]، فلا نأخذ الاستواء على المعنى الذي يدل على مكان محيّز، لأنه سبحانه وتعالى منزه عن أن يكون متحيزاً في مكان.. [٣] وفي استواء الله على عرشه يقدر أمر الكائنات على ما اقتضته حكمته ومن كمال تقديره وتدبيره اصطفاؤه من عباده من يشاء ويخصه بالرسالة لما فيه خير البشرية ليهديهم إلى خير الدنيا والآخرة.

والله يملك اليوم الآخر كذلك، وما دام الأمر كذلك فلا يستطيع أن يشفع أحد لآخر عنده إلا من بعد إذنه فكيف إذاً تعبد هذه الأصنام رجاء شفاعتها لعابديها، وجاء تأكيد ذلك بآيات أخرى منها ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، و﴿ يَوۡمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوۡلًا ﴾ [طه: ١٠٩]، و﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، قال الزجاج: إن الكفار الذين خوطبوا بهذه الآية كانوا يقولون: إن الأصنام شفعاؤنا عند الله، فرد الله عليهم بأنه ليس لأحد أن يشفع إليه في شيء إلا بعد إذنه، لأنه أعلم بموضع الحكمة والصواب[٤]. وفي الإشارة بـ (ذلكم) إلى فاعل الأشياء من الخلق والتدبير والتصرف في أمر الشفاعة، فالموصوف بهذه الصفات هو ربكم الحق فاعبدوه بما شرع لكم من أنواع العبادات، وكيف تعبدون غيره (أفلا تذكرون) للتوبيخ والتقريع لأن من لديه أدنى تذكر لا

---

(١) أصل التدبير: النظر في أدبار الأمور وعواقبها لتقع على الوجه المقبول، والأمر: الشأن، وهو أحوال ملكوت السموات والأرض والعرش وسائر الخلق، انظر: فتح القدير للشوكاني، ٢/ ٤٨١.

(٢) التفسير المنير، ١١/ ١٠٣.

(٣) تفسير الشعراوي، ٩/ ٥٦٩٧.

(٤) انظر فتح القدير، ٢/ ٤٨١.

يخفى عليه، ثم بين لهم ما يكون آخر أمرهم بعد الحياة الدنيا بأن مرجعهم إلى الله على سبيل التخويف والمرجع إليه يكون بالموت أو بالبعث، أو كل واحد منهما، وأكد بقوله (حقا) تأكيد التأكيد[1]. والمرجع إليه دون غيره من معبوداتكم وشفعائكم لا يتخلف منكم أحد وعدا حقا لا خلف فيه.

ثم يخبر تعالى أنه كما بدأ الخلق وأنشأه أول مرة يعيده في نشأة أخرى بعد انحلاله، في إشارة إلى أن من خلقهم أول مرة قادر على إعادتهم، بل هو أهون عليه، مبيناً ما يترتب على الإعادة﴿ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ﴾أي: بالعدل الذي لا جور فيه[2]، فالله يعيدهم لأجل جزائهم بالعدل، فيعطي كل ذي حق حقه، وينال كل عامل حقه في الثواب الذي جعله لعمله، وقد جاء أمثال هذا المضمون في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقوله تعالى:﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥]، وهو مما أمر الله به ففي قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [النساء: ١٣٥][3]، وهذا لا يمنع الزيادة والمضاعفة في الثواب كقوله تعالى: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦].

فالآية تعلل الرجوع إلى الله بأنه الجزاء للمؤمنين الصالحين الذين أعد الله لهم الجنة التي قال عنها الرسول ﷺ في حديث قدسي « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »[4].

---

(١) تفسير الشعراوي، ٩/ ٥٧١٢.

(٢) انظر فتح القدير، ٢/ ٤٨٢.

(٣) ومثلها آية:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ ، المائدة/ ٨.

(٤) رواه البخاري، في بدأ الخلق، باب صفة الجنة (٣٠٧٢)، وكتاب التفسير، باب تفسير سورة السجدة=

وبعد أن بين تعالى أجر المؤمنين بالقسط، يبين جزاء الذين كفروا بأن﴿ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾أي: ماء حار قد انتهى حره، والحميمة مثله، وكل مسخن عند العرب فهو حميم[1].

وجزاء الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والخطايا فليس من المقاصد التي اقتضتها الحكمة الإلهية في خلق الإنسان، ولكنها تمشياً مع مقتضى العدل الإلهي، حيث لا يمكن أن يتساوى المؤمن مع الكافر والصالح مع الطالح، قال تعالى في آية أخرى: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩].

ثم يذكر تعالى من آياته التي أنعم بها على عباده، من خلق السموات والأرض والكون كله مسخراً للإنسان، فذكر ما جعله الله سببا لقوام الحياة، فالشمس التي هي كالأم لمجموعة الكواكب التي تدور حولها فدورة الأرض حول الشمس تمثل السنة وحول نفسها تمثل اليوم فالشمس ضياء والقمر نور، والفرق بينهما يتمثل في أن الضياء تصحبه الحرارة والدفء، والنور إنارة حليمة لا يحتاج إلى ظل من حرارته، بعكس الشمس، فالنور ضوء ليس فيه حرارة، والحرارة لا تنشأ إلا حين يكون الضوء ذاتياً من المضئ مثل الشمس، والقمر ضوءه غير ذاتي ويكتسب الضوء من أشعة الشمس حين تنعكس عليه كالمرآة حين تسلط عليها بعضا من الضوء فهي تعكسه[2]، وقد وردت آيات مماثلة منها:﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان: ٦١]، وقوله: ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ [نوح: ١٦].

وقد خصّ الله أحوال الشمس والقمر حيث جعل الشمس في النهار ضياء للكون، ومصدراً للحياة وإشعاع الحرارة الضرورية للنبات والحيوان، وجعل القمر نوراً في الليل يبدد

=(٤٥٠١، ٤٠٥٢)، وكتاب التوحيد (٧٠٩٥)، ومسلم في كتاب الجنة وصفتها ونعيمها وأهلها (٢٨٢٤).

(١) تفسير الطبري، ٨/ ٢٦٦.

(٢) تفسير الشعراوي، ٩/ ٥٧٣٧.



الظلمات وقدر مسيره في ملكه منازل أو ذا منازل، ينزل كل ليلة في واحد منها، وهي ثمانية وعشرون منزلاً، معروفة لدى العرب كما قال:﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾ [يس: ٣٩]، وخص القمر بذكر منازله لعودة الضمير «قدرناه» إليه وحده لسرعة سيره ومعاينة منازله، وإناطة أحكام الشرع به، فعلله « لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ» أي يعرف به حساب الأوقات من الشهور والأيام والليالي والفصول الأربعة وضبط أوقات العبادة من صلاة وصيام وحج وزكاة ومعاملات وعقود.

وإذا كان تقدير المنازل عائداً لكل من الشمس والقمر فيعرف بهما الحساب فقد ذكرهما تعالى فقال:﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن: ٥]، وفي كل من الحساب الشمسي والقمري فوائد، فالشمسي ثابت والقمري أسهل على البدوي والحضري، فأنيطت به الأحكام الشرعية[1]، وما خلقهما الله إلا بالحق الثابت الذي لا يتغير، وذو الحكمة البليغة، ولم يخلق عبثاً ويبين الله لكم الآيات الكونية الدالة على عظمة قدرته وخلقه ولتكون طرق دلالة على الخالق، ويميزون بين الحق والباطل.

والأمر الآخر هو اختلاف الليل والنهار أي: تعاقبهما بمجيء أحدهما عقب الآخر دون تأخير، وفي طولهما وقصرهما بحسب اختلاف مواقع الأرض من الشمس بنظام دقيق، وما فيها من برودة وحرارة، وكون الليل لباساً والنهار معاشاً، وما خلق الله في السموات والأرض من معادن وزروع وحيوان وجماد، كل ذلك دلائل على وجود الله ووحدانيته وقدرته وحكمته، وهي دلائل لقوم يتقون الله لا يخالفون في سننه وتشريعه وأحكامه، لعلمهم أن من لم يتق الله عوقب في الدنيا والآخرة.

---

(١) التفسير المنير، ١١/ ١١١

الهدايات المستنبطة من المقطع الثاني

١ - إثبات الإلوهية، وأن للعالم إلهاً قادراً نافذ الحكم بالأمر والنهي، وهو خالق كل شئ، إشارة إلى توحيد الربوبيهة والإلوهية.

٢- خلق الله السسموات والأرض في ستة أيام لتعليم الخلق التثبت في الأمور مع أنه قادر على الخلق بلمح البصر بقوله ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾.

٣- تقرير وجود العرش فوق السموات والله أعلم به وبكيفية استوائه عليه، والإيمان بذلك على الوجه الذي يليق به وتنزيهه عما لا يجوز عليه.

٤ - أن الله وحده هو الذي يدبر أمر الخلائق بمقتضى حكمته، ولا يشركه أحد من خلقه في ذلك.

٥ - إثبات الشفاعة عند الله يوم القيامة لمن أذن له الرحمن، وفيها دحض لعقيدة الكفار في قولهم فيما عبدوه من دون الله: «شَفِيع» فرد عليهم بأن لا أحد يشفع إلا بإذنه، كما أن في عقيدتهم للشفعاء حجة عليهم، فإذاً كانوا يؤمنون أن لله أولياء يشفعون فلماذا ينكرون الوحي لمن اصطفاه الله!.

٦ - الجزاء على الأعمال من ثواب وعقاب، وهو الغاية من الرجوع إلى الله، فحكمة الله وعدله تقتضي تمييز المحسن من المسئ، وجزاء المؤمنين بالجنة والنعيم مقصود، أما جزاء الكافرين فهو تحقيق للعدالة الإلهية بالتمييز بين المحسن والمسيء. كما أن فيها ما يدل على أن العبادة يعود نفعها لصاحبها، ولا تعود عليه سبحانه، كما أن في البعث والحساب اطمئنان للملتزمين المطيعين، لينالوا حسن الثواب وينال العاصي ما يستحق من العقاب.

٧ - أن الله الذي خلق كل شيء ودبره وهو من يملك أمر الشفاعة فهو المستحق وحده العبادة، وفي قوله « أفلا تذكرون» دليل على وجوب التفكر بالدلائل الباهرة، وفي مقدمتها التفكر في ما خلق الله.

٨ - إثبات البعث بعد الموت، والحشر والنشر، فالقادر على الخلق الأول قادر على الإعادة، بل هو أهون عليه، وهي من مهمات التبليغ لجميع الأنبياء. وفي قوله « إليه مرجعكم» إعلام لكافة الخلق أن كل الأمور معلومة له، ويعلم من أطاع التكليف ومن عصى، «وفي تقديم المجرور في قوله: «إليه مرجعكم» إفادة القصر، أي: لا إلى غيره قطعا لمطامع القائلين في آلهتهم «هؤلاء شفعاؤنا عند الله»»[1]

٩ - في الآيات دلائل على وجود الله وقدرته وحكمته وعظمته وكمال علمه وهي خلق السموات والأرض وأحوال الشمس والقمروالمنافع المترتبة على اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض من أحوال آيات دالة على وجوده وتوحيده، ولم تخلق إلا لمصلحة الإنسان.

١٠ - في الآيات لفتة علمية، وهو أن الشمس ضياء والقمر نور، لأنه مضيء بغيره، والشمس بذاتها، والجمع (ضياء) تعبر عن تعدد الألوان المخزونة في ضياء الشمس.

١١ - بيان الحكمة من خلق الشمس والقمر وتقدير منازلهما للتوقيت ومعرفة عدد السنين والحساب، كما أن في كل ما أودع الله من خواص في الأفلاك فوائد وآثار وإلا لكانت عبثاً وحاشا الله أن يخلق عبثا من غير فائدة، وفي الآيات ما يدل ضمنا على مشروعية تعلم الحساب وعلم الفلك، ولما هو نافع للمسلمين.

١٢ - المستفيد من الآيات هم المتقون الذين يخافون الله ويحذرون عذابه، قال الزمخشري: «خص المتقين لأنهم يحذرون العاقبة فيدعوهم الحذر إلى النظر والتدبر»[2]، وذلك لصفاء أرواحهم وطهارة قلوبهم ونفوسهم، أما أهل الشرك والمعاصي فهم في ظلمة لا يشاهدون معها شيئا والعياذ بالله.[3]

---

(١) التحرير والتنوير، ١١/ ٩٠.

(٢) الكشاف، الزمخشري، ٢/ ٣٢٩.

(٣) أيسر التفاسير، ٢/ ٤٤٩

علاقة المقطع بمحور السورة

جاء المقطع في إثبات الرسالة بأنها من الخالق الذي يريد هدايتهم عن طريق إرسال الرسل، مع لفت انتباههم إلى ما هو أكبر من ذلك، وهو خلق السموات والأرض، فخالقها قادر على بعثهم من جديد، ليحاسبهم على ما فعلوا، وبذلك يكون هذا المقطع ضمن المحور في إثبات العقائد.

علاقة المقطع بمقاطع السورة

المقطع يتناسب مع بقية المقاطع في الكلام عن أصول العقائد، وهو الإيمان بالكتاب والرسول والبعث مع سوق الأدلة على ذلك.

المقطع الثالث

جزاء المؤمنين والكفار

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [٧-١٠].

مناسبة المقطع لما قبله

بعد أن ذكر الله في الآيات السابقة وجوده وأحقيته للعبادة، وعلى إثبات البعث والجزاء في اليوم الآخر، بين في هذه الآيات نوعية الجزاء لكل صنف، فذكر أولاً حالة من كفر به وأعرض عن البينات والدلائل الواضحات، وغفلته عن لقاء الله وركونه إلى الدنيا فاستحق العقاب بالنار، وبالمقابل بين حال المؤمنين الذين عملوا لهذا اليوم الصالح من العمل لأنهم مؤمنين بلقاء ربهم ومنتظرين له، وقد أعدوا له العدة فجزاهم جنات النعيم.

التفسير الإجمالي للمقطع

ذكر الله في هذه الآيات صنفين من الناس ،وشرع في بيان أحوال من لا يؤمن بالمعاد ،ومن يؤمن به ،وقدم الطائفة التي لم تؤمن لأن الكلام في هذه السورة مع الكفار الذين يعجبون مما لا عجب فيه ،ويملون النظر والتفكر فيما لا ينبغي إهماله مما هو مشاهد لكل حي طول حياته فيتسبب عن إهمال النظر والتفكر الصادق عدم الإيمان بالمعاد[1] .

فالذين لا يرجون[2] لقاء الله ولا يتوقعونه لعدم إيمانهم بالبعث وما يتلوه من حساب على

(١) فتح القدير، ٢/ ٤٨٥.

(٢) الرجاء: الأمل المتوقع قريباً ضد اليأس.. رجاه يرجوه رجواً ورجاء: توقعه مع إرادته إياه وسروره به،=

الأعمال، وإنكارهم له، وهؤلاء رضوا وركنوا للحياة الدنيا وأغفلوا الآخرةوعملوا لحياتهم الدنيا وبلوغ منافعها، وركنت نفوسهم إلى شهواتها، حيث كانت أكبر همهم، ووصل بهم الأمر إلى تكذيبها حين أنذرهم النبي ﷺ فلم يرجو ثواباً، ولم يخشوا عقاباً، وكانوا غافلين عن كل الآيات الكونية في الآفاق، والتي لفت القرآن نظرهم إليها كحجج وبراهين، يقول سيد قطب عنهم:" الذين يرون كل هذا ثم لا يتوقعون لقاء الله، ولا يدركون أن من مقتضيات هذا النظام المحكم أن تكون هناك آخرة، وأن الدنيا ليست النهاية... ولا يدركون أن الآخرة ضرورة من ضرورات هذا النظام يتم فيه تحقيق العدل والقسط.. ومن ثم فهم لا يتوقعون لقاء الله، ونتيجة لهذا القصور يقفون... "[1] فهؤلاء جزاؤهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾أي: مثواهم ومقامهم، من الظلم والشر والفساد فلا شيء أكبر ظلماً من الشرك بالله وجحوده، وكفرهم باليوم الآخر.

أما الصنف الآخر المغاير للأول وهو فريق المؤمنين، فهم السعداء، فأخبرت الآية أن الذين آمنوا وصدقوا رسوله وامتثلوا ما أمروا به فعملوا الصالحات ولم يغفلوا عن آيات الله الكونية والشرعية فهؤلاء يرشدهم ربهم بسبب إيمانهم إلى الصراط المستقيم الذي يؤدي بهم إلى الجنة التي تجري تحتها الأنهار، من تحت غرفهم في جنات النعيم والخلد، وهذا مثل للتنعم والراحة والسعادة والانسجام في تلك المناظر الخلابة التي تأخذ بمجامع القلوب وتسر النفوس.[2]

وقد دلت الآيات على أن الإيمان والعمل الصالح هما سبب الفوز برفيع الدرجات والوصول إلى أقصى الغايات،[3] ولكن قوله ﴿ بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾دل على استقلال الإيمان بالسببية

= أو مع خوفه منه، وتستعمل بمعنى الخوف كما قال تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ نوح/ ١٣، ومعناه في الآية: لا يخافون لقاءنا أو لا يتأملون لقاءنا فيعملون على تهيئة نفوسهم لهذا اللقاء العظيم بالعمل الصالح. انظر تفسير الشعراوي: ١/ ٥٧٤٩.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١١/ ١٧٦٧.

(٢) تفسير المنير، ١١/ ١١٥.

(٣) انظر تفسير المراغي، ١٠/ ٧١.

والعمل الصالح كالتابع له والتتمة، وحال هؤلاء في الجنة أن أقصى ما يشغلهم﴿ دَعْوَىٰهُمْ ﴾ هو تسبيح الله أولاً وحمده أخيراً، يبدؤون دعاءهم وثناءهم على الله تعالى بهذه الكلمة ﴿ سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ أي تقديساً لك يا الله، والتحية فيما بينهم «سلام» ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ [الواقعة: ٢٥-٢٦]. وهذه التحية من الله عز وجل في الجنة لأهل الجنة ﴿ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وتحية الملائكة لهم عند دخول الجنة ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣]، كما أن آخر كل حال من أحوالهم دعاء يناجون به ربهم ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وهو أول ثناء حين دخولهم الجنة ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [الزمر: ٧٤]، كما أن آخر كلام الملائكة﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الزمر: ٧٥]، وروي عن الرسول ﷺ قوله: «إن أهل الجنة إذا قالوا: سبحانك اللهم أتاهم ما يشتهون»[(١)]، والكلمة علامة بين أهل الجنة وخدمهم على إحضار الطعام وغيره، فإذا حصل أكلوا وحمدوا الله [(٢)].

الهدايات المستنبطة من المقطع

١- وعيد الله للجاحدين بأن النار مأوى لهم، بما اكتسبوا من الكفر والتكذيب والمعاصي، وهؤلاء وصفهم الله بأربع صفات: أولها- أنهم لا يرجون لقاء الله فلا يخافون عقابه ولا يرجون ثوابه، وثانيها- رضوا بالحياة الدنيا عوضاً عن الآخرة فعملوا لها، وثالثها- اطمأنوا بها ففرحوا وسكنوا إليها، ورابعها- غفلوا عن آيات الله فلا يعتبرون ولا يتفكرون بالأدلة والبراهين الإلهية.

٢- التحذير من نسيان الآخرة والإقبال على الدنيا والاطمئنان لها، والجري وراء زخارفها، ونسيان الآخرة.

---

(١) تفسير الطبري، ١١/ ٨٩، والقرطبي، ٨، ١١٨، وابن كثير ٢/ ٤٠٩، وفيض القدير ١/ ٤٢١.

(٢) معالم التنزيل، ٢/ ٣٥٢.

٣- التحذير من الغفلة بعدم التفكر بالآيات الكونية والقرآنية، لأن هذا التفكر هو سبيل الهداية والنجاة منم الغواية.

٤- إن الجنة مآل المؤمنين العاملين للصالحات، ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ أي من تحت بساتينهم وأسرتهم، وقال البغوي: أي بين أيديهم كقوله تعالى: ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ [مريم: ٢٤]، لم يرد به أنه تحتها وهي قاعدة عليه، بل أراد بين يديها [(١)]، وحالهم هو التسبيح والتحميد فرحين، وتحية الله لهم، والملائكة، ولبعضهم: سلام، مما يدل على قيمة وأهمية السلام الذي يفتقده الكثير من الناس اليوم.

٥- التسبيح والتحميد والتهليل قد يسمى دعاء، فقد روي أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب العرش الكريم»[(٢)]، قال القرطبي: «كان السلف يدعون بهذا الدعاء ويسمونه دعاء الكرب، وهذا الدعاء الصادر من أهل الجنة ليس بعبادة إذ لا تكليف في الجنة، إنما يلهمون به، فينطقون به تلذذاً بلا كلفة»[(٣)]، ولذلك يقول أبو بكر الجزائري: نعيم الجنة روحاني وجسماني، وهو حاصل ثلاث كلمات هي: ﴿ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [(٤)] ﴾.

٦- من السنة التسمية عند بدأ كل عمل، كالأكل والشرب، ويحمد الله عند فراغه اقتداء بأهل الجنة، كما يستحب للداعي أن يقول في آخر دعائه كما قال أهل الجنة: «وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين» قال رسول الله ﷺ : «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة

---

(١) معالم التنزيل، البغوي، ٢/ ٣٥٢.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب لدعاء عند الكرب، ربقم (٦٣٤٥)، ومسلم في كتاب اتلذكر والدعاء، باب دعاء الكرب، رقم (٢٧٣٠)، والترمذي في كتاب الدعوات رقم (٣٤٣٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ٨/ ٢٦٩-٢٧٠.

(٤) أيسر التفاسير لكلام العلي القدير، أبو بكر الجزائري، ٢/ ٤٥٢.

فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها»[1].

٧- الإيمان والعمل الصالح طريق إلى الجنة، والهادي إليها، فالله يسدد بالإيمان إلى طريق الاستقامة في الدنيا، وقيل المقصود في الآخرة يهديهم بنور إيمانهم إلى طريق الجنة، كقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الحديد: ١٢].

٨- على الإنسان أن يستعد ليوم لقاء الله تعالى، ويحسب له الحساب، بأن يستزيد من الأعمال الصالحة، ليتبوأ مكانه في الجنة، وليس لمجرد كونه مسلماً أو من باب الأماني كما قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣-١٢٤].

علاقة المقطع مع محور السورة

جاء المقطع في بيان عاقبة منكري البعث، وثواب من آمن به، وما هم فيه من النعيم في الجنة، وهو ضمن المحور في إثبات العقائد، عن طريق الترغيب والترهيب.

علاقة المقطع مع مقاطع السورة

كذلك المقطع متناسق مع بقية المقاطع في الكلام عن أصول العقائد وهو الإيمان باليوم الأخر مع بيان مآل الجاحدين له بأن مأواهم النار بسبب إنكارهم لها، ومآل المؤمنين به بأن لهم الجنة وما ينالون فيها من نعيم وسلام، مع شكرهم لله بقولهم سبحانك اللهم..

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، برقم (٢٧٣٤)، والترمذي في كتاب الأطعمة، باب ما جاء في الحمد على الطعام إذا فرغ منه برقم (١٨١٦)، وفي الشمائل له (١٩٣).

المقطع الرابع

حلم الله مع المستعجلين للعذاب وسنته في إهلاك الظالمين

قال تعالى:﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾١١-١٤.

مناسبة المقطع لما قبله

لما ذكر الله تعالى الوعيد على عدم الإيمان بالمعاد الذي ضرب له الأدلة والبراهين على حتمية وقوعه، وغفلتهم عنه، يذكر هنا أن من مظاهر تلك الغفلة أن الرسول ﷺ متى أنذرهم استعجلوا العذاب، فبين لهم الله تعالى أن لا مصلحة لهم في ذلك، إذ لو أوصله إليهم كما طلبوا لماتوا وهلكوا، فلعلهم يتوبون ويخرج من أصلابهم من يؤمن، فضلاً عن أنهم غير جادين في الطلب، إذ لو نزل بهم ضر تضرعوا إلى الله ليكشفه عنهم، وقد كشف عن أمر من طبائعهم هو أنهم عندما يزيل الله عنهم الضر عادوا لما كانوا عليه من الكفر والمعاصي وكأنهم لم يدعوا الله من قبل بكشف الضر عنهم، واقعين تحت سلطان أهوائهم مزينا لهم الشيطان أعمالهم، ولذلك أنذرهم الله بأن يعتبروا بالأمم الظالمة التي سبقتهم وأنه بالإمكان أن يوقع ذلك بهم تهديداً وردعا للكف عن مطالبتهم بتعجيل العذاب، وممتناً عليهم بأن جعلهم خلائف تلك الأقوام المستأصلة ليرى كيف يتصرفون في خلافتهم.

التفسير الإجمالي للمقطع

نزلت هذه الآيات في مكة والمشركون في هيجان واضطراب كبيرين، حتى إنهم يطالبون

بنزول العذاب عليهم، وقد ذكر الله عنهم ذلك في غير آية كقوله﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴾ [المعارج:١]، وقوله ﴿ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٣] و﴿ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُ ﴾ [الرعد: ٦]، ومن شدة غفلتهم وعنادهم فبدل أن يطلبوا من الله الهداية وهم يرون المعجزات، نراهم يطلبون من الله أن ينزل بهم العذاب إن كان ما يقوله محمد حقا، قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وتكشف الآية شيئا من طبائع الإنسان وهو العجلة كما قال:﴿ خُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ مِنۡ عَجَلٖ ﴾ [الأنبياء: ٣٧] وهو دائما يتعجل الخير لأنه يحبه، ويتعجل الشر حين الغضب والحماقة والضجر، فلو يعجل الله أو يسرع للناس إجابة دعائهم في حالة الشر كاستعجالهم تحقيق الخير لأميتوا وأهلكوا. (١)

وسمى الله العذاب شراً في هذه الآية لأنه أذى في حق المعاقب، ومكروه عند الله كما أنه سماه سيئة﴿ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾.

والله تعالى بحلمه ولطفه بعباده لا يستجيب لهم لأنه أرحم بهم من أنفسهم وإمهالاً لهم واستدراجاً فإنه لو أجابهم لأهلكوا كما هلك الذين كذبو الرسل، وربما آمن به بعضهم حيث بعث النبي محمد ﷺ بالهداية الدائمة...

وعذاب الكفار يؤجله الله إلى يوم القيامة ﴿ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ أي نترك غير المتوقعين لقائنا فيما هم يه من طغيان وكفر وتكذيب يترددون متحيرين ولا نعجل لهم في الدنيا عذاب الاستئصال تكريماً للنبي ﷺ ونمهلهم في طغيانهم إلزاماً للحجة عليهم.

ومن رحمة الله بعباده لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم بالشر

(١) انظر: التفسير المنير ١١/ ١٢٠.



في حالة الضجر والغضب لعلمه عدم القصد منهم إلى إرادة ذلك، ولكن لا ينبغي الإكثار منه لما جاء في الحديث من قول رسول الله ﷺ "لا تدعوا على أنفسكم ولا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم»[1] وهو يدل على عجلة الإنسان كما قال تعالى: ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء:١١] يقول الطبري: فالآية نزلت ذامة لخلق ذميم هو في بعض الناس يدعون في الخير فيريدون تعجيل الإجابة ثم يحملهم أحياناً سوء الخلق على الدعاء في الشر فلو عجل لهم لهلكوا[2]. ثم يبين الله حقيقة وهو أن الإنسان الذي يعيش في ظلمة الكفر ولم يذق طعم الإيمان ولم يرتبط دائماً بالمنهج الإلهي، إذا مسه الضر من فقر أو مرض أو غيره دعى ربه على الفور بإلحاح في كشف ضره وإزالته، ثم ينسون بعد ذلك وحياتنا مليئة بهذا الصنف من البشر... فهو قد يخدع الآخرين في لحظة اليسر لكنه لا ينسى الله لحظة العسر، وساعة يأتيه الضر وحين تعز الأسباب عليه فهو لا يجد إلا كلمة (يا رب) وقد جاءت آيات كثيرة تمثل موقف الإنسان في الضر منها قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ [الزمر: ٨] وقوله تعالى في سورة النحل: ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾آية ٥٤. ويذكر هذا الموقف في البحر خاصة في قوله تعالى:﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧]. فالآيات تستوعب حالات الإنسان المختلفة إذا ما أصابه ضر ولا يجد من يلجأ إليه إلا ربه.

والآية تعطينا صوراً متعددة «دعانا لجنبه أو قائماً أو قاعدا» أي وهو مضطجع متمشيةً من أطوار الإنسان بعد ولادته مضطجعاً ثم قاعداً ثم قائماً لأن الإنسان سيمر بمراحل النقص بعد الكبر فتحدث العملية العكسية وربما تمثل مظاهر ضر، فبعد الشباب تأتي مراحل الضعف فقد يستطيع الوقوف ثم يقعد ثم بتقدم الشيخوخة يظل راقداً فجاء سبحانه في الآية بوضع الإنسان

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، (٦٧٠٢)، فيض القدير ١، ٣٢، وجامع العلوم والحكم ١/ ١٤٩.

(٢) تفسير الطبري ١١/ ٥٣٦-٥٣٧.

لجنبه وقائماً وقاعداً ولم يأتِ بالمشي لأن الماشي عنده قدرة فلا ضر في ذاته[1].

ومن مضاره عجلة الإنسان حين كشف الضر عنه أعرض ونأى بجانبه (ذهب) كأنه ما كان به من شيء ومضى في طريقه من الغفلة عن ربه والكفر به كأنه لم يدعوا إلى شيء ولم يكشف الله عنه ضره كما قال تعالى:﴿ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ فصلت: ٤١.

وفي قوله: كذلك زين... أي مثل هذا العمل القبيح المنكر أو التزين وهو الذي حدث من اللجوء إلى الله وقت الشدة وتركه في الرخاء زين للمشركين طغاة مكة وغيرهم ما كانوا يعملون من أعمال الشرك والإعراض عن القرآن واتباع الشهوات.

وبعد ذلك يبين الله نهاية الإسراف الذي حصل في القرون الأولى ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ﴾ فقد انتهى بهم الإسراف وتجاوز الحد وهو الإشراك إلى الهلاك وهذه مصارعهم كانوا يرون بقيتها في الجزيرة العربية في مساكن عاد وثمود وقرى قوم لوط لأنهم لم يسلكوا طريق الإيمان وسلكوا طريق الطغيان فأبعدوا منها فلقوا جزاء المجرمين والخطاب لأهل مكة يخبرهم تعالى أنه أهلك قبلهم أمم بسبب طغيانهم وتكذيبهم للرسل وما جاءوا به من البينات والحجج الدامغة فكان الهلاك بعذاب الاستئصال كقوم نوح وعاد، وإما بإضعافهم واستيلاء الأمم القوية عليهم، فبين الله ذلك وأكده بقوله وما كانوا (ليؤمنوا) تأكيد لنفي إيمانهم لعلمه أنهم مصرون على الكفر ولا فائدة في إمهالهم بعد أن ألزموا الحجة ببعثة الرسل ومثل ذلك الجزاء نجزي كل مجرم وهذا وعيد شديد لأهل مكة على إجرامهم بحق الرسول محمد ﷺ ثم يذكرهم الله أنه مستخلفهم في مكان هؤلاء الغابرين مع ابتلائهم بهذا الاستخلاف فقال «ثم جعلناكم خلائف» أي خلفاء في الأرض بعد تلك القرون التي أهلكنا لننظر أتعملون خيراً أم شراً وننظر طاعتكم لرسولنا واتباعكم له.

وفيه بيان وإشارة بأن أمة الإسلام ستكون لها الخلافة في الأرض إذا اتبعت هدى القرآن

(١) انظر تفسير الشعراوي ص١٠/ ٥٧٧٧.



كما قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور:٥٥]. وقد تمت لهم هذه فملكوا ملك كسرى وقيصر وفرعون وكثير من الأمم.

وفي ذلك تذكير لهم باستخلافهم في الأرض بعد تلك الأقوام المهلكين ليتعظوا ويرتدعوا ويعلموا أن الله لهم بالمرصاد وأن هذه الحياة ما هي إلا ابتلاء وامتحان كما قال ﷺ : «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[1].

الهدايات المستنبطة من المقطع الرابع

١ - اقتضت حكمة الله ورحمته إمهال الكافرين وعدم تعجيل عذابهم لعلهم ينتبهون من غفلتهم ويصحون من سكرتهم، فتنفتح بصائرهم على الأدلة المبثوثة حولهم، وتلزمهم بهذا الإمهال الحجة وتقوم عليهم البينة.

٢ - إن مشيئة الله تعالى لا تكون تابعة لمشيئة الجهال والمعاندين للأنبياء، فهي أعز وأجل من أن تكون تابعة لهم بل يتركهم متحيرين في ظلمات كفرهم كما قال تعالى: ﴿ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾.

٣ - تكشف الآيات عن طبيعة النفس البشرية بالإستعجال بالخير، وطلب العذاب حين الضجر وهو شيء يدل على شدة الجهل حيث لا يتحملون الضر عندما يصيبهم فيلجؤوا إلى الله.

٤ - قد يكون في عدم الإجابة خير من باب ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا ﴾ [البقرة: ٢١٦] لأن معرفة الإنسان ليست نهائية في تقرير الخير والشر وعليه أن يترك ذلك بمشيئة الإله الأعلى أن يستجيب أو لا يستجيب لما ندعوه ظانين أنه الخير، فالمعرفة العليا هي التي تفرق بين

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب أكثر أهل الجنة الفقراء (٢٧٤١) والحاكم في المستدرك (٨٥٤٣)، والترمذي في سننه (٢١٩١، ٢٤٦٣).

الخير والشر. وفي المنع -أحياناً- عين العطاء وعلى هذا يقول الحق ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء آية ١١].

٥ - الكافر إذا مسه الضر يقع في الهوان أما المؤمن فهو مع ربه دائماً ومسه الضر فهو يدعو الله دائماً ولا ينساه ولذلك يتلطف به سبحانه على عكس الكافر الذي يدعو الله.

٦ - المراد في الإنسان ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ ﴾ هو الكافر لأن العمل المذكور لا يليق بالمسلم.

٧ - إمهال الله للعصاة بأن يتركهم في باطلهم وشرهم فلا يعجل لهم العذاب لعلهم يرجعون.

٨ - الكافر يعرف الله عند الشدة ويدعوه ويتضرع إليه فإذا نجاه عاد إلى الكفر كأنه لم يعد يعرفه.

٩ - في قوله ﴿ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ تقرير لقاعدة عظيمة جليلة في موضوع القضاء والقدر وهي أن للإنسان كسباً واختياراً، وإنه سبحانه يحاسبه ويسأله عنما صدر عنه من عمل بإختياره وكسبه لا بمقتضى علمه به.

١٠ - إن هلاك الأمم قديماً وحديثاً إنما يكون بسبب الظلم من كفر وشرك وطغيان للأفراد أو الحكام.

١١ - الاستخلاف منوط بالعمل الصالح، فالله يستخلف قوماً بعد آخرين لينظر كيف يعملون خيراً أم شراً.

علاقة المقطع مع محور السورة

المقطع يذكر من صفات الله حلمه وإمهاله المكذبين الذين يستعجلون العذاب، بأنه قادر على ذلك ولكن ليس بطلبهم، بل حسب ما تقتضيه مشيئته، مذكرا لهم بما حل بالقرى المكذبة للأنبياء قبله كيف استأصلهم تعالى، ونصر أنبياءه، وعلاقته بمحور السورة واضح في إثبات العقائد.

علاقة المقطع مع بقية المقاطع

المقطع مكمل لما في بقية المقاطع في إثبات العقائد والرسالة، وبيان طبائع المكذبين في استعجال العذاب، ودعوة الله في حال الشدة دون الرخاء، ثم ببيان سنة الله في المكذبين للرسالات وللأنبياء للتعريض بمنكري الوحي المحمدي والمتعجبين من الوحي للرسول ﷺ. والبشرى لأمته بأنهم سيكونون خلائف في الأرض

المقطع الخامس

مطالبة المشركين تبديل القرآن أو بعض آياته

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [١٥-١٨].

مناسبة المقطع لما قبله

بعد أن ذكر الله حال المشركين من تعجبهم من إنزال الوحي على بشر، وتخصيص محمد بالنبوة، ثم مطالبتهم بتعجيل العذاب إن كان ما يقول حقاً، وأنكر عليهم ذلك بإثبات الألوهية والتوحيد وإرسال الرسل والوحي إليهم، والبعث والاستدلال على ذلك بخلقه الأكبر للسموات والأرض بما فيها، وعلمه بطبيعة الإنسان وغرائزه، بعد هذا كله ذكر هنا نوعا آخر من شبهاتهم في الطعن بنبوة محمد ﷺ وهو التشكيك بالقرآن، ومطالبتهم له بأحد أمرين: أن

يأتيهم بقرآن غير هذا أو يبدله، مفندا ذلك بأنه وحي مبلغ من صدوق وهو محمد ﷺ الذي عرف عنه الصدق بينهم زمناً طويلاً، مقرراً عدم فلاحهم بعبادتهم ما لا ينفع ولا يضر من دون الله، ويعتقدون فيهم الشفاعة.

سبب النزول: روي عن ابن عباس ﷺ أن خمسة من الكفار كانوا يستهزئون بالرسول ﷺ وبالقرآن: « الوليد بن المغيرة المخزومي، والعاص بن وائل السهمي، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن حنظلة» فقتل الله كل رجل منهم بطريق آخر كما قال: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر: ١٥]، فذكر تعالى أنهم كلما تليت عليهم آيات: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ [1] ﴾.

عن مجاهد: إن المطالبين بهذا هم خمسة أنفار: عبد الله ابن أمية، والوليد ابن المغيرة، ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس، والعاص بن عامر، قالوا للنبي ﷺ إئت بقرآن ليس فيه ترك عبادة الأصنام واللات والعزى ومناة وهبل، وليس فيه عيبها.

وذكر البغوي عن مقاتل مثله وزاد: وإن لم ينزلها الله فقل أنت من عند نفسك «أو بدله» فاجعل مكان آية عذاب رحمة، أو مكان حرام حلالاً، أو مكان حلال حراماً.. [2]

وذكر القرطبي أن في قولهم ذلك ثلاثة أوجه:

أحدها: أنهم سألوه أن يحول الوعد وعيداً والوعيد وعداً، والحلال حراماً والحرام حلالاً، قاله ابن جرير الطبري.

الثاني: سألوه أن يسقط ما في القرآن من عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم قاله ابن عيسى.

الثالث: أنهم سألوه إسقاط ما فيه من ذكر البعث والنشور قاله الزجاج. [3]

---

(١) أسباب النزول، الواحدي ص ٣٠٥.

(٢) معالم التنزيل، تفسير البغوي، ٢/ ٣٥٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٢٧٤.



التفسير الإجمالي

هذه الآيات مستمرة في مواجهة مشركي قريش وتكذيبهم للقرآن ودحض شبههم حوله، فحين تتلى عليهم آيات الله الواضحات في إبطال الشرك، طلبوا من رسول الله ﷺ لما سمعوا ما أغاظهم من ذم عبادة الأوثان والوعيد الشديد لمن عبدها أحد أمرين: إما الإتيان بقرآن غير هذا القرآن، مع بقاء هذا القرآن على حاله، وإما بتبديل هذا القرآن بنسخ بعض آياته أو كلها ووضع أخرى مكانها مما يطابق إرادتهم ويلائم غرضهم، فأمره الله أن يقول:﴿ مَا يَكُونُ لِيٓ ﴾ أي ما ينبغي لي ولا يحل لي أن أبدله من تلقاء نفسي[1]، فنفى عن نفسه أحد القسمين وهو التبديل لأنه من الممكن لو كان ذلك جائزاً، بخلاف القسم الآخر وهو الإتيان بقرآن آخر، فإن ذلك ليس في وسعه ولا يقدر عليه، وقيل إنه ﷺ نفى عن نفسه أسهل القسمين ليكون دليلا على أصعبهما، وهذا من باب مجاراة السفهاء إذ لا يصدر مثل هذا الاقتراح عن العقلاء، فكان الجواب الطبيعي من الرسول ﷺ ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ راداً شبهتهم بأنه ليس من حقه ذلك. فبينت الآيات الكريمات أن الذكر الحكيم إنما هو كتاب الله وليس كتاب رسوله حتى يكون للرسول فيه دخل من قريب أو بعيد، فهو يتلقى الوحي عن الله في الوقت الذي يريد الله أن يوحي إليه، ولا يملك له الرسول تبديلا ولا تغييراً، ومهمته هو التبليغ للناس كما أنزل، وإن تلاوته على الناس إنما هي بأمر من الله وتيسيره، فلولا اصطفاؤه وتيسيره لها لما استطاع أن يتخطى المستوى الذي كان عليه قبلها، فقد قضى الرسول بين ظهراني قومه أربعين سنة، ولم يذكر شيئاً من هذا النوع المعجز حتى أكرمه الله بالوحي، وأنزل عليه القرآن وكلفه بالتبليغ والبيان. فإذا ما تلا على هؤلاء المشركين آيات الله الواضحات في بيانها دالات على الحق، ساطعات في الحجة والبرهان، قالوا للرسول: أئت بقرآن غير هذا أو بدله، أي كتاب آخر نقرؤه ليس فيه ما لا نؤمن به من البعث والجزاء على الأعمال، ولا ما نكره من ذم آلهتنا والوعيد على عبادتها، أو بدله بأن تجعل الآية المشتملة على الوعيد آية أخرى ولم يكن مقصدهم من هذا

---

(١) فتح القدير، ٢/ ٤٨٩.

إلا اختبار حاله بمطالبته بالإتيان بقرآن غيره.. [١]

ولهذا كان جواب الرسول ﷺ أنه عبد مأمور بالتبليغ، محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ﴾ والدليل على أني لست أتقوله من عندي أنكم عاجزون عن معارضته، وإنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت فيكم إلى حين بعثني الله عز وجل، ثم ينبههم أنه لا أحد أظلم ولا أشد جرما ممن افترى على الله كذباً، وتقول على الله وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك.. كذلك من كذب بالحق الذي جاء به الرسل وقامت عليه الحجج. [٢]

وبعد أن بين الله تعالى أن المشركين طلبوا ذلك لأن القرآن فيه شتم آلهتهم، ندد بعبادتهم لتلك الأصنام وجعلها شفعاء ظانين أن شفاعتها تنفعهم عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئاً، فهم يزعمون وجود قدرة على ذلك كما قال تعالى عنهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣].

روي أن النضر بن الحارث قال: إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى فرد الله عليهم ﴿ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا ﴾ أي قل يا أيها الرسول لهم: لا دليل على ما تدعون، أتخبرون الله بما لا وجود له في السموات ولا في الأرض، وما لا يعلمه من هؤلاء الشفعاء؟ ونظيره قوله: ﴿ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ٣٣]، ثم نزّه الله نفسه عن شركهم فقال: ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فهو منزه عن إشراكهم وعن الشركاء الذين يشركونهم به.

الهدايات المستنبطة

١ - رفض الرسول ﷺ مطالب المشركين وأعلن أن القرآن كلام الله، ومهمة الرسول ﷺ مقصورة على تبليغ ما يوحى إليه واتباع ما يتلوه عليهم من وعد ووعيد وتحريم وتحليل

(١) تفسير المراغي، ١٠/ ٧٨.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ١٨٨.

وأمر ونهي.

٢ - من الدعوة إلى الله تلاوة الآيات القرآنية على الناس تذكيراً وتعليما.

٣ - إن طلب المشركين لا يتجاوز المكابرة والتعنت والجحود، ودافعهم إليه في السخرية والاستهزاء أو التجربة والامتحان.

٤ - حياة الرسول ﷺ قبل البعثة أربعين سنة وهو أمي مشهود له بالصدق والأمانة فيهم، دليل على مصدرية القرآن المعجز من الله تعالى، مع التحدي الذي ورد عليهم.

٥ - لا أحد أظلم ممن يكذب على الله ويبدل كلامه، أو يضيف إليه شيئاً أو يدعي أنه أوحي إليه ولم يوح إليه، وآخر يكذب بآيات الله البينات الواضحات منكم.

٦ - لا فوز ولا فلاح للمجرمين الكافرين، ومصير الإجرام الخيبة لا محالة.

٧ - إبطال دعوى المشركين بأن آلهتهم تشفع لهم يوم القيامة، إذ لا وجود للشفعاء، ولو كان لهم وجود لكانوا شركاء لله تعالى والله لا شريك له، وهذا يبطل الشرك في الألوهية بعبادة غير الله مطلقاً وفي الربوبية بادعاء الوساطة والشفاعة عند الله[1].

مناسبة المقطع مع محور السورة:

المقطع يتحدث عن شبهات المشركين حول القرآن ونفيها لإنزاله على رجل عرف بالصدق بينهم، ورد الرسول - كما علمه الله - يتماشى مع محور السورة القائم على التحدي بالقرآن وما فيه من عقائد بأنه منزل من عند الله، فهو تأكيد ألوهية القرآن وصدق الرسول المبلغ به.

أما مناسبة المقطع لمقاطع السورة:

فواضح في إطار إثبات العقائد التي جاء بها الوحي.

(١) انظر أيسر التفاسير ٢/ ٤٥٨، والتفسير المنير ١١/ ١٣٤.

المقطع السادس

اختلاف الناس وتقلبهم وحرصهم على الحياة الفانية

قال تعالى:﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [١٩-٢٤].

المناسبة بين المقطع وما قبله

بعد أن أقام الله تعالى الدلائل على بطلان الأصنام ذكر هنا ما كان الناس عليه من الوحدة في الدين وما صاروا إليه من الاختلاف والفرقة فيه، وبين أن الشرك حادث في الناس لاتباعهم الهوى بعد أن كانوا على دين واحد هو التوحيد، وأتبع ذلك بذكر شبهة أخرى للمشركين -المتبعين للهوى- في نبوة محمد ﷺ إضافة إلى ما سبق، وهي طلبهم لمعجزات حسية مادية لتكون له معجزة، فرد عليهم بأن تلك الآيات والمعجزات من الغيب المستأثر بها عند الله تعالى، ثم ذكر جواباً آخر وهو أنهم لا يقتنعون بالآيات إذا رأوها بأعينهم لأن من عادتهم المكر والجحود والعناد، وهذه من صفات الجحود فيهم، فإذا أصابتهم الشدة تضرعوا، وإذا ما جاءتهم النعمة

بطروا وكفروا، ثم بين أن سبب بغي الناس حرصهم على الدنيا والتمتع بنعيمها ضاربا مثلاً لمن يبغي في الأرض ويغتر بالدنيا ويعرض عن الآخرة كأرض سقيت ماءً فأثمرت، ثم جاء وقت حصادها فلم تلبث أن أصابتها فجأة جائحة فاستأصلتها.

التفسير الإجمالي

في هذه الآيات يذكر تعالى حقيقة تاريخية بأن الناس كانوا على دين واحد وهو الإسلام دين التوحيد ودين الفطرة، ثم اختلفوا بكفر بعضهم، وثبات بعضهم الآخر على الحق. ولولا كلمة سبقت من الله بإمهال العاصين وعدم معاجلتهم بذنوبهم لقُضيَ بينهم: بإهْلاك أهل الباطل ونجاة أهل الحق، يقول ابن كثير: « أنه لولا ما تقدم أن الله لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه، وأنه سبحانه جعل لكل المخلوقات أجلا معدوداً ومحدودا لقضي بينهم فيما اختلفوا فيه، وأنزل العقوبة على المكذبين»[1]، فكلمته سبقت لحكمة أرادها بأن يؤخرهم إلى يوم القيامة وهي قوله تعالى: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص:٨٥].

قال ابن عباس: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام».

ويخبر تعالى عن المشركين وما هم عليه من المكابرة فيقول هؤلاء الكفرة المعاندون: هلا أُنـزل على محمد آية حسية من ربه لنعلم أنه على حق فيما يقول، فهم يريدون آية خارقة حسية مشاهدة كالتي نزلت على هود وصالح وموسى.. فجاءت العبارة ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ لتؤذن أن هذه المقالة من دأبهم[2] فقل لهم أيها الرسول: لا يعلم الغيب أحد إلا الله، فإن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، فانتظروا قضاء الله بيننا وبينكم بتعجيل عقوبته للمبطل ونصرة صاحب الحق، وأنا منتظر كذلك.

وكانوا قد اقترحوا آيات لتشهد على صحة نبوته، وقد جاء ذكرها مفصلة في سورة

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ١٨٨.
(٢) روح المعاني، ٧/ ٩٢.

الإسراء في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣]، وقد يريدون بالآية عذابا كما سبق في هذه السورة، فلذا أمر الله رسوله أن يرد عليهم بقوله ﴿ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾أي إن إنزال المعجزات من الغيب المختص بإرادته سبحانه فهو وحده يعلم متى يأتيكم العذاب، وعليه «فَانْتَظِرُوا..» قضاء الله تعالى بيني وبينكم بإحقاق الحق وإزهاق الباطل، ولم تطل مدة الانتظار ونزل بهم العذاب ببدر فهلك رؤساؤهم وأكابرهم المستهزئون.[١]

ويرد الله على الكفار الذين يطلبون الآيات الكونية بما يدل على سوء طبع الإنسان الذي ينقلب على الفطرة، ومن أمثلة ذلك أنه إذا أذاق الله الناس رحمة ورزقهم فضلا بعد ضراء مستهم، كالرخاء بعد الشدة والخصب بعد الجدب والمطر بعد القحط والصحة بعد المرض إذا هم يسرعون بالمفاجأة الغريبة وهي المكر في مقام الحمد والشكر، والمكر يكون بالاستهزاء والتكذيب لها والتنكر والجحود، فهم يقابلون النعمة بالكفران، وقد روي أن الله سلط على كفار قريش القحط سبع سنين حتى كادوا يهلكوا، فطلبوا من رسول الله ﷺ أن يدعوا لهم بالخصب ورفع البلاء، ووعدوه الإيمان، فدعا الله لهم، فرحمهم الله فأنزل عليهم الأمطار النافعة وأخرج لهم الزروع والثمار، ثم بطروا ونسبوا تلك المنافع الجليلة إلى الأصنام وإلى الأنواء[٢].

---

(١) أيسر التفاسير، ٣/ ٤٥٩.

(٢) القصة كما رواها البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود، أن قريشا لما استعصوا على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كسني سيدنا يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام والميتة من الجهد، وحتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع، فأنزل الله تعالى: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ الدخان: ١٠-١١، فجاء أبو سفيان إلى=

وهكذا إذا رحم الله الناس بعد عسر وشدة أصابتهم إذا هم يكذِّبون ويستهزئون بآيات الله، قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين المستهزئين: الله أسرع مكرًا واستدراجًا وعقوبة لكم. إن حَفَظَتَنا الذين نرسلهم إليكم يكتبون عليكم ما تمكرون في آياتنا ثم نحاسبكم على ذلك.

قال الشوكاني: وتسمية عقوبة الله سبحانه مكراً من باب المشاكلة، كما قرر في مواطن من عبارات الكتاب العزيز. [١]، فالله أشد استدراجاً وإمهالاً حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه[٢]، وقد يكون الإمهال إلى يوم القيامة فالملائكة الموكلون بحفظ أعمالكم يكتبون ما تمكرون، وأنتم لا تشعرون فضلا من رب العالمين الذي لا تخفى عليه خافية.

ثم ضرب الله مثلا للمعاندين على مقابلتهم النعمة بالجحود بمثال عملي يبين فضل الله تعالى على الإنسان بنقله من الضر الشديد إلى الرحمة والسعة، ويبين موقف الإنسان بعد ذلك ومكره، فالله يهيئ له أسباب السير في البر والبحر ويمكنه منه، فلولا النواميس والوسائل التي جعلها الله سبحانه في البر والبحر ما تمكن الإنسان من السير فيها، فلقد جعلكم قادرين على السير في البر والبحر بما سخر لكم وخلق من أجلكم حتى إذا ما كنتم راكبين في الفلك وجرت بكم في البحر بسبب ريح طيبة مواتية للاتجاه في جهة السير وفرحتم بما تحقق لكم من راحة وقطع مسافة ثم جاءت تلك السفن ريح عاصفة شديدة قوية فاضطرب البحر وتلاطمت بالأمواج العالية من مختلف الجهات وأيقنوا أن الهلاك قد أحاط بهم، فلم يجدوا ملجأ إلا الله هنالك أخلصوا الدعاء والتضرع لله وحده ولم تتجهوا إلى آلهتكم من الأوثان، لرجوعكم إلى الفطرة

=رسول الله فقال: يا محمد إنك حيث جئت تأمرنا بصلة الرحم، وإن قومك ربما هلكوا، فادعوا الله لهم، فدعا لهم فكشف الله عنهم العذاب، ومطروا فعادوا إلى حالهم ومكرهم الأول يطعنون في آيات الله، ويعادون رسوله ﷺ ويكذبونه.

(١) فتح القدير، ٢/ ٤٣٤.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ١٨٩.

وهي التوحيد، يقولون في دعائهم لئن أنجينا من هذه الأهوال، والله لنكونن من الشاكرين لك دائماً، فلما أنجاهم مما نزل بهم من الشدائد إذ هم يفسدون في الأرض، وجاء التعقيب على هذا المثال﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴾ أي وباله وعاقبته يرجع عليكم كما قال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة فصلت:٤٦]، وقوله: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر: ٤٣]، وجاء في الحديث الشريف: «ما ذنب أجدر أن يعجل لصاحبه العقوبة من البغي وقطيعة الرحم»[١] ويقول لهم تعالى: تتمتعون متاع الحياة الدنيا ثم ترجعون إلينا ونحاسبكم عليه. ثم ذكرت الآيات مثلاً آخر من باب التذكير للباغين المفرطين في حب الدنيا أنها سريعة التقلب والانقضاء، فهي في سرعتها كالماء الذي اختلط بنبات الأرض فنمى حتى إذا استكملت الأرض زينتها بأنواع النبات وألوانه الزاهية وتزينت كما تتزين العروس وأهلها مزهوون بها مطمئنون إليها أتاها قضاء الله بهلاكها ليلاً أو نهاراً في زمن غفلتهم ونومهم أو في حال انتباههم ويقظتهم فجعلها الله حصيداً أي محصودة مقطوعة كأن نباتها لم يكن ولم يقم منذ زمن قريب، وهكذا الدنيا بعد زوالها كأنها لم تكن تزول في ومضة ولحظة بعد أن بذل أهلها فيها ما بذلوا وأملوا منها ما أملوا، فما أشد غيبتهم وحسرتهم، ويختم الله هذين المثلين بأن ذلك لقوم يتفكرون لأن التفكر بداية الانتباه والتحول عن حال الغفلة الذي يغلب على الراضين بالحياة الدنيا والمطمئنين بها[٢].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

١- إن الشرك أمر طارئ على الناس، فقد كانوا متفقين على دين الحق والتوحيد من عهد آدم إلى عهد نوح عليهما السلام، وقيل أن المراد من "الناس" العرب خاصة وكانوا على التوحيد منذ زمن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى أن ظهر عمرو بن لحي وجلب الأصنام إلى

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب النهي عن البغي، برقم (٢٩٠٢)، ٤/ ٢٧٦، وابن ماجة في كتاب الزهد في الدنيا برقم (٤٢١١)، ٢/ ١٤٠٨، والترمذي حديث (٢٥١١) ٤/ ٦٦٤.

(٢) انظر الإنسان بين التقدير والتكليف ص٥٠-٥١.

أرض العرب ونشر عبادتهم[١].

٢- الشرك هو الذي يحدث الخلاف في الأمة والتفرق فيها، أما التوحيد فلا يترتب عليه خلاف ولا فرقة. وفي الآيات وعيد على الاختلاف في أصول الاعتقاد وفي الكتاب الذي أنزل على إعادة الناس إلى الوحدة الأولى وإزالة الشقاق بينهم. كما أن فيه تسلية للنبي ﷺ في تأخير العذاب عمن كفر به.

٣- في الآيات إشارة إلى القضاء والقدر وأن الله لا يعجل العذاب للأمم والأفراد بكفرهم وإنما يؤخرهم إلى آجالهم ليجزيهم بدار الجزاء يوم القيامة.

٤- إن اختلاف الناس دليل على أنه سبحانه جعل لهم إرادة واختياراً وكسباً، واقتضت مشيئته وحكمته أن تكون الحياة الدنيا للابتلاء والتكليف، ولا يتم هذا إلا إذا تمتع المكلف بالإرادة والكسب والاختيار.

٥- إن القرآن كافٍ على صدق النبي ﷺ، وطلب معجزات أخرى لا يكون إلا مكابرة وعناداً وهو مما اشتهر به مشركو مكة، ولو أنهم أنصفوا لوجدوا في القرآن ما يكفيهم ويغنيهم عن عما اقترحوه.

٦- الغيب كله لله فلا أحد يعلم الغيب إلا الله، ومن علمه الله شيئاً منه، فهذا خاص بالرسل لإقامة الحجة على أممهم، والنبي يبلغ ما أنزل إليه من ربه.

٧- من الآداب إسناد الخير والرحمة إلى الله وعدم إسناد الضراء إليه مع أن الكل بإرادته وقدرته وهذا من الآداب التي تحلى بها الأنبياء عليهم السلام كما جاء في القرآن عن إبراهيم: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٨٠]. فالخير فضل من الله سبحانه بينما الشر لا يكون إلا بما يصدر عن الإنسان من أسباب تؤدي إليه. مع أنه من خلق الله تعالى وتقديره كما قال: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى:٣٠].

---

(١) روح المعاني ٧/ ٨٩.

يقابل الله الماكرين بمكر أشد منه وهو إمهالهم واستدراجهم إلى يوم القيامة، لأن مكرهم مرصود من قبل الملائكة الحفظة، وكتابة الملائكة ما يمكرون دليل على تبيت الله لهم المكروه الذي يريد أن يجازيهم به على مكرهم، وبغي الإنسان كمكره عائد إليه كما قال ﷺ: "ثلاث على أصحابها رواجع: البغي والمكر والنكث"[(١)]. وفيه تقرير على مبدأ البعث والجزاء على يوم القيامة.

٨- إخلاص العبد الدعاء في الشدة دليل على أن التوحيد أصل وهو (الفطرة) والشرك طارئ، والكفار شأنهم نكث العهد بعد النجاة وهو من منكرات المعاصي، قال ابن عباس لو بغى جبل على جبل لاندك الباب، وعاقبة البغي يتحمل وزرها الباغي نفسه عاجلاً أم آجلاً.

٩- سرعة زوال وانقضاء الحياة الدنيا فلا ينبغي الاغترار بها والركون إليها ونسيان الآخرة لأن نعيمها ليس بدائم، وإن الذنوب سبب في الشقاء وزوال النعم.

١٠- فضيلة التفكر وأهله فالله يبين الآيات ويضرب الأمثال لمن يستخدم تفكيره وعقله فيها، فإن عاقبة هذه الدنيا كعاقبة هذا النبات الذي تتعلق به الآمال للانتفاع به فحين عظم الرجاء بالمنفعة وقع اليأس منها.

المناسبة بين المقطع ومحور السورة:

يؤكد المقطع أن الإيمان أصل وفطرة والشرك عارض، كما أن ما فيه من الأمثال ما يؤكد العقائد التي هي محور السورة.

مناسبة المقطع مع مقاطع السورة:

هذا المقطع يتفق مع المقاطع السابقة التي تدور حول الإيمان والعقائد مدعومة بضرب الأمثلة للعبرة والموعظة.

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (الرابع والأربعون)، برقم (٦٦٧٤) ٥/ ٢٦٨.

المقطع السابع

الترغيب في الجنة وقواعد الجزاء الإلهي

﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الآيات: ٢٥-٣٠].

المناسبة بين المقطع وما قبله:

بعد حديث الآيات السابقة عن دار الفناء وما فيها من تقلبات، فلا يدوم لها حال ولا سرور، وتصوير حال الغافلين من المهتمين بالدنيا، وضرب المثل المنفر عن رغبتهم في الآخرة، تتحدث هذه الآيات عن دار الخلد والدعوة إليها بالعمل الصالح، ووصفها بدار السلام لدوامها وما يناله أهل الجنة من زيادة الفضل، لتشويق المؤمنين إليها لتتعلق قلوبهم بها، وتتطلع نفوسهم وتسموا أرواحهم إليها، فيسيروا على طريقها ويلتزموا المنهج الرباني، على الضد لمن كسب السيئات وما يناله من الذل والخزي وعذاب النار، ثم أعقبه بذكر يوم الجزاء الذي يتم فيه حشرهم جميعاً فيتبرأ المعبود من العابد، والمتبوع من التابع دليلاً على نفي الشفاعة، مما يدل على نهاية الخزي والنكال في حق الكفار.

التفسير الإجمالي

تكشف هذه الآيات عما يكون في دار الخلد، دار السلام وما أعد فيها، حيث يوجه الله تعالى دعوة عامة مفتوحة إلى سائر الناس، والبلوغ إليها بالعمل الصالح. عن جابر بن عبد

الله ﷺ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً، فقال: إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مأدبة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فالله الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد الرسول، فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها»[1].

«وسماها الله دار السلام لسلامتها من الآفات والشوائب والنقائص والأكدار»[2]، لأنه سبحانه هو السلام، وأضافها إلى اسم من أسمائه الحسنى تعظيما لها، أو لكثرة ما فيها من التحية بالسلام، فالله سبحانه يسلم على أهلها، والملائكة تسلم عليهم أيضاً، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾أو لسلامتها من الآفات والنقائص والنكبات، فلا تعب فيها ولا نصب ولا هم ولا حزن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر:٣٤-٣٥]، أو لسلامة أهلها من النقص في خلقهم وخُلُقهم، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ [الحجر:٤٧]، وقال رسول الله ﷺ : "إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون ولا يتفلون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الأُلُوة، أزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء، وزاد في رواية "ولا اختلاف

---

(١) رواه االترمذي في سننه، في كتاب الأمثال عن رسول الله ﷺ ، باب ما جاء في مثل الله لعباده برقم (٢٨٦٠)، ٥/ ١٤٥، والحاكم في المستدرك على الصحيحين (٣٢٩٩) ٢/ ٣٦٩، و٤/ ٤٣٥، والطبراني في الطبقات الكبرى ١/ ١٧٢.

(٢) التفسير المنير ١١/ ١٥٣.

بينهم ولا تباغض قلوبهم قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشياً"[١]

وقال ﷺ: «يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً مكحلين، بني ثلاث وثلاثين»[٢] ومن دعائه ﷺ: «اللهم أنت السلام ومنك السلام...».

وبعد أن دعا إلى دار السلام قال: ﴿ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ أي يوفق من يشاء إلى طريق الجنة وهو دين الإسلام فيلتزم أحكامه ويسير على نهجه، فالدعوة عامة والهداية خاصة، فلا يدخل الجنة إلا المهديون كما قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾فالإنسان محتاج إلى هداية الله وتوفيقه ومعونته.. ولهذا علمنا أن نسأله الهداية كلما وقفنا في الصلاة نناجيه ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[٣]. وبعدها يبين تعالى قواعد الجزاء للمهتدين ولغير المهتدين ويكشف عن رحمة الله وفضله وعن قسطه وعدله في جزاء هؤلاء وهؤلاء فالذين أحسنوا.. أحسنوا الاعتقاد والعمل وأحسنوا معرفة الصراط المستقيم وإدراك القانون الكوني المؤدي إلى دار السلام فهؤلاء لهم الحسنى جزاء ما أحسنوا وعليها زيادة من فضل الله غير محدودة[٤]. ويؤيده قوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن:٦٠]، وقوله تعالى (وزيادة) قيل هي إكرامهم بالنظر إلى وجه ربهم الكريم وقيل الزيادة في حسناتهم

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري في كتاب الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته، برقم (٣١٤٩)، ٣/ ١٢٠٩، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في سوق الجنة وما ينالون فيها من النعيم والجمال، برقم (٢٨٣٤) ٤/ ٢١٧٩، والترمذي (٢٥٣٥) والدارمي (٢٨٢٣)، ومباخرهم الألوة، أي: مباخرهم نباتات عطرية فائحة الشذى.

(٢) رواه الترمذي وحسنه في كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في سنن أهل الجنة برقم (٢٥٤٥) ٤/ ٦٨٢، والإمام أحمد في مسنده (٧٩٢٠) ٢/ ٢٩٥ و٣٤٣، ٥/ ٢٣٢ و٢٣٩ و٢٤٣، والطبراني في الصغير والكبير.

(٣) انظر الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس ص٥٤.

(٤) في ظلال القرآن ١١/ ١٧٧٩.

وقيل هي مغفرة الله ورضوانه ولا مانع من إرادة العموم كما رجح الطبري[1]. وقال ابن كثير هي تضعيف ثواب الأعمال... وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم الجمهور من السلف والخلف[2].

وقد أثبتت النصوص هذا المعنى كقوله تعالى:﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، ويحرم الكفار منها:﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٥]، ومن الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن ناساً قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة فقال ﷺ: «هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: فإنكم ترونه كذلك»[3] وتابعت الآية في وصف أهل الجنة بقوله: ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة، فلا يغشى وجوههم غبرة وسواد وكآبة ولا هوان ومذلة مما يصيب أهل النار ولا تشيب نعيمهم شائبة من شوائب المكاره وهم ناجون من كربات يوم الحشر ومن أهوال الموقف قبل أن يفصل في أمر الخلق إضافة إلى النضرة في وجوههم والسرور في قلوبهم، أولئك أصحاب هذه المنزلة العالية البعيدة الآفاق أصحاب

---

(١) انظر تفسير الطبري ١١/ ١٠٨.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ١٩٠.

(٣) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب إن الله لا يظلم مثقال ذرة.. برقم (٤٣٠٥) ٤/ ١٦٧١-١٦٧٢، وفي كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة»برقم (٧٠٠٠) ٦/ ٢٧٠٤، وكتاب الرقاق، باب الصراط على جسر جهنم، برقم (٦٢٠٤) ٥/ ٢٤٠٣، ومسلم في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية برقم (١٨٢) ١/ ١٦٣-١٦٤، و(١٨٣) ١/ ١٦٧، وله في كتاب الزهد والرقائق برقم (٢٩٦٨) ٤/ ٢٢٧٩. وفي حديث آخر قال ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله عز وجل: تريدون شيئاً أزيدكم فيقولون: ألم تبيض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم، ثم تلا هذه الآية: «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة» رواه مسلم برقم (١٨١) ١/ ١٦٣، والنسائي في السنن الكبرى، في كتاب التفسير، باب سورة يونس، (١١٢٣٤) ٦/ ٣٦١، ورقم (٧٧٦٦) ٤/ ٤٢٠، والترمذي في كتاب التفسير باب ومن سورة يونس (٣١٠٥)، وكتاب صفة الجنة، باب ما جاء في رؤية الرب (٢٥٥٢) ٤/ ٦٨٧.

الجنة وملاكها ورفاقها هم فيها خالدون.

وجمعاً بين الترغيب والترهيب كما هو أسلوب القرآن الكريم انتقلت الآيات إلى وصف أصحاب النار الذين كسبوا السيئات فكفروا بالله وخالفوا أمره فلهم جزاء السيئة مثلها من العقاب، والقصد من هذا التقييد التنبيه إلى مضاعفة الحسنات فضل منه سبحانه، وأما السيئات فالجزاء عليها بمثلها عدل منه سبحانه. وهؤلاء تخشاهم ذلة وشدة ما لهم مانع يمنعهم من عذاب الله إذا نزل بهم، ثم يرسم السياق صورة حسية للظلام النفسي والكدرة التي تغشى وجه المكروب المأخوذ المرعوب ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾ أي كإنما أخذ من الليل المظلم فقطع رقعا غشيت بها هذه الوجوه، وهكذا يغشى الجو كله ظلام من ظلام الليل المظلم ورهبة من رهبته... أولئك المبعدون في هذا الظلام والقتام أصحاب النار، ملاكها ورفاقها هم فيها خالدون.

وتأكيداً لقوله سبحانه ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ﴾ يعرض القرآن مشهدا من مشاهد القيامة مشهد حي أبلغ من الإخبار المجرد بأن الشركاء والشفعاء لن يعصموا عبادهم من الله، ولن يملكوا لهم خلاصاً ولا نجاة، هؤلاء هم محشورون جميعاً.. يصدر إليهم الأمر: مكانكم أي الزموا مكانكم واثبتوا فيه أنتم وشركاؤكم الذين كنتم تعبدونه في الدنيا لا تبرحوه حتى تنظروا ما يفعل بكم ويفصل بينكم فيما كان من سبب عبادتكم إياهم والحجة التي يدلي بها كل فريق منكم وهو وعيد لهم على رؤوس الأشهاد، ثم فرّق بينهم وبين شركائهم وحجز بينهم في الموقف، وعندئذ لا يتكلم الذين كفروا ولكن يتكلم الشركاء، ليبرئوا أنفسهم من الجريمة.. وإعلان أنهم لم يعلموا بعبادتهم إياهم ولم يشعروا، ويشهدون الله وحده على ما يقولون! فما أعظم حسرتهم ! وما أشد خيبتهم! كانوا يرجون أن يشفع لهم شركاؤهم عند الله كما مرّ ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ فتبرؤا منهم وانقلبت المودة إلى عداوة، كما قال تعالى:﴿ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨٢]، عندئذ في هذا الموقف المكشوف تختبر كل نفس ما أسلفت من عمل، وتدرك عاقبته إدراك الخبرة والتجربة،

هنالك يتكشف الموقف عن رب واحد حق يرجع إليه الجميع، وما عداه باطل،﴿ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾ وهنالك لا يجد المشركون شيئا من دعاويهم ومزاعمهم وآلهتهم، فكله شرد عنهم ولم يعد له وجود. [1] وهكذا ضاع وبطل ما كانوا يفترون بأنهم شركاء وشفعاء.

الهدايات المستنبطة من المقطع

١- دعوة الله جميع الخلق إلى الجنة والسعادة الأبدية والخلود في الجنان عن طريق الإيمان والعمل الصالح، والرسالة واضحة فهو لا يدعو إلى جمع الدنيا بل إلى الطاعة المؤدية إلى دار السلام، وفيه أن الإيثار لمتاع الدنيا والغرور بها هو ما يدعو إليه الشيطان فيوقع متبعيه في جهنم دار النكال والوبال، ولكن الله يدعو إلى دار السلام، وهو فضل الله على عباده ورحمته بهم إذ يدعوهم إلى دار الكرامة والإنعام عليهم.

٢- الجنة دار السلام، لسلامتها من كل الآفات، وهو من أسماء الله الحسنى، والسلام تحية المسلمين وطلبه دعاؤهم لأنه من أعظم المنن، ولا يقدر قيمته حق التقدير إلا من فقده.

٣- الجزاء من جنس العمل، فجزاء الإحسان الإحسان وزيادة، ومثوبة الذين أحسنوا الحسنى الجنة، والزيادة فضل من الله، وهي تضعيف الحسنات والنظر إلى وجه الكريم والشعور بالسعادة ظاهرا وباطناً، أما المسيئون الذين أشركوا بالله وكفروا بنعمته وقابلوا الإحسان بالإساءة فلهم عقاب مماثل لسيئاتهم دون زيادة أخذا بالعدل.

٤- في قوله «وزيادة» دليل لأهل السنة على جواز الرؤية والنظر إلى وجه الله لأهل الجنة، وله أدلة تدعمه، فأثبت لهم نظرة الوجوه، والنظر إليه.

٥- الهداية خاصة لمن يشاء الله من عباده، وتوفيقه لهم بعمل أهل الجنة دليل على استغناء الله عن عباده.

٦- تقرير مبدأ البعث والجزاء، بعرض واضح له، وإثبات موقف الحشر لكل الخلائق، وما

(١) في ظلال القرآن ١١/ ١٧٨٠.

يحدث في ذلك الموقف من انقطاع الصلة بين الشركاء والمشركين، والأتباع والمتبوعين فتظهر فيه خيبتهم وإفلاسهم من عبادة غير الله.

٧- التوبيخ للكفار على رؤوس الأشهاد حين يقال لهم: مكانكم، ثم يفرق بينهم، حتى تظهر خيبة أملهم في شفاعة الشركاء، فلا شفاعة إلا لله ولمن ارتضى.

٨- في قوله: ﴿ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ ﴾ مع أن الكافرين لا مولى لهم، هو أن المولى هنا هو مولاهم في الرزق وإدرار النعم، وليس بمولاهم في النصر والمعونة.[١]

٩- تكشف الأمر في يوم القيامة فتعلم كل نفس ما أحضرت وما قدمت وأخرت، وتبلو ما أسلفت وتعرف، وأنى لها أن تنتفع بما تعرف! وانجلاء الموقف في اليوم الآخر بأن الأمر كله لله وبطلان الشركاء.

مناسبة المقطع لمحور السورة:

يتحدث المقطع عن الترغيب بالجنة، وقانون الله في الثواب والعقاب في اليوم الآخر والإيمان باليوم الآخر هو الهدف من إرسال الرسل والوحي الذي أنزل عليهم، وخصوصاً الوحي لرسول الله ﷺ، فالتصديق بذلك هو تصديق بالوحي والقرآن الذي هو محور السورة.

أما مناسبة المقطع مع مقاطع السورة:

فدعوته تعالى إلى دار السلام لجميع الخلق وتوفيقه وهدايته لمن يريد الآخرة يتماشى مع بقية المقاطع التي تؤكد المعنى ضمن دائرة العقائد وتثبيتها، فهي جولة من جولات السورة في إثبات العقائد ومنها الإيمان بالوحي والقرآن وما فيه من التذكير بمصائر المكذبين ومشاهد القيامة.

(١) انظر التفسير المنير 11/ 161.

المقطع الثامن

إثبات التوحيد والبعث بدليل الفطرة

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [٣١-٣٦].

المناسبة بين المقطع وما قبله:

بعد أن أبطل الحق معتقد المشركين وجنايتهم على أنفسهم باتخاذهم الشركاء، وبين لهم أن شركاءهم مقهورون لا قدرة لهم، وأنه وحده المولى الحق، اتبعه بذكر الدلائل والحجج على المشركين في فساد معتقدهم وإثبات التوحيد والبعث بدليل اعترافهم بربوبيته بالفطرة، فوبخهم بأن وجه السؤال إليهم مما هم معترفون بأنه مختص به، ويدل قطعا على تفرده بالأمر كله، بسؤالهم عن الرزق بالمطر من السماء، والنبات في الأرض، وخلق لهم ما يسمعون به الآيات، وما يبصرون بها نعم الله، ثم ينتقل من إثبات التوحيد إلى إثبات البعث بدليل القدرة الإلهية على ابتداء الخلق، ومن قدر على الخلق الأول فهو أقدر على الإعادة، ثم عرض الأمر على العقلاء في بيان من هو أحق بالاتباع، أهو الله الخالق الهادي أم من يحتاج إلى هداية غيره؟

وجاءت ضروب هذه الحجج بطريق السؤال للتوبيخ وإلزام الخصم، وهو أسلوب أوقع وأبلغ في الدلالة على الغرض[1].

---

(١) انظر تفسير المراغي، ١٠/ ١٠٢.



التفسير الإجمالي:

الآيات فيها طلب إلى الرسول ﷺ أن يقرع أسماع المشركين بأسئلة هدفها جواب المقابل الفطري ولإقراره تكون حجة عليه، والسؤال يتضمن ثلاث حجج وهي قوله: قل أيها النبي لمشركي مكة وأمثالهم: من ذا الذي ينزل المطر من السماء فيكون سببا في إنبات الأرض بالزرع والزهر والشجر، حيث يشق الأرض شقا بقدرته ومشيئته فيخرج منها ﴿ حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [عبس: ٢٧-٣٠]، كقوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ﴾ [الملك:٢١]، فمصدر رزقكم بسبب بركات السماء والأرض.[1]

ثم تتابعت الأسئلة التقريرية الملزمة، بتراكيبها القصيرة السريعة متلاحقة كأنها مطارق تنزل على رؤس الغافلين، تذكرهم بحقيقة فقرهم واحتياجهم إلى الله وحده خالقهم ومدبر أمور حياتهم ومعاشهم، ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾، وأم للإضراب والانتقال السريع لتقرير حقيقة ثانية، والسمع والبصر أعظم الوسائل التي تصل الإنسان بالعالم الخارج عنه، وتمكنه من الوصول إلى رزقه الذي أنزله الله من السماء، أو أخرجه من الأرض[2]، وهي كقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك: ٢٣] والإنسان بدون هاتين الحاستين لا يدري شيئا، وتكون بقية المخلوقات أفضل منه لاستغنائها عمّن يقوم بضرورات معاشها.

والسؤال الثالث والرابع: ﴿ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ أي ومن الذي بقدرته العظيمة أمر الحياة والموت؟ فيحيي ويميت مثل إخراج النخلة من النواة والطائر أو الحيوان من البيضة أو النطفة وعكس ذلك.. وفسر بعضهم الحياة والموت بالشيء المعنوي وهو إخراج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، والقول الأول لا ينفي ما يقوله الآن علماء الأحياء بأن في البذور والبيض والمني والنطفة حياة لكنها حياة خاصة لا حركة فيها ولا نمو..

(١) مختصر ابن كثير، ٢/ ١٩٢، والتفسير المنير، ١١/ ١٦٣.

(٢) الإنسان بين التقدير والتكليف، ص ٦٤.

ويمكن التمثيل في العلم الحديث لإخراج الميت من الحي بما يطرحه البدن من الخلايا الميتة في الدم والجلد فيخرج مع البخار والعرق، ومثال إخراج الحي من الميت الغذاء الذي يحرق بالنار، ثم يتناوله الإنسان فيتولد منه الدم.

ثم من الذي يدبر الأمر ويدبر أمور العالم وبيده ملكوت كل شيء، وهو تعميم بعد تخصيص على بعض ظواهر الخلق والتدبير في المكونات، فمن يدبر هو المتصرف الحاكم..

هذه الأسئلة الخمسة لا يملك المشركون إلا أن يجيبوا: إن الفاعل هو الله « فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ» بلا تردد

ولا شك من غير مكابرة وعناد لوضوحها، وعدم وجود جواب في الواقع غيره.. وإذا اعترفوا بالحقيقة فقل لهم أيها الرسول: أفلا تتقون وتخافون عقاب الله بإشراككم إياه وعبادتكم لغيره مما لا يملك كل ما أنتم مقرّون به.

فذلكم الله ربكم المتصف بكل الصفات السالفة، هو خالقكم ومربيكم ومدبر أموركم فهو المستحق للعبادة، وليس بعد الحق إلا الضلال والباطل ولا واسطة بينهما، فمن تخطى الحق الذي هو عبادة الله وقع في الضلال، فكيف تتحولون عن الحق والهدى إلى الضلال، وكما حقت الربوبية لله والألوهية لله ثبتت كلمة الله وحكمه ووعيده على الذين فسقوا وأصروا على الخروج من دائرة الحق والصلاح، وحق عليهم انتفاء الإيمان وعلم الله منهم ذلك، وقد يراد بالكلمة الوعيد بالعذاب، ويكون قوله ﴿ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ تعليلا للحقية بمعنى لأنهم لا يؤمنون. [1] أو هي أنهم لا يؤمنون بما يدعوهم إليه رسلنا من التوحيد والهدي مهما تكن الآية بينة والحجة ظاهرة وقوية.

ثم تأتي الحجة الثانية: بدء الخلق وإعادته بسؤال ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾، وتستمر الآيات في أسلوب الاستفهام والسؤال لإثبات

(١) انظر الكشاف ٢/ ٣٤٥.



البعث، لأنه أوقع في النفس، وأبلغ في التأثير، فطلب تعالى من رسوله ﷺ أن يسأل المشركين: من الذي خلق السموات والأرض وما فيهما؟ ولما كانوا لا يجيبون على هذا السؤال كما لم يجيبوا عن الأسئلة الأولى لإنكارهم البعث والمعاد لقن الله رسوله الجواب: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ ﴾ إذ القادر على بدء الخلق يكون قادراً على إعادته، ثم أمر رسوله أن يرشدهم إلى جهلهم في عدم الإذعان لذلك بالتعجب منهم في قوله: ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ أي: فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل، وعن الحق - وهو التوحيد- إلى الضلال وهو الإشراك وعبادة الأصنام؟.

ثم سألهم عن شأن من شؤون الربوبية: هل يستطيع أحد من شركائكم هداية الضال والحيران بوجه من الوجوه؟ وهذه الهداية هي تماما كالقدرة على الخلق والتكوين، كقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠]، ولما كانوا جاهلين بالجواب الحق في ذلك أو معاندين، أمره أن يجيبهم معرضا عن انتظار جوابهم، آتيا بجزئي الاستفهام أيضا فقال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة «يَهۡدِي» ولما كان قادراً غاية الإسراع، عبّر باللام فقال: « لِلۡحَقِّ» أراد ويهدي إلى الحق من يشاء، لا أحد ممن زعموهم شركاء، فالاشتغال بشيء منها بعبادة أو غيرها جهل محض.. [(١)]، أفمن يهدي إلى الحق وهو أحق أن يتبع فيما يشرعه، أم من لا يهدي غيره ولا يهتدي بنفسه إلا أن يهديه غيره وهو الله تعالى إذ لا هادي غيره، فأي شيء أصابكم حتى اتخذتم هؤلاء شركاء وجعلتموهم وسطاء بينكم وبين ربكم الذي لا خالق ولا رازق ولا هادي لكم سواه.

وبعد هذه الحجج على توحيد الربوبية والألوهية بيّن حال المشركين الاعتقادية بأن أكثرهم لا يتبعون في شركهم وعبادتهم لغير الله، ولا في إنكارهم للحق وتكذيب الرسول ﷺ إلا ضربا من ضروب الظن، وتقليد الآباء اعتقاداً منهم أنهم على الحق، ولكن قليلاً منهم من كان يعلم أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق والهدى، وسائر ما يعبد من الأصنام والمعبودات لا تضر ولا تنفع ولكنهم يجحدون بآيات الله عناداً واستكباراً وخوفاً على مصالحهم الدنيوية

---

(١) نظم الدرر ٣/ ٤٤١.



أن تضيع فيكونون تابعين بعد أن كانوا متبوعين.. وبعد أن بيّن الله حكمه في الظن بأنه لا يقوم مقام اليقين في شيء، ولا ينتفع به، ولا يجعل صاحبه في غنى عن اليقين فيما يطلب، علاوة على أن الله عليم بما كانوا يعملون بمقتضى عقائدهم الظنية والقطعية، فهو يحاسبهم على كل ذلك كتكذيبهم للرسول ﷺ مع قيام الأدلة القطعية على صدقه[1].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

١- إن الفطرة الإنسانية السليمة تقر بالربوبية، ولذلك يحتج الله تعالى على المشركين باعترافهم بربوبيته، والإقرار بالربوبية يقتضي الإقرار بالإلوهية، فالآية دالة على إثبات التوحيد عن طريق إيقاظ منطق الفطرة.

٢- يأتي تدبير الله على وفق تقديره الذي سبق به علمه سبحانه وتعالى، وتعلقت به إرادته، فالله هو الرزاق المتصرف في الملك والخلق والإيجاد، وحده الحي المميت المدبّر أمر الكون والعالم.

٣- ابتداء الحجج بقضية السؤال عمن يرزق لأنه أهم شيء يهتم به الإنسان في حياته ومعيشته، كما خص السمع والبصر لأنهما أهم الحواس، وأداة تحصيل العلوم، والتعبير بقوله «يملك» تعني هو المتصرف فيها، يهبها القدرة على أداء وظائفها أو يحرمها، ويصححها أو يمرضها، ويصرفها إلى العمل أو يلهيها، ويسمعها ويريها ما تحب أو ما تكره.

٤- الجاهليات القديمة (قبل الإسلام) مع شركهم خير من كثير من الناس حديثاً، من الملاحدة والطبيعيين والدهريين، فالسابقون مقرّون بالربوبية، ولكن هؤلاء ينكرون وجود الله، مع أنهم عرفوا أسراراً في الخلق كثيرة.

٥- المقصود من قوله «يخرج الحي من الميت...» إثبات القدرة الكاملة لله تعالى، وأنه خالق الموت والحياة، أياً كان المثال، لأن إطلاق النص القرآني وعمومه يمكن تطبيقه على ما يقرّه

(١) انظر: تفسير المراغي (بتصرف) ١٠ / ١٠٥.



العلم[١].

٦- لا يكون بعد الحق إلا الضلال، فإذا كان الله هو الحق المبين، فما سواه ضلال، لأن النقيضين لا يجتمعان، والحق واحد لا يتعدد، ومن تجاوزه فقد وقع على الباطل وضل التقدير.

٧- إن إجابة الكفار أن الله هو الخالق دليل على الفطرة، والإنحراف عنها، وفي حالة الانصراف عن الحق قدر الله في نواميسه أن الذين ينحرفون عن الفطرة لا يؤمنون، وفي قوله «حقت» وجبت لا لأنه يمنعهم من الإيمان، بل هم الذين يجحدون المقدمات التي في أيديهم ويصرفون أنفسهم عن الدلائل المشهودة لهم، ويعطلون منطق الفطرة القويم فيهم.

٨- في الآيات دليل على البعث، بطريق السؤال الذي جاء تقريره لله والرسول لأنها ليست من مسلماتهم، فكان الجواب لله لأنهم لا يعتقدون بالبعث.

٩- تقرر الآية لمن الأولوية بالاتباع، فالذي يهدي إلى الحق أولى ممن لا يهتدي هو بنفسه إلا أن يهديه غيره، كما تقرر الحقيقة القائمة على النظر والاستدلال وترك ما لا يقوم على ذلك.

١٠- النهي عن البت في الأمور دون دليل سوى الظن، لأن الظن لا يغني عن الحق القائم على دليل شيئاً.

مناسبة المقطع لمحور السورة:

المقطع يقرر إثبات التوحيد والبعث بدلائل الفطرة والنظر بطريق الاستفهام الذي يستنطق الفطرة السليمة، وينبه العقل بنفس الوقت بعدم الخروج عن دائرة المعقول، وهو يتماشى مع

(١) يقول المرحوم سيد قطب عن هذا: « وما يزال البشر يكشفون من أسرار الموت والحياة،، وإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي، وتحول العناصر في مراحل إلى موت أو حياة، ما يزيد مساحة السؤال وعمقه وشموله كل يوم وكل لحظة، وإن تحول الطعام الذي يموت بالطهي والنار إلى دم حي في الجسم الحي، وتحول هذا الدم إلى فضلات ميتة بالاحتراق، لأعجوبة يتسع العجب منها كلما زاد العلم بها. انظر: الظلال ١١/ ١٧٨٢.

محور السورة كلها القائم على إثبات العقائد، ويؤكد على عقيدة البعث وتصديق نبوة محمد ﷺ، وأنه مبلغ أمين عن الله تعالى.

أما مناسبة المقطع مع مقاطع السورة:

فالمقطع استمرار وتأكيد لما ورد في بقية المقاطع من إثبات العقائد بطريق آخر وهو الاستفهام الذي يكون أوقع في التأثير، مع تنوع الأسلوب.

المقطع التاسع

نفي التهمة عن القرآن والتحدي به وانقسام المشركين حوله

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [٣٧-٤٤].

المناسبة بين المقطع وما قبله:

تحدثت الآيات السابقة عن اعتقاد الكفار وإشراكهم في عبودية الله، وهي ليست مستندة على علم بل على الظن والهوى الذي لا يغني من الحق شيئاً، ثم أتبعه هنا بالأدلة القطعية في أمر القرآن، من أنه لا يصح أصلاً أن يؤتى به من دون أمر الله تعالى لما فيه من المعجزات، رداً على قولهم أنه مفترى، فاثبت تعالى أنه هو الآية الكبرى والحقيق بالاتباع لأنه هدى، فقوله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ ﴾ معطوف على قوله ﴿ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ ﴾التي ذكرت سابقاً رداً على مطلب المشركين من رسوله ﷺ إنزال آية معجزة غير القرآن، ثم طلبهم لقرآن غيره أو أن يبدله، وأبطل تعالى كل ما يعتقدون لاستناده على الظن والهوى، فعاد هنا إلى ترسيخ حقيقة أن القرآن وحي وأن محمداً ﷺ مبرؤ من الافتراء، فجاء التوضيح مشفوعا بالتحدي بأسلوب صارخ يستنهض الحماس لمعارضته، وبعد بيان موقفهم من قبل أن يأتيهم تأويله وظهور حقيقته ذكر حالهم بعد أن يأتيهم التأويل المتوقع بأنهم يكونون على فريقين: فريق يؤمن به، وفريق يستمر على كفره وعناده داعيا لهم للنظر في عاقبة من قبلهم من المكذبين.

التفسير الإجمالي:

عادت هذه الآيات لتقرر عقيدة الوحي وإثبات نبوة محمد ﷺ ، فالقرآن الكريم من أعظم مؤيدات الدعوة الإسلامية، وأنه لم يكن من شأن القرآن الكريم أن يفترى من دون الله ويختلق من غيره، إذ لا يصح عقلاً أن يفتريه أحد وينسبه إليه، ولا قدرة لأحد على ذلك لما في القرآن من علوم وحكم وتشريع عادل، وآداب اجتماعية، وأنباء غيوب متنوعة خارجة عن طوق البشر، فمثل ذلك لن يفترى... وعلى هذا فهو كلام الله أنزله يصدق الكتب المتقدمة عليه في النزول، كالتوراة والإنجيل، فيشهد أن الله تعالى أنزلها، ويشهد على ما تقدمه من الوحي للرسل صلوات الله عليهم، ويفصل ما كتب وأثبت من الشرائع والأحكام والعبر والمواعظ، وما كتبه الله على أمة الإسلام. [1] ولا ينبغي لعاقل أن يرتاب فيه لوضوح برهانه لأنه الحق والهدى، كما قال تعالى:﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢]، فهو من الله مربي الخلائق أجساماً وعقولاً وأخلاقاً وأرواحاً.. [2]

وبعد بيانه تعالى أن القرآن أجلّ من أن يفترى فنّد مزاعم هؤلاء المعاندين المتهمين للرسول ﷺ بالافتراء متعجبا من حالهم وسوء مقالهم، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾أم يقول هؤلاء المكذبون

(١) انظر تفسير المراغي، ١٠/ ١٠٧.
(٢) أيسر التفاسير ٢/ ٤٧٣

افترى محمد القرآن من قبل نفسه؟ وهو استفهام إنكار وتوبيخ، إنكار عليهم مع تقرير ثبوت الحجة، وأم هي المنقطعة التي بمعنى بل والهمزة، أي: بل أيقولون افتراه واختلقه، فالاستفهام للتقريع والتوبيخ[١].

فأمر نبيه أن يتحدى جميع المكذبين له، يتحداهم حتى يظهر عجزهم ويتبين ضعفهم فقال: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ أي إن كان الأمر كما تزعمون من أن محمداً افتراه فأتوا أنتم على جهة الافتراء بسورة مثله في البلاغة وجودة الصناعة، فأنتم مثله في معرفة لغة العرب وفصاحة الألسن وبلاغة الكلام، وادعو بمظاهريكم ومعاونيكم من استطعتم دعاءه والاستعانة به من قبائل العرب ومن آلهتكم التي تجعلونهم شركاء لله،.. إن كنتم صادقين في دعواكم أن هذا القرآن مفترى[٢].

وهذه الآيات من أقوى الدلائل والحجج على ألوهية القرآن ومصدريته وعلى صدق الرسول ﷺ وقد تكرر التحدي في عدة مواضع من القرآن الكريم مما يدل على الثقة الكبيرة بأنه كلام الله تعالى. [٣] وقد بان عجزهم مع امتلاكهم لآليات التحدي، وقد كانت الفصاحة من سجاياهم، وأشعارهم ومعلقاتهم، إليهم المنتهى في هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قبل لأحد به.. [٤] ولا يزال هذا التحدي قائما وسيبقى إلى قيام الساعة.

---

(١) انظر أيسر التفاسير، ٢/ ٤٧٣ وفتح القدير للشوكاني ٢/ ٥٠٧.

(٢) فتح القدير ٢/ ٥٠٧.

(٣) تحداهم أولاً بالقرآن كله ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ الإسراء: ٨٨، فعجزوا فنزل بالتحدي إلى عشر سور: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ هود: ١٣، فعجزوا أيضاً فتحداهم بسورة واحدة كما في هذه الآية من سورة يونس، وفي آية سورة البقرة: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ البقرة: ٢٣.

(٤) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ١٩٤.

وليس إعجاز القرآن في فصاحته وحسن نظمه فقط، بل في معانيه التي لا تنتهي، وفيما اشتمل عليه من أخبار الأمم السابقة والحوادث المستقبلية، ولذا دعا القرآن الناس إلى تدبره واكتشاف ما فيه من إعجاز، قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩]، فجاءت الآية هنا توبّخ المخالفين للقرآن أن يتدبروا آياته قبل أن يسارعوا في تكذيبه فقال:

﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ ﴾فتكذيبهم للقرآن غير مقبول لأنه صدر عن جهل لا عن علم، من قبل أن يتدبروا ما فيه أو يفهموه، وهذا شأن المعاند الجاهل، ثم تابعت الآية ﴿ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ ﴾ أي كذبوا أيضا بالقرآن قبل أن يأتيهم التأويل المنتظر، وهو ما يؤول إليه من الصدق في الإخبار بالمغيبات[١]، من حكاية ما سلف من أخبار المتقدمين وما سيحدث من الأمور المستقبلية.

وقيل في ﴿ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥ ﴾أي: كما أنهم كذبوا به بداهة قبل التدبر والمعرفة تقليداً للآباء كذلك كذبوه بعد التدبر ومعرفة علو شانه وإعجازه وضعف قواهم في المعارضة تمرداً وعناداً وبغياً وحسداً[٢]، وقيل إنهم كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه من وعيد الله بالعذاب، ولما يأتهم بعد ما يؤول إليه الوعيد إذ لو رأوا العذاب ما كذبوا[٣] ومثل ذلك كذبت الأمم السابقة بمعجزات الأنبياء قبل النظر فيها وتدبرها، لذلك وجّه تعالى المخاطبين للنظر في عاقبة الظالمين المكذبين للأنبياء والاعتبار بمصيرهم، فقد أهلكهم الله بشتى أنواع العذاب ونصر أنبياءه وأولياءه، كما قال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، فهؤلاء إن لم يتوبوا فسوف يحل بهم ما حل بغيرهم.

---

(١) روح المعاني، ٣/ ١٢١.

(٢) التفسير المنير ١١/ ١٧٩.

(٣) أيسر التفاسير ٢/ ٤٧٤.

وبعد الإنذار لهم ذكر أن المشركين في الحال والاستقبال فريقان فريق يصدق بالقرآن في نفسه ويعلم أنه حق، ولكنه يعاند بالتكذيب، وفريق يشك فيه لا يصدق به.. وقد يراد به الاستقبال، أي ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من سيؤمن بهذا القرآن ويتبعك.. ومنهم من سيصرّ على كفره ويموت على ذلك، والله أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ومن يستحق الضلالة فيضله، فالله أعلم بمن يفسد في الأرض بالشرك فلا أمل فيهم، وإن كذبك هؤلاء وأصروا فتبرأ منهم ومن عملهم، وقل لهم لي عملي وهو تبليغ الرسالة ولكم عملكم وهو الظلم والفساد، ثم إعلان مبدأ المسؤلية الفردية﴿ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ وهي مسؤولية كل إنسان بنفسه وعدم سؤاله عن ذنب غيره، ثم تتابعت الآيات في بيان مواقف المشركين، فيقول تعالى لنبيه: وأما موقف المكذبين فلا تعجب منه، فمنهم من يستمعون إليك إذا قرأت القرآن ولكنهم لا يعون، وإنما يسمعون دون تدبر، فلا تستطيع الإسماع النافع لقوم صموا آذانهم عن سماعك، ولا يعقلون ما يسمعون، ومنهم من ينظر إليك عند قراءتك القرآن نظرة إعجاب ولكنه لا يبصر نور الإيمان والقرآن، فلا تقدر على هداية هؤلاء لأنهم غير مبصرين بقلوبهم في الحقيقة، لفقدهم نعمة البصيرة المدركة ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦]، والله لا يظلم الناس فلا يسلبهم حواسهم وعقولهم التي يدركون الأشياء بها، ولكن الناس هم الظالمون لأنفسهم بتعطيلهم نعمة العقل وتنكرهم لهداية الدين، وهذا وعيد للمكذبين فإن عذابهم يوم القيامة عدل وحق لا ظلم فيه[١].

الهدايات المستنبطة من المقطع:

١- تقرير عقيدة الوحي وإثبات النبوة لمحمد ﷺ، التي من أدلتها تصديق القرآن للكتب السابقة وعدم مناقضتها، مما يدل على وحدة المصدر، وهذا التصديق نفسه معجزة مستقلة لموافقته للكتب المتقدمة، مع أن النبي ﷺ لم يطلع على ذلك ولا سأل عنه ولا اتصل بمن له علم بذلك.

(١) انظر التفسير المنير، ١١/ ١٨٤-١٨٥.

٢- القرآن لا ريب فيه من رب العالمين، لأن من مقتضى ربوبيته إنزال كتاب فيه تبيان كل شيء يحتاج إليه العبد في تربيته وكماله البدني والروحي والعقلي والخلقي[(١)].

٣- ثبوت التحدي بالقرآن، وثبوت العجز عن الإتيان ولو بسورة من مثله، ويصدق ذلك على أصغر سورة منه وهي سورة الكوثر، وما يزال التحدي والعجز ثابتين، دالين على إلوهية مصدره المتضمن الإعجاز بألفاظه ومعانيه.

٤- من سنن التحدي أن النبي يتحدى بما برع فيه القوم، فكان قوم قريش من ذوي الفصاحة والبلاغة، ومع ذلك عجزوا مجتمعين على أن يأتوا بأقصر سورة منه، لذلك فغيرهم أكثر عجزا منهم.

٥- عداوة المشركين للقرآن من باب من جهل شيئا عاداه، فقوله ﴿ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ ﴾ فالإحاطة إرادة ما هو كالحائط حول الشيء، فإحاطة العلم بالشيء العلم به من جميع وجوهه.. قال العلامة ابن الجوزي في زاد المسير: قيل لسفيان بن عيينة: "يقول الناس كل إنسان عدو ما جهل فقال: هذا في كتاب الله، قيل أين؟ فقال:﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ ﴾". [(٢)]

٦- الإخبار بالغيب الدال على إعجاز القرآن في قوله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ ﴾وتم كما أخبر تعالى فقد آمن عدد كبير من المشركين ولم يؤمن آخرون.

٧ – التهديد والوعيد للمكذبين المفسدين، وتقرير المسؤولية الفردية لكل إنسان وعدم أخذ أحد بذنب آخر، بإعلان براءة رسول الله ﷺ من أعمال الكافرين، فعمله الدعوة والتبليغ، وقد أدى الأمانة ولا يتحمل عاقبة أعمال المكذبين.

---

(١) أيسر التفاسير، ٢/ ٤٧٣.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي، ٤/ ٣٣، وقال كذلك: وقيل للحسين بن الفضل: هل تجد في القرآن من جهل شيئا عاداه؟ فقال: نعم، في موضعين قوله: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ ﴾ ، وقوله: ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ ﴾ الأحقاف:١١.

٨- أن عمى البصيرة حجب المشركين عن الإيمان فهم يستمعون للقرآن وينظرون للنبي وهو يتلو ويعلم، فهم لا ينتفعون بأسماعهم وأبصارهم للهداية فكأنها بحكم المعطلة لأنها لا تسمع الحق ولا تنظر إلى الحق فتهتدي وما ذلك إلا لعمى البصيرة، وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

٩- مواساة الرسول ﷺ بأنه أدى ما عليه وبلغ وليس عليه هدايتهم بل هدايتهم على الله، لأنه كما لا يقدر على إسماع من سُلب السمع، وإبصار من حرم البصر فلا يقدر أن يوفق هؤلاء للإيمان إذا أصروا على الكفر. وتعليم رسول الله ﷺ طريق الحجاج والرد على الخصوم المشركين[١].

١٠- انتفاء الظلم عن الله وإثباته للإنسان نفسه، فالله لا يظلم الناس بتعذيبهم من غير أن تقوم الحجة عليهم بإرسال الرسل،.. ولكن الناس يظلمون أنفسهم بالكفر والتكذيب وعدم استعمال حواسهم ومداركهم فيما خلقت له[٢].

مناسبة المقطع لمحور السورة

جاء في صلب محور السورة الذي يؤكد على تقرير عقيدة الوحي وإثبات النبوة لمحمد ﷺ مضيفا إليه أنه لا ينبغي لهذا القرآن المعجز أن يفترى وينسب لغير الله، متحديا الجن والإنس أن يأتوا بسورة من مثله، وأن المكذبين له - عنادا وجهلاً - لم يستعملوا حواسهم كما ينبغي لفرط حقدهم، وهم مسؤولون عما يؤول إليه أمرهم لأن الله لا يظلم أحدا.

مناسبة المقطع لبقية مقاطع السورة

المقطع متواصل مع ما مضى من المقاطع في إثبات عقيدة الوحي بالقرآن للرسول محمد ﷺ مؤكداً على ذلك بالتحدي به ولو بسورة واحدة فثبت التحدي وثبت إعجازه بالدليل القاطع.

---

(١) أيسر التفاسير، ٢/ ٤٧٧.

(٢) - تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل 37/ 9.

المقطع العاشر

سرعة زوال الدنيا وعذاب المشركين في الدارين

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [٤٥-٥٦].

المناسبة بين المقطع وما قبله:

بعد أن بينت الآيات السابقة أحوال الكافرين ووصفتهم بقلة الإصغاء وترك التدبر، وتكذيبهم القرآن الكريم والنبي ﷺ وكان عملهم عمل من يكذب بالجزاء ورأى هذه الدنيا الزائلة فقط، أتبعه هنا بالوعيد بالجزاء في الآخرة على ما كان منهم في الدنيا، ذاكراً الحشر وما فيه من أهوال تجعلهم يستقلون مدة مكثهم في الدنيا وأعمارهم وكأنها ساعة من نهار لا تنفع إلا للتعارف بينهم، ومن مشهد الحشر ينتقل السياق للحديث مع الرسول ﷺ بشأن المكذبين، بأن بعض هذا العذاب سيكون في الدنيا وتراه أيها الرسول وتقر عينك برؤيته، وبعضه آجلا في الآخرة، واتبعه ببيان الشبهة الأخرى لهم وهي أنهم كلما هددهم القرآن بنزول العذاب ومرّ زمان ولم يظهر قالوا: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ قاصدين القدح بنبوته فأجابهم تعالى

بأنه لا يقدر على ذلك إلا الله وأنه بشر مبلغ، ولو نزل العذاب ما الفائدة لكم فيه؟ فإن قلتم نؤمن عنده فالإيمان حينئذٍ باطل، فيكون العذاب في الدنيا وأشد منه في الآخرة، راداً على من يسأل استهزاءا ﴿ أَحَقٌّ هُوَ ﴾؟ للمعاد والعذابَ ملقنا نبيه الجواب مدعوما بالقسم: إِي وَرَبِّي.. وأنه ليس للظالم شيء يفتدي به والملك لله، وأن النبوة والبعث قائمة على الإيمان بالله القادر الحكيم.

التفسير الإجمالي:

تتحدث الآيات عن موقف المكذبين في مشهد من مشاهد يوم القيامة وهو الحشر، تبدو فيه الحياة التي شغلتهم وأخذت كل اهتمامهم سريعة قصيرة الأمد، ثم عادوا إلى مقرهم الدائم، وحينها يحسون بخيبة الأمل ويدركون الحقيقة المرة، فيطلب تعالى من نبيه: أن أنذرهم أيها الرسول يوم يجمعهم الله ويسوقهم إلى موقف الحساب والجزاء، وكأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا مدة قليلة ثم انقضت.. هذه الدنيا التي غرتهم بمتاعها الحقير الزائل ستزول بموتهم، وسيقدرون يوم القيامة قصرها، إنها ساعة من نهار لا تتسع لأكثر من تعارف - والساعة مثل للقلة - ثم انقضت حال كونهم يتعارفون[1]، أي: يعرف بعضهم بعضاً إذا بعثوا ثم ينقطع التعارف لشدة الأهوال، أو فهم يتعارفون.. [2] يقول ابن كثير: يعرف الأبناء الآباء والقرابات بعضهم لبعض كما كانوا في الدنيا ولكن كل مشغول بنفسه[3].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ ﴾ وجهان: **أحدهما**: كأن لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من النهار، **الثاني**: كأن لم يلبثوا في قبورهم إلا ساعة من النهار لقربه[4]،

(١) انظر تفسير المراغي ١٠/ ١١٣.

(٢) التفسير المنير، ١١/ ١٨٧.

(٣) مختصر تفسير ابن كثير، ٢/ ١٩٦.

(٤) النكت والعيون، ٢/ ٤٣٧.

قال بالأول الضحاك، وبالثاني ابن عباس[١].

ثم يعلن القرآن خسارتهم لأنهم كذبوا بالبعث والنشور، ومن ثم يخاطب تعالى نبيه: وإن أريناك بعض ما نعدهم من العذاب فذاك، أو نتوفينك قبل ذلك، فعلى كل حال مرجعهم إلينا جميعا بعد موتهم فيحاسبهم ويجازيهم بحسب سلوكهم في الدنيا.. [٢]، وقد تحقق ذلك وأراه الله ما نزل بهم من القحط والمجاعة، ونصره عليهم في أول معركة قتل فيها رؤساؤهم وصناديدهم في بدر وما بعدها حتى فتح الله عليه أم القرى.. وختم الآية بقوله:﴿ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ﴾ تقرير لمجازاتهم يوم القيامة بأعمالهم، وشهادته عليها كافية في وجوب تعذيبهم.

وكل قوم يُنظرون حتى يجيء رسولهم فينذرهم ويبين لهم، وبذلك يستوفون حقهم الذي فرضه الله على نفسه بألا يعذب قوما إلا بعد الرسالة، وبعد الإعذار لهم بالتبيين، وعندئذٍ يقضى بينهم بالقسط حسب استجابتهم للرسول[٣].

ويلتفت السياق إلى تحدي واستعجال الكفار﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ ﴾ مشككين بوقوعه واستهزاءاً وسخرية مما كان يعدهم من نزول العذاب.. إذ يقول المشركون: متى هذا العذاب الذي تعدنا به يا محمد إن كنت صادقا؟ وقد أرشده الله إلى الرد ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ﴾أي: قل لهم: لا أستطيع أن أدفع عن نفسي ضررا ولا أجلب لها نفعا، إلا إذا شاء الله، فكيف أقدر أن أملك ما استعجلتم به من العذاب، فما أنا إلا رسول مبلغ عن الله أوامره، ولست بإله حتى آتيكم بما تطلبون[٤]، ثم يلتفت السياق ليتحدث عن مصير المكذبين بأن لكل أمة من الأمم الذين أصروا على تكذيب رسولهم أجل لعذابهم - والأجل هنا العذاب والهلاك - فإذا جاء أجل الهلاك فلا يتأخر عنهم برهة ولا يتقدم. وفي هذا المعنى

(١) انظر معالم التنزيل للبغوي، ٢/ ٣٦٤.

(٢) النكت والعيون، ٢/ ٤٣٨.

(٣) في ظلال القرآن ١١/ ١٧٩٦.

(٤) قبس من نور القرآن، ١٥٤.

آيات كثيرة في القرآن الكريم.

ثم طلب تعالى من رسوله أن يسألهم: أخبروني عن حالكم وما يمكنكم أن تفعلوه إن أتاكم عذابه الذي تستعجلون به، وفي وقت مبيتكم بالليل أو وقت اشتغالكم بلهوكم ولعبكم، أو بأمور معاشكم بالنهار، فأي نوع من العذاب يستعجل منه المجرمون الكذابون؟ أعذاب الدنيا أم الآخرة؟ وأي من ذلك حماقة وجهالة.. لأنهم أحق بالخوف منه، والإيمان به يدفعه عنهم، ثم إذا وقع بالفعل أتؤمنون به حين لا ينفع الإيمان إذ صار ضرورياً بالمشاهدة والعيان، لا تصديقا للرسول ﷺ، وقال لهم على سبيل التوبيخ: الآن آمنتم به اضطرارا وقد كنتم تستعجلون بالعذاب تكذيباً به واستكباراً، فتجرعوا عذاب الله الدائم لكم أبداً، وما ذاك العذاب إلا جزاء ما صنعوا في الدنيا وبما كنتم تكسبون باختياركم الكفر والظلم والإصرار عليه، وليس في هذا الجزاء ظلم لأنهم لم يعودوا أهلاً للكرامة وجوار المولى في جنة الخلد[1].

وقد أقسم تبارك وتعالى على ذلك لأهمية الموضوع حين يكرر المكذبون السؤال ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: يستخبرونك يا محمد على جهة الاستهزاء والإنكار أحق ما وعدتنا به من أمر البعث بعد الفناء للحساب والجزاء؟ أو ما تعد به في العاجل والآجل؟ فقل لهم: نعم والله إنه لكائن لا شك فيه، ولستم بمعجزين ربكم لأنكم في قبضته وسلطانه.

وجاءت الآيات الكريمة لتصور لنا حال هؤلاء المجرمين المنكرين للبعث والجزاء، وحسرتهم وندامتهم على ما فرطوا في هذه الحياة الدنيا.. وتذكر أنهم يتمنون لو يفتدوا من عذاب الله بملئ الأرض ذهبا، ولكن هيهات أن يقبل منهم فداء أو تنفعهم شفاعة لأن القيمة هناك للأعمال لا للمال.. [2]، والآيات في منع قبول الفداء في الآخرة كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ

(١) انظر المراغي ١٠/ ١١٩-١٢٠.

(٢) قبس من نور القرآن الكريم، ١٥٧.

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ [آل عمران: ٩١]، وقوله: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ [المعارج: ١١-١٤]. ويذكر تعالى عن الكافرين أنهم لما رأوا النار أسروا الندامة أي: أخفوها ولم ينطقوا بها في ندمهم الشديد على عدم اتباعهم الرسول ﷺ وقضى الله بينهم بالعدل الإلهي والحال أنهم لا يظلمون بأن أخذوا بما لم يكتسبوا، ومن ثم يوجه تعالى نداء تحذير للمشركين أن له ما في السموات والأرض يتصرف في ملكه كيف يشاء، وما وعدكم به من العذاب حق ثابت لا يتخلف، وهو القادر على الإحياء والإماتة، وإحياء الكافرين وحشرهم ومجازاتهم، مقررا مرة أخرى مبدأ المعاد بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

الهدايات المستنبطة من المقطع

١- قصر أمد الحياة الدنيا الفانية بالنسبة إلى الآخرة الباقية، ولذلك استقل المكذبون المدة الطويلة إما لأنهم ضيعوا أعمارهم في الدنيا فجعلوا وجودها كالعدم، أو استقصروها للدهش والحيرة، أو لطول وقوفهم في المحشر، أو لشدة ما هم فيه من العذاب نسوا لذات الدنيا كأنها لم تكن[1]، ويرى سيد قطب أن قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أن هذا مجرد تشبيه لهذه الحياة الدنيا وللناس الذين دخلوا ثم خرجوا كأن لم يفعلوا شيئاً سوى اللقاء والتعارف[2].

٢- تقدير الكفار لقصر الحياة الدنيا في ذلك الموقف الرهيب معنى يتكرر في القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم:٥٥]، وقوله: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ

(١) فتح القدير للشوكاني، ٢/ ٥١٠.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١١/ ١٧٩٥.

أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤].

٣- الخسارة الكبرى لمن خسر الآخرة وكذب بالبعث، وهي خسارة لن تعوض لأن يوم القيامة لا يرجى القيام فيه بالبديل، ولا تنفع التوبة والندم، فجميع لذات الحياة الدنيا لا تساوي شيئاً أمام عذاب الآخرة، فمن باع آخرته بالدنيا فقد أعطى الكثير وأخذ القليل.

٤- يتعارف الناس في الآخرة كما يتعارفون في الدنيا، ولكنه تعارف عابر لهول ما يرون، قال الكلبي: يعرف بعضهم بعضا كمعرفتهم في الدنيا إذا خرجوا من قبورهم وهذا التعارف تعارف توبيخ وافتضاح، يقول بعضهم لبعض: أنت أضللتني وأغويتني وحملتني على الكفر، وليس تعارف شفقة ورأفة وعطف، ثم تقطع المعرفة إذا عاينوا أهوال يوم القيامة، كما قال:﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ [المعارج:١٠]، ويبقى تعارف التوبيخ وهو الصحيح لقوله تعالى:﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [سبأ:٣١-٣٣]، وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف:٣٨]، وقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [الأحزاب:٦٧]، فأما قوله ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ و﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون:١٠١]، فمعناه لا يسأل سؤال رحمة وشفقة، وقيل معنى يتعارفون: يتساءلون، أي يتساءلون كم لبثتم.. والله أعلم.(١)

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٨/ ٢٩٥.

٥- الله يتولى تدبير الأمور، فلا يستعجل قضاء الله، ففي الوقت الذي سرى فيه تعالى عن نبيه بأنه سيريه بعض ما ينزل بالكفار لكنه جعل في النهاية المرجع له، وهو شهيد على ما يفعلون في حياة الرسول وبعده.

٦- أن الله لا يعذب قوما حتى يبعث فيهم رسولاً يبلغهم وينذرهم ويبين لهم، حتى تقوم الحجة عليهم، وبذلك يستوفون حقهم الذي فرضه الله على نفسه بألا يعذب قوما إلا بعد الرسالة، كما قال تعالى:﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء:١٥]، وبعد الإعذار لهم بالتبيين، وعندئذ يقضى بينهم بالقسط حسب استجابتهم للرسول.

٧- تسلية الرسول ﷺ وحمله على الصبر حتى يؤدي رسالته بإعلامه بأنه سيعذب أعداءه، وفي ذات الوقت توضح الآيات حقيقة الألوهية والعبودية، فقضية عذابهم وتوقيته بيد الله، قد تكون في حياة الرسول أو بعد وفاته وتبقى مهمته التبليغ والإنذار، ولذلك أمره تعالى حين أعادوا السؤال في تحد واستعجال العذاب أن يجيبهم بأنه لا يملك ذلك لنفسه فكيف لغيره.

٨- لا يملك أحد من الخلق لنفسه فضلا عن غيره، ضرا يدفعه أو نفعا يجلبه إلا بإذن الله تعالى ومشيئته، وخاب الذين يعولون على الأولياء في جلب النفع لهم ودفع الشر عنهم[١]، وفي قوله «لا أملك لنفسي ضرا..» قدم الضر في الآية هنا وإن كان مأموراً أن يتحدث عن نفسه، لأنهم هم يستعجلون الضر، فمن باب التناسق قدم ذكر الضر، أما في موضع آخر في سورة الأعراف فقدم النفع في مثل هذا التعبير، لأنه الأنسب أن يطلبه لنفسه وهو يقول: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[٢] ﴾ [الأعراف:١٨٨].

(١) أيسر التفاسير، ٢/ ٤٨١.

(٢) في ظلال القرآن، ١١/ ١٧٩٧.

٩ - تقرير ربوبية الله تعالى لسائر المخلوقات في العالمين العلوي والسفلي. وتقرير مبدأ المعاد والدار الآخرة، فقد ركزت الآيات على البعث بأساليب متعددة، وبراهين متنوعة لما في الإيمان به من استقامة أمور الحياة والانضباط على المستوى الفردي والعام، لأنه صمام الأمان من كل فساد وظلم.

١٠- لا ينفع الإيمان ولا التوبة عند معاينة العذاب أو ملك الموت، وعظم عذاب يوم القيامة حتى أن الكافر ليود أن يفتدي منه بما في الأرض جميعا.

١١- جواز الحلف بالله إذا أريد تأكيد الخبر، و(إي) حرف إجابة تقترن دائما بالقسم نحو: إي والله، وإي وربي. وقد ورد القسم على اليوم الآخر في القرآن في ثلاثة مواطن يقول ابن كثير: "وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد: في سورة سبأ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ [سبأ: ٣]، وفي التغابن ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ(١) ﴾ [التغابن:٧].

مناسبة المقطع لمحور السورة

المقطع لا يخرج عن محور السورة الأصلي وهو التأكيد على العقائد، والإيمان بأهم ركن من أركانها وهو اليوم الآخر وما فيه من مشاهد كالحشر وعذاب الكفار والمعاد الذي ركز عليه المقطع، وهو ما أخبر به القرآن وبلغ به الرسول ﷺ.

مناسبة المقطع لبقية مقاطع السورة

يتناغم هذا المقطع مع بقية المقاطع التي تتحدث جميعها عن أركان العقيدة الثلاثة: التوحيد، والنبوة واليوم الآخر، فجاء هذا المقطع لتقرير عقيدة البعث وما يترتب عليه والتي لا بد من الإقرار بها.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير، ٢/ ١٩٧.

المقطع الحادي عشر

خصائص القرآن ومقاصده وخصوصية الله بالتشريع

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ٥٩ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٦٠ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٦١﴾ [٥٧-٦١].

المناسبة بين المقطع لما قبله:

بعد بيان قضايا العقائد الثلاث في الآيات السابقة: التوحيد والرسالة والبعث، والدلائل عليها والتحذير من التكذيب بها، جاء هنا دور النصح والتذكير بذكر التشريع العملي للقرآن مجملا لمقاصده الأربعة: الموعظة والشفاء والهدى والرحمة للمؤمنين، وفيها من إصلاح الناس ما يظهر للعاقل أنه حق وخير وصلاح بذاته، ولا يصح للعاقل أن يماري فيه، بل هو أعظم نعمة تقتضي الفرح والشكر على المنعم، وهو خير من كنوز الدنيا الزائلة، مبينا بعد ذلك التشريع بالتحليل والتحريم، بأنه حق لله تعالى فقط، وأن الأصل في الأشياء والأرزاق الإباحة، وأن ما يقوم به المشركون من تحليل وتحريم لا دليل لهم عليه، وأنه افتراء على الله لأنه لم يقم لهم دليل عقلي ولا نقلي على هذا التمييز بين الأمور، فهو منهج فاسد باطل قائم على الهوى، وأن ما عليه الأنبياء هو الحق والصواب، مع وعيد هؤلاء المفترين بالعذاب يوم القيامة، ومطمئناً النبي ﷺ بأنه والمؤمنين في كل شأن من شؤونهم الدينية والدنيوية هم في رعاية الله شهيدا عليهم فهو تعالى لا يغيب عن علمه مقدار ذرة في الأرض ولا في السماء لأنه المالك لكل شيء.

التفسير الإجمالي:

يخاطب تعالى الناس كافة بأنه جاءهم كتاب عن طريق الوحي لنبيه محمد ﷺ جامع لكل أنواع الخير والحكم، فيه سعادة الدنيا والآخرة.. ذلك الكتاب الذي تكذبون فيه، فيه الموعظة الحسنة التي تصلحكم، وفيه الشفاء والهدى والرحمة، فهو كفيل لحل كل المعضلات.

وقد تضمنت هذه الآية مقاصد القرآن وخصائصه وهي:

١ - كونه موعظة حسنة من عند الله، يجمع بين الترغيب والترهيب، فيبعث على فعل الحسن ويدعو إلى ترك القبيح مثل قوله تعالى:﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

٢ - وهو شفاء لما في القلوب من الشبهات والشكوك والنفاق والكفر وسوء الاعتقاد والخلق، كقوله تعالى:﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

٣ - وهو هاد إلى الحق واليقين والصراط المستقيم المحقق لسعادتي الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت: ٤٤].

٤ - وهو رحمة للمؤمنين خاصة ينجيهم من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان، ويحجبهم من النيران، ويرفعهم إلى درجات الجنان، وخص المؤمنين لأنهم المنتفعون بالإيمان[١].

فكأن الله تعالى يقول للناس بعد بيان هذه المقاصد الأربعة: فما بالكم أيها الناس تكذبون بما لم تحيطوا به علما من أخبار هذا الكتاب، التي هي من علم الغيب عن المآل والمآب، ولا تفكرون في آدابه ومواعظه وأحكامه وحكمه، وهداية نواميسه وسننه... [٢]

فبهذا الفضل الذي آتاه الله عباده، وبهذه الرحمة التي أفاضها عليهم من الإيمان، فبذلك

---

(١) التفسير المنير، ١١/ ٢٠٠، وانظر تفسير المنار/ ١١/ ٤٠٤.

(٢) تفسير المنار، ١١/ ٣٩٩-٤٠٠.



وحده فليفرحوا، فهذا هو الذي يستحق الفرح، لا المال ولا أعراض الحياة، إن ذلك هو الفرح العلوي الذي يطلق النفس من عقال المطامع الأرضية والأعراض الزائلة فيجعل هذه الأعراض خادمة للحياة لا مخدومة، ويجعل الإنسان فوقها وهو يستمتع بها لا عبدا خاضعا لها[١].

وقد من الله تعالى عليهم بالجمع لهم بين الفضل والرحمة فأمر رسوله أن يبلغ المؤمنين بأنه يحق لهم أن يفرحوا بفضل الله عليهم بنعمة الإيمان، وبالرحمة الخاصة بهم الجامعة لكل ما ذكر قبلها من مقاصد الشريعة.

وبعد أن بينت الآيات سعادة البشرية باتباع القرآن.. تعرض لأفعال الجاهلية في حياتها العملية البعيدة عن منهج الله واتباعا لأهوائهم واعتداءً على خصائص الله سبحانه وتعالى، ومزاولتهم أمر التحليل والتحريم فيما رزقهم الله، وهو من حق الله تعالى وحده، والأصل في الأرزاق وسائر الأشياء التي ينتفع بها الإباحة، فطلب من رسوله أن يقول لهؤلاء المشركين: أخبروني أيها الجاحدون للوحي ماذا ترون في رزق الله الذي أنزله إليكم؟ وكله من ذلك المقام الأعلى فإذا أنتم من عند أنفسكم ودون إذن من الله لكم تحرمون منه أنواعا، وتحلون منه أنواعا، والتحليل والتحريم تشريع، والتشريع حاكمية والحاكمية ربوبية وأنتم تزاولونها من عند أنفسكم![٢]

فهل الله أذن لكم في هذا التشريع بوحي منه، أم على الله تفترون؟ فإن قلتم أذن لنا بوحي فلم تنكرون الوحي وتكذبون به، وإن قلتم لا وحي ولكننا نكذب على الله فموقفكم إذا شر موقف إذ تفترون على الله الكذب والله تعالى يقول:﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ [يونس: ٦٠][٣].

وجاءت أمثلة هذا التحريم والتحليل في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ

(١) في ظلال القرآن، ١١/ ١٧٩٩.

(٢) السابق ١١/ ١٨٠٨.

(٣) انظر أيسر التفاسير، ٢/ ٤٨٥.

مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ [الأنعام:١٣٦]، وقوله:﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٣]، فذكرت الآيات مما حرموه البحيرة والسائبة، والثياب التي يحرمون للطواف بها، والحرث الذي جعلوه لآلهتهم، ومما أحلوه كالميتة التي استباحوها.

وبعد أن سجل سبحانه عليهم جريمة افتراء الكذب على الله أتبعه بالوعيد مع الإيماء إلى ما يكون من سوء وشدة عقابهم يوم القيامة إذا هم وقفوا بين يديه سبحانه، فما ظنهم في ذلك اليوم أيغفر لهم ويعفى عنهم ويتركون بلا عقاب؟ لا بل سينالون عقابهم الذي يستحقون ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴾ [النحل:١١٦].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ في كل ما خلقه لهم من الرزق، وكل ما شرع لهم من الدين ومن ذلك أن جعل الأصل الإباحة وحق التحريم والتحليل له وحده(١)، ولكن أكثر الناس لا يشكرون ذلك الفضل كما يجب، كما قال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣].

وقيل إن الله لذو فضل على الناس في كونه لا يعجل لهم العقوبة... ولكن أكثر الناس لا يشكرون وذلك لجهلهم وسوء التربية الفاسدة فيهم، وإلا العهد بالإنسان أن يشكر لأقل معروف وأتفه فضل(٢).

ومن شكر النعمة أن يظهر أثرها على الإنسان، فلا يترك الطيبات ولا يسرف، فقد أخرج أحمد عن أبي الأحوص عن أبيه قال: «أتيت الرسول ﷺ وأنا رث الهيئة فقال: هل لك مال؟ قلت: نعم، قال: من أي المال؟ قلت: من كل المال، من الإبل والرقيق والخيل والغنم، فقال:

---

(١) تفسير المراغي، ١١/ ١٢٥.

(٢) أيسر التفاسير، ٢/ ٤٨٥.



«إذا آتاك الله مالاً فلير أثر نعمته عليك وكرامته»[١].

وبعد بيان فضله على عباده وواجب شكرهم لها بالطاعة ذكّرهم بإحاطة علمه بشؤونهم وأعمالهم ما دق منها وما عظم في جميع ملكوت السموات والأرض، حتى يحاسبوا أنفسهم على تقصيرهم في ذكره وشكره وعبادته، وبدأ بخطاب أعظمهم شأنا في أعظم شؤونه «وما تكون» أيها الرسول في شأن: أي أمر من أمورك المهمة، الخاصة والعامة، التي تعالج بها أمر الأمة في الدعوة إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة،... وما تتلو من أجل ذلك الشأن من قرآن أنزل عليك، تعبدا به أو تبليغا له، ثم انتقل الخطاب إلى الأمة كلها في شؤونها وأعمالها ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ ﴾ ولا تعملون أي عمل خيرا كان أو شرا، شكرا كان أو كفرا وإن كان كمثقال الذرة إلا كنا رقباء مطلعين عليكم إذ تخوضون وتندفعون فيه فنحفظه عليكم لنجزيكم به، ولا يبعد عنه ولا يغيب عن علمه ولا يخفى عليه أقل شيء ولو كان مثقال ذرة في الوجود السفلي والعلوي وقدم النبي لعلو مقامه كقدوة، ثم أكد سبحانه ما سبق وبين إحاطة علمه فقال ﴿ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ ﴾ولا شيء أصغر من الذرة مما لا تبصرونه من دقائق الكون كما قال: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الحاقة:٣٨-٣٩]، ولا أكبر منها وإن عظم مقداره كعرشه عز وجل﴿ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ إلا وهو معلوم ومحصى عنده في كتاب عظيم الشأن تام البيان، وهو الكتاب الذي كتب فيه مقادير الموجودات كلها كمالاً للنظام.

ويرى سيد قطب أن في الآية طمأنة الرسول ﷺ ومن معه بأنهم في رعايته وولايته، لا يضرهم المكذبون الذين يتخذون مع الله شركاء، إنه ليس شمول العلم وحده، ولكن شمول الرعاية، ثم شمول الرقابة.. [٢]

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، ٤/ ١٣٧. والبيهقي في شعب الإيمان، ٤/ ١٣٦، وفتح الباري ١٠/ ٢٦٠.

(٢) في ظلال القرآن، ١١/ ١٨٠٣.

الهدايات المستنبطة من المقطع:

١- بيان فضل القرآن الكريم وعظمته ببيان مقاصده التي يحملها من الموعظة والشفاء للصدور، والهدى، والرحمة للمؤمنين. وموعظة القرآن وشفاؤه لما في الصدور من أمراض الكفر والنفاق وجميع الرذائل، وهدايته إلى الحق موجهة إلى أمة الدعوة وهم جميع الناس، والمؤمنون قد اختصوا بما تثمره هذه الصفات الثلاث من الرحمة لأنهم هم الذين ينتفعون بها[١].

٢- مَنّ الله تعالى على المؤمنين بالجمع بين الفضل والرحمة في آيات، وبكل منهما في آيات، وقال بعد الجمع بينهما في آيتين من سورة النور ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾، ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٢١، ١٤]، وأن دخول الباء على كل من الفضل والرحمة هذا يدل على استقلال كل منهما بالفرح به.. ويؤيده ما روي عن أنس مرفوعا: «فضل الله القرآن، ورحمته أن جعلكم من أهله»[٢]، وعن ابن عباس روايتان أحدهما: «إن فضل الله القرآن ورحمته الإسلام»، والثانية: «إن الفضل العلم، والرحمة محمد ﷺ»، وعن الحسن والضحاك وقتادة ومجاهد: «فضل الله الإيمان ورحمته القرآن»[٣] وكل هذه المعاني صحيحة في نفسها. والجامع لمعاني الروايات كلها إن فضل الله توفيقه إياهم لتزكية أنفسهم بالموعظة والشفاء والهدى التي امتاز بها القرآن، ورحمته ثمرته التي فضلوا بها جميع الناس فكانوا أرحمهم، بعد أن كانوا أعدلهم وأبرهم بهم...[٤]

٣- إن نعمة الهداية والإيمان بنزول القرآن أعظم من جمع المال، وعلى الناس أن يشكروا ربهم

---

(١) تفسير المراغي، ١٠/ ١٢٣.

(٢) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، برقم (٥٥١٢) ٥/ ٣٤٧.

(٣) انظر: تفسير القرطبي، ٨/ ٣٥٣.

(٤) انظر تفسير المنار، ١١/ ٤٠٥-٤٠٦.

على ما منّ عليهم، ولا ينخدعوا بما عليه الكثيرون من الاشتغال بجمع حطام الدنيا ونعيمها الفاني، وأن الفرح بما تفضل به الله، وبما رحم به المؤمنين هو أجدى وأنفع من كل ما يجمعونه من الأموال وسائر خيرات الدنيا لا محالة لأنه يؤدي إلى سعادة الدارين، وتلك الأموال سبب السعادة في الدنيا فقط.

٤- يستحب الفرح بالدين ويكره الفرح بالدنيا، فقد ذم القرآن الفرح في مواضع كقوله تعالى: ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ [القصص: ٧٦]، وقوله:﴿ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود: ١٠]، ولكن هذا مطلق فإذا قيد الفرح لم يكن ذماً لقوله تعالى:﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٧٠]، وها هنا قال تعالى﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ أي: بالقرآن والإسلام[١]، وروي أن النبي ﷺ قال: «من هداه الله للإسلام وعلمه القرآن، ثم شكا الفاقة كتب الله الفقر بين عينيه إلى يوم يلقاه، ثم تلا: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ ﴾الآية»[٢].

٥- تقرير الوحي وإثباته للنبي ﷺ ، وبيان أن التحريم والتحليل من حق الله تعالى وحده، وليس لأحد سواه من الخلق، ولو كان نبيا أو رسولاً، والرسول يبلغ ما يحرم الله وما يحلل عن طريق الوحي، وفيه حرمة الكذب على الله، وأن صاحبه مستوجب للعذاب، ووعيد من يفتري على الله الكذب فينسب الكذب إليه. وفي قوله تعالى ﴿ قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ الاستفهام تقريري مشوب بالإنكار عليهم، وفيه توبيخ من تجرأ على تبعيض الأحكام الشرعية فجعل بعضها حلالاً، وبعضها حراما، وهذا تنديد بمن يتهاون في الفتوى ولا يحتاط في وصف الأحكام فيحلل أو يحرم دون تثبت[٣].

٦- عبر عن إعطائهم الرزق بإنزاله لهم لأن أرزاقهم من حبوب وثمار وأنعام كلها متوقفة على

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٣٠٠.

(٢) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد، ١٠/١٤٦-١٤٨، والقرطبي في تفسيره ٨/ ٣٥٤، والطبراني في الأوسط.

(٣) التفسير المنير، ١١/ ٢٠٦.

المطر النازل من السماء، حتى سمى العرب ببني ماء السماء، وشاهده قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴾ [عبس:٢٤- ٢٥].

٧- إن الله ذو فضل على الناس في كل ما خلقه لهم من الرزق، وكل ما شرعه لهم من الدين ومن ذلك أن جعل الأصل فيما أنزله إليهم من الرزق الإباحة، وأن جعل حق التحريم والتحليل له وحده، كيلا يتحكم فيهم أمثالهم من عباده، كمن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وهو سبحانه لم يحرم عليهم إلا ما كان ضاراً بهم، وحصر محرمات الطعام في أمور معينة[١].

٨- حاجة البشرية إلى هدي القرآن وشرعه، بدليل ما كان عليه الناس في الجاهلية وما هم عليه الآن من فوضى التشريع، فقد حرمت الجاهلية كثيراً من الطيبات من الرزق من غير دليل يستندون عليه، مما يؤكد حاجة الناس إلى تشريع يقطع على ذوي الأهواء التلاعب بتلك القضية المهمة.

٩- وجوب مراقبة الله تعالى وحرمة الغفلة، لاطلاعه على ما تكنه النفوس، وشعور الإنسان بذلك يملأ النفس رهبة وخوفاً، فتكون باعثا على الطاعة ورادعاً عن المعصية، وفي التعبير بالإفاضة دليل على أن ما يُفيض الإنسان مهتما به مندفعا فيه، جدير بألا يغفل عن مراقبة ربه فيه واطلاعه عليهم وكذلك في التعبير بيعزب الدال على الخفاء والبعد دليل على أن ما شأنه أن يغيب ويبعد عنا من أعمالنا لا يغيب عن علمه تعالى[٢]. وذلك كله مثبت في كتاب وهو اللوح المحفوظ كما صرحت الآيات والأحاديث بذلك. [٣]

١٠- في الآية الأخيرة إشارة إلى ما في الوجود من أشياء لا تدركها الأبصار، وقد رؤي كثير منها في هذا العصر بالآلات التي تكبر المرئيات أضعافا مضاعفة، ولم يكن هذا مما يخطر في

(١) تفسير المراغي، ١٠/ ١٢٥.

(٢) المصدر السابق ١٢٨.

(٣) أيسر التفاسير، ٢/ ٤٨٦.

البال في عصر التنزيل، فهو من دقائق تعبير القرآن التي تظهر حكمتها للناس آنا بعد آن، وهي من أنواع الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.

مناسبة المقطع لمحور السورة

المقطع في بيان مقاصد القرآن في كونه موعظة وشفاء وهدى ورحمة للمؤمنين، يتماشى مع محور السورة القائم على تقرير عقيدة الوحي وإثبات نبوة محمد بطرق مختلفة ودفع الشبهات حوله، فجاء هذا المقطع لتقرير الوحي بإلزام المنكرين له من المشركين بالأدلة العقلية، التي لا ينكرها عاقل.

مناسبة المقطع لبقية مقاطع السورة

جاء هذا المقطع متماشياً مع بقية المقاطع الأخرى في تقرير الوحي وإثبات النبوة، بالإشادة بفضل القرآن وعظمته الخارجة عن طوق البشر، لما يتضمنه من مقاصد جمة تستوجب الفرح به وشكر الله تعالى على تلك النعمة، وخاصة نعمة اختصاص الله بالتشريع وتجنب أهواء البشر، مع التهديد والوعيد لمن ينكره بأنه مطلع على خفايا الأمور صغيرها وكبيرها.

المقطع الثاني عشر

قواعد الجزاء

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَـٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [٦٢-٧٠].

المناسبة بين المقطع وما قبله:

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى لعباده سعة علمه ومراقبته لعباده، وإحصاء أعمالهم وجزاءهم عليها، وذكّرهم بما يجب عليهم من شكره على تفضله عليهم ذكر هنا حال الشاكرين المتقين الذين لهم حسن الجزاء يوم القيامة(١)، ووصفهم بالأولياء لله المقربين منه لتقواهم، وهؤلاء لا خوف عليهم من شيء يستقبلونه، ولا يحزنون على ما يفوتهم من حظوظ الدنيا لأن قلوبهم معلقة بالله، ولما نفى الحزن عنهم زادهم بأن لهم البشرى في الحياة الدنيا بظهور دينهم وخذلان أعدائهم، وبالرؤية الصادقة، وفي الآخرة بالفوز بالجنة، وعداً لن يتبدل، ثم طمأن الرسول ﷺ إزاء شبهات المكذبين وتهديداتهم بأن لا يحزن مواساة له، لأنهم ضعفاء والعزة لله

(١) تفسير المراغي، ١٠/ ١٢٩.

جميعا فهو المالك للسموات والأرض مدللاً على عظمته بتذكير الناس بآثار قدرته وبديع صنعه وتدبيره لخلقه بما يصلحهم بأن جعل لهم الليل للراحة والنهار للعمل، وأعداؤه شركاء يتبعون الظن الذي لا يغني من الحق شيئا، مبينا وفاضحا لبعض شبهاتهم القائمة على الظن، في نسبة الولد إلى الله من غير دليل، بأنها افتراء على الله، كما افتروا عليه في التحريم والتحليل، متوعدا لهم بالعذاب الشديد يوم القيامة بسبب كفرهم.

التفسير الإجمالي:

يخبر تعالى مؤكداً الخبر بأداة التنبيه (ألا) وأداة التوكيد (إنّ) ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ﴾ وأولياء الله هم أحباؤه وأصفياؤه الذين اختارهم الله لجواره في دار الخلد والنعيم، فهؤلاء لا يخافون أن يفوتهم شيء من الدنيا فرحين بفضل الله ورحمته، ولا يحزنون عليه إذا فاتهم، أو أنهم لا يخافون من حصول ضارها، ولا يحزنون من فوات نافعها، أو أنهم لا يخافون ولا يحزنون يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، أو أنهم عند الموت لا يحزنون على مفارقة الدنيا ولا يخافون مما يستقبلون من أمور الآخرة بسبب ما تحمل لهم ملائكة الرحمة من البشارة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، وقد يكون المعنى شاملاً لجميع هذه المعاني ولمعان أخر يعلمها سبحانه[1]، وقيل لا خوف عليهم في الدنيا من مكروه يتوقع كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، أي لا تخافون أولياء الشيطان وأنصارهم.[2] ثم عرّف بهم تعالى ووصفهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ فهم آمنوا بالله ورسوله، ويتقون سخط الله فلا يتركون واجباً ولا يغشون محرما، فأولياء الله هم الذين جمعوا بين الإيمان الصحيح والعمل الصالح، وعن ابن عباس أنه

(١) الإنسان بين التقدير والتكليف، ٩٤.

(٢) التفسير المنير، 11/ 211.



قال: قال رجل يا رسول الله من أولياء الله؟ قال: «الذين إذا رُأووا ذُكِرَ الله» [(١)] .

ولما نفى الخوف والحزن عنهم زادهم مبيناً توليه لهم بعد أن شرح توليهم له، بأن لهم البشرى الكاملة الخاصة في الحياة الدنيا بالنصر والاستخلاف في الأرض ما داموا على شرع الله ودينه ﴿ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤٠- ٤١]، وقوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [النور: ٥٥].

ومن بشائر الدنيا لهم الرؤيا الصادقة في النوم عن عبادة بن الصامت قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ قال: «هي الرؤيا الصالحة، يراها المسلم أو ترى له»[(٢)]، وعن الرسول ﷺ قال: «ذهبت النبوة وبقيت المبشرات»[(٣)] وفي رواية: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات» قالوا وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة»[(٤)].

ومن البشائر بشرى الملائكة لهم بحسن الحال، وبالدرجة الرفيعة عند النزع، ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النحل: ١٦].

ولهم البشرى في الحياة الآخرة بحسن الثواب والنعيم المقيم في الجنة وتلقي الملائكة يبشرونهم بالجنة[(٥)] وهي الفوز العظيم، لأنه ثمرة الإيمان والعمل الصالح، كما قال

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد، ص ٢٤٨-٢٤٩، والنسائي في التفسير ١/ ٥٧١، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٦، وله شواهد كثيرة.

(٢) رواه الترمذي في الرؤيا، باب ذهبت النبوة وبقيت المبشرات ٦/ ٥٥٤، وابن ماجة في الرؤيا برقم (٣٨٩٨) ٢/ ١٢٨٣، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ٢/ ٣٤٠، ٤/ ٣٩١، والدارمي في الرؤيا ٢/ ١٢٣، والإمام أحمد في المسند ٢/ ٣١٥، ٣٢١، وانظر تفسير البغوي معالم التنزيل ٢/ ٣٦٩.

(٣) رواه الترمذي في سننه (٢٢٧٢) ٤/ ٥٣٣، والدارمي (٢١٨٣) ٢/ ١٦٦، وابن ماجة ٢/ ١٢٨٣، وأحمد ٦/ ٣٨١.

(٤) رواه البخاري في التعبير، باب المبشرات ١٢/ ٣٧٥، والمصنف في شرح السنة ١٢/ ٢٠٢.

(٥) التفسير المنير، ١١/ ٢١٢.



تعالى:﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾[التوبة: ٢١].

ومنها الذكر الحسن، وعن أبي ذر الغفاري ﷺ أنه قال: يا رسول الله الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه، ويثنون عليه به فقال: "تلك عاجل بشرى المؤمن"[١].

وهذه البشرى وعد من الله لا تبديل لكلمات الله فلا تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده كما قال: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾[ق: ٢٩].

ولما تقدمت البشرى بنفي الخوف والحزن عن الأولياء علم أن المعنى: هذه البشرى للأولياء وأنت رأسهم فلا تخف، فعطف عليه قوله: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ في نحو قولهم: إنهم يغلبون، وفي تكذيبك والاستهزاء بك وتهديدك فإن ذلك قول يراد به تبديل كلمات الله الغني القدير، وهيهات ذلك من الضعيف الفقير فكيف بالعلي الكبير! وإلى هذا يرشد التعليل لهذا النهي بقوله: «العزة لله» أي الغلبة والقهر، وتمام العظمة لله الملك الأعلى حال كونها جميعا، فسيذلهم ويعز دينه والمراد بذلك التسلية عن قولهم الذي يؤذونه به[٢] وهو وعد بالنصر على أعدائه، وبشرى له فلا يبالي بما يتفوهون لأن العزة لله ولرسله كما وعد تعالى كما قال: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقد نهى الله رسوله عن الحزن من قول الكفار في آيات أخرى مثل:﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[الأنعام:٣٣]، وقد ختم الله الآية بالسمع له والعلم به وقصرهما عليه، فهو السميع لما يقولون، وهو العليم بما يفعلون من إيذاء وكيد، وسوف يجازيهم على ذلك بإذلالهم وإحباط أعمالهم.

ثم الدليل على أن العزة لله جميعاً، وكون الجزاء بيده بأن لله كل ما في السموات والأرض

---

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب (٢٦٤٢) ٤/ ٢٠٣٤، وأحمد (٢١٤٢، ٢١٤٣٨، ٢١٥١٥) ٥/ ١٥٦، ١٥٧، ١٨٦. كما روا ابن حبان في صحيحه في عدة مواضع، وراجع مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٠٠.

(٢) نظم الدرر، ٣/ ٤٦٢.



عبيدا مملوكين له،... والعبادة للمالك دون المملوك وللرب دون المربوب، كما بين تعالى أن هؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله ويستغيثون بهم في الشدائد ويقدمون لهم النذور والقرابين فهم لا يتبعون شركاء له في الحقيقة يدبرون أمور العباد ويكشفون الضر، إنما اتبعوا ظنونهم الفاسدة وأوهامهم الباطلة فقاسوا الرب في تدبير أمور عباده على الملوك وجهلوا أن أفعاله تعالى تجري بمقتضى مشيئته الأزلية... وأن جميع أوليائه وأنبيائه وملائكته عبيد مملوكون له، وما هم باتباع هذا الظن إلا متخرصون قائلون بغير علم بما يقولون، ثم أقام البرهان على مضمون ما قبله من نفي الشركاء له في الخلق والتقدير، بأن جعل الوقت قسمين بمقتضى علمه ومشيئته بدون مساعد ولا شفيع، فجعل الليل مظلما لأجل أن تسكنوا فيه بعد طول التعب والنصب والحركة للمعاش، وجعل النهار مضيئا ذا إبصار(١) لتنتشروا في الأرض وتقوموا بجميع أعمال العمران والكسب والشكر للرب. وقد جاء بمعنى الآية قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ [الإسراء:١٢]. (٢)

وفي هذا من الدلائل والآيات على أن المعبود بحق هو الذي خلق الليل والنهار، وخالف بينهما، لقوم يسمعون ما يتلى عليهم سماع تدبر واعتبار.. كما قال تعالى:﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص: ٧١-٧٢].

ثم ذكر تعالى نوعا آخر من أباطيلهم وشبهاتهم وهو زعمهم أنه تعالى اتخذ ولداً كما قال اليهود والنصارى مثل ذلك، يقول المشركون: الملائكة بنات الله، وقالت اليهود عزير ابن

(١) مبصراً: أي مضيئا لتهتدوا به في حوائجكم، والمبصر: الذي يبصر، والنهار يُبصر فيه، وقال مبصرا تجوزا وتوسعا على عادة العرب... انظر تفسير القرطبي ٦/ ٣٠٥.

(٢) انظر: تفسير المراغي، ١٠/ ١٣٣.



الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، فنزّه سبحانه نفسه عما لا يليق بربوبيته وألوهيته باتخاذ الصاحبة والولد وعن الشركاء والأنداد لغناه المطلق، فأكد هذا التنزيه﴿ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ﴾ فهو في غنى عن الخلق وعن الولد، فكل ما في الوجود من العالمين العلوي والسفلي ملك له، والجميع في حاجة إليه، كما أن اتخاذ الولد من صفات المخلوقين لحاجتهم لذلك، «والولد يقتضي المجانسة والمشابهة والله تعالى لا يجانسه شيء ولا يشابهه شيء»[1]، كما أنه ليس عندكم من الدلائل والبراهين ما يؤيد هذا القول فهو بلا علم ولا وحي، وأكد ذلك بأسلوب الاستفهام الإنكاري ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، أي: أتقولون على الله قولا لا حقيقة له، وتنسبون إليه تعالى ما لا يصح عقلا وواقعا نسبته إليه، وهنا استفهام يراد به التوبيخ والتقريع، أو الإنكار والوعيد الأكيد والتهديد الشديد[2]، فهذه كذبة كبرى لا فلاح ولا نجاة لمن يقول بها، ولذلك توعدهم بعدها بأن أمر الرسول ﷺ أن يقول لهؤلاء المفترين بأن الذين يفترون على الله بنسبة الشركاء، واتخاذ الولد، وبدعوى اطلاع الأولياء على أسرار خلقه... لا يفوزون بشفاعة هؤلاء، ولا ينجون من عذاب الآخرة، وتمتعهم بحظوظ الدنيا - كما هو مشاهد عند بعضهم - متاع قليل وقصير مُلئ بالمنغصات والمكدرات، ثم مصيرهم إلى الله الذي حكم عليهم بالعذاب الشديد.. فلهؤلاء متاع في الدنيا حقير قصير يتلهون به، ومهما يبلغ من العظمة -كالمال والجاه- فهو قليل بالنسبة إلى ما عند الله في الآخرة للصادقين المتقين. يقول سيد: «مجرد متاع واطٍ، وهو متاع قصير الأمد، وهو متاع مقطوع لأنه لا يتصل بالمتاع اللائق بالبشرية في الدار الآخرة، إنما يعقبه ﴿ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ ﴾ ثمرة للانحراف عن سنن الله الكونية المؤدية إلى المتاع العالي اللائق ببني الإنسان[3].

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٣٠٦.

(٢) التفسير المنير، ١١/ ٢٢١.

(٣) في ظلال القرآن، ١١/ ١٨٠٧.

الهدايات المستنبطة من المقطع

١- ولاية الله بطاعته وموافقته في محابه ومكارهه، وتقواه في أداء الفرائض واجتناب النواهي، فالأولياء هم الذين اجتمع لهم: الإيمان والتقوى، ولهم علامات ذكرت في أحاديث منها:

قال عمر ﷺ : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن من عباد الله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء تغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى «قيل يا رسول الله خبّرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم؟ قال: «هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطون بها، فوالله إن وجوههم لنور وإنهم على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، ثم قرأ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾، يقول سيد قطب رحمه الله: إن أولياء الله الذين يتحدث عنهم السياق هم المؤمنون حق الإيمان المتقون حق التقوى، والإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل والعمل هو تنفيذ ما أمر الله به، واجتناب ما نهى الله عنه،... لا كما يفهمه العوام من أنهم المهبولون المخبولون الذين يدعونهم بالأولياء[1].

٢- البشرى هي ما يكرم الله به أولياءه، وقد جمعت بين سعادتي الدنيا والآخرة، ففي الدنيا النصر والعز والثناء الحسن، وفي الآخرة الفوز بالجنة، ومن البشارات الرؤيا الصالحة في النوم يراها الولي أو ترى له، وبشارة الله للنبي ﷺ وللأولياء ونفي الحزن إيماء إلى الوعد بنصره ونصر من آمن به من أوليائه وأنصار دينه على ضعفهم وفقرهم، في الوقت الذي كان أعداؤهم يغترون بقوتهم في مكة بكثرتهم.

٣- في قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ يفرد الله بالعزة هنا، ولا يضيفها إلى الرسول والمؤمنين - كما في الموضع الآخر- لأن السياق سياق حماية الله لأوليائه، فيفرده بالعزة جميعاً، - وهي أصلا لله وحده، والرسول والمؤمنون يستمدونها منه- ليجرد منها الناس

(١) في ظلال القرآن، ١١/ ١٨٠٤.

جميعاً، ومشركو قريش العتاة داخلون في الناس، أما الرسول ﷺ فهو في الحماية الإلهية التي أضفاها على عباده، فلا يحزن لما يقولون.. فكل ذي قوة من خلقه داخل في سلطانه وملكه[1].

٤- على المؤمن الداعي إلى الله تعالى أن لا يحزنه أقوال أهل الباطل وأكاذيبهم حتى لا يثنيه عن دعوته، وليعلم أن العزة لله جميعا وسوف يعزّه بها ويذل أعداؤه.[2]

٥- شركة الله في الربوبية محال، وما يدّعيه المشركون شركاء ليسوا حقيقة شركاء، لأنهم يتبعون الظن، وكل قول أو دعوى لا يقام عليه دليل وبرهان قاطع فهو جهالة لا قيمة لها.

٦- مظاهر قدرة الله تعالى في الخلق والتدبير كافية لإثبات العبادة له ونفيها عمن سواه، والليل والنهار من مظاهر قدرة الله ووحدانيته، وفي الآيات تذكير بنعمة خلق الليل والنهار التي يغفل عنها كثير من البشر، فإنه لو استمرت الحياة فكانت كلها ليلاً لتعطلت مصالح الناس، وتعطلت أسباب العيش، فلم ينبت نبات ولا ثمار ولم يعش إنسان ولا مخلوق لأنها جميعا تحتاج إلى الشمس، ولو كانت الحياة كلها نهاراً لما أمكن العيش، لأن الإنسان يحتاج إلى الراحة والهدوء النفسي... ولولا غياب الشمس لاحترقت كل الزروع والثمار[3]، ولهذا كان تعاقب الليل والنهار نعمة أشار إليها في قوله تعالى:﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص:٧١-٧٢].

٧- كفر من ينسب إلى الله أي نقص كالولد والشريك أو العجز، وادعاؤه سفاهة وجهالة، ففي قوله﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يقول البيضاوي: «وفي هذا دليل على أن كل

(١) المصدر السابق

(٢) أيسر التفاسير، ٢/ ٤٨٠.

(٣) قبس من نور القرآن، ١٦٦.

قول لا دليل عليه فهو جهالة، وأن العقائد لا بد لها من دليل قاطع، وأن التقليد فيها غير سائغ»، فالله هو الغني ولا حاجة له إلى شيء من هذه المنافع فهو مستغنٍ أزلاً وأبدا.

٨- أن ما يظن أنه فلاح بالحصول على منافع الدنيا المادية والمعنوية فهو لا يعتد به بالنسبة إلى ما عند الله من حظ عظيم ونعيم مقيم[1]، لأن الفلاح الحقيقي هو الذي ينشأ من مسايرة سنن الله الصحيحة المؤدية إلى الخير وارتقاء البشر وصلاح المجتمع.. ودل قوله ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ على إفلاس الكافر وخسارته المحققة يوم القيامة.

مناسبة المقطع لمحور السورة

المقطع يدور ضمن المحور الأصلي للسورة في تقرير عقيدة الوحي، بالبشارة للنبي ﷺ ومن تبعه بأنهم أولياء الله لتصديقهم للوحي والعمل بكل ما جاء به القرآن الكريم، ومن ثم نفي الحزن عنهم في الدنيا والآخرة، بخلاف المكذبين والمفترين على الله جهلاً بأنهم سينالهم العذاب لأنهم يتبعون الظن الذي لا دليل عليه.

مناسبة المقطع لبقية المقاطع

المقطع يواصل إثبات العقائد في التوحيد والنبوة والمعاد، بدفع شبهات المشركين حول الوحي ويسفه اتخاذ الشركاء ومزاعمهم بنسبة الولد إليه، وإقامة الأدلة على ذلك بأن الله خالق لكل ما في السموات والأرض والكل ملكه وتحت سلطانه، وأن من آياته الليل والنهار لدوام الحياة، كما نزّه نفسه عن اتخاذ الولد لغناه عن ذلك.

---

(١) تفسير المراغي، ١٠/ ١٣٦.

المقطع الثالث عشر

نصر الله لأوليائه من الأنبياء وأتباعهم

يتضمن المقطع ثلاث قصص للأنبياء يتخللها خطاب للرسول ﷺ من قوله تعالى: ﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ [٧٠ – ١٠٠].

المناسبة بين المقطع وما قبله

انتهى المقطع السابق بإعلان ولاية الله لمن آمن وعمل صالحاً، ونصر الله لأوليائه المتقين، ثم إعلان عاقبة الذين يفترون على الله الكذب وينسبون إليه شركاء بأنهم لا يفلحون، بل ينالون متاع الدنيا الزائل، مع إنذارهم بأنهم سيرجعون إلى الله ويذيقهم العذاب الشديد بما كسبت أيديهم وذلك بعد تطمين الرسول ﷺ والطلب منه ألّا يحزن لقولهم، وبأن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون... فاستمر السياق بتكليف جديد: أن يتلو عليهم طرفا من نبأ نوح وموسى وهارون، ويونس بما يناسب المعاني القريبة فيها بطريقة مناسبة لموقف المشركين في مكة من النبي ﷺ والقلة المؤمنة معه، واعتزاز هذه القلة المؤمنة بإيمانها في وجه الكثرة والقوة والسلطان، فيعرض المقطع الحلقة الأخيرة من قصة نوح، بالتحدي لقومه بعد الإنذار الطويل والتذكير الذي يقابل بالتكذيب، وإبراز هذا التحدي بالاستعانة بالله وحده والتوكل عليه، ثم ما كان من نجاته ومن معه واستخلافهم في الأرض وهلاك المكذبين له وهم العدد الكبير من أصحاب القوة، ومن قصة موسى وهارون مرحلة التكذيب والتحدي، وينهيها بمشهد غرق فرعون وجنوده، ملما بالمواقف ذات الشبه بموقف المشركين في مكة من الرسول ﷺ والقلة المؤمنة معه، ويتخلل ذلك خطاب للرسول ﷺ تسلية له وتثبيتا بما حدث للرسل قبله فيهون عليه ما يتعرض له من الشدائد، ببيان علة التكذيب بأنه ليس ذلك لنقص في الآيات، بل هي سنة الله في المكذبين قبلهم وفي خلقه باستعدادهم للخير والشر والهدى والضلال، ثم إلمامة

سريعة بقصة يونس وإيمان قومه بعد أن كاد العذاب ينزل بهم لعل فيها حافزاً للمكذبين قبل فوات الأوان، والخاتمة بذكر سنة الله التي مضت في الآخرين وهلاك المكذبين ونجاة الرسل ومن معهم حقا كتبه الله على نفسه وجعله سنة ماضية لا تتخلف، أما أمر الإيمان فهو متروك للاختيار لا يكره الرسول عليه أحد[1].

وجاء المقطع في ثلاث مجاميع، في كل مجموعة طرف من قصة أحد الأنبياء عليهم السلام كما يلي:

المجموعة الأولى - قصة نوح عليه السلام في تحديه لقومه

﴿ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةً ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٧٣ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٧٤ ﴾ [٧٠ - ٧٤].

التفسير الإجمالي

يقول تعالى لنبيه ﷺ اخبرهم واقصص عليهم أي: كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك خبر نوح مع قومه[2]، الذين كذبوه كيف أهلكهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ١١/ ١٨١٩.

(٢) جاء تعريف قوم نوح بطريق الإضافة إلى ضمير نوح في قوله: «إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ» إذ ليس ثمة طريق لتعريفهم غير ذلك، إذ لم يكن لتلك الأمة اسم تعرف به، فإنهم كانوا أمة واحدة في الأرض فلم يحصل داع إلى تسميتهم باسم جد أو أرض، ولم يكن ما يدعو إلى تمييزهم، إذ ليس ثمة غيرهم، إلا ترى حكاية الله عن هود في قوله لقومه: ﴿ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٍ ﴾ الأعراف:٦٩، ولما حكى =

ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك[1].

أتل عليهم خبره الذي له شأن وخطر مع قومه المغترين بعزة الأموال والأعوان، وما جرى له مع قومه الذين كفروا بما جاء به كما فعل كفار قريش وأمثالهم حين قال لقومه: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي ﴾ أي: عظم عليكم وشق وثقل، ومنها قوله تعالى﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة:٤٥]، ويقال: تعاظمه الأمر[2]، والمقام بفتح الميم: الموضع الذي يقام فيه، وبالضم: الإقامة، وقد اتفق القراء على الفتح، وكنى بالمقام عن نفسه كما يقال: فعلته لمكان فلان، أي لأجله، ومنه ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ [الرحمن:٤٦]، أي: خاف ربه، ويجوز أن يراد بالمقام المكث، أي: شق عليكم مكثي بين أظهركم، ويجوز أن يراد بالمقام: القيام لأن الواعظ يقوم حال وعظه، والمعنى: إن كان كبر[3] عليكم قيامي بالوعظ في مواطن اجتماعكم وكبر عليكم تذكيري بآيات الله[4] وحججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وعزمتم على قتلي وطردي فإني اعتمدت على الله في دفع ما قصدتموني ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ والواو بمعنى (مع) والمعنى: فأجمعوا أمركم مع شركائكم[5].

وهنا يتحدى نوح قومه ويريد المفاصلة ووضع حدا لتمادي قومه في غيهم فيقول لهم: إن

= عن صالح إذ قال لقومه: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ ﴾ [الأعراف:٧٤]، انظر: التحرير والتنوير م٦، ١١/ ٢٣٦.

(١) مختصر تفسير ابن كثير، ٢/ ٢٠١.

(٢) تفسير الزمخشري، ٢/ ٣٥٩.

(٣) يستعار الكبَر ليكون وصفا من أوصاف الذوات أو المعاني،.. فقد يكون مدحاً كقوله: «وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين»، ويكون ذماً كقوله: «كبرت كلمة تخرج من أفواههم» ويستعار الكبر للمشقة كقوله تعالى:﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ الشورى:١٣، وقوله: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ﴾الأنعام:٣٥، وكذلك هنا انظر: التحرير والتنوير، ١١/ ٢٣٦

(٤) فتح القدير، ٢/ ٥٢٥.

(٥) تفسير الكشاف للزمخشري، ٢/ ٣٥٩، ومعالم التنزيل للبغوي، ٢/ ٣٧٥.

كان الأمر بلغ منكم مبلغ الضيق فلم تعودوا تتحملون بقائي فيكم ودعوتي لكم، وتذكيري إياكم بآيات الله، فأنتم وما تريدون وأنا ماض في طريقي لا أعتمد إلا على الله عليه وحده، فهو حسبي دون النظراء والأولياء وتدبروا أنتم مصادر أمركم وموارده، وخذوا أهبتكم متضامنين، وليكن أمركم واضحا في نفوسكم وما تعتزمونه مقررا لا لبس فيه ولا غموض ولا تردد فيه ولا رجعة، بل أظهروه لي وتبصروا فيه وافصلوا حالكم معي، ونفذوا ما اعتزمتم بشأني ولا تنظرون، أي: لا تمهلوني للأهبة والاستعداد فكل استعدادي هو اعتمادي على الله وحده دون سواه[1]، والغمة إما ضيق الأمر الذي يوجب الغم، أو المغطى من قولهم: غم الهلال إذا استتر[2].

فإن توليتم أي: أعرضتم عن تذكيري وكذبتم بعد دعائي إياكم وتبليغ رسالة ربي إليكم فلن تضروني، فأنتم وشأنكم، فما كنت أسألكم أجراً على الهداية فينقص أجري بتوليكم، فإن ثواب عملي وجزائي على الله ربي الذي أرسلني إليكم، وأمرني أن أكون من المسلمين أي المنقادين الممتثلين لما أدعوكم به، والإسلام هو دين الأنبياء جميعا[3]، وإن تنوعت شرائعهم التفصيلية كما

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (بتصرف قليل) ١١/ ١٨١١.

(٢) النكت والعيون، تفسير الماوردي، ٢/ ٤٤٣، وقال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ أما الأمرالأول فالقصد إلى إهلاكه، يعني فأجمعوا ما تريدون من إهلاكي واحتشدوا فيه وابذلوا وسعكم في كيدي... وأما الأمر الثاني ففيه وجهان، أحدهما: أن يراد مصاحبتهم له وما كانوا فيه من الحال الشديدة عليهم المكروهة عندهم، يعني: ثم اهلكوني لئلا يكون عيشكم بسببي غصة وحالكم عليكم غمة: أي غماً وهماً، والغم والغمة كالكرب والكربة، والثاني: أن يراد به ما أريد بالأمر الأول، والغمة الستر من غمه إذا ستره، ومنها قوله ﷺ: "ولا غمة في فرائض الله" أي لا تستر ولكن يجاهر بها، يعني ولا يكن قصدكم إلى إهلاكي مستورا عليكم ولكن مكشوفا مشهورا تجاهرونني به. انظر: الكشاف ٢/ ٣٥٩-٣٦٠

(٣) وهو ما ذكره القرآن عنهم عليهم السلام، فهذا نوح يقول: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ وإبراهيم الخليل: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ البقرة: ١٣١-١٣٢، وقال يوسف:=

قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨]، لأن الأصل واحد، فقد روي أن النبي ﷺ قال: «الأنبياء أولاد عَلات»[1] أي: أننا أولاد من أمهات شتى والأب واحد وديننا وإيماننا واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت شرائعنا.

ويعجل السياق بإعلان نجاة نوح ومن معه حين كذبوه وأصروا على تكذيبه بعد أن أقام عليهم الحجة بقوله وعمله على حقيقة دعوته، فنجيناه هو ومن معه في السفينة التي كان يصنعها بأمرنا، ثم جعلنا الناجين مع نوح في السفينة خلائف أولئك الهالكين بالطوفان في الأرض وسكناها، تعيد تعميرها وتجديد الحياة فيها وتأدية الدور الرئيسي فترة من الزمان، وهذه عاقبة كل من كان على شاكلتهم، وعاقبة المؤمنين بالنصر في نهاية الأمر.

وبعد ما ذكر من خبر نوح عليه السلام مع قومه بين تعالى عبرة أخرى من عبر مكذبي الرسل ليعتبر أهل مكة ويعلموا أن لله سننا لا تتبدل فيتقوا مثل تلك العاقبة التي حلت بمن قبلهم من المكذبين، فيشير السياق بإجمال إلى أن الله بعث رسلا بعد نوح إلى أقوامهم جاءوا بالبينات،

=﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ يوسف: ١٠١، وقال موسى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ : يونس:٨٤، وقال السحرة: ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ الأعراف:١٢٦، وقالت بلقيس: ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ النمل:٤٤، وقال تعالى واصفاً رسالة الأنبياء: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ ﴾المائدة: ٤٤، وقال تعالى عن الحواريون: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ المائدة: ١١١، وقال محمد سيد البشر ﷺ امتثالاً لقول الله: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ الأنعام: ١٦٢- ١٦٣، أي من هذه الأمة، ونقل ابن كثير عن ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، المختصر ٢/ ٢٠٢.

(١) رواه البخاري في الأنبياء، باب قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم...، برقم (٣٢٥٨)، ومسلم في الفضائل باب فضائل عيسى (٢٣٦٥)، وانظر في معنى (عَلات) بفتح العين: النهاية ٣/ ٢٩١ مادة علل.

فكانوا مثل قوم نوح في تكذيب رسلهم.. فقد أرسل هودا إلى عاد، وصالح إلى ثمود وابراهيم ولوط، وشعيبا إلى أهل مدين وجيرانهم أصحاب المؤتفكة، كل رسول جاء إلى قومه بالحجج الدالة على صدقه، والنص يقول: ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ﴾ أي: فما استقام لقوم من أولئك الأقوام أن يؤمن المتأخر منهم بما كذب به المتقدم من قبل، ممن كان مثله في سبب كفره وهو استكبار الرؤساء وتقليد الدهماء[1]، فهم منهم وطبيعتهم واحدة وموقفهم تجاه البينات واحد لا يفتحون قلوبهم ولا يتدبرونها بعقولهم، وهم معتدون متجاوزون حد الاعتدال والاستقامة، ذلك لأنهم يعطلون مداركهم التي أعطاها الله لهم ليتدبروا بها وبذلك تغلق قلوبهم وتوصد منافذها، ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ أي: نختم على قلوب هؤلاء فلا يؤمنوا سواء من المتقدمين أو ما شابههم من المتأخرين في العناد كأهل قريش فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، قال تعالى عن تلك الأقوام: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ [الإسراء: ١٧]، وفي هذا إنذار لمشركي العرب المكذبين[2].

قال الزمخشري: والطبع جار مجرى الكناية عن عنادهم ولجاجتهم لأن الخذلان يتبعه، ألا ترى كيف أسند إليهم الاعتداء ووصفهم به[3]، كما جاء بلفظ الختم في قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٦-٧].

الهدايات المستنبطة من المجموعة الأولى

١- بدأ تعالى بقصة نوح لأنه أول رسول بعد آدم عليهم السلام، كما كان أطول الأنبياء عمراً وأشدهم بلاءً وأعظمهم محنة... فمكث فيهم مدة تقارب ألف عام. وفي قوله تعالى حكاية عن نوح ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾، ورد مثل ذلك عن كل الأنبياء، فكلهم

(١) تفسير المراغي، ١٠/ ١٤٠

(٢) مختصر تفسير ابن كثير، ٢/ ٢٠٢.

(٣) الكشاف، ٢/ ٣٦١.

كانوا على الإسلام منقادين لله تعالى.

٢- جمع خطاب نوح بين التلطف في قوله: «يا قوم..» وبين التحدي والترغيب والترهيب، ولهذا «على الداعي أن يشعر المدعو بالشفقة والنصح له، وأن يبتعد عن روح الاستعلاء»[١]. والدعوة إلى الله لا ينبغي أن يأخذ الداعي عليها أجراً إلا للضرورة.

٣- مفاصلة نوح لقومه بعد الإنذار الطويل والمكث الطويل يدعو ويذكر بآيات الله وبراهينه الدالة على وحدانيته، ويظهر فيها القوة والثبات على المبدأ. فكلمات نوح مكونة من شرط وجزاء، فأما الشرط ففيه أمران: {المقام والتذكير}، وأما الجزاء ففي خمسة أمور:﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ وهذا دليل الإباء وعدم المبالاة بما ينفذون من قرار، وهو أيضا من دلائل النبوة فإنه أعلمهم أنهم لا يصلون إليه بسوء، لأن الله عاصم أنبياءه[٢]، وفيه تسلية للرسول ﷺ وصحابته، وللدعاة من بعدهم.

٤- إن السر في قوة نوح وتحديه ظاهر في قوله:﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾لقد توكل على الله واعتمد عليه واستعان به، واطمأن إليه واستنصره.. وهذا هو استعلاء الإيمان والتوكل على الله، وهو درس إيماني دعوي لكل داعية يقتدي بنوح. يقول سيد قطب: «إنه التحدي الصريح المثير الذي لا يقوله القائل إلا وهو مالئ يديه من قوته، واثق كل الوثوق من عدته، حتى ليغري خصومه بنفسه ويحرضهم بمثيرات القول أن يهاجموه... كان معه الإيمان.. القوة التي تتصاغر أمامها القوى، وتتضاءل أمامها الكثرة، ويعجز أمامها التدبير، وكان وراءه الله الذي لا يدع أولياءه لأولياء الشيطان[٣]، وعلى أصحاب الدعوة

---

(١) المستفاد من قصص القرآن، عبدالكريم زيدان، ١/ ٥٤.

(٢) التفسير المنير، ١١/ ٢٣٠-٢٣١.

(٣) انظر في ظلال القرآن ١١/ ١٨١١، والقصص القرآني، عرض وقائع وتحليل أحداث، ١/ ١٨٣-١٨٤.

الاقتداء بالأنبياء أمثال نوح، وأصحاب الدعوة إلى الله لهم أسوة حسنة في رسل الله، حيث كان غرض نوح أن يظهر لقومه اعتزازه بالله وعدم خوفه منهم ومن وعيدهم وكيدهم فمن توكل على الله كفاه، ومن استجار به حماه[١].

٥- إن من أسباب هلاك الأمم الماضية الظلم، فقد أهلك الله قوم نوح بالغرق بسبب ظلمهم، ولذا قال بعد هلاكهم: ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود:٤٤]، وقوله: ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:١٤]،... فالهلاك من مقتضيات ولوازم سنة الله في الظلم والظالمين، كما قال في هذه السورة ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ﴾ [يونس: ١٣]، أي: كفروا وأشركوا[٢].

٦- كانت العاقبة في نجاة نوح ومن آمن معه من كيد الكفار، وجعلهم الله خلائف في الأرض خلفوا من هلك بالغرق، وأما الكفار فلهم سوء العاقبة، فقد أهلكهم الله بالطوفان، وفي ذكر عاقبة قوم نوح ﷺ تعريض بالمشركين بأن عاقبتهم كعاقبة أولئك لأن حال نوح مع قومه مثل حال محمد ﷺ مع المشركين من قومه في ابتداء الأمر وتطوره. [٣] ففيها عبرة للكفار أن الإنذار بالعذاب لابد أن يتحقق، لأن كفار مكة كانوا يستعجلون العذاب الذي يذكره الرسول ﷺ لهم ويكذبونه به.

٧- المفارقة بين موقف نوح وموقف القوم، موقف المؤمن الجسور الذي لا يتردد ويتحدى، ولا يخاف الموت في سبيل دعوته، وموقف القوم المتخاذل المتردد في الحسم واتخاذ القرار، ذلك هو ثمرة التوكل شجاعة واطمئنان نفس وصبر وتحمل مع مضاء عزيمة.

٨- إن عقوبة الطبع على القلوب كانت - على أحد وجهي التفسير- بسبب الرفض للحق عندما عرض على القلوب أول مرة، وفي هذا إنذار كبير لمن يرفض الحق وقد اتضح لقلبه

---

(١) قبس من نور القرآن ص ١٧٠.

(٢) المستفاد من قصص القرآن ١/ ١٦٤.

(٣) انظر التحرير والتنوير، م٦، ١١/ ٢٣٤-٢٣٥.

كما أن قوله تعالى:﴿ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾يشير إلى أنه لا طبع إلا بسبب اعتداء، وهذا إنذار كبير للإنسان ألا يقف موقف اعتداء أبداً[1]، وفي ذلك يقول سيد قطب: «حسب سنة الله القديمة في أن القلب الذي يغلقه صاحبه ينطبع على هذا ويجمد ويتحجر، فلا يعود صالحاً للتلقي والاستقبال، لا أن الله يغلق هذه القلوب ليمنعها ابتداء من الاهتداء، وإنما هي السنة تتحقق مقتضياتها في جميع الأحوال»[2].

٩- تكذيب الأنبياء سنة ماضية في الأمم، لتأثرهم بما كانوا عليه قبل بعثة الرسل من تصميم على الكفر ورسوخ به، وتحقق وعد الله بنصر أوليائه ممن جاء من بعد نوح، وهي سنة الله في هلاك المكذبين ونجاة المؤمنين.

المجموعة الثانية - قصة موسى عليه السلام مع فرعون وصراع الحق والباطل

ونظراً لطول النص فقد جعلته في خمسة مواقف (مشاهد) وهي:

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ٧٥- ٧٨

التفسير الإجمالي

بعدما ذكر الله تعالى طرفا من قصة نوح في تحديه لقومه، شرع في ذكر قصة موسى وهارون مع فرعون وملئه بشكل أكثر تفصيلاً للمواقف التي تناسب سياق السورة، كما أن قصة موسى تكرر ذكرها في كثير من السور القرآنية لعظيم شأنها وخطرها، وذكر منها هنا المواقف ذات الشبه بمواقف المشركين في مكة من الرسول ﷺ والقلة المؤمنة التي معه.

---

(١) الأساس في التفسير، م ٥/ ٢٤٩٥-٢٤٩٦.

(٢) في ظلال القرآن ١١/ ١٨١٣.



والمعنى: ثم بعثنا من بعد تلك الرسل صلوات الله عليهم موسى وهارون إلى فرعون ملك مصر وأشراف قومه، أما بقية الناس فهم تبع لهم في الكفر والإيمان ولذلك لم يذكروا، وقيل الملأ يطلق على كبراء القوم وسادتهم، كما يطلق ويراد به عامة القوم، بعثناهما بالآيات - وهي التسع المذكورة في سورة الأعراف[1] - واكتفى النص بذكر الآيات دون تفصيل لأن السياق لا يقتضيها.. ولكن القوم تلقوا الآيات بالاستكبار والإنكار، فاستكبروا عن اتباع الحق، أي تكبروا وأعجبوا بأنفسهم وتعظموا عن الاتباع ﴿ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ تفيد اعتيادهم الإجرام، وهو فعل الذنب العظيم. وكانوا قوماً شأنهم ودأبهم ذلك، وقد يؤخذ مما ذكر تعليل استكبارهم[2] وأعظم الذنب أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها ويتعظموا عن تقبلها.

فلما جاء موسى بالأدلة الدالة على الربوبية والألوهية قالوا من فرط عنادهم وعتوهم مع تناهي عجزهم ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ لما أبهرتهم المعجزات وأبطلت إفكهم قالوا ذلك تخلصا من الهزيمة التي لحقتهم، وقد صرحت آيات في مواضع أخرى في القرآن عن تلك الآيات في قوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٠٧-١٠٨]، فقولهم هذا سحر ظاهر واضح والإشارة إلى الحق الذي جاءهم، والمراد الآيات، فقالوا مُقْسمين على قولهم مؤكدين له: بأن واسم الإشارة واللام في الخبر والجملة الاسمية، وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان كما قال تعالى:﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل:١٤]، فقال لهم على سبيل الاستفهام الإنكاري التوبيخي ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا[3] ﴾ أي حين مجيئه إياكم ووقوفكم عليه دون أن تتدبروا فيه، عجباً

---

(١) وهي: السنون (أعوام الجدب والقحط)، ونقص الأموال، ونقص الأنفس، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾ الأعراف" ١٣٣.

(٢) روح المعاني، للآلوسي، م٧، ١١/ ٢٣٨، والكشاف، ٢/ ٣٦١.

(٣) تقدير الكلام: أتقولون للحق لما جاءكم سحرا، أسحر هذا! فحذف السحر الأول اكتفاءً بدلالة الكلام عليه. انظر: معالم التنزل للبغوي ٢/ ٣٧٣.

لكم أسحر هذا! وهو أبعد شيء عن السحر الذي هو الباطل البحت، وأنتم تعرفون أن السحر تخيل وتمويه وليس هذا من جنس ما تعرفونه وتصنعونه بأيديكم، وقد مضت سنة الله بأن﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾ لا يفوزون في الأمور الهامة كالدعوة لدين، والتأسيس لملك، وذلك ما تتهموني به على ضعفي وقوتكم فإن السحر شعوذة لا تلبث ان تفتضح وتزول. وهذا تأكيد للإنكار السابق وما فيه من التوبيخ والتجهيل.

وبعد أن أفحمهم بحجته ولم يجدوا رداً مقنعا اضطروا إلى التشبث بذيل التقليد للآباء والأجداد، وتلك حجة العاجز الضعيف المفلس: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا ﴾ فحين ألقمهم الحجر انقطعوا عن الإتيان بكلام له تعلق بكلامه، فقالوا عاجزين عن المحاجة منكرين له: ما جئتنا إلا لتصرفنا عما وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا من ديننا لنتبع دينك ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وتكون لك ولأخيك الكبرياء والرياسة الدينية وما يتبعها من عظمة دنيوية على أرض مصر كلها، وما نحن بمصدقين مهما تدعيانه من دين جديد غير دين الأسلاف، أو ما نحن بمتبعين لكما اتباع إيمان وإذعان يخرجنا من دين الآباء الذي عليه عامتنا وتتمتع بكبريائه خاصتنا[1].

وفي النص خاطبوا موسى أولا «أَجِئْتَنَا» لأنه الداعي للإيمان بما جاء به، ثم أشركوا معه أخاه هارون «لَكُمَا الْكِبْرِيَاء[2].. لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ» في الإفادة من ثمرات الدعوة وهي النفوذ والسلطة والعظمة[3].

وهنا تتكشف حقيقة صد موسى وتكذيبه، إنه الخوف من تحطيم معتقداتهم الموروثة..

---

(١) تفسير المراغي، ١٠/ ١٤١ (بتصرف).

(٢) الكبرياء: الملك كما روي عن مجاهد فهو كأطلاق الملزم وإرادة اللازم، وعن الزجاج أنه سمي الملك كبرياء لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا، وقيل أن العظمة والتكبر على الناس باستتباعهم. انظر: روح المعاني، ٧/ ٢٣٧.

(٣) انظر: روح المعاني، م٧ ج١١/ ٢٣٧، والتفسير المنير، ١١/ ٢٣٧.

والخوف على السلطان في الأرض المستمد من الخرافات.. وهي علة قديمة جديدة.. وفي ذلك يقول سيد قطب رحمه الله: وما كان رجال من أذكياء قريش مثلا ليخطئوا إدراك ما في رسالة محمد ﷺ من صدق وسمو، وما في عقيدة الشرك من تهافت وفساد، لكنهم كانوا يخشون على مكانتهم الموروثة القائمة على ما في تلك العقيدة من خرافات وتقاليد، كما خشي الملأ من قوم فرعون على سلطانهم في الأرض، فقالوا متبجحين: «وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ».

الموقف الثاني: الاستعانة بالسحرة لمقاومة دعوة موسى عليه السلام

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [٧٩-٨٢].

التفسير الإجمالي

بعد الحوار الساخن بين موسى وفرعون الذي انتهى برمي موسى واتهامه بالسحر للسيطرة على ملك مصر، أي: سلكوا مسلك الاتهام السياسي[١]، تعلق فرعون بحكاية السحر وأرادوا إقناع الناس بذلك، عندما رأوا معجزة العصا واليد، واعتقد أنهما سحر حاذق لظنهم لا فرق بين المعجزة الإلهية والسحر، فأحضر السحرة ليتحدوا في مواجهة موسى ودحض حجته وبذلك ينتهي خطره على معتقداتهم وسلطانهم في الأرض.

فلما جاء السحرة، وبعد أن خيروه بين أن يلقي ما عنده أولاً، أو يلقوا ما عندهم كما جاء في سورتي الأعراف وطه، قال لهم موسى: ﴿ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾ أي ألقوا ما أنتم ملقون من فنون السحر ليظهر الحق ويبطل الباطل... والنص يختصر الموقف لأن النهاية هي المقصودة في قول موسى ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ﴾ ردا على تهمة السحر التي وجهت إليه، وقد أراد موسى أن تكون البداية منهم ليرى الناس ما صنعوا ويستنفدوا ما لديهم من خبرات، ثم يأتي بالحق ليدفع

(١) انظر، أيسر التفاسير، ٢/ ٢٩٦.



باطلهم، فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم، كما قال تعالى: ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) ﴾ [طه: ٦٦-٦٩]، فلما ألقوا ما عندهم من الحبال والعصي قال موسى واثقا غير مبال بهم: ما أتيتم به السحر بعينه، لا ما سماه فرعون سحراً مما جئت به من الآيات والمعجزات من عند الله، وهذا السحر الذي أظهرتموه إن الله سيمحقه وسيظهر بطلانه قطعاً أمام الناس، بما يفوقه من المعجزة التي هي آية خارقة للعادة تفوق السحر وأشكاله المختلفة.

ثم علل ذلك بقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي: لا يثبته ولا يقويه، ولا يجعله صالحا للبقاء[1]، ويشمل كل من يصدق عليه أنه مفسد، ويدخل فيه السحرة دخولاً أوليا، والواو في «وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ» للعطف على سيبطله، أي يبينه ويوضحه «بِكَلِمَاتِهِ» التي أنزلها في كتبه على أنبيائه لاشتمالها على الحجج والبراهين «وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ» من آل فرعون أو المجرمون على العموم، ويدخل تحتهم آل فرعون دخولا أولياً[2]، أي نصر الحق على الباطل كما جاء في آية أخرى ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:١١٨]، وقوله: ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٩].

الموقف الثالث: من آمن بموسى عليه السلام من بني إسرائيل ووصيته لهم

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ (٨٦) وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾

(١) التفسير المنير، ١١/ ٢٤١.
(٢) فتح القدير، ٢/ ٥٢٩.



التفسير الإجمالي

ولما حكى سبحانه أن موسى ﷺ أبان ما أبان من بطلان السحر وكونه إفساداً، فثبت ما أتى به لمخالفته له، أخبر تعالى تسلية للنبي ﷺ وقطعا عن طلب الإجابة للمقترحات، أنه ما تسبب عن ذلك في أول الأمر عقب إبطال سحرهم من غير مهلة إلا إيمان ناس ضعفاء عددهم غير كثير فقال تعالى: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ ﴾ أي متبعاً لموسى بسبب ما فعل، ليعلم أن الآيات ليست سببا للهداية إلا لمن أراد ذلك منه، وبين أن الصغار أسرع إلى القبول بقوله: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ ﴾ أي شبانهم هم أهل لأن تذر فيهم البركة من قومه أي موسى[1]، وهذا رأي أكثر المفسرين أن الضمير عائد إلى موسى ﷺ وهم طائفة من ذراري بني إسرائيل، الذين كانوا بمصر وخرجوا معه كما قال مجاهد، وقال آخرون: الهاء راجعة إلى فرعون، روى عطية عن ابن عباس قال: هم ناس يسير من قوم فرعون منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه، وماشطة ابنته، وعن ابن عباس رواية أخرى: أنهم كانوا سبعين ألف بيت من القبط من آل فرعون، وأمهاتهم من بني إسرائيل فجعل الرجل يتبع أمه وأخواله. وقيل غير ذلك[2] والمهم أنهم كانوا من الفتية الصغار – من بني إسرائيل على الأرجح – لا مجموعة الشعب الإسرائيلي، وأن هؤلاء الفتيان كان يخشى من فتنتهم وردهم عن اتباع موسى خوفاً من فرعون وملئهم[3] وتأثير كبار قومهم من ذوي المصالح عند أصحاب السلطان،

---

(١) نظم الدرر، ٣/ ٤٧٢-٤٧٣.

(٢) وقيل هم قوم نجوا من قتل فرعون، وذلك أن فرعون لما أمر بقتل أبناء بني إسرائيل كانت المرأة من بني إسرائيل إذا ولدت ابنا وهبته لقبطية خوفا من القتل، فنشئوا عند القبط، وأسلموا في اليوم الذي غُلبت السحرة، وقال الفراء: سموا ذرية لأن آباءهم كانوا من القبط وأمهاتهم من بني إسرائيل، كما يقال لأولاد أهل فارس الذين سقطوا إلى اليمن: الأبناء، لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم. انظر: معالم التنزيل، ٢/ ٣٧٣-٣٧٤، وفتح القدير، ٢/ ٥٢٩-٥٣٠. والمستفاد من قصص القرآن ١/ ٣٥١، والذي فسره بقوم فرعون.

(٣) قيل أراد بفرعون: آل فرعون، أي: على خوف من آل فرعون وملئهم،... وقيل: إنما قال: «وملئهم»=

والأذلاء الذين يلوذون بكل صاحب سلطة وبخاصة من بني إسرائيل[1]، ﴿ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ أي: يصرفهم عن دينهم ولم يقل يفتنوهم لأنه أخبر عن فرعون وكان قومه على مثل ما كان عليه فرعون، وقد كان فرعون ﴿ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ذا سلطة ضخمة وجبروت متكبر، كما كان مسرفا في الطغيان، لا يقف عند حد، لدرجة أنه ادعى الربوبية، فلا يتحرج من إجراء قاس.

ولما ذكر خوفهم وعذرهم فهنا لا بد من إيمان يغلب الخوف ويطمئن القلوب ويثبتها على الحق، فأتبعه ما يوجب طمأنينتهم وهو التوكل على الله الذي من راقبه تلاشى عنده كل عظيم فقال موسى لمن آمن به ياقوم: فاستعطفهم بالتذكير بالقرب ثم هيجهم على الثبات إن كنتم آمنتم بالله حق الإيمان فعليه توكلوا، وبوعده فثقوا إن كنتم مستسلمين مذعنين إذ لا يكون الإيمان يقينا إلا إذا صدقه العمل وهو الإسلام، «وقد ذكر لهم موسى الإيمان والإسلام، وجعل التوكل على الله مقتضى هذا وذاك»[2]. واستجاب المؤمنون للنداء فقالوا: ﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ممتثلين أمره حين علموا أن إنجاز الوعد موقوف على ذلك، ومن ثم توجهوا إلى الله بالدعاء بألا يجعلهم الله فتنة للقوم الظالمين، والمقصود ألا يمكن الظالمين منهم فيظن القوم أن تمكنهم من المؤمنين بالله دليل على أن عقيدتهم هم أصح ولذلك انتصروا وهزم المؤمنون، ويكون هذا استدراجا لهم من الله وفتنة ليلجوا في ضلالهم، فهم يدعون الله أن يعصمهم من تسلط الظالمين عليهم.

ولفظ «فتنة» هنا يحتمل الفاتن والمفتون فكأنهم قالوا: ربنا لا تسلطهم علينا فيفتنوننا، ولا تفتنا بهم فنتولى عن اتباع نبينا أو نضعف فيه فراراً من شدة ظلمهم لنا، ولا تفتنهم بنا فيزدادوا

=وفرعون واحد، لأن الملك إذا ذكر يفهم منه هو وأصحابه.. وقيل: أراد ملأ الذرية فإن ملأهم كانوا من قوم فرعون. معالم التنزيل، ٢/ ٣٧٤.

(١) في ظلال القرآن، ١١/ ١٨١٥.

(٢) المصدر السابق



كفرا وعناداً وظلما بظهورهم علينا، فيظنوا أنهم على حق وأننا على باطل[١].

والتوكل على الله من أعظم علامات الإيمان قال تعالى:﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق:٣]، والدعاء يستجاب مع الطاعة واتخاذ الأسباب، وكثيرا ما يقرن الله بين العبادة والتوكل، قال تعالى: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود:١٢٣]، ولما قدموا التضرع إلى الله سبحانه أن يصون دينهم عن الفساد أتبعوه بسؤال العصمة لأنفسهم فقالوا:﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ وفي هذا دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم[٢] أي: خلصنا من فرعون وقومه لأنهم كانوا يأخذونهم بالأعمال الشاقة[٣]، ودعاؤهم هذا دليل التوكل على الله، فالمؤمن لا يتمنى البلاء ولكن يثبت عند اللقاء.

وبعد إظهار الإيمان والتوكل أمر الله موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتخذا لقومهما بمصر بيوتا﴿ وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ﴾ أي اتخذوها مساجد متوجهة نحو القبلة[٤]، حيث أنهم كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا في بيوتهم، وكأن هذا والله أعلم لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه وضيقوا عليهم أمروا أن يصلوا في بيوتهم خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم، كما كان المؤمنون على ذلك في أول الإسلام بمكة[٥]، ثم قال «وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ» التي أمركم الله بإقامتها مما يفيد أن القبلة هي قبلة الصلاة التي يتوجهون إليها في المساجد والبيوت، «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» بالثواب والنصر القريب، والخطاب لموسى ﷺ وقيل لمحمد ﷺ على طريق الالتفات، والأول أظهر، بأن يبشر بني اسرائيل بأن الله سيظهرهم على عدوهم.

---

(١) المستفاد من قصص القرآن، ١/ ٣٥٣.
(٢) فتح القدير ٢/ ٥٣٠.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٣١٢.
(٤) المراد بالقبلة بيت المقدس وهي قبلة اليهود إلى اليوم، وقيل الكعبة كانت قبلة موسى ومن معه، والقول لابن عباس. انظر: الجامع لأحكام القرآن٨/ ٣١٣، والكشاف، ٢/ ٣٦٤، وفتح القدير ٢/ ٥٣٠.
(٥) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٤٢٨، والكشاف ٢/ ٣٦٤، والمستفاد من قصص القرآن ١/ ٣٥٢.

وقد خوطب موسى وهارون أن يتبوءا لقومهما بيوتاً ويختاراها للعبادة، وذلك مما يفوض للأنبياء، ثم سيق الخطاب عاما لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها لأن ذلك واجب على الجمهور، ثم خص موسى بالبشارة التي هي الغرض، تعظيما لها وللمبشر بها[1].

والهدف من اتخاذ البيوت خاصة مساجد هو الفرز والتنظيم والاستعداد للرحيل من مصر في الوقت المختار، فكلفهم بتطهير بيوتهم وتزكية نفوسهم والاستبشار بنصر الله، وهي التعبئة الروحية إلى جانب التعبئة النظامية الضرورية للأفراد والجماعات قبيل المعارك والمشقات[2].

الموقف الرابع: الدعاء المستجاب لموسى عليه السلام

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

بعد أن يئس موسى عليه السلام من فرعون وملئه أن يكون فيهم خير وأنه لا يرجو لهم صلاحا وخصوصا بعد أن بالغ في إظهار المعجزات وإقامة الحجج البينات، وقابل فرعون وملأه ذلك بالإصرار على الكفر والجحود، دعا عليهم بعد أن ذكر سبب إقدامهم على ذلك هو حبهم للدنيا والنعيم الذي أبطرهم من المال والزينة، والتي تضعف إزاءهما قلوب الكثيرين، فتنتهي وتتهاوى أمام الجاه والمال، ثم إلى الضلال، اتجه موسى إلى ربه يدعوه أن يدمر هذه الأموال ويزيل كل ما أبطرهم للراحة من شرهم.

فبعد أن أعد موسى قومه من بني إسرائيل للخروج من مصر وغرس في قلوبهم الإيمان والعزة والكرامة، دعا ربه مبينا سبب الدعاء:﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً ﴾ أي:

---

(١) الكشاف، ٢/ ٣٦٤، وفتح القدير ٢/ ٥٣١، ونظم الدرر، ٣/ ٤٧٤.

(٢) في ظلال القرآن، ١١/ ١٨١٦، (بتصرف)



أعطيتهم من الدنيا والنعمة ما أبطرهم، وهو الزينة الشاملة من حلي ولباس وأثاث ورياش وأموال كثيرة ومتاع ونحوها من الزروع والأنعام، أدى النعيم بهم إلى أن تكون عاقبتهم إضلال عبادك عن الدين، والطغيان في الأرض، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾ [العلق: ٦-٧]، ويشهد لما ذكر ما يوجد في قبور الفراعنة والآثار المصرية من الذهب والفضة والحلي والتحف... [١]

وفي قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ [٢] ﴾ ، أي ليفتتن بها أعطيت من شئت من خلقك ليظُن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم[٣].

ومن هذه المقدمة نجد موسى عليه السلام لما رأى القوم مصرّين على الكفر والعناد، أخذ في الدعاء عليهم، ومن حق من يدعو على الغير أن يقدّم بين يدي دعائه ما دفعه واضطره إلى الابتهال لتتحقق إجابته، ولذا بيّن أولاً ضلالهم عن السبيل بكفرانهم للنعم وعتوهم على المحسن بها تمهيداً لقوله: «رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ» أي: اهلكها، لأنهم يستعينون بنعمتك على معصيتك، وأصل (الطمس) محو الأثر والتغيير، ﴿ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أي اجعلها قاسية واطبع عليها حتى لا تنشرح للإيمان، ﴿ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ أي يعاينوا ويوقنوا به، بحيث لا ينفعهم ذلك إذ ذاك[٤].

وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضبا لله ولدينه على فرعون وملئه الذي تبين له أنه لا خير فيهم، ولا يجئ منهم شيء، كما دعا نوح عليه السلام: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ

(١) التفسير المنير، ١١/ ٢٥١.

(٢) أختلف في لام (ليضلوا) قيل لام العاقبة والصيرورة، أي آتيتهم النعم المذكورة ليشكروها ويتبعوا سبيلك فكان عاقبى أمرهم أنهم كفروا وضلوا عن سبيلك، وتجويز جعل اللام للعلة استدراجا، أو لام الدعاء عليهم بذلك.. أنظر: تفسير القاسمي م٦ ج٩/ ٧٢.

(٣) المستفاد من قصص القرآن، ١/ ٣٥٤.

(٤) تفسير القاسمي، محسن التأويل ٩/ ٧٣.

دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [نوح: ٢٦-٢٧]، ولهذا استجاب الله تعالى لموسى فيهم هذه الدعوة التي أمّن فيها أخوه هارون»[1] ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ حيث إن موسى كان يدعو وهارون يؤمّن على دعائه، ويجوز أن يكونا جميعا يدعوان، والمعنى: أن دعاءكما مستجاب، وما طلبتما كائن ولكن في وقته «فَاسْتَقِيمَا» فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والزيادة في إلزام الحجة، ﴿ وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي: ولا تسلكا طريق الذين لا يعلمون سنتي في خلقي، وإنجاز وعدي لرسلي، فتستعجلان الأمر قبل أوانه[2]، وقال الزمخشري: لا تتبعا طريق الجهلة بعادة الله في تعليقه الأمور بالمصالح، ولا تعجلا فإن العجلة ليست بمصلحة، وهذا كما قال لنوح: ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود:٤٦]. [3]

الموقف الخامس: إغراق فرعون وجنوده ومآل بني اسرائيل

﴿ ۞ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

التفسير الإجمالي

لما أجاب الله دعاء موسى وهارون، أمر الله تعالى موسى أن يخرج بقومه بني إسرائيل ليلاً من مصر، وأن يمضي بهم حيث يؤمر، وكان فرعون غافلاً عن ذلك، فذكر هنا خاتمة القصة الدالة على تأييد الله لموسى وأخيه على ضعفهما وقوة فرعون وقومه. وهو مشهد إغراق فرعون وجنوده ونجاة موسى وبني إسرائيل، فقد فعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه عزّ وجل وأعلمه

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٠٥

(٢) ابن كثير، ٢/ ٢٠٥، وتفسير القاسمي، ٩/ ٧٤. وتفسير المنار، ١١/ ٤٧٢-٤٧٤.

(٣) الكشاف، ٢/ ٣٦٦.



بأن فرعون سيتبعهم هو وجنوده قال تعالى:﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ [الشعراء:٥٢]، وتفصيل القصة في سور أخرى وخاصة في سورة الشعراء، وملخصها: أن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر مع موسى وهم فيما قيل ست مئة ألف مقاتل سوى الذرية، ولما علم فرعون غاظه ذلك، فجمع جنوده من مختلف البلاد وسار بهم للحاق بموسى، فلحقوهم وقت شروق الشمس عند ساحل البحر الأحمر، ولما تقارب الجمعان وصار كل فريق يرى الآخر، فخاف أصحاب موسى من وصول فرعون، ولكن موسى طمأنهم بوعد ربه له وأنه سيهديه طريق النجاة كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء:٦١-٦٣]، أي: لما وصل موسى وقومه إلى ساحل البحر ومن ورائهم فرعون وجنوده، أوحى الله لموسى أنا اضرب بعصاك البحر، فضربه فانفلق فكان كل جزء متفرق منه كالجبل الكبير، قال ابن عباس: صار البحر اثني عشر طريقا لكل سبط من بني إسرائيل طريق، وقد جعل الله هذه الطرق في قاع البحر يابسة يمكن السير عليها بسهولة ويسر كما قال تعالى:﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ [طه:٧٧]، فسار موسى ومن ومعه، ولما قرب فرعون وجنوده ودنو من البحر دخلوا على أثر بني إسرائيل، ومن هذه النهاية يبدأ هذا المشهد الحاسم والأخير في قصة التحدي والتكذيب في سورة يونس.

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ ﴾يخبر تعالى في هذه الآيات أن الله هو الذي جاوز[1] ببني إسرائيل البحر، والجواز مسند إلى الله فهو الذي شق لهم البحر بقدرته وقوته، وقادهم وجاوز بهم حتى اجتازوه، وقد اتبع فرعون وجنوده بني إسرائيل ولحقوا بهم، وكان اتباعهم لهم بغيا وظلما وعدواناً، أي أنهم كانوا باغين معتدين ظالمين في لحاقهم بهم، يريدون إهلاكهم وقتلهم

(١) يقال: جاز فلان الطريق: إذا قطعه وسار فيه، ويقال: جاوز فلان بآخر الطريق: إذا قاده حتى يقطع الطريق. انظر المعجم الوسيط ١/ ١٤٦.

ولذلك أغرقهم الله. [١]

ولما اجتاز موسى ومن معه البحر كان فرعون وجنوده على الجانب الآخر من البحر ليلحقوا بهم ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ﴾ رغبة في الانتقام والإذلال والعدوان، وأراد موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر ليعود إلى طبيعته، ولو فعل ذلك لما سمح لفرعون وجنوده أن يسيروا في الممرات التي بين المياه التي تحولت إلى جبال، ولكن الله سبحانه يريد غير ذلك، أراد أن ينجي ويهلك بالشيء الواحد، فأوحى إلى موسى﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾[الدخان:٢٤]، أي: اترك البحر على حاله فينخدع فرعون وجنوده، وما أن ينزل آخر جندي منهم إلى الممر بين جبال الماء، سيعود البحر إلى حالة السيولة فيغرق فرعون وجنوده وينجو موسى وقومه[٢]، ولم ينجو منهم أحد، وتراكمت الأمواج فوق فرعون وغشيته سكرات الموت..

ويصور القرآن لحظة غرق فرعون بقوله:﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ ﴾ أي: قهره وأحاط به الموت بالماء، كما سأل موسى في أنه لا يؤمن حتى يرى العذاب الأليم،﴿ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ لما تحقق الهلاك وعلم أنه لا نجاة إلا بالصدق، فآمن حيث لا ينفعه الإيمان لأنه إيمان وقت مشاهدة العذاب، وسنة الله هي عدم قبول إيمان الكافر وقت نزول العذاب، كما قال تعالى:﴿ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾[غافر: ٨٤-٨٥]، ثم قال:﴿ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ أي أمنت أنه لا إله بحق إلا الرب الذي آمنت به جماعة بني إسرائيل بدعوة موسى، وأنا ممن أذعنوا لأمره بعدما كان مني من جحود بآياته وعناد لرسوله، فكرر قبول ما كان دعي إليه فأباه استكباراً، وعبر بما دل على ادعاء الرسوخ فيه بياناً لأنه ذل ذلاً لم يبق معه شيء من ذلك الكبر ولم ينفعه ذلك لفوات شرطه وقد أجابه الله موبخاً له ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي: أتسلم الآن

---

(١) القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، ٣/ ٩٩.

(٢) تفسير الشعراوي ١٠/ ٦١٨١

حين يئست من الحياة وأيقنت الممات؟ وقد عصيت قبل ذلك وكنت من المفسدين في الأرض الظالمين للعباد، فدعواك الإسلام الآن لا تقبل، فقد صار إسلامك اضطراراً لا اختياراً.. فهلا أقررت بما أقررت به الآن وباب التوبة لك منفتح[1].

﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾أي: نرفعك على نشز من الأرض بجسدك بلا روح سوياً صحيحا لم يتمزق ليعرفوه ويتحققوا موته، ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ لتكون عبرة تعتبر بها الأمم بعدك[2]، ويرون عاقبة التصدي لوعيد الله بالتكذيب،﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾أي: معرضون عن التأمل لآياتنا والتفكر فيها[3]، ووجه العبرة في ذلك أنه يكون شاهدا على صدق وعد الله لرسله، ووعيده لأعدائه، كطغاة مكة التي أنزلت هذه الآيات لإقامة حجج الله عليهم قبل غيرهم.

ثم يعقب السياق بلمحة سريعة عن مآل بني إسرائيل بعدها﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ والمبوأ: مكان الإقامة الأمين، وإضافته إلى الصدق تزيده أمانا وثباتا واستقرارا كثبات الصدق الذي لا يضطرب، ولا يتزعزع اضطراب الكذب تزعزع الافتراء، وكلمة الصدق تعني جماع الخير والبر، في مصر والشام، وعلى عادة العرب إذا مدحت شيئا تضيفه إلى الصدق، ولقد طاب لهم المقام ﴿ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ وتمتعوا بطيبات من الرزق حلال، وأنعمنا عليهم فيها بكثير من الخيرات من الثمار والغلال والأنعام وصيد البر والبحر.

والعلماء في تحديد المراد ببني إسرائيل هنا قولان: الأول أنهم اليهود الذين كانوا في زمن موسى فيكون مبوأ الصدق مصر والشام.. وإن التوراة هي العلم الذي أدى إلى الاختلاف بينهم، والقول الثاني: هم اليهود المعاصرون للنبي محمد ﷺ ومبوأ الصدق ما بين المدينة والشام

(١) تفسير المراغي، ١٠/ ١٥١.

(٢) تفسير ابن كثير، ٢/ ٢٠٦، والكشاف، ٢/ ٣٦٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٣٨١.

والمراد بالعلم القرآن[١] ﴿ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ ﴾ أي: فما اختلف بنو إسرائيل إلا بعدما علموا بقراءة التوراة والوقوف على أحكامها، ذلك أنهم كانوا قبل أن يبعث محمد ﷺ مجمعين على نبوته والإقرار به وبمبعثه غير مختلفين فيه بالنعت الذي كانوا يجدونه مكتوبا عندهم فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعض وآمن آخرون، فيكون علمهم بمجيء الرسول هو مصدر اختلافهم.. [٢] ولما لم يفصل السياق في خلافهم بعدما جاءهم العلم وكلها بما فيها الله في يوم القيامة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾أي في هذا النوع من الاختلاف لا سبيل لإزالته في دار الدنيا بل سيقضي الله بينهم في الآخرة فيميز المحقين من المبطلين.

الهدايات المستنبطة من المجموعة الثانية

١- تكررت قصة موسى عليه السلام مع فرعون أكثر من غيرها في قصص القرآن الكريم، وذلك لأنها تمثل قمة الصراع بين الحق والباطل، ودلالتها على أن قوة الحق وصوت النبوة يعلوان الملك والحكم والسلطان، ويقوضان العروش ويزيلان دعائم الباطل، كما فصلت تفصيلا وافياً لما لها من شديد الخطر وعظيم الأثر، ولما فيها من العبر في انتصار الحق على الباطل، وهي قصة تتكرر صورها في كل زمان ومكان بين جند الرحمن وجند الشيطان. [٣]

٢- إن التوكل على الله هو أعظم علامات الإيمان ولا يكمل إلا بالصبر على الشدائد، كما أنه عنصر القوة للقلة الضعيفة، وقد ذكر موسى لأتباعه الإيمان والإسلام، وجعل التوكل على الله مقتضى الاثنين، والدعاء لا يستجاب إلا إذا كان مقرونا باتخاذ الأسباب.

٣- تسلية الرسول ﷺ ببيان انتصار موسى بالمعجزات ومع ذلك لم يتابعه إلا القليل من قومه، وبيان سنة الله في الأمم المكذبة، فلم يختلف شأن قوم فرعون عمن قبلهم في العناد والإصرار على دين الأسلاف، كما نجد التشابه بين أقوال المكذبين في مواجهة الحق، ورمي

---

(١) التفسير المنير، ١١/ ٢٥٨-٢٥٩.

(٢) انظر: تفسير المراغي، ١٠/ ١٥٣، والشعراوي، ١٠/ ٦١٩٤.

(٣) انظر: تفسير المراغي، ١٠/ ١٤٠، والتفسير المنير، ١١/ ٢٣٥-٢٣٦، وقبس من نور القرآن، ١٧٢.

الأنبياء بالكذب، واتهامهم بالسحر، فكلما رأوا الآيات الدالة على صدق النبي لم يجدوا ما يقولون إلا كما قال فرعون وكفار قريش بصيغة التوكيد «إن هذا لسحر مبين»، وهو اتهام من غير دليل كما هو شأن أهل الباطل، كأنها جملة واحدة يتعارف عليها المكذبون في كل العصور.

٤- ذم الاستكبار وأنه سبب كثيرا من الإجرام، فكل ما فعله فرعون هو بدافع الخوف على الملك والسلطان، الذي يسلط على الناس عن طريق الموروثات للأسلاف، فمن أهم أسباب مقارعة الأنبياء هو الخوف على الملك والجاه والسلطان، وأن الأنبياء يؤثرون على مكانتهم وكبريائهم في الأرض، مما يجعلهم يرمونهم بأبشع التهم(١).

٥- إن التقليد الأعمى للآباء والأجداد أو لغيرهم، من أكبر المعوقات التي تقف في وجه الإصلاح والمصلحين في كل زمان ومكان، وهو أول ما يسارع المبطلون إلى الاحتجاج بها، ثم يكيلون التهم لدعاة الإصلاح بأنهم لا يقصدون الإصلاح إنما يقصدون أن يحلوا محلهم في سلطانهم وملكهم(٢).

٦- للسحر طرق يتعلم بها، وله علماء به، وتعلمه حرام واستعماله حرام، وعقوبة الساحر القتل لأنه إفساد في الأرض، كما عدّه الرسول ﷺ، أحد الكبائر الموجبة للقتل. والساحر صاحبه لا يفلح أبداً ولا يفوز بمطلوب، فقصة موسى مع فرعون تمثل الصراع بين الحق والباطل بين التكذيب والتحدي، بين المعجزة والسحر، بين آية إلهية خارقة للعادة يؤيد بها الله النبي لتصديق دعوته، وبين السحر فهو فساد وتمويه لم يصمد أمام الحقيقة، وهذا ما تضمنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ أي: لا يضر أحدا كيد ساحر، ولذلك قال العلماء: لا تكتب على مسحور إلا دفع الله عنه السحر(٣).

---

(١) في ظلال القرآن ١١/ ١٨١٣-١٨١٤.

(٢) الإنسان بين التقدير والتكليف، ص ١٠٥.

(٣) التفسير المنير، ١١/ ٢٤١، فقد روي عن ابن عباس: من أخذ مضجعه من الليل ثم تلا هذه الآيـة =

٧- اعتزاز موسى – على ضعفه – بالإيمان والنبوة أمام القوة، حيث بادر إلى دعوة فرعون وقومه للإيمان بالله دون سواه، وفي رده لتهمة السحر وإعلان أن الله سيبطله تتجلى ثقة المؤمن الواثق بربه المطمئن إلى أن ربه لا يرضى أن ينجح السحر وهو عمل غير صالح، بل يمحقه بكلماته "كن فيكون" وهو تعبير عن توجه المشيئة الإلهية، وإن كراهة المبطلين للحق لا تعطل مشيئة الله، وهذا ما حصل وبطل السحر وعلا الحق، وقد أيد الله موسى ﷺ بتسع آيات ذكرت في سورة أخرى وهي: القحط المتوالي، ونقص الأنفس والأموال والثمرات، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ومع ذلك لم يؤمنوا ووصفوا الآيات بالسحر.

٨- جواز المبارزة للعدو والمباراة إظهاراً للحق وإبطالاً للباطل[1]، إن الله أبطل ومحق ما جاء به السحرة بإلقاء العصا التي انقلبت ثعبانا عظيما التهم جميع الحبال والعصي، ولذلك أدرك السحرة خسارتهم وعرفوا أن فعل موسى ليس بسحر، لأنهم أعرف بفنونه، فلم يعاندوا فشرح الله صدورهم للإيمان ولم يرهبهم تهديد فرعون، فأعلنوا إيمانهم برب موسى وهارون، وأسقط في يد فرعون وملئه.

٩- لا تكون الآيات سببا للهداية دائماً فمن سنة الأقوام أن تكذب البراهين وترميها بالسحر ولذلك لم يستجب الله تعالى لمطاليب كفار قريش حين طلبوا الآيات، قال تعالى معللاً ذلك: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال: ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ [يس:٤٦].

١٠- جرت سنة الله بأن كثرة الأموال تورث الكبرياء والخيلاء والبطر والطغيان، وتخضع رقاب الناس لأربابها، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾ [العلق: ٦-٧]، وقد أثبت البحث والتنقيب في قبور المصريين ما يشهد بكثرة تلك

=﴿ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ﴾ لم يضره كيد ساحر.

(١) أيسر التفاسير، ٢/ ٤٩٨.



الأموال، ووجود أنواع من الزينة والحلي لم تكن لتخطر على البال.. [١] ولذلك دعا موسى أن يطمس على أموالهم لأنه ينشأ عنها إضلال الناس عن سبيل الله، إما بالإغراء أو بالقوة، كما أن وجود النعمة في يد المفسدين يزعزع كثيرا من القلوب التي لا يبلغ من يقينها بالله أن تدرك أن هذه النعمة ابتلاء واختبار..

١١- في طلب الله تعالى من موسى وأخيه أن يتخذوا بيوتا بمصر للصلاة وتوحيد قبلتها ما يدل على أهمية الصلاة في التعبئة الروحية والنظامية للجماعة المؤمنة وخصوصا حين تكون قبيل المشقات، كما أن فيها اعتزال معابد الجاهلية والانعزال والتميز عنهم، كما تدل على أن القبلة في الصلاة كانت شرعا لموسى عليه السلام.

١٢- مشروعية الدعاء بالهلاك على أهل الظلم، وقد جاء عن الرسول ﷺ في اتقاء دعوة المظلوم لأنها مستجابة "اتق دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب"[٢] وليس هناك ظلم أكبر من الشرك، ولهذا استجاب الله دعوة موسى لأنها كانت غضبا لله ولدينه على فرعون وملئه حين تبين له أن لا خير فيهم، كما دعا نوح عليه السلام من قبل، والمؤمن داع فهو شريك في الدعاء، فلذا يؤمّن أهل المسجد على دعاء الإمام فتحصل الإجابة للجميع[٣].

١٣- خاتمة قصة فرعون مع موسى في المشهد الأخير من التحدي، يعرض مختصرا مجملاً يؤدي الغرض في سياقه ببيان رعاية الله لأوليائه، وإنزال العذاب والهلاك بأعدائه الذين يغفلون آياته الكونية وآياته مع رسله حتى تأخذهم الآية التي لا ينفع بعدها ندم ولا توبة، وإن أسباب هلاك فرعون وإلقاء جثته وإبقاءها ليكون عبرة وآية هو ادعاؤه الربوبية وتكذيبه بآيات الله وجحودها بعدما استيقنتها أنفسهم، والاستكبار والظلم والإفراط في

---

(١) تفسير المراغي، ١٠/ ١٤٨.

(٢) رواه البخاري برقم (٢٣١٦) في الشركة، باب الاتقاء والحذر من دعوة المظلوم، والترمذي، باب ما جاء في دعوة المظلوم، (٢٠١٤)

(٣) انظر: ايسر التفاسير، ٢/ ٥٠٣، والتفسير المنير ١١/ ٢٥١.

المعاصي، وقد كان هلاكه مع جنده يوم عاشوراء من شهر المحرم، كما أخرج البخاري عن ابن عباس قال: "قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: ما هذا اليوم الذي تصومونه؟ فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، قال النبي ﷺ : "أنتم أحق بموسى منهم فصوموه"(١).

١٤- في دعاء قوم موسى:﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ دلت التجارب أن سوء حال المؤمنين وضعفهم وتسلط الكفار عليهم يجعلهم موضعا لافتتان الكفار وأهل الباطل بهم باعتقاد أنهم خير من المؤمنين، كما هو فتنة للمؤمنين مما يطرأ من شك في أنهم على حق، وواقع المسلمين شاهد على ذلك.

١٥- في مصير جنود فرعون عبر ودروس للدعاة والمؤمنين وهو التحذير من معونة الحاكم الظالم، فأعوان الظلمة ظلمة، وفي القرآن إشارات كثيرة في النهي عن معونة الظالم والركون إليه، منها قوله تعالى:﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣]، وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ﴾ [القصص:٨]، ولذلك يكون مصيرهم واحدا فيشتركون بالعذاب ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص:٤٠] و﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأنفال:٥٤]. (٢) وعليه فلا يجوز إعانة الظالم ونصرته كما قال تعالى:﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

١٦- العبرة بما حل بفرعون وجنوده، قال تعالى في إهلاك فرعون بالغرق جزاء كفره وعصيانه: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ آية ٩٢، أي: نخرجك من البحر

---

(١) رواه البخاري برقم (١٩٠٠، ١٩٠١) في كتاب الصوم باب صيام يوم عاشوراء، ومسلم برقم (١١٣٠، ١١٣١) في كتاب الصوم باب صوم يوم عاشوراءز

(٢) المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة ١/ ٣٦٦.

بجسدك الذي لا روح فيه، لتكون "لِمَنْ خَلْفَكَ» عبرة لبني إسرائيل ولمن بقى من قوم فرعون، وللأمم اللاحقة الكافرة، لتكون لهؤلاء جميعا «آيَةً» عبرة من الطغيان والتمرد على أوامر الله لكل من كان على شاكلته من طواغيت الأرض، فلا يجترئون على ما اجترأ عليه فرعون، ولكن﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ معرضون عن التأمل فيها ومهمة الدعاة تكون تذكيرا وتبصيرا للناس بما حلّ بفرعون حتى لا يياسوا من هلاك الطغاة وأعوانهم، ولا يكبروا في عيونهم، لأنهم فراعنة صغار، وهذه سنة الله في الطغاة الظالمين﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ [فاطر: ٤٣] [1] .

المجموعة الثالثة: صدق القرآن والإشارة لقصة يونس وتوبة قومه

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [٩٤-١٠٠].

التفسير الإجمالي

يتضمن النص خطابا للرسول ﷺ ، وطرفا من قصة يونس عليه السلام مع قومه:

أولاً- تأكيد صدق القرآن من خلال الخطاب للرسول ﷺ آية ٩٤-٩٧.

بعد أن أخبر الله تعالى عن قصص الأنبياء السابقين كنوح وموسى وهارون عليهم السلام والنصر لهم على أقوامهم، وحكى اختلاف بني إسرائيل عندما جاءهم العلم حسدا وبغيا،

---

(١) المصدر السابق، ٣٨١-٣٨٢.



أورد هنا ما يقوي صدق القرآن فيما وعد وأوعد وخاطب النبي ﷺ وأراد قومه، فخاطبه لبيان علة تكذيب قومه له، وهذا من سنة الله في المكذبين من قبلهم، وفي خلق الإنسان باستعداداته للخير والشر والهدى والضلال.

وكان آخر الحديث عن بني إسرائيل، وهم أهل كتاب ويعرفون هذه القصص ويقرؤونها في كتابهم، فوجّه الخطاب للرسول ﷺ إن كان في شك مما أنزل إليه من هذا القصص أو غيره فليسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبله، فلديهم عنه علم مما يقرؤون ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ﴾ من أحبار اليهود ورهبان النصارى فإنهم يعرفون نعوتك وصفاتك في التوراة والإنجيل وإنك النبي الخاتم والمنقذ، وإن من آمن بك نجا ومن كفر هلك.

ولكن الرسول ﷺ لم يكن في شك مما أنزل الله إليه، كما روي عنه: «لا أشك ولا أسأل» ولذلك ذكر المفسرون أن الخطاب للسامع أو الرسول ﷺ والمراد به أمته، وهذا تعبير مألوف في أساليب العرب، كما أن افتراض الشك في الشيء لنفي احتمال وقوعه مألوف أيضا لدى العرب. وفيها تنبيه لمن خالجته شبهة في الدين أن يلجا إلى أهل العلم﴿ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ وقد ثبت عنه بالآيات والبراهين القاطعة أن ما أتاك هو الحق الذي لا مدخل فيه للمرية ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ وهو تعريض بالشاكين والمكذبين للنبي ﷺ من قومه،﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ أي: فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك والتكذيب بآيات الله[1]، وهذا أيضا من باب التهييج والتثبيت.. وفيه تعريض بالكفار الخاسرين الضالين، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي الذين ثبتت عليهم كلمة الله وقضاؤه وحكمه بالعذاب لا يؤمنون أبداً لفقدهم الاستعداد للإيمان وتصميمهم على الكفر، بتعطيل مداركهم فلا ينتفعوا بها فتكون نهايتهم الضلال ﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ وهؤلاء سيبقون على كفرهم وجحودهم ولو جاءتهم كل آية كونية حسية كآيات موسى التي اقترحوا مثلها على الرسول ﷺ، والآيات المنزلة

---

(١) الكشاف، ٢/ ٣٧٠، والتفسير المنير، ١١/ ٢٦٥.



عليك كآيات القرآن العقلية الدالة بإعجازها على أنها من عند الله وعلى أحقية ما تدعوهم إليه وتنذرهم به، ﴿ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ بأعينهم ويذوقوه حين ينزل بهم فيكون إيمانهم اضطرارا لا اختيارا منهم، فلا يترتب عليه عمل منهم يطهرهم ويزكيهم، ويقال لهم إذ ذاك ﴿ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ يونس:٥١. وقد مر مثل ذلك في نهاية فرعون عندما تيقن العذاب والهلاك فأعلن الإيمان بعد فوات أوانه، لعدم وجود فرصة لتحقيق مدلوله في الحياة.

ثانياً- إيمان قوم يونس عليه السلام قبل معاينتهم العذاب آية ٩٨-١٠٠.

وبعد المواقف التي ظهرت فيها حتمية سنن الله، تطل نافذة مضيئة فيها شعاع من أمل في النجاة ذلك أن يعود المكذبون عن تكذيبهم قبيل وقوع العذاب، فبعد أن ذكر الله تعالى في الآيات السابقة أن الخسران لازم لمن كذّب بآيات الله، وإن الذين وجب لهم العذاب لإحاطة ذنوبهم بهم لا يؤمنون لفقدهم الاستعداد للإيمان، ذكر هنا ما يحض به أهل مكة على الإيمان وعدم الإصرار على الكفر والتكذيب فقال:﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ ﴾ أي: فهلا كانت قرية من القرى التي أهلكناها لكفرها وعدم إيمانها برسولها، آمنت قبل معاينة العذاب، ولم تؤخر إيمانها إلى حين معاينته كما فعل فرعون ﴿ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ ﴾ بأن يقبله الله منها ويكشف عنها بسببه العذاب لوقوعه وقت الاختيار[1] فانتفعوا بإيمانهم فنجوا من العذاب اللازم لمن لم يؤمن ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ [2] استثناء من القرى: لأن المراد أهلها، وهو استثناء منقطع بمعنى: ولكن

(١) الكشاف، ٢/ ٣٧١، وتفسير القاسمي، ٩/ ٨٢.

(٢) روي في قصتهم: أن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل، وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم يونس عليه السلام فكذبوه - قيل أنه أقام يدعوهم تسع سنين فيئس من إيمانهم - فذهب عنهم مغاضبا، فلما فقدوه خافوا نزول العذاب، فلبسوا المسوح وعجوا (رفعوا أصواتهم) أربعين ليلة، وقيل: قال لهم يونس: إن أجلكم أربعون ليلة، فقالوا: إن رأينا أسباب الهلاك آمنا بك، فلما مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيماً أسود هائلاً يدخن دخانا شديدا ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم ويسوّد سطوحهم، فلبسوا المسوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، وفرّقوا بين النساء والصبيان، وبين الدواب وأولادها، فحن بعضها إلى بعض، وعلت الأصوات والعجيج، وأظهروا الإيمان والتوبة=

قوم يونس لما آمنوا قبل معاينة العذاب كشف الله العذاب الذي كان سينزل بهم لو لم يؤمنوا، أو متصل بمعنى النفي: ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس[١]﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ فلم نهلكهم بعذاب استئصال وإبادة شاملة لأنهم لما رأوا أمارات العذاب بادروا إلى التوبة قبل نزوله بهم فكشف الله عنهم العذاب ومتعهم بالحياة إلى حين انقضاء آجالهم، فما لأهل أم القرى لا يتوبون كما تاب أهل نينوى من أرض الموصل وهو قوم يونس عليه السلام[٢].

وقد جاء تفصيل قصة يونس في سور أخرى[٣]، وما ذكر هنا في السورة التي خصه الله بها «سورة يونس» فيها من العبرة الشيء الكثير، لكون قومه استثناء من بقية الأقوام المكذبة حين تابت رفع الله عنها العذاب، ولما يناسب هذا القدر ما قبله في بيان سنة الله في أخذ الأقوام الذين أصروا على الكفر حتى رأوا العذاب.

ثم عاد الخطاب للرسول ﷺ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ولما كان ما مضى ربما أوجب اعتقاد أن إيمان مثل أولئك محال، جاءت هذه الآية في مقام الاحتراس منه مع البيان لأن حرص الرسول ﷺ على إيمانهم لا ينفع، ومبالغته في إزالة الشبهات وتقرير الدلائل لا تفيد إلا بمشيئة الله تعالى لتوفيقهم وهدايتهم، ولو كان ذلك وحده كافيا لآمنوا بهذه

=وتضرعوا، فرحمهم الله وكشف عنهم، وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة، وعن ابن مسعود: بلغ من توبتهم أنهم ترادّوا المظالم، حتى إن الرجل كان يقتلع الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيرده، وقيل: خرجوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا: قد نزل بنا العذاب فما ترى؟ فقال لهم: قولوا: « يا حي حين لا حيّ، ويا حيّ محيي الموتى، ويا حيّ لا إله إلا أنت» فقالوها فكشف عنهم، وعن الفضيل بن عياض: قالوا: «اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت، وأنت أعظم منها وأجل، افعل بنا ما أنت أهله، ولا تفعل بنا ما نحن أهله» راجع: الكشاف ٢/ ٣٧١-٣٧٢، والجامع لأحكام القرآن، ٨/ ٣٢٣-٣٢٤.

(١) الكشاف ٢/ ٣٧١.

(٢) أيسر التفاسير، ٢/ ٥١٠.

(٣) جاء ذكر قصة يونس في سور أخرى هي: القلم:٤٤-٥٠، الصافات: ١٣٩-١٤٨، والأنبياء: ٨٧-٨٨.

السورة فإنها أزالت شبهاتهم.. [١] فقال: لو شاء.. ويحمل دلالتين: الأولى: أن عرض الله تعالى الإيمان على أهل مكة وحضهم عليه وتوبيخهم على تركه لا ينبغي أن يفهم منه أن الله عاجز عن جعلهم يؤمنون، بل لوشاء إيمان أهل الأرض جميعا لآمنوا، والثانية: تسلية الرسول ﷺ والتخفيف عنه من ألم وحزن لعدم إيمان قومه، وهو يدعوهم بجد وحرص ليل نهار فأعلمه ربه أنه لو شاء إيمان كل من في الأرض لآمنوا، ولكنه التكليف المترتب عليه الجزاء، فيعرض الإيمان على الناس عرضا لا إجبار معه فمن آمن نجا، ومن لم يؤمن هلك، ويدل على ذلك قوله له ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾أي: إن هذا ليس لك ولا كلفت به[٢]وهو سؤال إنكار ينكر على رسوله شدة حرصه على إيمان قومه، وتشكل الآية قاعدة كلية في الكفر والإيمان، فلو شاء ربك لخلق هذا الجنس البشري خلقة أخرى، فجعله لا يعرف إلا طريقا واحدا هو طريق الإيمان كالملائكة مثلاً، أو لجعل له استعدادا واحدا يقود جميع أفراده إلى الإيمان.. ولو شاء لأجبر الناس وقهرهم عليه حتى لا تكون لهم إرادة إلا في اختياره[٣]، فإن هذا الإكراه لن يكون فأكده ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾تقرير لما مضى من أن الإيمان لا يتم لأحد إلا بإرادة الله وقضائه، ووفق سننه الماضية فمن أراد الإيمان أخذ بأسباب الهداية المؤدية إليه، ولا يمنع أحد أراده وسلك طريقه، لمن أراد أن ينتفع بعقله﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: إلا أنه تعالى يدعو الناس إلى الإيمان مبينا لهم ثمراته الطيبة، ويحذرهم من التكذيب مبينا لهم آثاره السيئة، فمن آمن نجاه وأسعده، ومن لم يؤمن جعل الرجز الذي هو العذاب عليه محيطا به جزاء له لأنه لا يعقل، إذ لو عقل لما كذب[٤]، لما في هذه السورة من الدلائل إلى حد لا يحتاج فيه إلى غير مجرد العقل، فهم لا يعقلون لأنهم لم ينتفعوا بالآيات فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.

(١) نظم الدرر، ٣/ ٤٩٠.

(٢) أيسر التفاسير، ٢/ ٥١١.

(٣) في ظلال القرآن، ١١/ ١٨٢١.

(٤) أيسر التفاسير، ٢/ ٥١١.

الهدايات المستنبطة من المجموعة الثالثة

١- تقرير نبوة الرسول ﷺ، فالقرآن حق ونبوة محمد حق، وأدلة إثبات أحقيتهما: صدقهما فيما أخبرا به من قصص الأنبياء، ومغيبات المستقبل، وغيرها من الآيات.

٢- سؤال من لا يعلم أهل العلم، فعلى الشاك في شيء أن يبادر إلى سؤال العلماء لإزالته وتثبيت يقينه وترسيخ عقيدته، لأن الشك والافتراء في أصول الدين وفروعه كفر، ولذلك كانت الإحالة في تبين صدق القرآن وصحة النبوة على من أسلم من اليهود كعبد الله بن سلام وأمثاله. ومنهج القرآن هو سؤال أهل الذكر، ولو كان أخص أمور العقيدة، لأن المسلم مكلف أن يستيقن من عقيدته ولا يعتمد على التقليد دون تثبت.

٣- التكذيب بآيات الله كفر وصاحبه من الخاسرين، ولكن افتراض الشك أحيانا يفيد في إثبات عكسه وهو اليقين، وهذه نظرية أخذ بها بعض الفلاسفة مثل (ديكارت).

٤- الخطاب في الآيتين﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ ﴾ و﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ ﴾ للنبي ﷺ والمراد غيره فالفاء مع حروف الشرط لا توجب الفعل ولا تثبته، والدليل قول الرسول ﷺ لما نزلت الآية: «والله لا أشك»، يقول سيد قطب: وهذا التعريض يترك الفرصة لمن يريد منهم أن يرجع ليرجع، لأنه إذا كان الرسول ﷺ مأذونا في أن يسأل إن كان في شك، ثم هو لا يسأل ولا يشك، فهو إذن على يقين مما جاء به أنه الحق، وفي هذا إيحاء للآخرين ألا يترددوا وألا يكونوا من الممترين[1].

٥- تقرير عقيدة القضاء والقدر، واحتج أهل السنة بهذه الآية﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾في إثبات القضاء اللازم والقدر الواجب، وقال الزمخشري: ثبت عليهم قول الله الذي كتبه في اللوح، وأخبر به الملائكة أنهم يموتون كفارا، فلا يكون غيره، وتلك

(١) في ظلال القرآن ١١/ ١٨٢٠.

كتابة معلوم لا كتابة مقدر.[١] وهم الذين ثبت عليهم غضب الله وسخطه بمعصيتهم لا يؤمنون، حتى ولو جاءتهم الآيات تترى بما يطلبون.

٦- عدم قبول توبة من عاين العذاب في الدنيا بأن رأى ملك الموت مثلاً، قال ﷺ: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[٢] أو عندما يرى العلامات القطعية كما أخبر ﷺ: «لا تقبل التوبة حين ظهور الشمس من مغربها»، وفي الآخرة بعد أن يبعث ويشاهد أهوال القيامة لانقطاع العمل، وحين يتيقن من العذاب والهلاك كحالة فرعون لا ينفعهم الإيمان لأنها توبة يائس، وإلجاء وقسر وليس اختياراً. ولذا ففيها الحض على الإيمان وقت الرخاء والسعة قبل الإحاطة بالعذاب، ومن رحمة الله تعالى لعباده دعوتهم للإيمان وحضهم عليه.

٧- قبول التوبة قبل معاينة العذاب ورؤية العلامات لا تمنع التوبة، فقوم يونس تقبل الله توبتهم عند رؤية العلامات التي تدل على العذاب، ولو رأوا عين العذاب لما نفعهم الإيمان[٣] وقد رأى سيد قطب أن ما يستفاد من هذه اللمحة من قصة قوم يونس أمران هامان:

أولهما: الإهابة بالمكذبين أن يتعلقوا بخيوط النجاة الأخيرة، فلعلهم ناجون كما نجا قوم يونس من عذاب الخزي في الدنيا، وهو الغرض المباشر من سياق القصة هذا المساق.

وثانيهما: أن سنة الله لم تتعطل ولم تقف بكشف هذا العذاب، وترك قوم يونس يتمتعون فترة أخرى، بل مضت ونفذت، لأن مقتضى سنة الله كان أن يحل العذاب بهم لو أصروا على تكذيبهم حتى يجيء، فلما عدلوا قبل مجيئه جرت السنة بإنجائهم نتيجة لهذا العدول فلا جبرية إذن في تصرفات الناس، ولكن الجبرية في ترتيب آثارها عليها[٤]، وعلى الداعي

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٧١.

(٢) رواه الترمذي برقم (٣٥٣٧) في كتاب الدعوات، باب في فضل التوبة، وابن ماجة (٤٢٥٣) في كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، وأحمد ٢/ ١٢٣، ١٥٣، وقال الألباني في صحيح الجامع (١٩٠٣): حسن.

(٣) تفسير الطبري، م٦ ج١١/ ٣٨٤، ونسب القول للزجاج.

(٤) في ظلال القرآن، ١١/ ١٨٢١.



أن يفهم المدعوين بقبول توبة التائبين، حتى لا ييأس العصاة من صلاحهم ومن رحمة الله بهم، والآيات الدالة على ذلك كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣]، ويستحسن أن يذكروا للناس توبة قوم يونس[١].

٨- لا إيمان إلا بإذن الله وقضائه، فلا ينبغي للداعي أن يحزن على عدم إيمان الناس إذا دعاهم ولم يؤمنوا، لأن الله كتب عذابهم أزلا وقضى به. والإكراه في الدين ممنوع، فقد كان الرسول ﷺ حريصا على إيمان جميع الناس فأخبره تعالى:﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾.

٩- جعل الله الرجس - وهو أبشع الدنس الروحي- لمن عطلوا عقولهم عن التدبر وانتهاؤهم بهذا إلى التكذيب والكفر، والرجس الذي يقابل الإيمان ليس إلا الكفر[٢].

مناسبة المقطع لمحور السورة

إن عرض المقطع لطرف من قصص بعض الأنبياء في تحديهم للكفار ظاهر الصلة بمحور السورة الذي هو إقرار الوحي والنبوة ونفي التعجب من إرسال محمد ﷺ ، من أنه ليس بدعا من الرسل، بل سبقه أنبياء كثير، كما أن تكذيب القوم سنة سبقت في الأمم قبلهم، إشارة إلى الشبه بين قوم قريش وجحودهم وعتوهم، وعتو تلك الأمم.

فقد ناقشت هذه السورة الشك في القرآن الكريم من ناحيتين: إنكار القوم أن ينزل الله عليهم وحيا، وهذا القرآن ليس وحيه، وكون الرسول ﷺ مفتريا على الله بنسبة هذا القرآن إليه، وفند ذلك كله، وإذ تبين أن القرآن لا شك فيه بذكر خصائصه، ذكر في هذا المقطع نموذجا لقصص أنبياء للإشارة إلى أن الله أرسل رسلا قبل محمد وأنزل عليهم وحيا، وقد بشروا

---

(١) المستفاد من قصص القرآن، ١/ ٤٧٣-٤٧٤.

(٢) انظر: أيسر التفاسير، ٢/ ٥٠٩، ٥١١، والتفسير المنير، ١١/ ٢٦٦، ٢٧٣، وفي ظلال القرآن ١١/ ١٨٢٠-١٨٢١.

وأنذروا، فكأن الله عز وجل بعد أن أقام الحجة على أن إرسال محمد ﷺ ليس بدعا للإيماء للمشابهة بين الأقوام[١].

ففي قصة نوح نفي العجب وجدية الإنذار كجزء من معالجة الشك في القرآن، وقصة موسى الذي اتهم بالسحر بكل المؤكدات ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ آية:٧٦، وجاء في العجب من الوحي لمحمد﴿ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ آية:٢، فكما اتهم محمد بالسحر اتهم موسى بنفس الصيغة، فتأتي قصة موسى لتؤدي دورها في نفي العجب من الإرسال وفي تبيان المواقف الخاطئة من الرسل، ولتبين نهاية المكذبين الغابرين ليحذر المكذبون الجدد[٢]، ثم يبين السياق أن الاستثناء الوحيد كان لقرية يونس، نفع معهم التخويف والإنذار بعد أن عاينوا أسبابه، فدعوا الله فرفع الضر عنهم لما عرف صدق التوبة منهم.

مناسبة المقطع لمقاطع السورة

المقطع له صلة بكل مقاطع السورة من عدة وجوه منها:

فيما مضى من السورة ذكر الله ناساً يتعجبون من أن ينزل الله وحياً، ويرسل رسولاً، وفي هذا المقطع قصص رسل بعثوا تفنيدا لمن يكذب بالوحي.

ومر في السورة أن الله حذر وأنذر من يكذب بالرسل بالعذاب الدنيوي والأخروي، وفي هذا المقطع قصة أقوام كذبوا فعذبوا.

ومر كذلك في السورة أن الله بشّر أهل الإيمان في الدنيا والآخرة، وفي هذا المقطع بيان العاقبة الحميدة لأهل الإيمان، فعن نوح﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ ﴾ و﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾[٣].

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى، م٥، / ٢٤٨٩.
(٢) المصدر السابق، م٥/ ٢٤٩٦.
(٣) السابق، م٥/ ٢٤٩٠



ولما تقدم سؤالهم بما يقترحون من الآيات ومضت الإشارة إلى أن تسييرهم في الفلك من أعظم الآيات... إلى أن بيّن هذا أن متاع المفترين الكذب قليل، ذكر هنا قصة نوح لأنهم كانوا أطول الأمم الظالمة، ثم أخذوا وزالت آثارهم[١].

وسبقت الإشارة في هذه السورة إلى القرون الخالية وما كان من عاقبة تكذيبهم واستخلاف من بعدهم لاختبارهم في قوله﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ آية:١٣-١٤

كما سبقت الإشارة بأن لكل أمة رسولاً فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾آية:٤٧.

فالسياق في هذا المقطع في جولة تفصيلية لهاتين الإشارتين فيسوق طرفا من قصة نوح مع قومه، وموسى مع فرعون وملئه تتحقق فيها عاقبة التكذيب والقضاء في أمر الأمة بعد مجيء رسولها وإبلاغها رسالته وتحذيرها عاقبة المخالفة، وتجيء إشارة عابرة لقصة يونس الذي آمنت قريته فرفع عنها العذاب ونجت بالإيمان، وهي لمسة لتزيين الإيمان للمكذبين لعلهم يتقون العذاب ولا تكون عاقبتهم كعاقبة قوم نوح وموسى المهلكين[٢]، بتفصيله لبعض ما فيها من إجمال.

فالقصص هنا متصل بما سبق من مقاصد السورة أتم الاتصال، بتفصيله لبعض ما فيها من إجمال وهو الاحتجاج على مشركي مكة وما حولها وسائر من تبلغهم الدعوة من المكذبين بأن الله تعالى سيخذلهم وينصر رسوله عليهم كما نصر من قبله من الرسل على أقوامهم المجرمين[٣].

---

(١) انظر: نظم الدرر، ٣/ ٤٦٥، بتصرف.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ١١/ ١٨٠٩-١٨١٠.

(٣) تفسير المنار، ١١/ ٤٥٨.

المقطع الرابع عشر

الدعوة إلى الدين الحق واتباع الإسلام

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [١٠١-١٠٩].

علاقة المقطع بما قبله

لما بيّن سبحانه أن الإيمان لا يحصل إلا بمشيئة الله، ولا ينبغي الإكراه عليه، خاطب الرسول ﷺ أن يأمر المكذبين بالنظر والاستدلال بالدلائل السماوية والأرضية، نظر تدبر وتفكر، حتى لا يتوهموا الجبر المحض، فالله خلق الإنسان وفيه استعداد للخير والشر، والإيمان والكفر، ومهمة الرسول التبشير والإنذار، والدين يساعد العقل على حسن الاختيار، لكن المكذبين عطلوا مداركهم عن التدبر فجعل الله الرجس عليهم لعدم الانتفاع بها، فأوضح هنا بأن الآيات والنذر لا تغني عن الذين لا يؤمنون وهي معروضة أمامهم فالسموات والأرض حافلتان بالآيات، فلم ينظروا فيهما النظر المؤدي للاستدلال على الوحدانية، لذا حذر مشركي قريش بالاعتبار بمن قبلهم بأن يحلّ بهم ما حلّ بمن مضى من المكذبين لأنبيائهم، فسنة الله لا تتبدل في إهلاك المكذبين ونصر الأنبياء ومن آمن معهم، ثم طلب من الرسول ﷺ أن يخبرهم

بأنهم إن استمروا على الشك فيما جاء به فإنه ثابت على ما جاء به، وهو دين الإسلام، وأمر رسوله بإظهار دينه وإظهار المفارقة بينه وبين الشرك لعبادتهم أوثان لا تضر ولا تنفع، ومن ثم إعلان مبدأ شريعة الله الموحاة إلى محمد ﷺ ، والتعريض بعقيدة المشركين في اعتقادهم الأصنام شفعاء، وأبطل أن تكون الأصنام نافعة أو ضارة وأن إرادة الله النفع أو الضر لأحد لا يستطيع أحد أن يصرفه، وأخيرا جاء النداء المؤكد بحرف (قد) بأن الحق قد بلغ إليهم وهو الدين الذي جاء به القرآن الكريم من ربهم(١).

التفسير الإجمالي

الآيات في دلالتها إرشاد وتذكير، وهي تحمل في مضمونها الوعيد والتهديد، لأولئك الذين أغمضوا أعينهم عن النظر في دلائل القدرة والوحدانية، وصموا آذانهم عن سماع دعوة الحق، فلم يستجيبوا لدعوة الله ولم يطيعوا رسل الله(٢).

طلب تعالى من المنكرين النظر ماذا في السموات والأرض من الآيات وواضح الدلالات التي أخرجتموها بإلفكم عن عداد الآيات، وهي عند التأمل من أعظم خوارق العادات.. ففي العالم العلوي في حركات الأفلاك ومقاديرها وأوضاعها والكواكب وما يختص بذلك من المنافع والفوائد، وفي العالم السفلي في أحوال العناصر والمعادن والنبات والحيوان وخصوصا حال الإنسان(٣).

فقل يا محمد لهؤلاء الكفار انظروا الظواهر الدالة على أسمائه وصفاته، وما أكثرها وما أغزرها، فهي تدل على وحدانيته وكمال قدرته، إذ المقصود من النظر المأمور به هنالك النظر للاستدلال على إثبات الوحدانية، فإن جحودهم إياها هو الذي أقدمهم على تكذيب الرسول ﷺ . ولكن الكافرين لا يستفيدون من ذلك شيئا ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ

---

(١) انظر: فتح القدير، ٢/ ٥٤١، روح المعاني، ٢٨٥، التحرير والتنوير، ١١/ ٣٠٠.

(٢) قبس من نور القرآن ص ١٩١.

(٣) نظم الدرر، ٣/ ٤٩٢.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾أي: وأي شيء تغني الآيات السماوية والأرضية (والنذر) الإنذارات أو الرسل المنذرون، بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها عن قوم لا يؤمنون؟ لقد عميت قلوبهم وصمت آذانهم فلم يعودوا يرون الحق ولم يعودوا يسمعونه، فإذا كان أمر هؤلاء كذلك فماذا بقي إلا انتظار العذاب[1]،﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا﴾ أي: وهل ينتظر كفار مكة إلا مثل أيام[2] أسلافهم وما حل بهم من العذاب والنكال؟﴿قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ فقل لهم يا محمد: انتظروا عاقبة البغي والتكذيب، فأنا معكم انتظر وعد ربي بهلاككم ودماركم،.. فقد كان الكفار في زمانه ﷺ يقولون سخرية واستهزاءً﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾آية:٤٨، فأمره تعالى أن يقول لهم ﴿قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾[3] إن سنة الله لا تتخلف وعاقبة المكذبين معروفة فجاءهم التهديد الذي ينهي الجدل.

ثم بشر تعالى رسوله بالنصر بعد الوعيد والتهديد للكفار فقال﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ كأنه قيل: نهلك الأمم ثم ننجي المرسل إليهم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بهم، وعبر بالمضارع لحكاية الحال الماضية لتهويل أمرها باستحضار صورها، وتأخير حكاية التنجية عن حكاية الإهلاك على عكس ما جاء في غير موضع ليتصل به قوله سبحانه:﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ننجيهم إنجاء كذلك الإنجاء الذي كان لمن قبلهم[4]، وجعله الله حقا عليه تحقيقا للتفضل به والكرامة حتى صار كالحق عليه[5].

وقد تكفل الله بنصرة الحق، ونصر أوليائه المؤمنين ورسله المكرمين، كما جاء في آيات

(١) الأساس في التفسير، م٥/ ٢٥١٦.

(٢) أي: مثل وقائعهم ونزول بأس الله تعالى بهم.. وجاء استعمال الأيام في الوقائع كقولهم: أيام العرب، وهو مجاز مشهور من التعبير بالزمان عما وقع فيه كما يقال: المغرب للصلاة الواقعة فيه. انظر: روح المعاني ١١/ ٢٨٧، وتفسير القاسمي ٩/ ٨٦.

(٣) قبس من نور القرآن ١٩١.

(٤) روح المعاني، ١١/ ٢٨٧.

(٥) التحرير والتنوير، ١١/ ٢٩٩.

أخرى، قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[الروم: ٤٧]، و﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾[غافر: ٥١]، و﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[المجادلة: ٢١]، إنها الكلمة التي كتبها الله على نفسه: أن تبقى البذرة المؤمنة وتنبت وتنجو بعد كل إيذاء وكل خطر، وبعد كل تكذيب وكل تعذيب[١].

ولما تقدمت آيات كثيرة في نفي الريب والشك عن القرآن وأقامت الأدلة والبراهين على ذلك وبشرت وأنذرت، فناسب هنا أن تأتي الآيات في ثبات الرسول ﷺ وأن الله مظهر دينه، رضي من رضي وسخط من سخط، لأن البيان وصل إلى غايته، مرشداً نبيه إلى أسلوب إلجام الخصم بالبرهان، فالآيات التالية تمثل القواعد الرئيسية للعقيدة التي دار حولها سياق السورة كلها.. وسيقت القصص لإيضاحها، وضربت الأمثلة لبيانها.. فكلف الرسول ﷺ أن يعلنها للناس إعلانا عاما، وأن يأتي إليهم بالكلمة الحاسمة: أنه ماض في خطته، مستقيم على طريقته حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.. فقال:﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أي: قل: أيها الناس جميعاً، وإن كان الذين يتلقون الخطاب إذ ذاك هم مشركي قريش، إن كنتم في شك من أن ديني الذي أدعوكم إليه هو الحق، فإن هذا لا يحولني عن يقيني، ولا يجعلني أعبد آلهتكم التي تعبدونها من دون الله﴿ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ أي يملك آجالكم وأعماركم، وإبراز هذه الصفة لله هنا له قيمتة وله دلالته، فهو تذكير لهم بقهر الله فوقهم، وانتهاء آجالهم إليه، فهو أولى بالعبادة من تلك الآلهة التي لا تحيي ولا تميت[٢]. وفي ذلك تعريض لطيف وإيماء إلى أن مثل هذا الدين لا يشك فيه، وإنما ينبغي أن تشكوا فيما أنتم عليه من عبادة الأصنام التي لا تعقل ولا تضر ولا تنفع، إذ عبادة الخالق لا

(١) انظر: في ظلال القرآن ١١/ ١٨٢٤.

(٢) في ظلال القرآن، ١١/ ١٨٢٥.

يستنكرها ذوو الفطرة السليمة، أما عبادة الأصنام فيستنكرها كل ذي لب وعقل سليم[(١)].

وجملة ﴿ فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ﴾واقعة موقع جواب الشرط ودالة عليه في المعنى فتقدير الجواب: فأنا على يقين من فساد دينكم، فلا أتبعه، فلا أعبد الذين تعبدونهم ولكن أعبد الله.

ولما كان مضمون هذه الجملة هو أصل دين الإسلام، فيجوز أن يكون في الآية معنى ثان أي: إن كنتم في شك من معرفة هذا الدين فخلاصته أني لا أعبد الذي تعبدون ولكني أعبد الله وحده، فيكون في معنى قوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ ﴾ [الكافرون:١-٢]، ثم قوله:﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾ [الكافرون:٦]، فيتأتى في الآية غرضان، ويكون المراد بالناس في قوله: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ جميع أمة الدعوة الذين لم يسلموا[(٢)].

﴿ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فأنا عند الأمر لا أتعدّاه. فهذا هو ديني الذي أدعو إليه، وأنا مأمور أن أكون عبداً مؤمناً مطيعا لربي، لا أعبد أحداً سواه، أما الأوثان التي تعبدونها أنتم فإنها حجارة صماء بكماء، والإنسان أشرف حالاً منها، فكيف يليق بالأشرف الأسمى أن يشتغل بعبادة الأخس الأدنى؟

وأريد بالمؤمنين الذين آمنوا بالله ورسوله ﷺ وبالقرآن والبعث، فإذا أطلق لفظ المؤمنين انصرف إلى القوم الذين اتصفوا بالإسلام.. وفي جعل النبي ﷺ من جملة المؤمنين تشريف لهذا الجمع وتنويه به[(٣)].

﴿ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ﴾ معطوف على جملة ﴿ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ولا يمنع من ذلك كون المعطوف بصيغة الأمر لأن المقصود من﴿ أَنۡ ﴾الدلالة على المصدر، وذلك لا يختلف بالخبرية والإنشائية، أو يكون المعطوف عليه في معنى الإنشاء، كأنه قيل: كن مؤمناً ثم

(١) تفسير المراغي، ١٠/ ١٦٢.
(٢) التحرير والتنوير، ١١/ ٣٠١.
(٣) التحرير والتنوير، ١١/ ٣٠٢.

أقم والمعنى: أن الله سبحانه أمر بالاستقامة في الدين والثبات فيه، وعدم التحول عنه بحال من الأحوال، وخصّ الوجه: لأنه أشرف الأعضاء، وأمره باستقبال القبلة في الصلاة وعدم التحول عنها، و«حَنِيفا» حال من الدين أو من الوجه، أي: مائلا عن كل دين من الأديان إلى دين الإسلام، ثم أكد الأمر المتقدم للنهي عن ضده فقال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ وهو معطوف على أقم وهو من باب التعريض بغيره ﷺ[1].

وقيل: هنا يتحول السياق من الحكاية إلى الأمر المباشر، كأن الرسول ﷺ يتلقاه في مشهد حاضر للجميع، وهذا أقوى وأعمق تأثيرأي: متوجها إليه خالصا له، موقوفاً عليه،﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ زيادة في توكيد معنى الاستقامة للدين، فيكون من المؤمنين عن طريق النهي المباشر عن الشرك بعد الأمر المباشر بالإيمان[2].

وفيه معنى التوجه إلى الله وحده في الدعاء وغيره بدون التفات إلى شيء سواه، ونحو الآية قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٧٩﴾ [الأنعام:٧٩].

بعد هذا الإعلان العظيم والمفاصلة الكاملة والتعريض الواضح بما عليه أهل مكة من الضلال والخطأ الفاحش، واجه الله تعالى رسوله بالخطاب وهو من باب «إياك أعني واسمعي ياجارة» فنهاه بصريح القول أن يدعو من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره، وهو كل المعبودات ما سوى الله عزّ وجل[3]فقال: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ ولا تدع أيها الرسول غيره تعالى دعاء عبادة لا على سبيل الاستقلال ولا على سبيل الاشتراك بوساطة الشفعاء ما لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يضرك إن تركت دعاءه ولا إن دعوت غيره﴿ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾فإن فعلت هذا ودعوت غيره كنت في هذه الحال من الذين ظلموا

(١) فتح القدير، ٢/ ٥٤٢.
(٢) في ظلال القرآن ١١/ ١٨٢٥.
(٣) أيسر التفاسير، ٢، ٥١٥.

أنفسهم، ولا ظلم لها أكبر من الشرك بالله تعالى،... لإضافة التصرف إلى ما لا يصدر منه، فهو وضع الشيء في غير موضعه[1]. وقد ذكر تعالى بأن الشرك أكبر الظلم في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣].

ثم أكد تعالى سلب صلاحية النفع والضر من غير الله فقال:﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ فالضر نتيجة لازمة لسنة الله الجارية حين يتعرض الإنسان لأسبابه والخير كذلك، فإن مسك الله بضر، بأن تتعرض لضرر يمس جسمك أو مالك من مرض أو فقر أو ألم، فلا كاشف ولا رافع له إلا الله، فلن يكشفه عنك إنسان، إنما يكشف باتباع سنته وترك الأسباب المؤدية إلى الضر إن كانت معلومة، أو الالتجاء إلى الله ليهديك إلى تركها إن كانت مجهولة، وقد جعل سبحانه للأشياء أسباباً يعرفها خلقه بتجاربهم ككشف الأمراض بمعرفة أسبابها ومعرفة خواص العقاقير التي تداوى بها، فعلينا أن نطلبها من الأسباب ونأتي البيوت من أبوابها ونتوجه إلى الله وحده، وندعوه مخلصين له متوكلين عليه.﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ وإن أراد بك الخير ثمرة لعملك وفق سننه فلن يرد هذا الفضل عنك أحد من خلقه، وهذا الفضل قد يكون في دينك أو دنياك من نصر ورخاء ونعمة وعافية، فلا دافع لفضله إلا الله، إذ لا راد لقضائه، فهو يمنح ويمنع، ويعطي ويحرم يفعل كل ذلك بحكمة وعلم، فهذا الفضل يصيب به من عباده من يتصلون بأسبابه وفق مشيئته العامة وسننه الماضية، والفضل الإلهي يكون عادة عاماً بعموم الرحمة، أما الضرر فإنه لا يقع إلا بسبب، فإن البلاء لا يقع إلا بذنب، ولا يرتفع إلا بتوبة، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]، ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ الذي يغفر ما مضى متى وقعت التوبة، ويرحم عباده فيكفر عنهم سيئاتهم بتوبتهم وعملهم الصالح وعودتهم إلى الصراط المستقيم، ولولا مغفرته الواسعة ورحمته العامة لأهلك الناس جميعا بذنوبهم في الدنيا قبل الآخرة كما قال: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا

(١) تفسير المراغي، ١٠/ ١٦٣، والتفسير المنير، ١١/ ٢٨٢.

تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى[١] ﴾ [النحل:٦١].

وقد جاء في الحديث الشريف قوله ﷺ «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[٢]، ومن أدعية النبي ﷺ : «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجَد منك الجَد»[٣].

ما مرّ من الآيات من الأوامر والنواهي، والأجوبة على ما يقترحونه على وجه التعنت، والختام بأن من دعا غيره كان راسخاً في الظلم لا مجير له منه، كل ذلك كان خلاصة العقيدة، مما تضمنته السورة، وقد كلف رسول الله ﷺ أن يعلنها للناس، ويوجه إليه الخطاب بها كاملاً على مشهد منهم، وهم هم المقصودون بها، إنما هو أسلوب من التوجيه الموحي المؤثر في النفوس ختم ذلك إكمالاً للدعوة بإعلان آخر للناس هو أن فائدة الطاعة راجعة إليهم، وضرر النفور عائد عليهم فقال تعالى:﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ وفيها وجهان: القرآن والرسول[٤] هذا هو الإعلان الأخير: قل أيها الرسول للناس قاطبة، من حضر ومن ستبلغه هذه الدعوة، قد جاءكم الحق المبين من ربكم، أي الكامل بهذا الرسول ﷺ وهذا الكتاب وهو القرآن، وهو خير عظيم أصابكم المحسن إليكم﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾ بالإيمان بمحمد ﷺ وعمل بما في الكتاب، ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ﴾ أي منفعة اهتدائه لها خاصة، لأنه اتبع الحق الثابت وترك الباطل الزائل، فأنقذ نفسه من النار وأوجب لها الجنة، وفيها وجهان أيضاً: أحدهما:

---

(١) انظر: في ظلال القرآن، ١١/ ١٨٢٥-١٨٢٦، وتفسير المراغي، ١٠/ ١٦٤، والتفسير المنير، ١١/ ٢٨٢-٢٨٣.

(٢) رواه الترمذي في صفة القيامة والرقاق والورع عن رسول الله ﷺ برقم (٢٥١٦) ٤/ ٦٦٧، وقال: حسن صحيح، وأحمد (٢٦٦٩) ١/ ٢٩٣، والبيهقي في شعب الأيمان (١٩٥) ١/ ٢١٦-٢١٧.

(٣) رواه ابخاري في كتاب الصلاة باب الذكر بعد الصلاة، برقم(٨٠٨) وفي كتاب القدر، باب لا مانع لما أعطى الله (٦٢٤١، ٦٨٦٢)، ومسلم في كتاب الصلاة في ثلاثة أبواب برقم (٤٧١، ٤٧٦، ٥٩٣).

(٤) النكت والعيون، تفسير الماوردي، ٢/ ٤٥٤.

فمن اهتدى لقبول الحق فإنما يهتدي بخلاص نفسه، والثاني: فمن اهتدى إلى معرفة الحق، فإنما يهتدي بعقله[١] ﴿ وَمَن ضَلَّ ﴾ أي بالكفر بهما أو بشيء منهما، ﴿ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ فوبال الضلال عليها، لأنه ترك الباقي وتمسك بما ليس في يده منه شيء لأنه فان فقد غرّ نفسه، والمعنى: لم يبق لكم بمجيء الحق عذر، ولا على الله حجة، فمن اختار الهدى واتباع الحق، فما نفع إلا نفسه ومن آثر الضلال فما ضر إلا نفسه،﴿ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ ولما كان السياق لنفي تصرفه ﷺ فيهم وأن ذلك إنما هو إلى الله تعالى، كان تقديم ضميرهم أهم، أي: بحفيظ موكول إلى أمركم، وإنما أنا بشير ونذير، فلا يطلب مني حفظكم مما يؤدي إلى الهلاك ومنعه عنكم كما يطلب من الوكيل[٢]، فليس الرسول موكلاً بالناس يسوقهم إلى الهدى سوقاً، إنما هو مبلغ، وهم موكولون إلى إرادتهم وإلى اختيارهم، وإلى تبعاتهم، وإلى قدر الله بهم في النهاية.

والختام خطاب للرسول ﷺ باتباع ما أمر به والصبر على ما يلقاه حتى يحكم الله بما قدره وقضاه﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾ في التبليغ وإن لم يهتدوا، فعليك اتباع الوحي الذي أنزل إليك في كتابه، اعمل به وعلّمه لأمتك، وذلك على نهج التجديد والاستمرار، والتعبير عن الحق المفسر بالقرآن إليهم بالمجيء، وإليه ﷺ بالوحي تنبيه على ما بين المرتبتين من التنافي[٣]، ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾على أذاهم في الدعوة في كل ما يصيبك من الأذى والمكاره مما تناله من قومك،﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ﴾ حتى يقضي الله بينك وبين المكذبين لك، بالنصر عليهم والغلبة،﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾وينجز لك ما وعدك، وقد حكم وشاء قتلهم وأسرهم يوم بدر، وله الأمر من قبل ومن بعد[٤].

وهو الختام المناسب الذي يلتقي مع مطلع السورة، ويتناسق مع محتوياتها بجملتها على طريقة القرآن في التصوير والتنسيق[٥].

---

(١) المصدر السابق

(٢) تفسير القاسمي، ٩/ ٨٩، ونظم الدرر ٢/ ٤٩٦.

(٣) روح المعاني، ١١/ ٢٩٥.

(٤) تفسير القاسمي، ٩/ ٩٠، وتفسير المراغي ١٠/ ١٦٥.

(٥) في ظلال القرآن ١١/ ١٨٢٦.

الهدايات المستنبطة من المقطع

١- إن النظر في السموات والأرض يوصّل إلى الإيمان، فمن نظر في التاريخ وتقلبات الأيام وحياة الرسل وحياة أهل الإيمان وعاقبة كل منهما فإنه سيجد في ذلك ما يدفعه للإيمان، إلا إذا كان ممن عمي قلبه، وعندئذٍ فلينتظر مصيره المظلم[١]، يقول المرحوم سيد قطب: والنظر إلى ما في السماوات والأرض يمد القلب والعقل بزاد من المشاعر والتأملات، وزاد من الاستجابات والتأثرات، وسعة الشعور بالوجود، والتعاطف معه، وذلك كله في الطريق إلى إمتلاء الكينونة البشرية بالإيقاعات الكونية الموحية بوجود الله، وجلالة تدبيره وسلطانه وحكمته وعلمه، والمعارف الحديثة عن هذا الكون زادت هذا الزاد للبشرية إن كان الإنسان مهتدياً بنور الله، من التأمل في الكون والتعرف عليه والاشتراك معه في التسبيح بحمد الله ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء:٤٤] ولا يفقه تسبيح كل شيء بحمد الله إلا الموصول قلبه بالله[٢].

٢- لا تنفع الآيات السماوية والأرضية والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها غير المؤمنين، ومن عميت قلوبهم وصمت آذانهم لم يعودوا يرون الحق ويسمعونه، ولذلك فالمعارف العلمية إذا لم تصادف بشاشة الإيمان ونوره فإنها تقود صاحبها إلى مزيد من البعد عن الله، كما لا تنفع الموعظة – مهما بولغ فيها – عبدا كتب أزلاً من أهل النار[٣].

٣- البشارة للرسول ﷺ بالنصر له ولأتباعه المؤمنين لقوله تعالى:﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، وسنة الله مطردة في نصر أنبيائه وأوليائه، ووعده ثابت لأوليائه بإنجائهم من الهلاك عند إهلاك الظلمة المشركين، وما ينتظر الظلمة

---

(١) الأساس في التفسير، م٥/ ٢٥١٦.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، ١١/ ١٨٢٢ (بتصرف)

(٣) أيسر التفاسير/ ٢/ ٥١٣.

في كل زمان ومكان ليس إلا ما حل بمن ظلم من قبلهم من الخزي والعذاب[١].

٤- تعليم الحوار مع الشّاكين، وكيف يقابل موقف الشك من هذا القرآن، وذلك بمقابلة ذلك بمزيد من التنائي عن المشركين والشرك، بالإقبال على الله والإخلاص له وإفراده بالعبادة والدعاء، كما يفيد موقف الرسول بإعلانه البراءة مما يشركون تعلم مواقف التحدي والاعتزاز بالدين.

٥- إن شك الشاك لا يبطل إيمان المؤمن، ولا يؤثر عليه، فلذا لم يترك محمد دينه الذي وثق فيه من أجل أن الآخرين يشكون في صحته، وفي الوقت نفسه لم يفرض عليهم أن يؤمنوا بدينه قهرا وجبرا.. فعلى المؤمن أن لا يترك الحق، لأن الحق لا يشك فيه، ويستحسنه ذووا العقول الصحيحة والفطرة السليمة، وأما عبادة الأصنام فمقطوع ببطلانها لأنها لا تعقل ولا تضر ولا تنفع، ويستنكرها كل عاقل فإنها أحجار، ويلاحظ التدرج في نفي عبادة غير الله، لأن الإزالة في كل شيء بقصد إصلاحه مقدمة على الإثبات، والتخلي مقدم على التحلي، فالتدرج من نفي عبادة الأصنام إلى إثبات من يعبده وهو الذي يتوفاكم، وفي ذكر الوصف الدال على التوفي دلالة على البدء وهو الخلق وعلى الإعادة[٢].

٦- تخصيص الله بالعبادة في قوله تعالى:﴿ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ﴾ أي لا أعبد غيره من معبوداتكم، وتخصيص صفة المتوفي من بين صفاته الأخرى: لما في ذلك من التهديد لهم أي: أعبد الله الذي يتوفاكم فيفعل بكم ما يفعل من العذاب الشديد، ولكونه يدل على الخلق أولاً وعلى الإعادة ثانياً، ولكونه أشد الأحوال مهابة في القلوب، ولكونه قد تقدم ذكر الإهلاك والوقائع النازلة بالكفار من الأمم السابقة، فكأنه قال: أعبد الله الذي وعدني بإهلاككم.[٣]

---

(١) الإنسان بين التقدير والتكليف، ص ١٩٢. وأيسر التفاسير، ٢/ ٥١٣.

(٢) التفسير المنير، ١١/ ٢٨١، وانظر: أيسر التفاسير ٢/ ٥١٥، والتيسير في أحاديث التفسير، ٣/ ٩٠.

(٣) فتح القدير، ٢/ ٥٤٢

٧- الشرك ظلم للنفس، فدعوة غير الله نفعاً وضراً هو شرك، وفي الخطاب للرسول ﷺ﴿ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾فحاشا النبي ﷺ أن يفعل ذلك فالخطاب له تثبيت ولغيره تحذير.

٨- عبّر تعالى بالفضل مكان الخير ﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ للإرشاد إلى أنه يتفضل على عباده بما لا يستحقون بأعمالهم،... وفي تخصيص الإرادة بالخير والمس بجانب الشر دليل على أن الخير يصدر عنه سبحانه بالذات، والشر بالعرض، [١] وقيل: ذكر المس في أحدهما، والإرادة في الثاني، للإشارة إلى أنهما متلازمان، فما يريده يصيبه، وما يصيبه لا يكون إلا بإرادته، لكنه صرح في كل منهما بأحد الأمرين إشارة إلى أن الخير مقصود بالذات له تعالى، والضر إنما وقع جزاء لهم على أعمالهم، وليس مقصوداً بالذات، لذا لم يعبر فيه بالإرادة. وقيل: قصد الإيجاز فذكر في كل من الفقرتين المتقابلتين ما يدل على إرادة مثله في الأخرى، لاقتضاء المقام تأكيد كل من الترغيب والترهيب، وهو نوع من البديع، يسمى احتباكاً[٢].

٩- في الآيات من صفات الإله الحق القادر على كل شيء المتصرف في شؤون عباده ما يحمل إلى استحقاقه للعبادة ونبذ الشرك، وبيان أن الضار والنافع هو الله تعالى، أما تخصيص العبادة وإخلاصها بنحو كامل نقي لله عز وجل فيتطلب ضوابط تفهم من الآيات الثلاث الأولى كالامتناع المطلق عن عبادة غيره بمختلف الأشكال، وعبادته دون سواه مع التصديق الكامل الذي لا يخالجه شك، والاستقامة على أمر الدين[٣].

١٠- النفع والضر من القدر، وقد مرّ في السورة قوله تعالى:﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ آية: ٤٩، فكل ما يصل إلى المخلوق فبقضائه سبحانه وبقدره. وتقرير مبدأ أن المرء يشقى ويسعد بكسبه لا بكسب غيره، ومن شواهده في القرآن ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) تفسير القاسمي، ٩/ ٨٨-٨٩. والكشاف ٢/ ٣٧٥.

(٣) انظر تفاصيل هذه الشروط في التفسير المنير، ١١/ ٢٨٣-٢٨٤.

١١- تقرير أن القرآن حق والرسول ﷺ حق والإسلام حق، فالإسلام دين الحق وشريعة الله الكاملة، والقرآن مصدر هذا الحق والشرع، والرسول ﷺ هو المعبر عن الدين الحق المبلغ له، والإسلام منهج هداية والاستمساك به هو طريق النجاة، فمن اتبع سبيل هدايته الإلهية فاز ونجا، ومن تنكب طريق الحق هلك وكل ذلك يعود عليه.

١٢- إعلان الوصية العامة للدعوة وتتضمن عدة أمور:

أ- وجوب اتباع الوحي الإلهي الذي تضمنه القرآن والسنة الصحيحة، والاهتداء بهما وهو المقصود بالحق. ويتضمن اتباع الرسول ﷺ الموحى إليه لأنه الأسوة للمسلمين والوصية بالصبر للتنويه على الصعوبات المقبلة، وفي الأمر بالاتباع توحيد في العقيدة والمنهج والبلاغ والتطبيق[1].

ب- تنزيه ساحة الرسالة عن شائبة غرض عائد إليه ﷺ في قوله تعالى ﴿ مِن رَّبِّكُمْ ﴾من جانب نفع أو ضر، كما يلوح به إسناد المجيء إلى الحق، من غير إشعار بكون ذلك بواسطته[2].

ج- تسلية الرسول ﷺ ووعده للمؤمنين، ووعيده للكافرين متضمن في قوله تعالى:﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾، والآية وعد سابق من الله لرسوله - وهو لا يزال بمكة يكافح الشرك والمشركين- بما سيناله دينه من الظهور على بقية الأديان، وبما سيناله أتباعه من نصر مؤزر وفتح قريب.. [3]

د- أهمية الصبر في الدعوة، وهو شأن كل الأنبياء والدعاة، لذلك فالأمر بالصبر دليل فضيلته فلا بد منه للداعية وهو ينتظر الفرج من الله مهما طال.

---

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ١٠/ ٦٢٦٢- ٦٢٦٧.

(٢) تفسير القاسمي، ٩/ ٨٩.

(٣) روح المعاني، ١١/ ٢٩٥، والتيسير في أحاديث التفسير، ص ٩١.

هـ- شرف أمة محمد ﷺ بالدعوة لأنها تستمر بالدعوة بعده، وفي ثنايا السورة كان قد وعدهم الله بخلافة الأرض - آية ١٤- وأنه يختبرهم بهذه الخلافة.

وما على الدعاة إلا الاتباع والامتثال والاستمرار مهما اشتدت المحن، واضعين نصب أعينهم هذا التوجيه الحكيم للرسول ﷺ: «واتبع... واصبر»، قال الزمخشري: روي أنها لما نزلت هذه الآية جمع رسول الله ﷺ الأنصار فقال: «إنكم ستجدون بعدي إثرة فاصبروا حتى تلقوني»[(١)]، فالسر والله أعلم أنه لما أعلمت هذه الآية أن من اتبع الوحي ابتلى بما ينبغي الصبر عليه.. وكان الأنصار عليهم السلام أحق بهذا الوصف من غيرهم..[(٢)].

و- في الختام يشعر التعبير القرآني في قوله تعالى:﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ بالإنصاف في رد الحقوق، وهو كناية عن معاقبة الظالم، لأن الأمر بالصبر يشعر أن المأمور معتدى عليه، وفيه إيماء بأن الله ناصر رسوله والمؤمنين، لأنه خير الحاكمين، فهو يحكم وينفذ لأنه الشاهد الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، كما قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [التين: ٨].[(٣)]

مناسبة المقطع لمحور السورة

أن محور السورة كان عن معالجة الشك في القرآن وإثبات الوحي والرسالة والتحدي به وضرورة اتباعه، وقد تم ذلك بصورة مباشرة وغير مباشرة، وجاء هذا المقطع في نفس سياق المحور، آمراً بالنظر في ملكوت الله كطريق للوصول للإيمان بالله وكتابه، ومن ثم نفى الشك عن دين محمد الذي جاء عن طريق الوحي بهذا الكتاب، والإعلان بأنه حق وواجب الاتباع مع الصبر في الدعوة إليه، حتى يحكم الله فيعاقب المكذب به ويجزي المصدق العامل به منهجا

(١) رواه البخاري برقم (٣١٦٣، ٣٧٩٤، ٢٣٧٦)، والنسائي في السنن الكبرى (٨٣٣٥) وأحمد ٣/ ٢٢٤، ١١١، ١٨٢، ١٧١ من حديث أنس.

(٢) انظر: نظم الدرر، ٢/ ٤٩٦-٤٩٧، والكشاف، ٢/ ٣٧٥.

(٣) التحرير والتنوير، ١١/ ٣١٠، وتفسير الشعراوي، ١٠/ ٦٢٧٢.

للحياة، لذا فالمقطع هو تأكيد للمحور باعتباره خاتمة السورة وخلاصته.

مناسبة المقطع لبقية المقاطع

المقطع مترابط ومتتابع بوضوح مع بقية المقاطع، في التأكيد على العقائد (التوحيد والوحي والكتب والرسل واليوم الآخر، والقدر) ففي التوحيد جاء الأمر بالنظر إلى ما يوصل إليه في الكون، وفي الأمر بالعبادة، وانفراده تعالى بالمشيئة، كل ذلك مما هو مكرر في المقاطع السابقة بأسلوب بديع ونظم بليغ بحيث يحدث في نفس سامعها أروع الاقناع والتأثير من حيث لا يشعر بما فيه من التكرار[١]، وفي الأمر باتباع الوحي في هذا المقطع وأن الرسول متبع له عملاً وتبليغاً، فقد مرّ ذلك في ثنايا السورة ومقاطعها، ومثل ذلك في صفاته تعالى من العلم والمشيئة والعزة والرحمة، وجاء في هذا المقطع أنه بيده الضر والنفع وأنه خير الحاكمين، في إشارة للبعث والجزاء الذي تكرر في السورة حتى بلغ ثلثها، كما مر تنزيهه وغناه عمن سواه، وفي الوحي المحمدي وهو محور السورة جاء في الافتتاح نفي العجب من وحيه، ومن ثم نفي اقتراح المشركين أن يأتي بغيره أو يبدله، وإيراد الحجج العقلية عليه لكون ﷺ لبث فيهم عمراً ويعرفون صدقه كما جاء نفي الافتراء عنه، وبيان مقاصده وخصائصه، حتى إذا ما جاء هذا المقطع الأخير في الآيات الأخيرة من السورة كان خلاصة لذلك كله في تبليغ الدعوة للناس كافة بأنه الحق والأمر بالاتباع، وعليهم الاختيار إلى أن يحكم الله، وهو تهديد للمكذبين، مع بيان ضرورة الصبر في التبليغ[٢]، وقد ختم تعالى السورة بما ابتدأها به من أمر الكتاب والإشارة لما ينفع من ثمرة إنزاله وهو العمل بما دل عليه، أو أشار إليه... وهذا لعينه هو أول التي بعدها، فكان ختم هذه السورة وسطا بين أولها وأول التي تليها، ففيه رد المقطع على المطلع، وتتبع لما استتبع[٣].

---

(١) تفسير المنار، ١١/ ٤٩٤.

(٢) انظر تفصيل ذلك في: تفسير المنار في الخلاصة الإجمالية للسورة عند نهايتها، وجاءت هذه الخلاصة لسورة يونس في ستة أبواب، ١١/ ٤٩٤-٥١٠.

(٣) نظم الدرر، ٢/ ٤٩٧.

سورة هود

أولاً: بين يدي السورة:

أ - اسم السورة: سميت هذه السورة الكريمة باسم نبي الله (هود) ﷺ. قال ابن عاشور: « سميت في جميع المصاحف وكتب التفسير والسنة سورة هود، ولا يعرف لها اسم غير ذلك، وكذلك وردت هذه التسمية عن النبي ﷺ في حديث ابن عباس أن أبا بكر قال: «يا رسول الله قد شِبتَ ؟ قال: شيبتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت». رواه الترمذي[1] بسند حسن في كتاب التفسير من سورة الواقعة. وروي من طرق أخرى بألفاظ متقاربة يزيد بعضها على بعض.

ثم قال ابن عاشور: «وسميت باسم هود لتكرر اسمه فيها خمس مرات، ولأن ما حكي عنه فيها أطولُ مما حكي عنه في غيرها، ولأن عاداً وُصفوا فيها بأنهم قومُ هود في قوله: ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾هود:٦٠[2]

ب - مكية السورة أو مدنيتها: السورة مكية إجماعاً[3]. قال الأستاذ رشيد رضا: «هي مكية حتماً كالتي قبلها، واستثنى بعضهم منها ثلاث آيات. الأولى:﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ ﴾ ١٢. والثانية:﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ ١٧. والثالثة: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ﴾١١٤. قيل: إن هذه الآيات الثلاث مدنية، وهو خلاف الظاهر ولا يقوم عليه دليل»[4].

ويقول سيد قطب: «هذه السورة مكية بجملتها. خلافاً لما ورد في المصحف الأميري من أن الآيات (١٢، ١٧، ١١٤)فيها مدنية. ذلك أن مراجعة هذه الآيات في سياق السورة تلهم أنها تجيء في موضعها من السياق، بحيث لا يكاد يتصور خلو السياق منها بادئ ذي

---

(١) سنن الترمذي (متن عارضة الأحوذي) ـأبواب التفسير ـ من سورة الواقعة، ١٢/ ١٨١.

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور١١/ ١٩٧.

(٣) بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ١/ ٢٤٦، مصاعد النظر للبقاعي ٢/ ١٧٠.

(٤) تفسير المنار ١٢/ ٣.

بدء. فضلاً عن موضوعاتها التي تقررها هي من صميم الموضوعات المكية المتعلقة بالعقيدة، وموقف مشركي قريش منها، وآثار هذا الموقف في نفس رسول الله ـ ﷺ ـ والقلة المسلمة معه، والعلاج القرآني الرباني لهذه الآثار»[1].

ج. عدد آيات السورة: «هي مئة وإحدى وعشرون آية في المدني الأخير والمكي والبصري، واثنتان في المدني الأول والشامي، وثلاث في الكوفي»[2].

د. محور السورة: يدور محور سورة هود حول قضية الألوهية، وتثبت العقيدة في قلوب المدعوين ولذلك كثر الحوار بين الرسل وأقوامهم لتثبيت هذه الحقيقة.

ولقد تحدثت سورة هود عليه السلام عن حقائق العقيدة، وحركتها عبر التاريخ، ثم بينت في خواتيمها التعقيبات والتعليقات المبنية على سياق السورة من المقدمة ومن قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تسلية لرسول الله ﷺ في دعوته.

ومن المناسب والمفيد تقسيم هذه السورة الكريمة إلى ثلاثة قطاعات[3] أو محاور رئيسة يقوم عليه جسم السورة الكريمة.

هـ. المناسبات في السورة.

١. المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

في اسم السورة (هود) التي تحمل اسم النبي هود عليه السلام صلة وطيدة بمحور السورة، لأن قصة هود عليه السلام جاءت في هذه السورة مفصلة ومبينة منهجه في الدعوة مع قومه عاد، وما جرى بينه وبين قومه من حوار لتثبيت العقيدة في قلوبهم، وهو ما يتفق وأسلوب الأنبياء جميعاً في البشارة والنذارة في دعوتهم إلى الله تعالى. يقول البقاعي رحمه الله تعالى: «وأنسب ما فيها لهذا

---

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٣٩.

(٢) البيان في عد آي القرآن لأبي عمرو الداني ١٦٥.

(٣) اعتمدت تقسيم الأستاذ سيد قطب لمضامين آيات سورة هود كتابه الفذ(في ظلال. القرآن).

المقصد ما ذكر في سياق قصة هود عليه السلام من أحكام البشارة والنذارة بالعاجل والآجل...»[1].

٠٢ المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

مناسبة افتتاحية السورة بخاتمتها تعجب الناظر، وتبهر السامع، فقد ختمت السورة بقوله تعالى:﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾. وهذا الاختتام يتفق تماماً مع بدء السورة الكريمة بقوله تعالى ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾. فحريّ بمن يؤمن بأن الله تعالى وحده يرجع إليه الأمر كله أن يستجيب لما في كتاب الله تعالى من أحكام مفصلة فيها البشارة والنذارة لكل الناس. وقد أوجز البقاعي الكلام في المناسبة بعد تفسيرة آية ختام سورة هود بقوله: «وهذا بعينه مضمون قوله تعالى ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾»[2].

٠٣ المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

ختمت سورة يونس عليه السلام بقوله تعالى (واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين)، وفيه «إيماء بأن الله ناصر رسوله ﷺ والمؤمنين على الذين كذبوا وعاندوا»[3]. فجاءت سورة هود مبدوءة بقوله تعالى﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾ لبيان صفة الكتاب الذي أنزله الله تعالى على رسوله محمد ﷺ، ليبلغ دعوة ربه بالنذارة والبشارة.

٠٤ المناسبة بين مقاطع السورة ومحورها.

تتألف السورة الكريمة من ثلاثة قطاعات رئيسة عرض الأول منها لحقائق العقيدة الإسلامية في مقدمة السورة، ثم عرض القطاع الثاني لحركة العقيدة في التاريخ وذلك بسرد

(١) نظم الدرر للبقاعي ٩/ ٢٢٤.

(٢) المرجع السابق ٩/ ٤٠٧.

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور ١١/ ٣١٠.

قصص الأنبياء مع أقوامهم بدءاً من قصةالأب الثاني للبشر نوح ﷺ مع قومه.

وأما القطاع الثالث فجاء تعقيباً على حركة العقيدة في التاريخ، وقد ختم بقوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

والحق أن هذه القطاعات الثلاثة ـ التي ينضوي تحت كل منها عدة مقاطع متآخية ـ تتفق ومحور السورة الرئيس الذي يدور حول قضية الألوهية، وتثبيت العقيدة في قلوب المدعوين.

٠٥ المناسبة بين مقاطع السورة بعضها مع بعض.

من أنعم نظره في مضامين مقاطع السورة الكريمة يدرك أن كل مقطع منها يتفق مع المقطع السابق في النظم، وأن المعاني الكامنة في كل واحد منها تحمل رسالة هادفة في الكشف عن الوحدة الموضوعية في كيان السورة. فقد ارتبطت الخاتمة بمقدمة السورة، وجاء بينهما قصص الأنبياء التي تهدف إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور لتحقيق العبودية لله تعالى.

٠٦ المناسبة بين مضمون السورة وما قبلها:

جاءت سورة هود لتعانق أختها سورة يونس عناقاً متناسقاً متلاحماً في مقاطعها وآياتها.
قال الأستاذ سيد قطب في مقدمته لتفسير سورة هود: «.. والعجيب أن هناك شبهاً كبيراً بين هاتين السورتين، في الموضوع...

إن سورة يونس تحتوي على جانب من القصص مجمل... إشارة إلى قصة نوح.. وإشارة إلى الرسل من بعده.. ولكن القصص إنما يجيء في السورة شاهداً ومثالاً لتصديق الحقائق الاعتقادية التي تستهدفها السورة.

أما سورة هود فالقصص فيها هو جسم السورة. وهو وإن جاء شاهداً ومثالاً لتصديق الحقائق الاعتقادية التي تستهدفها، إلاّ أنه يبدو فيه أن استعراض حركة العقيدة الربانية في التاريخ البشري هو الهدف الواضح البارز»[1].

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/ ١٨٤٤.



ثانياً: التفسير الإجمالي لمقاطع السورة:

يمكن تقسيم السورة الكريمة إلى ثلاثة قطاعات[1] رئيسة عرضت للعقيدة من حيث حقائقها، وحركتها في التاريخ، والتعقيب على الحركة في السورة، وقد تضمن كل قطاع أو محور عدة مقاطع للآيات الكريمات التي يتألف منها القطاع الواحد. وهذه القطاعات الثلاثة التي تتألف منها سورة هود هي:

القطاع الأول: حقائق العقيدة في مقدمة السورة (الآيات ١ـ٢٤).

القطاع الثاني: حركة حقائق العقيدة في التاريخ (الآيات ٢٥ـ٩٩).

القطاع الثالث: التعقيب على حركة العقيدة في التاريخ (الآيات ١٠٠ـ١٢٣).

القطاع الأول: حقائق العقيدة في مقدمة سورة هود (١ـ٢٤)

هذا «القطاع الأول من السورة.. يمثل المقدمة ـ التي يتوسط القصص بينها وبين التعقيب ـ وهي تتضمن عرض الحقائق الأساسية في العقيدة الإسلامية»[2]. وقد تضمن هذا القطاع خمسة مقاطع رئيسة يأخذ بعضها بحجز بعض وهي:

المقطع الأول: (الآيات ١ـ٤) أصول الدعوة الإسلامية.

المقطع الثاني: (الآيتان ٥ـ٦) مشهد فريد ترتجف له القلوب.

المقطع الثالث):الآيات ٧ـ١٠) اضطراب نفوس الكافرين.

المقطع الرابع: (الآيات ١١ـ١٧) تسلية الرسول ﷺ.

المقطع الخامس: (الآيات ١٨-٢٤) بيان حال الفريقين: الكافرين والمؤمنين.

---

(١) اعتمدت تقسيم الأستاذ سيد قطب لمضامين سورة هود في الظلال.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/ ١٨٥٠.



المقطع الأول: (الآيات ١-٤) أصول الدعوة الإسلامية

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾

من أنعم نظره في مطلع سورة هود أدرك أنها جاءت لنفس الهدف الذي جاءت من أجله سورة يونس، وهو من أبرز الحقائق الإيمانية من خلال عرض قصص الأنبياء.

لقد بدأت سورة هود بالحروف المقطعة الدالة على إعجاز القرآن الكريم، فقد وصف الله تعالى كتابه بأنه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت.

إنه كتاب لا يتطرق إليه خلل في أحكامه، وأنه مفصل لا خفاء فيه، ثم أخذت السورة تعدد بعض هذه الآيات التي تحمل في مضامينها المبادئ الإيمانية، والحقائق الاعتقادية.

ثم عرضت الآيات لمطلبين مهمين هما: الاستغفار والتوبة، إذ التخلية قبل التحلية ﴿ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ ﴾، ومن يفعل ذلك يعش عيشة طيبة لا يفوته منها شيء مما يشتهي ولا ينغصه شيء من المكدرات إلى آخر عمره في الدنيا.

وقد نبهت الآيات إلى أن من زاد في الإحسان زيد له في الثواب والفضل في الدنيا والآخرة.

وأما المخالفون العصاة فأنذرتهم الآيات وخوفتهم من عاقبة أمرهم إن تولوا عن قبول دعوة التوحيد﴿ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾إنه عذاب يوم كبير لما فيه من الأهوال يوم القيامة جزاء التولي عن دعوة التوحيد، دعوة الحق سبحانه وتعالى.

الهدايات المستنبطة من المقطع الكريم:

- الإحكام والتفصيل في هذا القرآن الكريم من أجل تحقيق مقصد العبادة لله تعالى وحده.
- دلت الآيات على أن المقصد الأول لهذا القرآن العظيم هو العبادة، وأن كل شيء فيه من

أجل تحقيق هذا المقصد، ومن ذلك الاستغفار والتوبة في كل وقت وعلى أي حال.

- المؤمن الطائع لربه يعيش حياته سعيداً حتى يلقى ربه﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾.
- العصاة المذنبون لهم عقوبة أخروية، وعذاب أليم جزاء كفرهم وتوليهم عن طاعة ربهم سبحانه وتعالى.

المقطع الثاني: (الآيتان ٥-٦) مشهد فريد ترتجف له القلوب

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾

افتتحت آيات المقطع بالتنبيه لأمر غريب يبين بعض أحوال الذين تولوا عن التوحيد، ويكشف هذا المقطع جهل هؤلاء وما هم عليه من أوهام، وظاهر السياق أن المذكورين في الآية هم المشركون الذين يجهلون إحاطة علم الله تعالى بكل حال.

« بعد إعلان خلاصة الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير.. يمضي السياق يعرض كيف يتلقى فريق منهم تلك الآيات عندما يقدمها لهم النذير البشير، يصور السياق الوضع الحسي الذي يتخذونه والحركة المادية المصاحبة له، وهي إحناء رؤوسهم وثني صدورهم للتخفي، ويكشف عن العبث في تلك المحاولة وعلم الله تعالى يتابعهم في أخفى أوضاعهم...»[(١)].

إن العلم الإلهي محيط بكل شيء، ومن ذلك أرزاق الدواب فإن الله تعالى قد تكفل بها ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾، « ولا ننسى المقابلة بين ذكر الدواب ورزقها هنا، وبين المتاع الحسن الذي ذكر في التبليغ الأول..

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/ ١٨٥٥.



هاتان الآيتان الكريمتان هما بدء تعريف الناس بربهم الحق الذي عليهم أن يدينوا له وحده، أي أن يعبدوه وحده، فهو العالم المحيط علمه بكل خلقه، وهو الرزاق الذي لا يترك أحداً من رزقه»[١].

الهدايات المستنبطة من هذا المقطع الكريم:

ـ الكفار يصرون على عدم سماع القرآن الكريم، ولذلك يستخفون عن الله سبحانه، ولا فائدة من ذلك لأن الله تعالى لا تفاوت في علمه بين إسرارهم وإعلانهم.

ـ تكفل الله سبحانه بأرزاق الخلق جميعاً، وهذا دليل على اتصافه سبحانه بالرحمة، هذه الرحمة السابغة تشمل الإنسان والحيوان والطير والنبات وكل المخلوقات، فقد جعل رزقها مقدراً عنده سبحانه.

المقطع الثالث: (الآيات ٧ـ١١) اضطراب نفوس الكافرين

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

تناولت آيات هذا المقطع بيان سعة علم الله تعالى وقدرته، فقد كان عرشه سبحانه على الماء، وخلق سبحانه السموات والأرض والأجرام، وهي من مظاهر قدرة الله تعالى، وما

(١) المرجع السابق ٤/ ١٨٥٧.



خلقها إلاّ « لحكمة بالغة، وهي أن يجعلها مساكن لعباده، وينعم عليهم بفنون النعم، ويكلفهم الطاعات، واجتناب المعاصي، فمن شكر وأطاع أثابه، ومن كفر وعصى عاقبه»[1].

وعلى الرغم من ذلك يستعجل العصاة الذين كفروا نزول العذاب بهم، على وجه التكذيب والإنكار والاستهزاء، وما يقوله بعض المعاصرين إنما هو تقليد للمكذبين بالبعث الذين عرضت لهم الآيات الكريمات.

« ثم ترشد الآيات إلى أن إعراضهم عن الحق لم يكن لخفائه، وإنما هو لاضطراب نفوسهم وترددها بين يأس الضراء، وبطر النعماء، ولو أنهم عصموا أنفسهم من ذلك وعرفوا الحق واستقر في قلوبهم لكان لهم من صبر الإيمان وصالح الأعمال ما يطمئنهم على حسن العاقبة ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١١﴾...»[2]. « فقد نسجت هذه الآية على المنوال من الإجمال لتذهب نفوس السامعين من المؤمنين في طرق الحذر من صفتي اليأس وكفران النعمة، ومن صفتي الفرح والفخر كل مذهب ممكن»[3] ذلك لأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إن نالتهم رحمة شكروا، وإن زالت عنهم صبروا، لأنهم موقنون بحكمة الله تعالى في كل حال.

الهدايات المستنبطة من هذا المقطع الكريم:

- إتقان صنع الله تعالى في خلقه السموات والأرض.
- يجب أن يكون عمل العبد خالصاً لوجه الله تعالى، وأن يكون صواباً متبعاً فيه الشرع والسنة.
- أحوال الدنيا غير باقية، فهي متغيرة من النعمة إلى المحنة، وبالعكس وهو الانتقال من المكروه إلى المحبوب.

---

(١) الكشاف للزمخشري ٢/ ٣٨٠.
(٢) إلى القرآن الكريم/ محمود شلتوت ص ٧٣.
(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور ١١/ ١٥.

- طبيعة الإنسان أنه ظالم جاهل متقلب الأطوار ينقا للقنوط أحياناً، ويفرح ويبطر أحياناً أخرى.
- الإنسان الموفق هو الذي يصبر إن حرم، ويشكر إذا أكرم.

المقطع الرابع: (الآيات ١٢-١٧) تسلية الرسول ﷺ

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

عرضت الآية السابقة من المقطع الثالث لمنزلة الذين صبروا وعملوا الصالحات وما أعدّ الله لهم من مغفرة وأجر كبير جزاء صبرهم.

«وإذا كان للصبر هذه المنزلة، فأول أوصاف النبيين الصبر، الصبر في سبيل الدعوة والاستمرار في التبليغ، والصبر على الأذى... ولذلك قال تعالى﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ ﴾ الآية. وليس المعنى أن النبي ﷺ قد ضاق صدره أو يضيق، إنما المعنى أنهم يرجون أن تترك بعض ما أوحي إليك وأن يضيق صدرك بإيذائهم فتتركه مضطراً، والنبي ﷺ لم يكن منه شيء من ذلك..»[1] البتة،

(١) زهرة التفاسير / محمد أبو زهرة ٧/ ٣٦٧٦.



لأنه ﷺ نذير للناس وليس موكلاً بكفرهم أو إيمانهم،﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾ آية ٤٠.

لقد كان المشركون قوماً لداً، كانوا متعنتين في مطالبهم، ومتكبرين في مقالتهم، ومن ذلك مقالتهم بأن القرآن مفترى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾، فجاء الأمر من الله تعالى إلى رسوله ﷺ ليقول لهم ﴿ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾، لقد تنزل معهم القرآن الكريم في التحدي إلى الإتيان بعشر سور مثل القرآن في نظمه، وإن كانت معانيها مفتراه فعجزوا عن ذلك وكاعوا عن المعارضة، ولذلك وجب على المخاطبين أن يكونوا مسلمين بعد هذه الحجة الدامغة.

ولبيان فتنة الدنيا وما فيها من سوء العاقبة لمن تمسك بها، ونسي الآخرة، قال تعالى ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ لكن هذا الصنف من الناس يخسر الآخرة وليس له فيها إلاّ النار لسوء عمله، وفساد معتقده.

إن هؤلاء الذين أرادوا الدنيا وزينتها من الكافرين والمنافقين والمرائين ليس لهم في الآخرة إلاّ النار، ولم يفيدوا من كل ما صنعوا من عمل في الدنيا، وإنما وجدوه باطلا لا قيمة له. ذلك أن قلوبهم قد فسدت بالشرك فلم يكن لهم خير يحمدون عليه البتة.

ثم تنتقل الآيات لبيان حال الذين يريدون بأعمالهم وجه الله تعالى إثر بيان حال أضدادهم الذين يريدون بأعمالهم الحياة الدنيا.

تعرض الآية الكريمة حال رسوله محمد ﷺ، ومن قام مقامه من ورثته القائمين بدينه وحججه الموقنين بذلك، وأنهم لا يوصف بهم غيرهم، ولا يكون أحد مثلهم فقال﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ بالوحي الذي أنزل الله فيه المسائل المهمة، ودلائلها الظاهرة.. ويتلو هذه البينة والبرهان شاهد الفطرة والعقل الصحيح حين شهد حقيقة ما أوحاه الله تعالى وشرعه وعلم بعقله حسنه، فازداد بذلك إيماناً إلى إيمانه.

ثم شاهد ثالث: كتاب موسى، وهو التوارة التي أنزلها الله تعالى على موسى ﷺ، التي جعلها الله تعالى إماماً للناس ورحمة لهم يشهد لهذا القرآن بالصدق، ويوافقه فيما جاء به من الحق.

أي أفمن كان بهذا الوصف قد تواردت عليه شواهد الإيمان، وقامت لديه أدلة اليقين، كمن هو في الظلمات والجهالات ليس بخارج منها؟. لا يستوون عند الله، ولا عند عباد الله.. أولئك يؤمنون بالقرآن العظيم حقيقة، فيثمر لهم إيمانهم كل خير في الدنيا والآخرة. ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي في شك من كون القرآن نازلاً من عند الله. أو من أن موعدهم النار.[1]

الهدايات المستنبطة من هذا المقطع الكريم:

- إن إنكار الكفار لدين الله، وتكذيبهم للقرآن العظيم إنما سببه التعنت والصلف.
- لا ينبغي للداعية إلى الله تعالى أن يصده اعتراض المعترضين، ولا قدح القادحين، لأن الداعية على الحق المبين.
- إن هذا القرآن معجز بنفسه لا يقدر أحد من البشر أن يأتي بمثله، لأن الأعداء الألداء من أهل اللسان تحداهم فعجزوا عن معارضته.
- من أراد الدنيا وزينتها حرم من نعيم الآخرة وما أعد الله تعالى لعباده في دار كرامته.
- الصبر من صفات الداعية المسلم، كما كانت صفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن للسعدي ص٣٥٧، وصفوة البيان لمعاني القرآن لمخلوف.



المقطع الخامس: الآيات (١٨-٢٤) بيان حال الفريقين من الكافرين والمؤمنين

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۘ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ختمت آيات المقطع الرابع السابق ببيان حال الذين خسروا أنفسهم ببطلان ما قدموا من أعمال في الدنيا.

ثم جاءت آيات هذا المقطع لتوازن بين أهل الحق وأهل الباطل. بين الذين يتبعون الحق والذين يطلبون الدنيا وزينتها. حقاً إن هؤلاء الذين لم يؤمنوا بالله ظلموا أنفسهم بعدم الإيمان... وأشدهم ظلماً لنفسه من بينهم من يدّعي مع ذلك كذباً على الله تعالى، فيجعل غيره نداً له وشريكاً معه في استحقاق الإلوهية... أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم.

إنهم يستحقون لعنة الله وغضبه، لأسباب ثلاثة رئيسة لا توصل إلاّ إلى الشرور والإضرار بالآخرين:

السبب الأول: أنهم يصرفون الناس عن إتباع الحق وسلوك سبيله..

السبب الثاني: أنهم لا يريدون استقامة بين الناس..

السبب الثالث: أنهم كما يكفرون بالله، يكفرون باليوم الآخر..

«وهذه الأسباب الثلاثة تكوّن الصفات لمن هم أشدّ الناس ظلماً من بين الكافرين. وهؤلاء هم الماديون»[(١)].

قال الإمام البقاعي: «ولما توعد الكافرين وأخبر عن مآلهم بسببه، كان موضع أن يسأل عن حال المؤمنين فقال﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ آية ٢٣ [(٢)].

لقد نال هذا الفريقُ الجنة، لأنه جمع بين الإيمان والعمل الصالح، والخشوع لله تبارك وتعالى فاستحقوا أن يكونوا من أهل الجنة.

وقد ختم هذا المقطع بآية كريمة عرضت لحال الفريقين الكافرين والمؤمنين، قال المكي الناصري رحمه الله تعالى: « في بداية هذا الربع ضرب كتاب الله المثل لفريق الذين كفروا وعملوا السيئات، ولفريق الذين آمنوا وعملوا الصالحات. فأما الفريق الأول فهو كالأعمى بالنسبة للبصير، وكالأصم بالنسبة للسميع، وذلك لأنه لا ينتفع ببصره وسمعه الانتفاع المطلوب، فكأنه فاقد لهما بالمرة، إذ يسمع كلام الله ولا يتأثر به، ويرى صنع الله ولا يتأمل فيه.

وأما الفريق الثاني فهو سميع بصير، لأنه ينتفع بحاستي السمع والبصر انتفاعاً تاماً ويستعملهما استعمالاً لائقاً، السمع: في سماع الدعوة إلى الحق، والبصر: في مشاهدة بدائع الخلق، وذلك قوله تعالى﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾[(٣)].

(١) ينظر: التفسير الموضوعي لسورة هود، د. محمد البهي ص٢٨، ٢٩.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي ٩/ ٢٦٣.

(٣) التيسير في أحاديث التفسير، المكي الناصري، ٣/ ١٠٨.



الهدايات المستنبطة من المقطع الكريم:

- الكفر والإيمان في صراع دائم في الحياة الدنيا لا ينتهي.
- الله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل، والحق أن الكافرين الماديين سيكون عذابهم مضاعفا في الآخرة.
- الإجمال في الإثبات والتفصيل في النفي، هذا أسلوب القرآن الكريم، وهو المنهج الذي يتخذه الداعية في دعوته.

القطاع الثاني: حركة حقائق العقيدة في التاريخ (الآيات ٢٥-٩٩)

ترتبط سورة هود بأختها سورة يونس بعدة وشائج، منها عرضها للقصص القرآني الذي يعد في سورة هود هو قوامها، ولكنه لم يجئ فيها مستقلاً، إنما جاء مصداقاً للحقائق الكبرى التي جاءت السورة لتقريرها، والتي أجملها السياق في مطلع السورة ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.

ويتبع القصص في هذه السورة خط سير التاريخ، فيبدأ بنوح، ثم هود، ثم صالح، ويلم بإبراهيم في الطريق إلى لوط، ثم شعيب، ثم إشارة إلى موسى... ويشير إلى الخط التاريخي، لأنه يذكر التالين بمصير السالفين على التوالي بهذا الترتيب، وتبدأ بقصة نوح مع قومه، أول هذا القصص في السياق، وأوله في التاريخ»[1].

وقد تضمن هذا القطاع سبعة مقاطع متآخية في موضوع واحد هو القصص، وهذه المقاطع هي:

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/ ١٨٧٠-١٨٧١.

المقطع الأول: (الآيات ٢٥ـ٤٩) قصة نوح عليه السلام مع قومه.

المقطع الثاني: (الآيات ٥٠ـ٦٠) قصة هود عليه السلام مع قومه.

المقطع الثالث: (الآيات ٦١ـ٦٨) قصة صالح عليه السلام مع قومه.

المقطع الرابع: (الآيات ٦٩ـ٧٦) تبشير الملائكة إبراهيم عليه السلام.

المقطع الخامس: (الآيات ٧٧ـ٨٣) إجرام قوم لوط عليه السلام.

المقطع السادس: (الآيات ٨٤ـ٩٥) قصة شعيب عليه السلام مع قومه.

المقطع السابع: (الآيات ٩٦ـ٩٩) موقف فرعون من موسى عليه السلام.

المقطع الأول: (الآيات ٢٥ـ٤٩) قصة نوح عليه السلام مع قومه

ترتبط آيات هذا المقطع بآيات المقطع الخامس من القطاع الأول، ذلك المقطع الذي يبين حال الفريقين من الكافرين والمؤمنين، وجاءت آيات هذا المقطع تحمل في أعطافها دعوة نوح عليه السلام لقومه، وما لقيه من تعنتهم، ثم تبين الآيات الكريمات قصة الطوفان، وهلاك الكافرين ونجاة المؤمنين، وبذلك ترتبط آيات هذا المقطع بالمقطع السابق ارتباطا وطيدا.

وفي سياق هذه الآيات الكريمات « انتقال من إنذار المشركين ووصف أحوالهم وما ناسب ذلك إلى موعظتهم بما أصاب المكذبين قبلهم من المصائب، وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ بما لاقاه الرسل عليهم السلام قبله من أقوامهم»[1].

ويتضمن هذا المقطع ما يأتي:

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور ١٢/ ٤٣.



- دعوة نوح ﷺ إلى التوحيد وجواب قومه (الآيات ٢٥-٢٧)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

دعا نوح ﷺ قومه إلى عقيدة التوحيد ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ ﴾، هذه الدعوة التي تحمل في مضامينها حب نوح ﷺ إلى هداية قومه إلى الإيمان، فرد عليه الملأ الذين كفروا من قومه بأربع حجج داحضة هي:

الأولى: أنه بشر مثلهم فساووه بأنفسهم في الجملة..

الثانية: أنه لم يتبعه منهم إلاّ أراذلهم في الطبقة والمكانة الاجتماعية..

الثالثة: عدم رؤية فضل له مع جماعته هؤلاء عليهم من قوة عصبية أو كثرة غالبة..

الرابعة: أنهم بعد الإضراب أو صرف النظر عما ذكروا يرجحون الحكم عليه وعليهم بالكذب في هذه الدعوى..»[1].

- دحض شبهات الملأ الذين كفروا من قوم نوح ﷺ (الآيات ٢٨-٣١)

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

---

(١) تفسير المنار لرشيد رضا ١٢/ ٥٣، ٥٤.

لقد تضمنت هذه الآيات الأربع دحض تلك الشبهات الأربع التي ردوا بها على نوح عليه السلام، وللإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت كلام في التفسير الموضوعي لهذه الآيات أرى من المناسب نقله هنا لدقته في عرض معاني الآيات، يقول رحمه الله تعالى: «جاءت الآيات تفند هذه الطعون، وتقتلع هذه الفكرة من أساسها وتقرر أولاً أن صاحب الدعوة، وقد توافرت لديه أدلة الإيمان بها، وليس من شأنه أن يكرههم عليها إذا خفيت عنهم، وهو لا يطلب منهم مالاً ولا عزة، ولا ترتبط دعوته بالمال ولا بالسلطان، وإنما يدعوهم إليها طلباً لخيرهم، وعملاً على مصلحتهم فعلامَ هذا الموقف الذي يدل على التمرد والبعد عن فهم الحقائق؟... وإلاّ فكيف ينقمون منه أن أجاب الفقراء دعوته؟ وهي دعوة الله الذي لا يزن خلقه بميزان الغنى والفقر، ولا بميزان القوة والضعف، وإنما يزنهم بمقياس الصفاء والإخلاص، والإيمان بالحق الذي يدعو إليه. كيف ينقمون منه هذا ويطلبون منه أن يطردهم،﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ﴾... إن الله قد كلفه بتبليغ رسالته، ولم يجعل الناس أمامه في التبليغ إلاّ كما جعلهم في الخلق، سواسية لا طبقات، ولا أسياد، ولا أراذل﴿ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًاۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾»[1].

ومما يدل على قسوة قلوب قوم نوح عليه السلام أنه ناداهم بأسلوب الاستعطاف الدعوي ليدعوهم إلى خيري الدنيا والآخرة، ناداهم بـ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ليرفع من مكانتهم في النداء، ولتلين قلوبهم، لكنهم استكبروا في جدالهم، وتعنتوا في إجاباتهم.

(١) إلى القرآن الكريم/ محمود شلتوت ص٧٥-٧٦.

- جواب قوم نوح عليه السلام ورده عليهم (الآيات ٣٢-٣٥)

﴿ قَالُوا يَنُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَنهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

لقد كان جواب قوم نوح عليه السلام قاسياً جاسياً قالوا لنبيهم يا نوح قد خاصمتنا وجادلتنا فأكثرت من الجدل معنا حتى أصابنا الملل من جدالك، فأتنا بما تعدنا به من العذاب والعقوبة إن كنت نبياً صادقاً في قولك.

أما نوح عليه السلام فأجابهم بقوله﴿ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ أي:أن إنزال العذاب ليس إليّ، وإنما هو خلق الله فيفعله إن شاء، وإذا أراد سبحانه إنزال العذاب فإن أحداً لا يمنعه من ذلك.

ثم يبين نوح عليه السلام لقومه أن نصحه لا ينفعهم إن أراد الله تعالى أن يغويهم، إذ قبول النصح إنما يكون لمن عنده قابلية الانتفاع به.

وللأستاذ سيد قطب كلام لطيف في سياق تفسير هذه الآيات، يقول رحمه الله تعالى: «وعند هذا المقطع من قصة نوح، يلتفت السياق لفتة عجيبة، إلى استقبال مشركي قريش لمثل هذه القصة، التي تشبه أن تكون قصتهم مع الرسول ﷺ ودعواهم أن محمداً ﷺ يفتري هذا القصص فيرد هذا القول قبل أن يمضي استكمال قصة نوح: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَنهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾، فالافتراء إجرام، قل لهم: إن كنت فعلته فعليّ تبعته، وأنا أعرف أنه إجرام فمستبعد أن أرتكبه، وأنا بريء مما تجرمون من تهمة الافتراء إلى جوار غيرها من الشرك والتكذيب..»[1]. وجاءت هذه الآية الكريمة في سياق آيات قصة

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/ ١٨٧٦.



نوح ﷺ لتتحدث عن موقف المشركين من القرآن الكريم الذي فيه تفصيل لقصة نوح ﷺ، ولتؤكد هذه الآية لآيات مقدمة السورة التي تحدثت عن آيات القرآن الكريم.

- نوح ﷺ يصنع السفينة (الآيات ٣٦-٤١)

﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾

وتأتي مرحلة جديدة من مراحل قصة نوح ﷺ، مرحلة صنع السفينة، لأن القوم قد طغوا، ولن يؤمن من قومه إلاّ من قد آمن، فلا بد من اتخاذ وسيلة للنجاة، ويأتيه الوحي ويأمره أن يصنع سفينة﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ فيطيع نوح ﷺ أمر ربه سبحانه، ويصنع الفلك، ولكن القوم ظلوا سادرين في غيهم وضلالهم ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ﴾، كيف يصنع سفينة في أرض يابسة، لكن نوحاً ﷺ يستمر في صنعه ويقول لهم ﴿ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾، «وسخرية نوح ﷺ والمؤمنين من الكافرين من سفه عقولهم وجهلهم بالله وصفاته، فالسخريتان مقترنتان في الزمن... فهو تشبيه في السبب الباعث على السخرية، وإن كان بين السببين بون»[1].

ثم يبين لهم نوح ﷺ أن العذاب المقيم يصيب المعرضين عن الحق الذين تكبروا على دعوة التوحيد﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

ثم يمضي السياق ليتحدث عن لحظة حاسمة مرعبة لحظة مجيء التنور ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور١٢/ ٦٨.



وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾.

وهنا يحلو لي أن أنقل كلاماً للأستاذ سيد لا تشم منه رائحة الإسرائيليات في تفسير هذه الآيات، خلاصته أن الأقوال حول فوران التنور قد تفرقت، وذهب الخيال ببعضها بعيداً، فالتنور هو الموقد، وقد يكون الفوران من عين فارت فيه، وربما يكون هذا الفوران علامة من الله تعالى لنوح عليه السلام.

وبعد مرحلة فوران التنور يأتي الأمر﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ﴾ وهنا نأخذ المعنى من ظاهر السياق دون أن نبحث في الإسرائيليات عن التفاصيل، غاية ما في الأمر أن نوحاً عليه السلام حمل معه في السفينة من كل زوجين اثنين ذكراً وأنثى، ومن آمن بدعوته.﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾... « وهذا تعبير عن تسليمه للمشيئة في جريانها ورسوها، فهي في رعاية الله وحماه... وماذا يملك البشر في اللجة الطاغية بله الطوفان؟» [(١)].

- نهاية القوم واستشفاع نوح عليه السلام لابنه (الآيات ٤٢-٤٩)

﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/ ١٨٧٨.



﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

ركب نوح عليه السلام السفينة التي صنعها ومعه الذين آمنوا بدعوته، وبدأت السفينة ﴿ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ بعد أن التقى ماء السماء بماء الأرض ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القمر: ١١-١٤].

وهنا تحركت عاطفة الأبوة فنادى نوح ابنه ليركب معه في السفينة خشية الغرق، ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ وقد عزل نفسه عن أبيه الداعي إلى الحق... ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

وبعد الطوفان جاء الأمر الإلهي للأرض والسماء بالتوقف عن انهمار الماء ﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾. « بعداً لهم من الحياة فقد ذهبوا، وبعداً لهم من رحمة الله فقد لعنوا، وبعداً لهم من الذاكرة فقد انتهوا... وما عادوا يستحقون ذكراً ولا ذكرى...

والآن وقد هدأت العاصفة، وسكن الهول، واستوت على الجودي. الآن تستيقظ في نفس نوح عليه السلام لهفة الوالد المفجوع، ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾... قالها نوح عليه السلام يستنجز ربه وعده في نجاة أهله، ويستنجزه حكمته في الوعد والقضاء..

وجاءه الرد من ربه ﴿ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ

بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾... جاءه الرد هكذا في قوة وتقرير وتوكيد، وفيما يشبه التأنيب... ويرتجف نوح ارتجافة العبد المؤمن يخشى أن يكون قد زل في حق ربه، فيلجأ إليه، يعوذ به، ويطلب غفرانه...﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٌۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾... وأدركت رحمة الله تعالى نوحاً ﷺ، تطمئن قلبه، وتباركه هو والصالح من نسله، فأما الآخرون فيمسهم عذاب أليم..»[1].

لقد جاء قوله تعالى﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ ﴾ ليكون خاتم آيات قصة نوح ﷺ في سورة هود ﷺ، دخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وأما الكافرون والكافرات الذين لم يؤمنوا فيتمتعون بنعيم الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب أليم جزاء وفاقاً، لأنهم كفروا بدين ربهم، وكذبوا رسله المبلغين للناس وحيه.

وهكذا تأتي قصة نوح ﷺ مع قومه تحكي لنا ما جرى بينه وبينهم، وتترجم لنا مع بقية القصص في السورة ما جاء في مقدمة السورة الكريم، ولتأخذ آيات قصص الأنبياء مع أقوامهم بحجز آيات مقدمة السورة، ولا تنفك عن خاتمتها.

الهدايات المستنبطة من المقطع الكريم:

- إن جميع الرسل من نوح إلى محمد ﷺ متفقون على الدعوة إلى التوحيد الخالص والنهي عن الشرك، فنوح ﷺ وغيره أول ما يقولون لقومهم﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾، ويكررون هذا الأصل بطرق كثيرة.
- من آداب الدعوة وتمامها الصبر على الدعوة، فنوح ﷺ صبر في دعوته صبراً عظيماً كغيره من الرسل، وخاطبهم بالكلام الرقيق والشفقة، وبكل لفظ جاذب للقلوب محصل للمطلوب، وأقام الآيات وبين البراهين.

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/ ١٨٧٩، ١٨٨٠.

- إن الشبه التي يثيرها أعداء الرسل ليس لها حظ من العلم والحقيقة عند كل عاقل، من ذلك قولهم لنوح عليه السلام ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾، فالآية بينت ترهات القوم وأباطيلهم في رد دعوة نوح عليه السلام.

- إن من فضائل الأنبياء وأدلة رسالتهم إخلاصهم التام لله تعالى في عبوديتهم لله سبحانه ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾، ولهذا كان من أجل الفضائل لأتباع الرسل أن يكونوا مقتدين بالرسل في هذه الفضيلة، والله تعالى يجعل لهم من فضله من رفعة الدنيا والآخرة أعظم مما يتنافس فيه طلاب الدنيا.

- إن القدح في نيات المؤمنين وفيما منّ الله عليهم به من الفضائل من مواريث أعداء الرسل.

- ينبغي الاستعانة بالله تعالى، وأن يذكر اسمه عند الركوب والنزول وفي جميع التقلبات والحركات، وحمد الله تعالى والإكثار من ذكره عند النعم لاسيما عند النجاة من الكربات والمشقات، وهو ما يحتاج إليه كل مسلم ومسلمة في هذا الزمان الذي كثرت فيه الفتن والعياذ بالله تعالى.

- إن تقوى الله تعالى والقيام بواجبات الايمان من جملة الأسباب التي تنال بها الدنيا وكثرة الأولاد والأرزاق وقوة البدن. [1]

---

(١) انظر: تيسير اللطيف المنان للسعدي ص١٠٩.

المقطع الثاني: (الآيات ٥٠-٦٠) قصة هود عليه السلام مع قومه

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾

بدأ هذا المقطع بقوله تعالى﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾وختم بقوله﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ ففي بداية آيات المقطع يذكر الله تعالى قصة هود مع قومه عاد﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ ﴾[الفجر: ٧-٨].

وعاد هذه هي التي كانت تسكن جنوب الجزيرة العربية في منطقة الأحقاف لقوله تعالى ﴿ ۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ ﴾[الأحقاف: ٢١].

وقصة هود مع قومه في هذه الآيات معطوفة على قصة نوح عليه السلام بتقدير فعل محذوف تقديره وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودا.

والحق أننا « نجد الدعوة إلى التوحيد كما دعيت إليه قريش، وناؤوا هودا كما ناوءت

قريش، وصابرهم كما يصابرهم، ولما أصروا على الشرك والإيذاء أنزل الله عليهم ماءهم»[(١)]

لقد أخذ هود ﷺ بقومه إلى سبيل النجاة والخير والقوة عن طريق عبادة الله وحده، واستغفارهم فيما هم فيه من الشرك والطغيان والافتراء على الله تعالى﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

« ورسالة هود مع عاد لا تختلف في جوهرها عن رسالة أي رسول أرسل إلى شعب غلبت عليه المادية فانحرف عن التوحيد إلى الشرك وأنكر الإيمان باليوم الآخر، تحت مغريات الحياة وما لها من خداع»[(٢)]

ولاستعطاف قومه وترغيبهم بالإيمان قال﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ « إذ تردُّون نصيحة من لا يطلب عليها أجراً إلا من الله وهو ثواب الآخرة ولا شيء أنفى للتهمة من ذلك»[(٣)] ولذلك نادى قومه للإقبال نحوه، وطالبهم باستغفار ربهم الذي خلقهم وأمدهم بنعم لا تعد ولا تحصى ثم أمرهم بالتوبة والإقلاع عن الذنب في المستقبل والندم على ما سلف منه، لأن الدوام عن الإقلاع عن الشرك أهم من طلب العفو عما سلف من الذنوب، فإن فعلتم ما أمركم به أمدكم الله تعالى بمطر غزير متتابع ويزدكم قوة إلى قوتكم التي أنتم عليها وإنني أنهاكم عن التوالي عن أمر الله تعالى.

وعلى الرغم من هذه الحجة الواضحة في دعوة هود ﷺ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾.

« إلى هذا الحد بلغ الانحراف في نفوسهم، إلى حد أن يظنوا أن هودا يهذي، لأن أحد آلهتهم المفتراة قد مسه بسوء؟، فأصيب بالهذيان»[(٤)]، هكذا زعمت عاد أن نبيهم هودا ﷺ قد أصابته

---

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٧/ ٣٧١٦.

(٢) تفسير سورة هود، محمد البهي ص٥١.

(٣) تفسير الكشاف للزمخشري ٢/ ٤٠٢.

(٤) في ظلال القرآن، لسيد قطب٤/ ١٨٩٨.

آلهتهم وأصنامهم بسوء في عقله عندئذ رد عليهم هود ﷺ بقوله﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ « وهذه الآية من أعلام النبوة الواضحة لهود ﷺ، فكأنه قيل: هب أن آلهتنا لا شيء، فما حملك على الاجتراء على مخالفتنا نحن وأنت تعلم كثرتنا وقوتنا وأنت لا تزيد على أن تكون واحدا منا، فقال:﴿ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦ ﴾ ظاهر أمره لكل أحد لا لبس فيه أصلا ولا خلل ولا اضطراب ولا اعوجاج بوجه...»[1].

لقد أبلغ هود ﷺ رسالة ربه سبحانه، ولم يبق ألا أن ينزل بهم العذاب الذي كذبوا به، فقال تعالى﴿ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٥٧ ﴾.

ففي الآية ثلاثة أمور:

الأول: أن هودا ﷺ قد قام بتبليغ رسالة ربه.

الثاني: الإعلان بنهاية القوم ﴿ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ﴾.

الثالث: أن عاداً لا يضرون هوداً ﷺ في تبليغ رسالته.

وجاء ختام الآية وتذيليها بقوله تعالى﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴾ « يحفظ دينه وأولياءه وسنته من الأذى والضياع، ويقوم عليكم فلا تفلتون ولا تعجزونه هرباً، وكانت هي الكلمة الفاصلة، وانتهى الجدال والكلام ليحق الوعيد والإنذار ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٥٨ ﴾... حل بالمكذبين، ووصف العذاب بأنه غليظ بهذا التصوير المجسم، يتناسق مع الجو، ومع القوم الغلاظ العتاة.

والآن وقد هلكت عاد، يشار إلى مصرعها إشارة البعد، ويسجل عليها ما اقترفت من ذنب، وتشيع باللعنة والطرد في تقرير وتكرار وتوكيد ﴿ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ

(١) نظم الدرر، للبقاعي ٩/ ٣١٠.



رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾... لقد هلكت عاد لأنهم اتبعوا أمر كل جبار عنيد، هلكوا مشيعين باللعنة في الدنيا وفي الآخرة»[1]

كونهم يستأهلون هذا الهلاك بسبب طغيانهم واستكبارهم ولذلك جاء تفظيع حالهم للاعتبار بقصتهم مع نبيهم هود ﷺ، ولعل وصفهم بقوم هود في قوله تعالى﴿ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ لتمييزهم عن عاد الثانية، إذ قوم هود هم عاد الأولى التي ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النجم: ٥٠].

وهكذا تعرض آيات هذا المقطع لقصة هود ﷺ مع قومه عاد الذين كفروا ربهم فاستحقوا البعد عن رحمة الله تعالى، فحري بالطغاة والكافرين أن يعتبروا من قصة عاد ويرعووا عن غيهم وكفرهم بربهم قبل أن يأيتهم عذاب يوم عظيم.

الهدايات المستنبطة من المقطع الكريم:

- الجاحدون لآيات الله تعالى، والعاصون لأوامره إن أمهلهم في الحياة الدنيا فإن عاقبته وخيمة.
- التوكل على الله تعالى في كل حين من مقاصد الإيمان.
- مهمة الداعية تبليغ الدعوة، وبيان الحجة والبرهان وبهذا يكون قد أبرأ ذمته أمام الله تعالى.
- الاستغفار والتوبة إلى الله تعالى طريقان للخير والنفع في الدنيا والآخرة.
- الجاحد لآيات الله تعالى، المكذب لرسل الله، عاقبته وخيمة.

(١) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب، ٤/ ١٩٠٠- ١٩٠١.



المقطع الثالث: (الآيات ٦١-٦٨) قصة صالح عليه السلام مع قومه

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾

بدئت آيات هذا المقطع وختمت بنفس أسلوب البدء والختام في آيات مقطع قصة هود عليه السلام مع قومه، فالقصة بدأت بقوله تعالى ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ﴾ وختمت بقوله تعالى ﴿ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾.

وأما صلة هذه القصة بقصة نوح عليه السلام فهي معطوفة على قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾ « فالمعنى أن الله سبحانه وتعالى أرسل نوحا ومن بعده هودا وإن لم يتعاقبا، ومن بعدهما صالحا إلى ثمود. وكانت دعوته الأولى هي التوحيد، لب الرسالات السماوية ومجتمعها والمشترك فيها جميعا ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾...»[1]؛ إن الله تبارك وتعالى هو الذي خلقكم وأكرمكم بالتمكين في الأرض، فجعلكم عمارها وسكانها، ورزقكم من خيرات الأرض، «وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، ومكنكم في الأرض تبنون، وتغرسون وتزرعون، وتحرثون ما شئتم، وتنتفعون بمنافعها، وتستغلون مصالحها، فكما أنه لا شريك له

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٧/ ٣٧٢٣.

في جميع ذلك، فلا تشركوا به في عبادته»[1]، فاستغفروا ربكم الذي منحكم هذه النعم، ثم توبوا إليه سبحانه من ذنوبكم، ولبيان قرب رحمة الله تعالى من عباده قال لهم ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ قريب من عباده، مجيب لدعواتهم، يقول الأستاذ محمد الغزالي- رحمه الله تعالى- « والواقع أن الخطاب لثمود يتناول البشر كلهم الذين أنشأهم الله من الأرض، ووظفهم في عمرانها، وكلفهم بعبادته فيها حينا من الدهر، ثم يعودون بعدئذ إليه ليسألهم عما قدموا...»[2]. فحريّ بنا معشر المسلمين أن نحقق العبودية لله تعالى في أرضه سبحانه لنكون من عباده المخلصين.

ولبشاعة ما صنع الأعداء في الأرض أصبحت كلمة(الاستعمار) - التي معناها طلب الاعمار والبناء- كلمة ممقوتة، لأنهم ظلموا الناس، فامتد ظلمهم إلى الكلمة التي صارت ترادف الظلم والطغيان عند الكثيرين في هذا الزمان.

لقد أمر صالح عليه السلام قومه بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، فكان الجواب منهم﴿ قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ آية ٦٢.

وفي هذا الجواب شهادة من ثمود لنبيهم صالح عليه السلام « أنه ما زال معروفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأنه من خيار قومه.

ولكنه، لما جاءهم بهذا الأمر، الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة، قالوا هذه المقالة التي مضمونها، أنك قد كنت كاملاً، والآن أخلفت الظن فيك، وصرت في حالة لا يرجى منك خير»[3].

ومع هذا الرد القاسي من قومه، خاطبهم صالح عليه السلام بأسلوب دعوي رائع يأخذ بالألباب ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ص ٣٦٣.

(٢) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمد الغزالي ٢/ ٢٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي، ٣٦٣.

عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ ﴾.

وفي هذا الرد بيان أن معصية الله تعالى خسران مبين، ومن آتاه الله الحكمة والإيمان فقد أوتي خيراً كثيراً. ومن الذين آتاهم الله تعالى الحكمة المستضعفون من قومه الذين آمنوا بدعوته إلى التوحيد، بينما الملأ من قومه ظلوا سادرين في غيهم وشركهم.

«ولما تخوّفوا من استفحال دعوته وغلبتها، أخذوا يتحدونه ويطالبونه مرة أخرى بآية محسوسة تراها العين تكون دالة على صدق رسالته، فكانت تلك الآية التي طلبوها، هي ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴾ [الشمس:١٣]، وإنما أضيفت إلى اسم الله لكونها جاءت على خلاف ما هو معتاد في جنسها، لا شكلاً، ولا حجماً، ولا غذاء، فأمرهم صالح بتركها تأكل في أرض الله، وبأن يكون لها وحدها شرب يوم معلوم، كما يكون لمواشيهم شرب اليوم الذي يليه، بحيث تقاسم (ناقة الله) مواشيهم مياه الشرب مناصفة، يوم لها ويوم لهم[١].

لكنّ القوم تحدوا صالحاً ﷺ فعقروا الناقة، لأن التكذيب بدعوة صالح قد تأصل في قلوبهم، فجاء التعدي على الناقة التي تعد آية من آيات الله في الأرض.﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ﴾ «فهي آخر ما بقي لكم من متاع هذه الدنيا، ومن أيام هذه الحياة.. فلما جاء موعد تحقيق الأمر ـ وهو الإنذار أو الإهلاك ـ نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا... نجيناه من الموت ومن خزي ذلك اليوم، فقد كانت ميتة ثمود ميتة مخزية، وكان مشهدهم جاثمين في دورهم بعد الصاعقة المدوية التى تركتهم موتى على هيئتهم مشهداً مخزياً... كأن لم يقيموا ويتمتعوا.. وإنه لمشهد مؤثر...

ثم الخاتمة المعهودة في هذه السورة: تسجيل الذنب، وتشييع اللعنة، وانطواء الصفحة من الواقع ومن الذكرى﴿ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾»[٢].

---

(١) التيسير في أحاديث التفسير، المكي الناصري، ٣/ ١٣١ـ ١٣٢.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب، ٤/ ١٩٠٨، ١٩٠٩.



الهدايات المستنبطة من المقطع الكريم:

- الاستغفار من الذنوب والتوبة إلى الله تعالى شرط لقبول الدعاء واستجابة الله تعالى لنا.
- في قصص الأنبياء وما حصل لأقوامهم الجاحدين لله تعالى العبرة والعظة للناس في كل زمان ومكان، فالله تعالى خالق الناس ومدبر أمورهم، قادر على تعذيبهم.

المقطع الرابع: (الآيات ٦٩-٧٦) تبشير الملائكة إبراهيم عليه السلام

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

تأتي آيات هذا المقطع التي تتحدث عن تبشير الملائكة إبراهيم عليه السلام في سياق قصص الأنبياء مع أقوامهم، « فمن قصة ثمود في شمال شبه الجزيرة العربية تنتقل السورة إلى قصة لوط في بلاد الشام، في الأرض المجاورة»[1] التي عرض لها المقطع السابق وتعرض آيات هذا المقطع في السورة لإبراهيم عليه السلام مع أضيافه من الملائكة قبل ذهابهم إلى قوم لوط لتعذيبهم، يقول الأستاذ سيد قطب: « وفي قضيتي إبراهيم ولوط هنا يتحقق وعد الله بطرفيه كنوح ﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ وقد كانت البركات في إبراهيم وعقبه من ولديه: إسحاق وأبنائه أنبياء بني إسرائيل،

(١) تفسير سورة هود د. محمد البهي ص ٦٢-٦٣ .

وإسماعيل ومن نسله خاتم الأنبياء والمرسلين»[١].

لقد بدأت قصة إبراهيم ﷺ في هذه السورة بالقسم، أي ووالله لقد جاءت رسل الله من الملائكة إبراهيم ﷺ بالبشرى «وحيوه بالسلام ﴿ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ فرد هذه التحية بأحسن منها ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ ﴾أي أمري كله سلام، وأتم التحية بكرم الضيافة الذي امتاز به أبو العرب إبراهيم ﷺ بأن أعد الطعام الشهي (فما لبث أن جاء بعجل حنيذ) مشوي على النار» [٢].

أكرم إبراهيم ﷺ أضيافه ليأكلوا من طعامه، لكنهم امتنعوا عن تناول الطعام، فأحس أن القوم غرباء عنه، فلم يمدوا أيديهم لتناول الطعام، ولم يعتذروا فاستنكر إبراهيم فعلهم واستوحش منهم خيفة لقوله تعالى﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾، «وعند هذا كشفوا عن حقيقتهم ﴿ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾. وإبراهيم يدرك ما وراء إرسال الملائكة إلى قوم لوط، ولكن حدث في هذه اللحظة ما غير مجرى الحديث ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ ﴾، وربما كان ضحكها ابتهاجا لهلاك القوم الملوثين﴿ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾وكانت عقيما لم تلد وقد أصبحت عجوزا ففاجأتها البشرى بإسحاق، وهي بشرى مضاعفة بأن سيكون لإسحاق عقب من بعده هو يعقوب»[٣].

« والذي يدل على قدرته تعالى أن الملائكة بشرت إبراهيم ﷺ بالولد قبل امرأته سارة فسمعت فعجبت لقوله تعالى في سورة الذاريات ﴿ قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾.

ولما شافهوها بذلك، صرخت بوجه العجب من انه جامع بين عجبين في كونه منه ومنها بأن ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ الآية ٧٢»[٤].

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/ ١٩١٠.
(٢) زهرة التفاسير لأبي زهرة ٣٧٣٠١٧.
(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤\ ١٩١٢ .
(٤) نظم الدرر، للبقاعي ٩/ ٢٣١.

وهنا رد الملائكة عجبها بقولهم لها﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾ ﴾ الآية ٧٣.

« جاء رد الملائكة بأسلوب الاستفهام الإنكاري لاستفهامها التعجبي، أي لا ينبغي لك أن تعجبي من شيء هو من أمر الله الذي لا يعجزه شيء ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ فلا محل للعجب أن يكون من آياته تعالى أن يهب رسوله وخليله الولد منكما في كبركما وشيخوختكما. فما بأول آية له وقد نجاه من نار قومه الظالمين، وآواه إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين، وهذه الرحمة والبركات والسلام عليهم.

وأما جملة﴿ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴾ فجاءت لتعليل ما قبلها وقد وصف الله كتابه بالمجيد كما وصف نفسه به لسعة هداية كتابه، وسعة كرمه وفضله على عباده. ومن هذه الآية أخذ النبي ﷺ دعاء الصلاة الذي أمر به أمته عقب التشهد الأخير من الصلاة»[(١)].

لقد اطمأنت نفس إبراهيم ﵇ وزوجه بالبشرى، وسكن قلبه وذهب عنه الخوف والروع الذي أصابه في بدء لقائه مع أضيافه الملائكة.

« ولكن هذا لم ينسه لوطاً وقومه وما ينتظرهم من وراء إرسال الملائكة من هلاك واستئصال، وطبيعة إبراهيم الرحيمة الودودة لا تجعله يطيق هلاك القوم واستئصالهم جميعاً ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴿٧٥﴾ ﴾وهذه الصفات كلها قد دعت إبراهيم أن يجادل الملائكة في مصير قوم لوط وإن كنا لا نعلم كيف كان هذا الجدال لأن النص القرآني لم يفصله»[(٢)].

إن الصفات الحميدة التي كان يتصف بها إبراهيم ﵇ جعلته يجادل الملائكة، فإبراهيم «غير عجول على كل من أساء إليه ﴿ أَوَّٰهٞ ﴾ كثير التأوه من الذنوب ﴿ مُّنِيبٞ ﴾ تائب راجع إلى

(١) انظر: تفسير المنار / رشيد رضا ١٢/ ١٠٨.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤ / ١٩١٢-١٩١٣.



الله بما يحب ويرضى، وهذه الصفات دالة على رقة القلب والرأفة والرحمة، فبين أن ذلك مما حمله على المجادلة فيهم رجاء أن يرفع عنهم العذاب، ويمهلوا لعلهم يحدثون التوبة والإنابة كما حمله على الاستغفار لأبيه»[1].

ولذلك حري بنا معاشر المسلمين أن لا نتعجل بالدعاء على العصاة والمذنبين، وإنما علينا الدعاء لهم بالهداية والإنابة لا بالهلاك والاستئصال تأسيا بإبراهيم ﷺ في دعوته.

عرض إبراهيم ﷺ على أضيافه الملائكة تأجيل العذاب لقوم لوط بالاستئصال لكن الملائكة الكرام عليهم السلام قالوا له﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾ ﴾.

الهدايات المستنبطة من المقطع الكريم:

- من آداب الإسلام: كرم الضيافة، والابتداء بالسلام على الآخرين.
- ملازمة الدين وتقوى الله تعالى هما أساس السعادة في الدنيا والآخرة.
- رقة القلب والحلم والمجادلة بالتي هي أحسن، من صفات الداعية المسلم.

المقطع الخامس: (الآيات ٧٧-٨٣) إجرام قوم لوط ﷺ

﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ

(١) الكشاف للزمخشري ٢/ ٤١٢.

ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴿٨٣﴾ ﴾

عرضت آيات المقطع السابق لبشارة الملائكة إبراهيم عليه السلام بإسحاق، ثم انتقلت في هذا المقطع إلى لوط عليه السلام لتخبره بوقوع العذاب على قومه وأنه أمر واجب لازب لا يرد عن القوم الظالمين، فاستقبلهم لوط عليه السلام استقبال المتضرر بهم، وعبر عن هذا الضيق الشديد بأن يومه عصيب﴿ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴿٧٧﴾ ﴾الآية٧٧.

لقد جاءت اللحظة القاسية حين علم قوم لوط عليه السلام بأضيافه من الملائكة، وصاروا يهرعون إليه طالبين الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، جاءوا مندفعين بسرعة هائلة وغير طبيعية، لأن نزعاتهم الحيوانية كانت تسيطر عليهم فأفقدتهم كل القيم الخلقية، فنسوا الحياء والخجل، وقد خاف لوط عليه السلام على ضيوفه بوجوههم المشرقة من اعتداء رجال قومه الشاذين جنسياً، ولذلك دعا لوط عليه السلام هؤلاء الشاذين للزواج من بنات القوم بالطرق المشروعة بدعوتهم إلى الفطرة السليمة﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴾ الآية ٧٨

في هذا النداء يحاول لوط عليه الصلاة والسلام إيقاظ الفطرة السليمة في نفوس رجال قومه، ويوجههم إلى الجنس الآخر الذي خلقه الله تعالى للرجال، فهن أطهر بكل معاني الطهر عرض عليهم التزويج من النساء في قومه لأنهم في مقام بناته.

« ولكن هل استمع القوم إلى دعوته تلك؟ طبعا لا، وهذا أمر متوقع، فالقوم الذين وقعوا فريسة لغرائزهم الحيوانية المحضة، بعدوا كل البعد عن أي طريق للتعقل أو للحكمة». [١]

والحق أن الأمر اشتد، ولوط عليه السلام غضب غضباً كونه لا يملك قوة تردع سفهاء قومه، عندئذ قال لوط عليه السلام﴿ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴾، « حينئذ أخبرته ملائكة الرحمن

(١) أحسن القصص، د. زاهية الدجاني ص٧٨.



بأمرهم وأنهم أرسلوا لإهلاكهم.. فكان هذا عذاباً معجلاً وأنموذجاً لمن باشروا مراودة لوط على أضيافه، وأمروا لوطاً أن يسري بأول الليل بأهله ويلح في السير حتى يخلف ديارهم وينجو من معرة العذاب، فخرج بهم فلما أصبح الصباح حتى خلفوا ديارهم وقلب الله عليهم ديارهم فجعل أعلاها أسفلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين الذين يعملون عملهم ببعيد[1].

لقد أصابهم العذاب جزاء ما اقترفوا من شذوذ جنسي، ومخالفة للفطرة، فنالوا جزاءهم الذي لا يزال شاهداً على إجرامهم الذي صاروا فيه قدوة لكل الشاذين في أي زمان، وأي مكان.

الهدايات المستنبطة من المقطع الكريم:

- الغيرة على حرمات الله تعالى من الدين.
- الاستعانة بالآخرين على أمور الخير ولو كانت الاستعانة بذلك من أهل الشر، فلعل الله يؤيد دينه بالرجل الفاجر.
- اللواط جريمة أخلاقية، وقتل لأخلاق الرجولة.

المقطع السادس: (الآيات ٨٤-٩٥) قصة شعيب عليه السلام مع قومه

تتواصل الآيات الكريمات ذكر حلقات المكذبين لأنبيائهم، وما أصابهم، وهنا يذكر نبي الله شعيبا – عليه الصلاة والسلام– مع قومه أهل مدين الذين قيل إنهم كانوا يسكنون أطراف الجزيرة بمحاذاة الشام وتعرف بلادهم بمعان مدينة معروفة ببلاد الأردن حاليا.

وعلى أي حال فإن هذه القصة تختلف عن سابقاتها وما سيأتي بعدها حيث تركز على قضية الأمانة في المعاملة، ويتضمن هذا المقطع ما يأتي:

---

(١) انظر: تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن للسعدي ص ١٢٥.



- الآيات (٨٤- ٨٦) دعوة شعيب ﷺ ونصيحته لقومه:

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ ﴾

جاءت في هذا المقطع الكريم الدعوة الكريمة الصادقة من نبي الله شعيب ﷺ- لقومه حيث دعاهم إلى توحيد الله القاعدة الأولى في الحياة التي يقوم عليها كل ما عداها من عقيدة وعبادة ومعاملة، وبدأ بها، لأنها الأصل الثابت الذي ينبني عليه غيره ثم ثنى بنهي قومه آل مدين عن التطفيف في الكيل والميزان، وقد كان هذا العمل السوس الذي ينخر في عظام أولئك القوم؛ كما اشتهر قوم لوط بفاحشة عمل قوم لوط.

ولم يكتف – عليه الصلاة والسلام- بالنهي مجردا بل إنه علله ليحسن وصوله إلى عقولهم المتحجرة فذكرهم بأنهم في رغد من العيش وبسطة في الجسم وأمن في البلدان؛ فلا ينبغي لهم أن يمدوا أيديهم إلى أموال الآخرين بنقص كيلهم، وكل ذلك دل عليه جزء آية كريمة الذي جاء بأسلوب تحليلي «إني أراكم بخير».

وكما علل نهيه عن التطفيف في الكيل فقد حذرهم نقمة الله العاجلة والآجلة.

ثم تجيء الآية الثانية من قصة سيدنا شعيب مع آل مدين مبدوءة بالنداء « يا قوم» الذي تكرر ست مرات في سياق هذه القصة ليفيد الحنو والعطف الذي كان يجيش به صدر نبي الله شعيب- عليه الصلاة والسلام-.

ثم تأتي النصيحة الغالية على الطريقة الموجبة (الأمر) بعد ما جاءت بطريقة السلب والنهي من باب التأكيد على أهمية الأمر ومن أجل الإشارة إلى أن التخلية تكون قبل التحلية، ثم ينهاهم عن نقص حقوق الناس؛ إذ إن نقصها ظلم وأي ظلم، وهنا يلحظ أن السياق ينتقل بنا من

الخاص إلى العام؛ ذلك أن نقص الكيل والوزن متعلق الأمر بهما فقط، أما النهي عن بخس الناس أشياءهم فهو نهي عن كل معاملة باطلة كالربا والغش والرشوة والسرقة والتدليس...

فكل هذه المعاملات الخبيثة تؤدي إلى تدابر الناس وتحاسدهم فيما بينهم، ولأنها توصل إلى جو خرب يقضي على الأخضر واليابس ولهذا فقد جاء المقطع الأخير من الآية الكريمة لينهاهم عن إشاعة الفساد المتعمد كالقتل وتهديد الأمن العام.

ثم تأتي الآية التي بعد هذه لتذكر القوم بأن ما عند الله خير وأبقى، وعبرت الآية الكريمة عنه بكلمة (بقيت) التي تدل على الدوام وتؤذن بضده وهو الزوال، وقد أفادت أن ما يقترفونه من آثام متاع زائل، وأن ما يدعوهم إليه شعيب حظ وافر باق، وبقاءه يشمل الدنيا والآخرة أما كونه دنيويا فلأن الكسب الحلال ناشئ عن تراض لا يؤدي إلى الخنق وأمراض القلوب وأما كونه أخرويا فلأن النهي عنه مقارن بالوعيد، فإذا تركوه كان لهم الجزاء الحسن والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مرداً.

وكان الذي عند الله خير وأبقى مشروط بالإيمان الذي يولد القناعة ويقمع الطمع ومعروف أن مصارع الرجال تحت بروق الطمع.

وفي آخر نصيحة سيدنا شعيب – عليه الصلاة والسلام- الآن تأتي الإشارة إلى خطورة الأمر وعظم المسؤولية، وأنه لم يرسل لحفظهم من المعاصي أو معاقبتهم عليها إنما هو مبلغ لهم وناصح أمين، وكل سيحاسب على ما عمل.

ثم تأتي الآية الأخيرة من هذا المقطع الكريم مبينة استنكار القوم وسوء معاملتهم لنبيهم وسخريتهم منه وتهكمهم به. (١)

---

(١) -انظر فيما سبق: تفسير ابن كثير٢/ ٤٢٥، ظلال القرآن ٤/ ١٩١٧، وزهرة التفاسير ٧/ ٣٧٣٨، والتفسير الموضوعي لسورة هود للدكتور البهي ص٧٠.

- الآيات(٨٧- ٩٣) مجادلة شعيب عليه السلام لقومه ولجاجهم معه:

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) ﴾

في هذا المقطع الكريم يواصل نبي الله شعيب عليه الصلاة والسلام مجادلة قومه بالتي هي أحسن مبتدئاً تذكيرهم – في تودد وتحبب– بأواصر القربى مستخدما كلمة طالما استخدمها (يا قوم) ويبين لهم ما يريد تبيانه في أمور ثلاثة[1]:

١ – إنه على بينة من ربه وأنه مبعوث بحق من عنده فهو الذي خلقه ورباه وقام عل شؤون الوجود، وفي استخدام كلمة رب ما يفيد ذلك كما لا يخفى.

٢ – إن الله رزقه رزقا مباركا طيبا لا ظلم فيه ولا غش ولا تطفيف، وفي كلامه هذا تلميح وإشارة إلى أن رزقهم ليس كذلك فينبغي لهم أن يقتدوا به من حيث اكتساب الرزق الحسن.

٣ – إنه يطبق على نفسه ما يدعوهم إليه وما ينهاهم عنه؛ إذ إنهم أنبياء مجبولون على فعل ذلك دائما فهم قدوة لأتباعهم في كل زمان ومكان، يقول العلامة البيضاوي: «... ولهذه الأجوبة

(١) انظر: التحرير والتنوير ١١/ ٣١٤، وزهرة التفاسير ٧/ ٣٧٤١.

الثلاثة على هذا النسق شأن وهو التنبيه على أن العاقل يجب أن يراعي في كل ما يأتيه ويذره أحد حقوق ثلاثة أهمها وأعلاها حق الله تعالى وثانيها حق النفس وثالثها حق الناس»[(١)].

وبعد ما بين لهم الأمور الثلاثة ذكرهم بما يهدف إليه وما يريد أن يحققه من جراء ذلك كله ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ ﴾ فالصلاح والإصلاح للفرد والمجتمع والحياة هو الهدف الرئيس الذي يجعله الأنبياء نصب أعينهم، وفي هذا ما يعود على الفرد والمجتمع والحياة بالخير واليسر والسرور.

وفي أخر الآية الأولى من هذا المقطع الكريم يبين نبي الله شعيب أنه يستمد فلاحه وصلاحه، وكل ما يأتيه من القوة المطلقة من رب الأرباب وملك الملوك فهو وحده سبحانه الذي يوفق إلى الهداية ويوصل للغاية، وعليه المعتمد وإليه المصير والمرجع فهو الذي يجازي المسيء ويثيب المحسن دنيا وآخرة.

ويواصل عليه السلام محاولة تذكير قومه علهم يتعظون فيبدأ بكلمة فيها رقة الأب الحاني والخائف على ذويه وأقاربه من التهلكة ومصير الظلمة ثم يحذرهم أنه لا ينبغي لهم أن تحملهم مشاقتهم له ومكابرتهم ومعاندتهم على استمرارهم في العصيان والمخالفة حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب قوم نوح من الغرق أو قوم هود من ريح صرر عاتية أو قوم صالح من الصيحة أو قوم لوط من العذاب والخسف، وهؤلاء ليسوا ببعيدين عن قوم شعيب زماناً ومكاناً، فالمكان قريب من مكانهم فقوم مدين على أطراف الشام ومكانهم معان القرية المعروفة، ومكان قوم لوط هو غور الأردن، وكذا الحال مع الزمان فمدين من إبراهيم جد القبيلة التي سميت باسمه كان متزوجا بابنة لوط عليه السلام، ثم يحلق بهم في جو آخر من أجواء النصيحة الخالصة فيدعوهم إلى طلب المغفرة من الله ذي الجلال والإكرام والتوبة إليه عما ارتكبوه من شرك وسوء معاملة فإن الله واسع المغفرة والرحمة وإنه لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى.

هكذا كانت نصيحة شعيب لقومه فيها التودد والمجادلة بالتي هي أحسن فماذا كان رد

(١) انظر: تفسير البيضاوي ١/ ٤٧٨.



أولئك القوم أصحاب القلوب الغلف؟

مع كل أسف كان الرد عنيفاً وسيئاً، وفيه من صدود وصلف ونكير وعنف، وأول ذلك أن نادوه باسمه مجرداً فقابلوا الإحسان بالإساءة وقالوا لا نفهم كثيراً من أقوالك التي تهدف من دلائلها كبطلان عبادة آلهتنا وحرية التصرف في أموالنا ثم أخذوا يقيسون القيم والأخلاق بمقياس المادة الظاهرة، فهو فيهم ضعيف وفي نظرهم حقير ولولا عصبية العشيرة القريبة التي تحميه لقتلوه شر قتله وهي الرمي بالحجارة فهو ليس بذي عزة ومنعة منهم فلولا رهطه لرجموه.

بعدما أجابوه تلك الأجوبة القاسية الموزونة بموازين الجاهلية الأولى غضب شعيب- عليه الصلاة والسلام- لربه فبدأ بإنذارهم مبتدئاً جوابه- كعادته- بلفظ الحنو الأبوي الرقيق (يا قوم) ثم نصحهم مستنكرا عليهم أن يكون الرهط والقبيلة أعز من الله عندهم فهم الذين أشركوا بالله وجعلوه نسياً منسياً رغم أنه سبحانه العالم بهم وبأسرارهم المحيط بهم، ولقد أحسن ﷺ الاختيار لكلمة ربي دون غيرها إشارة منه عليه الصلاة والسلام إلى أن الله حاميه منهم؛ لأنه هو الذي خلقه ورباه وحماه من قبل أفلا يحميه بعد؟

ثم يسترسل النبي الهادي في النصح الأخير لقومه والأسلوب هو الأسلوب الرفيق الرقيق فيه الحكمة وحسن الأدب فلعل القلوب تلين، والعقول تهتدي، لكن هذه المرة الأخيرة ينذرهم ويخوفهم العقاب فيطلب منهم أن يمضوا في طريقتهم وخطتهم وسيمضي هو كذلك في طريقه وخطته»[1].

والأيام هي خير من يشهد لصاحب الموقف الحق، والواقع الآتي هو أقوى من يبين زيف الكاذب، وكلنا منتظرون ومرتقبون ما يقع لكم ولنا، يقول الأستاذ سيد قطب: «وفي هذا التهديد ما يوحي بثقته بالمصير كما يوحي بالمفاصلة وافتراق الطريق»[2].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير٢/ ٤١٥، والتحرير والتنوير ١١/ ٣١٨، وزهرة التفاسير٧/ ٣٧٤٣.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ١٩٢٣.



- الآيات (٩٤- ٩٥) النهاية المؤلمة لقوم شعيب عليه السلام:

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾

في هذا المقطع الأخير من قصة سيدنا شعيب -عليه الصلاة والسلام- مع قومه، تصوير وبيان لما حل بالقوم نتيجة تكذيبهم نبيهم، فما إن جاء وعد الله الحق الذي لا يتخلف ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين نجّى الله تعالى من شاء أن ينجيه، وهم شعيب وثلة من الذين آمنوا معه، أما العذاب الذي أراده الله للمكذبين فكان الصيحة والجزاء من جنس العمل، فغدوا باركين على ركبهم، ميتين لا حراك لهم فخلت منهم الدور كأن لم تكن لهم دور وكأنهم لم يعمروها حينا من الدهر.

فهلاكاً لأولئك القوم وتباً لهم وبعداً كما هو الحال مع أسلافهم قوم ثمود[1]، فمضى القوم كلهم المشبه والمشبه به مشبعين باللعنة والسخط، وطويت صفحتهم السوداء والغبراء المكفهرة «وطويت صفحة أخرى من الصفحات السود حق فيها الوعيد على من كذبوا بالوعيد»[2]

الهدايات المستنبطة من المقطع الكريم:

- إن بخس المكاييل والموازين خصوصاً، وبخس الناس أشياءهم عموماً من أعظم الجرائم الموجبة لعقوبات الدنيا والآخرة.
- إن الله تعالى خالق الأسباب والمسببات قادر على جعل العذاب يصيب به من يشاء ويدفعه عمن يشاء وفق ناموس لا يتغير ولا يتبدل فالبقاء للأصلح والعاقبة للمتقين.
- التفكير في مصير الظلمة يجعل المرء العاقل يربأ بنفسه عن أقوالهم وأفعالهم الشنيعة.
- بخس الناس أشياءهم يشيع في النفوس مشاعر الألم والحقد مما يؤثر سلباً في حل الروابط

(١) انظر: زهرة التفاسير ٧/ ٣٧٤٥.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ١٩٢٣.

الاجتماعية ولا يبقى شيء صالح في دنيا الناس ومعاشهم.

- الإيمان بالله تعالى يولد الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والاستعداد ليوم الرحيل.
- الصلاة تربط الإنسان بخالقه فتيقظ قلبه وتجعله مراقباً لمولاه في كل ما يأتي وما يذر من عبادات ومعاملات.
- الرفق والرقة في الأسلوب مما ينبغي للداعية المسلم أن يتحلى بهما طوال سني دعوته مهما أصابه من نصب ووصب مع المدعوين.
- من اعتمد على ماله قل، ومن اعتمد على غيره ذل، ومن اعتمد على الله فلا ذل ولا قل.
- اتباع الأسلوب العقلي العاطفي مع المدعوين كي تؤتي الدعوة ثمارها مع المدعوين.

على الإنسان العاقل- في دنيا اليوم- أن يفكر من أين وكيف أتى؟ وأين سيذهب؟ وما مصير الذين سبقوه؟ ففي هذا مدعاة إلى الإيمان وحسن العمل.

المقطع السابع: (الآيات ٩٦-٩٩) موجز قصة موسى مع فرعون

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَاتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ﴾

عرضت آيات هذا المقطع الكريم لخبر سيدنا موسى -عليه الصلاة والسلام- مع الطاغية فرعون، والخبر مجمل في ذاته، وإنما أريد به في هذا السياق الإعلام بأن عاقبة فرعون وأشراف قومه هي اللعنة والهلاك كحال أولئك الأقوام الظالمين الذين سبق الحديث عنهم في المقاطع السابقة.

وهنا يبدأ المشهد الكريم بعرض إرسال موسى عليه السلام مدعما بالآيات التسع المعدودات

المذكورات في سورتي الأعراف وبني إسرائيل، وكذا إعطاؤه البرهان الواضح، وقيل المقصود بالسلطان المبين العصا؛ لأنها أكبر آياته فيكون من باب عطف الخاص على العام.

وأيا كان الأمر بإرسال موسى ﷺ بالآيات البينات والحجج البالغات أمر لا يجادل فيه ولا يشك. فقد أرسل ﷺ إلى فرعون طاغية الزمان والمكان ومعه كبراء قومه- لكن السياق هنا يطوي القصة طيا ليوصلنا إلى نهايتها.

فإذا كان القوم يتبعون أمر فرعون ويتركون « أمر الله ورسوله رغم ما في فرعون من حماقة وطيش وجهل وشطط، ثم تأتي الآية الثالثة من هذا المقطع الكريم لتبدي لنا ما يقع يوم القيامة وكأنه وقع، ففرعون يتقدم قومه إلى الحطمة يوم القيامة فيورد نفسه جهنم وبئس المصير ويورد قومه معه كما يورد الراعي القطيع من الغنم، نعم فقد كانوا كذلك من حيث قلة تفكيرهم وتنازلهم عن أهم خصوصيات الآدمية وهي حرية الإرادة وحسن الاختيار. وذلك المرد الذي أورد فرعون نفسه وقومه إياه بئس المكان إذ إنه نار تلظى لا تسمن ولا تغني من جوع ولا تروي من ظمأ»[1].

ثم تجيء الآية الأخيرة من هذا المقطع الكريم لتبين ما جلبه فرعون وآله على أنفسهم من نقمة الله تعالى وهي اللعنة تلحقهم في هذه الدنيا بإغراق الله لهم « فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآيتنا وكانوا عنها غافلين» تلك هي النار عطاء الله لآل فرعون وبئس الرفد والعطاء والمنة التي أذل بها فرعون قومه وما ظلمهم الله ولكن كانوا هم الظالمين.

يقول أبو زهرة: «وهذا تصوير لحالهم إذ تعاونوا على الظلم والذل والإذلال في الحياة، فتعاونوا على المقت وإرفاد النار بعد الوفاة»[2].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ١٩٢٦، والتحرير والتنوير ١١/ ٣٢٣.

(٢) انظر: زهرة التفاسير ٧/ ٣٧٤٧.



الهدايات المستنبطة من المقطع الكريم:

- الله سبحانه وتعالى أعطى الناس عقولا يفكرون بها ليميزوا الخبيث من الطيب، وترك لهم حرية الاختيار ثم إنه سيحاسبهم على اختيارهم ذاك وإذا أخذ ما أوهب أسقط ما أوجب.
- على الإنسان أن يوطن نفسه وألا يكون إمعة بل ينبغي أن يُحسن الاختيار لنفسه وإلا فلا يلومن إلا إياها.
- أهمية اختيار الرفقة الطيبة فالأخلاء بعضهم لبعض عدو إلا المتقين.
- لا يكتفي الظالم بأن يورد نفسه الهلاك بل يضر غيره من الذين يتبعون كل ناعق ويسيرون خلف كل منافق.

القطاع الثالث: التعقيب على حركة العقيدة في التاريخ (الآيات ١٠٠-١٢٣)

جاءت آيات القطاع الثالث خاتمة لآيات سورة هود ﷺ في ثلاث وعشرين آية كريمة، متضمنة هذه الآيات «تعليقات وتعقيبات شديدة الاتصال بما سبق من سياق السورة، متكاملة معه في أداء أهدافها كذلك»[1]. فيها التعقيب على حركة العقيدة في التاريخ بدءاً من نوح ﷺ الأب الثاني للبشر وانتهاء بسيد البشر محمد ﷺ الذي نزل عليه القرآن الكريم ليكون المعجزة والرسالة.

هذا، وقد تضمن هذا القطاع أربعة مقاطع هي:

المقطع الأول: العبرة فيما قص الله تعالى علينا دنيا وأخرى (١٠٠-١٠٩).

المقطع الثاني: الاختلاف في الحق والركون الى الظلمة (١١٠- ١١٥).

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٤/ ١٩٢٦.



المقطع الثالث: الفتنة تعم بسكوت الصالحين (١١٦ - ١١٩).

المقطع الرابع: في القصص تثبيت للفؤاد وتسلية للقلب(١٢٠ - ١٢٣).

المقطع الأول: الآيات (١٠٠-١٠٩) العبرة فيما قص الله تعالى علينا دنيا وأخرى

ويتضمن هذا المقطع ما يأتي:

- الآيات (١٠٠ - ١٠١) الظلم سبب لهلاك الأمم وخراب العمران:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

تبدأ آيات هذا المقطع باسم الإشارة (ذلك) الذي يشير إلى الاسم المذكور في القصص السابقة، وإنما اختير هذا الاسم (ذلك) لبيان بعدهم عن الحق ومكانتهم الحقيرة في نظر الله تعالى.

تلك القصص إنما هي غيض من فيض، وقليل من كثير، فهم كثر لا يحصون وأخبار تلك القرى الظالمة التي قصها الله على نبيه منها لا يزال آثاره قائما مشاهدا إلى يوم الناس هذا كبقايا عاد في الأحقاف ومنازلهم بجنوب عمان، وبقايا ثمود في الحجر، وبعض هاتيك القرى أمسى كالزرع المحصود اجتثها الله من فوق الأرض كقوم نوح وقوم لوط.

وتأتي الآية الثانية من المقطع الكريم لتبين أن سبب هلاك أولئك الأقوام إنما هو ظلمهم لأنفسهم بالشرك وسائر المعاصي، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم كانوا يظلمون بما اقترفوه من تكذيب لآيات الله تعالى واستهزاء بالوعيد، ولو تركوا أزمنة أخرى لما ازدادوا إلا ظلما وفسادا، كما قال نوح عليه السلام ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [نوح: ٢٧].

هذا وقد اتكل أولئك الأقوام على معبوداتهم في دفع عذاب الله وبطشه ونقمته، ولكن هيهات ثم هيهات لحجر أو مدر أن يغلب خالقه ومدبره فما نفعتهم معبوداتهم التي كانوا

يدعونها من دون الله لما حق عليهم قول الله، وحل عذابه، وآن حلول بطشه.

فتلك المعبودات المسكينة في نفسها لم تزدهم نفعاً بل زادتهم خسراناً إلى خسرانهم وهلاكاً إلى هلاكهم فتعساً لهم جميعاً وبعداً للقوم الظالمين في كل زمان ومكان[1].

يقول الأستاذ سيد قطب: «ولفظ تتبيب أقوى ببنائه اللفظي وجرسه المشدد ذلك أنهم اعتمدوا عليهم، فزادهم استهتاراً وتكذيباً. فزادهم الله نكالاً وتدميراً»[2].

ثم تجيء الآية الثالثة من هذا المقطع لتبدأ باسم الإشارة كذلك الذي يشير إلى استئصال تلك القرى الظالمة « والتقدير وكذلك الأخذ الذي أخذنا به تلك القرى أخذ ربك إذ اخذ القرى والتشبيه في الكيفية والعاقبة» نعم فالكيفية واحدة وإن اختلفت الوسائل والسبل والعاقبة واحدة وهي النهاية المؤلمة للقرى الظالمة. وأخذ الله المفاجئ الذي لا يرتقبه الظلمة موجع ومؤلم بل شديد في إيلامه، كيف لا وقد أخذ الناس على حين غرة وبسرعة لا تكاد تتصور، وإذا أراد القارئ المعاصر أن يقارن فلينظر ما حدث من الأعاصير في بعض البلدان العربية والأجنبية ففيها العظة والعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

- الآيات(١٠٢- ١٠٨) الناس بسبب عملهم فريقان:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(١) انظر: تفسير أبي السعود٣/ ٣٥٠، وتفسير المنار١٢/ ١٥٤.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ١٩٤٨ .



جاءت آيات هذا المقطع لتنقل قارئها من الدنيا إلى الآخرة فابتدأت بتذكير الناس جميعا أن ما حدث ويحدث للأقوام المكذبين فيه عبرة وعظة؛ لأنه يذكر بالدار الآخرة خاصة لأولئك الذين يخافون الآخرة ويعملون لها، أما نقيضهم وهم لا يخشون الآخرة فتظل قلوبهم كالحجر الصلد لا يحس بحركة ولا ينتفع بموعظة.

وفي الآية نفسها يتكرر اسم الإشارة مشيراً هذه المرة إلى أقرب مذكور وهو الدار الآخرة. فالناس جميعا مجموعون في ذلك اليوم من أول الخليقة إلى آخرها وهو يوم مشهود من حيث عظم الموقف وشدته وما فيه من أحداث جسام وحساب وعقاب.

وكل الناس حاضر شاء أم أبى فينظر ما سيكون حينئذ، وهنالك العدالة الإلهية المطلقة التي تقتص من كل ظالم وتحاسب على القليل والكثير والنقير والقطمير، فنسأل الله السلامة ولطف الله بنا.

ثم تأتي الآية الثانية من هذا المقطع لتذكر أن يوم القيامة كائن لا محالة، وتأخيره ليس لأجل التأخير ذاته بل لأجل معدود في علم الله لايتقدم ولا يتأخر، وقد أعطت لكلمة معدود هذا المعنى؛ إذ إن المعدود لا يقبل الزيادة ولا النقصان ولا التقديم ولا التأخير، وإذ كان كذلك فإنه آت لا محالة فلا يتقدم باستعجال قوم ولا يتأخر بطلب آخرين. ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤].

ثم يجئ السياق مصدرا هول الموقف فهناك الخشوع والخضوع يغشى الجميع، والرهبة والرغبة تسيطر على الناس حينئذ، صمت مطبق بحيث لا يجرأ على الكلام كائن من كان ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ: ٣٨].

الناس يومئذ فريقان فاجر شقي، وسعيد تقي، فأما الذين حقت عليهم كلمة الله فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها، وشقاوتهم هي التي أنزلتهم ذلك المنزل وأوردتهم

ذلك المورد. فبئس القرار الذي فيه حر لقلى وضيق وكرب في النفوس وخنق في الصدور[١].

وتلك النار هي مثوى أولئك الظالمين لا يخرجون منها أبداً وكل ذلك بمشيئة الله التي قضت أن يكونوا كذلك.

يقول الشيخ أبو زهرة: «إلا ما شاء ربك فيه بيان أن العذاب والعقاب متعلق بمشيئة الله فهو الفاعل المختار، والأمر في ذلك متعلق بمشيئته هو في العدل والرحمة فليس بحتم عليه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فإذا كان قد أدخل الكفار النار فبمشيئته، وإذا كان قد أعطى المؤمنين الأتقياء جنة فبرحمته ومشيئته وعطائه ولذا قال بعد ذلك ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ وهذا القول مستقيم نختاره»[٢].

ثم ينتقل السياق الكريم ليذكرنا بنزل السعداء فهم في جنة عالية منعمون، فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر لايبلى شبابها ولا ينتقص عيشها ولا يتكدر صفوها. فكلها عطاء لا ينقطع ولا يبلى فسبحان من بيده كل ذلك.

- الآية (١٠٩) صيحة ونصيحة:

﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ ﴾

بدئت هذه الآية الكريمة بالفاء التفريعية التي تفيد أنه مفرع عن القصص السابقة، فهي تكسب سامعها يقينا بباطل ما عليه عبدة اللات والعزى وأضرابها.

فأضرابهم من الأمم السابقة حق عليهم أمر الله وأصبحوا في خبر كان، وهؤلاء ليسوا بأحسن حالا من أولئك فسوف يصيبهم مثل ما أصابهم فلا ينبغي لك أيها الرسول خصوصا والسامع عموما أن يخالجك أدنى ريب في ذلك.

(١) انظر: تفسير المنار ١٢/ ١٥٦، وفي ظلال القرآن ٤/ ١٩٢٩.

(٢) انظر: زهرة التفاسير ٧/ ٣٧٥٥.



فأهل مكة لا زالوا بعقلية آبائهم الأولين الذين يعبدون ما لا ينفعهم شيئا ولا يضرهم[1].

والله سيوفيهم حظهم من العذاب كما وفى أسلافهم من قبل والمراد بنصيبهم حظهم من عذاب الآخرة، لأن الله لم يستأصلهم كما أستاصل الأمم السابقة ببركة وجود النبي ﷺ ودعائه ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

الهدايات المستنبطة من المقطع الكريم:

- النهاية المؤلمة لكل ظالم آجلا أو عاجلا.
- ظلم الناس هو سبب الهلاك، ولا يأخذ الله القرى إلا وهي متلبسة بالظلم سادرة في غينها.
- لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون لدنياهم وآخرتهم.
- الظلمة هم الظلمة فالسابقون يتبعهم اللاحقون لا يختلف بعضهم عن بعض إلا باختلاف الزمان والمكان وتكرار الأشخاص بأسماء جديدة، والنهاية واحدة لكل منهم.
- الحق أبلج والباطل لجلج وعلى كل أحد أن يختار منهما اختيار الحر العاقل.
- كل أحد سيوفى نصيبه إن خيراً فخير وإن شراً فشر فكل يعمل على شاكلته والله المستعان.

(١) انظر: التحرير والتنوير ١١/ ٣٣٣، زهرة التفاسير ٧/ ٣٧٥٧.

المقطع الثاني: الآيات (١١٠ – ١١٥) الاختلاف في الحق والركون إلى الظلمة

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ (١١٠) وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١١) فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٢) وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (١١٣) وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ (١١٤) وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (١١٥) ﴾

ابتدأت آيات هذا المقطع الكريم ببيان أن الله سبحانه آتى موسى الكتاب، وكان فيه الآيات البينات والأحكام الزاجرات لكن أهل الكتاب كانوا بطبيعتهم أهل شقاق واختلاف فاختلفوا في فهم الكتاب بناء على فساد نفوسهم وليس مرجع الخلاف إلى الكتاب ذاته.

ثم يبين الجزء الثاني من الآية الكريمة أن الله سبحانه وتعالى لولا أنه يمهل الظالمين المختلفين في الكتاب إلى يوم الجزاء وأن ذلك سابق في علم الله لا يتغير ولا يتبدل لحكم بينهم ولبين المحق من المبطل كما قضى بين الرسل والمكذبين. فإرادة الله تعالى الأزلية هي التي قضت في هؤلاء الذين اختلفوا في الكتاب حتى يميز الخبيث من الطيب، ولأنه جعل لهم مدارك وعقولا يفهمون بها ويميزون بين الحق والباطل.

ثم يجيء الجزء الثالث من الآية الكريمة ليبين أن أهل الكتاب وهم اليهود خاصة في شك وريبة من كتابهم ذلك. تأتي الآية الثانية لتبرز لنا أن كل أولئك المذكورين قبل من أهل القرى ومن المختلفين في الكتاب من أتباع موسى ومن المشركين المعرض بهم في السياق الكريم وغيرهم من السابقين واللاحقين سيلاقون جزاء أعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر(١).

وتواصل الآيات الكريمات تتابعها في نسق جميل ومثير فبعد أن عرضت الآيتان السابقتان

(١) انظر: تفسير ابن كثير٢/ ٤١٩- ٤٢٠، التحرير والتنوير١١/ ٣٣٦، زهرة التفسير٧/ ٣٧٥٩.



إلى قضية اختلاف أهل الكتاب في كتابهم وأن الله سيجازي جميع الناس بأعمالهم يجيء الحض على دوام التمسك بالإسلام على وجه قوي وقويم، وعبر التنزيل عن ذلك بالاستقامة من أجل إفادة الدوام على العمل بتعاليم الإسلام في كل شأن من شؤون العبادات والمعاملات والأخلاق؛ ثم تنهى الآية الكريمة في الجزء الثاني منها عن قلة الاكتراث والجرأة مخالفة الحق وسائر المأمورات والمنهيات، ثم يعلل ذيل الآية الكريمة ما سيق الأمر به والنعي عنه ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾فالمولى جل وعلا بصير مطلع على كل صغيرة وكبيرة وإنما جاء العمل أولا لأنه مناط الجزاء والمحاسبة[١].

ثم تجيء الآية التالية ناهية المسلمين عن الميل إلى الظلمة والركون إليهم ويبين عاقبة من فعل ذلك أن جهنم جزاؤه وبئس المصير ولا ينفعه من ركن إليه يوم القيامة إذ لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا فكيف بغيرهم، يقول العلامة أبو السعود - مفتي الديار التركية في زمانه-: «... وإذا كان حال الميل في الجملة إلى من وجد منه ظلم ما في الإفضاء إلى مساس النار هكذا، فما ظنك بميل من يميل إلى الراشحين في الظلم والعدوان ميلاً عظيماً ويتهالك على مصاحبتهم ومناداتهم ويلقى شراره على مؤانستهم ومعاشرتهم، ويبتهج بالتزيي بزيهم ويمد عينيه إلى زهرتهم الفانية ويغبطهم بما أوتوا من القطوف الدانية وهو في الحقيقة من الحية طفيف ومن جناح البعوض خفيف بمعزل عن أن تميل إليه القلوب ضعف الطالب والمطلوب»[٢].

وتواصل آيات المقطع الكريم الأوامر الإلهية فتأمر النبي ﷺ بإقامة الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل، والمقصود بطرفي النهار أوله وآخره إذ يدخل فيه صلاة الفجر والظهر والعصر، والمقصود بزلفا من الليل، الساعة القريبة من أختها ويدخل في ذلك صلاة المغرب والعشاء، «ويتناول ذلك قيام الليل فإنها مما تزلف العبد وتقربه إلى الله تعالى»[٣].

---

(١) انظر: التحرير والتنوير١١/ ٣٣٩، وزهرة التفاسير٧/ ٣٧٦١.

(٢) انظر: ارشاد العقل السليم٣/ ٣٥٦.

(٣) انظر:تيسير الكريم الرحمن ص٣٤٧.

ويلحظ أن إقامة الصلاة جاءت بعد الأمر بالاستقامة والنهي عن الركون إلى الظلمة ذلك أنها توصل العبد بمولاه وتذكره بآخره وترقق مشاعره وتهذب أخلاقه، فمن أتى بها كما ينبغي عرف ربه ومن عرف ربه خافه، ومن خافه عمل بما أمر وانتهى عما نهى عنه وزجر.

ثم يأتي الجزء الثاني من الآية الكريمة ليعلل فائدة إقامة الصلاة وهو محو السيئات والقضاء عليها.

وجاء تذييل الآية مصدرا باسم الإشارة الذي يرجع إلى المذكور قبله من المأمورات والمنهيات، وتنتهي الآية بقوله تعالى﴿ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾نعم، فالذين يقيمون الصلاة ويبتعدون عن منكرات الأفعال وأقوالها هم في تذكر دائب لسكرات الموت وعظم موقف يوم القيامة[1].

ثم تأتي الآية الأخيرة من هذا المقطع المبارك لتحث على الصبر؛ إذ إن كل ما سبق ذكره من العبادات والمأمورات والمنهيات يحتاج إلى صبر﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ٤٥].

يقول الأستاذ محمد رشيد رضا: «أي وطن نفسك على احتمال المشقة في سبيل ما أمرت به وما نهيت عنه في هذه الوصايا حتى الصلاة... واستعن بالصبر والصلاة على سائر أعباء الدعوة إلى الإسلام والإصلاح»[2].

الهدايات المستنبطة من المقطع الكريم:

- الاختلاف المذموم هو ذلك الذي ينشأ عن فساد في النفوس.
- الجزاء من جنس العمل.
- الركون إلى الظلمة يعني الإقرار لهم بما يعملون، والإقرار لهم يعني مشاركتهم في كل منكر يأتونه، والمشاركة لهم ساعتها وخيمة.
- الصلاة أسس الأعمال وعمودها.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير٢/ ٤٢٠، التحرير والتنوير ١١/ ٣٤٣.

(٢) تفسير المنار ١٢/ ١٨٩.



المقطع الثالث: الآيات (١١٦- ١١٩) الفتنة تعم بسكوت المصلحين

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

جاءت آيات هذا المقطع الكريم مبينة عظم المسؤولية الملقاة على الفئة المؤمنة القليلة التي ينبغي لها أن تكافح الفساد بكل أشكاله وصوره حتى لا تغرق سفينة الحياة في البحر الخضم وعلى كل حال فقد جاءت الآية الأولى قائلة: هلا وجد من القرون الغابرة والأمم الماضية بقية قليلة من أهل الخير تنهى عن المنكر وتأمر بالمعروف وتحب الصلاح وتحارب الفساد!!

نعم قد وجد من ذلكم الصنف لكنه قلة قليلة ممن أنجاهم الله مع رسله، ثم إن الظالمين اتبعوا ما هم فيه من النعيم والبذخ ولم يبغوا به بدلا صح عليهم وصف الإجرام وحقت عليهم كلمة الله وما ظلمهم ولكن كانوا هم الظالمين[1].

ثم تجيء الآية الثانية من هذا المقطع الكريم لتبرز لنا منهجا من مناهج الله في معاملته للأمم والشعوب والجماعات والإفراد فتقول وما كان من شأن ربك وسنته في خلقه أن يهلك الأمم والشعوب بظلم منه لها مع وجود من يصلح ويدعو للصلاح وينهى عن الفساد، وإنما يكون الهلاك سابقاً ولاحقاً بسبب ظلم أولئك لأنفسهم شركاً وفساداً وظلماً لبعضهم بعضاً وما ربك بظلام للعبيد[2].

ثم يخبر سبحانه وتعالى في الآية الثالثة أنه لو شاء لجعل الناس أمة واحدة متفقة في هدي الإسلام متحدة في أمورها ولكن اقتضت حكمته وسبق في علمه أن يكونوا مختلفين في أديانهم

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير٢/ ٤٢٢، تيسير الكريم الرحمن ص٣٤٧.

(٢) انظر: تفسير المنار ١٢/ ١٩٢.



ومعاشهم وسلوكهم فلولا الشر لما عرف الخير وبضدها تتميز الأشياء.

ثم تأتي الآية الأخيرة من هذا المقطع الكريم لتستثني من رحمهم الله تعالى من أتباع الرسل الذين اعتصموا بحبل الله وتمسكوا بدينه وهم قلة قليلة أندر من الكبريت الأحمر.

ثم إن خلق الله البشر كان من حكمته أن يختلف الناس ليعرف المفسد من المصلح، والخير من الشر، والظلم من العدل. وقد سبق في قضاء الله تعالى وعلمه أن يكون حطب جهنم من مخلوقات الله من الجن والأنس[1]، وليس هذا ظلماً – حاشا لله – بل بسبب ظلمهم لأنفسهم وأعمالهم الشريرة، وقد اختاروا لأنفسهم ذلك الطريق الوعر فليتعلموا مسؤولية اختيارهم.

الهدايات المستنبطة من المقطع الكريم:

- سكوت أهل الصلاح عن التعسف والظلم والفساد يزرع الديار بلاقع.
- لا بد أن تكون هنالك طائفة تقوم بالحق إلى يوم يبعثون.
- الاختلاف في سنة الله في خلقه فلا ينبغي أن يتخذ ذريعة للفرقة والتشرذم بين المسلمين.

المقطع الرابع: الآيات (١٢٠- ١٢٣) في القصص تثبيت للفؤاد وتسلية للقلب

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

يكشف المقطع الأخير من السورة الكريمة عن الغاية من عرض قصص الأولين وأهم أنبائها كما يؤذن سياق السورة بانتهائها فيقول: وكل الأخبار والقصص التي قصها القرآن

(١) انظر: تفسير ابن كثير٢/ ٤٤٣، والتحرير والتنوير ١١/ ٣٥٠، وتيسير الكريم الرحمن ص٣٤٨.



عليك يا رسول الله وعلى أمتك إنما جاءت لتثبت فؤادك بالتسلية والتسرية عنك فالأنبياء والرسل قبلك كذبوا كما كذبت فلست بدعا منهم.

كما إنه جاءك في هذه السورة الكريمة المواعظ والمذكرات التي تصقل أصحاب القلوب النيرة، أما غيرهم من الذين لا يؤمنون بهاتيك المواعظ والمذكرات فقل لهم مهددا وموعدا: اعملوا ما مكنتم ووسعكم واستطاعتكم من مناوأة الدعوة إلى الله فإنا عاملون مكنتنا من الثبات والصبر على أذاكم وانتظروا ما تنسونه أن يحصل لنا فإنا منتظرون ما وعدنا به ربنا من النصرة عليكم، والله متم نوره ولو كرهتم وعارضتم. والأيام كفيلة بكشف كل ما هو آت وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

ثم تأتي الآية الأخيرة لتختم بما بدأت به السورة الكريمة من الدعوة إلى توحيد الله فهو وحده الذي يعلم غيب السموات والأرض والأمر كله له وحده في كل شأن من شؤون الدنيا والآخرة، ومن كان كذلك فحقه أن يعبد ويطاع ولا يعصى وأن تفوض إليه كل الأمور[1].

الهدايات المستنبطة من المقطع الكريم:

- القصص القرآني فيه تسلية وتسرية للرسول ﷺ ولجماعة المسلمين في كل زمان ومكان.
- على الإنسان أن يفكر ويتفكر في مصائر الأمم السابقة ثم يختار بعد ذلك المسلك الذي يناسبه.
- العاقبة للمتقين دائماً والأرض لله يورثها من يشاء من عباده.
- من توكل على الله كفاه كل شيء.
- من كان أعلم بنا منا حقّ له الخضوع التام في كل أمر.

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ٤٢٣، وتفسير المنار ١٢/ ١٩٥، وفي ظلال القرآن ٤/ ١٩٣٤، والتحرير والتنوير١١/ ٣٥٤.

وكأني بهذه الآية الكريمة وهي تشير إلى سنة التغيير والاستبدال، لتنتظم مع غيرها من السنة التي تضمنتها السورة الكريمة.

* بمناسبة قوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ أقول: أمر اللهُ نبيَّه ﷺ وكافةَ المؤمنين به أن يقتدوا بسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ فهم نجومُ الهدى ومصابيح الدجى وجوامعُ العلوم والحكم وينابيع الفضائل، ومعادن الخيرات وشآبيبُ الرحمات، فعلى كلٍّ مسلم أن يُعنى بدراسة سيرتهم العطرة في ضوء الكتاب والسنة ويقتطف منها العبر ويلتمس الفوائدَ، ويستنبط الدروس والحِكم سيَّما في هذا العصر، وما يشهده من غربةٍ في أحوال المسلمين، وفرقةٍ بين دعاةِ الحقِّ، مع تسلطِ الأعداء وكيد الأدعياء، واختلاط المفاهيم، وتخبُّطٍ في بعض المناهج ما بين يائسٍ ومداهنٍ ومتعجِّل ومتعصِّب، من هنا تبرز أهمية دراسة حياة الأنبياء جميعا، فالدراسةُ المتجردةُ الواعيةُ لهذه الحياةِ الحافلةِ المباركة: حصنٌ مكينٌ، ومنارٌ للسالكين، ومبعثٌ إلى الوحدة والاعتصامِ بحبلِ الله المتين، واتباعِ صراطه المستقيم، ومنطلقٌ إلى النصرِ والتمكين».

سورة يوسف

أولاً: بين يدي السورة:

أ - اسم السورة.

الاسم الوحيد لهذه السورة هو «سورة يوسف» (فقد ذكر ابن حجر في كتاب الإصابة أن أبا رافع بن مالك أول من قدم المدينة بسورة يوسف يعني بعد أن بايع النبي ﷺ يوم العقبة، ووجه تسميتها ظاهر لأنها قصت قصة يوسف عليه السلام كلها ولم تذكر قصته في غيرها. ولم يذكر اسمه في غيرها إلا في سورة الأنعام وغافر، وفي هذا الاسم تميز لها من بين السور المفتتحة بحروف ﴿ الٓر ﴾)[1].

وقيل: إنّ ﴿ الٓر ﴾ اسم السورة: أي هذه السورة المسماة ﴿ الٓر ﴾[2]، ولكن الأول أقوى لأن الثاني لم يذكره معظم المفسرين المشهورين ممن يعتد بقولهم في تفاسيرهم. ولأن كثيراً من السور بدأت بـ ﴿ الٓر ﴾ ولم يرد تسميتها بذلك.

ب - فضائل سورة يوسف.

قصة يوسف عليه السلام خاصة سماها الله أحسن القصص؛ لما فيها من العبر والحكم والنكت والفوائد التي تصلح للدين والدنيا من سير الملوك والمماليك والعلماء ومكر النساء والصبر على أذى الأعداء وحسن التجاوز عنهم بعد الالتقاء وغير ذلك.

(قال خالد بن معدان: سورة يوسف وسورة مريم يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة.

وقال ابن عطاء: لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليه) [3].

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١ / ٢١٥٧.

(٢) تفسير القرطبي، ٩ / ١٠١.

(٣) تفسير ابن كثير، ٢ / ٦١٢، وقد ساقه الحافظ ابن عساكر متابعا من طريق القاسم بن الحكم عن هارون بن كثير به ومن طريق شبابة عن محمد بن عبد الواحد النضري عن علي بن زيد بن جدعان وعن عطاء=

وأما الحديث المروي عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ « علموا أرقاكم سورة يوسف فإنه أيما مسلم تلاها أو علمها أهله أو ما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت وأعطاه من القوة أن لا يحسد مسلما» فهو من هذا الوجه لا يصح لضعف إسناده بالكلية، وكان عمر ﷺ يقرأ في الفجر بسورة يوسف.

ج - سبب نزول السورة:

«روي أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف فنزلت السورة، قال سعد بن أبي وقاص: أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فتلاه عليهم زمانا فقالوا: لو قصصت علينا؛ فنزل: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾»[1].

د - مكية السورة أو مدنيتها.:

ذكر كثير من المفسرين أنها مكية، (وهي مكية على القول الذي لا ينبغي الالتفات إلى غيره، وقد قيل: إن الآيات الثلاث من أولها مدنية: وهو واه لا يلتفت إليه، نزلت بعد سورة هود وقبل سورة الحجر، وهي السورة الثالثة والخمسون في ترتيب نزول السور على قول الجمهور، ولم تذكر قصة نبي في القرآن بمثل ما ذكرت قصة يوسف ﷺ هذه السورة من الإطناب)[2] وبعضهم استثنى بعض الآيات وقال عنها مدنية: «سورة يوسف مكية إلا الآيات ١ و٢ و٣ و٧ فمدنية»[3].

وأرجح أنها كلها مكية، لأنها ذكرت قصة يوسف ﷺ في موضع واحد، فناسب أن تكون نزلت في موضع واحد وهو مكة، والله تعالى أعلم.

= بن أبي ميمونة عن زر بن حبيش عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ فذكر نحوه وهو منكر من سائر طرقه.

(١) تفسير القرطبي، ٩/ ١٠١.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٢١٥٧، وانظر روح المعاني/ الألوسي، ١٢/ ١٧٠.

(٣) تفسير الجلالين، جلال الدين المحلي، والسيوطي، ١/ ٣٠.



هـ - عدد آيات السورة والاختلاف بين القراء في العد وسببه.

وعدد آيتها مائة وإحدى عشرة آية باتفاق أصحاب العد في الأمصار، ولم يختلف القراء والمفسرون في عدد آيات سورة يوسف.

و - محور السورة:

سورة يوسف ﷺ، دافعت عن العقيدة، وأكدت قضية التوحيد، توحيد الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، من خلال تركيز يوسف ﷺ على وجوب أن تكون الحاكمية لله وحده، موظفاً تأويله للرؤى، وما صاحب ذلك من أحداث في تثبيت الوحدانية الخالصة لله، وإبطال الآلهة المزيفة. وهذه هي وحدة العقيدة الإسلامية التي جاء بها الرسل جميعاً عليهم السلام.

ز. المناسبات في السورة:

المناسبة بين اسم السورة ومحورها:

يوسف ﷺ رسول من رسل الله، ورسل الله عليهم السلام، دعوا إلى التوحيد الخالص لله، وبتتبع مراحل حياة الرسول الكريم يوسف ﷺ بدءاً من الرؤيا، ومروراً بمكر إخوته به وما حدث له في مصر، ولقائه بإخوته مرة أخرى، وعودته لأبويه، وانتهاء بالتعقيب على أحداث القصة، كل ذلك يدل دلالة واضحة على التوحيد، وهذا ارتباط وثيق بين الاسم والمحور.

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمتها:

يتوافق المطلع والختام في السورة، كما توافق المطلع والختام في القصة، قال الله في أولها ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ وقال ﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ۝٧ ﴾ وقال في آخرها ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾.

وتجيء التعقيبات في أول القصة وآخرها، وبين ثناياها، متناسقة مع موضوع القصة، وطريقة أدائها، وعباراتها كذلك. فتحقق الهدف الديني كاملا، مع صدق الرواية، ومطابقة الواقع في الموضوع.

وقد بدأت القصة وانتهت في سورة واحدة؛ لأن طبيعتها تستلزم هذا اللون من الأداء، فهي رؤيا تتحقق رويداً رويداً، ويوما بعد يوم، ومرحلة بعد مرحلة. فلا تتم العبرة بها - كما لا يتم التنسيق الفني فيها - إلا بأن يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها وإفراد حلقة واحدة منها في موضع لا يحقق شيئا من هذا كله كما يحققه إفراد بعض الحلقات في قصص الرسل الآخرين. كحلقة قصة سليمان مع بلقيس، أو حلقة قصة مولد مريم، أو حلقة قصة مولد عيسى، أو حلقة قصة نوح والطوفان، الخ... فهذه الحلقات تفي بالغرض منها كاملا في مواضعها. أما قصة يوسف فتقتضي أن تتلى كلها متوالية حلقاتها ومشاهدها، من بدئها إلى نهايتها [1].

المناسبة بين افتتاحية السورة وخاتمة ما قبلها:

ختم الله سورة هود عليه السلام بقوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [هود: ٣٢١]، فالآية ترد الأمور إلى الله وحده سبحانه، وأن الغيب لا يعلمه إلا هو، والله جلّ جلاله لا يغفل عن شيء، فأمر بعبادته والتوكل عليه وحده دون غيره. وجاءت افتتاحية سورة يوسف عليه السلام بالتركيز على الوحدانية من خلال أحسن القصص؛ قصة يوسف عليه السلام، وحسن توكل يعقوب ويوسف عليهما السلام على الله كما توكل هود عليه السلام من قبل، وأحداث قصة يوسف عليه السلام في علم الله، فناسب ما ختم به سورة هود ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

المناسبة بين مضمون السورة ومضمون ما قبلها:

تم التأكيد في سورة هود عليه السلام، على أن كتاب الله محكم، وأنه من عند الله، ووجوب الإيمان بالتوحيد الخالص، وذكر دعوة مجموعة من الرسل كهود وصالح ونوح ولوط وشعيب وموسى وهارون، وكلهم دعوا أقوامهم للتوحيد الخالص، وذكر عاقبة كفر أقوامهم وتكذيبهم، فناسب أن يتم ذلك بذكر قصة يوسف عليه السلام، من خلال قصته الكاملة.

(١) في ظلال القران، سيد قطب، م٤/ ١٩٧٠.



تقسيم السورة إلى مقاطع كالآتي:

المقطع الأول: من أدلة إعجاز القرآن الكريم: الآيات (١ – ٣)

قال تعالى:﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾.

التفسير الإجمالي للمقطع الأول:

بدأت السورة بالحروف المقطعة ﴿ الٓر ﴾ للدلالة على إعجاز القران الكريم، فهو يتألف من جنس الحروف التي يتكلم بها العرب، ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثله وهو بيّن واضح، ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾المبين لكل ما يحتاجه الناس في دنياهم وآخرتهم، تبين حلاله وحرامه ورشده وهداه.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ نزل باللسان العربي لتعقلوا حدوده وتعليماته، وأوامره ونواهيه، وأنزلنا هذا الكتاب المبين قرآنا عربيا على العرب «لأن لسانهم وكلامهم عربي فأنزلنا هذا الكتاب بلسانهم ليعقلوه ويفقهوا منه»[1]، تزداد عقولكم بتكرر المعاني الشريفة العالية، على أذهانكم. فتنتقلون من حال إلى أحوال أعلى منها وأكمل.

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ والله سبحانه يقص على رسوله في هذا القرآن أحسن القصص؛ وذلك لصدقها وسلاسة عبارتها بأسلوب بليغ وبديع، وأدق عبارة، ﴿ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ بما اشتمل عليه هذا القرآن الكريم، منّة من الله عليك وفضلاً. لذا ذكر قصه يوسف ؑ. ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ ما كنت تدري ولا تعلم بتلك القصص، فهي من الغيب.

---

(١) تفسير الطبري / الطبري، ٧/ ١٤٦ - ١٤٧.

الهدايات المستنبطة من المقطع الأول:

١ - الحروف المقطعة الواردة في سور القران، فيها دلالة على إعجاز القرآن الكريم، فالذي يصنع من الكلمات العادية هذا الكتاب المعجز لا يمكن أن يكون بشراً، ولا بد عقلا أن يكون وحيا من عند الله سبحانه.

٢ - في سورة يوسف عليه السلام، تسلية للنبي ﷺ بما لقيه يعقوب ويوسف عليهما السلام من آلهم من الأذى، وقد لقي النبي ﷺ من آله أشد ما لقيه من بعداء كفار قومه مثل عمه أبي لهب والنضر بن الحارث وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وإن كان هذا قد أسلم بعد وحسن إسلامه فإن وقع أذى الأقارب في النفوس أشد من وقع أذى البعداء كما قال طرفة:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

٣ - في هذه السورة أسلوبا خاصا من أساليب إعجاز القرآن وهو الإعجاز في أسلوب القصص الذي كان خاصة أهل مكة يعجبون مما يتلقونه منه من بين أقاصيص العجم والروم فقد كان النضر بن الحارث وغيره يفتنون قريشا بأن ما يقوله القرآن في شأن الأمم هو أساطير الأولين اكتتبها محمد ﷺ، وكان النضر يتردد على الحيرة فتعلم أحاديث «رستم» و«اسفنديار» من أبطال فارس فكان يحدث قريشا بذلك ويقول لهم: أنا والله أحسن حديثا من محمد فهلم أحدثكم أحسن من حديثه ثم يحدثهم بأخبار الفرس فكان ما بعضها من التطويل على عادة أهل الأخبار من الفرس يموه به عليهم بأنه أشبع للسامع فجاءت هذه السورة على أسلوب استيعاب القصة تحديا لهم بالمعارضة

٤ - على المسلم أن يفهم عن الله ما قصه على رسوله ﷺ، ويدع ما سوى ذلك مما لم يرد في كتاب أو سنة النبي ﷺ، وذكر الله أنه يقص على رسوله أحسن القصص في هذا الكتاب، ثم ذكر هذه القصة وبسطها، وذكر ما جرى فيها، فعلم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة، ولا يجوز الالتفات إلى ما ذكر في الإسرائيليات التي لا يعرف لها سند ولا ناقل وأغلبها كذب.

المناسبة بين المقطع الأول ومحور السورة:

ذكر في هذا المقطع الدلالة على إعجاز القرآن الكريم، وأنه من عند الله الواحد، الذي لا يجوز لأحد أن يعبد غيره وهذا هو محور السورة.

المقطع الثاني: رؤيا يوسف عليه السلام: الآيات (٤ – ٦)

قال تعالى:﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الثاني والمقطع الأول:

لما مدح الله ما اشتمل عليه هذا القرآن من القصص، وأنها أحسن القصص على الإطلاق، فلا يوجد من القصص في شيء من الكتب مثل هذا القرآن، ذكر قصة يوسف، وأبيه وإخوته القصة العجيبة الحسنة.

التفسير الإجمالي للمقطع الثاني:

قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ ﴾ يعقوب عليه الصلاة والسلام: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ فكانت هذه الرؤيا مقدمة لما وصل إليه يوسف عليه السلام من الارتفاع في الدنيا والآخرة، فأوَّلها يعقوب بأن الشمس: أمه، والقمر: أبوه، والكواكب: إخوته، وأنه ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له، ويسجدون له إكراما وإعظاما، وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدمه من اجتباء الله له، واصطفائه له، وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل، والتمكين في الأرض.

وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب، الذين سجدوا له وصاروا تبعا له فيها، ولهذا قال:

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ يصطفيك ويختارك بما يمنُّ به عليك من الأوصاف الجليلة والمناقب الجميلة. ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ من تعبير الرؤيا، وبيان ما تؤول إليه الأحاديث الصادقة، كالكتب السماوية ونحوها، ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ في الدنيا والآخرة، بأن يؤتيك في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ﴿ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ حيث أنعم الله عليهما، بنعم عظيمة واسعة، دينية، ودنيوية.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ علمه محيط بالأشياء، وبما احتوت عليه ضمائر العباد من البر وغيره، فيعطي كلا ما تقتضيه حكمته وحمده، فإنه حكيم يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ﴾ خشي يعقوب عليه السلام أن يحدث يوسف عليه السلام، بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدونه على ذلك فيبغون له الغوائل حسداً منهم له أي يحتالوا لك حيلة يردونك فيها [1]، ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ لا يفتر عنه ليلاً ولا نهاراً، ولا سراً ولا جهاراً، فالبعد عن الأسباب التي يتسلط بها على العبد أولى، فامتثل يوسف أمر أبيه، ولم يخبر إخوته بذلك، بل كتمها عنهم.

الهدايات المستنبطة من المقطع الثاني:

١ - السورة فيها من الأدلة على صدق نبوة محمد ﷺ، حيث قصَّ على قومه هذه القصة الطويلة وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا دارس أحدا. وهو بين أظهرهم صباحا ومساء، وهو أُمِّيٌّ لا يخط ولا يقرأ، وهي موافقة، لما في الكتب السابقة.

٢ - في سورة يوسف عليه السلام، أصول تعبير الرؤى، وأن علم التعبير من العلوم المهمة التي يهبها الله من يشاء من عباده، وإن أغلب ما تبنى عليه المناسبة والمشابهة في الاسم والصفة، فإن رؤيا يوسف التي رأى أن الشمس والقمر، وأحد عشر كوكبا له ساجدين، وجه المناسبة

(١) تفسير القران العظيم، ابن كثير، ٢/ ٦١٦.



فيها: أن هذه الأنوار هي زينة السماء وجمالها، وبها منافعها، فكذلك الأنبياء والعلماء، زينة للأرض وجمال، وبهم يهتدى في الظلمات كما يهتدى بهذه الأنوار، ولأن الأصل أبوه وأمه وإخوته هم الفرع، فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نوراً وجرماً، لما هو فرع عنه. فلذلك كانت الشمس أمه، والقمر أباه، والكواكب إخوته. ومن المناسبة أن الشمس لفظ مؤنث، فلذلك كانت أمه، والقمر والكواكب مذكرات، فكانت لأبيه وإخوته

٣ - رؤيا يوسف ﷺ ورؤى جميع الأنبياء حق، لا يجوز إنكاره، فهو معلوم من الدين بالضرورة، وأول ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحي هو الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا وجاءت مثل فلق الصبح، وكذا تحققت رؤى إبراهيم ويوسف عليهما السلام بتأكيد القرآن الكريم.

٤ - تأويل الرؤى علم؛ فلا يجوز لأحد أن يؤولها بدون علم؛ وكثير من الناس من يزعمون أنهم يعلمون تأويل الرؤى بغير علم فيَضلون ويُضلون.

٥ - اجتباء الرسل وانتقاؤهم من الملائكة ومن الناس أمر إلهي صرف، لا يتدخل فيه أحد، فالله أعلم حيث يجعل رسالته، ورؤيا يوسف تشير إلى اختيار الله له، وإتمام نعمته عليه وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق، والجد يقال له أب، وهذا دليل على أن الله إذا أحبّ عبداً أكرمه.

٦ - نعمة الله على العبد، نعمة على من يتعلق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنه ربما شملتهم، وحصل لهم ما حصل له بسببه، كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ ولما تمت النعمة على يوسف، حصل لآل يعقوب من العز والتمكين في الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف ﷺ.

٧ - ينبغي البعد عن أسباب الشر، وكتمان ما تخشى مضرته، لذا نصح يعقوب ﷺ، ابنه ألا يقص ما رآه على إخوته خوفاً من كيد الشيطان، فمن رأى رؤيا وخشي أن تؤدي إلى فتنة

وعداوة بذكرها فلا ينبغي أن يذكرها، لأن الشيطان يوغر صدور الناس بعضهم على بعض، ويزين لهم الخطيئة والشر.

٨ - ويجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره لقوله: ﴿ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ﴾

٩ - تبليغ الدعوة أمر فيه مشاق وأعباء فيحتاج إلى التقديم بين يديه مقدمة، توطئة له، وتسهيلاً لأمره، واستعداداً لما يرد على الداعية من المشاق، لطفاً وإحساناً من الله بعباده.

المناسبة بين المقطع الثاني ومحور السورة:

دارت أحداث المقطع الثاني حول الرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام، والحوار الذي جرى بينه وبين أبيه يعقوب عليه السلام، حيث حذره من كيد الشيطان وإخوته، لأن الشيطان يفسد على الإنسان عقيدة التوحيد الخالص.

المقطع الثالث: تآمر إخوة يوسف عليه السلام عليه: الآيات (٧ – ١٨)

قال تعالى:﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الثالث والثاني:

لما ذكر الله في المقطع الثاني تخوف يعقوب على ابنه يوسف عليهما السلام، من ذكر رؤياه أمام إخوته خشية الفتنة بينهم، جاء المقطع الثالث ليذكر ما توقعه يعقوب ﷺ وما تخوّف منه.

التفسير الإجمالي للمقطع الثالث:

قال تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ ﴾ عبر وأدلة على كثير من المطالب الحسنة، ﴿لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال، فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المعرضون فلا ينتفعون بالآيات، ولا بالقصص والبينات.

﴿ إِذْ قَالُوا۟ ﴾ فيما بينهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ بنيامين، شقيقه، وإلا فكلهم إخوة. ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ جماعة، فكيف يفضلهما علينا بالمحبة والشفقة، ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ لفي خطأ بيِّن، حيث فضلهما علينا من غير موجب نراه، ولا أمر نشاهده.

﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ غيبوه عن أبيه في أرض بعيدة لا يتمكن من رؤيته فيها. فإنكم إذا فعلتم أحد هذين الأمرين ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ يتفرغ لكم، ويقبل عليكم بالشفقة والمحبة، فإنه قد اشتغل قلبه بيوسف شغلا لا يتفرغ لكم، ﴿ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ من بعد هذا الصنيع ﴿ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾ تتوبون إلى الله، وتستغفرون من بعد ذنبكم.

فقدموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم تسهيلا لفعله، وإزالة لشناعته، وتنشيطا من بعضهم لبعض. ﴿ قَالَ قَآئِلٌ ﴾ من إخوة يوسف الذين أرادوا قتله أو نفيه: ﴿ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ ﴾ فإن قتله أعظم إثما وأشنع، والمقصود يحصل بإبعاده عن أبيه من غير قتل، ولكن توصلوا إلى إبعاده بأن تلقوه ﴿ غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾ وتتوعدوه على أنه لا يخبر بشأنكم، بل على أنه عبد مملوك آبق منكم، لأجل أن ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾ الذين يريدون مكاناً بعيداً، فيحتفظون فيه.

وهذا القائل أحسنهم رأيا في يوسف، وأبرهم وأتقاهم في هذه القضية، فإن بعض

الشر أهون من بعض، والضرر الخفيف يدفع به الضرر الثقيل. فلما اتفقوا على هذا الرأي ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ قالوا يا أبانا خاطبوه بذلك تحريكا لسلسلة النسب بينه وبينهم وتذكيراً لرابطة الأخوة بينهم وبين يوسف عليه الصلاة والسلام ليتسببوا بذلك إلى استنزاله ﷺ عن رأيه في حفظه منهم لما أحس منهم بأمارات الحسد والبغي فكأنهم قالوا مالك أي شيء لكلا تجعلنا أمناء لأي شيء يدخلك الخوف منا على يوسف ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴾ مشفقون عليه، نود له ما نود لأنفسنا [(١)].

فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة من عدم إرساله معهم، ذكروا له من مصلحة يوسف وأنسه الذي يحبه أبوه له، ما يقتضي أن يسمح بإرساله معهم، فقالوا: ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ يتنزه في البرية ويستأنس. ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ سنراعيه، ونحفظه من أذى يريده. فأجابهم بقوله: ﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ ﴾ مجرد ذهابكم به يحزنني ويشق علي، لأنني لا أقدر على فراقه، ولو مدة يسيرة، فهذا مانع من إرساله، مانع ثان، وهو إني ﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴾ في حال غفلتكم عنه، لأنه صغير لا يمتنع من الذئب. ﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ جماعة، حريصون على حفظه[(٢)]، ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴾ لا خير فينا ولا نفع يرجى منا إن أكله الذئب وغلبنا عليه.

فلما مهدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله، وعدم الموانع، سمح حينئذ بإرساله معهم لأجل أنسه.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ لما ذهب إخوة يوسف بيوسف بعد ما أذن له أبوه، وعزموا على أن يجعلوه في غيابة الجب، كما قال قائلهم السابق ذكره، وكانوا قادرين على ما أجمعوا عليه، فنفذوا فيه قدرتهم، وألقوه في الجب، ثم إن الله لطف به بأن أوحى إليه وهو في تلك الحال الحرجة،

(١) تفسير أبي السعود، أبو السعود، ٤/ ٢٣٧.

(٢) تفسير الجلالين ١/ ٣٠٤.



﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ سيكون منك معاتبة لهم، وإخبار عن أمرهم هذا، وهم لا يشعرون بذلك الأمر، ففيه بشارة له، بأنه سينجو مما وقع فيه، وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته على وجه العز والتمكين له في الأرض.

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾ ليكون إتيانهم متأخرا عن عادتهم، وبكاؤهم دليلا لهم، وقرينة على صدقهم. ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ ﴾ إما على الأقدام، أو بالرمي، ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا ﴾ توفيرا له وراحة. ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ في حال غيبتنا عنه في استباقنا ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ بمصدق لنا، تعذرنا بهذا العذر، والظاهر أنك لا تصدقنا لما في قلبك من الحزن على يوسف، والرقة الشديدة عليه. ﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ دم سخلة، زعموا أنه دم يوسف[1] وكل هذا، تأكيد لعذرهم، فلم يصدقهم أبوهم بذلك، ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ زينت لكم أنفسكم أمرا قبيحا في التفريق بيني وبينه، لأنه رأى من القرائن والأحوال ما دلّه على ما قال. ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ أما أنا فوظيفتي سأحرص على القيام بها، وهي أني أصبر على هذه المحنة صبراً جميلاً سالماً من السخط والتَّشكِّي إلى الخلق، وأستعين الله على ذلك، لا على حولي وقوتي، لأن الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل.

الهدايات المستنبطة من المقطع الثالث:

١ - في قصة يوسف وإخوته آيات وأمارات على حقائق كثيرة، لا يجوز التفريق بين الأبناء في المعاملة، لأنها تؤدي إلى الفتنة والحقد والكراهية بين الأخوة، ولكن المحبة شيء خارج عن قدرة الإنسان، فالرسول ﷺ كان يحب عائشة رضي الله عنها أكثر من كل زوجاته ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك»، ولكن لا يمنع أن يحاول الأب ألا يظهر ذلك لبقية أبنائه ما أمكن.

(١) الدر المنثور / السيوطي، ٤/ ٥١٢.

٢ - الحذر من الذنوب وعواقبها، وأن الذنب الواحد يستتبع ذنوبا متعددة، ولا يتم لفاعله إلا بعدة جرائم، فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه، احتالوا لذلك بأنواع من الحيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاء يبكون، ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها في تلك المدة، إلى أن اجتمعوا بيوسف، وكلما صار البحث، حصل من الإخبار بالكذب، والافتراء، ما حصل، وهذا شؤم الذنب، وآثاره التابعة والسابقة واللاحقة.

٣ - جريمة القتل أكبر جرائم الأرض قاطبة بعد الشرك بالله.

٤ - التوبة التي تعد قبل ارتكاب الجريمة لإزالة معالم الجريمة، ليست بالتوبة، إنما هي تبرير لارتكاب الجريمة يزينه الشيطان ! وليست هذه توبة إنما تكون التوبة من الخطيئة التي يندفع إليها المرء غافلا جاهلا غير ذاكر حتى إذا تذكر ندم، وجاشت نفسه بالتوبة.

٥ - المجرم قد يستغل الظروف ويستجيش العواطف كما صنع اخوة يوسف مع أبيهم واستعملوا من أساليب الكذب حتى نجحوا في تنفيذ خطتهم الماكرة. فعلى القاضي أن يكون فطناً نبيهاً مثل ما حدث مع القاضي شريح: جاءت امرأة إلى شريح ﷺ تخاصم في شيء فجعلت تبكي فقالوا: يا أبا أمية أما تراها تبكي ؟ فقال: قد جاء إخوة يوسف أباهم عشاء يبكون.

٦ - سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم، فإن يعقوب قال لأولاده بعد ما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عالجوه أشد المعالجة، ثم قال لهم بعد ما أتوه، وزعموا أن الذئب أكله ﴿ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗا ﴾ .

٧ - بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما، فإن إخوة يوسف، لما اتفقوا على قتل يوسف أو إلقائه أرضا، وقال قائل منهم: ﴿ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ ﴾ كان قوله أحسن منهم وأخف، وبسببه خف عن إخوته الإثم.

٨ - المسلم يجب عليه الصبر والتحمل عند وقوع الابتلاء، كما صبر يعقوب عليه السلام متحملا، لا يجزع ولا يفزع ولا يشكو، مستعينا بالله على ما يلفقونه من حيل وأكاذيب.

المناسبة بين المقطع الثالث ومحور السورة:

في هذا المقطع أغوى الشيطان إخوة يوسف عليه السلام، ففعلوا ما فعلوا به، والاستجابة لوسوسة الشيطان ونزغاته، انتصار للباطل على الحق، وللشرك على الإيمان، لذا دعت الآيات للتنسك بطاعة الله وتوحيده.

المقطع الرابع: محنة يوسف عليه السلام في مصر: الآيات (١٩ – ٣٤)

قال تعالى: ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ۚ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن

نَفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الرابع والثالث:

بعد أن منّ الله على يوسف عليه السلام فهيأ له الخروج من الجب، ناسب أن يذكر الأحداث التي مر بها في مصر، في بيت العزيز، وتعرضه للفتنة، وهي الحلقة الثانية من حلقات الابتلاء التي تعرض لها. والتي سنتناولها في هذا المقطع الرابع:

التفسير الإجمالي للمقطع الرابع:

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ قافلة تريد مصر، ﴿ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ ﴾ الذي يعس لهم المياه، ويسبرها ويستعد لهم بتهيئة الحياض ونحو ذلك، ﴿ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ﴾ الوعاء الذي يسقي به فتعلق فيه يوسف عليه السلام وخرج. ﴿ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ﴾ استبشر وقال: هذا غلام نفيس، ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ﴾ وكان إخوته قريبا منه، فاشتراه السيارة منهم، ﴿ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ ﴾ قليلٍ جداً، ﴿ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ لأنه لم يكن لهم قصد إلا تغييبه وإبعاده عن أبيه، ولم يكن لهم قصد في أخذ ثمنه، (وفي الفرائد أنه ضمن أسروه معنى جعلوه أي جعلوه بضاعة مسرين إياه فهو مفعول به)[1]، والمعنى في هذا: أن السيارة لما وجدوه، عزموا أن يُسِرُّوا أمره، ويجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم، حتى جاءهم إخوته فزعموا أنه عبد أبق منهم، فاشتروه منهم بذلك الثمن، واستوثقوا منهم فيه لئلا يهرب، والله أعلم.

(١) روح المعاني، الألوسي، ١٢/ ٢٠.



لما ذهب به السيارة إلى مصر وباعوه بها، فاشتراه عزيز مصر، فلما اشتراه، أعجب به، ووصى عليه امرأته وقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ إما أن ينفعنا كنفع العبيد بأنواع الخدم، وإما أن نستمتع فيه استمتاعنا بأولادنا، ولعل ذلك أنه لم يكن لهما ولد[١]﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ كذلك مكنا له فى الأرض، أرض مصر وجعلناه ملكاً يتصرف فيها بأمره ونهيه ولنعلمه من تأويل الأحاديث كان ذلك الإنجاء والتمكين والله غالب على أمره لا يمنع عما شاء أو على أمر يوسف بتبليغه ما أراد له دون ما أراد إخوته ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك.

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ﴾ كمال قوته المعنوية والحسية، وصلح لأن يتحمل الأحمال الثقيلة، من النبوة والرسالة. منتهى استعداد قوته وهو ثمان عشرة سنة أو إحدى وعشرون ﴿ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ جعلناه نبياً رسولاً، وعالماً ربانياً آتيناه حكماً وعلماً حكمة وهو العلم مع العمل واجتناب ما يجهل فيه أو تحكما بين الناس وفقها ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ تنبيه على أنه كان محسنا فى عمله متقيا فى عنفوان أمره[٢]. ودل هذا، على أن يوسف وفّى مقام الإحسان، فأعطاه الله الحكم بين الناس والعلم الكثير والنبوة.

﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ هو غلامها، وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد، ولا إحساس بشر. المراودة: مفاعلة من راد يرود إذا جاء وذهب كأن المعني: خادعته عن نفسه أي: فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرجه من يده يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه وهي عبارة عن التحمل لمواقعته إياها "[٣].

﴿ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ ﴾ قيل سبعة، وصار المحل خاليا فزادت المصيبة، وهما آمنان من

---

(١) زاد المسير، الجوزي، ٤/ ١٩٧.

(٢) تفسير النسفي، ٢/ ١٨٣.

(٣) الكشاف، الزمخشري، ١/ ٢١٧٨.



دخول أحد عليهما، بسبب تغليق الأبواب، وقد دعته إلى نفسها ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾افعل الأمر المكروه وأقبل إليَّ، ومع هذا فهو غريب، لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسير تحت يدها، وهي سيدته، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك، وهو شاب عزب، وقد توعدته، إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن، أو العذاب الأليم. فصبر عن معصية الله مع وجود الداعي القوي فيه، لأنه قد هم فيها هما تركه لله، وقدم مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء، ورأى من برهان ربه – وهو ما معه من العلم والإيمان، الموجب لترك كل ما حرم الله – ما أوجب له البعد والانكفاف، عن هذه المعصية الكبيرة، (همته لم تكن من جهة العزيمة وإنما كانت من جهة دواعي الشهوة بقوله قال معاذ الله إنه ربي)[1] ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل القبيح، لأنه مما يسخط الله ويبعد منه، ولأنه خيانة في حق سيدي الذي أكرم مثواي. فلا يليق بي أن أقابله في أهله بأقبح مقابلة، وهذا من أعظم الظلم، والظالم لا يفلح، والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل تقوى الله، ومراعاة حق سيده الذي أكرمه وصيانة نفسه عن الظلم الذي لا يفلح من تعاطاه، وكذلك ما منَّ الله عليه من برهان الإيمان الذي في قلبه، يقتضي منه امتثال الأوامر، واجتناب الزواجر، والجامع لذلك كله أن الله صرف عنه السوء والفحشاء، لأنه من عباده المخلصين له في عباداتهم، الذين أخلصهم الله واختارهم واختصهم لنفسه، وأسدى عليهم من النعم.

ولما امتنع من إجابة طلبها بعد المراودة الشديدة، ذهب ليهرب عنها ويبادر إلى الخروج من الباب ليتخلص، ويهرب من الفتنة، فبادرت إليه، وتعلقت بثوبه، فشقت قميصه، فلما وصلا إلى الباب في تلك الحال، ألفيا سيدها، أي: زوجها لدى الباب، فرأى أمراً شق عليه، فبادرت إلى الكذب، أن المراودة قد كانت من يوسف، وقالت: ﴿ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا ﴾ ولم تقل "من فعل بأهلك سوءا" تبرئة لها وتبرئة له أيضا من الفعل. وإنما النزاع عند الإرادة والمراودة ﴿ إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ السجن أو العذاب الأليم.

---

(١) زاد المسير، الجوزي، ٤/ ٢٠٥.



﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ﴾ فبرأ نفسه مما رمته به، فحينئذ احتملت الحال صدق كل واحد منهما ولم يعلم أيهما، ولكن الله تعالى جعل للحق والصدق علامات وأمارات تدل عليه قد يعلمها العباد وقد لا يعلمونها، فمنَّ الله في هذه القضية بمعرفة الصادق منهما، تبرئة لنبيه وصفيه يوسف ﷺ، فانبعث شاهد من أهل بيتها، يشهد بقرينة من وجدت معه، فهو الصادق وكان مع العزيز رجل من أهل امرأته وهو الذي شهد وكان فطناً عارفاً بوجوه الدلالة، وسمي قوله شهادة لأنه يؤول إلى إظهار الحق في إثبات اعتداء يوسف ﷺ على سيدته أو دحضه. وهذا من القضاء بالقرينة البينة لأنها لو كانت أمسكت ثوبه لأجل القبض عليه لعقابه لكان ذلك في حال استقباله له إياها فإذا أراد الانفلات منها تخرق قميصه من قبل وبالعكس إن كان إمساكه في حال فرار وإعراض. ولا شك أن الاستدلال بكيفية تمزيق القميص نشأ عن ذكر امرأة العزيز وقوع تمزيق القميص تحاول أن تجعله حجة على أنها أمسكته لتعاقبه ولولا ذلك ما خطر ببال المشاهد أن تمزيقاً وقع وإلا فمن أين علم الشاهد تمزيق القميص. والظاهر أن الشاهد كان يظن صدقها فأراد أن يقيم دليلا على صدقها فوقع عكس ذلك كرامة ليوسف ﷺ[1].

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها، المراود لها المعالج، وأنها أرادت أن تدفعه عنها، فشقت قميصه من هذا الجانب. ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ لأن ذلك يدل على هروبه منها، وأنها هي التي طلبته فشقت قميصه من هذا الجانب.

﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ ﴾ عرف بذلك صدق يوسف وبراءته، وأنها هي الكاذبة.

فقال لها سيدها: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ وهل أعظم من هذا الكيد، الذي برأت به نفسها مما أرادت وفعلت، ورمت به نبي الله يوسف ﷺ، ثم

(١) الكشاف، الزمخشري، ١/ ٢١٨٠.



إن سيدها لما تحقق الأمر، قال ليوسف: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾ اترك الكلام فيه وتناسه ولا تذكره لأحد، طلبا للستر على أهله، ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى ﴾ أيتها المرأة ﴿لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ فأمر يوسف بالإعراض، وهي بالاستغفار والتوبة.
اشتهر الخبر وشاع في البلد، وتحدث به النسوة فجعلن يلمنها، ويقلن: ﴿ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ أي: هذا أمر مستقبح، هي امرأة كبيرة القدر، وزوجها كبير القدر، ومع هذا لم تزل تراود فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها عن نفسه،. ومع هذا فإن حبه قد بلغ من قلبها مبلغا عظيما.

﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾وصل حبه إلى شغاف قلبها، وهذا أعظم ما يكون من الحب، (دخل حبه في شغاف قلبها وهو موضع الدم الذي يكون داخل القلب)[1] ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ عن طريق الرشد بحبها إياه﴿ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ حيث وجدت منها هذه الحالة التي لا تنبغي منها، وهي حالة تحط قدرها وتضعه عند الناس، وكان هذا القول منهن مكراً، ليس المقصود به مجرد اللوم لها والقدح فيها، وإنما أردن أن يتوصلن بهذا الكلام إلى رؤية يوسف الذي فتنت به امرأة العزيز لتحنق امرأة العزيز، وتريهن إياه ليعذرنها، ولهذا سماه مكراً، فقال: ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾تدعوهن إلى منزلها للضيافة.

﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا ﴾ أي: محلا مهيأ بأنواع الفرش والوسائد، وما يقصد بذلك من المآكل اللذيذة، وكان في جملة ما أتت به وأحضرته في تلك الضيافة، طعام يحتاج إلى سكين، إما أترج، أو غيره، ﴿ وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ ليقطعن فيها ذلك الطعام ﴿ وَقَالَتِ ﴾ ليوسف: ﴿ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ في حالة جماله وبهائه.

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ ﴾ أي: أعظمنه في صدورهن، ورأين منظراً فائقاً لم يشاهدن مثله، ﴿ وَقَطَّعْنَ ﴾ من الدهش ﴿ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ بتلك السكاكين اللاتي معهن، ﴿ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ أي:

---

(١) الوجيز، الواحدي، ١/ ٥٤٤.



تنزيها لله﴿ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ وذلك أن يوسف أعطي من الجمال الفائق والنور والبهاء، ما كان به آية للناظرين، وعبرة للمتأملين.

فلما تقرر عندهن جمال يوسف الظاهر، وأعجبهن غاية، وظهر منهن من العذر لامرأة العزيز، شيء كثير، أرادت أن تريهن جماله الباطن بالعفة التامة فقالت معلنة لذلك ومبينة لحبه الشديد غير مبالية، ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة: ﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾ لمتنني فيه أي في حبه ثم أقرت عندهن فقالت ولقد راودته عن نفسه فاستعصم أي امتنع [1] ولهذا قالت له بحضرتهن: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ لتلجئه بهذا الوعيد إلى حصول مقصودها منه، فعند ذلك اعتصم يوسف بربه، واستعان به على كيدهن و﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ وهذا يدل على أن النسوة، جعلن يشرن على يوسف في مطاوعة سيدته، وجعلن يكدنه في ذلك.

فاستحب السجن والعذاب الدنيوي على لذة حاضرة توجب العذاب الشديد، ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ أمل إليهن، فإني ضعيف عاجز، إن لم تدفع عني السوء، ﴿ وَأَكُن ﴾ إن صبوت إليهن ﴿ مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ فإن هذا جهل، لأنه آثر لذة قليلة منغصة، على لذات متتابعات وشهوات متنوعات في جنات النعيم، ومن آثر هذا على هذا، فمن أجهل منه؟ فإن العلم والعقل يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين وأعظم اللذتين، ويؤثر ما كان محمود العاقبة. ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ حين دعاه ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ فلم تزل تراوده وتستعين عليه بما تقدر عليه من الوسائل، حتى أيسها، وصرف الله عنه كيدها، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لدعاء الداعي ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بنيته الصالحة، وبنيته الضعيفة المقتضية لإمداده بمعونته ولطفه. فهذا ما نجى الله به يوسف من هذه الفتنة الملمة والمحنة الشديدة.

---

(١) زاد المسير، الجوزي، ٤/ ٢٢٠.

الهدايات المستنبطة من المقطع الرابع:

١ - صبر المسلم باختياره أعظم أجراً من صبره جبراً، فهذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجراً، لأنه صبر اختيار مع وجود الدواعي الكثيرة، لوقوع الفعل، فقدم محبة الله عليها، وأما محنته بإخوته، فصبره صبر اضطرار، بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب العبد بغير اختياره وليس له ملجأ إلا الصبر عليها، طائعا أو كارها، (وذلك أن يوسف عليه السلام بقي مكرما في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجد المحنة الجارفة التي لا يقف لها إلا من رحم الله. إنها محنة التعرض للغواية في جو القصور، وفي جو ما يسمونه "الطبقة الراقية " وما يغشاها من استهتار وفجور، الحذر من الخلوة بالنساء التي يخشى منهن الفتنة، والحذر أيضا من المحبة التي يخشى ضررها، فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى، بسبب حبها الشديد ليوسف، الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه، فسجن بسببها مدة طويلة)[1].

٢ - الهمَّ الذي همَّ به يوسف بالمرأة ثم تركه لله، مما يقربه إلى الله زلفى، لأن الهمّ داع من دواعي النفس الأمارة بالسوء، وهو طبيعة لأغلب الخلق، فلما قابل بينه وبين محبة الله وخشيته غلبت محبة الله وخشيته داعي النفس والهوى. فكان ممن ﴿ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠]، ومن السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، أحدهم: "رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله".

٣ - ينبغي على المفسر أن يلتزم بحدود النص القرآني، ولا ينساق وراء الإسرائيليات فبعض المفسرين رووا أساطير كثيرة يصورون فيها يوسف هائج الغريزة مندفعا شبقا، وبعضهم أوّل الهم بالضرب، تنزيهاً ليوسف، وهذا تكلف وإبعاد عن مدلول النص، وأما جمهور المفسرين فسار على أنها همت به هم الفعل، وهم بها هم النفس، ثم تجلى له برهان ربه فترك.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، م٤/ ١٩٨٠.

٤ - من دخل الإيمان قلبه، وكان مخلصا لله في جميع أموره فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه، وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه.

٥ - ينبغي للعبد إذا رأى محلا فيه فتنة وأسباب معصية، أن يفر منه ويهرب غاية ما يمكنه ليتمكن من التخلص من المعصية، لأن يوسف عليه السلام -لما راودته التي هو في بيتها- فر هاربا، يطلب الباب ليتخلص من شرها.

٦ - إذا حلّ بالمسلم البلاء وصبر فإن معية الله سبحانه تكون معه، فيأتيه الفرج والنصر والتمكين، فاختار يوسف عليه السلام السجن على المعصية، لذا خرج من محنته سليما معافى في خلقه وفي دينه، ولكن بعد أن يخالط المحنة ويصلاها. فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين - إما فعل معصية، وإما عقوبة دنيوية - أن يختار العقوبة الدنيوية على مواقعة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة.

٧ - وصف الله كيد النساء بأنه عظيم، ووصف كيد الشيطان بأنه ضعيف، وهذا يوجب الحذر من مكر النساء، فالمرأة إذا أحبت عبدت، وإذا كرهت قتلت.

٨ - ينبغي على العبد أن يلجأ إلى الله، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته، لقول يوسف عليه السلام: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾.

٩ - أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير، وينهيانه عن الشر، وأن الجهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس، وإن كان معصية ضاراً لصاحبه.

المقطع الخامس: يوسف عليه السلام ومحنة السجن، الآيات (٣٥ – ٥٣)

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَىٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ

بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾.

المناسبة بين المقطع الخامس والرابع:

بعد أن استقر الرأي واتخذ القرار بسجن يوسف ؑ، تتحدث الآيات في هذا المقطع عن نعمة الله على يوسف ؑ، بما حباه من تأويل الرؤى، والطريقة التي منّ بها عليه، فأخرجه من السجن، مع التركيز على توظيف هذه النعمة في الدعوة إلى الله، دعوة التوحيد الخالص.

التفسير الإجمالي للمقطع الخامس:

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم ﴾ ظهر لهم، ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ ﴾ الدالة على براءته، فالقميص من الآيات وشهادة الشاهد من الآيات وقطع الأيدي من الآيات وإعظام النساء إياه من الآيات وقيل: ألجأها الخجل من الناس والوجل من اليأس إلى أن رضيت بالحجاب مكان خوف الذهاب لتشتفي إذا منعت من نظره [1] قال فاشتهر الخبر وبان، وصار الناس فيها بين عاذر ولائم وقادح. ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ لينقطع بذلك الخبر ويتناساه الناس، فإن الشيء إذا شاع لم يزل يذكر ويشاع مع وجود أسبابه، فإذا عدمت أسبابه نسي، فرأوا أن هذا مصلحة لهم، فأدخلوه في السجن.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ شابان، فرأى كل واحد منهما رؤيا، فقصها على يوسف ليعبرها، ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا ﴾ وذلك الخبز ﴿ تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ﴾ بتفسيره، وما يؤول إليه أمرهما، وقولهما: ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ من أهل الإحسان إلى الخلق، فأحسن إلينا في تعبيرك لرؤيانا، كما أحسنت إلى غيرنا، نبئنا بتأويل ما رأينا وهذا يدل على أنها كانت رؤيا منام ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فإحسانه أنه كان يعود المرضى ويداويهم ويعزي الحزانى قال الضحاك: كان إذا

(١) جامع القرطبي، القرطبي، ٩/ ١٥٩.



مرض الرجل من أهل السجن قام به وإذا ضاق وسع له وإذا احتاج جمع له وسأل له وقيل: ﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي العالمين الذين أحسنوا العلم[1].

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ فلتطمئن قلوبكما فإني سأبادر إلى تعبير رؤياكما، فلا يأتيكما غداؤكما، أو عشاؤكما، أول ما يجيء إليكما، إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما.

ولعل يوسف عليه الصلاة والسلام قصد أن يدعوهما إلى الإيمان في هذه الحال التي بدت حاجتهما إليه، ليكون أنجع لدعوته، وأقبل لهما.

﴿ذَٰلِكُمَا﴾ التعبير الذي سأعبره لكما ﴿مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ هذا من علم الله علمنيه وأحسن إلَيَّ به، وذلك ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ والترك كما يكون للداخل في شيء ثم ينتقل عنه، يكون لمن لم يدخل فيه أصلًا. فلا يقال: إن يوسف كان من قبل على غير ملة إبراهيم. ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ هجرت طريق الكفر والشرك وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى واتبع طريق المرسلين وأعرض عن طريق الضالين فإن الله يهدي قلبه ويعلمه ما لم يكن يعلم ويجعله إماما يقتدى به في الخير وداعيا إلى سبيل الرشاد ﴿مَا كَانَ لَنَآ﴾ ما ينبغي ولا يليق بنا ﴿أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أوحى إلينا هذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له إذ جعلنا دعاة لهم إلى ذلك ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم[2].

ثم صرح لهما بالدعوة، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ ثم إن يوسف عليه السلام أقبل على الفتيين بالمخاطبة والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا

---

(١) جامع القرطبي، القرطبي، ٩/ ١٦٠.

(٢) تفسير ابن كثير، ٢/ ٦٢٨.

شريك له وخلع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما، القهار الذي ذل كل شيء لعز جلاله وعظمة سلطانه، ثم بين لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة إنما هو جهل منهم وتسمية من تلقاء أنفسهم تلقاها خلفهم عن سلفهم وليس لذلك مستند من عند الله ولهذا قال: ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ ﴾ أي حجة ولا أرباب عاجزة ضعيفة لا تنفع ولا تضر، ولا تعطي ولا تمنع، وهي متفرقة ما بين أشجار وأحجار وملائكة وأموات، وغير ذلك من أنواع المعبودات التي يتخذها المشركون، أتلك ﴿ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ﴾ الذي له صفات الكمال [1].

﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم ﴾

كسوتموها أسماء، سميتموها آلهة، وهي لا شيء، ولا فيها من صفات الألوهية شيء، ﴿ مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ ﴾ بل أنزل الله السلطان بالنهي عن عبادتها وبيان بطلانها، وإذا لم ينزل الله بها سلطانا، لم يكن طريق ولا وسيلة ولا دليل لها.

لأن الحكم لله وحده، فهو الذي يأمر وينهى، ويشرع الشرائع، ويسن الأحكام، وهو الذي أمركم ﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ ﴾ المستقيم الموصل إلى كل خير، وما سواه من الأديان، فإنها غير مستقيمة، بل معوجة توصل إلى كل شر. ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ حقائق الأشياء، وإلا فإن الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له، وبين الشرك به، أظهر الأشياء وأبينها.

ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك، حصل منهم ما حصل من الشرك، فيوسف عليه السلام دعا صاحبي السجن لعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، فيحتمل أنهما استجابا وانقادا، فتمت عليهما النعمة، ويحتمل أنهما لم يزالا على شركهما، فقامت عليهما -بذلك- الحجة. [2]

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا ﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمرا، فإنه يخرج من السجن

(١) تفسير ابن كثير، ٢/ ٦٢٩.

(٢) تفسير أبي السعود، ٤/ ٢٧٩.



﴿ فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ﴾ أي: يسقي سيده الذي كان يخدمه خمرا، وذلك مستلزم لخروجه من السجن، ﴿ وَأَمَّا ٱلْآخَرُ ﴾ وهو: الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه.

﴿ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ﴾ فإنه عبر عن الخبز الذي تأكله الطير، بلحم رأسه وشحمه، وما فيه من المخ، وأنه لا يقبر ويستر عن الطيور، بل يصلب ويجعل في محل، تتمكن الطيور من أكله، ثم أخبرهما بأن هذا التأويل الذي تأوله لهما، أنه لا بد من وقوعه فقال: ﴿ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ تسألان عن تعبيره وتفسيره[1]. ﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ﴾ وهو: الذي رأى أنه يعصر خمرا: ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ اذكر له شأني وقصتي، لعله يرقُّ لي، فيخرجني مما أنا فيه، ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾.

ذهب كثير من المفسرين إلى أن الذي أنساه الشيطان ذكر ربه هو الذي نجا من الغلامين: وهو الشرابي والمعنى: إنساء الشيطان الشرابي ذكر سيده: أي ذكره لسيده فلم يبلغ إليه ما أوصاه به يوسف مع ذكره عند سيده ويكون المعنى: فأنساه الشيطان ذكر إخباره بما أمره به يوسف مع خلوصه من السجن ورجوعه إلى ما كان عليه من القيام بسقي الملك وقد رجح هذا بكون الشيطان لا سبيل له على الأنبياء وأجيب بأن النسيان وقع من يوسف ونسبته إلى الشيطان على طريق المجاز والأنبياء غير معصومين عن النسيان إلا فيما يخبرون به عن الله سبحانه وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: " إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني "[2] فأنسى الشيطان ذلك الناجي ذكر الله تعالى، وذكر ما يقرب إليه، ومن جملة ذلك نسيانه ذكر يوسف الذي يستحق أن يجازى بأتم الإحسان، وذلك ليتم الله أمره وقضاءه[3]. ﴿ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ والبضع من الثلاث إلى التسع، ولهذا قيل: إنه لبث سبع سنين، ولما أراد الله أن يتم أمره، ويأذن بإخراج يوسف من السجن، قدر لذلك سببا لإخراج يوسف وارتفاع شأنه

(١) تفسير أبي السعود، ٤/ ٢٨٠.

(٢) صحيح البخاري، حديث رقم، ٣٨٦ / كتاب الصلاة: باب التوجه نحو القبلة .

(٣) فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٤٢.



وإعلاء قدره، وهو رؤيا الملك.

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ ﴾ رأى رؤيا هالته، فجمع لها علماء قومه وذوي الرأي منهم، رأى سبع من البقرات ﴿ عِجَافٌ ﴾ وهذا من العجب، أن السبع العجاف الهزيلات اللاتي سقطت قوتهن، يأكلن السبع السمان التي كنَّ نهاية في القوة.

﴿ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ ﴾ يأكلهن سبع سنبلات ﴿ يَابِسَٰتٍۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ ﴾ لأن تعبير الجميع واحد، وتأويله شيء واحد. ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ تعلمون تعبير الرؤى، فتحيروا، ولم يعرفوا لها وجها. ﴿ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ﴾ أحلام لا حاصل لها، وكوابيس لا تأويل لها. وهذا جزم منهم بما لا يعلمون، وتعذر منهم، ثم قالوا: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾ لا نعبر إلا الرؤيا، وأما الأحلام التي هي من الشيطان، أو من حديث النفس، فإنا لا نعبرها. فجمعوا بين الجهل والجزم، بأنها أضغاث أحلام، والإعجاب بالنفس، بحيث إنهم لم يقولوا: لا نعلم تأويلها، وهذا من الأمور التي لا تنبغي لأهل الدين.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا ﴾ من الفتيين، وهو: الذي رأى أنه يعصر خمرا، وهو الذي أوصاه يوسف أن يذكره عند ربه ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ وتذكر يوسف، وما جرى له في تعبيره لرؤياهما، وما وصاه به، وعلم أنه كفيل بتعبير هذه الرؤيا بعد مدة من السنين فقال: ﴿ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴾ إلى يوسف لأسأله عنها. فأرسلوه، فجاء إليه، ولم يعنفه يوسف على نسيانه بل استمع ما يسأله عنه، وأجابه عن ذلك فقال: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ كثير الصدق في أقواله وأفعاله. ﴿ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فإنهم متشوقون لتعبيرها، وقد أهمتهم.[١] فعبر يوسف، السبع البقرات السمان والسبع السنبلات الخضر، بأنهن سبع سنين مخصبات، والسبع البقرات العجاف، والسبع السنبلات اليابسات، بأنهن سنين مجدبات، ولعل وجه ذلك – والله

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٢١٩١.

أعلم - أن الخصب والجدب لما كان الحرث مبنيا عليه، وأنه إذا حصل الخصب قويت الزروع والحروث، وحسن منظرها، وكثرت غلالها، والجدب بالعكس من ذلك. وكانت البقر هي التي تحرث عليها الأرض، وتسقى عليها الحروث في الغالب، والسنبلات هي أعظم الأقوات وأفضلها، عبرها بذلك، لوجود المناسبة، فجمع لهم في تأويلها بين التعبير والإشارة لما يفعلونه ويستعدون به من التدبير في سني الخصب، إلى سني الجدب فقال: ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ﴾ متتابعات.

﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ ﴾ من تلك الزروع ﴿ فَذَرُوهُ ﴾ اتركوه ﴿ فِي سُنبُلِهِ ﴾ لأنه أبقى له وأبعد من الالتفات إليه ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ دبروا أيضا أكلكم في هذه السنين الخصبة، وليكن قليلا، ليكثر ما تدخرون ويعظم نفعه ووقعه.

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ بعد تلك السنين السبع المخصبات. ﴿ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ مجدبات جدا ﴿ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ يأكلن جميع ما ادخرتموه ولو كان كثيرا. ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ أي: تمنعونه من التقديم لهن. ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ بعد السبع الشداد ﴿ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ فيه تكثر الأمطار والسيول، وتكثر الغلات، وتزيد على أقواتهم، حتى إنهم يعصرون العنب ونحوه زيادة على أكلهم، ولعل استدلاله على وجود هذا العام الخصب، مع أنه غير مصرح به في رؤيا الملك، لأنه فهم من التقدير بالسبع الشداد، أن العام الذي يليها يزول به شدتها، ومن المعلوم أنه لا يزول الجدب المستمر سبع سنين متواليات، إلا بعام مخصب جداً، وإلا لما كان للتقدير فائدة، فلما رجع الرسول إلى الملك والناس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا، عجبوا من ذلك، وفرحوا بها أشد الفرح.[1]

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ﴾ لمن عنده ﴿ ائْتُونِي بِهِ ﴾ بيوسف عليه السلام، بأن يخرجوه من السجن ويحضروه إليه، فلما جاء يوسف الرسول وأمره بالحضور عند الملك، امتنع عن المبادرة إلى الخروج، حتى

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١/ ٢١٩٢.



تتبين براءته التامة، وهذا من صبره وعقله ورأيه التام.

﴿ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ يعني به الملك. ﴿ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ اسأله ما شأنهن وقصتهن، فإن أمرهن ظاهر متضح ﴿ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾.

فأحضرهن الملك، ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ شأنكن ﴿ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ فهل رأيتن منه ما يريب؟ فبرَّأنه و﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾لا قليل ولا كثير، فحينئذ زال السبب الذي تنبني عليه التهمة، ولم يبق إلا ما عند امرأة العزيز، فـ ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ تمحض وتبين، بعد ما كنا ندخل معه من السوء والتهمة، ما أوجب له السجن ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾في أقواله وبراءته.

﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ يحتمل أن مرادها بذلك زوجها أي: ليعلم أني حين أقررت أني راودت يوسف، أني لم أخنه بالغيب، أي: لم يجر مني إلا مجرد المراودة، ولم أفسد عليه فراشه، ويحتمل أن المراد بذلك ليعلم يوسف حين أقررت أني أنا الذي راودته، وأنه صادق أني لم أخنه في حال غيبته عني. ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ فإن كل خائن، لا بد أن تعود خيانته ومكره على نفسه، ولا بد أن يتبين أمره.

ثم لما كان في هذا الكلام نوع تزكية لنفسها، وأنه لم يجر منها ذنب في شأن يوسف، استدركت فقالت: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ﴾ من المراودة والهمِّ، والحرص الشديد، والكيد في ذلك. ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء، أي: الفاحشة، وسائر الذنوب فإنها مركب الشيطان، ومنها يدخل على الإنسان ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾ فنجاه من نفسه الأمارة حتى صارت نفسه مطمئنة إلى ربها، منقادة لداعي الهدى، عاصية على داعي الردى، فذلك ليس من النفس، بل من فضل الله ورحمته بعبده. ﴿ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ ﴾ هو غفور لمن تجرأ على الذنوب والمعاصي، إذا تاب وأناب، ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بقبول توبته، وتوفيقه للأعمال الصالحة، وهذا هو الصواب أن هذا من قول امرأة العزيز، لا من قول يوسف، فإن السياق في كلامها، ويوسف

إذ ذاك في السجن لم يحضر[١].

الهدايات المستنبطة من المقطع الخامس:

١ - في محنة السجن التي تعرض لها يوسف ﷺ درس للدعاة؛ فالداعية لا بد أن يتعرض للابتلاء خاصة بعد ظهور البراءة، والسجن أو العقوبة عموماً للبريء المظلوم أقسى، وإن كان في طمأنينة القلب بالبراءة تعزية وسلوى، فالله يربط على قلوب الصابرين.

٢ - إذا ابتلى الله عبده فوجده صابراً، جعل الله له من بلائه مخرجاً، فلما أراد الله تعالى أن يخرج يوسف من السجن، أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة، جعل تأويلها على يد يوسف ﷺ، فيظهر من فضله، ويبين من علمه ما يكون له رفعة في الدارين، ومن تقدير الله أن الملك الذي ترجع إليه أمور الرعية هو الذي رآها، لارتباط مصالحها به.

٣ - كما على العبد عبودية لله في الرخاء، فعليه عبودية له في الشدة، فـ «يوسف» ﷺ لم يزل يدعو إلى الله، فلما دخل السجن، استمر على ذلك، ودعا الفتيين إلى التوحيد، ونهاهما عن الشرك، ومن فطنته ﷺ أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته، حيث ظنا فيه الظن الحسن وقالا له: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وأتياه لأن يعبر لهما رؤياهما، فرآهما متشوقين لتعبيرها عنده - رأى ذلك فرصة فانتهزها، فدعاهما إلى الله تعالى قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أنجح لمقصوده وأقرب لحصول مطلوبه، وبين لهما أولاً: أن الذي أوصله إلى الحال التي رأياه فيها من الكمال والعلم، إيمانه وتوحيده، وتركه ملة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وهذا دعاء لهما بالحال ثم دعاهما بالمقال، وبين فساد الشرك وبرهن عليه، وحقيقة التوحيد وبرهن عليه.

٤ - الابتداء بالأهم فالأهم، وأنه إذا سئل المفتي، وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشد أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله، فإن هذا علامة على نصح المعلم وفطنته، وحسن إرشاده وتعليمه، فإن يوسف - لما سأله الفتيان عن الرؤيا - قدم لهما قبل

(١) جامع القرطبي، القرطبي، ٩/ ١٧٨.

تعبيرها دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له.

٥ - من وقع في مكروه وشدة، لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه، أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناج من الفتيين: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، ولكن يجب الاعتقاد بأن الله هو رب الأسباب، وان الأسباب بغير توفيق الله لا تصنع شيئاً. في نسيان الذي نجى من صاحبي يوسف أن يذكر ما أوصاه به يوسف عند الملك، شاء الله أن يعلمه كيف يقطع الأسباب كلها ويستمسك بسببه وحده، فلم يجعل قضاء حاجته على يد عبد ولا سبب يرتبط بعبد. وكان هذا من اصطفائه وإكرامه. ولكن هذا لا يمنع المسلم من الأخذ بالأسباب مع الاعتقاد الجازم أن الله هو وحده الملك والقادر على كل شيء.

٦ - ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص التام في تعليمه وأن لا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في مال أو جاه أو نفع، وأن لا يمتنع من التعليم، أو لا ينصح فيه، إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم، فإن يوسف عليه السلام قد قال، ووصى أحد الفتيين أن يذكره عند ربه فلم يذكره ونسي، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى، وجاءه سائلاً مستفتياً عن تلك الرؤيا، فلم يعنفه يوسف، ولا وبخه، لتركه ذكره بل أجابه عن سؤاله جوابا تاما من كل وجه.

٧ - ينبغي للمسؤول أن يدل السائل على أمر ينفعه مما يتعلق بسؤاله، ويرشده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه ودنياه، فإن هذا من كمال نصحه وفطنته، وحسن إرشاده، فإن يوسف عليه السلام لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلهم - مع ذلك - على ما يصنعون في تلك السنين المخصبات من كثرة الزرع، وكثرة جبايته.

٨ - لا يلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن نفسه، وطلب البراءة لها، بل يحمد على ذلك، كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطعن

أيديهن، ومنها: فضيلة العلم، علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية؛ وأنه أفضل من الصورة الظاهرة، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف، فإن يوسف - بسبب جماله - حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض، فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته.

٩ - علم التعبير من العلوم الشرعية، وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه، وأن تعبير المرائي داخل في الفتوى، لقوله للفتيين: ﴿ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ وقال الملك: ﴿ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ ﴾ وقال الفتى ليوسف: ﴿ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ ﴾ الآيات، فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم.

١٠ - لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل، إذا كان في ذلك مصلحة، ولم يقصد به العبد الرياء، وسلم من الكذب، لقول يوسف: ﴿ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ وكذلك لا تذم الولاية، إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله وحقوق عباده، وأنه لا بأس بطلبها، إذا كان أعظم كفاءة من غيره، وإنما الذي يذم، إذا لم يكن فيه كفاية، أو كان موجودا غيره مثله، أو أعلى منه، أو لم يرد بها إقامة أمر الله، فبهذه الأمور، ينهى عن طلبها، والتعرض لها.

١١ - الله واسع الجود والكرم، يجود على عبده بخيري الدنيا والآخرة، وأن خير الآخرة له سببان: الإيمان والتقوى، وأنه خير من ثواب الدنيا وملكها، وأن العبد ينبغي له أن يدعو نفسه، ويشوقها لثواب الله، ولا يدعها تحزن إذا رأت أهل الدنيا ولذاتها، وهي غير قادرة عليها، بل يسليها بثواب الله الأخروي، وفضله العظيم لقوله تعالى: ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

١٢ - جباية الأرزاق - إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر يلحقهم - لا بأس بها، لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات، للاستعداد للسنين المجدبة، وأن هذا غير مناقض للتوكل على الله، بل يتوكل العبد على الله، ويعمل بالأسباب

التي تنفعه في دينه ودنياه.

١٣ - إن الحكم لا يكون إلا لله، فهو مقصور عليه سبحانه بحكم ألوهيته، إذ الحاكمية من خصائص الألوهية، من ادعى الحق فيها فقد نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته سواء ادعى هذا الحق فرد، أو طبقة، أو حزب. أو هيئة، أو أمة، أو الناس جميعا في صورة منظمة عالمية. ومن نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته وادعاها فقد كفر بالله كفرا بواحاً، يصبح به كفره من المعلوم من الدين بالضرورة، فلا دين فيما سوى هذا الدين، الذي يتحقق فيه اختصاص الله بالحكم، تحقيقا لاختصاصه بالعبادة.

١٤ - استغل يوسف عليه السلام الوقت المناسب للحصول على براءته، لقد رد أمر الملك باستدعائه حتى يستوثق الملك من أمره، وحتى يتحقق من شأن النسوة اللاتي قطعن أيديهن، تذكيراً بالواقعة وملابساتها وكيد بعضهن لبعض فيها وكيدهن له وحتى يكون هذا التحقق في غيبته لتظهر الحقيقة خالصة، دون أن يتدخل هو في مناقشتها، كل أولئك لأنه واثق من نفسه، وبراءته، مطمئن إلى أن الحق لا يخفى طويلاً، ولا يخذل طويلاً.

١٥ - يجوز استخدام كلمة الرب للسيد لغة، ولقد حكى القرآن عن يوسف استعمال كلمة (رب) بمدلولها الكامل، بالقياس إليه وبالقياس إلى رسول الملك إليه. فالملك رب هذا الرسول لأنه هو حاكمه الذي يدين لسلطانه. والله رب يوسف لأنه هو حاكمه الذي يدين له.

١٦ - الإقرار هو سيد الأدلة، وهي الشهادة الكاملة بنظافة المظلوم وبراءته وصدقه؛ فشهادة امرأة العزيز ببراءة يوسف عليه السلام، إقرار واضح ببراءته.

المناسبة بين المقطع الخامس ومحور السورة:

في هذا المقطع دعا يوسف عليه السلام إلى التوحيد، وأكد عليه، وأبطل الدعوة للآلهة المزيفة، وأثبت أن الوحدانية لله، مستغلاً ما وهبه الله من علم بتأويل الرؤى، وهذا ينسجم مع محور السورة.

المقطع السادس: استلام الحكم بعد الخروج من السجن، الآيات (٥٤ – ٥٧)

قال تعالى:﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

المناسبة بين المقطع السادس والخامس:

بعد إعلان براءة يوسف عليه السلام على رؤوس الأشهاد أراد الله سبحانه أن يكرمه، ويرفع قدره، في الدنيا، كما اصطفاه بالرسالة، فيسر له استلام الحكم، وفي المكان الذي ظلم فيه.

التفسير الإجمالي للمقطع السادس:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ فلما تحقق الملك والناس من براءة يوسف التامة طلبه الملك لجعله من خاصته، ومقرباً له، فأتوه به مكرما محترما، ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ ﴾ أعجبه كلامه، وزاد موقعه عنده فقال له: ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ متمكن، أمين على الأسرار، فـ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾على خزائن جبايات الأرض وغلالها، وكيلا حافظا مدبرا للمصلحة العامة. ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾حفيظ للذي أتولاه، فلا يضيع منه شيء في غير محله، وضابط للداخل والخارج، عليم بكيفية التدبير والإعطاء والمنع، والتصرف في جميع أنواع التصرفات، وليس ذلك حرصا من يوسف على الولاية، وإنما هو رغبة منه في النفع العام، وقد عرف من نفسه من الكفاءة والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه. فلذلك طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، فجعله الملك على خزائن الأرض وولاه إياها.

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ بهذه الأسباب والمقدمات المذكورة مكنا له في عيش رغد، ونعمة واسعة، وجاه عريض، ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ﴾ هذا من رحمة الله بيوسف التي أصابه بها وقدرها له، وليست مقصورة على نعمة الدنيا. ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ فله في الدنيا حسنة وفي

الآخرة حسنة، وأجر الآخرة أعظم من أجر الدنيا ولهذا جمع بين التقوى والإيمان، فبالتقوى تترك الأمور المحرمة من كبائر الذنوب وصغائرها، وبالإيمان التام يحصل تصديق القلب، بما أمر الله بالتصديق به، وتتبعه أعمال القلوب وأعمال الجوارح، من الواجبات والمستحبات.

الهدايات المستنبطة من المقطع السادس:

١ - معية الله ونصره وتأييده لعبده ورسوله، واضحة المعالم في هذا المقطع، ظهور البراءة، واستلام الحكم عند ملك مصر، وفي هذا درس لكل من يؤمن بالله ويعتصم به، ويخلص دينه لله وهو محسن، ففرج الله قريب ونصره قريب.

٢ - على المظلوم أن يهتم برفع الظلم أكثر من اهتمامه بالنفع الشخصي؛ لذا طلب يوسف عليه السلام رفع الاتهام عن سمعته قبل أن يطلب رفع السجن عن بدنه، وطلب الكرامة لشخصه ولدينه الذي يمثله قبل أن يطلب الحظوة عند الملك لقد وقف وقفة الرجل الكريم المتهم في سمعته، المسجون ظلما، حتى ظهرت براءته.

٣ - يجوز للمسلم الكفؤ أن يتقدم لطلب الوظيفة، أو المنصب أو المكانة إذا وجد في نفسه المقدرة على أداء تلك المهام بكفاءة تامة، كما طلب يوسف عليه السلام من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، لينهض بالواجب المرهق الثقيل ذي التبعة الضخمة في أشد أوقات الأزمة.

٤ - طلب التولية محظور لأن الرسول ﷺ كان لا يولي هذا العمل أحدا سأله أو حرص عليه. ولأنه تزكية النفس، وهي محظورة بقوله تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٢].

٥ - إن هذه القواعد إنما تقررت في النظام الإسلامي الذي تقرر على عهد رسول الله ﷺ، وأنها لم تكن مقررة على أيام يوسف عليه السلام والمسائل التنظيمية في هذا الدين ليست موحدة كأصول العقيدة، الثابتة في كل رسالة وعلى يد كل رسول.

٦ - والأمر الآخر أنه إذا انعدمت الكفاءات وساد الظلم، فلا مانع من تزكية النفس ليس طمعاً في المنصب، ولكن أملاً في إصلاح الأوضاع وردها إلى أصولها بما يتفق مع شرع الله .

المناسبة بين المقطع السادس ومحور السورة:

حصول يوسف ﷺ على البراءة، وتمكين الله له بالحكم عند الملك، ورفع درجته بذلك دليل على قدرة الله الواحد القهار، الذي يقلب الأمور كيفما شاء سبحانه، فهذه من الأدلة الدالة على وحدانيته وهو ما يتفق مع محور السورة.

المقطع السابع: لقاء يوسف ﷺ مع إخوته مرة ثانية (٥٩ – ٩٨)

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًاۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَاۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ

﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾

وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾.

المناسبة بين المقطع السابع والسادس:

نجح يوسف عليه السلام عندما تولى خزائن الأرض، فدبرها أحسن تدبير، وزرع في أرض مصر جميعها في السنين الخصبة، زروعا هائلة، واتخذ لها المحلات الكبار، وجبا من الأطعمة شيئا كثيرا وحفظه، وضبطه ضبطا تاما، فلما دخلت السنون المجدبة، وسرى الجدب، حتى وصل إلى فلسطين، التي يقيم فيها يعقوب وبنوه، فأرسل يعقوب بنيه لأجل الميرة إلى مصر، كما سيتم الحديث عنه في هذا المقطع.

التفسير الإجمالي للمقطع السابع:

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ رأوه ولم يعرفوه. ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ كال لهم كما كان يكيل لغيرهم، وكان من تدبيره الحسن أنه لا يكيل لكل واحد أكثر من حمل بعير، وكان قد سألهم عن حالهم، فأخبروه أن لهم أخا عند أبيه، وهو بنيامين. ﴿ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ ثم رغبهم في الإتيان به فقال: ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ في الضيافة والإكرام. وهددهم بعدم الإتيان به﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ ﴾ وذلك لعلمه باضطرارهم إلى الإتيان إليه، ﴿ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ دل هذا على أن يعقوب عليه السلام كان مولعاً به لا يصبر عنه، وكان يتسلى به بعد يوسف، فلذلك احتاجوا إلى مراودة أبيهم في بعثه معهم[1].

---

(١) جامع القرطبي، القرطبي، ٩/ ١٨٩.



﴿ وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ﴾ الذين في خدمته: ﴿ ٱجْعَلُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ ﴾ الثمن الذي اشتروا به من الميرة. ﴿ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ ﴾ يعرفون بضاعتهم إذا رأوها بعد ذلك في رحالهم، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لأجل التحرج من أخذها على ما قيل، والظاهر أنه أراد أن يرغبهم في إحسانه إليهم بالكيل لهم كيلاً وافياً، ثم إعادة بضاعتهم إليهم على وجه لا يحسون بها، ولا يشعرون لما يأتي، فإن الإحسان يوجب للإنسان تمام الوفاء للمحسن.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ ﴾ إن لم ترسل معنا أخانا، ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ ﴾ ليكون ذلك سببا لكيلنا، ثم التزموا له بحفظه، فقالوا:﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ من أن يعرض له ما يكره. ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ لقد طلبت منكم التزاماً أكثر من هذا في حفظ يوسف، ومع هذا لم تفوا بما عقدتم من التأكيد، فلا أثق بالتزامكم وحفظكم، وإنما أثق بالله تعالى ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ يعلم حالي، وأرجو أن يرحمني، فيحفظه ويرده علي.

﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾ هذا دليل على أنه قد كان معلوماً عندهم أن يوسف قد ردها عليهم بالقصد، وأنه أراد أن يملكهم إياها. فـ ﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ﴾ ترغيباً في إرسال أخيهم معهم، أي شيء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل، حيث وفَّى لنا الكيل، ورد علينا بضاعتنا على الوجه الحسن، المتضمن للإخلاص ومكارم الأخلاق؟ ﴿ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ إذا ذهبنا بأخينا صار سبباً لكيله لنا، فمرنا أهلنا، وأتينا لهم، بما هم مضطرون إليه من القوت، ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ بإرساله معنا، فإنه يكيل لكل واحد حمل بعير، سهل لا ينالك ضرر، لأن المدة لا تطول، والمصلحة قد تبينت.

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ لن أوافق على أخذه إلا إذا أخذت منكم عهدا ثقيلا، وتحلفون بالله ﴿ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾إلا أن يأتيكم أمر لا قبل لكم به، ولا تقدرون دفعه، ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ على ما قال وأراد ﴿ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾

تكفينا شهادته علينا وحفظه وكفالته. ﴿ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ ﴾ وأوصاهم أن لا يدخلوا من باب واحد؛ لأنه خاف عليهم العين، لكثرتهم وبهاء منظرهم، لكونهم أبناء رجل واحد، وهذا سبب. ﴿ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ فالمقدر لا بد أن يكون، القضاء قضاؤه، والأمر أمره، فما قضاه وحكم به لا بد أن يقع، ﴿ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴾ اعتمدت على الله، لا على ما وصيتكم به من السبب، فإن بالتوكل يحصل كل مطلوب، ويندفع كل مرهوب.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ ﴾ ذهبوا ونفذوا ما أوصاهم به أبوهم، وهو من باب الشفقة والمحبة للأولاد، فحصل له في ذلك نوع طمأنينة، وقضاء لما في خاطره. وليس هذا قصورا في علمه، فإنه من الرسل الكرام والعلماء الربانيين، ولهذا قال عنه: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ ﴾ لصاحب علم عظيم لتعليمنا إياه، لا بحوله وقوته أدركه، بل بفضل الله وتعليمه، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ عواقب الأمور ودقائق الأشياء وكذلك أهل العلم منهم، يخفى عليهم من العلم وأحكامه ولوازمه شيء كثير[1].

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ ﴾ لما دخل إخوة يوسف على يوسف آوى إليه شقيقه وهو «بنيامين» الذي أمرهم بالإتيان به، وضمه إليه، واختصه من بين إخوته، وأخبره بحقيقة الحال، و﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ لا تحزن فإن العاقبة خير لنا، ثم خبره بما يريد أن يصنع ويتحيل لبقائه عنده إلى أن ينتهي الأمر.

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ ﴾ كال لكل واحد من إخوته، ومن جملتهم أخوه هذا جعل الإناء الذي يشرب به، ويكال فيه ﴿ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ ﴾ أوعوا متاعهم، فلما انطلقوا ذاهبين، ﴿ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴾ ولعل هذا المؤذن، لم يعلم بحقيقة الحال.

---

(١) زاد المسير، ابن الجوزي، ٤/ ٢٥٣.



﴿ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم ﴾ قال إخوة يوسف لإبعاد التهمة، فإن السارق ليس له همٌّ إلا البعد والانطلاق عمن سرق منه، لتسلم له سرقته، وهؤلاء جاءوا مقبلين إليهم، ليس لهم همٌّ إلا إزالة التهمة التي رموا بها عنهم، فقالوا في هذه الحال: ﴿ مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ ولم يقولوا: «ما الذي سرقنا» لجزمهم بأنهم براء من السرقة. ﴿ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ أجرة له على وجدانه ﴿ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾ كفيل، وهذا يقوله المؤذن المتفقد.

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ بجميع أنواع المعاصي، فإن السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض، وإنما أقسموا على علمهم أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين، لأنهم عرفوا أنهم سبروا من أحوالهم ما يدلهم على عفتهم وورعهم، وأن هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتهموهم، وهذا أبلغ في نفي التهمة، من أن لو قالوا: { تالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق }.

﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ ما جزاء هذا الفعل بأن كان معكم؟ ﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ﴾ الموجود في رحله بأن يتملكه صاحب السرقة، وكان هذا في دينهم أن السارق إذا ثبتت عليه السرقة كان ملكا لصاحب المال المسروق، ولهذا قالوا: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ بدأ المفتش وذلك لتزول الريبة التي يظن أنها فعلت بالقصد، فلما لم يجد في أوعيتهم شيئاً ﴿ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ ولم يقل «وجدها، أو سرقها أخوه» مراعاة للحقيقة الواقعة. فحينئذ تم ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده، على وجه لا يشعر به إخوته، ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ يسرنا له هذا الكيد، الذي توصل به إلى أمر غير مذموم ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ لأنه ليس من دينه أن يتملك السارق، وإنما له عندهم، جزاء آخر، فلو ردت الحكومة إلى دين الملك، لم يتمكن يوسف من

إبقاء أخيه عنده، ولكنه جعل الحكم منهم، ليتم له ما أراد، وهذا بمشيئة الله.[1]

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ بالعلم النافع، ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقصدها، كما رفعنا درجات يوسف، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ فكل عالم، فوقه من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ فليس هذا غريبا منه يعنون: يوسف ﷺ، ومقصودهم تبرئة أنفسهم وأن هذا وأخاه قد يصدر منهما ما يصدر من السرقة، وهما ليسا شقيقين لنا. وفي هذا من الغض عليهما ما فيه.

﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ أسرها يوسف في نفسه لم يقابلهم على ما قالوه بها يكرهون، بل كظم الغيظ، وأسرَّ الأمر في نفسه. ﴿ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ﴾ حيث ذممتمونا بها أنتم على أشر منه، ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ منا، من وصفنا بالسرقة، يعلم الله أنا براء منها، ثم سلكوا معه مسلك التملق، لعله يسمح لهم بأخيهم.

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ أبوه كبير في السن، وأنه لا يصبر عنه، وسيشق عليه فراقه، ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فأحسن إلينا وإلى أبينا بذلك. ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ قال يوسف ﷺ:هذا ظلم منا، لو أخذنا البريء بذنب من وجدنا متاعنا عنده، ولم يقل «من سرق» كل هذا تحرز من الكذب، ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ إن أخذنا غير من وجد في رحله حيث وضعنا العقوبة في غير موضعها. ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ﴾ فلما استيأس إخوة يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيهم اجتمعوا وحدهم، ليس معهم غيرهم، وجعلوا يتناجون فيما بينهم، ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ في حفظه، وأنكم تأتون به إلا أن يحاط بكم ﴿ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ﴾، فاجتمع عليكم الأمران، تفريطكم في

(١) معالم التنزيل، البغوي، ١/ ٢٦١.



يوسف السابق، وعدم إتيانكم بأخيه باللاحق، فليس لي وجه أواجه به أبي.

﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ ﴾ سأقيم في هذه الأرض ولا أزال بها ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي ﴾ يقدر لي المجيء وحدي، أو مع أخي ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾

﴿ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ وصَّاهم بما يقولون لأبيهم:أخذ بسرقته، ولم يحصل لنا أن نأتيك به، مع ما بذلنا من الجهد في ذلك. والحال أنا ما شهدنا بشيء لم نعلمه، وإنما شهدنا بما علمنا، لأننا رأينا الصواع استخرج من رحله، ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴾ لو كنا نعلم الغيب لما حرصنا وبذلنا المجهود في ذهابه معنا، ولما أعطيناك عهودنا ومواثيقنا، فلم نظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ.

﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ إن شككت في قولنا فقد اطلعوا على ما أخبرناك به، لم نكذب ولم نغير ولم نبدل، بل هذا الواقع.

فلما رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بهذا الخبر، اشتد حزنه وتضاعف كمده، واتهمهم أيضاً في هذه القضية، كما اتهمهم في الأولى، ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ألجأ في ذلك إلى الصبر الجميل، الذي لا يصحبه تسخط ولا جزع، ولا شكوى للخلق، ثم لجأ إلى حصول الفرج لما رأى أن الأمر اشتد، والكربة انتهت فقال: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ بيوسف و«بنيامين» وأخوهم الكبير الذي أقام في مصر.

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ﴾ الذي يعلم حالي، واحتياجي إلى تفريجه ومنَّته، واضطراري إلى إحسانه، ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الذي جعل لكل شيء قدراً، ولكل أمر منتهى، بحسب ما اقتضته حكمته الربانية.

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ ﴾ وتولى يعقوب عليه الصلاة والسلام عن أولاده بعد ما أخبروه هذا الخبر، واشتد به الأسف والأسى، وابيضت عيناه من الحزن الذي في قلبه، والكمد الذي أوجب له كثرة البكاء، حيث ابيضت عيناه من

ذلك. ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ممتلئ القلب من الحزن الشديد، ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ ظهر منه ما كمن من الهم القديم والشوق المقيم، ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ ﴾ فقال له أولاده متعجبين من حاله: لا تزال تذكر يوسف في جميع أحوالك. ﴿ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا ﴾ فانيا لا حراك فيك ولا قدرة على الكلام.

﴿ أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴾ لا تترك ذكره مع قدرتك على ذكره أبدا.

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ ﴾ قال يعقوب: ما أبث من الكلام الذي في قلبي ﴿ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ وحده، لا إليكم ولا إلى غيركم من الخلق، فقولوا ما شئتم ﴿ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ من أنه سيردهم علي ويقر عيني بالاجتماع بهم.

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ قال يعقوب عليه السلام لبنيه: احرصوا واجتهدوا على التفتيش عنهما ﴿ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ ﴾ فإن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه، واليأس: يوجب له التثاقل والتباطؤ، وأولى ما رجا العباد، فضل الله وإحسانه ورحمته وروحه، ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ فإنهم لكفرهم يستبعدون رحمته، ورحمته بعيدة منهم، فلا تتشبهوا بالكافرين.

ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله وروحه، فذهبوا ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ ﴾ على يوسف ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآ ﴾ قد اضطررنا نحن وأهلنا ﴿ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ ﴾ مدفوعة مرغوب عنها لقلتها، وعدم وقوعها الموقع، ﴿ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ ﴾ مع عدم وفاء العرض، وتصدق علينا بالزيادة عن الواجب﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴾ بثواب الدنيا والآخرة.

فلما انتهى الأمر، وبلغ أشده، رقّ لهم يوسف رقّة شديدة، وعرَّفهم بنفسه، وعاتبهم.

﴿ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ ما فعلوا بهما، واتهامهما بالسرقة ﴿ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴾ وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم، أو توبيخ لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين، مع أنه لا

ينبغي ولا يليق منهم. فعرفوا أن الذي خاطبهم هو يوسف، فقالوا:﴿ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ﴾ بالإيمان والتقوى والتمكين في الدنيا، وذلك بسبب الصبر والتقوى، ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾ يتقي فعل ما حرم الله، ويصبر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر بامتثالها ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فإن هذا من الإحسان، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ فضلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأسأنا إليك غاية الإساءة، وحرصنا على إيصال الأذى إليك، وإبعادك عن أبيك، فآثرك الله تعالى ومكنك مما تريد ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم على يوسف[1]. ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ قال يوسف عليه السلام، كرماً وجوداً: لا أثرب عليكم ولا ألومكم ﴿ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فسمح لهم سماحاً تاماً، من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة، وهذا نهاية الإحسان، الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين. ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ لأن كل داء يداوى بضده، فهذا القميص - لما كان فيه أثر ريح يوسف، الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم - أراد أن يشمه، فترجع إليه روحه، وتتراجع إليه نفسه، ويرجع إليه بصره، ولله في ذلك حكم وأسرار، لا يطلع عليها العباد، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر. ﴿ وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أولادكم وعشيرتكم وتوابعكم كلهم، ليحصل تمام اللقاء، ويزول عنكم نكد المعيشة، وضنك الرزق.

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ ﴾ عن أرض مصر مقبلة إلى أرض فلسطين، شمَّ يعقوب ريح القميص، فقال:﴿ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ تسخرون مني، وتزعمون أن هذا الكلام، صدر مني من غير شعور، لأنه رأى منهم من التعجب من حاله ما أوجب له هذا القول. فوقع ما ظنه بهم فقالوا: ﴿ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ لا تزال تائها في بحر

(١) روح المعاني، للآلوسي، ١٣/ ٤٨.



الحبّ لا تدري ما تقول. ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ بقرب الاجتماع بيوسف وإخوته وأبيهم، جاء البشير وألقى القميص على يعقوب عليه السلام، رجع على حاله الأولى بصيراً، بعد أن ابيضت عيناه من الحزن، فقال لمن حضره من أولاده وأهله الذين كانوا يفندون رأيه، ويتعجبون منه منتصراً عليهم، متبجحاً بنعمة الله عليه: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ حيث كنت مترجيا للقاء يوسف، مترقباً لزوال الهم والغم والحزن. فأقروا بذنبهم ونجوا بذلك و﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾ حيث فعلنا معك ما فعلنا. ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾ استجاب لهم، وأطلب من الله أن يغفر لكم ويرحمكم، ويتغمدكم برحمته، وقد قيل: إنه أخر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل، ليكون أتمَّ للاستغفار، وأقرب للإجابة.

الهدايات المستنبطة من المقطع السابع:

١ - يوسف عليه السلام لم يكشف لأخوته عن نفسه، رغم أنه أنزلهم منزلاً طيباً، وهذا أمر مهم للدعاة؛ فعليهم التخفي وعدم الظهور، إذا اقتضى الأمر ذلك، فالتخفي والحيطة والحذر في الوقت المناسب، والظهور في الوقت المناسب.

٢ - دلت الآيات على مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين، وإكرام الضيف لقول يوسف لإخوته ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾

٣ - استعمال الأسباب الدافعة للعين أوغيرها من المكاره، أو الرافعة لها بعد نزولها، غير ممنوع بل جائز، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر، فإن الأسباب أيضا من القضاء والقدر لأمر يعقوب حيث قال لبنيه: ﴿ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ﴾

٤ - جواز استعمال المكايد التي يتوصل بها إلى الحقوق، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد، وإنما الممنوع، التحيل على إسقاط واجب، أو فعل محرم.

٥ - ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره، بأمر لا يحب أن يطلع عليه، أن يستعمل المعاريض القولية

والفعلية المانعة له من الكذب، كما فعل يوسف حيث ألقى الصُّواع في رحل أخيه، ثم استخرجها منه، موهما أنه سارق، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته، وقال بعد ذلك: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ ولم يقل «من سرق متاعنا» وكذلك لم يقل «إنا وجدنا متاعنا عنده» بل أتى بكلام عام يصلح له ولغيره، وليس في ذلك محذور، وإنما فيه إيهام أنه سارق ليحصل المقصود الحاضر، وأنه يبقى عند أخيه وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعد ما تبينت الحال. وهذا يدل على وجوب استخدام الذكاء والفطنة، ليتحقق النجاح، وهذا كثير الوقوع في قصة يوسف ﷺ.

٦ – لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه، وتحققه إما بمشاهدة أو خبر من يثق به، وتطمئن إليه النفس لقولهم: ﴿ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ .

٧ – الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما الذي ينافيه، الشكوى إلى المخلوقين. هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب ﷺ، حيث قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف، الذي لا يقدر على فراقه ساعة واحدة، ويحزنه ذلك أشد الحزن، فحصل التفريق بينه وبينه مدة طويلة، ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه في هذه المدة ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ ثم ازداد به الأمر شدة، حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف، هذا وهو صابر لأمر الله، محتسب الأجر من الله، قد وعد من نفسه الصبر الجميل، فصبر، فكان خيراً له.

٨ – الفرج مع الكرب؛ وأن مع العسر يسرا، فإنه لما طال الحزن على يعقوب واشتد به إلى أنهى ما يكون، ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب ومسهم الضر، أذن الله حينئذ بالفرج، فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجة واضطرارا، فتم بذلك الأجر وحصل السرور، وعلم من ذلك أن الله يبتلي أولياءه بالشدة والرخاء، والعسر واليسر ليمتحن صبرهم وشكرهم ويزداد – بذلك – إيمانهم ويقينهم وعرفانهم.

٩ – جواز إخبار الإنسان بما يجد، وما هو فيه من مرض أو فقر ونحوهما، على غير وجه التسخط، لأن إخوة يوسف قالوا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾ ولم ينكر عليهم عاقبة التقوى

والصبر، وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وأن عاقبة أهلهما، أحسن العواقب، لقوله: ﴿ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

١٠ - يجب أخذ العهد والميثاق على ما نتعامل به مع الآخرين، وما يحدث بعد ذلك بقدر الله، علينا الرضا والتسليم به لذا طلب يعقوب عليه السلام لبنيه: لتقسمن لي بالله قسما يربطكم، أن تردوا علي ولدي، إلا إذا غلبتم على أمركم غلباً لا حيلة لكم فيه، ولا تجدي مدافعتكم عنه: وحكم الله القدري يمضي في الناس على غير إرادة منهم ولا اختيار، وإلى جانبه حكم الله الذي ينفذه الناس عن رضا منهم واختيار، وهو الحكم الشرعي المتمثل في الأوامر والنواهي، وهذا كذلك لا يكون إلا لله، شأنه شأن حكمه القدري، باختلاف واحد:هو أن الناس ينفذونه مختارين أو لا ينفذونه..

١١ - لا ينبغي الأخذ بالروايات التي لا سند لها، فتضرب الروايات والتفاسير في هذا وتبدى وتعيد بلا ضرورة، بل ضد ما يقتضيه السياق القرآني الحكيم. فلو كان السياق يحب أن يكشف عن السبب لقال. ولكنه قال فقط - إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها - فينبغي أن يقف المفسرون عند ما أراده السياق، احتفاظا بالجو الذي أراده. فالحاجة في نفسه؛ إنما هو خاطر شعر به، وحاجة في نفسه قضاها بالوصية، وهو على علم بأن إرادة الله نافذة. فقد علمه الله هذا فتعلم.

١٢ - رد يوسف عليه السلام العلم إلى الله، مع التنبيه إلى أن علم الله هو الأعلى، وهو احتراس لطيف دقيق؛ فالفضل كله لله.

١٣ - يحاول البعض أن يدعو إلى استبدال بعض الأحكام الشرعية بأحكام أخرى، أخف من وجهة نظرهم، مستدلين بأن يوسف عليه السلام عمل بمدلول كلمة «دين الله» فلم يقطع يد أخيه، بل كان العقاب في دين الملك بحجز السارق، وهذا غير شرع الله، وهذا فهم خطأ؛ لأن يوسف عليه السلام، كان مختصاً بعدالة توزيع الأرزاق، وإصلاح الوضع الإقتصادي، ولا

حول له بتغيير دين الملك.

١٤ - من الحكمة تأخير الرد على بعض الأقوال والأفعال إلى الوقت المناسب؛ قلنا سمع يوسف عليه السلام قولهم ﴿ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ﴾ أسرها وحفظها في نفسه، ولم يبد تأثره منها. وهو يعلم براءته وبراءة أخيه. ولكن يوسف كان يريد أن يلقي عليهم درسا. وكان يريد أن يشوقهم إلى المفاجأة التي يعدها لهم ولوالده وللجميع ! ليكون وقعها أعمق وأشد أثراً في النفوس، وهذه فطنة، ينبغي أن يلتفت إليها ويفاد منها.

١٥ - قد يصل الحال ببعض القلوب القاسية التي لا تعرف الرحمة، عقابها أليم، ويبلغ الحقد بقلوب بني يعقوب عليه السلام، ألا يرحموا ما به، وأن يلسع قلوبهم حنينه ليوسف وحزنه عليه ذلك الحزن الكامد الكظيم، فلا يسرون عنه، ولا يعزونه، ولا يعللونه بالرجاء، بل يريدون ليطمسوا في قلبه الشعاع الأخير.

١٦ - إذا انقطعت الأسباب الدنيوية، يجب على العبد أن يفوض أمره إلى الله، كما فعل يعقوب عليه السلام، توكل على الله وأخذ بالأسباب، فوجههم إلى تلمس يوسف وأخيه، وألا ييأسوا من رحمة الله، في العثور عليهما، فإن رحمة الله واسعة وفرجه دائما منظور: فالمؤمنون الموصولة قلوبهم بالله، الندية أرواحهم بروحه، الشاعرون بنفحاته المحيية الرخية، فإنهم لا ييأسون من روح الله ولو أحاط بهم الكرب.

١٧ - العفو عند المقدرة من كريم السجايا وأرفعها، تحلى به يوسف عليه السلام، إذ عفا عن إخوته فقال لهم: لا مؤاخذة لكم ولا تأنيب اليوم فيستحسن بالمؤمن أن يقتدي به.

١٨ - معرفة يوسف عليه السلام أن رائحته سترد على أبيه بصره، هو مما علمه الله، دلالة على علم الله وقدرته.

١٩ - وعد يعقوب عليه السلام بنيه بالاستغفار لهم؛ فقال: سوف استغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم، وقيل: إنه أخره إلى وقت السحر، والاستغفار به تفرج الكرب، وتتحقق المغفرة

وهي في وقت السحر أكثر استجابة.

٢٠ - العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى ليوسف منهم ما جرى في أول الأمر، مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماح التام من يوسف ومن أبيهم، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة وإذا سمح العبد عن حقه، فالله خير الراحمين.

المناسبة بين المقطع السابع ومحور السورة:

الأحداث التي دارت في هذا المقطع، من عودة إخوة يوسف إليه، وتمكنه من أخذ أخيه، دلالة على قدرة الله ووحدانيته.

المقطع الثامن: لقاء العائلة كلها في مصر، الآيات (٩٩ - ١٠٢)

قال تعالى:﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

المناسبة بين المقطع الثامن والسابع:

بعد أن أرسل يوسف عليه السلام قميصه لأبيه، فارتد بصيراً، يبدأ تأويل رؤياه فتجتمع العائلة كلها في مصر مرة ثانية، وتتحقق رؤياه، وينصره الله، فيخرجه من المحن التي تعرض لها، وهذا ما يتحدث عنه هذا المقطع.

التفسير الإجمالي للمقطع الثامن:

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ تجهز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون، وارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف في مصر وسكناها، فلما وصلوا إليه، وضمهما إليه، واختصهما بقربه، وأبدى لهما من البر والإكرام والتبجيل والإعظام شيئاً عظيماً، ﴿ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ لجميع أهله من جميع المكاره والمخاوف، فدخلوا في هذه الحال السارة، وزال عنهم النصب ونكد المعيشة، وحصل السرور والبهجة.

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ على سرير الملك، ومجلس العزيز، ﴿ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ سجد له أبوه، وأمه وإخوته، سجوداً على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام، ﴿ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ ﴾ لما رأى هذه الحال، ورأى سجودهم له، تذكر حين رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين، فهذا وقوعها الذي آلت إليه ووصلت ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ فلم يجعلها أضغاث أحلام[1].

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ إحساناً جسيماً، وهذا من لطفه وحسن خطابه عليه السلام، حيث ذكر حاله في السجن، ولم يذكر حاله في الجب، لتمام عفوه عن إخوته، وأنه لا يذكر ذلك الذنب، وأن إتيانكم من البادية من إحسان الله إلي؛ فلم يقل: جاء بكم من الجوع والنصب، ولا قال: "أحسن بكم" بل قال ﴿ أَحْسَنَ بِىٓ ﴾ جعل الإحسان عائداً إليه، فتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده، ويهب لهم من لدنه رحمة إنه هو الوهاب. ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ﴾ فلم يقل "نزغ الشيطان إخوتي" بل كأن الذنب والجهل، صدر من الطرفين، فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودحره، وجمعنا بعد تلك الفرقة الشاقة.

﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾ يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، ويوصله

(١) جامع القرطبي، القرطبي، ٩/ ٢٢٤.



إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها، ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، وسرائر العباد وضمائرهم، حكيم في وضعه الأشياء مواضعها، وسوقه الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها. ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ وذلك أنه كان على خزائن الأرض وتدبيرها ووزيراً كبيراً للملك ﴿ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ من تأويل أحاديث الكتب المنزلة وتأويل الرؤيا وغير ذلك من العلم ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا ﴾ أدم عليّ الإسلام وثبتني عليه حتى توفاني عليه، ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت، ﴿ وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار.

لما قص الله هذه القصة على محمد ﷺ قال الله له: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ ﴾ الإنباء الذي أخبرناك به، الذي لولا إيحاؤنا إليك لما وصل إليك هذا الخبر الجليل، فإنك لم تكن حاضراً لديهم ﴿ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ إخوة يوسف يمكرون به، حين تعاقدوا على التفريق بينه وبين أبيه، في حالة لا يطلع عليها إلا الله تعالى، ولا يمكن أحدا أن يصل إلى علمها، إلا بتعليم الله له إياها، فهذا أدل دليل على صدق ما جاء به رسول الله ﷺ (١).

الهدايات المستنبطة من المقطع الثامن:

١ - سجود أبوي يوسف له سجود احترام، وهذا جائز في شرعهم، وأما في شريعة محمد ﷺ فلا يجوز. والساجد معظم محترم للمسجود له، والمسجود له معظم محترم، فلذلك دل ذلك على أن يوسف يكون معظما محترما عند أبويه وإخوته.

٢ - يتحقق فرج الله بالصبر، فالله منّ على آل يعقوب، بعد كر الأعوام وانقضاء الأيام، وبعد اليأس والقنوط، وبعد الألم والضيق، وبعد الامتحان والابتلاء، وبعد الشوق المضني والحزن الكامد واللهف الضاميء الشديد، وكذا كل مؤمن صابر.

٣ - وفي الآيات عبرة بصبر الأنبياء مثل يعقوب ويوسف عليهم السلام على البلوى. وكيف

(١) زاد المسير، الجوزي، ٤/ ٢٩٣.



تكون لهم العاقبة

٤ - وفي الآيات عبرة بهجرة قوم النبي ﷺ إلى البلد الذي حل به كما فعل يعقوب ﵇ وآله وذلك إيماء إلى أن قريشا ينتقلون إلى المدينة مهاجرين تبعا لهجرة النبي ﷺ.

٥ - بالشكر تدوم النعم، فيوسف ﵇ ذكر نعمة الله عليه دوماً، وعدم الشكر يمحق البركة، ويزيل النعم.

٦ - طلب يوسف ﵇ من الله الوفاة على الإيمان، وهكذا المؤمن يدعو بالوفاة إن كانت خيراً له، وبالحياة إن كانت خيراً له. ويبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه عليه، وأن يلحقه بالصالحين بين يديه، وأن يتملق إلى الله دائماً في تثبيت إيمانه، ويعمل الأسباب الموجبة لذلك، ويسأل الله حسن الخاتمة، وتمام النعمة.

المناسبة بين المقطع الثامن ومحور السورة

تابع نفس المناسبة بين المقطع السابع ومحور السورة، فالأحداث التي دارت في هذا المقطع، من لقاء يوسف ﵇ مع عائلته كاملة، وتحقق رؤياه، دلالة على قدرة الله ووحدانيته.

المقطع التاسع: تعقيبات على قصة يوسف الآيات (١٠٣ - ١١١)

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

المناسبة بين المقطع التاسع والثامن:

لما ختمت قصة يوسف عليه السلام كان من المناسب أن يتم استخلاص العبر والمواعظ، فجاءت التعقيبات المناسبة قي هذا المقطع.

التفسير الإجمالي للمقطع التاسع:

﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ خطاب موجه لنبيه محمد ﷺ يبين له فيه أحوال الناس، فإن مداركهم ومقاصدهم قد أصبحت فاسدة، فلا ينفعهم حرص الناصحين عليهم ولو عدمت الموانع، بأن كانوا يعلمونهم ويدعونهم إلى ما فيه الخير لهم، ودفع الشر عنهم من غير أجر ولا عوض، ولو أقاموا لهم من الشواهد والآيات الدالات على صدقهم ما أقاموا. ولهذا قال: ﴿ وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ يتذكرون به ما ينفعهم ليفعلوه، وما يضرهم ليتركوه[1].

---

(١) جامع الطبري، الطبري، ٧/ ٣١٢.



﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ وكم من علامة دالة لهم على توحيد الله، ومع هذا لا يؤمنون، وإن وجد منهم بعض الإيمان فلا ﴿ يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ فهم وإن أقروا بربوبية الله تعالى، وأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، فإنهم يشركون في ألوهية الله وتوحيده، فهؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الحال لم يبق عليهم إلا أن يحل بهم العذاب، ويفاجئهم العقاب وهم آمنون، ولهذا قال: ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ الفاعلون لتلك الأفعال، المعرضون عن آيات الله، عذاب يغشاهم ويعمهم ويستأصلهم، ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فجأة، فإنهم قد استوجبوا لذلك، فليتوبوا إلى الله، ويتركوا ما يكون سببا في عقابهم.

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ ﴾ قل يا محمد ﷺ للناس هذه طريقي التي أدعو إليها، وهي السبيل الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته، المتضمنة للعلم بالحق والعمل به وإيثاره، وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له، ﴿ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾ أحثُّ الخلق والعباد إلى الوصول إلى ربهم، وأرغِّبهم في ذلك وأرهِّبهم مما يبعدهم عنه.

ومع هذا فأنا من ديني، على علم ويقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية. ومن اتبعني واقتدى بي كذلك، يدعو إلى الله كما أدعو على بصيرة من أمره. ﴿ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ عما نسب إليه مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله. ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ في جميع أموري، بل أعبد الله مخلصا له الدين. ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا ﴾ لم نرسل ملائكة ولا غيرهم من أصناف الخلق، فلأي شيء يستغرب قومك رسالتك، ويزعمون أنه ليس لك عليهم فضل، فلك فيمن قبلك من المرسلين أسوة حسنة ﴿ نُّوحِيٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ من أهل القرى الذين هم أكمل عقولا، وأصح آراء، وليتبين أمرهم ويتضح شأنهم.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ إذا لم يصدقوا لقولك، يسيروا ويشاهدوا كيف أهلكهم الله بتكذيبهم، فاحذروا أن تقيموا على ما أقاموا عليه فيصيبكم ما أصابهم، ﴿ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ﴾ الجنة وما فيها من النعيم المقيم، خير

وأفضل لمن أطاع الله واتقاه في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن نعيم الدنيا منغص منكد منقطع، ونعيم الآخرة تام كامل، لا يفنى أبدا، بل هو على الدوام في تزايد وتواصل، ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أفلا تكون لكم عقول تؤثر الذي هو خير على الأدنى.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ يخبر تعالى: أنه يرسل الرسل الكرام، فيكذبهم القوم المجرمون اللئام، وأن الله تعالى يمهلهم ليرجعوا إلى الحق، ولا يزال الله يمهلهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية الشدة منهم على الرسل، وهم على كمال يقينهم، وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده - ربما أنه يخطر بقلوبهم نوع من اليأس، ونوع من ضعف العلم والتصديق، فإذا بلغ الأمر هذه الحال جاءهم نصرنا، وهم الرسل وأتباعهم، ولا يرد عذابنا، عن المكذبين، الذين أجرموا في حق أنفسهم، وتجرؤوا على الله[1].

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ قصص الأنبياء والرسل مع قومهم، عبر يعتبرون بها، أهل الخير وأهل الشر، وأن من فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم من كرامة أو إهانة ويعتبرون بها أيضاً، ما لله من صفات الكمال والحكمة العظيمة، وأنه الله الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له.

﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ما كان هذا القرآن الذي قص الله به عليكم من أنباء الغيب ما قص من الأحاديث المختلقة، ﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ فهو من الكتب السابقة، يوافقها ويشهد لها بالصحة، ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، ومن الأدلة والبراهين. ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فإنهم - بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق وإيثاره - يحصل لهم الهدى، وبما يحصل لهم من الثواب العاجل والآجل تحصل لهم الرحمة.

(١) روح المعاني، الألوسي، ١٣/ ٦٨.



الهدايات المستنبطة من المقطع التاسع:

١ - دلالة قصة يوسف على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام. فمحمد عليه الصلاة والسلام، لا يعلم الغيب، وإنما هو وحي من عند الله، وهذه القصة لم تكن متداولة بين القوم الذين نشأ فيهم محمد عليه الصلاة والسلام، ثم بعث إليهم. وفيها أسرار لم يعلمها إلا الذين لامسوها من أشخاص القصة، وقد غبرت بهم القرون.

٢ - يوم القيامة لا يعلم موعده أحد، قد يغشاهم اللحظة بغاشية تلفهم وتشملهم، آيات الله الدالة على وجوده ووحدانيته، وقدرته، كثيرة مبثوثة في الكون، ولكن قليل من يستجيب ويؤمن، وحتى الذين يؤمنون، كثير منهم قد لا يثبت على الإيمان؛ فالإيمان الخالص يحتاج إلى يقظة دائمة تنفي عن القلب الغفلة والإعراض.

٣ - الدعوة إلى الله واجبة على كل من آمن بالله وبرسوله، هذه طريق الرسول ﷺ، فمن شاء فليتابع، ومن لم يشأ فأنا سائر في طريقي المستقيم.

٤ - لا يجوز للدعاة أن يسألوا الناس شيئاً من أموالهم، فهذا يبعد الناس عن الاستجابة للحق وما تسألهم عليه من أجر، إن هو إلا ذكر للعالمين، وهذا هو منهج رسل الله جميعاً.

٥ - على الداعي أن يحرص على هداية الناس، فكان الرسول ﷺ حريصا على إيمان قومه، وإن كان حرصه على إيمانهم لن يسوق الكثير من المشركين إلى الإيمان لأنهم يمرون على الآيات الكثيرة معرضين. فهذا الإعراض لا يؤهلهم للإيمان.

٦ - لا يجوز استعجال النصر، فمن سنن الله الابتلاء، حتى إذا استيئس الرسل، وظنوا أنهم قد كذبوا، ولكن يجب الاعتقاد أن الله لا محالة ناصر عباده المؤمنين، جاءهم نصرنا ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين.

٧ - ذكر قصص الأولين فيها مواساة للرسول ﷺ، وللدعاة، فعلى الداعية الرجوع إلى القرآن باستمرار، للإفادة منها، ففيها العبرة والموعظة والهداية. وفي قصة يوسف ألوان من الشدائد.

المناسبة بين المقطع التاسع ومحور السورة:

عقّب الله في هذا المقطع بتعقيبات مناسبة، فيها تأكيد على أهداف السورة، فدعت إلى الدعوة لوحدانية الله، والصبر على الدعوة، ومحاربة الشرك، وأخذ العبرة من خلال قصص السابقين، فالمؤمن يحرص على وحدانية الله، ويحتكم لله وحده، وهذا منسجم مع محور السورة.

سورة الرعد

بين يدي السورة

تعد سورة الرعد الوحيدة في القرآن الكريم التي تنازع فيها العلماء على قولين في مكيتها أو مدنيتها[1]*. والقول الراجح الذي نطمئن إليه أنها مكية لجمعها ضوابط وخصائص القرآن المكي بالكلية ويعضده جوها المكي العام، (نزلت بعد سورة محمد)[2].

وعدد آياتها ثلاث وأربعون وسميت بالرعد لقوله تعالى ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ الآية ١٣.

عنيت بأصول العقيدة الإسلامية من الإيمان بالله تعالى، وكتبه، ورسله، والبعث والجزاء وبينت معنى الألوهية والعبودية، وأن الله وحده هو الرازق والمحيي والمميت، وهو الوحيد المستحق للعبادة، وأن القرآن الكريم معجزة الإسلام الخالدة، الدالة على صدق محمد ﷺ ورسالته، فقد تحدى الله تعالى الكفار والمشركين، لما ادعوا أن هذا القرآن من عند محمد ﷺ

---

(١) * مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ومدنية في قول الكلبي ومقاتل، وقال ابن عباس وقتادة: مدنية إلا آيتين منها نزلت بمكة، وهما ٣١ و٣٢. للمزيد انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٢٧٨. ومن المحدثين الذين يجزمون أنها مكية سيد قطب انظر، في ظلال القرآن: ٥/ ١٠٣.
وهي أربع وأربعون آية في المدني، وثلاث وأربعون في الكوفي، نظراً للاختلاف في اعتبار بعض فواتح السور من الحروف المقطعة آيات مستقلة أم لا. انظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع، لأبي محمد مكي القيسي:٢/ ١٩.
ومما تجدر ملاحظته هنا أن فواتح السور من الحروف المقطعة وردت كآياتٍ مستقلة في تسع عشرة سورة هي: (البقرة وآل عمران والأعراف ومريم وطه والشعراء والقصص والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة ويس وغافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف)، وجاءت غير مستقلة مدرجة مع سياق الافتتاح في عشر سورٍ هي: (يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنمل وص وق والقلم).

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري: ٢/ ٤٩٢.



وليس من عند الله تعالى أن يأتوا بمثله ثم بعشر سور مثله ثم بسورة من مثله فعجزوا، وفي هذا دليل على بيان منزلة القرآن الكريم وسموه من أي نقص أو عيب، لأنه تنزيل رب العالمين. وذكرت السورة بعض صفات الله تعالى وآثار قدرته ورحمته، مع عرض الأدلة العقلية على وجود الله تعالى ووحدانيته.

وقد تضمنت السورة طائفة من الأمور منها:

١ - إنكار الله تعالى على المشركين تعجبهم من أن يوحي إلى بشر مثلهم لينذرهم، مع بيان مهمة النبي ﷺ في إنذار الناس، وتحذيرهم من عذاب الله تعالى، وتبشير المؤمنين بثواب الله تعالى ورحمته.

٢ - إنكار الله تعالى على المشركين طلبهم من رسول الله ﷺ آية كونية وليدة اللحظة دليلاً على صدق رسالته مكراً وجحوداً وتعنتاً واستهزاءً وسخريةً.

٣ - بيان كمال قدرة الله تعالى في الخلق وعظيم حكمته وتدبيره للكون، وهذا مما يغفل عنه الكافرون ولم يتفكروا فيه، فاستحقوا عذاب الله تعالى يوم القيامة، خلافاً للمؤمنين الذين انتفعوا بالتأمل في آيات الله تعالى، فنالوا بذلك ثوابه ورضوانه.

٤ - تذكير قريش بمصير الأقوام الذين كذبوا الرسل في القرون السابقة، ليأخذوا العبرة منهم.

٥ - إنكار الله تعالى على المشركين عدولهم عن الحق إلى الضلال، بعد أن بيَّن لهم أدلة وحدانيته وربوبيته القاطعة، من رفع السموات بغير عمد وتعاقب الليل والنهار وحركة الشمس ومنازل القمر، وإنزال الغيث وإخراج الزروع والثمار، وبعث الخلق يوم القيامة للحساب وإخراج الحي من الميت والميت من الحي، وتصريف شؤون الكائنات جميعها.

٦ - بيان ضعف الإنسان وعجزه وحاجته إلى خالقه سبحانه وتعالى في كل الأمور، من لحظة تلقيح البويضة بالحيوان المنوي في الرحم إلى بعثه من قبره يوم القيامة.

٧ - دعوة الله تعالى نبيه أن يتبرأ من المشركين وأعمالهم، والتأكيد على أن الآيات الظاهرة الدالة على صدق نبوته ﷺ من أدلة عقلية وسمعية وبصرية، إنما ينتفع بها المؤمنون أولو البصائر والنهى، أما المشركون المكذبون فلا يتعظون بما يسمعون ولا يعتبرون بما يبصرون.

٨ - تذكير الله تعالى الكفار والمشركين، قدرته على إعادة الخلق يوم القيامة كما بدأهم من العدم، وان هذا يوم معلوم عند الله تعالى استأثره بعلمه، وأن الحياة الدنيا لا تقاس بالدار الآخرة.

٩ - الله تعالى مالك السموات والأرض، وما وعد به من البعث والجزاء واقع لا محالة، وفي هذا إنذار عظيم للمشركين الذين كذبوا خاتم الأنبياء والمرسلين في دعوته، فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها.

١٠ - إرشاد الله تعالى عباده إلى التفكير في آياته الكونية الدالة على وحدانية وكمال قدرته.

١١ - التأكيد أن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً، والمؤمن الحق هو الذي يشعر بمراقبة الله تعالى في أقواله وأفعاله في السر والعلن.

١٢ - يخبر الله تعالى عباده أنه يعلم ما يسرون وما يعلنون، لا تخفى عليه خافية، وأن علمه محيط بهم في سائر الأحوال والأزمان والأمكنة.

١٣ - أوضحت السورة أهمية الدعوة إلى الله تعالى، وهذا من دعائم قواعد التوحيد الذي دعت إليه السورة، وتظهر أهمية الدعوة في كونها وظيفة الرسل الذين اختارهم الله تعالى لحمل رسالته وتبليغها إلى الناس، فالداعية حسب منطوق سورة الرعد المُضمر يقوم بأشرف عمل وهو حمل رسالة الإسلام، من خلال توجيه نظر المدعو أو المجادل إلى ما في مظاهر الكون من عِبَر بكلماتٍ مؤثرة بالترغيب والترهيب، ويقصد بالأولى كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق، ويقصد بالثانية كل ما يخيف ويحذر المدعو من عدم الاستجابة أو رفض دعوة الحق.

١٤ - وجوب طاعة الله تعالى في الرخاء والشدة، وهذا مندرج في باب مصداقية التوكل على الله في السراء والضراء.

١٥ - بينت آيات السورة عدداً من صفات الله تعالى كالعلم والقدرة والرحمة، ومما تجدر ملاحظته أن علاقة سورة الرعد بسورة يوسف التي قبلها وسورة إبراهيم التي بعدها تكاملية، وما أُجمِل في سورة بسط القول في سورة أخرى.

وفيما يلي أهم القواسم المشتركة بينها:

أ- السور الثلاث تزخر بالعديد من ضوابط القرآن المكي وخصائصه الموضوعية.

ب- أن هذه السور افتتحت بحروف التهجي، ولم يكن هذا مألوفاً في افتتاح الكلام بين العرب أيام الجاهلية، والاستفتاح بالحروف المقطعة ورد في القرآن الكريم في تسع وعشرين سورة كلها مكية عدا البقرة وآل عمران فهما مدنيتان.

وتباينت فواتح السور من حيث عدد الحروف، فبعضها مؤلف من حرف واحد ومثاله ص، ق، ن، ومن حرفين ومثاله حم، طس، طه، يس. وبعضها مؤلف من ثلاثة أحرف ومثاله (الم) و(الر) و(طسم)، ومنها ما ورد من أربعة أحرف ومثاله (المر) و(المص) كما ورد بعضها من خمسة أحرف ومثاله (كهيعص) و(حم عسق).

واللافت للانتباه أن عدد أحرف فواتح السور من الحروف المقطعة أربعة عشر هي: (ا، ح، ر، س، ص، ط، ع، ق، ك، ل، م، ن، هـ، ي).

جـ - ورد في هذه السور التأكيد على الألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة لله تعالى.

د - أجمَل الله سبحانه وتعالى في سورة يوسف الآيات الكونية الدالة على عظمته وقدرته في الخلق. وفصَّل القول في سورة الرعد في مواضع متعددة للتأكيد على أن الكون كتاب مفتوح ينطق بقدرة الله تعالى وعظمته.

هـ- انتظم في هذه السور الإخبار عن بعض الماضين من الأقوام من باب التحذير وأخذ



العظة والعبرة، وغاية هذه القصص التحذير من الشرك وبيان منزلة الأنبياء والرسل، ومقابلتهم للإساءة بالإحسان والصبر والعفو والصفح.

غ- بينت السور الثلاث جانباً من قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم وما أصابهم من العذاب بسبب كفرهم وعنادهم وتكذيبهم، لأجل دعوة قريش ليؤمنوا بالله تعالى ويصدقوا رسوله محمداً ﷺ ويتبعوا دعوته.

ك- أكدت السور الثلاث على وحدة الرسالة والرسل ووحدة دعوتهم وحقيقة نعمة الله تعالى على البشر بإرسال رسله إليهم.

حـ- أكدت السور الثلاث على تحريم موالاة الكافرين، فقد نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين لقرابة أو لصداقة أو لمصلحة دنيوية، فالمؤمن يحب في الله تعالى ويبغض في الله تعالى وقد توعد الله تعالى الذين يوالون الكافرين بالعذاب الشديد.

ولا يفوتنا الإشارة هنا أن السورة قد قسمت إلى ستة مقاطع ليتيسر تفسيرها موضوعياً، إذ يحتوي كل مقطع منها على طائفة من القواعد والمبادئ والعظات والعبر التي سنقف عندها بالتحليل والتعليق والمقابلة، وما ترشد إليه من هدايات مع بيان وجه الارتباط بينها وبغيرها ممن تقدم أو تأخر، ويقوم محور السورة على التعريف بمكانة القرآن الكريم وبيان منزلة الرسول ﷺ، وتقرير أركان الإيمان، على ضوء آيات الله في الكون، لأجل توظيف العلم في الدعوة للإسلام وهذا بالكلية من أصول قواعد التوحيد.

وفيما يلي سرد موجز لمقاطع السورة:

المقطع الأول: ويمتد من الآية ١ إلى الآية ٢.

المقطع الثاني: ويمتد من الآية ٣ إلى الآية ٤.

المقطع الثالث: ويمتد من الآية ٥ إلى الآية ١١.

المقطع الرابع: ويمتد من الآية ١٢ إلى الآية ١٣.

المقطع الخامس: ويمتد من الآية ١٤ إلى الآية ٢٩.

المقطع السادس: ويمتد من الآية ٣٠ إلى الآية ٤٣.

والمقطعان الأخيران يشغلان معظم مساحة السورة.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي للمقطع الأول

ويمتد من الآية ١ إلى الآية ٢

﴿ الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ٢ ﴾

افتتحت آيات المقطع الأول بقوله تعالى ﴿ الٓمٓرۚ ﴾ وهي أربعة حروف هجائية مقطعة، تلفظ: ألف، لام، ميم، راء. ابتدأ الله سبحانه وتعالى بها السورة للتنبيه ليكون في غرابتها ما يثير الالتفات عند سماعها لأجل الإصغاء لما سيرد بعدها. وهي مع ذلك تشير إلى عظمة المؤلف من هذه الحروف التي يلفظ بها العرب كلامهم.

تعددت آراء العلماء في جواز أو حرمة تأويلها إلى قولين:

- جماعة ترى وجوب تدبر آيات القرآن الكريم بما فيها فواتح السور من الحروف المقطعة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤ ﴾ [محمد: ٢٤].

ويعتقد أنصار هذا الرأي كلما تقدم العلم الإنساني كشف عن بعض وجوه إعجاز القرآن التي لم يقف عليها الأوائل، ولقد أورد صاحب البرهان عشرين رأياً اجتهاداً جمعها من علماء علوم القرآن والتفسير الذين سبقوه، ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي محمد ﷺ. ومن أشهر وجوه تفسيرها أنها مفاتيح لأسماء الله الحسنى، وكل حرف منها دل على اسم من أسمائه وصفة من صفاته، فالألف مفتاح اسم (الله) واللام مفتاح اسمه (لطيف) والميم مفتاح اسمه (مجيد)

والراء مفتاح اسمه (الرزاق)[١].

- وبالمقابل فإن جماعة ثانية من العلماء ترى حرمة الخوض في تأويلها وهي من المتشابه نقيض المحكم. علم مستور وسر محجوب استأثر الله به وهو العالم بمراده منها، وهي من أسرار القرآن التي لا يدركها البشر حتى قيام الساعة.

وترى طائفة منهم ليس من الدين في شيء أن يجترئ أحد من الخلق على تفسيرها خشية الزلل في الاجتهاد، لأنها لا تملك أمامها إلا التسليم بها دون إعمال العقل فيها[٢]*.

وبعد الاستفتاح بالحروف المقطعة انتقلت الآية الثانية إلى التعريف بمكانه القرآن الكريم المنزل بلسان عربي مبين. وإن في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ دلالة على عظيم منزلته بين الكتب السماوية كافة.

حيث اقتضت إرادة الله أن يكون هذا الكتاب معجزة عقلية ليكون التحدي به قائماً على امتداد الأزمنة والعصور، وهذا أوضح دليل على عالمية دعوته والعمل بما جاء به كفيل بتحقيق السعادة للإنسانية قاطبة، فيه من عظمة الإعجاز التشريعي ما يناسب الفطرة التي جبل عليها الإنسان، صالح للتطبيق في كل زمان ومكان. ومع كونه الحق الذي يكفل للبشرية الحياة الكريمة، إلا أن أهل قريش أعرضوا عنه جهلاً وعناداً لوقوعهم تحت غريزة المحاكاة والتقليد لآبائهم الأولين. وقد فاتهم أن الله عز وجل أرسلك فيهم يا محمد بشيراً ونذيراً ورحمةً وهادياً، ومن أقبل منهم عليه كان من أهل السعادة في الدارين.

---

(١) للمزيد انظر: مختصر تفسير ابن كثير، للشيخ محمد علي الصابوني: ١/ ٢٧.

(٢) * يعد كتاب الخواطر السوانح في كشف أسرار الفواتح، لابن أبي الأصبع ت ٦٥٤هـ، من أشهر المؤلفات التي أفردت لفواتح السور ومعرفة أسرارها.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الأول

١ - **قررت آيات المقطع** التأكيد على عظمة القرآن الكريم وبيان موقف المشركين منه، وما يستحقون من عذاب جهنم.

يقول الله تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، أن القرآن الذي يتلى عليكم وما فيه من الرسل والرسالات، منزل من الله رب العالمين، نزل به جبريل عليه السلام، وهو الملك المكلف بالرسالات السماوية.

فخبره صادق وحكمه نافذ إلى قيام الساعة، لينذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه، ويبشر به المؤمنين المتبعين له، أنزله بلسان القوم ولغتهم، عربياً فصيحاً ليكون قاطعاً للعذر، مقيماً للحجة، لدفع معذرتهم وحجتهم، فهو وإن كان بلغتهم فليس من جنس كلام البشر.

ويخبر تعالى أن كتب الأولين من الأنبياء كالتوراة والإنجيل بشرت بالنبي ﷺ وبقرآنه، يعلمه المنصفون العدول من علماء بني إسرائيل، كما جاء على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الصف: ٦] وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. ومع هذا فإن الملأ من مشركي مكة، لم يؤمنوا به لمرض في أنفسهم كبراً وعناداً، وحفاظاً على مكانتهم وزعامتهم الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية من ناحية أخرى. فأعرضوا عن القرآن كأن ألسنتهم فيها عجمة اللغة، باتوا معها لا يفقهون آيات نذير القرآن لهم، فأغلظوا القول للقرآن والرسول وأثاروا حولها مرذول الشبهات.

وزعموا منكراً من القول وزوراً أن القرآن شعر، وأن النبي ﷺ (شاعرٌ وقيل ساحر وقيل إفكٌ افتراه أعانه عليه قوم آخرون، وقيل افتعله من تلقاء نفسه عن أساطير الأولين وكتبهم

وقيل أن له تابعاً من الجن أو الشياطين أو الكهنة، يدور في فلكهم حيث داروا فأوقعوه أسيراً لهم، وقيل تارة أنه كذاب وتارة أخرى أنه مجنون، وتارة ثالثة أن بعض آلهتهم أصابته بسوء فأصبح يقول بما لا يعرف مع استحالة نبوته كبشر). فنزه الله سبحانه وتعالى رسوله عن هذه الافتراءات. ولعل في تعددها واضطرابها دليلاً على بطلانها وعدم صحتها، وهذا مكرور في تاريخ دعوة الأنبياء والرسل، ونبي الله ﷺ ليس بدعاً في ذلك. مما يدعم وحدة خطاب رسل الله في الدعوة لله، وتبعاً لمنطق العقل فإن افتراءاتهم هذه من أشنع درجات الكفر المستحق للتوبيخ والتقريع، وبداهة العقل تؤكد أن الرسول ﷺ قامت كل الحجج على مصداقية رسالته.

وتقرر الآيات مشهد تشابه افتراءات أهل الكفر بالرد على رسل الله.وما كان إنكارهم لشبهة تزيلها الحجة، بل هو إنكار عناد ومكابرة، لا يفيقون منه حتى يعاينوا العذاب بأنفسهم، عندئذ يتبدى عليهم الحسرة والندم على ما فات منهم ويتقلبون في النار من حال إلى حال ويقولون نادمين، يا ليتنا أطعنا الله ورسوله ويوم القيامة ليس للظالمين والكافرين من ناصر ولا معين ولا شفيع. ويتمنون لو أن لهم كرةً أخرى في الدنيا ليكونوا من المؤمنين، ولكن هيهات أن يستجاب لهم، ويقال لهم في مشهدٍ توبيخي: ألم نمكنكم في الأرض، ونطيل أعماركم فيها، وجاءكم الرسول يحذركم من هذا العذاب، فذوقوا في جهنم ما وعدتم به من عذاب شديد.

٢- تؤكد الآيات حاجة البشرية إلى رسالة الإسلام، لتربيتهم على منهج الشريعة الربانية وتأديبهم بآدابها بالحكمة والموعظة الحسنة.

٣- إن في قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الرعد: ١] مطابقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء/ ٨].

ولعل المضمر في خطاب هاتين الآيتين يشير على وجه الخصوص أن الناس كانوا منذ آدم عليه السلام أمة واحدة على دين الفطرة السليمة، فانحرفوا عن ديانة التوحيد بتأثير عوامل الجهل والهوى، فبعث الله إليهم الأنبياء والرسل لهدايتهم، وأنزل مع كل رسول كتاباً خاصاً بقومه عدا القرآن الكريم الذي جاء للعالم كافة، فما آمن أكثرهم وهذا شأنهم في دعوات الرسل جميعاً.

وإن في ذلك لآية وهذا ما اقتضته حكمته سبحانه وتعالى ولو شاء سبحانه وتعالى لجعل الناس جميعاً على الإسلام مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩]. ولكن الله عز وجل ترك الخلائق بعد إرسال الرسل مختارين في معتقداتهم حسب ما تمليه عليهم عقولهم، مع قدرته على حملهم على الإسلام قسراً لو شاءت حكمته ذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء/ ٤].

٤- تحمل آيات المقطع تسرية للنبي ﷺ لتثبيت فؤاده في الدعوة والصبر على ما يواجهه من صعاب في ألطف العبارات الربانية وأرقها. وغاية المقطع إثبات نبوته ﷺ ليؤمن أهل مكة عن تبصر وتعقل، ومع ذلك فإن المشركين كذبوا بالكتاب الذي نزل عليهم وأعرضوا عنه واستهزؤوا به. وقد فاتهم أن الله على كل شيء قدير.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي للمقطع الثاني

ويمتد من الآية ٣ إلى الآية ٤

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

القراءات: قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وجعفر ﴿ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ بالرفع والباقون بالجر. وقرأ حمزة والكسائي (يفضّل) بالياء، والباقون (نفضّل) بالنون[1].

بعد أن أشارت آيات المقطع الأول إلى بيان حكمة نزول القرآن بالحق على محمد ﷺ، لهداية

(١) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لأبي محمد مكي القيسي. ٢/ ١٩.



البشرية من ظلمة الجهالة إلى نور التوحيد، انعطفت آيات المقطع الثاني إلى خلق السموات كآية كونية، دالة على وحدانيته وعظمته وكمال قدرته وتدبيره لها على قاعدة من التوازن الرباني.

سموات مرفوعة متداخلة فيما بينها على شكل حلقات دائرية، كحلقات البصلة تماماً فالسماء الأولى محيطة بجميع مجراتها، ثم السماء الثانية محيطة بالأولى كإحاطة السوار بالمعصم وهكذا حتى السابعة بعضها فوق بعض كقطعة واحدة متلاصقة.

يتربع فوقها عرش عظيم وسع كرسيه فيها السموات والأرض(١)* وبهذا تكون السماء الأولى عمداً لما فوقها حتى السابعة رفعت جميعها بغير عمدٍ تحملها، خلاف المألوف في فكر البشر وهندستهم طبقاً لسنن ثابتة أبدعتها قدرة الله عز وجل.

ثم أشارت آيات المقطع أيضاً أن الله عز وجل سخر الشمس والقمر منافع للبشر وللكائنات الحية. وجعل الشمس تدور حول محورها، والقمر يقطع مداره متنقلاً في منازله فتراه على عدة أوجه فتارة هلالاً وتارةً تربيعاً وثالثة نصف دائرة ورابعة دائرة مضيئة وهكذا، وهو التابع الوحيد للأرض ومرتبط بها ارتباطاً وثيقاً بفعل الجذب والمجال المغناطيسي. والقمر يرسل ضياءه على الأرض بفعل انعكاس الأشعة الشمسية عليه من وجه واحد فقط، وليس له غلاف جوي يحيط به كالأرض لهذا تنعدم الحياة على سطحه.

ولم تزل حركة الشمس والقمر على سيرتها الأولى من التسخير، تجريان في فلكيهما حتى قيام الساعة، عندها يطوي الله السموات ويبدلها فتكور الشمس والقمر.

وبعدها انعطفت الآيات لذكر خبر حكمة الله في خلقه للأرض وهنا يقول ابن كثير: {لما اخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه في خلق السموات بغير عمد، شرع في ذكر قدرته

---

(١) * للعلماء فيه اجتهادات عديدة أرجح الأقوال صواباً: أنه شيء عظيم استأثره الله بعلمه، مع وجوب تنزيهه سبحانه وتعالى من الجلوس عليه كالملوك، فالله عز وجل يستحيل عليه المكان كان ولا شيء معه، واستحدث العرش بعد أن لم يكن، والكرسي دال على ملك الله وعظيم سلطانه وتدبيره وتصريفه للكون بما يليق بجلاله ويناسب كماله.



وحكمته للعالم السفلي بعد إحكامه للعالم العلوي}[1].

وتشير الآيات هنا أن الله عز وجل قد بسط الأرض رغم كرويتها ليسهل الانتقال عليها والانتفاع بها مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴿١٩﴾ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ﴿٢٠﴾ ﴾ [نوح: ١٩-٢٠].

ومن عظيم خلقه أنها تظهر للناظر لها من الجو تحت مستوى الفضاء الخارجي مبسوطة مع إنها مكورة. وجعل فيها جبالاً مغروسة في باطن القشرة الأرضية لئلا تميد بالخلق ولتحفظ التوازن عند دوران الأرض مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ﴿٧﴾ ﴾ [النبأ: ٧]. وخصها بالأنهار وعيون الماء التي تعتمد على سقوط المطر اللازمة للكائنات الحية جميعاً، فأخرج من خلال الماء الزروع والثمار والأشجار. وجعل النهار فيها معاشاً للعباد يلتمسون فيه ضروب العمل المختلفة في القطاعات الإنتاجية كافة، والليل سكناً لهم راحة لتجديد النشاط والحيوية استعداداً لليوم التالي.

ثم تحدثت الآيات عن عظمة الله في خلق النبات، فمن كمال قدرته سبحانه وتعالى وبديع صنعه أن جعل الزرع من الجنس الواحد، يسقى بماء واحد ويعيش في تربة واحدة ويتلقى من أشعة الشمس مقداراً واحداً يختلف من نبتة أو شجرة لأخرى، في طعمه ورائحته ولونه، تبعاً لاختلاف خصوبة الأرض، وما بها من أملاح ومعادن ومواد عضوية، مع أنها قد تكون قطعة واحدة أو متلاصقة أو متجاورة. كما جعل من المزروعات أصنافاً منها الحلو والحامض وبين المنزلتين درجات. ومنها الأبيض والأسود والأصفر والأخضر وغير ذلك من الألوان. وليس هذا فحسب فقد تزرع في الأرض الواحدة مسميات متعددة من المزروعات، كالخضراوات والفواكه، والبقوليات، والدرنيات، وغير ذلك ويفضل بعضها على بعض في الأكل. ويعزى التفسير العلمي في ذلك إلى ماهية التربة، وهي تلك الطبقة الرقيقة التي يتراوح سمكها بين عدة

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير، للشيخ محمد علي الصابوني:٢/ ٢٦٩.
للمزيد حول خلق السموات والأرض، انظر، بداية خلق الكون، لابن كثير: ص٨٧.



سنتيمترات إلى عدة أمتار، تتكون من حبيبات معدنية مختلفة المصدر والحجم والتركيب ومن الماء ومن الهواء ومن المواد العضوية المتحللة.

إن نظرة تأملية شاملة لخصائص التربة الطبيعية والكيميائية والحيوية تدل على قدرة الله عز وجل في خلق النبات وتكوينه وصفاته وأشكاله وألوانه وطعومه، بالرغم من أنها تسقى بماء واحد تبعاً لاختلاف قوام التربة في تكوينها وحرارتها ورطوبتها وحموضتها ولونها وما بها من مواد عضوية ومعدنية وخصوبتها ومصدر مكوناتها،فسبحان الله القادر على كل شيء[1].

وينتهي المقطع الثاني بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: ٣]. وفيها دعوة للبشر بوجوب النظر والتأمل في قدرة الله على الخلق وأن الذي بدأ الخلق قادر على إعادته، فإذا انتفعنا في آيات الله الكونية التي سخرها لنا انتصرنا بالنور على الظلمات والهدى على الضلال، وسيجزي الله عز وجل الناس بما هم أهل له يوم القيامة، وفي ذلك عبرة لأولي الألباب والنهى والأبصار الذين يعقلون فيتدبرون، وتهديهم عقولهم إلى جادة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الثاني

تضمنت آيات المقطع عدداً من الشواهد الدالة على قدرة الله تعالى ووحدانيته في هذا الكون العجيب منها:

أ- بيان الحكمة الربانية من حركة الشمس ومنازل القمر:

حدد الله تعالى لكل مجرةٍ في هذا الكون مدارها الخاص بها لا تتعداه إلى غيره. كما حدد لكل مجموعة شمسية في كل مجرة مدارها الثابت مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠]. مما يحفظ للكون توازنه وانسجامه وقد خص الله في السورة ذكر الشمس والقمر والأرض.

(١) الظواهر الفلكية والجغرافية في القرآن الكريم والعلم الحديث، د.عطية محمد عطية: ص٢٧٠.



والشمس في عرف علماء الفلك نجم فوق القزمي بقليل قياساً مع النجوم العملاقة، تسير في مدار حول محورها لا تتجاوزه، وسوف تستمر في حركتها إلى يوم القيامة حيث تنتهي وظيفتها، وهذا مما استأثر الله بعلمه وعندئذ يتوقف سيرها وتسكن حركتها وتنتهي طاقتها إيذانا بنهاية الحياة الدنيا. وهي مركز المجموعة الشمسية التابعة لمجرة درب التبانة، تدور الكواكب التابعة لها حولها بفعل الجاذبية وهي «عطارد والزهرة والأرض والمريخ والمشتري وزحل وأورانوس ونبتون وبلوتو وكوكب X»، وهي مصدر الحياة على سطح الأرض للكائنات الحية ولولاها لانعدمت الحياة على سطح الأرض.

كما قدر الله عز وجل للقمر[1]* السير في ثمانية وعشرين منزلاً ينزل في كل ليلة منزلاً يتخطاه لأجل ذلك يتم معرفة الشهور والأيام وتحديد بداية ونهاية الأشهر القمرية. ففي الليلة الواحدة يكون القمر ضئيلاً قليل النور ثم يزداد نوره حتى يكتمل في الليلة الرابعة عشرة. ويأخذ بعدها في التناقص بشكل تدريجي حتى إذا كان في آخر منازله ظهر كغصن النخلة اليابس في دقته وتقوسه واصفراره بسبب وقوع الأرض بينه وبين الشمس، مصدقاً بقوله تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يس/ ٣٩].

ب- بيان الحكمة الربانية من خلق الأرض وتعاقب الليل والنهار.

لقد انتظم في القرآن الكريم عدة آيات تتحدث عن الأرض وما عليها لتلفت أنظار الناس إلى التأمل في قدرة الله تعالى على الخلق، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿ قُلْ

---

(١) * القمر جرم سماوي يستمد ضوءه من الشمس، وللأرض قمر واحد يدور حولها كل ٢٩,٥٣ يوماً يطلق عليها اسم الشهر القمري ولكواكب النظام الشمسي جميعها أقمار تدور حولها عدا كوكبي عطارد والزهرة، فللمريخ قمران وللمشتري ثلاثة وستون قمراً ولزحل ستة وأربعون قمراً ولكوكب أورانوس سبعة وعشرون قمراً ونبتون ثلاثة عشرة قمراً ولكوكب بلوتو قمراً واحداً. لكل منها خصائص فيزيائية، فسبحان القائل: ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ يس/ ٤٠. للمزيد انظر: منشورات معهد الفلك وعلوم الفضاء/ جامعة آل البيت لعام ٢٠٠٥.

سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ﴾ [العنكبوت: ٢٠] وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾[يونس: ١١] اختارها الله عز وجل لتكون الكوكب الذي يفيض بالخير والبركة. أعطيت من الخصائص ما حرمت منه الكواكب الأخرى، اختارها الله عز وجل لآدم وذريته من بعده، وأرسل عليها الأنبياء والرسل فكانت الكوكب الأمثل في الخلق. مرت بحقب وعصور متطاولة في أزمانها حتى أصبحت صالحة للحياة عليها. ثلاثة أرباع مساحتها ماء، تبعد عن الشمس حوالي خمسين ومائة مليون كيلو متر تقريباً، تصل إليها أشعة الشمس في ثماني دقائق ضوئية. لها دورتان الأولى حول نفسها كل أربع وعشرين ساعة ينشأ عنها تعاقب الليل والنهار، وبمقتضى حكمته سبحانه وتعالى يولج الليل في النهار والنهار في الليل، ودورة ثانية حول الشمس بشكل إهليلجي في فلك محدد مرسوم لها من رب العالمين، بسرعة تسعة وعشرين كيلومتر في الثانية وتكتمل دورتها حول الشمس في ثلاثمائة وأربعة وستين يوماً تقريباً وست ساعات وبضع دقائق تقريباً. ينتج عنها الفصول الأربعة.

مجموع عناصرها بلغت مؤخراً مائة وستة وعشرين عنصراً وهذه العناصر في مجملها مكون من الذرة وهي مخلوقات الله ومنها تكون كل شيء في الكون بإرادة الله ومشيئته.

لأجل هذا كانت مهيأة لاستقبال الحياة على سطحها دون غيرها من الكواكب. ومن هنا جاء استخلاف الله عز وجل للإنسان عليها، وكان آدم وحواء أول من استوطنها ومن ذريتهما توالدت البشرية وفيها الحياة الدنيا بوابة الحياة الآخرة الأبدية. وعلى خلفية ما تقدم فإن الأرض نعمة من نعم الله تعالى جعلها مذللة ومسخرة للإنسان ليقيم فيها شرع الله على مراده سبحانه وتعالى.

جـ- تحرض آيات المقطع الثاني على وجوب النظر والتأمل والاعتبار بدلالات عظمة الله تعالى في خلق الكون، بصورة تتسم بدقة مثيرة للدهشة. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾ [الرحمن: ٧]وقوله تعالى:﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ ﴾ [فصلت: ٥٣].

إن فهم الصيرورة الطبيعية لنشأة الكون يفرض علينا الخضوع لمراد الله، فعندما يتأمل الإنسان الكون وما فيه من سموات ومجرات وشموس وكواكب وأقمار، يدرك بعقله أن لهذا الكون خالقاً أحكم نظامه على قاعدة من التوازن الدقيق، يتحكم في كل حركة من حركاته بعلمه وإرادته بصورة متناسقة متكاملة وفق النظام البديع الذي أوجده فيها، وقد حاول العلماء إيضاح التفسير العلمي الذي يكمن وراء هذا التوازن الكوني وأرجعوه إلى القوانين الفيزيائية التالية[1]:

أ-القوة التجاذبية وهي المسؤولة عن تماسك الكون في فلكه ومداره.

ب-القوة الكهرومغناطيسية وهي المسؤولة عن بقاء الإلكترونات في مدارها وتعمل على جذب الإلكترونات والبروتونات ضمن الذرة الواحدة نحو بعضها البعض. والقوتان أ و ب تقومان بالتحكم في ذرات المادة.

جـ- القوة النووية الشديدة: وهي المسؤولة عن بقاء البروتونات والنيوترونات مع بعضها البعض في النواة دون أن تتطاير بعيداً.

د- القوة النووية الضعيفة وتمثل حزام أمان الذرة وهي المسؤولة عن التوازن في النيوترون والبروتون داخل النواة، فتحول دون انبعاث أشعة ضارة منها خلاف ما هو عليه الحال في التفجير النووي.

هـ- القوة الناشئة عن سرعة دوران المجرات وما بداخلها من مجموعات شمسية ونجوم حيث تحافظ كل مجرة ونجم وكوكب على مسار خاص.

---

(١) الظواهر الفلكية والجغرافية في القرآن الكريم والعلم الحديث، د.عطية محمد عطية: ص٣١٠.
وللمزيد انظر: الموقع الإلكتروني لكل من:
- موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية.
- د.زغلول النجار، موقع الإعجاز العلمي في القرآن.



ومما تجدر الإشارة إليه أن أي زيادة أو نقصان في هذه القوى يؤدي إلى اختلال توازنها مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾ [افاطر/ ٤١].

د- تقرر الآيات التأكيد على الثنائية الزوجية لكل خلق الله: فالزوجية لغةً كل شيء معه آخر يقابله من جنسه. لو أمعنت النظر في خلق الله فإنك ترى الزوجية بارزة في الكائنات الحية وغير الحية.

فالنباتات فيها الذكر والأنثى إما متصلة أو منفصلة، كذلك أيضاً في عالم الحيوان من وحيد الخلية إلى متعدد الخلية إلى الثديات، كما أن الزوجية واضحة في الإنسان إذ يشار إلى الذكورة Y والى الأنوثة X [(١)].

وتتكون الذرة أيضاً من الإلكترون السالب والبروتون الموجب والكهرباء فيها السالب والموجب.

يتضح مما تقدم أن نظام الزوجية قاعدة الخلق في الكون كله فيما نعلمه من خلق الله. وفيما يلي ذكر الآيات القرآنية التي تناولت الزوجية في الكون:

قال تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[الذاريات: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ [طه: ٥٣] وقال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يس: ٣٦] وقال تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾[الرعد: ٣] وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾[الأعراف: ١٨٩] وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ [فاطر: ١١]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ [النساء: ١] وقال تعالى:

---

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، د.محمد علي الباز: ص١٦٤.



﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾[الزمر: ٦] وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا ﴾[الروم: ٢١].

وتأسيساً على ما تقدم نرى تفرد الله عز وجل عما خلق فهو واحد أحد، كل ما سواه مخلوق على الزوجية، وسبحانه عز وجل لا أول لوجوده، كان ولا شيء معه وهو الأول والآخر ومع هذا فان أكثر الناس لا يؤمنون بسبب جهالتهم وانقيادهم لأهوائهم وشهواتهم.

هـ- تؤكد الآيات أن الإنسان الذي منحه الله عز وجل العقل وحرية الإرادة والاختيار والقدرة على التمييز بين الخير والشر والحق والباطل والاستعداد للخير والهداية، قادر على إدراك وجود الله تعالى من خلال مشاهدته للظواهر الكونية المتعددة، كما أن الإنسان العاقل يستخدم عقله ويعمل تفكيره فيما حوله من المخلوقات لأجل توظيف العلم في الدعوة للإسلام، لمقارعة الغرب باللغة التي يفهمونها.

و- من الدلائل المذكورة في آيات هذا المقطع الاستدلال بكروية الأرض، وفي هذا الصدد يعلق **الفخر الرازي** قائلاً: [ثبت بالدلائل أن الأرض كرة، وأن الكرة إذا كانت في غاية الكبر كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح لقوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النازعات: ٣٠] [1]. وفي هذا سبق علمي للإمام الرازي سبق به علماء الغرب بقرون.

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي، ٥٧/ ٥.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي للمقطع الثالث

وتمتد من الآية ٥ إلى الآية ١١

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾

القراءات:

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحفص: (وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان) بالرفع والباقون بالجر.

وقرأ حمزة والكسائي: (يفضل) بالياء والباقون: (نفضل) بالنون وقرأ ابن كثير: (المتعالي) بإثبات الياء[1].

يخبر تعالى نبيه محمداً ﷺ من باب التسرية أن لا تعجب من تكذيب أهل مكة لما نزل عليك من الحق. وسوء ظنهم في دعوتك ناجم عن كفرهم واضطراب تفكيرهم، بل العجيب العاجب والعجب العجاب الحقيق بالغرابة والدهشة، إنكارهم للبعث ورؤيتهم فيه أنه محال وفي غاية الامتناع لقياسهم قدرة الخالق بقدرة المخلوق، فبعد أن رأوه ممتنعاً في قدرتهم ظنوا أنه

---

(١) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لأبي محمد مكي القيسي: ٢/ ٢١.

ممتنع على قدرة الخالق وتناسوا أن الله عز وجل على كل شيء قدير، خلقهم أول مرة ولم يكونوا شيئاً فزعمهم هذا من مستغرب العجائب، لأنهم دعوا إلى الإيمان فلم يهتدوا رغم وقوفهم على العديد من الدلالات على وحدانيته سبحانه وتعالى.

لقد أغلقوا عقولهم وقيدوها بالضلال وجزاؤهم يوم القيامة أغلال في أعناقهم يقادون فيها إلى نار جهنم خالدين فيها[1]. ثم وقع العجب منهم أيضاً أنهم يستعجلونك يا محمد أن تأتيهم بعذاب الله بدلاً من أن يطلبوا هدايته ورحمته، ولقد مضت عقوبات الله على أمثالهم ممن أهلكهم الله من الماضين بذنوبهم، وهذا مشاهد ومكرور في تاريخ دعوة الأنبياء والرسل مع أقوالهم، ورغم هذا فإن ربك عفو غفور لمن تاب منهم شديد في عذابه لمن اتبع خطوات الشيطان في ضلاله. ثم يخبر تعالى عن جهالة من نزل فيهم الكتاب الحق من أهل مكة، الذين وُعظوا غير مرةٍ فلم يتعظوا، وأقيمت عليهم الحجة بالبراهين فلم يستجيبوا لها، بل جاهروا بالإنكار وتأولوا حلم الله فيهم على غير مراده سبحانه وتعالى في عدم معاجلتهم بالعذاب، وبدا لهم أنهم بهذا يحسنون صنعاً حتى اجترؤوا على رسوله وطالبوه بآية قاهرة على مصداقية دعوته فإن لم يفعل فعليه أن يستعجل بعذابهم. وتمضي آيات المقطع حتى تنعطف إلى بيان إحاطة علم الله تعالى بأحوال الناس كلها الخفي منها والظاهر، فلا يخفى عليه سبحانه وتعالى شيء من حال خلقه حتى ما يخفيه الآحاد منهم في صورة حديث النفس، فالحق تبارك وتعالى أقرب إلى عبده من وريده الذي يغذي جسمه بالدم، وورد في الآيات على وجه التخصيص علم الله الأزلي بما في الأرحام من ذكر وأنثى، قبل تلقيح البويضة بالحيوان المنوي، وليس هذا فحسب، بل وسع علمه إلى مدة حمل كل جنين ما اكتمل منه وما نزل دون ذلك مقدر في مدته لا يزيد ولا ينقص. وهذا بالكلية من دلائل قدرة الله عز وجل في الخلق الذي استأثره بعلمه. وهذا ما يعجز عنه أهل الاختصاص في علوم الطب ممن تنحصر معرفتهم فيما ذكر آنفاً في القواعد الطبية العامة

---

(١) تيسير التفسير، الشيخ إبراهيم القطان: ٢/ ٥٤١، وتيسير الكريم الرحمن، للشيخ عبد الرحمن السعدي: ص٣٨٩.

التي تتحصل لصاحبها بالعلم والدراسة والدراية من خلال التعامل مع الأجهزة، فيعلمون جنس الجنين بعد شهره الرابع. ثم تسوق آيات المقطع دليلاً آخر على قدرة الله تعالى الفعال لما يريد المتصرف في خلقه بما يشاء لا معقب لحكمه. فقد وكل سبحانه وتعالى للإنسان ملكين يكتبان أعماله من قول أو فعل، فلا يتلفظ بكلمة ولا يقوم بعمل إلا والملك ملازم له يراقبه ويدون مخرجات أعماله وأقواله ونظراته من خير أو شر في صحيفة أعماله لتقدم إليه يوم القيامة للحساب. فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه. وفي ذكره تعالى للآية الأخيرة من المقطع الثالث وردت لطيفة قرآنية، تومئ أن الله عز وجل لا يصوب ما اعوج من خلقه في شؤونهم ونظم حياتهم حتى يلتزموا جادة الإيمان، فإرادة التغيير نحو الخير تبدأ من الإنسان، فإن فعل بحزم واقتدار فالله يكلأه برعايته وعنايته.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الثالث

١- تقرر آيات المقطع أركان الإيمان الستة وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر.

٢- تقدم آيات المقطع صورة أولية لبعض المشاهد التي تتصل باليوم الآخر كالبعث والحشر والنشور والعرض والحساب والشفاعة والميزان والصراط والجنة والنار.

واليوم الآخر: هو نهاية الحياة الدنيا وبداية الحياة الآخرة، وفيه يأمر الله تعالى ملكاً أن ينفخ في الصور حين يأذن بقيام الساعة، فتتشقق السموات وتتناثر النجوم وتزول الجبال ففي هذا اليوم يبعث الله تعالى فيه الناس من قبورهم بأجسامهم وأرواحهم ويحشرهم ليحاسبهم على أعمالهم، فيكافئ المؤمن بدخول الجنة ويجازي الكافر بدخول نار جهنم، والإيمان به ضروري لاستقامة الحياة الدنيا حتى يبادر المسيء إلى التوبة والكافر إلى الإيمان مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]. ويستفاد من نبأ اليوم الآخر أن حياة الإنسان لا تنتهي بالموت، بل سيبعث الله الخلائق يوم القيامة للحساب فيبعث الإنسان على ما قبض عليه من معصية أو طاعة.

٣- تشير الآيات إلى وجوب الاتعاظ بمصير الأمم السابقة وتجنب أسباب هلاكها وتعذيبها، والعاقل الحصيف هو الذي يستفيد من أخبارهم وأحوالهم، فيقبل على الله تعالى بالمداومة على العبادات والدعوة إليه، والاجتهاد في الدعوة إلى رسالة الإسلام بحسن المعاملة والحكمة والموعظة الحسنة.

٤- تهدف الآيات إلى إيضاح حكمة عدم تلبية الله عز وجل لمطالب المشركين في رؤية معجزات مادية قاهرة لتعنتهم وشططهم، مع قدرته سبحانه وتعالى على تحقيق ما أرادوه.

وقد كان الله عز وجل في الرسالات السابقة يستجيب لطلب بعض المعجزات، فيجريها على أيدي أنبيائه ورسله للدلالة على صدق الدعوة، أما إذا كان طلب المعجزة فيه سوء قصد ورغبة في التفكه فإنه سبحانه وتعالى لا يستجيب لطلبهم، ولا يلتفت إليهم لأنهم وطنوا أنفسهم على الجحود والعناد مهما رأوا من آيات وبراهين، فسبحانه يخلق من المعجزات ما يشاء بقدرته ويختار بحكمته ما يشاء منها، وليس في مقدور الخلق ولا من حقهم أن يختاروا على الله ما يشاؤون. وكل نبي يدعو قومه بما يعطيه الله من الآيات، لا بما يقترح القوم على أنبيائهم حسب مراد كفرهم.

٥- تؤكد الآيات أن العقيدة ليست من الأمور التي ينبغي فيها تقليد الآباء الأولين من غير دليل أو برهان شأن الكافرين فهم صمٌّ عن سماع دعوة الحق، بكمٌ عن إجابة رسول الله، عميٌ عن رؤية آيات الله الباهرة الدالة على عظمته في الكون. كما لا مجاملة في العقيدة لأحدٍ ولو كان من ذوي القربى، فالرابطة هي رابطة العقيدة في الله وليست قرابة النسب.

٦- كشفت الآيات أن حكمته سبحانه وتعالى اقتضت أن لا يصلح لعباده المؤمنين إلا الشدة والرخاء والقبض والبسط، فلو بسط لهم على الدوام لطغوا وتواكلوا، ولم يحصل المقصود لهم من مشاق الدعوة والصبر عليها والأخذ بأسبابها.

لهذا كان يمنحهم على الدوام بالسراء والضراء، لأجل أن يتقربوا إليه أكثر بالدعاء والاستغاثة والاعتصام بحبله. وليعلم بالبلاء والمحنة منازلهم على حقيقتها، فيظهر

بالامتحان أهل الإيمان، ليميزهم عن غيرهم ليختار من يصلح لموالاته من أهل العقيدة الراسخة أصحاب الثبات على المبدأ ومن لا يصلح، لهذا جعل سبحانه وتعالى الحياة دولاً وجولاتٍ بين أوليائه وأعدائه، والعاقبة وإن طالت طريقها فهي حصر للمؤمنين الصادقين الصابرين بسبب فضلهم وعدم استوائهم مع غيرهم في نصرة الله.

٧- أبانت الآيات أن حكمة الله تعالى شاءت في دعوات الأنبياء والرسل أن تكون واحدة في فلسفة تكاملها وجوهرها وأصولها وعقائدها ومبادئها وغاياتها وتناسقها فيما بينها، وتكامل السابق منها باللاحق حتى كان إتمام نضجها برسالة محمد ﷺ، من هنا برزت عظمة الرسالة ومنزلة القرآن فيها.

٨- إن في قوله تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ دليلاً على أن دعوة جميع الرسل لتوحيد الله ثم عبادته دعوة واحدة، أما شرائعهم فمختلفة، والشريعة ما أنزله الله تعالى للناس من أحكام لتنظيم حياتهم على لسان رسله الكرام، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨]. ويستفاد من ذلك أن الشرائع التي تقدمت رسالة محمد ﷺ كانت محصورة في أقوام معينة وأزمان محدودة، في حين كانت رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين عالمية لصلاحيتها لكل زمان ومكان مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[سبأ: ٢٨].

٩- يستفاد من دروس المقطع أن من أدبيات منهجية البحث العلمي في الإسلام، أن يتناول الباحث المنصف فكر من تقدمه بأسلوب جديد يقوم على قراءة تحليلية نقدية، بحيث لا يجعل للمتقدم سلطاناً عليه يحول دون مخالفته أو معارضته في قضية علمية ثبت خطأ المتقدم فيها، وألا يتهيب من اجتهادات من سبقوه وينظر إليها وكأنها فوق مستوى النقد الموضوعي، وخاصة عند الاجتهادات الخاطئة في تفسير بعض الآيات الكونية، بسبب إدراك جهل الأوائل للمدلول العلمي للآية المراد تفسيرها، وليس أدل على ذلك من تعدد أقوال بعض العلماء في مدة الحمل (أقله وأكثره) عند تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ

﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ۝٨﴾ [الرعد:٨].

ودليله اضطراب أقوال بعض العلماء حيث بلغت مدة الحمل عندهم في حالات خاصة من سنتين إلى خمس سنوات[1]. وقد أورد **الفخر الرازي** في تفسيره: أن مدة الحمل قد تصل إلى سنتين عند أبي حنيفة وإلى أربعة عند الشافعي وإلى خمس عند مالك[2].

وقد قلّبت وجوه الرأي فيها وفي غرابة طرحها واستفسرت غير مرةٍ من أهل الاختصاص في كليات الطب عن درجة مصداقيتها علمياً على ضوء معارف العصر، فانتهى الرأي إلى عدم إقرار مثل هذه الاجتهادات لمخالفتها الفطرة وعقلانية الإسلام وهو أمر ينكره الطب الحديث[3].

---

(١) للمزيد انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٢٨٥-٢٨٩ وأضواء البيان في إيضاح القرآن. للشيخ الشنقيطي: ٢/ ٢٢٥.

(٢) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ١٥.

(٣) للمزيد: انظر خلق الإنسان بين الطب والقرآن، د.محمد علي الباز: ص١٠.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي للمقطع الرابع

ويمتد من الآية ١٢ إلى الآية ١٣

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾

يستمر السياق القرآني لهذا المقطع في بيان قدرة الله الكونية فدلائل قدرته عز وجل بارزة للناس كافة. فهو الذي يرسل السحاب[1]* الثقال وما يحمله من نافع الغيث للكائنات الحية جميعاً.

وحكمة تخصيص البرق هنا في الآية الكريمة ورد لأحد أمرين:

- إما رجاء الخير منه لوفرة المطر واعتدال سقوطه معاً فيتأتى عنه خصب الزرع والضرع وكلاهما ضروري لحياة الإنسان الذي يعيش عليهما وتنعدم حياته من غيرهما، وهذا داخل في باب نعمة الله وفضله على عباده.

- أو ذهاب بأبصار الناس لشدة بريقه حين يضيء جانباً من قبة السماء، كما في الصواعق الحارقة والأمطار الشديدة المدمرة وما ينجم عنها من السيول الجارفة، وهذا مندرج في باب الخوف من نقمة الله على بعض عباده. حين يشاء صرف ما ينفعهم منها وابتلاؤهم بضرها من انجراف وتدمير وحرق فيصيب بها من يريد، لأجل ذلك كان من هديه ﷺ عند سماعه للرعد يقول (سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثم يقول إن هذا لوعيد لأهل الأرض شديد)[2]. وتسبيح الرعد في الحديث من باب المجاز خضوعٌ وحمدٌ وشكر لخالقه، إذ

---

(١) * السحاب اسم جنس والواحدة سحابة والثقال جمع ثقيلة، انظر: التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٢٢.

(٢) موطأ مالك: باب القول إذا سمعت الرعد، حديث رقم ١٥٧٦.

أودع سبحانه وتعالى في كل شيء من خلقه صفاته الخاصة وتسبيحه الخاص، الذي يؤهله لأداء وظيفته التي خلق لها على مراد الله منه، وإن في ذلك لعبرة لذوي العقول السليمة المتبصرة وفي كلتا الحالتين من إيجاب وسلب ونعمة ونقمة، فإن البرق والرعد والأمطار[1]** والصواعق والأعاصير، دالة على جبروت الله وتدبيره للكون بإرادته، سخرها كيف يشاء ليصيب بها من يشاء بالقدر المحدد الذي يريده عز وجل في وقته وزمانه.

والحق تبارك وتعالى لا يبدل ما بقوم من نعمة إلى نقمة إلا إذا كفروا بتلك النعمة واستبدلوها بالمعاصي، لأجل ذلك يجزي كل إنسان بما يستحق إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

فالنعمة والخير أو النقمة والشر الذي يصيب الإنسان مقدر في سنن الله، فالابتلاء والنعمة سنة ربانية لها صور متعددة لا تتوقف في حياة الإنسان، وإن طريق الجنة والتمتع بنعيمها لا يتحقق إلا بالإيمان وطاعة الله ورسوله، وهذا من قواعد التوحيد الذي دعت السورة إليه.

وغاية آيات هذا المقطع أن يتعظ أهل مكة بما نزل بالماضين من أهل الكفر الذين أنكروا نبوة رسلهم، من صور الهلاك التي حاقت بهم كالصواعق والأعاصير والأمطار المدمرة أو القحط وانحباس المطر والزلازل والخسف ونحو ذلك.

ليكون إيمانهم بالقرآن الحق ونبوة رسولهم ﷺ عن تدبر وتعقل وفصاحة منهم، بيد أنهم عدلوا عن الهدى إلى الضلال، فلم يتعظوا ولم يعتبروا، وكانوا كالأنعام أو أضل صمٌ بكمٌ عميٌ لا يبصرون ولا يتفهمون، غلبت عليهم شقوتهم فعبدوا غير الله، وشمروا ساعد العداوة والبغضاء لرسول الله الذي بعثه الله لهدايتهم، وتناسوا أنهم عاجزون عن أن يقدموا نفعاً لأنفسهم أو يوقعوا ضراً بأحدٍ ممن ناصبوه العداء من المؤمنين، إلا في حدود ما قدره الله تعالى، فالنفع والضر بيده سبحانه وتعالى مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ

(١) ** من غريب شطحات الصوفية المنكرة قولهم: أن الرعد صعقات الملائكة والبرق زفرات أفئدتهم والمطر بكاؤهم، انظر: التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٢٣.



﴿لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ [النمل: ٥٠-٥١] إن في ذلك دلائل لقوم ينتفعون بها يشاهدون ويسمعون، فالله عز وجل يعاقب الكافرين في الدنيا ببعض أعمالهم لعلهم يرجعون عن المعاصي والكفر.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الرابع

١. تقرر آيات المقطع حقيقة علمية لم تكن معروفة عند نزول القرآن الكريم، وهي حمل الرياح لبخار الماء الناجم عن تسخين الشمس للمسطحات المائية، في دورة هيدرولوجية للماء مبشرة برحمته لما تحمله من السحب الممطرة، يبسطها الله في السماء كيف يشاء هنا وهناك في قلة أو كثرة، وبين المنزلين درجات في الكمية أو القحط يسوق الريح سحاباً يضم بعضه إلى بعض ويجعله متراكماً على شكل تضاريس جبلية، فترى المطر يخرج من خلال السحاب الثقال، فينزل على قوم فينفعهم وعلى قوم آخرين فيضرهم، وقد يحبسه عن آخرين تبعاً لإرادته عز وجل.

وتوجه الآيات الأنظار إلى التفسير العلمي لنشأة السحب والبرق[1]* والرعد والأعاصير. حيث ينشأ البرق بفعل التفريغ الكهربي بين منطقتين مختلفتي الشحنة داخل السحابة الواحدة، أو عند التقاء سحابتين أحدهما موجبة وأخرى سالبة، فيتولد البرق على هيئة شرارات كهربائية وومضات تنتشر في حيز كبير من السماء، وقد يتلاحق حدوث البرق في سلسلة تكاد تكون متصلة قد تصل أحياناً إلى نيف وثلاثين تفريغاً في الدقيقة الواحدة.

ويحصل التفريغ الكهربي لظاهرة البرق في محيطها الحيوي من السماء بين السحابة والهواء المجاور، وفي حالات أخرى قد يطال هذا التفريغ الكهربي المنطقة الممتدة من السحابة إلى

---

(١) * يعتقد علماء الأرصاد الجوية أن الجليد عامل ضروري في ظاهرة البرق التي لا تحدث إلا عندما يتكون الجليد في الطبقات العليا من السحب الرعدية بانخفاض الحرارة، وقد بينت التجارب أن الماء عندما يتجمد يصبح الجليد سالب الشحنة كهربائياً والماء موجب الشحنة، لهذا توزع الشحنة في السحابة الممطرة كشحنات موجبة في أعلاها وأسفلها وشحنات سالبة في وسطها، وتسمى البنية الكهربائية للسحابة ثنائية القطب.

الأرض، وتعرف عندئذ بالصاعقة يكون لها تداعيات خطيرة على الإنسان والحيوان والنبات والتجمعات السكانية، والمرتفع من البنايات الشاهقة، وللوقاية منها تركب مانعات الصواعق احترازاً من أي مكروه[١]. ونظراً للتباين بين سرعة الضوء وسرعة الصوت فإننا نرى البرق أولاً يليه صوت الرعد.

وبفعل البرق يتمدد الهواء بسبب الارتفاع المفاجئ في حرارته بصورة فجائية فيندفع الهواء المجاور ليحل محله محدثاً أصواتاً رعدية شديدة متلاحقة مصحوبة بالمطر والبرد والثلج الغزير قد ينتج عنها أحياناً الفيضانات المدمرة والانزلاقات الطينية المهلكة قد تصيب فيها بعض من غيروا ما بأنفسهم، حيث اقتضت حكمته ألا يمهلهم لعلمه أن لا خير في إمهالهم فاستحقوا هذا العذاب.

٢- تؤكد آيات المقطع على بيان دور الرياح في حمل بخار الماء من المسطحات المائية[٢]* ورفعه إلى مناطق الجو العليا من الطبقة الأولى من طبقات الغلاف الجوي، حيث يتكاثف بخار الماء على شكل سحب منبسطة أو متراكمة ثم يسقط مطراً حيث شاء الله بعد تلقيح الرياح له[٣]، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾[الروم: ٤٨] وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ

(١) مفاهيم أساسية في العلوم، د.عطية محمد عطية: ص٥١.

(٢) * يقرر العلماء أن الكمية الكلية للمياه في الكرة الأرضية ثابتة لم تتغير منذ خلقت الأرض حسب قانون حفظ الكتلة، والحجم الكلي للمياه يساوي ٤١٠٠,٠٠٠,٠٠٠كلم³، تشكل ثلثي مساحة الكرة الأرضية وتوزع المياه بالنسب التالية: ▪ ٩٥٪-٩٧٪ مياه مالحة. ▪ ٣٪ - ٥٪ مياه عذبة موزعة على النحو التالي: ● ٢٢٪ مياه جوفية، ●٧٧٪ كتل جليدية في القطبين، ● ١٪ تشكل دورة المياه في الطبيعة ومياه الأنهار والبحيرات.

(٣) الظواهر الفلكية والجغرافية في القرآن الكريم والعلم الحديث، د. عطية محمد عطية، ص٢١٠. ومفاهيم أساسية في العلوم، د.عطية محمد عطية، ص٧٥.



ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ ﴾ [فاطر: ٩] وقوله تعالى: ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤] وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٧] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٨] وقوله تعالى: ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الجاثية: ٥] وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ [النور: ٤٣] وقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ ﴾ [النبأ: ١٤]. ويراد بالمعصِراتِ هنا السحب وما ينشأ عنها من البرق والرعد والأمطار.

ومما تجدر ملاحظته هنا أن مسميات الرياح المحملة بالأمطار الواردة في القرآن الكريم هي:

(الذاريات) التي تنشئ السحاب أولاً، ثم (الحاملات) وهي الرياح التي تحمل نوايات حب المطر بعد تكاثفه، ثم (الجاريات) وهي الرياح التي تجري بالسحب بعد حملها إلى حيث شاء الله، و(المقسمات) وهي الرياح التي تفرق الأمطار على أقطار الأرض حسب مشيئته سبحانه وتعالى. و(الناشرات) التي تنشر المطر فوق المزروعات والأراضي القاحلة لتعينها على الإنبات و(الفارقات) والتي تفرق السحب في الفضاء.[1]

وفي قراءة تأويلية للآية الأخيرة نلحظ تكرار (ثم) التي تفيد الترتيب والتعقيب والتراخي في عملية تداخل بخار الماء بعضه ببعض وتشكل السحب. كما نلحظ حرف العطف في كلمة (فترى) التي تفيد الترتيب والتعقيب دون التراخي يفصل بينها فترة زمنية استعداداً لنزول المطر على مراد الله في مكانه وزمانه وكميته، وهذا سر من أسرار المطر كشفه العلم حديثاً، صرح

---

(١) المرجع السابق: ص٢٥٦.

به القرآن قبل أربعة عشر قرناً ونيفاً.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن الله عز وجل قد شبه إنزال الغيث على الأرض الميتة فيحييها بعد موتها بيوم البعث، حيث يبعث الناس من قبورهم، في دلالة على قدرة الله في الخلق والتدبير وإن في ذلك لآية.

٣- إن مصطلح السحاب الثقال الواردة في الآية قد تحتمل علمياً أحد الاجتهادات التالية:

أ- السحب الممطرة بكل مسمياتها وأشكالها التي تنشأ فوق المسطحات المائية، ويستثنى منها السحب الصيفية غير الممطرة ذات الارتفاع الشاهق التي تبدو على شكل القطن أو الريش في لونها الأبيض.

ب- السحب قطبية المنشأ الداكنة اللون التي تتحرك في شكل متتابع على شكل موجات متلاحقة، تدفعها الرياح مع المنخفضات الجوية وتكون ثقيلة في حمولتها للمياه والبرد والثلج، وتمتد لمساحات هائلة جداً قد تغطي دولاً كاملة في مساحتها، تكون مصحوبة بالبرق والرعد والعواصف.

جـ- السحب التي تنشأ في المناطق الاستوائية قرب خط الاستواء، حيث تكون مثقلة بالأمطار المصحوبة بالبرق والرعد والعواصف.

والسحب بارتفاعاتها المختلفة يمكن تقسيمها إلى فئتين:

- مجموعة السحب السمحاقية وهي ذات هطول خفيف.

- مجموعة السحب الركامية وهي سميكة وتظهر على شكل طبقات وجبال متموجة التضاريس، وتكون ثقيلة في حمولتها للماء والبرد والثلج، وغالباً ما تميل إلى اللون القاتم الشديد لشدة كثافتها، وتكون مصحوبة بعواصف رعدية، من أشهر أنواعها سحب المزن الركامي وسحب المزن الطبقي. وللسحب أنواع كثيرة بعضها يهطل منه المطر والبعض الآخر يهطل منه

البرد والثلج، ولكل ميزاته الخاصة. وتنقسم في ارتفاعها إلى ثلاثة أقسام:

- سحب عالية تمتد على ارتفاعات قد تصل من ستة كيلومترات إلى اثني عشر كيلومتراً.
- سحب متوسطة تمتد على ارتفاع بين كيلومترين إلى ستة كيلومترات.
- سحب منخفضة وتصل في ارتفاعها إلى أقل من كيلومترين.

وتتكون السحب بوجه عام من بخار الماء المتصاعد من المسطحات المائية ومن نتح النباتات، حيث يتكاثف في طبقات الجو العليا حول نوايات الغبار الدقيق والأملاح المتطايرة في الجو والتي تقاس بالمايكرون ١/ ١٠٠٠ ملم، ولا تستقر السحب على حال واحدة بل يتغير شكلها دوماً تبعاً لنوعها وتحرك الرياح فيها.

٤- تعارف العلماء على تقسيم الغلاف الجوي الذي يغلف الكرة الأرضية إلى الطبقات الرئيسية التالية يفصل بعضها عن بعض طبقات ثانوية:

أ- طبقة تروبوسفير وهي الطبقة الأولى من طبقات الغلاف الجوي، ويحدث فيها كل الظواهر الجوية الواردة في سورة الرعد من التبخر والتكاثف والسحب والهطول والبرق والرعد والرياح والعواصف وتيارات الحمل الصاعدة والهابطة، ويقل فيها الأوكسجين بالارتفاع، ويصل ارتفاعها عند خط الاستواء ثمانية عشر كلم وفوق القطبين تسعة كلم.

ب- طبقة ستراتوسفير وهي طبقة الأوزون الثانية في الترتيب ووظيفتها حماية الأرض من الأشعة فوق البنفسجية[1]* الضارة، ويصل أقصى ارتفاع لها حوالي خمسة وخمسين كلم فوق سطح الأرض، تمثل هذه الطبقة درعاً واقياً لكوكب الأرض تحمي الكائنات الحية التي تعيش

(١) * توزع الطاقة الشمسية على النحو التالي:
٤٦٪ أشعة تحت الحمراء. ٤٥٪ أشعة ضوئية مرئية. ٩٪ أشعة فوق البنفسجية، لا يصل منها على سطح الأرض إلا الجزء اليسير بالقدر الذي لا يؤثر على حياة الكائنات الحية، وهذا ما تنفرد به الأرض عن سائر الكواكب الأخرى مما ساعد على تجدد التفاعلات الكيماوية بصفة مستمرة حسب تسخير الله لها.

عليها من أضرار الأشعة فوق البنفسجية، فسبحان الله الذي خلق كل شيء بحكمة وتوازن مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ [القمر: ٤٩] فقد شاءت رحمة الله تعالى أن تمتص أغلب هذه الأشعة في هذه الطبقة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [سبأ: ٢١] ومما يؤسف له أن تدمير الإنسان للبيئة نجم عنه ثقب الأوزون الذي يهدد الحياة على سطح الأرض، والقرآن حين يلفت الأنظار إلى توازن عناصر البيئة، إنما يريد المحافظة عليها من أي ضرر يلحق بها، لأن حياة الإنسان وسعادته من أسمى مقاصد الشريعة.

جـ- طبقة الميزوسفير وهي الثالثة ويصل أقصى ارتفاع لها حوالي تسعين كلم، ومن أهم خصائصها اصطياد الشهب والنيازك التي تسقط على الأرض من الفضاء الخارجي، وقد ورد في القرآن الكريم رصد هذه الطبقة لشياطين الجن، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ ﴾ [الجن: ٨] وقوله تعالى: ﴿ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحجر: ١٧-١٨].

د- طبقة الأيونوسفير وهي الطبقة الرابعة ويصل أقصى ارتفاع لها حوالي ثلاثمائة كلم فوق سطح الأرض، ومن أهم خصائصها عكس الموجات اللاسلكية القصيرة إلى الأرض فسبحان الله الذي سخر ذلك للإنسان مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨].

هـ- طبقة الثرموسفير وهي الطبقة الخامسة وتصل في ارتفاعها حتى ثمانمائة كلم فوق سطح الأرض. ويمكن تسميتها بطبقة الجو المؤين، التي تتميز بشحناتها الكهربائية مما يجعلها وسطاً موصلاً له، من خصائصها تسهيل اتصالات الراديو، فسبحان الله عز وجل القائل: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: ٨٨].

و- الطبقة السادسة وتعرف باسم أكسوسفير، وتصل في ارتفاعها ألف كلم فوق سطح الأرض، ومنها يخرج الإنسان نحو الفضاء الخارجي، وإذا تيسر لرائد الفضاء أن يتجاوز

هذه الطبقة فإنه يرى الكون مظلماً حوله[1]، نستخلص مما تقدم أن طبقات الغلاف الجوي في الإسلام كتابٌ مفتوح للتأمل في آيات الله الكونية، ليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من رب العالمين، مصداقاً بقوله تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: ٣] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤].

وحكمة هذا التقسيم للطبقات أن من يُكتب له الهداية يتسع صدره لنور الإسلام، ومن يُكتب عليه الضلال يكن صدره ضيقاً شديد الضيق كمن يصعد إلى السماء، فتتصاعد أنفاسه وتضيق إلى أن يموت اختناقاً لقلة الأوكسجين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام/ ١٢٥].

ومما يجدر التنبيه إليه هنا تكرار كلمة (سفير) وتعني الجسم الدائري أو الكروي.

ولما كانت اللغة العربية تستوعب كل جديدٍ من العلوم، يمكننا تعريب المصطلحات السابقة على النحو التالي: طبقة الأثير الأولى و طبقة الأثير الثانية و طبقة الأثير الثالثة و طبقة الأثير الرابعة و طبقة الأثير الخامسة وطبقة الأثير السادسة، ويمكن ترجمة الطبقة الوهمية الفاصلة بين كل طبقتين أساسيتين مما ذكر آنفاً بغشاء الطبقة فتصبح غشاء الطبقة الأولى وغشاء الطبقة الثانية ... وهكذا حتى السادسة.

٥. مما يجدر التنبيه إليه أن سوابق هذه الظواهر الكونية مذكور في سور القرآن الكريم وفيها إشارة تفيد أن أهل الكفر والشرك على وتيرة واحدة، مهما تباعد الزمن وتطاولت الدهور واختلفت العصور، وقد سبق عليهم القول بهلاكهم وعذابهم لكفرهم. كما ترينا أن دعوة

---

(١) للمزيد انظر: منشورات معهد الفلك وعلوم الفضاء/ جامعة آل البيت- الأردن، ٢٠٠٥. ومفاهيم أساسية في العلوم، د.عطية محمد عطية: ص١٢٣-١٢٤.



الأنبياء والرسل واحدة، والله ينتصر لرسله متى يشاء وينتقم من أعدائه المكذبين متى يشاء بالطريقة التي يشاء، مع اختلاف صور الهلاك:

فهذا نبأ قوم نوح عليه السلام فقد أُهلكوا بالطوفان من مياه الأرض وأمطار السماء، ونبأ قوم عاد عليه السلام أهلكوا بالريح العاتية، وقوم ثمود عليه السلام أهلكوا بالصيحة الرعدية التي زلزلت الأرض من تحت أقدامهم، وهذا نبأ قوم صالح عليه السلام إذ جاءتهم الصيحة وأخذتهم الصاعقة بظلمهم، أما قوم هود عليه السلام فكان أول ما ابتدأهم العذاب رأوا عارضاً (سحباً) في السماء فظنوه سقيا رحمة، فإذا هو سقيا عذاب لم تبق منهم أحداً، وهذا قوم لوط عليه السلام إذ أهلكهم الله بالصحية الرعدية والمطر الشديد المصحوب بحجارة من سجيل.

٦. تؤكد الآيات على عدم جواز التطير من هبوب الريح أو صوت الرعد أو البرق أو المطر الشديد فالقدر تدبير الله للأشياء حسب علمه وإرادته، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. وكان من هديه ﷺ عند رؤيته للريح يقول: (لا تسبوا الريح فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به)[١].

٧- تقرر آيات المقطع أن للدعاء والتضرع في نزول الغيث أثراً عظيماً، لأجل ذلك شرعت صلاة الاستسقاء عند انحباس المطر[٢].

(١) رواه الترمذي ٣٤٤٩، وابن ماجة ٣٨٩١.

(٢) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٢٢.

جماليات مشاهد المعنى الإجمالي للمقطع الخامس

ويمتد من الآية ١٤ إلى الآية ٢٩

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾

القراءات:

- **قرأ حمزة والكسائي (وهل يستوي الظلمات والنور) بالياء والباقون (تستوي) بالتاء.**
- **قرأ حمزة والكسائي وحفص(يوقدون) بالياء، والباقون (توقدون) بالتاء[١].**

كان من عادة العرب قديماً أن تضرب مثلاً لمن سعى فيما لا يدركه وعجز عنه بالكلية، كالقابض على الماء باليد حيث خانته فروج الأصابع، لأن الماء ليس ببالغ إليه لا يستطيع له حصولاً وطلباً رغم ظمئه الشديد وحاجته إليه، لفساد طريقة جمعه له في كفه وضياعه هدراً.

وفي ضربه عز وجل للمثل في الآية الرابعة عشرة، دليل على يأس الكفار والمشركين، وتوهمهم في نفع آلهتهم لهم إذ كانوا يستنصرون ويستمطرون ويستشفون بها، فدعوتهم لآلهتهم غير حق فهذه الآلهة بزعمهم لا تستجيب لهم دعاءً ولا تسمع لهم نداءً أو استغاثةً، ودعوة الحق وقف على الله تعالى، وما دعاؤهم إلا ضلال وشرك كالسراب الذي يراه الظمآن ماءً في الصحراء، أو من يرى خياله في الماء ولا يستطيع إليه طلباً حتى يدركه الموت عطشاً، أو لا تناله كفاه لبعده واستحالة الوصول إليه.

والشواهد السابقة من الأمثلة كناية على يأسهم من استجابة الله عز وجل لدعائهم لكونهم ليسوا أهلاً لها، بسبب ما وقر في عقولهم أن آلهتهم واسطة بينهم وبين الله في السماء فهم لا يستجيبون لله إلا كرهاً ورهبةً من عقابه عند رؤيتهم لآياته في الهلاك، في حين يسجد المؤمن لله طوعاً وإخلاصاً ومحبة في السراء والضراء على مدار الوقت في الغدو والآصال.

ثم تمضي الآيات في مقارعة المشركين بالحجة، إذ أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ، أن يلامس عقول المشركين إلزاماً للحجة ومقارعتهم بها، ويخبرهم عن قدرته سبحانه وتعالى في الخلق والرزق، عسى أن يحملهم على الاستسلام والخضوع والانقياد له، لأجل تحريرهم من محاكاتهم

(١) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لأبي محمد بن أبي طالب القيسي: ص١٦. والتبيان في إعراب القرآن، لأبي البقاء العكبري: ص٧٥٦.



وتقليدهم لآبائهم الأولين في عبادتهم للأصنام التي لا تملك لهم نفعاً ولا ضراً. فإن استمروا على شركهم فإن الآحاد منهم في منزلة الأعمى الذي يسير على قارعة الطريق في ظلمة الليل، وهل يستوي في منزلته عند الله مع المؤمن البصير في نور الله إذ تحفظه معيته في حله وترحاله ومنامه.

وكان من تمام الاحتجاج أن خاطبهم ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ في إشارة لإعمال العقل في التفكر بقدرة الله عز وجل في الخلق والتدبير، فالكون وما فيه من الملائكة والجن والإنس وغير ذلك من مخلوقات الله ما عرف منها وما لم يعرف مخلوق لله بإرادته وحكمته، يسير مخلوقاته حيث يشاء، فلزم هذه المخلوقات جميعها واجب العبادة والتسبيح والحمد والشكر والسجود لله، كل شيء منها حسب حاله والهيئة التي خلق عليها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وتأسيساً عليه فلا مقايسة بين خلقه تعالى للسموات والأرض وما فيهما وتقديره لحركة بعضها وأقوات بعضها الآخر، وبين نحت المشركين لآلهتهم بأيديهم والزعم بأن صناعتهم لها مساوية لخلق الله، وقد فاتهم أن الله عز وجل هو الواحد الأحد القهار المعز المذل الغالب لكل شيء، فأين هم من هذا وهم العاجزون عن خلق جناح بعوضة؟ وحقيق بهؤلاء أن تكون جهنم نُزلاً لهم خالدين فيها، فبئساً لمسكنهم ومقامهم هذا لما مهدوه لأنفسهم من الكفر والشرك والضلال والزعم بمشاركة الله في الخلق.

ودفعاً للتوهم يضرب الله عز وجل في الآية السابعة عشرة مثلاً للحق والباطل، فشبه الكفر بالزبد الذي يعلو ماء السيل المتدفق ويعلق بجنباته في كل اتجاه، فيعلو ويهبط تبعاً لاتجاه الريح ودفعه دونما خير ولا فائدة ترجى منه. والزبد هذا ليس محبوساً على الماء الذي يجري في السيول حسب تقدير الله عز وجل للماء فيها، بل يشاركه أيضاً ما يطفو من المعادن كالذهب من خبث مماثل عند صهره وفرزه عن شوائبه من التراب، فيستقر الجوهر وتعدم الشوائب التي لا فائدة منها، (والزبد في كليهما يشير إلى الباطل وما خلص من الماء الزلال، فيمكث في الأرض

والذهب الصافي يصاغ منه أنواع الحلي وهذا المقصود من مكثها في الأرض)[1].

وحكمة ذكر زبد الماء وخبث المعادن وردت للتدليل أن الكفر في منزلة فقاقيع، وإن علت مكانة أهله حيناً من الوقت، من باب مداولة سنن الله في الأرض جولات صعوداً وهبوطاً، إلا أنه في زوال حتمي مصيره عبرة لغيره يتعظ بمصير أهله من الخلائق ما يتعظ وعاقبته الخسران والندم. فأهل الكفر لا تقبل منهم حسنة ولا يتجاوز لهم عن سيئة، وأنهم لو امتلكوا ذهب الأرض، عاجزون أن يفتدوا بها أنفسهم يوم القيامة، وستكون أموالهم هذه حسرة وندامة. وبالقياس والمقابلة نرى أهل الإيمان في نعيم مقيم، نُزلاً في جنات تجري من تحتها الأنهار، فإيمانهم استقر في الأرض استخلافاً على مراد الله، فأينعت بذور إيمانه في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والثبات على المبدأ لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الشرك هي السفلى، فاستحقوا صفة ذوي الألباب الموفون بعهد الله في أوامره ونواهيه، وهل يستوي أولو الألباب الذين اتبعوا دعوة الحق وأوفوا بعهودهم مع الله مع الكفار والمشركين الذين تنكبوا طريق جادة الإيمان تعنتاً ونقضوا عهدهم مع الله، فالآحاد منهم أعمى البصر والبصيرة فاقد العقل، لا يعقل ولا يتبصر ولا يتفكر لما ركب في عقله من دلائل النقص لوقوعه تحت غريزة المحاكاة والتقليد في عبادتهم لآبائهم الأولين وكانوا بشأنها أكثر الناس جدلاً. ويرى **الزمخشري** في أهل نقض العهد الوارد في الآية: {الذين ينقضون عهد الله عليهم اللعنة، لما عقدوه على أنفسهم من الشهادة بربوبيته في عالم **الذر** مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]. وما قبلوه من الإيمان بالله وغيره من المواثيق}[2]. وفي هذا الشأن يقول **الفخر الرازي**: [اعلم أن الوفاء بالعهد مستحسنٌ في العقول والشرائع ومن أجَل مراتب السعادة[3]].

(١) التفسير الوسيط: ص ٤٢٦.

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، للزمخشري: ٢/ ٥٠٤.

(٣) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٣٣.

ويرى (ابن كثير) أن علامات نقض عهد الله {أن الشخص إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان وإذا عاهد غدر ونقض العهد والميثاق وأفسد في الأرض}[1].

كما فصلت آيات المقطع بعض صفات المؤمنين ذُكر منها أنهم ذوو العقول البصيرة القادرة على تمييز الحق من الباطل، صاحبة النفس المؤمنة، يتعظون بالمواعظ والعبر، القائمون على عهدهم مع الله الخاشعون له إجلالاً وتعظيماً ومحبةً، الصابرون على أداء العبادات بأنواعها من صوم وصلاة وزكاة وحج المستوفية لشروطها وأركانها وآدابها، الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر من غير رياء وسمعة، يقابلون السيئة بالحسنة ابتغاء وجهه الكريم، وقد توقف **(صاحب الظلال)** عند هذه الجزئية بالقول: {إن في مقابلة السيئة بالحسنة إشارة خفية بهدف درء السيئة ودفعها، وأما حين تحتاج السيئة إلى القمع ويحتاج الشر إلى الدفع، فلا مكان لمقابلتها بالحسنة، ودرء السيئة بالحسنة يكون غالباً في المعاملات الشخصية ولا يجوز في دين الله، فلا ينفع مع المفسد في الأرض والظالم إلا الدفع الصارم بالقوة حسماً لفساده وظلمه}[2].

وقررت آيات المقطع أن الله عز وجل سيدخل المؤمنين جزاء صفاتهم هذه جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ومن صلح من أهليهم آباءً وأولاداً وأزواجاً وزوجات ممن جرى عليهم حسن العاقبة والختام. ومن جمال نعيم الله عز وجل لهم في الجنة دخول الملائكة عليهم من كل باب من أبوابها بالسلام عليهم تهنئة من الله وتحية لهم، على صدق إيمانهم وحسن صبرهم في الدنيا على الطاعة وما نزل بهم من ألوان البلاء.

ولمثل هذا فليعمل العاملون وليتنافس المتنافسون في دنياهم، وفي هذا بيان لتفاهة التنافس على المال والجاه والرياسة، وما يتأتى عنها من ظلم واستبداد وإذلال واستعباد وكبر وخيلاء يصيب القوي فيها الضعيف.

كما تؤكد الآية الرابعة والعشرون من المقطع وجوب وصل كل ما أمر الله به أن يوصل،

(١) مختصر تفسير ابن كثير، للشيخ الصابوني: ٢/ ٢٨٠.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٥/ ٩١.



قولاً وفعلاً ظاهراً وباطناً بدءاً من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، مروراً إلى بر الوالدين وصلة الأرحام مهما تباعدت، وكفالة اليتيم وموالاة أهل الإيمان وأداء الحقوق لأصحابها، وانتهاءً بالنظم التي شرعها الله لتنظيم علاقة الناس بعضهم ببعض وما يندرج في منظومتها من تمام العلاقات والحقوق الدنيوية.

ثم يخبر الله تعالى في المقطع أن من قابل ذلك بالنقض والإعراض والصد والعزوف عن مراد الله فيها، وابتغى الفساد في الأرض كفراً حقيق بالطرد من رحمة الله وجعلت له جهنم نُزلاً ليذوق وبال كفره. وفي الآية ما يفيد أن الناس ليسوا على درجة واحدة في قبولهم للهدي القرآني فمنهم المؤمن الذي له من الصفات أجَلّها ومن المناقب أفضلها ومن السلوك أحسنه، ومنهم الكافر الذي له من الصفات والسلوك أقبحها وأرذلها. ولكل من الفئتين منازل ودرجات في طبقات الجنة ونعيمها أو النار وعذابها كلما نضجت جلودهم بدلهم جلوداً غيرها. ولا يستوي في ذلك الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور فاستحق بذلك المجيب لأمر الله بالجزاء العادل والمعرض بسوء العاقبة. واختتمت آيات المقطع بالتأكيد على أن الله عز وجل بيده مقاليد رزق عباده وفق مراده وحكمته كثرة وقلة واعتدالاً وسعةً وضيقاً. يوسع الرزق ويبسطه على من يشاء ويقدره ويضيقه على من يشاء، وليس السعة والبسط دليلاً على الرضا، ولا الضيق دليلاً على المقت والغضب، وقد يكون في كليهما إما امتحان واختبار على شكر النعم أو الصبر على الابتلاء. وفي هذا يقول القرطبي: {لما ذكر الله عاقبة المؤمن وعاقبة المشرك، بين أنه تعالى يبسط الرزق ويقدر في الدنيا لأنها دار امتحان، فبسط الرزق على الكافر لا يدل على كرامته، والتقتير على بعض المؤمنين لا يدل على إهانتهم}[1] وقد جاء في المنتخب : {واعلم أن الله تعالى قد يعطي الرزق الوفير لمن يشاء، إذا أخذ بالأسباب فهو يعطيه للمؤمن وغير المؤمن، ويعطي الدنيا لمن يحب ولا يحب، وما الحياة الدنيا قياساً بالآخرة إلا متع ضئيلة فانية}[2].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٥/ ٣١٤.

(٢) المنتخب في تفسير القرآن الكريم: ص٣٥٨.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الخامس

١ - تؤكد الآيات على أن الدعاء والخوف والرجاء والرهبة لا تنبغي أن تصرف لأحدٍ غير الله عز وجل، فهو الرازق المحيي المميت المعز المذل، وكل مخلوق من البشر فوقه مخلوق آخر يقهره، ثم فوق ذلك القاهر قاهر أعلى منه حتى ينتهي القهر للواحد الأحد القهار، فالقهر والتوحيد متلازمان له سبحانه وتعالى وحده.

٢ - شبه الله تعالى في المقطع دعوة الحق التي نزلت على رسوله محمد ﷺ بالماء، الذي ينزل من السماء وتجري به أنهار وسيول طمعاً في خيرها وما تحمله من بشر يرجى منه، لما فيه من النفع للكائنات الحية جميعاً وبدونه تنعدم حياتها. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. وحكمة تشبيهه الكافرين بالزبد الذي يطفو فوق الماء، والخبث الذي يطفو عن صهر الذهب والمعادن. تتغيا تقرير عالمية دعوة الحق الذي فيها نفع للبشرية إلى قيام الساعة كنفع الماء لحياة الكائنات الحية. إذ لا خيار للبشرية إلا بهذه الرسالة المخلصة لها من ضلالاتها وأوجاعها وهمومها على مدار العصور وكر الدهور، تماماً كما يمكث في الأرض من ماء زلال وذهب صافٍ، فبوفرتها تنعم الدول والممالك والبشر وتشعر بالضيق والحرج من قلتهما أو شحهما. فالبشرية اليوم لا عاصم لها من الهاوية التي تتردى فيها، إلا بالإسلام الحق وحاجته إليه كحاجة الإنسان والحيوان والنبات للماء.

٣ - شبهت آيات المقطع قلوب المؤمنين بالأودية الزاخرة بالمياه النازلة من السماء، فتنعشها وتجدد فيها الحياة، لأن قلوب أهل الإيمان تستقر فيها أنوار القرآن الكريم[1].

٤ - تقرر الآيات وجوب التزام الصبر كخلق إسلامي يبعث على تحمل المشاق والتعب والأذى في سبيل الله تعالى، والرضا بقضائه عند وقوع المصائب، مع عدم جواز التظلم والتشكي والتذمر مما وقع من بلاء، ولقد امتدح الله عز وجل الصابرين ووعدهم بالنصر والتأييد كما

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٢٩.

أعد لهم ثواباً عظيماً في الآخرة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الإنسان: ١٢] وقد دعا الإسلام المؤمن إلى التحلي بالصبر في مختلف ميادين الحياة لما له من فضل كبير وثواب عظيم، وللصبر أنواع منها:

أ- صبر على الطاعة:

فقد فرض الإسلام على الناس طاعة الله وأمرهم بعبادته وكلفهم ببذل المال والوقت وتحمل المشاق في سبيل ذلك.

ب- صبر عن المعاصي:

ينهى الإسلام عن ارتكاب المعاصي من كذب وغيبة وخيانة وغش وغيرها، فالنفس البشرية قد تميل إلى المعصية وتجد فيها متعة ورغبة، فمقاومه المسلم لها ولمغرياتها وشهواتها هو ضرب من ضروب الصبر طلباً لرضوان الله تعالى.

جـ- صبر على المصائب:

يعصف بالإنسان في حياته أنواع من مصائب الدنيا ونوازلها وقوارعها، من موت أو مرض أو خسارة مالية أو فقدان عمل عزيز أو سجن أو عقوق أولاد أو فساد زوجة أو ثقل مديونية ونحوه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾[البقرة: ١٥٥-١٥٦].

فالمسلم الحق يواجه مواقف الحياة بشجاعة وإيمان ويتلقى مصائب الدنيا بصبر وثبات، حتى يكون من الفائزين برضوان الله تعالى يوم القيامة.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن الصبر لا يعني الاستسلام للمصائب فإذا كان قادراً على مواجهتها وتصويب أمرها، ولم يفعل ذلك في حدود الأعمال الإرادية فسوف يؤثم، أما ما يدخل منها في حدود اللا إرادية فعليه أن يسأل الله عز وجل أن يلطف به.

وفيما يلي **قراءة تحليلية** تأملية مؤطرة بمرجعيات إيمانية في أصناف الناس ودرجة تحملهم للمصائب والنوازل والابتلاءات، ليسهل على الدعاة التعامل معهم على خلفية تحليل شخصياتهم(١)*:

(أ) هناك ضرب من الناس قادر على مواجهة الشدائد بكل مسمياتها أياً كانت تداعياتها عليهم وهم أهل التقوى والعقيدة، لقوة إيمانهم وحسن تسليمهم بقضاء الله وقدره، لاعتقادهم الراسخ أنهم في معية الله ورعايته وحفظه مهما عصفت بهم المحن وعوادي الأيام.

وما امتازوا به من فلاح إيماني حملهم على اعتبار أن ما أصابهم مقدر من الله عز وجل لتدبير إلهي محض، لا يستطيعون له دفعاً وأن الحياة إنما هي دار نكدٍ وكدرٍ وغمٍ وهمٍ إلى جانب السعادة.

وحكمة هذا الابتلاء في نظرهم قد وقع إما لأجل تطهيرهم من ذنوب سبقت كنوع من أنواع العقاب الرباني لهم، لأنهم حادوا عن الحق حيناً من الوقت، ليصوبوا ما اعوج من أمرهم أولاً بأول، لغاية تزكيتهم ورفع درجاتهم عند الله في الحياة الآخرة.

أو لرسوخ تقواهم بأن الحياة الدنيا جعلها الله عز وجل دار امتحان وابتلاء، ليعلم سبحانه وتعالى منازل الناس على حقيقتها، فيظهر بالامتحان أهل الإيمان والصبر ليميزهم عن غيرهم، فعاقبة الصبر في نظرهم وان طالت طريقها حصر على المؤمنين بسبب فضلهم وعدم استوائهم مع غيرهم. لهذا تولد لديهم شعور داخلي أن الله يمتحنهم بالغلبة والقهر والغنى والفقر والصحة والمرض دولاً وجولات، لأجل أن يتقربوا إليه أكثر بالتضرع والإكثار من الدعاء والاعتصام بحبله ولسان حالهم يقول: «ولله الحمد والمنة والشكر على كل ما هم فيه من الأحوال».

---

(١) * من الشروط الواجب توافرها في الداعية أن يكون واعياً لما يجري حوله، بصيراً بأحوال الناس ومشكلاتهم وظروفهم الاقتصادية والاجتماعية والنفسية، قادراً على تحليل شخصية المدعو ليسهل التعامل معه في الدعوة، فالنفوس جُبلت على حب من أحسن إليها وخاطبها باللين والموادعة بأسلوب يشرح الصدر.

وهذا الضرب من الناس يستشعر عظمة الخالق فيرضى بما يصيبهم من خير أو شر فإن أصابتهم نعمة شكروا الله تعالى، وإن كان غير ذلك صبروا مما جعلهم مطمئنين في حياتهم بعيدين عن الجزع موقنين أن الأمر كله بيد الله تعالى قدّره بعلمه وحكمته، فينسحب عليهم الحديث الشريف: [احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده اتجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام وجفت الصحف .][1] شعارهم الآيات القرآنية التالية قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وقوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧] وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦] وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ ﴾ [الشرح: ٥-٦].

وفي دراسة سيكولوجية (نفسية) لهذه الفئة تراهم أكثر الناس اعتدالاً في مخرجات سلوكهم في حالتي الأفراح والأحزان مع بعدهم عن مزالق الترفع والتكبر والخيلاء.

وبقراءة تحليلية فقد استدل بقرينة إيمان أهل هذه المنزلة أنهم الفائزون بالدنيا والآخرة لتضافر سماتهم في كونهم يكثرون من التوبة إلى الله مع ملازمتهم لها في جميع الأحوال والظروف فهم العابدون المتصفون بعبوديتهم لله عز وجل، الحامدون على الدوام لربهم في السراء والضراء واليسر والعسر، المعترفون بنعم الله عليهم بظاهرها وباطنها، المكثرون من الصلاة في مواقيتها الصابرون عليها بخشوعهم، الحافظون لحدود الله في تحليل وتحريم علماً وعملاً، السائحون في سبيل الله التماساً لجهاد أو علم نافع أو كسب حلال أو ضرب من سفر فيه قربة لله، المخرجون لزكاتهم وصدقاتهم وهذه الصفات بالكلية لا تتحقق إلا لهم لحسن عبادتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وقد امتدحهم الله لصبرهم ومداومتهم على ذكره، لهذا أطبقت الشواهد على

(١) أخرجه الترمذي، رقم الحديث ٥٦.

أن أهل هذه المنزلة أبعد الناس عن التأثيرات النفسية والعصبية لرباطة جأشهم واطمئنانهم لحكم الله لعلمهم أن الخير والشر فتنة وابتلاء وقد يكون في الابتلاء خير وفي سعة العيش فتنة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ ﴾[البقرة: ٢١٦]. فان أصابه خير كان من الشاكرين وان أصابه شر تضرع إلى ربه بالدعاء ليكشف عنه ما نزل به من الضر تصديقاً لقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٢٦]. وهذه مرتكزات مفاتيح السعادة في حياتهم فجعلتهم أكثر الخلق هدوءاً وأقربهم إلى الله ذكراً، فيريح جهازه العصبي من أي توتر وانفعال، وهم بذلك قد صحت لهم مقامات الكرامة الربانية.

(ب) وهناك ضرب آخر من الناس قادر على مواجه هموم الدنيا ونوائب الأيام مكرمة خصهم الله بها دون غيرهم تمثلت في اعتدال إفراز غددهم الصماء من[**الأدرينالين والنورادرينالين والكورتيزون والسيروتونين**] بالإضافة إلى منزلتهم من الإيمان فأصبحت لديهم القدرة على ضبط السيطرة على انفعالاتهم، وعدم الاستجابة السلبية للمؤثرات المحيطة البيئية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية يعيشون حياة اعتيادية حتى في أحلك الظروف سوداوية. ويطلق على الآحاد من هؤلاء في المصطلح الشعبي (فلان أعصابه باردة) وأهل هذه الفئة لا يتسلل الوهن العصبي والنفسي إليهم، لكمال مقومات صحتهم النفسية فيستقبلون يومهم بالحيوية والمزاج المعتدل ويقبلون على الحياة ببشر واطمئنان، وأهل هذه المنزلة من الناس قدح الله في نفوسهم الهدوء والسكينة وأضاء لهم طريق السعادة باعتدال التوازن في إفرازات غددهم.

وهي واحدة من نعم الله الكثيرة والتي لا يمكن حصرها لأنها أعظم من أن تستقصى مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾ [إبراهيم: ٣٤] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣] وقوله تعالى: ﴿ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ ﴾ [لقمان: ٢٠].

من هنا يتبين لنا غلط من يحصر نعم الله في المال فقط، والعقلانية تستوجب أن نعترف بما أفاض الله به من النعم، كنعمة التقوى والإيمان والصحة والولد والسمع والبصر والنطق والحياة والعلم وغير ذلك مما يعود بالنفع. فالزوجة الصالحة نعمة والنجاح نعمة والتفاؤل نعمة والتوفيق في العمل نعمة، وبركة الراتب الشهري نعمة، وبركة طول العمر دون اعتلال نعمة وتوفيق الأبناء نعمة ومحبة الناس نعمة والتسليم بإرادة الله في الشكر الزائد نعمة، والعيش في أمان نعمة، ويستفاد من نبأ هذه الشواهد أن نعم الله كثيرة لا حصر لها وعلى أهل هذه الفئة شكر الله عز وجل على آلائه ونعمه عليهم مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]. فشكر النعم فيها النماء والبركة ودفع البلاء والفوز برضا الله ومحبته.

(جـ) وهناك ضرب ثالث من الناس غير قادر بالكلية على مواجهة النوازل حتى المتوسطة منها فيتسرب إليهم اليأس والقنوط بسرعة، بسبب ضعف إيمانهم فيظهر عليهم السلوك المضطرب ويكونون عرضة للإصابة بالاضطرابات **[السيكوسوماتية]** أكثر من غيرهم، وترى التأفف والضجر والضيق والقلق والأرق والكآبة والنظرة السوداوية للحياة واضحة عليهم، ممزوجة بمشاعر التيه والضياع والخوف من الغد، وما يحمله من مفاجآت غير سارة فتزداد معها الأمور تعقيداً، [والحالات السيكوسوماتية هي الأمراض العضوية ذات المنشأ النفسي، كقرحة المعدة والإثنى عشر والقولون العصبي والسكري وارتفاع ضغط الدم والصداع واضطرابات الكلى والمسالك البولية][1]*.

وجملة القول إنها أمراض تصيب أجهزة الجسم كافة كالجهاز الهضمي والعصبي والتنفسي والبولي والتناسلي والأنف والأذن والحنجرة والجلد والشعر، وهذا النوع من الاضطرابات متفاوت من شخص لآخر فقد تبدأ من القلق المرضي وتمتد إلى الأرق الشديد وتتطور إلى

(١) * للمزيد انظر: الصحة النفسية في ضوء علم النفس والإسلام، د.محمد عوده، والاضطرابات العصابية والذهانية والسلوكية، د.فيصل الزراد.

اضطرابات المزاج.

وقد تنتهي إلى اضطرابات الشخصية إذ لكل إنسان تركيبه الفسيولوجي، وحسب تكوينه تختلف استجاباته للمؤثرات تبعاً لاستعداداته الفطرية ودوافعه ومزاجه وشعوره واتجاهاته واستعداده الوراثي.

(د) وهناك ضرب رابع متقلبون في إيمانهم - فتارة يزيد وأخرى ينقص- في منزلة وسط بين أهل الضرب الأول والثاني وهؤلاء أهل الضرب الثالث في وسط المنزلتين، فتراهم تارة يواجهون الشدائد والمحن بعزيمة واقتدار إذا صاحبهم الإيمان والأمل، ثم ما تلبث عزائمهم أن تنهار تبعاً للظروف والتأثيرات المحيطة بهم إذا كانت أقوى منهم، فيحدث عند البعض الاستسلام للواقع وتبدأ المعاناة وتظهر بعض الأمراض السيكوسوماتية على صاحبه.

وغاية ما تقدم من قراءة فلسفية إيمانية حول منزلة الصبر ومكانته في الإسلام، التأكيد على سبق القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، المناداة إلى التحكم في الانفعالات بالسيطرة عليها، لما فيه من فوائد صحية ونفسية وجسدية وعقلية. إذ يعد الإيمان بالله وبقضائه وقدره أعظم علاج للغضب وما يصاحبه من انفعالات غير محمودة.

وتعقيباً على ما تقدم حول مراتب الصبر عند الناس في مختلف ضروبهم يقول صاحب **التفسير الكبير**: [اعلم أن الإنسان قد يقدم على الصبر لوجوه:

- أن يصبر ليقال عنه ما أكمل صبره وأشد قوته على تحمل النوازل.
- أن يصبر لئلا يعاب بسبب الجزع.
- أن يصبر لئلا تحصل له شماتة الأعداء.
- أن يصبر لعلمه بأن لا فائدة في الجزع.
- أن يصبر على البلاء لعلمه بأن ذلك قسمة قدرها الله عز وجل لحكمة بالغة ومصلحة

راجحة، فالصابر هنا يكون في أعلى مقامات الصديقين لكمال النفس وسعادة القلب، فأهل هذه الفئة حصلت في قلوبهم الطمأنينة، واحترزوا عن المعصية الموجبة للعقاب[(١)]].

ونراه في موضع آخر يقول: [أن المحن والمصائب يزيلها الله عز وجل بالدعاء والصدقة[(٢)]].

٤- تؤكد آيات المقطع أن الإيمان هو الكفيل بتحقيق السعادة وهي أعظم ما ينشده الإنسان في حياته. فالسعادة ليست بالمال والجاه والسلطان كما يتوهم بعض المتوهمين، فقد ثبت بالمشاهدة أن المال ربما كان سبباً لمتاعب وشقاء صاحبه، وأنه ليس الجسر الموصل إلى السعادة المنشودة، كما أن بعض أهل الجاه والسلطان عندما ظفروا بمواقعهم المتقدمة وخلعت عليهم من النعوت والألقاب التي كانوا ينشدونها بالأمس البعيد، ربما تأكد لهم أن نُزُلَهم هذا كان من أسباب متاعبهم وآلامهم، وأنهم لو كانوا يعلمون مخرجاته هذه، لما تزاحموا عليها بالمكر والخديعة والبطش، وإنك قد تسمع من أحدهم عند محاسبة النفس أنه قد اجتاز جسراً إلى غير الغاية التي ينشدها، ولا تعدم أن ترى أهل الاستمتاع بالملذات والشهوات الفانية، من يصرح لك أنها جلبت له خسائر وفضائح لم تك في حسبانه وأن لذته لم يبق منها إلا الذكريات المؤلمة، لاقتراب أجله حيث أفنى شبابه في غير طاعة الله.

وبالمقابل فإنك تجد المؤمن يحس بمشاعر السعادة، وإن لم يك لديه ما يحبه من مالٍ أو جاهٍ أو سلطان، لشعوره بأنه في معية الله، وأنه بفضل من الله ورحمته تكلأه العناية الربانية، وبأن سعادة أبدية تنتظره يوم القيامة، ولله در من قال من الصالحين: لو علم الملوك ما نحن عليه من السعادة لقاتلونا عليها.

٥- يخبر الله تعالى في الآية الثامنة والعشرين أنه أمر بتطهير القلوب وتزكيتها بالذكر[(٣)]*، الذي

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ٣٨.

(٢) المصدر السابق: ٧/ ٥١.

(٣) * للمزيد انظر، كتاب الأذكار: للإمام النووي.=

تطمئن فيه القلوب، وتجد لذة لحياتها أكثر من لذة الغريب والنادر من أطايب الطعام والشراب، فالمداومة على ذكر الله من الأسباب التي تعين على الشفاء والعافية من الهم والغم والحزن، لهذا يشرع للمسلم أن يكون لسانه رطباً بذكر الله في كل وقته.

والدعاء ضرب من ضروب الذكر وسلاح المؤمن في كل أحواله وملجؤه عند كل شدة وكرب وضر، لهذا فإنك تجد المؤمن حريصاً دائماً على أن يسأل الله من فضله وخيره وبره، ويسأله أن يكفيه من كل شر ومصيبة ويعافيه من كل مرض وداء، وهذا الأمر لا يتيسر إلا لمن تطهر قلبه من أمراض القلوب، كالنفاق والرياء والحسد والغيرة والكبر وعجب النفس ومحبة غير الله واتباع هوى الشيطان. فالذكر ينير للإنسان طريقه ويحفظ عليه عقله، وهو البلسم الشافي لأمراض النفس وعللها، ليعيش في حياة آمنة مفعمة بالنشاط والحيوية، فيحول الوهن إلى نشاط واليأس إلى أمل والكآبة إلى بشاشة، يحيا معها حياة سعيدة في نفسية صافية وادعة تعكس صفاءها على الجسد والسلوك، ينأى بنفسه عن إيثار العاجلة على الآجلة والعرض الزائل على النعيم الدائم. فالطمأنينة والسعادة وراحة البال تكمن في طرق باب الله بالدعاء والذكر، وهما العاصم من السقوط في هاوية الانحرافات والحزن والكآبة، مع التسليم لمراد الله في الشدائد والابتلاءات عند حدوثها مع عدم اليأس وان طالت سنين طويلة. فذكر الله يطمئن القلب ويعين على مواجهة الكآبة والملل، ويطرد تسلل الوهن على النفس، ويساعد في الإقبال على الحياة ببشر واطمئنان، وهذا البعد الديني في الدعاء والذكر مفيد جدا في علاج الكثير من الأمراض النفسية والعصبية، ولا يكاد يتفطن إليه إلا الآحاد من أهل الإيمان من ذوي الاختصاص، وهذا مشاهد ومكرور في العديد من المشافي العلاجية. ويعضد ذلك اشتمال القرآن الكريم لعشرات الآيات التي تدلل على إن الإيمان بالله وبقضائه وقدره أعظم

= يرى ابن تيمية أن جنس تلاوة القرآن أفضل من جنس الأذكار، كما أن الذكر أفضل من جنس الدعاء، الفتاوى الكبرى ١/ ١٩٠.

علاج للأمراض النفسية والعصبية، وخير وقاية من أمراض الخوف والقلق والتوتر. ومما يجدر الإشارة إليه هنا أن أكثر الناس هدوءاً أقربهم إلى الله ذكراً. وأكثر الناس سوداوية في نظرتهم للحياة أبعد الناس ذكراً لله، فإن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل انحدرت إلى تمجيد الدنيا وملذاتها وشهواتها وتطلعت إلى مما في أيدي الغير حسداً وحصل لها التوتر النفسي، فترادفت على أهلها أسباب الذل وموجباته من القلق والاكتئاب والأرق والتوتر وتفكك الشخصية ونحو ذلك، بسبب ما قد يلحق بها من اضطرا بات جسدية ونفسية وعصبية وذهنية. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤]. وبالمقابل فإن أهل التقوى والإيمان الذين تطمئن قلوبهم بذكر الله خالون منها ومن تداعياتها الخطيرة، مصداقاً لقوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد: ٢٨]، فالآحاد من أهل هذه الفئة المؤمنة حيثما ولّى وجهه ألفيت منه شكراً وسمعت حمداً لله عز وجل في السراء والضراء، ولا تكاد تستمع إلى احدهم إلا وجدته متفائلاً مستبشراً، يستقبل يومه بالبهجة والسرور ويستدبره بجمال القادم من الأيام، فأورثتهم التقوى إيماناً على إيمانهم فطوبى لهم وحسن مآب.

وختاماً وإتماماً للفائدة نؤكد أن عاقبة ترك الذكر وخيمة تعود على صاحبها بالحسرة والندامة والهلاك والضلال والخسران، ويكون الشيطان له قريناً يلازمه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾ [المجادلة: ١٩].

٦- تؤكد الآية السادسة والعشرون من المقطع الخامس طمأنة الخلق على أرزاقهم، ويعضده أن الله عز وجل قد كفل الرزق لعباده مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الذاريات: ٢٢]. وعلى خلفية هذا فإن الإنسان أياً كان عمله لا يكون الرازق لنفسه وإنما الله، فالرزق محدود بقدره شريطة أن يأخذه صاحبه بالعمل في أرض الله، مع العلم أن السعي إليه حالة للرزق وليس سبباً له في بسطته ووفرته، وعلى الإنسان أن يرضى بما قسم الله له ليكون أغنى الناس قناعة، ليعيش في سعادة وهدوء بال، لئلا تمتد

عينيه إلى غيره حسداً، ممن بسط الله له الرزق على إطلاقه، فلينظر إلى ما هو دونه ليشكر الله على نعمائه، ولينأى بنفسه عن التزاحم والتدافع في طلب نصيبه من متاع الدنيا مع الآخرين بالمكر والافتراس، ومما يؤسف له أننا نعيش اليوم في عالم طغت فيه المادية على القيم والمبادئ، وبات المال هدفاً للحياة وغدا الحصول على المزيد منه من أوليات تفكير الناس في حياتهم.

وفيما يلي قراءة تأملية مؤطرة بمرجعيات إيمانية نشخص فيها حكمة تفاوت الناس في مراتب الرزق واختلاف درجاته بينهم ليخدم بعضهم بعضاً، إذ شاءت حكمته تعالى أن يكون الناس ليسوا على طبقة واحدة، لاختبارهم فيما وهبهم من المال أو ابتلاهم به، وليس لأحدٍ أن يسأل عن سبب التفاوت في مقدار الرزق قلة أو كثرة إلا للحكمة من مراد الله في ذلك، فهذا مما ينتهي إليه ولا يسأل عنه إلا للاعتبار والعظة، ولقد شاءت حكمته تعالى أن يكون الناس في طبقاتهم للمال على النحو التالي:

أ- فئة من الخلق الدنيا من أول حياتها لآخرها دار ابتلاء مادي لشحته وقلته، وفي هذا حكمة ربانية بالغة وهو الرحيم في عباده، وحقيق بأهل هذه الفئة ديمومة الثبات على الصبر وحسن الظن بالله، ولو طال طريق الأمل في فرج الله.

ومما تجدر ملاحظته هنا أن الله عز وجل إذا قبض على أهل هذه الفئة ما قدره من المال، فقد يمُنُ على بعض أهلها بالقوة والصحة، وهي نعمة لا يقدرها إلا من سلبت منه من أهل العلل والأسقام.

ب- وهناك فئة ثانية من الخلق قد يولد الآحاد منهم وفي فمه ملعقة من ذهب، يعيش حياته في نعيم دائم يرفل بأجمل الثياب ويتناول أجود أنواع الطعام والشراب، ويتبوأ النادر من القصور، ويستقل الجديد المتطور من المركوب، دائم الأسفار والاستجمام، مهيب بين الناس في حله وترحاله لوفرة ماله، ومع هذا فقد يبتلي الله بعضهم بالأمراض المستعصية مما يحمله على التمني أن يكون فقيراً مقابل صحة خالية من العلل، وفي ذلك حكمة بالغة وإن في ذلك لآية.

والحكمة التي ترشد إليها هذه الفئة أن الله عز وجل قد بسط لها المال، وبالمقابل قد يسلب من بعضهم نعمة الولد فيجعله عقيما، وغير ذلك من الابتلاءات كفقدان الصحة ونعمة الأمن وغياب السعادة ونحو ذلك.

ومما يدعو إلى الاستغراب أن كثيراً من أهل هذه الفئة قد تنكَّروا لنعم الله عليهم، وأخذوا يضيقون ذرعاً بالعبادة، وانقلبوا على أعقابهم خاسرين لبطرهم وغرورهم حتى كانت سيرتهم في قومهم سيرة كبر وخيلاء وغطرسة، وفي شأن هذه الفئة يقول صاحب الظلال {وقلّ من يصبر على النعمة فلا يبطر ولا يكفر ولا تصيبه حماقة الكبر والخيلاء}[1].

ومما يجدر التنبيه إليه أن الغني المؤمن الذي يقيم في ماله شرع الله من زكاة وصدقات ووقف لله تعالى، خير له في الدنيا والآخرة من الغني المقتر الشحيح في زكاته وصدقاته الذي نزل المال منه منزلة الابتلاء وليس النعمة.

جـ- فئة ثالثة تداولت عليها سنن الله فانقلبت من حياة العيش الرغيد إلى الفقر، بسبب زوال ما كانت عليه من رياسة ومال وجاه، وتلك حكمة الله عز وجل في مداولة الأيام بين الناس، ويستفاد من نبأ هذه الفئة كم من نعمة انقلبت بالغرور نقمة، وكم من مترف في قومه صيرته آيات الله وقدرته ذليلاً.

د- وهناك فئة رابعة ولد الآحاد منهم إما في حالة من الفقر أو التوسط في العيش، ثم دارت عجلة الأيام دوراتها معه على مراد الله، فأصابته تخمة الثراء وهو في منتصف العمر وأصبحت الأموال تجري في حساباته من حيث لا يدري ولا يحتسب، وهذا مشهد مألوف بين الناس ومكرور في المجتمعات كافة. والدرس الذي نستخلصه هنا وجوب الأخذ بالأسباب في ألوان المعايش المختلفة، وترك الرزق على مراد الله ساعة يشاء، فإنه مرهون بوقته وأن لكل شيء وقتاً مقدراً.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٥/ ٩٠.

هـ- وهناك فئة خامسة ينطوي تحت لوائها معظم الناس على مر العصور وهي تمثل الطبقة الوسطى في المجتمعات كافة.

وبالقياس والمقابلة نرى أن الفئات الأربع المشار إليها آنفاً هي استثناءات على القاعدة إذ يشار إليها لقلة شواهدها، والأصل في قاعدة الرزق هي الطبقة الأخيرة، حتى صارت الوسطية بين الناس منزلة الطبيعة والجبلة. ويستفاد من نبأ هذه الفئات الدروس التالية:

- أن المال في الأصل هو مال الله ونحن مستخلفون فيه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [النور: ٣٣].

- وجوب تداول المال بين إفراد الرعية مصدقاً لقوله تعالى: ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر: ٧].

- المال لا يعد ملكية إلا إذا كان في أصله مشروعاً.

- بسط المال أو قلته ليس محكوماً بدرجات الإيمان.

- اختيار الله عز وجل لنا درجة الرزق التي تناسبنا على مراد حكمته خير من اختيارنا لأنفسنا فيه، لعلمه عز وجل أن ما يصلح لهذا قد لا يصلح للآخر.

- المال وسيلة في الحياة وليس غاية، وأن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده من غير إسراف أو تقطير.

- ملكية المسلم لماله لا تخوله حق التصرف فيه حسبما شاء وكيفما أراد، إنما هي ملكية موزونة بضوابط شرعية.

- المال ليس أداة للتقييم والتفاضل بين الناس، لأن للحياة قيماً أجلّ من المال.

- تقرير الملكية مع صيانتها من كل سفه وانحراف مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾ [النساء: ٥].

- ملكية الإنسان لماله ملكية آنية وليست أبديه، تنتهي ملكيته لها بموته، ولم يتبق له منها إلا ما أقام فيه شرع الله من زكاة وصدقات وحقوق أخرى سواهما.

- أن الله تعالى يبسط الرزق ويقبض على مراد حكمته، ساعة يشاء بالقدر الذي يشاء في زمانه ومكانه، وليس على مراد الناس من الله، وسنن الله تقتضي أن يجرب الإنسان في حياته الغنى والفقر صعوداً وهبوطاً للاعتبار.

- تحريم كنزه لضرره بالمصلحة العامة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ [التوبة: ٣٤].

- وجوب الحجر على السفيه الذي ينفق أمواله في غير وجه حق، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ﴾ [النساء: ٥].

- أن الغاية من المال هو إقامة مجتمع الكفاية والعدل الذي يكفل للجميع العيش الكريم.

- حرمة استخدام المال أداة للضغط على الفقراء وإذلالهم، لان لهم حقاً فيه يؤخذ من زكاة أموال الأغنياء.

- المال ليس أساساً للسعادة في الحياة وان كان دوره فاعلاً في حياة المحتاجين إليه لضرورة العيش الكريم.

- أن الله عز وجل قد يصيب الإنسان بالعسر واليسر، وأحوال الناس لا تدوم على وتيرة واحدة فيه، إنما اختلاف من حال لآخر على مر الأيام والسنين، فلزمهم شكر نعمته حال توافره والصبر عند قلته.

- قد ينشأ عن تزاحم بعض الناس في طلب الحصول على المال لأجل شهوته، صراع وخصومة واحتراب ومكر وتباغض وفتن على غير مراد الله منه، وهو أساس البلاء والفتنة.

٧- تقرر الآيات بيان عظمة أمثال القرآن الكريم كضرب من ضروب إعجازه في

إيجازه.

فلقد صورت الآية السابعة عشرة من المقطع تشبيه سلبية استقبال أهل مكة لدعوة الحق بسبب ضلالهم وعدم تمييزهم بين الحق والباطل، بمنزلة من انتفع بالمطر مادياً، دون أن يترتب عليه نفع إيماني في قلبه. فجاء في الآية تشبيه الكافر بحال من أصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق وعواصف وأعاصير، فخارت قواه ووضع أصبعيه في أذنيه وغمض عينيه خوفاً من صاعقة تصيبه أو برق يخطف بصره. وحكمة التشبيه أن القرآن بزواجره وأوامره ونواهيه وخطابه، نزل عليهم نزول الصواعق الماحقة، رغم دعوته لهم المتضمنة للنور والهداية، كضياء البرق في قبة السماء.

وغاية ذلك أن الإيمان إذا ترسخ في القلب دفع الشهوات الباطلة جانباً، كالسيل إذا جرى في الأودية احتمل زبداً، فالشهوات يطرحها قلب المؤمن كطرح السيل والنار للزبد والخبث.

كما ويحتمل المثل تشبيه الحياة بالماء، وتشبيه أعمال الكافر بالسراب، ومما يقتضي التنويه إليه أن عناصر التشبيه القرآني مستمدة من مكونات البيئة الطبيعية بأغلفتها المتعددة، كالغلاف الجوي والمائي والصخري وغلاف التربة وما عليه من نبات وزرع وحيوانات ومن شواهد ذلك (السحاب والبرق والرعد والمطر والأعاصير والعواصف والرياح والبرد والثلج والوابل والطل والماء الفرات الزلال والآسن والأجاج والبرزخ المائي والبحر اللجي، والصفوان والجبال والحجارة والياقوت والمرجان والذهب والفضة، وأعجاز النخل والعرجون وحب القمح وأنواع الزرع من حبوب وكروم ونحوه، والإبل والعنكبوت والحمار والكلب والجراد والذباب والبعوض ونحوه).

والمثل في القرآن يضرب للاتعاظ والاعتبار، ورغم أن الكتاب العزيز قد نزل على مقتضى كلام العرب ولغتهم، إلا انه لا يجوز حمل آيات الأمثال على معناها اللغوي، وخاصة إذا كان التشبيه ضمنياً غير صريح، ومن أدوات التشبيه في القرآن الكريم الكاف وكأن ومثل ونحوه.

ويستفاد من نبأ الأمثال في بيان أهمية الوعظ والزجر والإقناع والتشويق والإيضاح

والترغيب والترهيب والتقريع والمدح والذم ونحو ذلك[1]. وفيما يلي طائفة من الأمثلة:

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الزمر: ٢٧] وقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الحشر: ٢١]. وقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾[العنكبوت: ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤]. وقوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾[القمر: ٢٠] وقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤١]. وقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة: ٥]. وقوله تعالى: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ [الحشر: ١٤]. وقوله تعالى:﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾[هود: ٤٢]. وقوله تعالى: ﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ ﴾[القمر: ٧].

ومن أقسام التشبيه في القرآن[2]:

- تشبيه المحسوس بالمحسوس.
- وتشبيه المعقول بالمحسوس، وشواهد الأول والثاني الآيات السابقة.
- وقد يرد المشبه به غير محسوس لقوله تعالى: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الصافات: ٦٥].

٨- جاء في الآية الخامسة عشرة من هذا المقطع سجدة لقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي

(١) للمزيد انظر: الإتقان للسيوطي، باب الأمثال. وأعلام الموقعين، لابن القيم. والبرهان، للزركشي، ٣/ ٤١٤- ٤١٥

(٢) علوم القرآن، د.عدنان زرزور، ص٣٠٩، ومباحث في علوم القرآن، مناع القطان: ض٢٨١.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾ [الرعد: ١٥]. إذ يُسنّ للقارئ والمستمع أن يسجد في سجدات القرآن الكريم في أربع عشرة[1] سجدة وردت في المواضع التالية:

١- الأعراف/ ٢٠٦. ٢- النحل/ ٤٩ و٥٠. ٣- الإسراء/ ١٠٧. ٤- مريم / ٥٨.

٥- الفرقان/ ٦٠. ٦- الحج/ ١٨ و٧٧. ٧- الرعد/ ١٥. ٨- النمل/ ٢٥.

٩- السجدة/ ١٥. ١٠- فصلت/ ٣٧. ١١- النجم/ ٦٢.

١٢- الانشقاق/ ٢١. ١٣- العلق/ ١٩.

وحُكم سجود التلاوة سنة مؤكدة، فإذا قرأ المسلم أو استمع إلى آية فيها سجدة، فيُسَنُّ له أن يسجد سجدة واحدة للتلاوة. وقد روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: كان النبي ﷺ يقرأ علينا القرآن فإذا مر بالسجدة كبر وسجد وسجدنا معه[2]. ويشترط لصحة سجدة التلاوة ما يشترط لصحة الصلاة كاستقبال القبلة والطهارة.

وفي أثناء الصلاة إذا قرأ المصلي آية فيها سجدة، كبَّر وسجد سجدةً واحدة يقول في سجوده: (سبحان ربي الأعلى) ثلاثاً، ثم يكبر ويقف متابعاً صلاته. وإذا لم يكن في صلاة وقرأ آية فيها سجدة، كبَّر وسجد سجدة واحدة يقول فيها: (سبحان ربي الأعلى) ثلاثاً، ثم يرفع رأسه من السجود قائلاً: الله اكبر، ثم يجلس ويسلم عن اليمين وعن الشمال.

٩- تشير آيات المقطع إلى وجوب الوفاء بالعهد سواء أكانت عهوداً مع الله تعالى أم مع الناس. وأي تقصير في الوفاء به يعتبر إثماً كبيراً يستوجب المقت والغضب، وكل ما يقطعه الإنسان على نفسه من عهد فهو مسؤول عنه ومحاسب عليه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء: ٣٤] ولقد كان الوفاء خلق الأنبياء والرسل

(١) اختلف في سجدة الحج الثانية آية ٧٧، وفي سجدة ص آية ٢٤.

(٢) سنن أبي داوود، كتاب الصلاة، رقم ١٤١٣، باب الرجل الذي يسمع السجدة.

عليهم الصلاة والسلام. والوفاء بالعهد واجب كالوفاء بالعقد، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]. والصدق في احترام العهود والمواثيق واجب إسلامي، ودليل على كمال المروءة ومظهر من مظاهر العدالة، والوفاء به جزء من الإيمان ليس له إلا الجنة. ومن عهود المسلم المهمة عهده مع ربه، فالإيمان عهد بين العبد وربه يجب الوفاء به حسب منطوق آيات المقطع لقوله تعالى: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْ﴾ [الأنعام: ١٥].

ويشترط في العهود التي يجب احترامها والوفاء بها.

- ألاّ تخالف حكماً من الأحكام الشرعية المتفق عليها.

- أن تكون عن رضا واختيار.

- أن تكون واضحة لا لبس فيها ولا غموض.

يجب إتمام مدة العهد لمن حافظ عليه، وينقض عند ظهور الغدر والخيانة[1]، ودليله نقض النبي ﷺ لعهده مع قريش بسبب غدرهم، في السنة الثامنة للهجرة.

جماليات مشاهد المقطع السادس والأخير من سورة الرعد

ويمتد من الآية ٣٠ إلى الآية ٤٣

﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٣١ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ

(١) فقه السنة، السيد سابق: ٢/ ٧٠٠-٧٠١.



فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾

القراءات:

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر (وصدوا عن السبيل) بفتح الصاد، والباقون بضم الصاد وهي قراءة المصحف[1].

وقُرئ قوله تعالى (وسيعلم الكفار) بالجمع والإفراد: (وسيعلم الكافرون) (وسيعلم الذين كفروا)[2] الآية ٤٢.

يخبر الله تعالى في المقطع الأخير من سورة الرعد نبيه محمداً ﷺ أنك لست بدعاً من الرسل،

---

(١) الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، لأبي محمد مكي القيسي: ٢/ ٢٢.

(٢) المصدر السابق: ٢/ ٢٣، والبيان في إعراب القرآن، للعكبري: ٢/ ٧٦٠.

فقد أرسلنا قبلك رسلاً من آدم وحتى عيسى عليهم السلام إلى أقوامهم لتبليغ رسالات الله فدعوتكم جميعاً واحدة في توحيدها وعبوديتها لله عز وجل. وقد أنزلنا عليك القرآن لتتلوه على قومك وفيه خاتمة الشرائع السابقة، حيث لا شريعة بعدها ولا رسول بعد رسولها، شريعة طبعت بالعالمية وجعلت ديناً عالميا للناس أجمعين، تحررهم من العبودية لغير الله ومن الخرافات والتقاليد البالية ومن الجشع والظلم والأنانية والاستبداد، لتبني فيهم العزة والكرامة والحرية وتكسبهم روح الانضباط والمسؤولية والاستقامة على منهج الله، وتحقق لهم السعادة والطمأنينة والأمن لو عقلوها وأخذوا بما جاء فيها. بيد أنهم لم يفعلوا ذلك وتنكبوا طريقها تعنتاً وكفرا وأن قوماً ديدنهم الكفر لا بد أن تصيبهم قارعة من الله تهلكهم عبرة وعظة، من صاعقة أو قتل أو أسر أو قحط وغير ذلك من ألوان المصائب والابتلاءات، أو تحرير البيت الحرام من شرور أوثانهم بفتح قريب سيمن الله به على المؤمنين، ناهيك عن عذاب يوم القيامة للكفار والمشركين. وما مطلب صناديد قريش منك يا محمد رؤية آية كونية تحملهم على الإسلام بمستجاب لهم كطلبهم رؤية جبال مكة تتحرك أمامهم أو تفجر انهاراً فيها أو تسخر الريح لهم ليركبوها في أسفارهم، أو إحياء بعض موتاهم ليخاطبوهم عن العالم الآخر، محاكاة لمعجزات داوود وسليمان وعيسى عليهم السلام[1]*.

وقد غفل القوم أن مطلبهم ليس مما يلتمسونه بالقرآن، ولو أن كتابا إلهياً أعطي من المعجزات وقدر له بأمر ربه أن تسير به الجبال أو تقطع به الأرض أو يكلم به الموتى لكان القرآن الكريم، ولكن اقتضت مشيئته سبحانه وتعالى أن يكون إعجازه في لغته وتشريعه ونظمه

(١) * روي أن نفراً من مشركي قريش فيهم أبو جهل وعبد الله بن أمية، أرسلوا إلى رسول الله ﷺ فأتاهم فقالوا له أيسرك أن نتبع دعوتك، فسّير لنا جبال مكة بالقرآن واجعل لنا فيها عيوناً وانهاراً، وسخر لنا الريح فنركبها لتقضي حوائجنا التجارية إلى بلاد اليمن والشام، أو إن شئت فابعث بعض موتانا نكلمهم، وهذا أهون على ربك من معجزات داود وسليمان وعيسى، ولأجل هذه المناسبة نزلت الآية. للمزيد انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٣١٩، والكشاف، للزمخشري: ٢/ ٥٠٩. وأسباب النزول لأبي الحسن الواحدي النيسابوري: ص٢٠٦.

وبيان الحلال والحرام فيه.

وقد فاتهم أيضاً أن المعجزات لا تكون إلا بأمر الله ومراده ساعة يشاء من غير اشتراط على الله. وأنه سبحانه وتعالى لعلمه بباطنهم لو أراد هدايتهم لهداهم، ولكن شاءت حكمته أن يتركهم في إيمانهم لأنفسهم طواعية واختيار.

ثم تمضي الآيات في استفهام توبيخي لأجل مقارعة قريش بالحجة العقلية، حين زعموا بإلوهية بعض أصنامهم كاللات والعزة وهبل، لقوله تعالى: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ٣٣] بمعنى أتنبئون الله بباطن لا يعلمه وانتم تعلمونه حسب زعمكم وهو علام الغيوب، وتقطع الآيات أن الله عز وجل لا يعلم له شريكاً، لا في الخلق ولا في الألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة، وما هذا الإدعاء الباطل إلا نتيجة تقليدكم لآبائكم الأولين، وخضوعكم لخطوات الشيطان لعدم إعمال عقولكم، بسبب تزيين ما أنتم عليه من الكفر والمكر والاستهزاء، وآلهة صفاتها لا تجلب نفعاً ولا تدفع شراً ليست جديرة بالعبادة، والاشتغال بها إتعاب للبدن في غير فائدة، فاتقوا الله بالكف عنها فاعتبروا قبل فوات الأوان. وفي الآية ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [الرعد: ٣٢] نجد تسرية للنبي ﷺ لتثبيت قلبه في مواجهة تكذيب قومه له، وأخبرت أن الله عز وجل لا يخلف وعده في الكافرين، الذين استهزءوا بالذي أُنزل عليهم. وهذا ليس وقفاً عليك يا محمد بل هذه سيرة الكافرين مع أنبيائهم ورسلهم على امتداد تاريخ الرسالات السماوية، لأجل هذا فإن مصيرهم نار جهنم خالدين فيها أبداً، خلاف المؤمنين الذين استقاموا على الحق لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، لهم من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت وما خطر على بال بشر، فرحون بفوزهم العظيم هذا.

كما خصت الآيات اللاحقة خطاباً للنبي ﷺ: اعلم يا محمد أن الجاحدين برحمة الله فيما أنزل عليك من الوحي، وأنكروه عداوةً وعناداً، واستهزءوا في بعض ما نزل عليك من الوحي وأنكروا بعضه الآخر، من أهل قريش ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى، فأجبهم أن القول

الفصل في خاتمة أمرهم بيد الله، واني أمرت عبادة الله وحده لا أشرك به شيئا كمن سبقني من الأنبياء، فهو ناصري واليه مرجعي، ومحال أن أتوقف عن الدعوة لرسالة الإسلام، إلى أن يفصل الله بيننا بالحق فلكم دينكم الباطل الذي ارتضيتموه لأنفسكم منكراً من الاعتقاد وزوراً من القول، ولي الدين الحق، والخطاب هنا وإن كان خاصّاً بالنبي ﷺ فالعبرة فيه بعموم اللفظ إذ لا يجوز مهادنة أهل الكفر والشرك وممالأتهم أو التقرب إليهم على حساب الدين الحق. وفي هذا يقول صاحب الظلال: (الكلام الموجه للرسول ﷺ في الآية، أبلغ في تقرير حقيقة الدعوة للإسلام، إذ لا تسامح في الانحراف عن مبادئها حتى ولو كان من رسول الله وحاشاه عليه الصلاة والسلام)(١).

ويخبر الله تعالى في الآية السادسة والثلاثين أن نفراً من مؤمني أهل الكتاب، الذين ما زالوا على صحيح التوراة والإنجيل، فرحون بما جئناك به من الكتاب الحق، لموافقة ما ورد في كتبهم.

ثم يقول تعالى تسرية للنبي ﷺ: وكما أرسلناك في أمتك رسولاً تتلو عليهم قرآناً بلغتهم تبلغهم رسالة الله في أشرف الكتب السماوية، بأشرف اللغات على أفضل الرسل فوق أقدس بقاع الأرض، على خير أمة أخرجت للناس حال أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، فكمل من كل الوجوه ما شرفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الذي لا يأتيه الباطل ففيه الحكم القاطع للحلال والحرام في كل شيء من أمور الحياة ونظمها. ومع هذا فإن أغلب المشركين كافرون جاحدون به. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٨]. ثم تعقد الآيات اللاحقة مقارنة بين مصير الكفار الذين زين لهم مكرهم شراً بالمؤمنين الفائزين بالجنة. وهذا مكرور في سور القرآن الكريم، إذ كثيراً ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار، ليرغب في الأولى ويحذر من الثانية مع وجوب البراءة من أهلها وتحذير المؤمنين من اتباع أهواء أهلها ابتغاء مرضاتهم على حساب الدين، وفي هذا حكمة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٥/ ١٠١



الثبات على مبدأ الإسلام والصبر في الدعوة وعدم التعجل في النتائج، إذ لكل أمرٍ وقته وأجله وغاية المستعجلين فوته.

وتتابع آيات المقطع إلى أن تصل الآية الثامنة والثلاثين، فقد كشفت عن خبث اليهود وسوء طويتهم حين عابوا النبي محمد ﷺ وعيرته بالنساء بقولهم: ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء والنكاح، ولو كان نبيا لشغله أمر النبوة عن ذلك[1]، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد: ٣٨]. ففي الآية تذكير على وجه الخصوص لنبي الله داوود وسليمان عليهما السلام لكثرة ما كان عندهما من النساء والأولاد. والآية في معناها العام أن الله عز وجل قد أرسل رسلاً بشراً، يقضون ما أحل الله من شهوات الدنيا وخصهم بالنساء والأولاد كغيرهم من البشر وهذا موافق للفطرة البشرية.

وإنما التخصيص في الوحي القائم على تبليغ الشريعة الربانية، وتبين معاني ما أنزل لأجل هداية الناس إلى كل خير، وتربيتهم على منهج الشريعة الربانية وتأديبهم بآدابها بالحكمة والموعظة الحسنة، بحيث لو ترك الناس لأهوائهم لظلوا في الضلالات يتيهون بسبب اندفاعهم وراء غرائزهم وشهواتهم. ثم يرد قوله تعالى في الآية التاسعة والثلاثين: ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الرعد: ٣٩] إذ تفيد الآية الكريمة أن الله قادر على أن يغير كل شيء من حال لأخر، كأن يجعل الغني فقيراً والفقير غنياً، والسليم عليلاً والعليل سليماً، ويغفر أو يعذب، ويقبل توبة هذا ولا يقبل توبة الآخر، ويمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء فبيده ملكوت كل شيء ويمحو الحياة بالموت، ويمحو السيئات لمن يشاء، ويمحو الليل بالنهار والنهار بالليل والشمس بالقمر والقمر بالشمس، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء: ١٢] ويمحو ما يشاء من الشرائع ويثبت ما يشاء منها ويمحو ما يشاء من الأقوام والأجيال ويثبت ما يشاء منها، ويمحو الدنيا ويثبت الآخرة، كل ذلك في أم الكتاب مدون في اللوح المحفوظ.

---

(١) الجامع لإحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٣٢٧



ومما يقتضي الإشارة إليه: (أن ما في علمه سبحانه وتعالى من تقدير الأشياء لا يبدل فلا راد لحكمه، والذي في علم الله ثابت لا تبديل له، ولا تبديل لقضاء الله، وأن من القضاء ما يكون واقعاً محتوماً وهو الثابت، ومنه ما يكون مصروفاً بأسباب وهو المحو)[١].

و أخيراً يعود الخطاب في الآية الأربعين إلى النبي ﷺ، فتوجه الأنظار إلى حتمية مصير الكافرين تسرية للنبي ﷺ، فتوضح لئن أريناك يا محمد بعض مشاهد عذاب الماضين الذين كذبوا رسلهم، وبعض ما وعدنا قومك من العذاب كالأسر والقتل والسبي والقهر ونحوه فقد نتوفينك قبل أن نريك مصير الكافرين، فلا تبتئس فليس عليك إلا التبليغ وعلينا الجزاء والعقوبة، وفي هذا درس للدعاة عدم تعجل النتائج.

ثم تنعطف الآيات بعد ذلك في تخصيص الخطاب لأهل مكة من باب العظة والاعتبار فتشير ألم يروا أننا قادرون على كل شيء من خراب الأرض وذهاب بركاتها وثمارها، وقبض أهلها في بطنها بسبب جورهم وظلمهم وكفرهم وعنادهم ومكرهم، والله عزيز ذو انتقام الواحد الأحد، لا راد لحكمه في مراده للأمور، بالرد والإبطال، في نقص أو تغيير أو رفض أو تذمر أو تبديل. وقيل في رواية أخرى أن المراد في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾ [الرعد: ٤١]. أن الله تعالى قد وعد المسلمين بحسن العاقبة بما يمن عليهم من تناقص أرض الكفر وزيادة أرض الإسلام بالنصرة والظفر، ففي الآية حكم للإسلام بالغلبة والإقبال وعلى ديار الكفر بالإدبار والانتكاس ما داموا على طاعة الله[٢].

وهناك تفسير علمي معاصر للآية الكريمة سنورده في الدروس والعبر المستفادة من المقطع.

---

(١) الجامع لإحكام القرآن، للقرطبي: ٩/ ٣٣٢.
(٢) الكشاف ،للزمخشري.٥١٤ / ٢ :

وبمناسبة قوله تعالى في الآية الثانية والأربعين ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ ما يفيد أن مكر أهل الكفر لا يضر أحداً من المؤمنين إلا بإذنه تعالى، والله سيجازيهم بعذاب جهنم يوم القيامة على كفرهم ومكرهم عدا ما قد يصيبهم من مصائب وابتلاءات الدنيا. وأن سنن الله لا تتغير ولا تتبدل، وهي ماضية في الآخرين كما كانت في الأولين، والقرآن حين يتحدث عن الأمم الماضية وما حل بها من الهلاك والبوار، أنما مقصوده الإنذار والتحذير والتهديد والوعيد، وأخذ العبرة من هلاك الأمم السابقة وتجنب الأسباب التي أوجبته، ومن شواهد مكر الكافرين في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١﴾ [النمل: ٥١-٥٠] ويعضده قوله تعالى حين تآمر المشركين في قتل محمد ﷺ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠] فكانت النتيجة نجاة محمد ﷺ وفتح مكة وهزيمة المشركين وإسلام كثير منهم وتلك حكمة العليم الحكيم. وتفيد كلمة المكر في القرآن الكريم معنى الخسة والنذالة وخوارم المروءة بالنسبة للبشر، وحسن التدبير والتقدير والعدل إذا اقترنت باسم الله عز وجل.

واختتمت السورة بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ ۝٤٣﴾ [الرعد: ٤٣]. إذ تفيد الآية الكريمة نفي أهل مكة النبوة والرسالة عن النبي ﷺ، وزعمهم انه متقول ليس بنبي ولا رسول لبشريته وآدميته فيهم، فهو مثلهم في الخلق يأكل ويشرب ويتزوج ويمشي في الأسواق. ونسوا أن الرسل قبله بشر مثله ذوي أزواج وذرية، وما كان أن يأتوا بآيات برأيهم، ولا يأتون بما يقترح عليهم من ذوات أنفسهم إلا بإذن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

وهنا يعلق الإمام **الفخر الرازي** على شبهات المشركين في إبطال نبوة الرسول ﷺ فيقول: طعنوا في نبوته ﷺ بسبب جدالهم في إنكار البعث وإبطال الحشر والنشر، ثم طعنوا في صحة ما ينذرهم به من نزول عذاب الاستئصال، ثم طعنوا في نبوته بأن طلبوا منه المعجزة والبينة،

كما أنكروا كون القرآن من جنس المعجزات، ولإبطال نبوته بالكلية تساءلوا منكراً من القول: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٨].

وقالوا في شبهة أخرى: لا بد للرسول أن يكون من جنس الملائكة، ولا يجوز أن يكون له ذرية أو زوجات، وهذا من مرذول الشبهات[1].

وتناولت الآية أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أجبهم يا محمد أن حسبي الله الشاهد على صدق ما دعوتكم إليه فيما أبلغتكم من رسالة ربي، وهو شاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان، وكفى صدق ما دعوتكم إليه، إيمان بعض أهل الكتاب بما نزل علي من رب العالمين تصديقاً لما ورد في كتبهم من البشارة به. وحسبي أنكم تلتمسون منهم بعض أنباء الماضين ورسلهم وقصصهم الوارد ذكرهم في القرآن الكريم. وعليه فأنتم بكفركم لستم بأهل للحكم على هذه الرسالة، وأنتم تعلمون أن العاقبة للمتقين فيها وليس لكم: والأجدر بكم تأدباً في حق الله واعترافاً بالعبودية له، أن تؤمنوا بما أنزل عليكم، فإن لم تفعلوا فلا تستعجلوا العذاب فإن كل ما هو آتٍ قريب ولا تغتروا بإمهالكم فلكم أسوة فيمن قبلكم، فمن اختار الكفر ودلائل الإيمان حاضرة أمامه أخذه الله بالهلاك أخذ عزيز مقتدر.

الدروس والعبر والهدايات المستنبطة التي ترشد إليها آيات المقطع الأخير من سورة الرعد

١ - أن الله تعالى لا يأذن بالمعجزات إلا في وقتها الذي قدره وقضاه، وليس استعجال الكفار بالآيات أو العذاب موجباً لأن يقدم الله عز وجل ما أخره، مع أنه تعالى فعال لما يريد فهو الذي يدبر الأمور بحسب أرادته وعلمه، وما منع الله عز وجل من إرسال الآيات التي اقترحها كفار مكة إلا أن يكذبوا بها فيهلكوا كما فعل بمن كان قبلهم، فأخر الله سبحانه وتعالى العذاب عن كفار قريش، رغم عنادهم واستعجالهم بها، لعلمه عز وجل

(١) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ٧/ ١٢ و٤٩.



أنه سيخرج من أصلابهم ما تقوم دعوة الإسلام على يديه، فتنقلب أحوالهم من الكفر إلى الإيمان خلاف ما وقع في الرسالات السابقة وأن في ذلك لآية.

٢ - لقد تكرر مرتين في المقطع الأخير الاستشهاد بالمؤمنين من أهل الكتاب على صدق رسالة الإسلام، بما لهم من دالة سابق المعرفة بهذه الرسالة، ولما ورد في كتبهم من البشارة في صفات خاتم الأنبياء والمرسلين والعقل يقتضي أن كل أمرٍ إنما يستشهد منه بأهله، الأعلم به من غيرهم، بخلاف المنكر له عناداً وتعنتاً عنه كالأميين من مشركي العرب وغيرهم فلا فائدة في استشهادهم لعدم خبرتهم ومعرفتهم في رسالات الله السابقة[1]، الذين تخيلوا أباطيل ظنوها حقاً، كانت سبب كفرهم.

٣ - من تمام الحكمة الربانية أن يبعث الله تعالى إلى البشر رسولاً منهم، وصفة البشرية في رسل الله هي من كمال الحكمة ليكونوا حجة عليهم فيهم جميع طبائع البشر وغرائزهم. وإذا تعجب أهل الكفر ببشرية الرسل فتعجبهم هو الذي يستدعي العجب!. هب لو جاء الرسول من الملائكة مثلاً، فلا بد أن يأتي على صورة بشرية حتى يستطيعوا مشاهدته والتحدث إليه بما يتناسب ومستوى إدراكهم ومشاعرهم وفهمهم، وفي كلا الأمرين لا بد من دعوتهم للإيمان من رسول على هيئه بشرية. ولو أعملوا العقل لتبين لهم أن بشرية الرسول خيراً لهم وأكثر أُنساً لنفوسهم. يجوز عليه ما يجوز على الناس من الأكل والشرب والذرية والنوم والموت وهذا أدعى في التأثير والقبول لطول الرؤية والملازمة له والسؤال عن كل جديد طارئ.

وبشرية الرسول هي اصطفاء من الله بالوحي مبلغ عنه أحكام شريعته، مطاع بإذن الله مصدق من ربه بمعجزة مقرونة بالتحدي. كما أن سابق سيرته في قومه تدل على مصداقيته في الرسالة، أليس من مظاهر استدلال صدق النبوة حسن سيرة النبي في قومه؟ فلم العجب في بشريته!.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن السعدي، ص٣٩٦.

٤ - اقتضت مشيئة الله عز وجل أن ميز الإنسان بالعقل، وبقراءة تأملية بالرسالات السماوية فإنك تجزم ليس هناك رسالة كرمت العقل والفكر وأشادت بأولي الألباب والنهي ودعت إلى النظر والتفكير وحرضت على التعقل والتدبر كالإسلام مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤] ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٣] ﴿ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤] ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٩] ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴾ [الروم: ٨] ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا ﴾ [الأعراف: ١٨٥] ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ ﴾ [الغاشية: ١٧] وبهذا الصدد يعلق د.يوسف القرضاوي (وقد اعتبر العلماء أن العقل مناط التكليف ومحور الثواب والعقاب، وهو أساس النقل الذي يثبت صدق الوحي والنبوة)[1]. وفي موضع آخر نراه يقول: (ومن هنا قرر المحققون من العلماء: أن إيمان المقلد المطلق غير مقبول، لأنه لم يؤسس على برهان، ولم يقم على حجة بينة، بل على تقليد محض)[2]، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وتأسيساً على ذلك فإن القرآن يطالب كل ذي دعوة بإقامة البرهان على دعواه، مصداقاً لقوله تعالى في زعم المشركين شركاء الله عز وجل في الألوهية ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل: ٦٤] فالعقائد لا بد أن تؤسس على البراهين اليقينية، لا على الظنون والأوهام ولهذا عاب الله المشركين حين أنكروا البعث بقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية/ ٢٤] ولا عجب أن نرى أن العلم في الإسلام إنما هو علم في حضانة الإيمان، فالعلاقة بينهما علاقة وئام وانسجام لا تنافر وتقاطع يسيران جنباً إلى جنب، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١] (ومن فضل العلم القائم على الإيمان انه يثمر اليقين الذي به حياة القلب وطمأنينته)[3].

---

(١) الحياة الربانية والعلم، د. يوسف القرضاوي: ص٧٦

(٢) المرجع السابق: ص ٧٢.

(٣) المرجع السابق: ص ٩٨.

وعلى خلفية هذا يحرم على المسلم أن يعطل ما وهبه الله من السمع والبصر والفؤاد في تحصيل المعرفة، فقد نهى الله عز وجل عن القول بلا عمل ولا علم ولا نظر بتدبر وتعقل، ونهى عن سمع الأوهام والظنون والأباطيل والخزافات، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٦]. كما نهى عن المحاكاة والتقليد وحث على الإبداع والابتكار والتجديد.

وبقراءة موضوعية تحليلية حول منزلة العقل ومكانة العلم في المعرفة، على ضوء ما اشتملت عليه سورة الرعد من الآيات الكونية، وقضايا الغيب والعلم نقول: إن العقل على عظيم منزلته مقيد بعلم الحس لا عمل له في الحكم على عالم الغيب، فعالم الغيب لا تستطيع عقولنا أن تحكم على شيء فيه استقلالاً ذاتياً، إلا أن يأتيها خبر يشهد العقل بوجوده ولا يتأتى ذلك إلا بالوحي. وإن كل ما زعم به الفلاسفة على امتداد التاريخ، أنهم فسروا أسرار الحياة وعالم الغيب إنما هي ظنون وأوهام، لمحدودية العقل في استيعاب الحس فكيف به أن يحيط علماً ومعرفة بعالم الغيب ،فكما للنظر حد ينتهي إليه فإن للعقل حداً ينتهي إليه كذلك.

فإذا كان العقل عاجزاً عن فهم أشياء الكون من حوله، فهو عن إدراك حقيقة الغيب أضعف وأعجز مما يوجب التسليم عقلاً وإيماناً بعالم الغيب وأسرار الكون الربانية.

وفي هذا رد على المشركين قديماً الذين أنكروا البعث، وفيه رد على ملاحدة العصر ممن يظنون توهماً أن العلم قادر على مشاركة الله في الخلق، كالزاعمين أن بمقدور العلم من خلال التعامل مع الـD.N.A (الحامض النووي الرايبوزي منقوص الأكسجين) الذي يحمل الشيفرة الوراثية للإنسان، استنساخ بشر محاكاة لخلق الله، علماً أن أهل العلم عاجزون بالكلية عن خلق جناح بعوضة من ذوات أنفسهم. وأن استنساخ البشر إن أقدم العلماء عليه يوماً وكتب لهم النجاح فيه، فما تم إلا بإرادة الله وقدرته، فجوهر الـ D.N.A من خلق الله وليس من خلق البشر، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الرعد: ٨]. وإن تعجب من ملاحدة اليوم في مزاعمهم

هذه فعجبهم ليس بأقل من عجب أهل الجاهلية الأولى حين أنكروا البعث، وقالوا من باب الغرابة والاندهاش: ﴿ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [الرعد: ٥].

ونستخلص مما سبق: (أن الوحي هو الطريق الوحيد الذي يعرفنا على كل ما يتصل بمسائل الغيب)[1]. ولا يصح قياس هذا العالم بالعالم السماوي لتغايرهما في كل شيء، وقد قسم القرآن الكريم العالم بالنسبة للمخلوقات إلى قسمين هما:

(عالم الغيب وعالم الشهادة)[2]، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحشر: ٢٢]. وقوله تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾ [الرعد: ٩]. فعالم الغيب ما تفرد الله به، واستأثره بعلمه كالروح ويوم القيامة وساعة الموت وغيره، أما عالم الشهادة فهو عالم الإيمان القائم على إشهاد الخلق بأن الله تعالى خلق الكون وما فيه من آيات تدل على قدرته سبحانه وعظيم صنعه، لهذا ورد تكرار الظواهر الكونية الواردة في سورة الرعد للدلالة على وجود الله ، فالعقل يدرك وجود الله تعالى بالتأمل في الكون، ويدرك حاجة الناس إلى الرسول، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾[النساء: ١٦٥] كما يدرك العقل أن القرآن الكريم هو خاتمة الكتب السماوية، ويدرك مسؤولية الإنسان عن أعماله ومحاسبة الإنسان على هذه الأعمال واجبة يوم القيامة.

كما يمكن تأويل عالم الشهادة في قراءة ثانية: كل ما يستطيع العلم أن يصل إليه ويجسده إلى واقع ملموس في حياة الإنسان للانتفاع به بعد أن كانت غائبة عنه دهوراً طويلة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨] وقوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤].

(١) المرجع السابق: ص٧٣.

(٢) العقيدة الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن الميداني: ص٢٧.

ومن شواهده معرفة بعض نواميس الكون وقوانينه كالجاذبية ونزول المطر ومعرفة جنس الجنين بعد شهره الرابع أو الخامس ومعرفة تكون الرياح والأعاصير والزوابع واستمطار السحب الصناعية ونحو ذلك.

فعالم الشهادة هو من نتاج استخلاف الله للإنسان على الأرض، ودور العلماء فيه واضح تمام الوضوح، عن طريق العلم الذي يوصل إلى الإيمان بالله وبكل عقائد الإسلام ومبادئه.

ومما يقتضي التنويه إليه هنا (أن ثمة أشياء قد تكون من عالم الشهادة الغيبي المقيد بالنسبة لمخلوقات أخرى كالجن مثلاً)[1]. وبهذا الصدد يعلق الشيخ محمد متولي الشعراوي في كتابه الفتاوى ص٣٤٦: (الغيب نوعان: الغيب المطلق والغيب المقيد)، فالغيب المطلق لا يعلمه إلا الله عز وجل، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

أما الغيب المقيد وهو ما يعلمه بعض الناس ويجهله البعض الآخر، كمعرفة المعلم رسوب الطالب غير المجتهد قبل الامتحان.

وجاء في فتاوى الشيخ محمود شلتوت: (الغيب ثلاثة أنواع هي الغيب الحاضر والغيب الماضي وغيب المستقبل. أما الغيب الحاضر فهو غيب مكاني بمعنى أن تقع الحادثة في مكان بعيد ويعلمها المنجم بعد وقوعها بقليل، والغيب الماضي وهو الغيب الذي وقع في الماضي. وهذان الغيبان يمكن للإنسان معرفتهما عن طريق الجن، أما غيب المستقبل فهو الغيب الذي لم يحدث، وقد اختصه الله سبحانه وتعالى بعلمه)[2].

٥- تقرر الآية الثامنة والثلاثون ترغيب النكاح والنهي عن التبتل، وتحض على طلب الذرية،

---

(١) المرجع السابق: ص٢٩.

(٢) الفتاوى، الشيخ محمود شلتوت: ص٢٨.



وهذه سنة المرسلين حسب منطوق الآية[١]، وحكمة النكاح في الإسلام هي:

-تحقيق السكينة والمودة والرحمة والعفة بين الزوجين.

-الحفاظ على النسل الطيب وصيانة الأنساب من الاختلاط.

-المشاركة في التربية السوية للأبناء.

-قضاء الرغبة الجنسية بشكل مشروع.

-إقرار تبادل الحقوق والواجبات لكلا الزوجين.

والزواج سنة مؤكدة من سنن الرسول ﷺ، فقد تزوج ﷺ النساء، ونعى أولئك المتشددين الذين أرادوا أن يترهبنوا، وينقطعوا للعبادة فلا يتزوجون ظناً منهم أن الزواج مجرد متعة جسدية تلهيهم عن عبادة الله تعالى، ولم يتنبهوا إلى أن الإقدام عليه عبادة، ففيه العفة وغض البصر، وفي الحديث (فمن رغب عن سنتي فليس مني)[٢].

٦- من الدروس التربوية في توجيه خطاب الله عز وجل إلى نبيه ﷺ ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم ﴾ تأكيد على أهمية الدعوة والثبات عليها. فالخطاب وإن كان في صورته موجهاً للنبي ﷺ، إلا أنه في الحقيقة تعليم للأمة وإرشاداً لها لتسلك طريق التقوى وتعمل بهدي القرآن، لأجل تربيتهم على منهج الشريعة الربانية وتأديبهم بآدابها بالحكمة والموعظة الحسنة. وأن النبي ﷺ مع اصطفائه وعلو منزلته وعصمته قابل للتحذير، فكيف من نزلت فيهم الرسالة.

وهذا التوجيه الحاسم بما فيه من التحذير جاء مع عظيم منزلة الامتنان بعصمته تحذيراً له ﷺ وحاشاه من أي نقص أو خلل في الدعوة، ليكون الدعاة أسوة في الصبر وتحمل مشاق الدعوة من غير مداهنة ولا مهادنة لأحد في أمور العقيدة، فالجهر بالدعوة من أول

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٩/ ٣٢٧.

(٢) فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ٩/ ١٠٤، حديث رقم ٥٠٦٣ كتاب الترغيب في النكاح. للمزيد حول الترغيب في النكاح انظر: إحياء علوم الدين، للغزالي: ٢/ ٣٠، كتاب آداب النكاح.

مراتب الجهاد فلا ألوهية ولا ربوبية ولا خضوع إلا لله عز وجل، وإن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ويعقلون ويتدبرون ويبصرون، فإن فعل الدعاة هذا كانوا أسوة برسول الله ﷺ في الصدع بقول الحق، ويستفاد من حكمة هذه الآية في سياقها الذي ذكرت فيه:

وجوب التصريح بالوعيد والتحذير بحق الدعاة الذين قد يخرجون عن قواعد الدعوة لله، طمعاً في أسباب دنيوية.

فالعقيدة ليست من الأمور التي يجوز فيها المجاملة لأحدٍ أيّاً كانت مكانته. وليس أدل على ذلك من فقهاء السلاطين ومن دار في فلكهم، لتغليبهم الغرض الدنيوي والمصلحة الشخصية في دعوتهم، إما التماساً للرزق في غير موضعه، أو خوفاً من بطشهم أو حفاظاً على مناصبهم وما تحقق لهم من امتيازات، وهم في غفلة مما يراد بهم من إصدار فتاوٍ يُشتم منها رائحة المنفعة يشرعون للسلاطين من الأحكام ما لم يأذن به الله، يصرفونها كيفما شاءوا وأينما شاءوا ومتى شاءوا، ولو التمسوا أمانة الدعوة لوجدوها أمام أعينهم.

٧- المناداة بعدم الزج في القرآن الكريم في كل قضية علمية تستجد، وعدم تأويل الآية الكونية فوق ما تحتمل، مع إقرار التسليم بتفسيرها علمياً حال موافقتها للمنهج البحثي السليم وخروجها من إطار الفرضية إلى المسلمات، ومن شواهد ذلك قول الله عز وجل ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ [الرعد: ٤١]. كان للمفسرين قديماً في تأويلهم للآية مذاهب متعددة من الاجتهادات، إلى أن انتهى تفسيرها اليوم بصورة مغايرة لكل التفسيرات القديمة، فالآية تتضمن حقائق علمية سلمت بها البحوث العلمية الأخيرة، إذ ثبت أن سرعة دوران الأرض حول محورها وقوة طردها المركزي يؤديان إلى تفلطح في القطبين ونقص في طرفي الأرض وانبعاج عند خط الاستواء[١].

(١) المنتخب في تفسير القرآن الكريم: ص٣٦١.

الخاتمة

إن التفكر في سورة الرعد وتدبر آياتها، يكشف لنا تآزر مقاطعها الستة، في ربط وثيق عميق محكم، تبدَّى في تشابك نسيجها بشكل رائع متلاحم، في خيوط النظم والأسلوب والشكل والجوهر والمحور، فبدت وحدة متجانسة في وشائج ترابطها، فكل مقطع يشد عضده بالمقطع الآخر حتى نهاية السورة، وليس هذا فحسب بل كل آية تتكامل مع الآيات التي تليها في المقطع ذاته والمقاطع الأخرى، مهما بدا ظاهرها من تعدد مقاطعها وتشعيب قضاياها، فزاد السورة حسناً في عرض محورها الذي يقرر إفراد الله عز وجل بالألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة، ومما يرصده القارئ الفهيم عند إعمال العقل في آياتها، أنه ما انفك ينتقل من محطة لأخرى في أمور العقيدة وآيات الله في الكون والقضاء والقدر، وإثبات نبوة محمد ﷺ أمام استهزاء المشركين، وحكمة ابتلاء الإنسان في حياته (ابتلاء صبر أو ابتلاء شكر أو ابتلاء نعمة أو ابتلاء تطهير ورفع درجات أو ابتلاء نقمة)[1]*.

كما كشفت السورة عدداً من صفات الله عز وجل فهو القادر على كل شيء وبيده تدبير الكون، المحيي والمميت، الغفور الرحيم، لمن تاب وعمل صالحا ثم اهتدى، المعز المذل، شديد العقاب، وهذا بالكلية في منزلة الترغيب للمؤمنين والترهيب بالوعيد والإنذار للكاذبين لعلهم يهتدون وينأون بأنفسهم عن حماقة الملأ من أهل مكة كأبي جهل وأبي لهب وعقبة بن أبي معيط وأمية بن خلف وغيرهم.

وأفادت آيات المقاطع أن بداهة العقل تحكم أن القرآن الكريم حكم على الكتب السماوية السابقة، فليس للمؤمنين تحت رايته أن يكونوا مغلوبين على أمرهم، فهو المعز لأوليائه المذل لأعدائه، فمن يلجأ إلى الله تعالى في كافة أموره، يجد في كنف معيته الرحمة والرعاية والعناية والعلم والصبر والعصمة من ضلالات الجهالة والظلام، مما ينير للمؤمن ظلمات حياته فتصغر

---

(١) * للمزيد حول الرضا بالمصائب أنظر: الفتاوى الكبرى ،لابن تيمية :١/ ١٩٤.

أمامه الأهوال والمصائب، وهذه واحدة من وجوه الحكمة التي برزت في السورة.

ومن لطائف الاستدلال القرآني التي زخرت فيها السورة مناقشة منكري البعث، فأبانت لهم أن الله عز وجل قد بين في غير موضع من القرآن، أن إعادة الخلق أهون عليه من ابتدائه، ثم صرفهم إلى النظر في أنفسهم، وفي مظاهر قدرته في الكون، ولقد توقفت السورة عند ذكر الأرض وبعض الظواهر الطبيعية كالسحاب الثقال والبرق والرعد والعواصف ونحو ذلك.

لحكمة أرادها الله عز وجل، فقد كشفت الآيات أن الله عز وجل قد شاءت حكمته أن جعل الأرض موطناً لذرية آدم يخلف بعضهم بعضاً وحملهم أمانة المسؤولية عليها، وسخر كل شيء فيها لخدمته، وهيأ له من أسباب الحياة على أكمل وجه، وقدر له من الأرزاق ما يفي بحاجته وحاجة الكائنات الحية الأخرى، وأنزل من السماء ماءً عذباً فراتاً طهوراً أحيا به الكائنات الحية، وكل هذه النعم وغيرها مما لا يعد ولا يحصى، يجري وفق نواميس الله في الكون، وهي ما تعارف عليها العلماء في قوانين توازن الكون .

فبرز الخلق في السورة ناطقاً حياً بسلطان الله في الوحي والرسالة والتوحيد ومشاهد يوم القيامة والجنة والنار، والتمكين لأهل الأرض من المؤمنين والإهلاك للكافرين.

ثم برزت السورة في لمسات وجدانية عقلية، صورت تصويراً دقيقاً ثبات رسول الله ﷺ في الدعوة، في وقت اشتد فيه الإعراض والتكذيب والتحدي وطلب الخوارق من كفار مكة.

وتعاضدت مقاطع السورة في إبراز منزلة القرآن وعظمة الله عز وجل في سعة ملكه وسلطانه، وتكرر ذلك في أكثر من موضع من السورة.

وورد فيها طائفة من الدروس التربوية والعبر، هدفت إلى تعميق الإيمان وتقويم الأخلاق وتزكية النفوس وتهذيب الطباع وإعمال العقل في التدبير والتفكر، وهذا من أمهات المقاصد التي يدعو إليها القرآن الكريم وأسماها.

وبدأت السورة في إثبات الرسالة وختمت بإنكار الكفار والمشركين لها، وانفردت بتكرار

تسرية رسول الله ﷺ، وتعزيته عن تكذيب المشركين له ونعيهم على سلوكهم هذا.

ولقد توقفت السورة عند ذكر المقاصد التالية بالتفصيل تارةً والاعتدال تارةً أخرى وبالإشارة الخاطفة عند بعضها:

١ - التأكيد على مكانة القرآن الكريم، حيث اقتضت مشيئة الله عز وجل أن تكون معجزة الإسلام فيه. فإن لهذا الكتاب عطاءً متجدداً في كل عصر، يتجلى لكل جيل بمعجزة عقلية لم يقف عليها السابقون، فالتحدي به قائم إلى قيام الساعة، وهذا أوضح برهان ومصداقية على عالميته، وإن في تفسير بعض آياته الكونية علمياً معين لا ينضب في أساليب الدعوة، فالقرآن لا يخالف علماً ثبت بالبرهان القطعي ثبوتاً لا يحتمل الشك والارتياب وبات من المسلمات.

٢ - لقد حث القران الكريم على وجوب التأمل والتفكر في خلق الله للكون، فأثنى على أولئك الذين ينظرون فيعتبرون، وذم أولئك الذين تعمى بصائرهم عن التأمل، فيمرون على آيات الله في الكون غافلين، فالقرآن الكريم وإن كان كتاب هداية وتشريع، إلا انه يلفت العقل إلى اعتماد المنهج العلمي البحثي السليم في أمور الحياة من الذرة إلى المجرة[1] مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [يونس: ١٠١] فقد انتظم فيه نيف وسبعمائة آية كونية، تناولت العلوم المختلفة، و سورة الرعد شاهد على ذلك، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ ﴾ [الأنعام: ٣٨].

٣ - قررت الآيات أن للمعرفة قنوات ثلاثاً هي الوحي ثم العقل ثم الحواس، والأولى أصدقها ومهيمنة على ما عداها و خاصة في أمور الغيب المطلق.

---

(١) الظواهر الفلكية والجغرافية في القرآن الكريم والعلم الحديث، د. عطية محمد عطية: ص٣٤. للمزيد حول مكانة التفكر والتفكير، انظر : إحياء علوم الدين، للغزالي، كتاب التفكر ٤/ ٥٣٢-٥٤.

كما أكدت آيات سورة الرعد أن التفكر في الكون فريضة إسلامية هي أساس الإيمان بالله، ومن أغفل عقله و حواسه في النظر إلى صفة الكون بالتدبر والتفكر، كان مشاركاً للأنعام في تقليب الحدقة من غير إعمال للعقل، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

٤ – الكون في منظور سورة الرعد، شأن القرآن الكريم في سوره كافة، يشمل المادة والزمان والمكان والسموات السبع، وما يندرج في السماء الأولى من المجرات والمجموعات الشمسية والكواكب المختلفة والأقمار، وغير ذلك من الظواهر الطبيعية الحية وغير الحية على كوكب الأرض، وقد ورد تخصيص الأرض والقمر بالذكر في السورة لبيان أهميتهما في حياة الكائنات الحية، وخاصة الإنسان الذي حمل مسؤولية الأمانة على الأرض، فكان ظلوماً جهولاً في تلويث البيئة وتدميرها على غير مراد الله منه في الاستخلاف.

٥ – أكدت سورة الرعد أن الرسول ﷺ شاهد على أمته في تبليغ الرسالة و نصح الأمة وأداء الأمانة، والناس جميعاً على قدم المساواة بين يدي دعوته، لهذا كان الجزاء أثراً من آثار صفة العدل الإلهي بين الخلائق يوم القيامة.

٦ – تقرر آيات المقاطع الحاكمية لله في كل شيء والسيادة لشريعة الإسلام، فالله المحلل والمحرم، ويحرم علينا أن نتحاكم إلى غير شرع الله، ولا يجوز لنا أن نتصرف في شيء على غير مراد الله في أمور حياتنا كلها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤] ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥] ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧].

٧- تعد سورة الرعد من عيون سور القرآن الكريم التي زاوجت بين الدعوة إلى الله والعلم والإيمان، وهذا من تمام الحكمة الربانية في الدعوة لتكون حجة على الناس بما يتناسب وفهمهم، ليؤسس الإيمان على برهان يقيني، يكون داعماً لمحور السورة في إفراد العبودية

والألوهية والوحدانية المطلقة لله عز وجل، وهذا أساس دعوة القرآن الكريم في تحقيق الربط الإيماني بالعلم الذي يعمل بنور الله، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [النساء: ١٧٤] فالعلم الرباني نور يكشف للبشر قوانين وأسرار الكون، الذي لا تنقضي عجائبه ولا تنفذُ أسراره، حتى يتأكد للناس أن خالق هذا الكون هو منزل القرآن الكريم.

ومطلوب من المسلم أن يتدبر كتاب الله لأجل الهداية أولاً ثم كمفتاح للسبق في كل جديد، ليتمكن من تصنيف الآيات الكونية في القرآن الكريم حسب الاختصاصات الدقيقة التي تناولَتها، وصولاً إلى تأسيس مكتبة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، فيعطي لكل جيل شيئاً جديداً لم يعطه للجيل الذي سبقه.

٨- تقرر آيات سورة الرعد أن الناس في إيمانهم صنفان، صنف يقوم إيمانه على الفطرة التي جُبل عليها كإيمان العجائز، وصنف آخر يؤسس إيمانه على قاعدة من إعمال العقل، لمعرفة سنن الله في الكون ليزداد إيماناً على إيمانه، فالناس في عقولهم متفاوتون، فمنهم من يطلب الحق لذاته، ومنهم الجدلي المتفلسف الذي ينشد جوهر الحقيقة بالعقل، ومنهم العاصي الذي ينشد الشك في طرحه، وعليه فقد جعل الله تعالى لكل صنف من هؤلاء نوعاً من الخطاب الذي يناسب عقله، فكانت سورة الرعد خير مثال لذلك.

الفهرس

السـورة	الصفحة
الأعراف	١
الأنفال	١٣١
التوبة	١٧٨
يونس	٣٠٣
هود	٤٤٥
يوسف	٥٠٣
الرعد	٥٦٣



Tel. (9716) 5 321 321 Fax (9716) 5 323 323
P.O.Box 598, Sharjah - U.A.E.
E-mail: almarifpress@yahoo.com


جامعة الشارقة
UNIVERSITY OF SHARJAH
1997